المركز القومى للترجمة

إيتالو زفيڤو

وعى دزينو

ترجمة: مروة عبد المنعم عبد الرءوف

مراجعة: سوزان بديع إسكندر

المشروع القومى للترجمة









وعیدزینو

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1661
- وعى دزينو
- إيتالو زفيفو
- مروة عبد المنعم عبد الرءوف
- سوزان بديع إسكندر
- الطبعة الأولى 2010

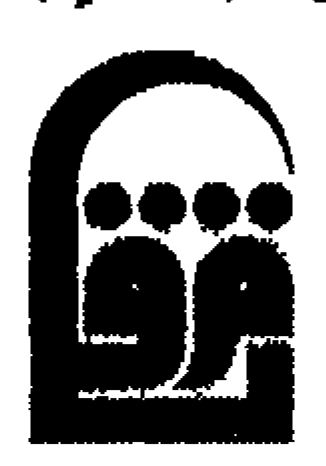
هذه ترجمة رواية:

La Coscienza di Zeno

Italo Saevo

Questa opera e' stata pubblicata con il contributo del Ministero degli Affari Esteri Italiano.

تم نشر هذا العمل بمساهمة من وزارة الخارجية الإيطالية





شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ـ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira. Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

وعى دزينو

تأليف: إيتالو زڤيڤو
ترجمة: مروة عبد المنعم عبد الرءوف
مراجعة: سوزان بديع إسكندر



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زڤيڤو، إيتالو
وعى دزينو؛ تأليف: إيتالو زڤيڤو؛ ترجمة: مروة عبد المنعم عبد الرؤوف؛
مراجعة: سوزان بديع إسكندر
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٦٤٤ ص؛ ٢٠ سم
١- القصص الإيطالية.
(أ) عبد الرؤوف، مروة عبد المنعم (مترجم)
(ب) إسكندر، سوزان بديع (مراجع)
(جـ) العنوان ٨٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٦٦٧٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-704-258-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتـــويات

مقـــدمة

أنا الطبيب الذى يتحدثون عنه أحيانًا فى هذه القصة بكلماتٍ غير مشجعة، فمن يكن خبيرًا بالتحليل النفسى يعرف كيف يقدّر البُغض الذى يُكنهّ له المريض.

ولن أتحدث عن التحليل النفسى؛ لأنهم سيتحدثون عنه بقدرٍ كافٍ هنا بالداخل. وينبغى أن أطلب المعذرة عن حثّ مريضى على سرد سيرته الذاتية، وسوف يشيح الباحثون فى التحليل النفسى بوجوههم، عن مثل هذا الأمر الجديد. ولكنه كان عجوزًا، وأملت أن يحيا ماضيه من جديد فى هذه الاستعادة، وأن تكون سيرته الذاتية بمثابة تمهيد جيد للتحليل النفسى. وإلى يومنا هذا أرى فكرتى طيبة؛ لأنها حققت لى نتائج ما كنت آمل فيها، وكانت ستصبح أفضل من ذلك لو أن المريض لم يهرب من العلاج فى اللحظة الحاسمة، ويسلب منّى ثمرة تحليلى المتأنى الصبور لهذه الذكريات.

أنشرها بروح الانتقام وآمل أن تزعجه، بل وليعلم أنّى مستعد لأن أقاسمه المكافآت السخية التى سأنالها من هذا النشر، شريطة أن

يستأنف العلاج. كان يبدو أنه مشغوف بمعرفة نفسه! لو يعرف كم من المفاجآت يمكن أن تتجلى له من التعقيب على الحقائق والأكاذيب العديدة التي جمعها هو هنا!

"س"

الدكتور .S

تمهيد

أيلزم أن أرى طفولتى؟ إن أكثر من خمسة عقود تفصلنى عنها، وربما تصل إليها عيناى اللتان تعانيان طول النظر إن كان الضوء الذى لا يزال ينيرهما لا تمنعه عقبات من كل نوع، بل جبال حقيقية شاهقة: سنوات عمرى وبضع ساعات.

أوصانى الطبيب ألاّ أتمادى فى النظر إلى بعيد؛ فالأمور الحديثة نفيسة فى ذاتها وخاصة خيالات وأحلام الليلة المنقضية. لكن ينبغى أن يكون هناك شىء من النظام، ولكى أنطلق من البداية فما إن انصرفت من عند الطبيب الذى ترك مدينة "تريستى" فى هذه الأيام ولمدة طويلة؛ ولكى أيسر عليه الأمر فقط اشتريت كتابًا عن التحليل النفسى وقرأته. إنه ليس معقداً فى فهمه، ولكنه ممل إلى حد كبير.

وبعد أن تناولت وجبة الغداء، استرخيت فى هدوء على أريكة، ممسكًا فى يدى بقلم وورقة، وجبهتى منبسطة؛ لأنّى أخليت ذهنى من أى جهد. ويبدو أن أفكارى كانت فى معزلٍ عنّى. إنّى أراها ترتفع وتنخفض... ولكن هذا هو نشاطها الوحيد. ولكى أذكّر ذهنى أنها أفكارى وأن عليها

أن تتجلى، أقبض على القلم. هاهو ذا جبينى مقطب؛ لأن كل لفظ يتكون من حروف كثيرة، ويحيى الحاضر بغلبته، ويبقى الماضى فى الظل.

غاليت بالأمس، واستغرقت في الذكريات، ولكن انتهت بى التَّجرِبة إلى نُعاس عميق، لم أخرج منه إلاّ براحة نفسية وشعور غريب لما رأيته فى أثناء النعاس من أشياء هامة، ولكنى نسيتها، وتلاشت إلى الأبد.

وأنا اليوم ما زلت يقظًا، ويرجع الفضل فى ذلك إلى قلمى الذى أمسكه بيدى. أرى وأتخيل صوراً غريبة، لا يمكن أن تكون لها صلة بماضٍ. قاطرة تثير دخانًا فوق مطلع، وهى تجر عربات لا حصر لها، من يدرى من أين تأتى، وإلى أين تذهب، ولماذا جاءت إلى هنا فى هذا الوقت.

وبين اليقظة والنوم أتذكر أن هذا الكتاب يؤكد أنه بهذا الأسلوب يمكننى أن أصل إلى تذكُّر طفولتى الأولى، أى منذ ولادتى. وعلى الفور أرى رضيعًا بلفافته، ولكن لماذا ينبغى أن يكون أنا ذلك الطفل؟ إنه لا يشبهنى على الإطلاق، بل أظن أنه ولد منذ بضعة أسابيع، وضعته أخت زوجتى، وأرونا إياه على أنه معجزة؛ لأن يديه صغيرتان وعينيه واسعتان للغاية. ياله من طفل مسكين! نعم بالتأكيد يجب أن أتذكر طفولتى! ولا أجد حتى الوسيلة التى بها أخطرك، وأنت تعيش الآن طفولتك، عن أهمية استعادتها لما فيه صالح عقلك وصحتك. متى ستدرك أنه جيد أن تعرف كيف تحفظ عن ظهْر قلب قصة حياتك، حتى ذلك الجزء الكبير منها الذى ينفِّرك؟ وفى تلك الأثناء وفى اللاوعى تأخذ فى البحث عن المتعة فى جسدك الصغير،

وستقودك اكتشافاتك اللذيذة إلى الألم والمرض، وسيدفعك إليهما أيضًا أولئك الذين لا يرغبون فى ذلك.

ما العمل؟ من المحال حماية مَهْدك، وفى داخلك - أيها الطفل الصغير - تأخذ تركيبة خفية فى التكوين. وكل لحظة تمر تلقى فيه بمادة رادّة للفعل. هناك احتمالات عديدة للمرض بالنسبة لك؛ لأنه يمكن أن تكون كل لحظاتك نقية. ثم إنك - أيها الصغير - من نفس دم أشخاص أعرفهم. واللحظات التى تمر بها الآن يمكنها أن تكون لحظات نقاء أيضًا، ولكنها ليست كذلك بالتأكيد كل الدهور التى عملت على إعدادك.

ها أنا ذا أبعد بما يكفى عن الخيالات التى تخالط النوم، وسأعيد المحاولة غداً.

التدخـــين

طلب منى الطبيب الذى تحدثت عنه أن أبدأ عملى بتحليل تاريخى لميلى إلى التدخين قائلا:

– اكتب! اكتب! سترى كيف ستصل إلى اكتشاف نفسك بالكامل.

أظن أنه يمكننى أن أكتب عن التدخين هنا على مكتبى، دون أن أمضى إلى أحلامى على تلك الأريكة. لا أعرف كيف أبدأ، وألتمس المساعدة من السجائر التى تتشابه جميعها تمامًا مع تلك التى أمسكها بيدى.

اليوم، أكتشف فى سرعة بعض الأشياء التى لم أكن أتذكرها قط. فالسجائر الأولى التى دخنتها لم تعد موجودة فى الأسواق. وفى السبعينيات كانت توجد فى النمسا، وكانت تباع فى علب من الكرتون مدموغة بعلامة النسر ذى الرأسين[1]، وهكذا: حول إحدى تلك العلب، يتجمع على الفور عدة أشخاص ببعض من ملامحهم التى تكفى لتوحى

(١) نسبة إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية التى كانت مدينة تريستى تحت سيادتها.

لى بأسمائهم، ولكنها ليست بكافية لكى تحرك مشاعرى للقائهم غير المتوقع. أجتهد أن أبلغ أكثر من هذا وأمضى إلى الأريكة: الأشخاص تتلاشى، ويحل محلهم مهرجون يسخرون منّى. أعود يائسًا إلى المائدة.

وكان وجه چوزيبى من بين تلك الوجوه وهو شاب من سنى نفسه وصوته أجش بعض الشىء، أما الآخر فكان وجه أخى الذى كان يصغرنى بعام، ووافته المنية منذ عدة سنوات. ويبدو أن چوزيبى كان يحصل من والده على مال كثير، ويهدى إلينا تلك السجائر. ولكنّى على يقين أنه كان يهدى الأكثر منها إلى أخى؛ لذا رأيت نفسى مضطرًا إلى الحصول على المزيد منها. وهكذا، حدث أنّى سرقت. فى الصيف، كان والدى يترك فوق مَقعد فى حجرة المعيشة سترته، وفى جيبها الداخلى كانت توجد دائمًا قطع نقود صغيرة: كنت أحصل على العشر قطع اللازمة لشراء العلبة الثمينة، وأدخن العشر سجائر التى تحتوى عليها، الواحدة تلو الأخرى حتى لا أحتفظ طويلاً بثمرة سرقتى المثيرة للشبهة.

كل هذا كان كامنًا فى وعيى وفى متناول يدى. يظهر الآن فقط؛ لأنّى لم أكن أعرف من قبل أنه ذو أهمية. ها أنا ذا قد سجلت بداية العادة الدنيئة و (من يعرف؟) ربما أكون قد شفيت منها. ولهذا، ولكى أختبر نفسى، أشعل آخر سيجارة، وقد ألقيها بعيدًا فى الحال وأنا مستاء.

ثم أذكر أن والدى فاجأنى يومًا والسترة فى يده. وأنا فى سفاهة لم تعد لدى الآن، ولا تزال تثير استيائى (من يعرف أن هذا الاستياء له أهمية كبيرة فى علاجى) قلت له إن فضولى دفعنى لأعد أزراره. وضحك

والدى لميولى للرياضيات أو الحياكة، ولم يدرك أنّى وضعت أصابعى فى جيب سترته. وأقول إن تلك الضحكة الموجهة إلى براءتى حينما لم يعد لها وجود، كانت كافية لمنعى من السرقة نهائيًا. وهذا يعنى... أننى كنت لا أزال أسـرق، ولكن دون علمى بذلك. وكـان والدى يتـرك فى المنزل أنصاف سيجار ڤيرچينيا على حواف الموائد والأطباق. كنت أظن أنها طريقته فى إلقائها، وكنت أظن أيضًا أنّى أعرف أن خادمتنا العجوز كاتينا كانت ستلقى بها. كنت أذهب لأدخنها خلسةً. وفى اللحظة التى كنت أستولى فيها عليها كانت تنتابنى بالفعل قشعريرة نفور، وأنا أعلم أى توعُّك ستجلبـه على صحتى. ثم كـنت أدخنهـا حتى يتصبب جبينى عرقًا باردًا وتتلوى معدتى. وهذا لا يعنى أنّى كنت منهك القوى فى طفولتى.

أعرف تمامًا كيف أبرأنى والدى من تلك العادة. ذات يوم فى فصل الصيف عدت إلى المنزل من رحلة مدرسية وكنت متعبًا وأتصبب عرقًا. ساعدتنى أمى فى خلع ملابسى، وبعد أن تلففت فى مئزرى شرعت فى النوم على أريكة جلست عليها وهى مشغولة فى شىء من الحياكة. كنت قريبًا من النوم، إلاّ أن عينى كانتا – مع ذلك – مليئتين بضياء الشمس وتأخرت فى فقد حواسى. العذوبة التى تصاحب الراحة فى تلك المرحلة من العمر فى أعقاب إرهاق شديد، تتجسد لى الآن على شكل بعينه، وفى وضوح، وكأننى الآن هناك إلى جانب ذلك الجسد الحبيب الذى لم يعد له وجود.

أتذكر الحجرة الكبيرة ذات الجو المنعش، حيث كنا نلعب ونحن أطفال، التى انقسمت الآن إلى شطرين فى هذه الأزمنة التى تفتقر إلى الفراغ. فى ذلك المشهد لا يظهر أخى، وهذا ما يدهشنى؛ ظنًا منّى أنه كان ينبغى أن يكون حاضراً فى تلك النزهة ثم يشاركنى فى الراحة. أيكون نائمًا هو أيضًا على الجانب الآخر من تلك الأريكة الكبيرة؟ أنظر إلى ذلك المكان ولكنه يبدو لى شاغراً. لا أرى سوى ولذة الراحة ووالدتى، ثم والدى الذى أسمع صدى كلماته. كان قد دخل ولم يلمحنى فى الحال؛ لأنه نادى بصوتٍ عالٍ:

- ماريا!

وبحركة مصحوبة بصوتٍ خافت أشارت أمى إلىّ وكانت تظن أنّى غارق فى النوم، بيد أنّى كنت أسبح عليه وأنا فى كامل وعيى. وكان يسرنى كثيراً أن أبى يبدى اهتماما بى فلم أتحرك. تذمر والدى بصوتٍ خفيض:

- أرى أنّى سأصاب بالجنون. إنّى على يقين من أنى تركت منذ نصف الساعة على ذلك الصوان نصف سيجارة و الآن لا أجده. حالتى أسوأ من المعتاد. الأشياء تفلت منى.

وبصوت خفيض أيضًا، ولكن يشى بضحكة كتمتها من الخوف فقط أن توقظنى أجابت والدتى:

- ومع ذلك لم يدخل تلك الحجرة أحد بعد تناول الغداء.

همهم والدى:

– وبما أنّى أعرف ذلك أيضًا، يبدو أنّى جننت.

استدار وخرج.

فتحت نصف عينى وشاهدت أمى. عادت إلى عملها واستمرت تبتسم. من المؤكد أنها لم تظن أن والدى كاد يفقد عقله حتى تضحك هكذا من مخاوفه. ظلت تلك الابتسامة مطبوعة فى خيالى، حتى أنى تذكَّرتها فى الحال عندما وجدتها ذات يوم على شَفتى زوجتى.

ثم إن نقص المال لم يكن عائقًا أمام إشباع تلك الرذيلة، وإنما هى النواهى التى كانت تعمل على إثارتها. أذكر أننى دخنت كثيراً وأنا مختبئ فى جميع الأماكن الممكنة. ولأنه كان يلاحقنى شعور شديد بالتقزز أذكر أنى مكثت لنصف الساعة فى قَبْو مظلم مع اثنين من الصِّبية، لا أجد فى ذاكرتى شيئًا عنهما سوى ملابسهما الطفولية: زوجان من السراويل يشرفان على أقدام، لأن بداخلهما جسداً أنهكه الزمن. كان لدينا سجائر كثيرة، وكنا نود أن نرى مَنْ منا يستطيع أن يحرق منها أكثر، فى وقتٍ وجيز. لقد فزت، و ببطولة أخفيت الوَعْكة الصحية التى أصابتنى من هذا التدريب الغريب. بعد ذلك خرجنا إلى النور والهواء. كان ينبغى أن أغمض عينى حتى لا أسقط مغشياً علىّ. استعدت وعيى وتفاخرت بالانتصار. حينذاك، قال لى أحد الصبيين:

– لا أبالى بأنى خسرت؛ لأنّى لا أدخن إلاّ قدر اللازم.أتذكر الكلمة الصحيحة وليس الوجه الصغير السليم أيضًا بالتأكيد الذى كان يلتفت

بالضرورة إليّ في تلك اللحظة. ولكنّي في ذلك الحين لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب أم أكره السيجارة ومذاقها والحالة التي يحدثها لي النيكوتين. وعندما أدركت أنّي أُبغض كل هذا، ازداد الأمر سوءًا. وعرَفت ذلك في سن العشرين من عمري تقريبًا. في ذلك الحين عانيت لعدة أسابيع من التهاب شديد في الحلق مصحوب بحُمى. فرض عليّ الطبيب الراحة في السرير والامتناع المطلق عن التدخين. أذكر هذه الكلمة: المطلق! آذتني وأضفت الحمى عليها لونًا: فراغ شاسع ولا شيء يقاوم الضغط الهائل الذي سرعان ما ينشأ حول الفراغ.

عندما تركني الطبيب، ظل والدي (تُوفيت والدتي منذ عدة سنوات) بجواري لبعض الوقت و بفمه سيجار كبير. وفي أثناء انصرافه وبعد أن مسح بيده برِفق على جبيني الملتهب، قال لي:

– لا تدخِّن، أسمعت!

انتابني قلَق شديد. فكرت: "بما أنه يؤذيني، لن أدخن أبدًا، ولكن قبل ذلك أود أن أدخِّن للمرة الأخيرة". أشعلت سيجارة وعلى الفور شعرت بالتحرر من القلق، على الرغم من أن الحمى ربما كانت تزداد، وعلى الرغم من أنّي كنت أشعر مع كل استنشاق للدخان باحتقان في اللوزتين، كأنما لامستهما جمرة محترقة. انتهيت من تدخين السيجارة كلها بالعناية نفسها التي يقوم بها من يوفي نذرًا. ومع استمرار ألمي بصورة مفزعة، دخنت سجائر أخرى كثيرة، في أثناء فترة المرض. كان والدي يذهب ويجيء بسيجاره في فمه قائلاً:

– أحسنت! بضعة أيام أخرى من الامتناع عن التدخين وستشفى.
كانت هذه الجملة تكفى لكى تجعلنى أرغب فى انصرافه فوراً، حتى أسرع إلى السيجارة المرغوبة. كنت أتظاهر أيضًا بالنوم لكى أدفعه أن ينأى بعيداً.

جلب لى ذلك المرض ثانى متاعبى: وهو الاجتهاد فى التخلص من المشكلة الأولى. أصبحت أيامى مليئة بالسجائر وبالعزم على عدم العودة إلى التدخين، ولكى أذكر على الفور كل شىء، فمن حين إلى آخر مازالت أيامى كما هى. ودُوار السجائر الأخيرة الذى أصابنى فى العشرين من عمرى، ما زال مع ذلك يدور. فالعزم أقل شدة والضعف يجد تسامحًا أكبر فى نفسى العجوز. فعندما يتقدم بنا السن نبتسم من الحياة ومن كل ماتحويه. بل أستطيع القول إنه منذ فترة من الوقت وأنا أدخن العديد من السجائر... وهى ليست بالأخيرة.

على غلاف قاموس أجد عبارة سجلتها بخط جميل وبشىء من الزخرفة:

«اليوم، ٢ فبراير ١٨٨٦، أنتقل من دراسة القانون إلى دراسة الكيمياء. السيجارة الأخيرة!».

كانت سيجارة أخيرة ذات أهمية كبيرة. أتذكر الآمال جميعها التى صاحبتها. انتابنى غضب من القانون الكنَسى الذى بدا لىَ بعيداً تمامًا عن الحياة، وأسرعت فى اتجاه العلم؛ فهو الحياة بعينها على الرغم من

أنه ينتهى بها المطاف إلى قارورة من القوارير. كانت تلك السيجارة تعنى لى الرغبة فى النشاط (الحركة اليدوية أيضًا) والفكر الواضح، المعتدل والراسخ.

ولكى أبتعد عن تركيبات الكربون التى لا أؤمن بها، عدت إلى القانون. مع الأسف! كان خطأ سجلته أيضًا سيجارة أخيرة وجدت تاريخها مدوّنًا على كتاب من كتبى. كانت هذه هامة أيضًا، وأذعنت إلى العودة إلى تعقيداتى وتعقيداتك وتعقيداته، بعزم أفضل، وأنا أذيب أخيراً مجموعات الكربون. ووجدت أنّى غير مؤهّل للكيمياء أيضًا بسبب عدم كفاءة ملَكاتى اليدوية. كيف كان يمكن أن أتحصل عليها مادمت كنت مستمرا فى التدخين كالتركى؟

الآن وأنا هنا لأحلل نفسى، ينتابنى الشك: ألعلنى أحببت السيجارة أكثر من أن أستطيع صب مسئولية عجزى عليها؟ من يعرف إذا ما كنت أقلعت عن التدخين أكنت أصبح الرجل المثالى الذى كنت أنتظر؟ ربما كان ذلك الشك هو ما قيَّدنى برذيلتى لأنها وسيلة مريحة فى عيش ما نعتقد أنه مكنون فينا من عظمة. أتقدم بهذا الافتراض كى أفسِّر ضعفى وأنا شاب، ولكن دون اقتناع أكيد. الآن وقد صرت عجوزاً ولا يحتاج أحد شيئًا منّى، فإنّى أنتقل على أية حال من السيجارة إلى القرار ومن القرار إلى السيجارة. ماذا تعنى اليوم تلك القرارات؟ أو مثل طبيب الصحة العجوز الذى وصفه "جولدونى"، هل أريد أن أموت سليمًا بعد أن عشت مريضًا طوال حياتى؟ ذات مرة، عندما غيرت مسكنى وأنا طالب،

كان عليّ أن أغطى جدران الغرفة على نفقتى؛ لأنّى كنت قد كسوتها بالتواريخ. ولعلنى تركت تلك الحجرة لأنها صارت بالتحديد مقبرة لنيّاتى الحسنة، واعتقدت أنه لم يعد بالإمكان تسجيل المزيد منها فى ذلك المكان.

أرى أن للسيجارة مذاقًا أكثر قوة عندما تكون الأخيرة. والأخريات لها أيضًا مذاق خاص، ولكن أقل شدة. فالأخيرة تكتسب نكهتها من الشعور بالانتصار على الذات والأمل فى مستقبل قريب من القوة والصحة. والأخرى التالية لها أهمية؛ لأن فى إشعالها احتجاجًا لحرية المرء ومستقبل من القوة والصحة يدوم، بل يبتعد أكثر قليلاً.

كانت التواريخ مطبوعة على جدران الحجرة بألوان عديدة وبالزيت أيضًا . فالقرار المتّخذ عن إيمان أكثر صدقًا كان يجد تعبيرًا متسقًا فى قوة اللون الذى كان عليه أن يمحو اللون المستخدم فى القرار الأسبق. كانت هناك تواريخ مفضلة لدىّ لتوافق الأرقام. أتذكر تاريخًا من القرن الماضى خيِّل لى أنه لابد أن يغلق إلى الأبد ذلك الصندوق الذى وددت أن أدفن فيه رذيلتى: «اليوم التاسع من الشهر التاسع عام ١٨٩٩». له دلالة، أليس كذلك؟ ثم أتى إلى القرن الجديد بتواريخ موسيقية بشكل آخر: «اليوم الأول للشهر الأول عام ١٩٠٦». ومازال يبدو لى أنه لو أمكن إعادة ذلك التاريخ لأمكننى بداية حياة جديدة.

ولكن التقويم لا تنقصه التواريخ، وبشىء من التخيل يمكن أن يتوافق كل تاريخ منها مع قرار جيد. وبدا لى كما لو أنه يتضمّن أمرًا

علويًا حاسمًا، أذكر منها هذا القرار: «اليـوم الثـالث للشـهر السـادس عام ١٩١٢ الساعة الرابعة والعشرون». كما لو أن إيقاعه يوحى بأرقام تتضاعف فى مراهنة.

سبّب لى عام ١٩١٣ لحظة تردد. لم يكن للشـهر الثالث عشر وجود حتى يتوافق مع العام، وإنما علينا ألاّ نتوهم ضرورة وجود تآلف فى أرقام تاريخ ما لكى نعطى أهمية للسيجارة الأخيرة. والتـواريخ التى أجدها مدونة على كتب أو لوحات مفضلة لدىَّ كثيرًا ما تلفت النظر بعدم تناسقها. على سبيل المثال، اليوم الثالث من الشهر الثانى عام ١٩٠٥ الساعة السادسة! له إيقاعه الخاص إذا ما فكرنا فيه؛ حيث إن كل رقم ينكر ما قبله. أحداث كثيرة، بل جميعها، منذ وفاة بيو التاسع إلى ميلاد ابنى، بدت لىَ جديرة بالاحتفال، من خلال ذلك القرار الحاسم المعتاد. فى العائلة كثيرون ممن ينبهرون بتذكرى لمناسباتنا السعيدة والحزينة، ويظنون أنّى طيب جدًا!

حاولت أن أعطى مغرى، فلسفيًا لمرض السيجارة الأخيرة لكى أخفف من ظهوره الأحمق. يقال، بناء على موقف رائع جدًا: «قط، مطلقًا». ولكن أين يتجه هذا الموقف إذا ما حُفظ الوعد؟ فالموقف لا يمكن الوصول إليه إلاّ إذا جدد العزم. ثم إن الزمن ليس بالنسبة لى ذلك الشىء المحال الذى لا يتوقف أبدًا. بالنسبة لى، لى أنا فقط ، يعود.

المرض اقتناع وأنا ولدت بذلك الاقتناع. وما كنت لأذكر الكثير عن المرض الذى أصابنى فى سن العشرين، لو لم أصفه للطبيب فى ذلك

الحين. أتعجب كيف نتذكر ما يقال من كلمات أكثر من المشاعر التى لم تصل إلى تحريك الهواء.

ذهبت إلى ذاك الطبيب لأنه قيل لى إنه يعالج الأمراض العصبية بالكهرباء. ظننت أنه باستطاعتى أن أحصل من الكهرباء على القوة اللازمة للإقلاع عن التدخين.

كان للطبيب بطن كبير وكانت أنفاسه الثقيلة من الربو تصاحب دقات الآلة الكهرَبائية التى وضعها لتعمل، على الفور، فى الجلسة الأولى التى خيبت أملى؛ لأنّى كنت أنتظر أن يفحصنى الطبيب، ليكتشف السم الذى لوث دمى. لكنه أفــاد، على عكس ذلك، بأنّى سليم البِنيــة، ولما شكوت من سوء الهضم والنوم افترض نقص بعض أحماض فى معدتى، وأن حركة تقلص الأمعاء (كرر تلك الكلمة مرات عديدة حتى أنّى ما نسيتها قط) أقل نشاطًا. وأعطانى أيضًا حامضًا أتى على، فمنذ ذلك الوقت وأنا أعانى من زيادة نسبة الحموضة.

عندما أدركت أنه لن يتوصل أبدًا بمفرده لاكتشاف مادة النيكوتين فى دمى، وددت مساعدته، وعبرت عن ارتيابى فى أن وعكتى ترجع إلى مادة النيكوتين. وبعناء رفع منكبيه العريضين قائلاً:

حركة تقلص الأمعاء...حمض...لا شأن للنيكوتين!

بلغت الجلسات الكهربائية السبعين ولاستمرت لو لم أرَ اكتفائى بذلك القدْر. دون توقُّع لمعجزات، كنت أسرع إلى تلك الجلسات أملاً فى

إقناع الطبيب بمنعي من التدخين. من يدري كيف كانت ستسير الأمور، لو أن تحريماً كهذا شد أزرى في قراراتي.

ها هو ذا وصف أعراض مرضى كما وصفته للطبيب: «لا يمكننى استذكار دروسى، وحتى فى المرات النادرة التى أذهب فيها إلى فراشى لبعض الوقت ينصرف عنّى النُّعاس، حتى دقات أجراس الساعة الأولى؛ لذا فإنّى أتأرجح بين القانون والكيمياء لأن كليهما يحتاج إلى عمل يبدأ فى ساعة ثابتة، وأنا لا أعرف أبداً فى أية ساعة أستيقظ من نومى».

– الكهرباء تعالج أى نوع من الأرق، هكذا أصدر اسكولابيو حكمه، وعيناه موجهتان دائماً إلى وجه الساعة بدلاً من المريض.

واصلت الحديث معه كما لو كان قادراً على فَهم التحليل النفسى الذى عرفته، بشكل متواضع، قبله. قصصت عليه شقائى مع النساء. فواحدة لا تكفينى ولا الكثير منهن أيضاً. أرغبهن جميعاً! إثارتى فى الطريق مفرِطة: فمتى عبرن الطريق، فكلهن لى. كنت أحدق إليهن بوقاحة رغبة منّى فى الإحساس بالحيوانية. كنت أجرِّدهن فى خيالى من ملابسهن وأترك لكل واحدة منهن حذاءها البوت الطويل، وآخذهن جميعًا بين ذراعى ثم أتركهن فقط عندما أتأكد تماماً من أنّى عرفتهن كلهن.

كانت صراحتى وكلامى مهدرين! كان الطبيب يلهث فى صعوبة:

– أتمنى ألاّ يبرئك العلاج بالجلسات الكهربائية من هذا المرض. لا ينقصنا غير هذا! لن أمس أبداً رامكورف، إن كان يُخشى منه تأثير كهذا.

قص عليّ نادرة كان يراها ممتعة للغاية. مريض له علّتى نفسها ذهب إلى طبيب ذائع الصيت ورجاه أن يبرئه، وبعد أن أفلح الطبيب فى ذلك تمامًا، اضطر لأن يهاجر؛ لأنه لو لم يفعل ذلك لقضى الآخر عليه.

– إثارتى هذه ليست الإثارة المناسبة، هكذا صرخت. إنها ناتجة عن السم الذى يُلهب عروقى!

همهم الطبيب ووجهه متألم:

– لا يرضى أحد أبدًا بنصيبه.

وكان لكى أقنعه أنّى فعلت كل ما لم يرد فعله هو، وبحثت فى مرضى وأنا أجمع عنه كل أعراضه: شرود ذهنى! كان ذلك أيضًا سببًا يحول دون المذاكرة. كنت أستعد للسفر إلى جامعة فى جراتز بالنمسا لأؤدى أول امتحان عام، وباهتمام شديد دونت للتذكرة المواد جميعها التى أحتاج إليها حتى آخر امتحان. وانتهى بى الأمر إلى أن أدركت، قبل أيام قليلة من الامتحان، أنّى استذكرت مواد لن أحتاج إليها إلاّ بعد بضع سنوات؛ لذا كان عليّ أن أرجئ تأدية الامتحان. وحقًّا أننى استذكرت قليلاً من تلك المواد الأخرى بسبب فتاة أحد الجيران، لم تسمح لى إلاّ بمجرد دلال به شىء من جرأة. عندما كانت تُطل من النافذة كنت أكف عن رؤية كتابى. أليس من يشغل نفسه بمثل هذا الفعل أحمق؟ أتذكر وجه الفتاة الصغير، أبيض البشرة، عند النافذة: بيضاوى الشكل تحيط به خصلات الشعر المجعّدة، المهدلة، الحمراء المصفرة. كنت

أنظر إليها وأحلم بأن أضم ذلك البياض وذلك اللون الأصفر المائل إلى الحُمرة على وسادتى.

تمتم اسكولابيو:

- دائمًا ما يكون هناك شيء طيب وراء الدلال والمغازلة. وعندما تصلون إلى عمرى هذا لن تغازلوا أبدًا.

أنا اليوم على يقين من أنه ما كان يعرف شيئًا عن المغازلة. لقد أتممت السابعة والخمسين وأنا واثق بأننى إن لم أقلع عن التدخين أو إن لم يُبرئنى التحليل النفسى، فإن نظرتى الأخيرة على فراش موتى ستكون تعبيرًا عن رغبتى فى ممرضتى، إذا لم تصبح هذه الأخيرة زوجتى، وإذا ما سمحت زوجتى أن تكون حسناء!

كنت صريحًا كما لو أننى على كرسى الاعتراف: لم تكن المرأة تُعجبنى بكاملها، بل... أجزاء منها! أحب فى النساء جميعهن القدمين الصغيرتين إذا ما اكتستا بحذاء أنيق، وأحب فى كثير منهن العنق النحيل، بل الممتلئ أيضًا، والصدر إذا ما كان ناهدًا، ناهدًا. أخذت أواصل عد الأجزاء التشريحية النسائية، لكن الطبيب قاطعنى قائلاً:

- هذه الأجزاء تجعل من المرأة امرأة كاملة.

قلت حينئذ كلمة هامة:

- الحب السليم هو احتواء امرأة واحدة وكاملة بخصالها وذكائها.

وإلى ذلك الحين لم أكن بالتأكيد أعرف مثل ذلك الحب، وحتى عندما صادفنى لم يهب لى الصحة، لكن الأمر الهام بالنسبة لى هو أننى أذكر أنّى اقتفيت أثر المرض حينما كان الطبيب يرى الصحة، وأن تشخيصى هذا قد تحقق بعد ذلك.

وجدت فى شخص صديق لى، ليس طبيبًا، من يفهمنى أفضل ويدرك حقيقة مرضى. لم أنل منه فائدة كبيرة، بل علامة جديدة فى حياتى، بقى صداها حتى الآن.

كان صديقى هذا رجلاً ثريًا يجمِّل أوقات فراغه بالدراسات والأعمال الأدبية. كان يتحدث أفضل بكثير مما يكتب؛ ولذا لم يعرف العالم أى أديب جيد كان. كان سمينًا بدينًا، وعندما تعرفت عليه كان يتابع فى نشاط كبير علاجًا لإنقاص الوزن. وفى أيام قليلة توصل إلى نتائج كبير، لدرجة أن الجميع فى الطريق كانوا يدنون منه أملاً فى أن يشعروا بالتفوق عليه بصحتهم، وهو المريض. كنت أحسده؛ لأنه كان يستطيع أن يفعل كل ما يريد ولازمته طيلة فترة علاجه. كان يسمح لى أن ألمس بطنه الذى كان ينقص كل يوم وأنا، فى حقد وحسد، كنت أود أن أقلل من عزيمته، فقلت له:

– ولكن، بعد أن تتم العلاج، ماذا تفعل سيادتك بهذا الجلد كله؟

وفى هدوء شديد يجعل وجهه النحيل مضحكًا، أجاب:

– خلال يومين من الآن، سيبدأ العلاج بالتدليك.

كان علاجه معَداً بكل التفاصيل، وكان من المؤكد أنه سيحرص على كل مواعيده.

كان لذلك أثره في ثقتي الكبيرة به، حتى أنّي شرحت له قصة مرضي. أتذكر أيضًا هذا الوصف. قلت له إنه من الأسهل عليّ ألاّ أتناول الطعام ثلاث مرات يوميًا على أن أمتنع عن تدخين العديد من السجائر التي كانت تستوجب اتخاذ القرار ذاته، في كل لحظة. ولما كان مثل هذا القرار يشغل ذهني، فليس هناك متسع من الوقت لعمل شيء آخر؛ لأن يوليس قيصر هو الوحيد الذي كان يستطيع القيام بأمور كثيرة في اللحظة نفسها. كان شيئًا طيبًا أنه لم يطالبني أحد بالعمل مادام أوليفي مدير أعمالي ما زال حيًا، ولكن كيف يحدث ألاّ يعرف رجل مثلي أن يعمل شيئًا في هذه الدنيا سوى أن يحلم أو يُسيء العزف على آلة الكمان التي يفتقر لما تتطلبه من ملَكة؟

لم يفِ الرجل البدين الذي أصبح نحيفًا بإجابته على الفور. كان رجلاً ذا منهج. وفي البداية، فكر مليًا، ثم بلهجة الخبير اللائقة به نظرًا لتفوقه الكبير في هذا المجال، فسر لي أن حقيقة مرضي تكمن في العزيمة وليس في السيجارة. كان عليّ أن أحاول نبذ تلك الرذيلة دون عقد النية لذلك. لقد أخذ – حسبما يرى – يتكون بداخلي في خلال السنوات الماضية، شخصان أحدهما يفرض سُلطته والآخر ما هو إلاّ عبد، ويتحين لحظة أن تخف المراقبة عليه حتى يخالف إرادة سيده، حبًا في الحرية؛ لذا كان ينبغي أن نمنحه الحرية المطلقة، وكان لزامًا عليّ في

الوقت ذاته، أن أنظر إلى رذيلتى كما لو أنها وجه جديد، لم أره قط. كان الأمر يقتضى ألاّ نقاومه بل نتجاهله وننسى بطريقة ما، الاستسلام له، وأن نتحول عنه فى عدم الاكتراث باعتباره صُحبة غير جديرة فى حد ذاتها باهتمامنا. الأمر يسير، أليس كذلك؟

بالفعل بدا لى الأمر هينًا. وبعد أن أفلحت حقيقةً بعناء شديد فى القضاء على أية عزيمة بداخل نفسى، استطعت أن أقلع عن التدخين لساعات عديدة. ولكن عندما عاد فمى نظيفًا، شعرت بمذاق قد يماثل ما يشعر به الطفل الرضيع، وانتابتنى الرغبة فى سيجارة واحدة، وعندما دخنتها أحسست بالندم وجددت العزيمة التى كان يجب أن ألغيها. كان الطريق أكثر طولاً، ولكنه يوصل المرء إلى النهاية نفسها.

ذات يوم، أشار لى أوليڤى ذلك الوغد بفكرة: أن أشد من عزيمتى بنوع من الرهان.

أظن أنه كانت لأوليڤى الهيئة نفسها التى أراه عليها الآن. رأيته دائمًا هكذا: مائل للانحناء قليلاً لكن قوى البنية، بدا لى دائمًا عجوزًا، كما أراه اليوم وقد بلغ من العمر ثمانين عامًا. عمل وما زال يعمل بدلاً منّى، أنا لا أحبه؛ لأننى أشعر أنه منعنى من العمل الذى يقوم به.

وتراهنّا! من يدخن أولاً سيدفع للآخر، ثم يسترد كلا الاثنين حريتهما. وهكذا استغلنى مدير أعمالى الذى فرضوه علىّ لكى يمنعنى من تبديد تركة والدى، وحاول أن ينقص من ميراث والدتى الذى كنت أديره بحرية تامة!

اتضح لى أنه رِهان مؤذٍ للغاية. لم أعد سيداً بالتناوب، بل عبداً فقط لأوليڤى ذاك الذى كنت لا أحبه! دخنت فى الحال، ثم ظننت أنّى أخدعه وأنا أستمر فى التدخين خلسة. لكن لماذا إذن قمت بتلك المراهنة؟ لجأت للبحث حينئذ عن تاريخ له عَلاقة أكيدة بتاريخ المراهنة لأدخن سيجارة أخيرة، وبهذا النحو كنت أتخيل أن أوليڤى قد سجله بنفسه. إلاّ أن التمرُّد كان يستمر وكنت أصل إلى حد ضيق التنفس من كثرة التدخين. ولكى أتخلص من ذلك العبء ذهبت إلى أوليڤى، واعترفت له.

أخذ العجوز المال وهو يبتسم، وفى الحال أخرج من جيبه سيجاراً ضخماً أشعله وقام بتدخينه فى لذَّة كبيرة. لم أرتب قط فى أنه لم يحافظ على الرهان. فمن المفهوم أن الآخرين يختلفون عنّى.

كان ابنى قد أتم الثالثة من عمره عندما لاحت لزوجتى فكرة جيدة. نصحتنى كى أخلع عنّى تلك الرذيلة، أن أحبس نفسى لبعض الوقت فى مصحة للأمراض العصبية. قبِلت على الفور، وكنت أود قبل كل شىء أنه متى بلغ ابنى السن الذى يتمكن فيه من الحكم علىّ يجدنى متزناً، هادئاً. فضلاً عن سبب آخر أكثر إلحاحًا وهو أن أوليڤى كانت حالته سيئة ويهدد بتركى؛ ولهذا كنت سأرغم على أن أحل محله من حين لآخر، وكنت أرى نفسى غير جدير بالقيام بمهام كبيرة وبجسمى هذا الكم من النيكوتين.

فكرنا بادئ الأمر، فى الذهاب إلى سويسرا، أشهر بلد معروف بدور علاج الأمراض النفسية، ثم علمنا أنه يوجد بمدينة تريستى طبيب

يُدعى مولى، كان قد افتتح مستشفى خاصًا للعلاج النفسى. أوكلت إلى زوجتى مهمة أن تذهب إليه، فعرض عليها أن يخصِّص لى جناحًا سأكون فيه تحت مراقبة إحدى الممرضات ومعها معاونون آخرون. وعندما أخبرتنى زوجتى بذلك، كانت تبتسم تارة وتارة أخرى تضحك بصورة صاخبة. كانت فكرة أن أدعهم يحتجزوننى تضحكها وكنت أضحك معها من ذلك، من قلبى. كانت أول مرة تشاركنى فيها محاولاتى للشفاء، وحتى ذلك الحين لم تأخذ قط مرضى بجدية، وكانت تقول إن التدخين ليس إلاّ أسلوبًا غريبًا بعض الشىء فى الحياة وليس باعثًا على القلق المفرِط. أعتقد أنها بعد زواجى منها قد اندهشت بما يرضيها؛ لأنها لم تسمعنى قط آسف على حريتى، وقد كنت منشغلاً بالحسرة على أشياء أخرى.

ذهبنا إلى المصحة النفسية فى اليوم الذى قال لى فيه أوليفى إنه تحت أية ظروف لن يمكث عندى أكثر من شهر. أعددنا بعض الملابس فى صندوق سفر، وفى الحال ذهبنا فى المساء إلى الطبيب مولى.

كان فى استقبالنا بشخصه عند الباب. كان حينئذ شابًا وسيمًا. كان الصيف فى تمامه، وكان هو صغير الحجم، ,عصبى المزاج، وجهه لطيف، أسبغت عليه الشمس سُمرتها، وتلمع فيه عينان براقتان سوداوان. كان مثالاً للأناقة فى ردائه الأبيض الذى يكسوه من الياقة حتى حذائه. أثار إعجابى، بل كان واضحًا أننى كنت أيضًا محل إعجابه.

فى شىء من الارتباك وقد فهمت سبب دهشته، قلت له:

– نعم، سيادتك لا تثق باحتياجى للعلاج، ولا بجِدّيتى فى التأهب له.

بابتسامة خفيفة، لكنها هزتنى أجاب الطبيب:

– لماذا؟ ربما كان ضرر السيجارة عليك يفوق حقًا ما نُقرّه نحن الأطباء. لا أفهم فقط لماذا لم تكتفِ بتقليل عدد السجائر التى تدخنها بدلاً من الإقلاع عن التدخين مرة واحدة. يمكن للإنسان أن يدخن، ولكن لا ينبغى أن يفرط.

فى الحقيقة، لم أفكر قط فى إمكانية تدخين عدد أقل من السجائر لشدة رغبتى فى الإقلاع عنه نهائيًا. ولكن وقد وصلت الآن إلى أنه لن تفعل تلك النصيحة شيئًا غير أن تضعف عزيمتى. قلت فى كلمة حاسمة:

– قُضى الأمر؛ لذا فاترك التجرِبة لهذا العلاج.

– تجربة؟ وضحك الطبيب فى استعلاء. متى تهيأت لهذا العلاج، فلابد وأن ينجح. وإن لم ترغب فى استخدام قوتك البدنيّة مع جوفانا المسكينة، فلن تتمكن من الخروج من هنا. إن الإجراءات المألوفة لخلاصك ربما طالت لدرجة أنك قد تنسى رذيلتك.

دخلنا الجناح الذى خصصوه لى، وقد وصلنا إليه عائدين إلى الدور الأرضى بعد أن صعدنا إلى الطابق الثانى.

– أترى سـيـادتك؟ ذلك البـاب الموصَد بالمزلاج يعـوق الاتصـال بالجانب الآخر من الدور الأرضى وبه بوابة الخروج. حتى چوڤانًا ليست لديها مفاتيحه، وهى نفسها لكى تصل إلى الخارج ينبغى أن تصعد إلى الطابِق الثانى ومعها فقط مفاتيح ذلك الباب الذى فُتح لنا، المطل على تلك الاستراحة. هذا وتوجد دائمًا مراقبة على الطابق الثانى. لا بأس حقًا بوجودها بمستشفى مخصص للأطفال والنساء النفساء.

وأخذ يضحك، ربما من فكرة احتجازى بين الأطفال.

نادى چوڤانًا وقدمها إلىّ. كانت سيدة صغيرة الحجم لا يسهل تحديد عمرها الذى كان يتراوح مابين الأربعين والستين، كانت عيناها صغيرتين تلمعان فى حيوية أسفل الشعر الرمادى اللون. قال الطبيب:

– ها هو ذا السيد الذى ينبغى أن تستعدى لتسديد اللَّكمات له.

رمقتنى وهى تتفحصنى، احمرَّ وجهها بشدة وصاحت بصوت حاد:

– سأقوم بواجبى، ولكنى لن أستطيع بالتأكيد أن أتعارك مع سيادتك. إذا بدر منك ما يهدد، سأستدعى الممرِّض وهو رجل قوى البنية، وإذا لم يحضر على الفور، سأترك سيادتك تذهب حيثما تشاء؛ لأنّى لا أود بالتأكيد أن أخاطر بحياتى!

علمت بعد ذلك أن الطبيب قد عهد إليها بتلك المهمة مع وعده إياها بمكافأة سخية، مما ساهم فى إخافتها. أثارت كلماتها حينئذ سخطى. وقد زججت بنفسى وبإرادتى فى موقف سخيف!

ويا لها من مخاطرة بالحياة! صحت فيها: من سيتعرض لحياتك؟ توجهت إلى الطبيب: أرغب فى أن تنبه هذه السيدة ألاّ تضايقنى! لقد أحضرت معى بعض الكتب، وأود أن تتركنى وشأنى.

تدخل الطبيب ببعض كلمات التحذير لچوڤانًا. أما هى فلكى تلتمس لنفسها العذر، استمرت فى مهاجمتها لى:

– عندى ابنتان صغيرتان، وينبغى أن أعيش لهما.

– ربما وجدت نفسى غير جدير بقتلك. أجبتها بنبرة لم تكن بالتأكيد لتطمئن تلك المسكينة.

أبعدها الطبيب وهو يكلِّفها بالذهاب لإحضار شىء من الطابَق الأعلى واقترح علىّ أن يستبدل بها أخرى؛ لكى يعيد الطمأنينة لنفسى، وأضاف قائلاً:

– إنها ليست امرأة سيئة، وعندما سأوصيها بأن تكون أكثر تعقلاً، لن تسبب لك ما تشكو منه.

ورغبة منّى فى ألاّ أظهر أية أهمية للشخص المكلف بملاحظتى، صرحت بموافقتى على تحملها. شعرت بالحاجة إلى تهدئة نفسى، أخرجت من جيبى السيجارة قبل الأخيرة ودخنتها بشراهة. شرحت للطبيب أنّى أخذت اثنتين فقط معى، وأنّى أود أن أقلع عن التدخين عند منتصف الليل بالضبط.

انصرفت زوجتي مع الطبيب وقالت لي وهي تبتسم:

– مادمت قررت ذلك، كن قوياً.

ابتسامتها التي كنت أحبها جدا بدت لي استهزاءً بي. وفي تلك اللحظة ذاتها تولد في نفسي شعور جديد من شأنه أن يحبط في الحال وبصورة مؤسفة ما أقدمت عليه من محاولة بجِدّية شديدة. شعرت في الحال بالألم، ولكني عرَفت ماذا يعذبني، فقط عندما تركوني وحدي. جنون، وغَيرة قاسية من الطبيب الشاب. إنه جميل، طليق! مشهور شهرة ڤينوس عائلة ميديتشي. لم لا تُغرم به زوجتي؟ عندما كان يتبعها عند انصرافهما رمق بعينيه قدميها داخل حذائها الأنيق. إنها المرة الأولى التي شعرت فيها بالغَيرة منذ أن تزوجت. يا لها من كآبة! صاحبت بالتأكيد حالة سجني الذليل! تعاركت مع نفسي! كانت ابتسامة زوجتي هي المعتادة، ولم تكن سخرية من إزاحتي من المنزل. إنها عملت بالتأكيد على أن يحتجزوني على الرغم من أنها لم تكن تعبأ برذيلتي تلك؛ ولكنها فعلت ذلك بالتأكيد إرضاءً لي. ثم ألا أتذكر أنه ليس من السهل أن يقع أحد في غرام زوجتي؟ إذا كان الطبيب قد تأمل قدميها، هذا لأنه كان ينظر بالتأكيد إلى أي حذاء ينبغي أن يشتري لمحبوبته. لكنّي دخنت على الفور السيجارة الأخيرة، ولم يأتِ منتصف الليل بعد، ولكنها كانت الثالثة والعشرين، ساعة غير مناسبة لتدخين سيجارة أخيرة.

فتحت كتاباً. كنت أقرأ دون أن أعي ما أقرأ لدرجة أنّي رأيت الخيالات. فالصفحة التي كنت أحدق فيها ببصري كانت تحجبها صورة الدكتور

مولى، فى عظمة جماله وأناقته. لم أستطع الصبر! استدعيت چوڤانّا؛ لعل ثورتى تهدأ بالحديث معها.

جاءت وحملقت فىّ على الفور بنظرة ارتياب. صاحت بصوتها الحاد:

– لا تنتظر منّى أن أحيد عن تأدية واجبى.

وعلى ذلك، ولكى أطمئنها كذبت عليها، وشرحت لها أنّى لم أفكر فى ذلك قط، وأنّى لا أرغب بعد فى القراءة، بل أفضل تبادل الحديث معها.

أجلستها أمامى. كانت حقًّا تنفرنى بشكلها العجوز ذاك وعينيها الشائبتين الشبيهتين بعيون جميع الحيوانات الضعيفة. كنت أشفق على نفسى من صُحبة كتلك! حقًّا أننى حتى وأنا حر لا أعرف كيف أتخير الرفاق الذين يتواءمون معى؛ لأنهم عادةً ما يختاروننى هم، كما فعلت زوجتى.

رجوت چوڤانّا أن تسرى عن نفسى ولما صارحتنى بأنها لا تعرف شيئًا يستدعى انتباهى، طلبت منها أن تحكى لى عن أسرتها وأردفت أن الجميع تقريبًا فى هذا العالم لهم أسر.

وهكذا وافقت وبدأت تقص علىّ أنها أرغمت على إيداع ابنتيها فى مؤسسة لرعاية المحتاجين.

بدأت أنصت إلى قصتها باهتمام؛ لأن فكرة شهور الحمل الثمانية عشر تلك التى انتهت إلى مثل هذه العجلة، كانت فكرة تثير ضحكى.

إلا أنها كانت تميل للجدل الشديد، ولم أستطع الإنصات إليها عندما أرادت في بادئ الأمر أن تثبت لي أنه ما كان باستطاعتها أن تفعل غير ذلك لضآلة راتبها، وأن الطبيب كان مخطئًا عندما صرح لها قبل أيام قليلة بأن اثنتين من الكورونات في اليوم كافيتان منذ أن تكفلت مؤسسة رعاية الفقراء بأسرتها بكاملها. أخذت تصرخ:

– وماذا عن الباقي؟ أن تحصلا على المأكل والملبس، لا يعني بالتأكيد أن لديهما كل ما تحتاجان إليه! وها هي ذي سلسلة من الأشياء التي يجب أن توفرها لابنتيها اللتين لم أعد أتذكرهما، وحفاظًا على حاسة السمع لدي من صوتها الحاد، تعمدت أن أشغل تفكيري بشيء آخر. ولكنه أصابني على الرغم من ذلك بالضرر، وبدا لي أن من حقي طلب تعويض، قلت:

– ألا يمكن الحصول على سيجارة واحدة فقط؟ سأدفع لكِ عشر كورونات، لكن في الغد؛ لأنه ليست معي أية نقود.

أصيبت جوڤانّا بفزع شديد من عَرْضي هذا الذي عرضته عليها. أخذت تصرخ، كانت تريد استدعاء الممرِّض فنهضت من مكانها لتخرج.

عدلت في الحال عن اقتراحي لأسكتها، ودون تفكير، ولكي أتحدث فحسب في شيء آخر وأخفي ارتباكي، سألتها:

– أليس في هذا السجن شيء نشربه على الأقل؟

كانت إجابة چوڤانّا سريعة، ومع دهشتى جاءت فى لهجة محادثة عادية ودون صياح:

– بالتأكيد! سلَّمنى الطبيب زجاجة الكونياك هذه قبل أن ينصرف. هاهى ذى ما زالت مغلقة. كما ترى، لم يمسها أحد.

وجدت نفسى فى حالة لم أرَ لها مخرجًا آخر سوى السُّكْر. ذاك هو ما قادتنى إليه ثقتى بزوجتى.

فى تلك اللحظة بدا لى أن عادة التدخين السيئة لا تستحق كل هذا العناء الذى انتهيت إليه. لم أدخن منذ نصف الساعة، وما كنت أفكر فيه قط؛ حيث كنت مشغولاً بالتفكير فى زوجتى والدكتور مولى. إذن، لقد شفيت تمامًا، ولكننى مضحك بدرجة لا علاج لها!

نزعت سدادة الزجاجة، وسكبت من السائل الأصفر فى كأس صغيرة. أخذت چوڤانّا ترمقنى وقد فغَرت فاها، لكننى ترددت أن أقدِّم لها شيئًا منه.

– أيمكننى الحصول على المزيد منه عندما أفرغ هذه الزجاجة؟

طمأنتنى چوڤانّا بنبرة ازدادت لطفًا: كل ما تطلبه سيادتك! واستجابة لطلباتك فإنه يجب أن تنصرف السيدة التى تدير المخزن عند منتصف الليل!

لم أحتمل البخل قط؛ لذا حصلت چوڤانّا فى الحال على كأسها الصغيرة المملوءة إلى حافتها. وبمجرد أن انتهت من تقديم الشكر لى،

أفرغت الكأس فى جوفها، ووجهت على الفور عينيها اللامعتين تجاه · الزجاجة؛ لذا كانت هى نفسها التى أوحت لى بأن أسكرها. لكنه لم يكن حقًّا بالأمر الهين!

قد لا يكون بوسعى أن أكرِّر بالضبط ما قالته لى بلهجتها الخالصة الخاصة بمدينة تريستى، بعد أن احتسيت كئوسًا عديدة، لكن أحسست أنّى إنسان جدير بأن أستمع إليه عن طيب خاطر، لو لم أكن شاردًا مستغرقًا فى أفكارى.

أسرت إليّ في بادئ الأمر أنه بهذا الأسلوب يروق لها العمل. ففى هذا العالم يحق للناس جميعهم أن يمضوا ساعتين يوميًا على أريكة مريحة للغاية، أمام زجاجة بها مشروب طيب، من النوع الذى لا يضر.

حاولت أن أحادثها، أنا أيضًا. سألتها عما إذا كانت تنِّظم عملها بذلك الأسلوب ذاته، عندما كان زوجها على قيد الحياة.

أخذت تضحك. كان زوجها فى حياته يضربها أكثر مما يقبِّلها، ومقارنة بما كانت عليه من اضطرار للعمل من أجله، فكل شىء يمكن أن يبدو لها الآن راحة حتى قبل مجيئى إلى تلك الدار من أجل العلاج.

ثم استغرقت چوقانًا في التفكير، وسألتنى إذا ما كنت أؤمن بأن الأموات يرون ما يصنع الأحياء. أومأت برأسى فى إيجاز. لكنها كانت تريد معرفة ما إذا كان الموتى لدى وصولهم إلى الدار الآخرة، سيعلمون بكل ما حدث هنا على الأرض حينما كانوا أحياءً.

أسترعى السؤال انتباهى، واستوقفنى هنيهة من الوقت. ثم إنها أثارته بصوت كان يزداد همسًا؛ ذلك لأن چوڤانّا قد خفضته لكى لا يسمعها الأموات.

قمت إذن بخيانة زوجك، هكذا أجبتها.

طلبت منى ألاّ أرفع صوتى ثم اعترفت لى بأنها خانته، لكن فى الشهور الأولى فقط من زواجهما. ثم اعتادت بعد ذلك على اللطمات وأحبت زوجها.

ولكى أبقى على حيوية الحديث، سألتها:

– يرجع إذن، وجود ابنتكم الأولى إلى الرجل الآخر؟

أقرت بصوت أبقته خافتًا أنها تعتقد ذلك؛ لاسيما مع وجود بعض تشابه بينهما. كانت تؤلمها كثيراً خيانتها لزوجها. كانت تقول ذلك، لكن وهى تواصل الضحك؛ لأنها أمور يضحك الناس منها حتى عندما تؤلمهم.

إنما ذلك فقط منذ وفاة زوجها؛ لأنه لم يكن أمرًا له أهمية قبل ذلك، فما كان الزوج يعلم به.

انتابنى شعور بالتعاطف الأخوى معها، وحاولت أن أخفّف ألمها، وقلت لها إنّى أظن أن الموتى يعرفون كل شيء، لكن هناك أموراً لا يكترثون بها.

– الأحياء فقط هم الذين يعانون منها! هكذا صحتُ وأنا أضرب بقبضة يدى على المائدة.

أصبت بكدمة فى يدى، وليس هناك أفضل من الألم الجسدى لإيقاظ أفكار جديدة. جال بخاطرى حين كان يعتصرنى الألم من الشك فى أن زوجتى تنتهز فترة انعزالى لتخوننى، أنه ربما لا يكون الطبيب قد برح المستشفى، وفى هذه الحالة وجب علىّ أن أعود إلى طمأنينتى. رجوت چوفانًا أن تذهب لترى، وقلت لها إنّى أشعر بالحاجة إلى إخبار الطبيب بشىء ووعدتها بالزجاجة كاملة، مكافأة لها. أعلنت اعتراضها؛ لأنها لا تحب الإفراط فى الشرب، لكنها عملت على الفور على إرضائى، وسمعتها تتسلق الدرج الخشبى وهى تترنح حتى الطابق الثانى لتخرج من تلك الحبسة التى كنا فيها. ثم نزلت ثانيةً، ولكنها انزلقت محدثة جلبة كبيرة، وأخذت تصرخ:

– فلتذهب إلى الجحيم! همهمت فى حماس: لو دقّ عنقها، لصار وضعى أكثر بساطة.

على عكس ذلك، أتت إلىّ وهى تبتسم؛ لأنها كانت فى تلك الحالة التى تخف فيها حدة الألم. قصت علىّ أنها تحدثت مع الممرض الذى كان ذاهبًا إلى فراشه، ولكنه سيظل رهن إشارتها، فى حالة إذا ما بدر منى ما يسئ.

رفعت يدها وهى تشير بالسبابة، وصاحبت كلماتها بحركة تهديد خففت ابتسامتها من وطأته. ثم أضافت بنبرة أكثر جفاءً أن الطبيب لم

يعد منذ أن خرج مع زوجتى. منذ ذلك الحين بالضبط! بل ظل المرض لبعض الوقت في انتظار عودته؛ لأن هناك مريضًا كان في حاجة لملاحظته. والآن فقد الأمل في ذلك.

نظرت إليها وأنا أتحرى ما إذا كانت الابتسامة التى كانت ترتسم على وجهها معتادة أو أنها جديدة تمامًا، ويرجع وجودها إلى أن الطبيب كان موجودًا مع زوجتى بدلاً منى، وأنا مريضه. اعترانى غضب أدار رأسى. ينبغى أن أعترف أن شخصين كانا يتصارعان كالمعتاد بداخلى، كان أحدهما وهو الأكثر حكمة يقول لى: «يا أحمق! لماذا تظن أن زوجتك تخونك؟ إنها ليست بحاجة إلى أن تحبسك لتواتيها الفرصة». أما الآخر، وهو بالتأكيد الذى كان لديه الرغبة فى التدخين، فكان ينعتنى هو الآخر بالأحمق، ولكنه كان يصيح: «ألا تلتفت إلى حالة التحرر التى تأتى من غياب الزوج؟ ومع الطبيب الذى تدفع له أنت!».

قالت چوڤانّا وهى مازالت تشرب:

– نسيت أن أغلق باب الطابق الثانى. لكنّى لا أرغب فى صعود ونزول ذينك الطابقين. توجد الآن بأعلى كثرة من الناس ويا لموقفك إذا ما حاولت الهرب.

– معك حق! قلت فى نفاق كان قليله كافيًا لخداع تلك المسكينة. ثم احتسيت أنا أيضًا الكونياك، وشرحت لها أنه مادام لدى الكثير من ذلك الشراب تحت تصرفى، فلم تعد للسجائر أهمية عندى. صدقتنى فى الحال،

وحينئذ قصصت لها أنّى لم أكن فى الحقيقة أود التخلص من عادة التدخين. كانت زوجتى تريد ذلك. ولابد أنها كانت تعرف أنّى عندما أتمكن من تدخين عشر سجائر أتحول إلى رجل فظيع. وفى هذه الحالة إن وقعت أية سيدة في نطاق مرماى، فإنها تعرض نفسها للخطر.

أخذت جوڤانّا تضحك بصخب وهى مسترخية على الأريكة:

– وهل هى زوجتك التى كانت تمنعك من تدخين السجائر العشر اللازمة؟

– كان ذلك بالضبط! كانت على الأقل تمنعنى من ذلك.

لم تكن جوڤانّا حتمًا بالبلهاء عندما شربت كثيرًا من الكونياك. انتابتها عاصفة من الضحك كادت توقعها من على الأريكة، لكن عندما استعادت أنفاسها، رسمت بكلمات متقطعة خطًا بيانيًا رائعًا استوحته من قصة مرضى: عشر سجائر... نصف الساعة... يضبط المنبه... وبعد ذلك...

صححت لها:

– أحتاج إلى ساعة تقريبًا لتدخين عشر سجائر. يلزم بعد ذلك ساعة أخرى تقريبًا للحصول على التأثير الكامل، ساعة قد تزيد أو تقل عن عشر دقائق...

فجأة انشغل بال جوڤانّا، ونهضت دون عناء كبير من على الأريكة. قالت إنها ستخلد للنوم؛ لأنها تشعر بشيء من الألم فى رأسها. عرضت

عليها أن تأخذ معها الزجاجة لأنّى سئمت ذلك المشروب. وفى خداع قلت إنّى أود فى اليوم التالى أن يحضروا لى نبيذاً طيباً.

لكنها لم تكن تفكر فى النبيذ. وقبل أن تنصرف والزجاجة تحت ذراعها رنت إلىّ بنظرة شريرة أفزعتنى.

كانت قد تركت الباب مفتوحًا وبعد لحظات سقطت فى وسط الحجرة علبة التقطتها فى الحال: كانت تحتوى على إحدى عشرة سيجارة. أرادت المسكينة چوڤانّا أن تزيد عددها. كانت سجائر عادية هنغارية. لكن السيجارة الأولى التى أشعلتها كان مذاقها طيبًا للغاية. شعرت بارتياح كبير. رأيت فى بادئ الأمر أننى وجدت لذة لأنّى انتصرت فى تلك الدار التى كانت صالحة لاحتجاز الأطفال وليس لأمثالى. ثم اكتشفت أنّى انتصرت أيضًا على زوجتى، وخيل إلىّ أنّى أعددت لها الثمن وبالعملة ذاتها؛ لأنه، لو كان الأمر خلاف ذلك، أكانت غيرتى تتحول إلى فضول يمكن احتماله؟ مكثت هادئًا فى ذلك المكان، وأنا أدخن تلك السجائر الباعثة على الغثيان.

بعد حوالى نصف الساعة تقريبًا، تذكرت أنّى بحاجة إلى الهروب من تلك الدار، حيث كانت چوڤانّا تترقب مكافأتها. خلعت حذائى وخرجت إلى الدهليز. كان باب حجرة چوڤانّا مواربًا وبدت لى نائمة؛ نظرًا لأنفاسها المسموعة والمنتظمة. صعدت بحذر شديد إلى الطابق الثانى، وخلف ذلك الباب - حيث مفخرة الدكتور مولى - لبست حذائى.

وخرجت إلى بسطة، ثم أخـذت أهبط درجات السلم على مـهل حتى لا أثير الشكوك.

وصلت إلى بسطة الطابق الأول، وعندمـا رأتنى آنسـة ترتدى فى تأنق رداء الممرضات، تابعتنى لتسألنى بلطف:

– أتبحث سيادتك عن أحد؟

كانت حسناء، ولم يكن ليثير استيائى أن أدخن السجائر العشر بجوارها. ابتسمت لها فى شىء من الحدة:

– أليس الطبيب مولى بالدار؟

حملقت فى دهشة:

– فى هذه الساعة لا يوجد أبداً هنا.

– ألا تعرفين أين يمكن أن أجده فى هذه الساعة؟ لدى مريض فى البيت بحاجة إليه.

وبرقة أعطتنى عنوان الطبيب، ورددته عدة مرات لكى أقنعها أنّى أود أن أتذكره. لم أكن بالفعل أتعجل الانصراف، ولكنها استدارت عنّى متضجرة. انطلقت مباشرة خارج السجن الذى وضعونى فيه.

كانت فى أسفل الدار، سيدة متأهبة لتفتح لى الباب. لم تكن معى نقود وهممت:

– سأعطيك الإكرامية مرة أخرى.

لا يمكن أبداً معرفة ما سوف يحدث. أما بالنسبة لى فالأمور تتكرر: لم يكن من المستبعد أن أمر من جديد من هناك.

كانت الليلة مضيئة وحارة. خلعت القبعة لأتنسم نسيم الحرية. تأملت النجوم فى دهشة كأنّى اكتشفتها منذ قليل. وفى اليوم التالى، بعيداً عن المصحة، كنت سأقلع عن التدخين. وفى تلك الأثناء، كان هناك مقهى لا يزال مفتوحًا، فحصلت على سجائر من النوع الجيد؛ لأنه لم يكن من الممكن أن أنهى حياتى كمدخن بسيجارة من سجائر المسكينة چوڤانًا . كان نادل المقهى الذى أعطانى إياها بضمانه يعرفنى.

وصلت إلى الڤيلا، وقمت بدق جرس الباب فى عنف. ظهرت الخادمة أولاً فى الشرفة ثم، بعد وقت غير وجيز، ظهرت زوجتى. ترقبتها وأنا أفكر في برود تام:

– قد يبدو أن الدكتور مولى موجود، ولكن ما إن تحققت زوجتى منّى دوى بالطريق الخالى صدى ضحكاتها الصافية بدرجة كانت تكفى لمحو أية شكوك.

تباطأت عند دخولى المنزل فى القيام بتقصٍّ للحقيقة. وعدت زوجتى بأن أقص عليها فى اليوم التالى مغامراتى التى كانت تظن أنها تعرفها، ولكنها سألتنى:

– لم لا تخلد للنوم؟

لكى أجد عذراً، قلت لها:

- يُخيل إلىّ أنكِ انتهزتِ فرصة غيابى وغيرتِ موضع الصوان.

حقًا أتخيل أن أماكن الأشياء تتغير دائمًا فى المنزل، وحقيقةً أيضًا أنه كثيراً ما تنقلها زوجتى، ولكنّى فى تلك اللحظة كنت أراقب كل ركن صغير؛ لكى أرى ما إذا كان الدكتور مولى مختبئًا به بجسمه الصغير الأنيق.

زفت إلىّ زوجتى خبراً سعيداً. لقد تصادف وهى عائدة من المستشفى أن قابلت ابن السيد أوليڤى، الذى حكى لها أن والده العجوز قد تحسنت صحته كثيراً، بعد ما تناول الدواء الذى وصفه له طبيبه الجديد.

وأدركت، وأنا أستسلم للنعاس، أنّى أحسنت عندما تركت الدار؛ إذ أصبح لدى الوقت لأعتنى بنفسى فى تمهل. حتى ابنى الذى كان يرقد بالغرفة المجاورة لم يتهيأ بعد للحكم علىّ أو لمحاكاتى. لم يكن هناك داعٍ للعجلة على الإطلاق.

وفـــاة والـــدى

رحل الطبيب، ولا أدرى حقًا ما إن كانت هناك ضرورة لسرد قصة حياة أبى. إذا وصفت والدى وصفًا دقيقًا، فربما أدى ذلك إلى أنه لكى أصل إلى شفائى كان من الضرورى أن أبحث فى شخصه هو أولاً، وبذلك يمكن التوصل إلى العدول عن الفكرة. سأتقدم بشجاعة؛ لأنّى أدرك أن والدى إن كان قد احتاج إلى العلاج نفسه، فإن ذلك لمرض يختلف تمامًا عن مرضى. على أية حال، لكى لا أضيع الوقت سأتحدث عنه بالقدر الذى يساعدنى فقط على إنعاش ذكرياتى.

«١٥-٤-١٨٩٠ الساعة $\frac{١}{٢}$ ٤ مات والدى. U.S».

ولمن ليس له علم بهذين الحرفين فإنهما لا يعنيان الولايات المتحدة، بل سيجارة أخيرة. إنها العبارة التى أجدها مدونة على جزء من أجزاء كتاب لأوستوالد[١] فى الفلسفة الوضعية، كنت أمضى ساعات عديدة فى قراءته، وأنا أفيض أملاً، ولكنّى لم أفهمه قط. قد لا يصدق أحد ذلك،

(١) ويليام أوستوالد (١٨٣٥-١٩٣٢) الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء (١٩٠٩).

لكن على الرغم من تلك الصيغة، فإن تلك العبارة تسجل أكثر الأحداث أهمية فى حياتى.

توفيت والدتى ولم أكن أتممت بعد الخامسة عشرة. ألفت أشعاراً لتكريمها، الأمر الذى لا يعادل البكاء عليها على الإطلاق، منذ تلك اللحظة ظل يصاحبنى فى آلامى ذلك الإحساس بأن هناك حياة جادة ومفعمة بالعمل تنتظرنى. و كان الألم نفسه يشير إلى حياة أكثر عمقاً، ثم إن شعوراً دينيًا حيًا قد سكن ولطف من الفاجعة الجسيمة. كانت أمى لا تزال حية على الرغم من بعدها عنّى، ويمكنها أيضًا أن تسعد بالنجاحات التى كنت أتأهب للوصول إليها. شعور جميل بالارتياح! أتذكر تمامًا حالتى فى ذلك الحين. وبسبب وفاة والدتى وما ولدته عندى من مشاعر صحية، أخذ كل شىء عندى يتحسن.

أما موت والدى فقد كان كارثة حقيقية وكبيرة. فلم يعد هناك وجود للجنة بعد ذلك، وأنا فى الثلاثين من عمرى، أصبحت رجلاً منتهيًا. أنا أيضاً! أدركت للمرة الأولى أن أهم جزء فى حياتى وأكبرها حسماً خلفته ورائى على نحو لا يعوض. لم يكن ألمى أنانيًا فقط كما قد يبدو فى هذه الكلمات. الأمر مختلف تمامًا! كنت أبكيه وأبكى نفسى، وأبكى نفسى فقط لأنه مات. وحتى ذلك الحين، كنت أنتقل من سيجارة إلى سيجارة، ومن كلية بالجامعة إلى الأخرى، وبثقة فى قدراتى لا تهتز. غير أنّى أعتقد أن تلك الثقة التى كانت تيسر لى حياتى كثيراً، ربما كانت لتستمر حتى اليوم، لو أن أبى لم يقض نحبه. بعد أن توفى لم يعد هناك غد أراه مكانًا لمقاصدى.

لمرات عديدة وعندما أفكر فى الأمر، أندهش من غرابة هذا اليأس من نفسى، وكيف أنه نتج عن موت والدى وليس قبله. إنها أمور فى مجملها حديثة العهد، ولكى أتذكر آلامى الجسيمة وتفاصيل تلك الكارثة لست بالتأكيد بحاجة إلى أن أحلم كما يشاء السادة الخبراء فى التحليل النفسى. أذكر كل شيء، لكنّى لا أعى شيئًا. أنا لم أعش من أجل والدى حتى لحظة وفاته. لم أبذل أى جهد لأقترب منه، وعندما واتتنى الفرصة لعمل ذلك دون الإساءة إليه، امتنعت عن القيام به. كان الجميع بالجامعة يعرفونه بالكنية التى أطلقتها عليه وهى سيلقا العجوز راسل المال. كان لا بد من المرض حتى أرتبط به، المرض الذى تحول على الفور إلى موت، لأنه كان مرضًا خاطفًا، ولأن الطبيب اعتبره على الفور حالة ميئوسًا منها. وعندما كنت بمدينة تريستى كنا نتقابل لما يقرب من الساعة يوميا. وما طال لقائى به وما كثر بقدر ما هو عليه فى بكائى. ليتنى اعتنيت به أكثر وبكيته أقل! كان من الصعب أيضًا أن نتجالس؛ لأنه لم يكن بيننا على المستوى الفكرى شيء مشترك. عندما كان ينظر أحدنا إلى الآخر، كانت تعترى كلينا ابتسامة إشفاق واحدة، كانت عنده أكثر مرارة تمتزج بقلق الأب الصادق على مستقبلى. أما ابتسامتى أنا فكانت متسامحة؛ لأنّى كنت على يقين من أن أخطاءه تلك لا آثار لها، وكنت أعزو حقيقة البعض منها إلى تقدم السن. كان أول من ارتاب فى طاقاتى، - كما يبدو لى -، فى وقت مبكر جدًا. غير أنّى أشك فى أنه، ودون الاستناد إلى إثبات علمى، كان لا يثق بى؛ ذلك لأننى أتيت منه، وعمل ذلك - وهنا بيقين علمى مؤكد - على زيادة عدم اطمئنانى له.

لكن والدى كان يتمتع بشهرة التاجر القدير، غير أنّى كنت أعلم أن أعماله كان يديرها أوليڤى منذ سنوات طويلة. كان هناك تشابه بيننا فيما يتعلق بعدم القدرة على أعمال التجارة، لكن لم تكن هناك أوجه تشابه أخرى؛ أستطيع القول إنه فيما بيننا كنت أمثّل القوة وهو الضعف. نعم كل ما سجلته فى هذه الصفحات يدل على إنه يوجد وكان يوجد دائمًا بداخلى - وربما كان ذلك سبب تعاستى البالغة - ميل جارف نحو الأفضل. إن أحلامى بالتوازن والقوة جميعها لم تكن لتفسر بطريقة أخرى. لم يكن أبى يعرف شيئًا عن ذلك كله. كان يعيش فى توافق تام مع الأسلوب الذى تربى عليه، وعلىّ أن أقر بأنه لم يبذل قط أى جهد نحو الأفضل. كان يدخن طوال اليوم وأيضًا بالليل عندما كان يجافيه النوم بعد وفاة والدتى. كان يشرب أيضًا بشكل معتدل، حسبما يليق بالجنتلمان، كان يشرب فى المساء، فى أثناء العشاء ليضمن أن يحظى بالنوم بمجرد أن يضع رأسه على الوسادة، غير أنه كان يعتبر التدخين والكحول أدوية جيدة.

وفيما يتعلق بالنساء، علمت من أقاربى أن والدتى كان لديها بعض أسباب للغيرة، بل يبدو أن السيدة الوديعة اضطرت لأن تتدخل بعنف لكى تكبح جماح زوجها. كان يترك نفسه للانقياد لها؛ لأنه كان يحبها ويحترمها. لكن يبدو أنها لم تتمكن قط من الحصول منه على الاعتراف بأية خيانة؛ ولذلك ماتت وهى على يقين من أنها كانت مخطئة فى حقه. ومع ذلك يحكى الأقارب الطيبون أنها وجدته متلبسًا تقريبًا بفعلته عند

مصممة أزيائها. أفرط أبى تقديم المبررات لكى يموه الأمر، وأصر بشدة على موقفه مما جعلها تصدقه. لم تكن هناك عواقب لذلك الفعل سوى عدم ذهاب أمى وأبى كذلك إلى تلك الخياطة. أعتقد أنّى لو كنت مكانه لانتهى بى الأمر إلى الاعتراف، ولما كان باستطاعتى أن أهجر بعد ذلك مصممة الأزياء؛ ذلك لأنّى أمد جذورى حيث أجد لها مكانًا.

كان والدى قادرًا على الحفاظ على هدوئه كما يليق برب أسرة حق. كان يتمتع بهذا الهدوء فى بيته وبداخل نفسه. لم يقرأ من الكتب سوى التافه منها أو ما يتناول الفضيلة. لم يكن رياءً منه، بل اقتناعًا فى أصدق درجاته: أعتقد أنه كان يشعر بإحساس عميق بالحقيقة التى تتضمنها تلك المواعظ الأخلاقية، وأن سكينة ضميره كانت ترجع إلى ميوله الصادقة نحو الفضيلة. الآن والسن يتقدم بى وأقترب من هيئة رب الأسرة التقليدى، أشعر أنا أيضًا أن اللا أخلاقية الموعوظة تستحق العقاب أكثر من الفعل اللاأخلاقى ذاته. قد يصل الأمر إلى الاغتيال بدافع الحب أو الكراهية، وإلى ترويج القتل بدافع الشر فقط.

كانت بيننا أشياء مشتركة، حتى أنه صرح لى بأنه يعدنى قلما بين الأشخاص الذين يسببون له أكبر القلق فى هذا العالم. قد دفعتنى رغبتى فى صحة جيدة إلى دراسة جسم الإنسان. وعلى العكس من ذلك، عرف والدى، كيف يمحو من ذاكرته أية فكرة عن تلك الآلة المخيفة. بالنسبة له، القلب لا ينبض، وليست هناك ضرورة لذكر الصِّمامات والأوردة والتمثيل الغذائى لتفسير كيف يعيش جسمه. لا توجد أية حركة؛

لأن التجربة كانت تفيد بأن كل ما يتحرك ينتهى به الأمر إلى التوقف. والأرض كانت أيضًا بالنسبة له ثابتة وتقوم على قاعدة صلُبة. لم يفصح بالطبع عن ذلك قط، لكنه كان يعانى لو قالوا له شيئًا لا يتطابق مع ذلك المفهوم. ذات يوم، قاطعنى فى تقــزُّز عندما حدثته عن البلدان الواقعة فى المنطقة المقابلة لمنطقتنا، على الجانب الآخر من الأرض. كان التفكير فى أولئك النــاس ذوى الرءوس المتجهة إلى أسفــل يثير الاضطراب فى معـدته.

كان يستنكر منى شيئين آخرين: شرود ذهنى وميلى إلى السخرية من أكثر الأشياء جِدية. أما فى مسألة شرود الذهن فقد كان يختلف عنّى؛ لأنه كان يدون كل شىء يريد أن يتذكره فى كتيب، وكان يراجعه أكثر من مرة خلال اليوم. وهكذا كان يظن أنه تغلب على مرضه ولم يعد يعانى منه. فرض علىّ أنا أيضًا ذلك الكتيب، لكنّى لم أسجل به سوى أخبار بعض سجائر أخيرة.

وبالنسبة لازدرائى الأشياء الجادة، أرى من بين عيوبه أنه كان يعتبر أشياء كثيرة فى هذا العالم أشياء جادة. على سبيل المثال: بعد ما انتقلت من دراسة الحقوق إلى الكيمياء، وعدت من جديد، بعد الحصول على إذن منه، إلى دراسة الحقــوق، قال لى فى طيبة: ولكن يظل جليًا أنك مجنون.

لم أشعر بالإهانة من ذلك على وجه الإطلاق، وشعرت بالامتنان له؛ إذ وافق على طلبى، ووددت إضحــاكــه مكافــأة له. ذهبت إلى الطبــيب

كانيستريتى ليفحصنى وأحصل منه على شهادة طبية. لم يكن الأمر سهلاً؛ لأنه كان علىّ أن أخضع لفحوصات طويلة ودقيقة. وبعد أن حصلت على الشهادة، أحضرتها بنشوة الانتصار إلى والدى، لكنه لم يستطع الضحك. وبنبرة أسى عميق والدموع فى عينيه صاح: - آه! حقًا إنك لمجنون!

وهذا كان جزاء التمثيلية المضْنية غير الضارة التى قمت بها .لم يغفرها لى قط؛ ولذلك لم يضحك منها مطلقًا. أيمكن الذهاب إلى طبيب للفحص، على سبيل المزاح؟ أيطلب تحرير شهادة للدعابة مزودة بالأختام بغرض المزاح؟ إنها أمور مجانين!

ومن ثم فأنا، مقارنة به، كنت أمثل القوة، وأتذكر أحيانًا أن فقدان ذلك الوهن الذى كان يسمو بى، إنما كنت أشعر به وكأنه نقصان بى.

أذكر كيف تعرض وهنه للمعاناة عندما حمله ذلك الوغد، أوليڤى، على كتابة الوصية. كانت تلح على أوليڤى فكرة تلك الوصية التى كانت تخضع بموجبها إدارة كل شئونى لوصايته، ويبدو أنه عمل طويلاً ذلك العجوز على إقناع والدى بذلك العمل المؤسف للغاية. وفى نهاية الأمر رضخ أبى لكن وجهه العريض الهادئ اكفهر. كان يفكر فى الموت بصورة ملحة كأنه تعامل معه بذاك الفعل من خلال ذلك الإجراء.

وذات مساء سألنى:- هل تعتقد أنه سيتوقف كل شىء عندما نلقى حتفنا؟

أفكر في أسرار الموت كل يوم، لكنّي ما كنت لأقدر على إعطائه المعلومات التي كان يطلبها. ولكي أدخل السرور في نفسه ابتدعت أكبر الأفكار يقيناً ببهجة مستقبلنا.

– أعتقد أن السعادة ستخلد؛ لأن الألم لن تبقى له ضرورة. إن التحلل يمكن أن يُذكّر باللذة الجنسية. ومن المؤكد أنه سيكون مصحوباً بالشعور بالسعادة والراحة نظراً لأن إعادة البنية شاقة للغاية. لابد وأن يكون التحلل هو مكافأة الحياة!

لم تجد فكرتي أي صدى. كنا لا نزال أمام المائدة بعدما تناولنا وجبة العشاء. نهض من على المقعد دون إجابة، أفرغ كوباً آخر وقال:

– إنها ليست ساعة التفلسف وخاصة معك!

وانصرف. اتبعته وأنا مغتم وخطر لي أن أبقى معه حتى ينصرف عن تلك الأفكار المحزنة. أبعدني وقال لي إنّي أذكّره بالموت ولذاته.

لم يستطع نسيان تلك الوصية إلى أن أبلغني بها. كان يتذكرها كلما رآني. وذات مساء انفجر قائلاً:

– ينبغي أن أخبرك أنّي كتبت وصيتي.

ولكي أبعده عن كابوسه ذاك، تغلبت على الفور على المفاجأة التي سببها إخباره لي بها وقلت له:

– لن يصيبني أبداً هذا الانزعاج؛ لأنّي آمل أن يموت جميع ورثتي قبلي!

سرعان ما استاء من استهزائي من أمر غاية في الجدّية كهذا، وتملكته رغبة كبيرة في إنزال العقاب بي؛ لذا كان من السهل عليه أن يقص عليَّ قصة تلك الضربة القاضية التي صوبها نحوي حين وضعني تحت وصاية السيد أوليڤي.

ينبغي أن أذكر ذلك: ظهرت بمظهر الفتى الطيب: امتنعت عن إبداء أية معارضة لكي أنتزعه من ذلك التفكير الذي كان يعذبه. وقررت أنه مهما كانت وصيته الأخيرة فسأتواءم معها.

- ولعلني ربما - إضافة لذلك - أستطيع التصرف بطريقة تحملك على تغيير رغباتك الأخيرة.

لقد سُر من ذلك؛ لأنه كان يرى أيضًا أنّي أتوسم فيه طول العمر، بل عظم امتداده. وعلى الرغم من ذلك، أراد أن أقسم له اليمين على ألا أحاول أبدًا تقليص قدرات السيد أوليڤي، إن لم يغير هو في الوضع القائم. أقسمت، بما أنه لم يرغب في الاكتفاء بكلمة شرف وعدته بها. كنت وديعًا جدا في ذلك الحين، لدرجة أنني أستعيد دائمًا بذاكرتي ذلك المشهد كلما عذبني الندم على أنّي لم أحبه بقدرٍ كافٍ قبل رحيله. وحتى أكون صادقًا ينبغي القول إن الإذعان لإرادته كان يسيرًا عليَّ؛ لأنه كانت تروق لي حينئذ فكرة إرغامي على عدم القيام بعمل.

ذات مرة منذ حوالي عام قبل وفاته، استطعت التدخل بحزم كافٍ لصالح صحته. أسرَّ لي أنه يشعر بالمرض، وأرغمته على الذهاب إلى

أحد الأطباء، واصطحبته أيضًا إلى هناك. كتب له ذاك الطبيب بعض العقاقير، وطلب منا أن نعود إليه بعد بضعة أسابيع. لكن والدى لم يرغب فى ذلك، وأفصح عن أنه يمقت الأطباء مثلهم مثل حفارى القبور، وحتى الدواء الذى وصفه له لم يتناوله؛ لأنه يذكره أيضًا بالأطباء وحفارى القبور. ظل ساعتين دون تدخين، وتناول وجبة واحدة دون نبيذ. شعر بتحسن كبير؛ لأنه استطاع أن يتخلص من العلاج، وعندما رأيته أكثر مرحًا، لم أعد أفكر فى الدواء.

ثم كنت أراه أحيانًا حزينًا. كانت الدهشة تصيبنى لو رأيته مبتهجًا، وهو هكذا عجوز وحيد.

ذات مساء فى أواخر شهر مارس عدت إلى المنزل متأخرًا قليلاً عن المعتاد. لا بأس: كنت قد وقعت أسيرًا فى أيدى صديق مثقف، أراد أن يُسِر لى ببعض أفكاره حول أصول المسيحية. كانت المرة الأولى التى يطلب فيها منى أن أفكر فى تلك الأصول، ورغم ذلك تكيفت مع تلك المحاضرة الطويلة مجاملةً للصديق. كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا والجو باردًا. كان كل شىء مقيتًا ومشوشًا بما فى ذلك اليونانيون واليهود الذين كان يحدثنى عنهم صديقى. ومع ذلك تكيفت مع العذاب ذاك ساعتين كاملتين. إنه ضعفى المعتاد! أراهن على أننى ما زلت حتى اليوم غير قادر على المقاومة، حتى أنه لو جد شخص ما فى طلبه بإمكانه أن يدفعنى إلى دراسة علم الفلك لبعض الوقت.

دخلت الحديقة التى تحيط بڤيلتنا. وكان يؤدى إليها طريق مختصر تسير به العربات. كانت ماريا، خادمتنا، تنتظرنى بالنافذة، وعندما سمعتنى وأنا أقترب، صاحت فى ظلمة الليل:

- سيد تزينو؟

كانت ماريًا خادمة من نوع لم يعد له وجود الآن. كانت تعمل لدينا منذ خمسة عشر عامًا، تضع شهريًا جزءًا من مرتبها فى صندوق التوفير تحسبًا لسنوات شيخوختها، لكن مدخراتها لم تنفعها؛ لأنها فارقت الحياة فى منزلنا بعد وقت قليل من زواجى، وكانت لاتزال تعمل.

أبلغتنى أن والدى عاد إلى المنزل منذ بضع ساعات، غير أنه أراد أن ينتظرنى لتناول العشاء. وحينما ألحت أن يأكل فى تلك الأثناء، طردها بأسلوب يفتقر إلى اللُّطف. ثم سأل عنى العديد من المرات وكان قلقًا ومضطربًا. أفهمتنى ماريًا أنها ترى أن والدى لم يكن على ما يرام. كانت تراه يتلفظ بصعوبة وأنفاسه متقطعة. علىّ أن أقول إنها كانت دائمًا بمفردها معه؛ لذا كانت فكرة أنه مريض مرسخة غالبًا فى عقلها. كانت أمام السيدة المسكينة أشياء قليلة لتلاحظها فى المنزل المنعزل، وبعد التجربة التى خاضتها مع والدتى كانت تتوقع أنه على الجميع أن يلقوا حتفهم قبلها.

أسرعت إلى حجرة الطعام بشىء من الفضول ولم أكن بعد قلقًا. نهض والدى فى الحال من الأريكة التى كان مسترخيًا عليها واستقبلنى

بفرحة غامرة لم تستطع أن تؤثر فى؛ لأننى لمحت فيها أول الأمر شيئًا من التأنيب. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تلك الحفاوة كافية لتدخل الاطمئنان فى قلبى؛ لأن الفرحة بدت لى علامة شفاء. لم أجد به أثرًا لذلك التلعثم أو ضيق التنفس الذى حدثتنى عنه ماريًا. لكنه، بدلاً من أن يوبخنى، قدم اعتذاره لتشبثه بالرأى.

– ماذا تريد أن نصنع؟ سألنى بطيبة قلب – نحن اثنين نعيش بمفردنا فى هذا العالم، وكنت أود أن أراك قبل أن أذهب لفراشى.

ليتنى تصرفت بتلقائية وأخذت أبى العزيز بين ذراعى، أبى الذى أصبح وديعا ودودًا بعد مرضه! على عكس ذلك، أخذت أشخّص الأعراض التى أمامى فى برود: العجوز سيلقا أصبح أكثر لطفًا؟ أيكون مريضًا؟ حملقت فيه بارتياب، ولم أجد شيئًا أفضل من أن أوجِّه إليه بعض اللوم:

– لماذا انتظرت طوال هذا الوقت حتى تأكل؟ كان بإمكانك أن تتناول الطعام، ثم تنتظرنى!

ضحك بحيوية كبيرة:

– يأكل المرء بشهية عندما يكون مع آخر.

ربما كانت هذه البهجة أيضًا علامة لشهية جيدة. اطمأننت وأخذت أتناول الطعام. وبخُفّه المنزلى وفى خطوات مهتزة، اقترب من المائدة وشغل مكانه المعتاد. ثم أخذ يرمقنى كيف آكل، فى حين لم يتناول هو،

طعامًا أخر بعد أن أكل ملعقتين غير ممتلئتين، وأبعد أيضًا عنه الطبق الذى كان يقزّزه. لكن الابتسامة كانت مستمرة على وجهه العجوز. أتذكر فقط، كما لو أن الأمر قد حدث بالأمس، أنّى نظرت مرتين فى عينيه، وهو يبعد نظراته عنى. يقال إن هذه علامة الرياء، لكنى أعرف الآن أنها علامة المرض. فالحيوان العليل لا يترك الفرصة للنظر فى عينيه اللتين ربما توحيان بالمرض والضعف.

ظل ينتظر أن يسمع منّى كيف قضيت تلك الساعات الطويلة التى انتظرنى فيها. ولما رأيته مصرًا على ذلك كثيرًا، توقفت للحظة عن الطعام وحكيت له بجفاء، أننى حتى تلك الساعة كنت أناقش أصول المسيحية.

حدق فى فى ريبة وحيرة:

– أتفكر أنت أيضًا، الآن، فى الدين؟

كان واضحًا أنّى سأرضيه كثيرًا إذا ما قبلت التحدث معه فى الدين. لكن على عكس ذلك، فأنا الذى كنت أشعر أنّى محارب عندما كان على قيد الحياة (الآن لم أعد كذلك) أجبت بإحدى الجمل المعتادة التى نتداولها كل يوم فى المقاهى المنشأة بجوار الجامعات:

– الدين بالنسبة لى ليس إلا ظاهرة كغيرها ينبغى دراستها.

– ظاهرة؟ سألنى وهو مرتبك. بحث عن إجابة حاضرة وفتح فمه لكى يتلفظ بها. ثم تردد ونظر إلى الطبق الثانى، الذى قدمته له ماريًا فى

تلك اللحظة ذاتها، والذى لم يلمسه؛ لذا، كي يسد فاه بطريقة أفضل، دس به عقب سيجار أشعله وتركه على الفور ينطفئ. هكذا أتاح لنفسه وقفة للتأمل فى هدوء. لبعض الوقت نظر إلىّ بحزم:

- ألا تريد أن تسخر من الدين؟

وأنا، ذلك الطالب المثالى الذى كنته، وبفم ممتلئ، أجبته:

- أية سخرية! إنّى أدرسه!

سكت ونظر طويلاً إلى عقب السيجار الذى كان قد تركه على أحد الأطباق. أفهم الآن لماذا قال لى ذلك. أفهم الآن ما الذى كان يدور بذهنه المشوش، وأندهش كيف لم أدرك منه شيئًا فى ذلك الحين. أعتقد أنه فى تلك الفترة كان ينقصنى الحب الذى يوضح أشياءَ كثيرة. ثم يسر لى الأمر بدرجة كبيرة! كان يتحاشى مواجهة تشككى: كانت معركة شاقة جداً بالنسبة له فى ذلك الوقت؛ لكنه كان يرى أن بإمكانه أن يواجهها بهدوء مثلما يتناسب مع مريض. أذكر أنه عندما تحدث، كانت أنفاسه تشبق عليه وتتباطأ كلماته. إن الاستعداد لخوض المعارك يتطلب جهداً كبيراً. غير أنّى ظننت أنه لن يستسلم للنوم دون أن يوفينى حقى وتأهبت لمناقشات لم تحدث.

- أنا - قالها وهو لا يزال ينظر إلى عقب سيجاره الذى أصبح مطفأً - أشعر كم هى عظيمة خبرتى ومعرفتى للحياة. لا تذهب سنوات العمر الطويلة هباءً. أعرف أشياءَ كثيرةً - ويؤسفنى ألا أستطيع أن أعلمك إياها كما أحب.

آه، كم أود ذلك! إنّى أرى ما بداخل الأشياء، وأرى أيضًا ما هو صحيح وحقيقى، وما هو على عكس ذلك أيضاً.

لم يكن هناك شيء للمجادلة. هممت وأنا غير مقتنع وكنت أتناول الطعام:

– نعم! يا أبى!

لم أكن أريد أن أسىء إليه.

– وصلت للأسف متأخراً جداً. كنت من قبل أقل تعبًا وبإمكانى أن أخبرك بأشياء عديدة.

ظننت أنه مازال يريد أن يؤنبنى؛ لأنّى أتيت متأخراً واقترحت عليه أن نترك تلك المناقشة لليوم التالى.

– ليس الأمر مجرد مناقشة، أجاب وهو شارد الذهن، ولكن المسألة شيء آخر. أمر لا يمكن مناقشته، وستعلم أنت أيضًا ذلك بمجرد أن أخبرك به. لكن الصعوبة فى النطق به!

هنا انتابنى الشك:

– أتشعر بألم؟

– لا يمكن القول إننى أشعر بألم، لكنّى متعب تعبًا شديداً وسأذهب فوراً للنوم.

دق الجرس وفي الوقت نفسه نادى بصوته ماريًا. عندما جاءت، سألها عما إذا كان كل شيء معداً بحجرته. ثم أخذ يسير وهو يجر الخُف على الأرض. بعدما وصل بجانبي، أحنى رأسه لكي يقدِّم لي خده لقبلة المساء.

وعندما رأيته يتحرك وهو مهتز، راودني الشك من جديد أنه يشعر بألم، وسألته عن ذلك. كرّر كلانا الكلمات نفسها لأكثر من مرة، وأكد لي أنه يشعر بالتعب وليس مريضاً. ثم أضاف:

– سأفكّر الآن في الكلمات التي سأقولها لك غداً. سترى أنها تقنعك.

– أبي – صحت وقد تحركت مشاعري – سوف أسعد بالاستماع إليك.

وعندما وجدني على أتمّ الاستعداد للإذعان لخبرته، تردّد أن يتركني: كان ينبغي أن يفتتم لحظة كهذه موائمة للغاية! مسح بكفّه على جبينه، وجلس على المقعد الذي كان قد ارتكز عليه ليقدم لي خده للقبلة. كان يلهث قليلاً.

– شيء غريب! قال. لا أجد شيئًا أقوله لك، لا شيء على الإطلاق.

جال بنظره فيما حوله، كأنه يحاول أن يبحث بالخارج عما لم يستطع أن يتوصل إليه بداخله.

– وعلى الرغم من ذلك فأنا أعرف أشياء كثيرة، بل الأشياء جميعها أعرفها. لابد أن يكون ذلك ناتجًا عن خبرتي الواسعة.

كان لا يعاني كثيراً لعدم تمكنه من توضيح فكرته؛ لأنه كان يبتسم لما لديه من قوته وعظمته.

لا أدرى لماذا لم أستدعِ الطبيب فى الحال. علىّ أن أقرّ فى ألم وندم: أنّى حسبت كلمات والدى تعبيراً يمليه عليه غروره الذى لمسته فيه أكثر من مرة. إلا أنه لم يكن ليفوتني وضوح ضعف صحته؛ ولهذا فقط لم أتم المناقشة. كان يسرني أن أراه سعيداً بوهمه أنه يتمتع بصحة جيدة فى حين أنه كان شديد الوهن. خدعني بعد ذلك الود الذى أظهره لى وهو يبدى رغبته فى أن يسلم لى ذلك العلم الذى كان يعتقد أنه تحصله، على الرغم من أنّى كنت مقتنعًا بعدم قدرتى على تعلم أى شيء منه. ولكى أجامله وأهدّئ من روعه طلبت منه ألاّ يبذل جهداً فى العثور السريع على الكلمات التى كانت تهرب منه، ففى حالات معقدة مشابهة يستودع أكبر العلماء الأشياء المفرطة فى أى ركن من أركان المخ لكى تتبسط من تلقاء نفسها.

أجاب والدى:

– إن ما أبحث عنه ليس معقداً على الإطلاق. بل يتعلق الأمر بالبحث عن كلمة، كلمة واحدة وسأعثر عليها! ولكن ليس هذه الليلة؛ لأنّى سأنام نومًا عميقًا، ودون أى تفكير.

لكنه لم ينهض من المقعد. قال لي، في تردد وهو يتفحص وجهي اللحظة:

– أخشى ألاّ أتمكن من إخبارك بكل ما أفكر فيه، ليس إلاّ لأنك تعتاد السخرية من كل شيء.

ابتسم لي كأنه يريد أن يرجوني ألاّ أغضب من كلماته، نهض من على الأريكة وقدّم لي خده للمرة الثانية. عدلت عن المجادلة وإقناعه بأن هناك أموراً كثيرة في هذا العالم يمكن الاستهزاء بها وتستوجب ذلك وأردت أن أطمئنه فعانقته بقوة. وربما كانت حركتي تلك أقوى من اللازم؛ حيث إنه انسحب من بين ذراعي أكثر إجهاداً عمّا قبل، لكن من المؤكد أنه أدرك شعوري نحوه؛ لأنه صافحني بحب صادق.

– لنذهب إلى الفراش! قالها بفرحة وخرج وتبعته ماريّا.

وعندما بقيت بمفردي(غريب هذا أيضًا) لم أنشغل بصحة والدي، لكنّي، في غمرة تأثري – وأستطيع قول ذلك – ومع الاحترام الواجب من الابن، تأسفت لعقل مثل عقله يتطلع إلى غايات سامية، لم تُواتِه الفرصة لثقافة أفضل. اليوم وأنا أكتب، وقد اقتربت من عمر والدي، أعرف عن يقين أن الإنسان يمكن أن يتملكه الإحساس بفطنته الثاقبة التي لا تترك من علامة تدل على وجودها سوى ذلك الإحساس القوي. وها هو ذا: يستنشق نفساً عميقًا ويتقبل ويتأمل الطبيعة كلها كما هي وكما أعطيت لنا غير قابلة للتغيير: وبهذا تتجلى الفطنة نفسها التي أرادت الخليقة بكاملها.

وبالنسبة لحالة والدى، فمن المؤكد أنه فى آخر لحظات يقظته الذهنية، انتابه إحساس بالفطنة مرجعه نزعة دينية حاضرة، حتى إنه اندفع ليحدثنى عنها بما أنّى كنت قد قصصت عليه أنى شُغلت بأصول المسيحية. لكنّى الآن أعرف أيضًا أن ذلك الإحساس كان المؤشر الأول لوجود جلطة فى المخ.

جاءت ماريًا لترفع الأطباق عن المائدة، وتخبرنى أن والدى قد نام فى الحال؛ لذا ذهبت إلى مخدعى وأنا أيضًا هادئ تمامًا. كانت الرياح بالخارج تهب وتعصف. كنت أسمعها من فراشى الدافئ مثل تهويدة، كانت تبتعد عنّى شيئًا فشيئًا؛ لأنّى قد غرقت فى النُّعاس.

لا أدرى كم من الوقت نمته. أيقظتنى ماريًا. يبدو أنها جاءت قبل ذلك أكثر من مرة إلى حجرتى لكى تنادى علىّ ثم خرجت مسرعة. وإذ كنت فى نومى العميق أحسست فى بادئ الأمر بشىء من الاضطراب، ثم لمحت العجوز تهرع فى الحجرة وفى نهاية الأمر فهمت. كانت تريد إيقاظى، لكن عندما نجحت فى ذلك، كانت قد تركت حجرتى. واصلت الغناء حتى أنام وأنا، لكى أكون صادقًا، علىّ أن أعترف أنّى ذهبت إلى حجرة والدى وأنا أتألم أنهم انتزعونى من النوم كرهًا. كنت أعرف أن ماريًا كانت ترى دائمًا والدى فى حالة خطر. الويل لها إن يكن مريضًا هذه المرة!

كانت حجرة والدى ليست كبيرة ومزدحمة بعض الشىء بقطع الأثاث. بعد وفاة والدتى، ولكى ينسى بطريقة أفضل، انتقل إلى حجرة أخرى،

وحمل معه فى هذه الحجرة الجديدة الأقل اتساعًا، كل ما أراده من أثاث. كان يضيئها إضاءة خافتة: مصباح على منضدة منخفضة للغاية، كان الضوء المعتم يخيم على كل شيء. كانت ماريًا تسند والدى وهو مُسْتلقٍ على ظهره، ويرى جزء من صدره خارج الأغطية. كان وجه والدى يتصبب عرقًا ويكتسب لونه الأحمر من الضوء الذى كان قريبًا منه. كان رأسه يستند إلى صدر ماريًا الوفى. وكان يزأر من الألم وفمه غير قادر على الحركة حتى كان اللعاب يسيل منه حتى الذقن. كان ينظر بلا حراك إلى الحائط الذى أمامه، ولم يلتفت إلىّ حينما دخلت.

حكت لى ماريًا أنها سمعت تأوهه، ووصلت فى الوقت المناسب لتسعفه لكى لا يسقط من الفراش. فى بادئ الأمر - هكذا أكدت ماريًا - كان مضطربًا بصورة أكبر، بعد ذلك بدا لها أنه هدأ إلى حد ما، لكنّها لم تخاطر بتركه بمفرده. ربما أرادت بذلك أن تعتذر لى لأنها استدعتنى، فى حين أنّى أدركت بالفعل أنها أحسنت عندما أيقظتنى. كانت تبكى وهى تتحدث إلىّ، لكنى لم أبكِ معها، بل طلبت منها أن تسكت وألاّ تزيد بنواحها من فزع تلك الساعة. لم أكن قد أدركت بعد الأمر كله. بذلت تلك المسكينة ما فى وسعها كى تهدئ من لوعتها.

اقتربت من أذن والدى وصحت:

- لماذا تتأوه يا أبى؟ هل تشعر بألم؟

أعتقد أنه سمعنى؛ لأن أنينه أخذ يخفت وصرف نظره عن الحائط المواجه له، كأنه قد حاول أن ينظر إلىّ؛ ولكنه لم يتمكن.

صحت أكثر من مرة فى أذنه بالسؤال نفسه وحصلت على النتيجة نفسها. وتبدد فى الحال وقارى الرجولى فى تلك اللحظة، كان أبى يدنو من الموت أكثر من قربه منى؛ لأن صراخى لم يعد يصل إليه. انتابنى فزع كبير وتذكرت بادئ ذى بدء الكلمات التى تبادلناها الليلة الماضية. كانت ساعات قليلة تحرك بعدها لكى يرى أى منّا كان محقًا. شىء غريب! كان الندم يلازم شعورى بالألم. خبأت رأسى فى وسادة والدى نفسها، وبكيت بشدة، وكان نواحى يفوق ما أخذته على ماريًا قبل قليل.

كان عليها فى تلك اللحظة أن تهدّئ من روعى، لكنها قامت بذلك بطريقة تثير العجب. كانت تحثنى على الهدوء وهى تحدثنى عن والدى، الذى كان بدوره يئنّ وعيناه شاخصتان كأنهما لميت.

– ياله من مسكين! قالت – أيموت هكذا! ومع كل هذا الشعر الغزير الجميل. كانت تداعبه. حقيقة كان يتوج رأس والدى شعر غزير أبيض اللون مجعد، فى حين كان الشعر يخف فى رأسى وأنا فى الثلاثين من عمرى.

لا أتذكر أن فى هذا العالم أطباء، ومن المفترض أن يأتوا أحيانًا بأطواق النجاة. كنت قد رأيت الموت على ذلك الوجه الذى أجهده الألم وفقدت الأمل. كانت ماريًا هى أول من تحدثت عن الطبيب، وذهبت بعد ذلك لتوقظ فلاح المزرعة حتى ترسله إلى المدينة.

ظللت بمفردى أسند والدى لدقائق معدودة بدت لى كأنها الدهر. أذكر أنى حاولت أن أضع فى يدى التى كانت تلامس جسده المنهك،

كل مشاعر المحبة التى ملأت فؤادي. لم تكن تصل إلى سمعه الكلمات. ماذا كان بوسعى أن أفعل لأخبره أنّى أحبه كثيراً؟

عندما أتى المزارع، ذهبت إلى حجرتى لأكتب رسالة موجزة، وكان شاقًا علىّ أن أجمع تلك الكلمات القليلة التى كان من شأنها أن تعطى للطبيب فكرة عن الحالة. وحتى يمكنه أن يسرع أيضًا بإحضار بعض العقاقير. لم يفارقنى الإحساس بالموت الأكيد المحدق بوالدى، وكنت أتساءل:

«ماذا سأفعل الآن فى هذا العالم؟»

ثم تبع ذلك ساعات ترقّب مديدة. بذاكرتى تسجيل دقيق بما يكفى لتلك الساعات. مرت الساعة الأولى، ولم تعد هناك حاجة إلى إسناد رأس والدى الذى كان يرقد جسداً فاقد الحس فى فراشه. توقف أنينه، بل فقد وعيه بشكل مطلق. كانت أنفاسه سريعة لدرجة أنّى كنت أحاكيه دون قصد. ثم أصبح يشق علىّ أن أتنفس طويلاً حسب ذلك الإيقاع، وكنت أوفّق أنفاسى على وقفات المريض أملاً فى أن أجذب معى والدى أيضًا إلى الراحة. لكنه كان يعدو إلى الأمام ولا يبالى بالتعب. حاولنا عبثًا أن نعطيه ملعقة شاى. كان غياب وعيه يقل عندما كان يقاوم تدخلنا. فى حسم أطبق أسنانه. لم يتخلّ حتى فى اللاوعى عن عناده الجامح. قبل بزوغ الفجر بكثير تغير نظام تنفسه. أخذت أنفاسه تشكل مراحل كانت تبدأ بعمليات شهيق وزفير بطيئة تبدو كما لو كانت لإنسان سليم، وتتبعها أنفاس سريعة تتوقف وقفة طويلة، مروعة، كانت تبدو لماريًا ولى

إشـارة للمـوت. لكن تلك المرحلة كـانت تتكرر تقـريبًـا على منوال واحـد، أشبه بفقرة موسـيقية تعزف لحن حزن لانهائى، انـعدمت فيـه الألوان. عملية التنفس تلك التى لم تكن دائمًا متشابهة، وإن استمر صوتها عاليًا، صارت جزءًا من تلك الحجرة. ومنذ ذلك الحين سكنت هناك دائمًا، لفترة من الزمن طويلة، طويلة!

قضيت ساعات مستلقيًا على أريكة، فى حين كـانت ماريًا تجلس بجـانب الفراش. علـى تلك الأريكة ذرفت دمـوعًا حـارقة. فـالبكاء يحـجب الخطايا، ويسمح باتهام القدر دون التماس لعذر. كنت أبكى لأنّى فقدت والدى الذى عـشت له طوال الوقت. لا أهمـيـة لأنّـى لم أرافـقـه إلاّ قليـلاً. جـهودى التى بذلتـها لأتحسن ألم تكن من أجل إرضـائه؟ والنجاح الذى كنت أطمح إليه لم يكن إلاّ فخرًا أمـامه، وهو الذى كان يرتاب دائمًا فى قدراتى، بل كان أيضًا يسعده. أما فى تلك اللحظة فما كان يستطيع أن ينتظرنـى ورحل وهو مقتنـع بضـعف قدراتى الذى لا سـبيل للشـفاء منه. كانت دموعى شديدة المرارة.

وفى أثناء كتابتى، بل وأنا أخط على الورق هذه الذكريات الأليمة، اكتشفت أن الصورة التى تسلطت على تفكيرى فى محـاولتى الأولى وأنا أنقب فى مـاضى، صورة تلك القاطرة التى تجر سلسلة من العربات على منحـدر وعِر، تراءت لى للمـرة الأولى وأنا أنصت إلى أنفـاس والدى من تلك الأريكة. هكذا تسير القاطرات التى تجر أثقالاً ضخمة: تصدر نفثات منتظمـة ثم تأخذ فى الإسراع، وينتـهى بها الأمـر إلى التوقف، تلك الوقفة

أيضًا تهدد بالخطر؛ لأن من ينصت يخشى أن يرى القاطرة والعربات التي تجرها تنجرف نحو هُوة سحيقة بالوادي. حقًا! إن أول جهد بذلته في استعادة ذكرياتي حملني من جديد إلى تلك الليلة، إلى أهم اللحظات في حياتي.

حضر الطبيب كوبروسيش إلى الفيلا والفجر لم يبزغ بعد، يرافقه ممرض يحمل صندوقًا صغيراً به بعض العقاقير. واضطر أن يأتي سيراً على الأقدام؛ لأنه لم يجد عربة تقلُّه مع تلك العاصفة الهوجاء.

لاقيته وأنا أبكي، فتعامل معي بلطف شديد وهو يدفعني أيضًا إلى الأمل. وعلى الرغم من ذلك فإن عليّ أن أقول على الفور، حتى بعد لقائنا ذاك، إنهم قليلون في هذا العالم أولئك الذين يثيرون بداخلي مثل ذاك النفور القوي الذي كنت أشعر به تجاه الطبيب كوبروسيش. إنه مازال على قيد الحياة، أصبح هرمًا ويحظى بتقدير في المدينة بأسرها. وحتى الآن كلما رأيته، وقد وهن العظم منه، ويتعثر في مشيته في الطريق سعيًا لممارسة بعض نشاط، أو بحثًا عن الهواء الطلق، يتجدد العداء بداخلي.

ربما كان الطبيب قد تجاوز في ذلك الحين الأربعين من عمره. كان يخصص الكثير من جهده للطب الشرعي، وعلى الرغم من أنه كان يعرف بصفته إيطاليًا شديد الانتماء، فقد كانت سلطات الإمبراطورية النمساوية تعهد إليه بالتقارير بالغة الأهمية. كان رجلاً نحيفًا، عصبي المزاج، وجهه غير معبر، ويتميز باتخاذ الصلع فيه شكل الجبين العريض.

وهناك مظهر آخر للضعف عنده كان يكسبه أهمية: عندما كان يرفع نظارته (وكان يفعل ذلك دائمًا عندما يرغب فى التفكير) كانت عيناه الواهنتان تحملقان إلى جانب أو أعلى المتحدث إليه، وكانتا تتخذان شكل عيون التماثيل غير الملونة، تلك العيون المتوعدة، أو ربما، الساخرة. كانتا إذن عينين لا تروقان لى. وعندما كان يريد أن يقول شيئًا حتى ولو كلمة واحدة كان يضع النظارة على أنفه وها هى عيناه تعودان لتأخذ شكل عينى البرجوازى الأصيل، حينما يفحص الأشياء التى يتحدث عنها بعناية ودقة.

جلس فى غرفة الانتظار، واستراح لبعض الدقائق. طلب منّى أن أقص عليه بالضبط كل ما حدث، منذ أول إنذار بالخطر حتى وصوله. رفع نظارته وحدّق بعينيه العجيبتين فى الحائط الخلفى الذى أجلس أمامه.

حاولت أن أكون معتدلاً، وكان ذلك شاقا علىّ نظراً للحالة التى أصابتنى. تذكرت أيضًا أن الطبيب كوبروسيش لم يكن يطيق الأشخاص الذين ليس لهم معرفة بالطب، ثم يستخدمون المصطلحات الطبية ويتخذون من يلم بأشياء فى هذه المادة. وعندما وصلت إلى الحديث عما بدا لى "تنفس تلقائى" وضع نظارته ليقول لى: "تمهل فى استخدام المصطلحات. سنرى فيما بعد فيما يتعلق الأمر". كنت قد تحدثت أيضًا عن تصرف والدى المثير للدهشة، عن اشتياقه لرؤيتى، وعن تعجله فى الذهاب إلى فراشه. لم أبلغه بأحاديث والدى الغريبة: ربما خشيت أن

أُرْغم على ذكر شيء من إجاباتي التي كنت أقدمها له في ذلك الحين. بل حكيت أن أبي لم يتمكن من التعبير عن أفكاره بصورة واضحة، وكان يبدو أنه كان يمعن التفكير في شيء ما كان يدور برأسه لم يستطع صياغته. صاح الطبيب بنشوة الانتصار، وهو يضع النظارة على أنفه:

- أعرف ماذا كان يدور برأسه!

كنت أعرف ذلك، أنا أيضًا، لكنّي لم أنطق به لكي لا أثير غضب الدكتور كوبروسيش: إنه استسقاء قد أصاب المخ.

ذهبنا إلى فراش المريض. وبمعاونة الممرض أدار وأدار ذلك الجسد المسكين الهامد لفترة من الوقت خلتها طويلة جداً. أنصت له وتفحصه. تلمّس معاونة المريض نفسه، لكن دون جدوى.

- كفى! قالها في لحظة بعينها. اقترب منّي ونظارته في يده وهو يحملق في أرضية الحجرة ويتنهد، قال لي:

- تشجع! الحالة بالغة الخطورة.

ذهبنا إلى حجرتي حيث غسل أيضًا وجهه.

كان ذلك دون نظارته وعندما رفع وجهه ليجففه، بدا رأسه الصغير المبلل كرأس تميمة صنعتها يد ليست لها خبرة. ذكر لي أننا التقينا منذ بضعة شهور وأبدى دهشته من أننا لم نرجع إليه بعد ذلك. بل إنه ظن أننا تركناه وذهبنا إلى طبيب آخر؛ كان حينئذ قد شرح لنا في وضوح

تام أن والدي يحتاج إلى علاج. وعندما كان يوجّه اللوم، بهذا الشكل دون نظارته، كان مروِّعًا. رفع صوته وأراد التفسيرات لتصرفنا. وكانت عيناه تبحثان عنها في كل مكان.

كان بلا ريب على حق وكنت أستحق اللوم. هنا ينبغي القول، إنني على يقين من أنّي لا أمقت الطبيب كوبروسيش بسبب تلك الكلمات. اعتذرت وأنا أقص عليه عداء والدي للأطباء والعقاقير؛ كنت أتحدث وأنا أذرف الدمع وهو يحاول، بطيبة فياضة، أن يطمئنني، وقال إنه حتى لو لجأنا إليه مبكرًا، لتمثل ما يستطيعه علمه في تأجيل الكارثة، على أكثر تقدير، الكارثة التي كنا نشهدها آنذاك، وليس منعها من الحدوث.

ولكن، ما إن أخذ في البحث في الأعراض السابقة للمرض، حتى أصبح لديه موضوعات جديدة لتوجيه اللوم لي. كان يريد معرفة ما إذا كان والدي في تلك الشهور الأخيرة يشكو من حالته الصحية، من شهيته أو من نومه. لم أستطع أن أخبره بشيء محدد؛ ولا حتى إذا ما كان والدي أكل كثيرًا أو قليلاً على تلك المائدة التي كنا نجلس معًا حولها كل يوم. كان وضوح ذنبي يروعني، لكن الطبيب لم يصر مطلقًا على أسئلته. وعلم مني أن ماريّا كانت لا تكف عن أن تراه مشرفًا على الموت؛ ولذا كنت أستهزئ بها.

كان ينظف أذنيه، قال وهو يحملق إلى أعلى: من المحتمل أن يسترد وعيه خلال ساعتين بشكل نسبي على الأقل.

– إذن هناك أمل؟ صحت.

– إطلاقًا! أجاب بحدة. – لكن العلق لا يخفق أبداً فى هذه الحالة. سيسترد بالتأكيد جزءاً من وعيه، ربما ليذهب عقله.

رفع منكبيه ووضع المنشفة في مكانها. حركة أكتافه تلك كانت تعنى تماماً أنه غير واثق فيما يقوم هو نفسه بعمله، وحثنى ذلك على الحديث. كانت تروّعنى فكرة قيام والدى من رقدته ليرى نفسه مشرفًا على الموت، لكن دون حركة الأكتاف تلك ما كنت أملك الشجاعة لقول ذلك.

– دكتور! أما ترى الضرر فى عملية إعادة وعيه؟

انفجرت فى البكاء. كانت رغبتى فى البكاء تلازم أعصابى المهتزة، ولكنى استسلمت لها دون مقاومة لكى أظهر دموعى؛ حتى يغفر لى الطبيب ذلك الحكم الذى تجرأت وأطلقته على عمله ذاك.

وبطيبة قلب كبيرة قال لى:

– هيا، اهدأ. وعى المريض لن يكون أبداً بالدرجة التى تجعله يدرك حالته. إنه ليس طبيباً. يكفى ألاّ نخبره أنه يحتضر، ولن يعرف ذلك. على العكس يمكن أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك: هذا يعنى أنه قد يصاب بالجنون. لكنى أحضرت معى القميص الذى نستخدمه للمرضى النفسانيين، وسيبقى الممرض هنا.

كنت مرتاعًا أكثر من أى وقت مضى، ورجوته ألاّ يلصق العلق فى علاج والدى. فى تلك اللحظة، أخبرنى أن الممرِّض قد استخدمه بالفعل، لأنه أعطاه الأمر بذلك قبل أن يغادر حجرة والدى؛ لذا تملكنى الغضب.

ثم كان هناك ما هو أسوأ من العمل على استعادة مريض لوعيه، دون أدنى أمل فى شفائه، وتعريضه فقط لليأس، أو المخاطرة بتحمل قميص المجانين – ومع تلك المعاناة الشديدة!؟ وبانفعال شديد، ومازال يصاحب كلماتى ذلك النحيب الذى لا يؤاخذ عليه، أبديت رأيى بأنها قسوة فائقة ألا يترك من هو محكوم عليه بالموت لكى يمضى فى سلام.

إنّى أبغض ذلك الرجل؛ لأنه غضب منى تلك اللحظة. الأمر الذى لم أستطع أن أغفره له. ثار ثورته لدرجة أنه نسى أن يضع نظارته على عينيه، ومع ذلك اكتشف الموضع الذى به رأسى لكى يحدق فيه بعينيه المريعتين.

قال لى إنه يرى أنّى أريد محو ذلك البصيص من الأمل الذى كان موجوداً. قال لى ذلك بالضبط، وبقسوة.

كدنا ندخل فى عراك. عارضته وسط بكائى وصراخى؛ لأنه منذ دقائق قليلة مضت استبعد هو بنفسه أى أمل فى شفاء المريض. إن بيتى ومن يعيشون فيه لا يجب أن يصبحوا حقلاً لتجارب لها أماكن أخرى فى هذا العالم!

فى لهجة شديدة الجدية وثبات جعلها أقرب إلى الوعيد، أجاب:

– شرحت لسيادتك ما يقوله العلم فى تلك اللحظة. وعلى الرغم من ذلك من يستطيع التنبؤ بما يمكن أن يحدث خلال نصف ساعة أو حتى فى الغد؟ حيث أعمل على إبقاء والدك على قيد الحياة أكون قد تركت الطريق مفتوحًا لكل الاحتمالات.

وضع نظارته على عينيه، وبهيئته التى كانت أشبه بهيئة الموظف المتعنت، أخذ يضيف بعض مبرّرات لا تنتهى، حول أهمية تدخل الطبيب المعالج في مستقبل اقتصاديات أى أسرة. وإن نصف ساعة من التنفس تزاد للإنسان قد تقرّر مصير ثروة من الثروات.

وواصلت بكائى وقتئذ رثاءً أيضًا لنفسي؛ حيث كنت مضطرًا إلى الاستماع إلى تلك الأمور فى لحظة كتلك. كنت منهكًا فسكت عن المجادلة. والعلّق قد تم بالفعل استخدامه!

الطبيب سلطة عندما يكون عند فراش أحد المرضى وقد تصرفت بكل اعتبار مع الطبيب كوبروسيش. ولابد أن يكون ذلك الاعتبار هو السبب الذى من أجله لم أجرؤ على طلب استشارة مجموعة من الأطباء، الأمر الذى لمت نفسى من أجله لسنوات طويلة. الآن، حتى ذلك الشعور باللوم قد دفن مع جميع المشاعر الأخرى التى أتحدث عنها هنا ببرود يمكن أن أحكى به أحداثًا وقعت لشخص غريب عنّى. ولم يتبقَ فى فؤادى، من تلك الأيام، سوى كراهيتى لذلك الطبيب الذى يصر على أن يعيش.

عدنا فيما بعد مرة أخرى إلى فراش والدى. وجدناه ينام هادئًا على جانبه الأيمن. وضعوا على صدغه منديلاً كبيرًا ليغطى الجروح التى سببها العلق. أراد الطبيب أن يجرِّب على الفور إذا ما كان وعيه قد ازداد فصاح فى أذنيه. ولم يستجب المريض على الإطلاق.

– هذا من الأفضل! قلت بحماس شديد، وأنا أبكى.

– لا يمكن ألا يتحقق الأثر المتوقع! هكذا رد الطبيب – ألا ترى أن التنفس قد تحسن بالفعل؟

حقًا، فالتنفس كان سريعًا وشاقًا ولكنه لم يأخذ تلك المراحل التى أفزعتنى من قبل.

قال المرض شيئًا للطبيب فأومأ بالموافقة. كان الأمر يتعلق بتجربة استخدام قميص المجانين مع المريض.استخرجوا تلك الأداة من الحقيبة وأيقظوا والدى وأجبروه على الجلوس فى فراشه. فى تلك اللحظة فتح المريض عينيه: كانتا معتمتين، لم تفتحا بعد للضوء. تملكنى البكاء؛ خشيةً أن تبصرا فى الحال وتريا كل شىء حولهما. على عكس ذلك، عندما عادت رأس المريض إلى الوسادة، أغمضت العينان وكأنهما عينا دمية من الدميات.

شعر الطبيب بالانتصار:

– هذا شىء مختلف تمامًا! هكذا همهم.

نعم: كان شيئًا آخر! لم يكن بالنسبة لى سوى إنذار خطير. وبحرارة قبّلت والدى على جبينه وتمنيت له فى ذهنى:

– آه، نم! نم مستريحًا حتى تبلغ نومك الأبدى!

وهكذا تمنيت الموت لوالدى، لكن الطبيب لم يفهم ذلك؛ لأنه قال لى بصفاء نية:

- أنت أيضاً يسعدك الآن أن تراه يستعيد وعيه!

رحل الطبيب عند مطلع الفجر. كان فجراً قاتماً يتعثر فى مجيئه. بدت لى الريح التى كانت لا تزال تعصف أقل شدة على الرغم من أنها كانت تذرّى الجليد البارد.

اصطحبت الطبيب إلى الحديقة. بالغت فى مجاملته حتى لا يتنبه إلى كراهيتى له. كان لا يبدو على وجهى سوى الاحترام والتوقير. سمحت لنفسى بحركة استياء خففت من عنائى، فقط عندما رأيته يبتعد فى الممشى الذى يؤدى إلى باب الخروج من الڤيلا. رأيته صغيراً وأسود اللون وسط الجليد، كان يترنح ويتوقف عند كل هبة ريح لكى يتماسك جيداً. لم تكفنى تلك الامتعاضة، وشعرت بالحاجة إلى حركات أخرى أشد قسوة، بعد كل ذلك الجهد الذى بذلته. مشيت لبضع دقائق فى الطريق مع برودة الجو ورأسى مكشوف، وأنا أدبّ بقدمى ساخطاً فى الجليد المرتفع. لكنى لا أدرى إذا ما كان كل هذا السخط الصبيانى موجهًا إلى الطبيب أم إلى نفسى على وجه الخصوص. كان سخطى موجهًا لى أنا أولاً؛ إذ كنت أريد أن يرحل والدى إلى الأبد ولم أجرؤ أن أتفوه بذلك. إن صمتى قد بدل رغبتى تلك المستوحاة من أطهر حب ابن لوالده، إلى جريمة حقيقية أخذت تثقل علىّ بصورة مروعة.

كان المريض نائمًا بصورة مستمرة. قال فقط كلمتين لم أفهمهما، لكنه قالهما بأهدأ نبرة من نبرات الحديث، كانت غريبة للغاية؛ لأنها

قطعت تنفسه الذى ظل سريعًا وبعيداً كل البعد عن أى نوع من الهدوء. هل كان يدنو من الوعى أم من اليأس؟

فى ذلك الوقت كانت ماريًا تجلس مع الممرض بجوار الفراش. أوحى لى ذلك الرجل بالثقة، وما كان لا يعجبنى فيه هو الدقة فى العمل التى كان يبالغ فيها. اعترض على فكرة ماريًا بإعطاء المريض ملعقة من الحساء. كانت تظنه دواءً مفيداً له. لم يكن الطبيب قد تحدث عن أى حساء، وأراد الممرض أن ينتظر عودته كى يعطى قراره فى حدث كهذا بالغ الأهمية. تحدث باستعلاء يفوق ما كان يستحقه الأمر. لم تلح ماريًا المسكينة وأنا كذلك. لكنى عبرت بحركة استياء أخرى.

دفعوا بى إلى الفراش لأنام؛ لأنه كان علىّ أن أمضى الليل مع الممرض لخدمة المريض، حيث كنا نكفى نحن الاثنان لرعايته؛ وكان أحدنا يستطيع أن يستريح على الأريكة. اضطجعت فى الفراش واستغرقت فى النوم على الفور، وفقدت وعيى بشكل تام، صاف لم يشبه - وأنا على يقين من ذلك - أى بصيص لحلم ما.

على عكس ذلك كانت الليلة الماضية، فبعد أن أمضيت جزءًا من النهار فى جمع ذكرياتى هذه، جاءنى حلم شديد الوضوح حملنى معه فى وثبة كبيرة، عبر الزمان، إلى تلك الأيام الماضية. تراءت لى نفسى من جديد مع الطبيب فى الحجرة نفسها، حيث تجادلنا حول العلق وقمصان المجانين، فى تلك الغرفة التى لها الآن شكل يختلف تمامًا؛

لأنها أصبحت غرفة نومى وزوجتى. كنت أصف له كيفية معالجة والدى وشفائه، فى حين كان هو (لم يكن عجوزًا أو واهنًا على صورته الحالية، بل قويًا وعصبى المزاج كما كـان سالفًا) بحنق شديد، والنظـارة فى يده وعيناه زائغتـان، يصيـح أنه مـا من شىء يسـتحق العناء للقيـام بأشياء كثيرة.

كان يقول بالضبط: "ربما يعيده العلق إلى الحياة وإلى الألم، ولسنا فى حاجة لاستخدامه معه!". أما أنا فكنت أضرب بقبضة يدى على كتاب فى الطب وأصرخ: "العلق! أريد العلق! وقميص المجانين أيضًا!".

يبدو أن حلمى كان صاخبًا، حتى إن زوجتى قطعته وهى توقظنى. ظلال بعيدة! لكى نكشف ما تحويه نحتاج إلى معين بصرى يستطيع أن يقلب وضعها.

إن نومى الهادئ هو آخر ما أذكره من ذلك اليوم. توالت بعد ذلك أيام طويلة كانت كل لحظة فيها تشبه الأخرى. كان الجو قد تحسن؛ وقالوا إن حالة أبى الصحية قد تحسنت هى الأخرى. كان يتحرك بحرية فى الغرفة وأخذ يمشى بحثًا عن الهواء الطلق، بين الفراش والمقعد. من خلال النوافذ المغلقة كان ينظر لبضع دقائق إلى الحديقة وقد غطاها الجليد الذى يخطف الأبصار تحت شعاع الشمس. وفى كل مرة دخلت تلك الحجرة كنت أتأهب لكى أجادل وأشوش على ذلك الوعى الذى كان الطبيب كوبروسيش ينتظره. وعلى العكس كان والدى يظهر كل يوم

قدرته على السمع والإحساس بصورة أفضل، لكن ذلك الوعى كان لا يزال بعيد المنال.

للأسف ينبغى أن أعترف أنه عندما كان والدى على فراش الموت كنت أحمل فى نفسى عداءً شديداً تغلب بصورة غريبة على آلامى وشوهها. هذا الحنق كان موجهًا فى المقام الأول إلى السيد كوبروسيش، وقد زاد منه ذلك الجهد الذى بذلته فى إخفائه عنه. ثم تملكنى الشعور ذاته تجاه نفسى؛ لأنّى لم أستطع استئناف النقاش مع ذلك الأخير لكى أقول له فى وضوح إنّى لا أثق قيد أنملة فى علمه، وكنت أتمنى لأبى أن يموت حتى أحول بينه وبين الألم.

وانتهى بى الأمر إلى السخط على المريض أيضًا. فمن خاض تجربة أن يكون غير مؤهل للقيام بدور الممرض، ويصبح مشاهداً سلبياً لكل ما يفعله الآخرون، سيدرك ماذا يعنى البقاء لأيام وأسابيع بجوار مريض مضطرب. كنت بعد ذلك فى حاجة إلى الراحة لكى أستوضح ما بنفسى وأتآلف، وربما أستطعم ذلك الألم بالنسبة لأبى ولى. إلاّ أنه كان علىّ أن أتعارك لكى أرغمه على ابتلاع الدواء تارة وتارة أخرى لكى أمنعه من الخروج من الغرفة.

ذات مساء دعانى الممرض كارلو ليطلعنى على تقدُّم جديد فى صحة والدى. أسرعت منزعجًا من فكرة أن يستطيع العجوز أن يدرك حقيقة مرضه ويلومنى على ذلك.

كان أبى واقفًا وسط الغرفة، يرتدى ملابسه الداخلية فقط وفوق رأسه قبعة النوم المصنوعة من الحرير الأحمر. وعلى الرغم من أن لهاث أنفاسه كان لا يزال شديداً، فقد كان يتفوّه من حين لآخر ببعض الكلمات القصيرة ذات المعنى. عندما دخلت الغرفة، قال لكارلو:

– افتح!

كان يرغب فى أن يفتح النافذة. أجابه كارلو بأنه لا يستطيع لشدة برودة الجو. ونسى والدى سؤاله لبعض الوقت. ذهب ليجلس على أريكة بجانب النافذة واسترخى عليها باحثًا عن الراحة. وعندما رآنى، ابتسم وسألنى:

– هل نمت؟

لا أعتقد أن إجابتى وصلته. لم يكن ذلك هو الوعى الذى كنت أخشاه كثيراً. فعندما يحتضر الإنسان يكون لديه ما يشغله عن التفكير فى الموت. انصرف جسده بكامله إلى عملية التنفس.

وبدلاً من أن يستمع إلىّ صاح من جديد فى وجه كارلو:

– افتح!

لم يذق طعم الراحة. كان يترك الأريكة ليقوم واقفًا. ثم بعناء شديد وبمساعدة المرض يذهب للفراش ويسترخى عليه لوقت قصير على جانبه الأيسر، ثم يستدير على الفور على الجانب الأيمن الذى كان يتحمّله

لبضع دقائق. طلب من جديد مساعدة الممرض لكي يقف على قدميه، وعاد مرة أخرى إلى الأريكة حيث كان يجلس أحيانًا لفترات أطول.

فى ذلك اليوم، وبينما كان يمر بين الفراش والأريكة، توقف أمام المرآه متأملاً نفسه، وهمهم:

– أبدو مكسيكيًا!

لكى يهرب فى ذلك اليوم من رتابة جريه المفزعة بين الفراش والأريكة، أعتقد أنه حاول أن يدخن.

تمكن من أن يملأ فمه بنفس واحد من الدخان أطلقه على الفور وهو يعانى.

دعانى كارلو لكى أشاهد لحظة من وعى جلىّ بلغها المريض:

– أمريض أنا، إذن، بدرجة خطيرة؟ هكذا سأل بمرارة.

هذا الوعى، بهذه الدرجة لم يعد مرة أخرى. بل بعد قليل انتابته لحظة هذيان. نهض من الفراش، وظن أنه استيقظ بعد أن قضى الليل فى أحد فنادق فينا. لابد أنه كان يحلم بفينا لرغبته فى ترطيب جفاف فمه وهو يتذكر الماء العذب والمثلج بتلك المدينة. تحدث مباشرة عن الماء العذب الذى ينتظره عند تلك العين القريبة.

كان على أية حال مريضًا مضطربًا، لكنه كان معتدلاً. كنت أتحايل عليه؛ لأنّى كنت أخشى دائمًا عليه من الحسرة لو أدرك حقيقة حالته؛

ولذا لم تتمكن وداعته من التخفيف من جهدى الكبير، مع أنه كان يتقبل وهو راضخ أى عرض يعرض عليه؛ لأنه كان يتوقع من كل العروض إمكانية النجاة مما هو فيه من ضيق. عرض عليه الممرض أن يذهب ليحضر له كوبًا من اللبن ووافق بفرحة كبيرة. وبالشغف ذاته الذى انتظر به الحصول على ذلك اللبن، أراد أن يتخلص على الفور منه، بعد أن رشف منه رشفة صغيرة ولم يستسغه ولما لم يُسْتَجب إلى طلبه، ترك الكوب يسقط على الأرض.

لم يبد الطبيب قط أى خيبة أمل من الحال التى كان عليها المريض. كان يستشعر كل يوم بعض التحسن، لكنه كان يرى الكارثة وشيكة. ذات يوم أتى بعربة وتعجل بالانصراف. أوصانى أن أدفع بالمريض إلى النوم لأطول مدة ممكنة؛ لأن الوضع الأفقى أفضل بالنسبة للدورة الدموية. وأوصى بذلك والدى هو الآخر الذى أدرك وبنظرة فطنة حادة وعده بذلك، لكنه ظل واقفًا فى وسط الحجرة وعاد مباشرة إلى شرود ذهنه، أو عاد بالأحرى كما كنت أقول إلى التأمل فى آلامه.

وفي غضون الليلة التالية، تملكنى الفزع للمرة الأخيرة من رؤية استيقاظ ذلك الوعى الذى كنت أخافه كثيراً. كان جالسًا على الأريكة بجانب النافذة، ينظر عبر الزجاج، وكانت السماء صافية تملؤها النجوم. كان تنفسه لا يزال عسيراً، وعلى الرغم من ذلك لم يبدُ أنه يعانى منه إذ كان مستغرقًا فى النظر إلى أعلى. وربما كان لضيق تنفسه، أثر فى أن رأسه كان يبدو وكأنه يقوم بإيماءات توحى بالموافقة.

فكرت وأنا مرتاع:"ها هو ذا يستغرق فى المشاكل التى تحاشاها دائمًا ". حاولت أن أكتشف بالتحديد الموضع الذى كان يحملق فيه فى السماء.

كان ينظر، وهو مستقيم بنصفه العلوى، وفى جدية من يراقب من خلال فتحة شاهقة العلو. ظننت أنه ينظر إلى الثريا. ربما طوال حياته لم يتأمل هكذا طويلاً مسافة بعيدة كل هذا البعد. وفجأة التفت إلىّ، وهو لا يزال مستقيماً بنصفه العلوى:

– انظر! انظر! قالها بشكل صارم ينم عن التحذير. وعلى الفور عاد ليحملق فى السماء، ثم التفت ثانيةً إلىّ وقال:

– أرأيت؟ أرأيت؟

حاول أن يعود بنظره إلى النجوم، لكنه لم يقدر: استرخى وهو منهك على مسند الأريكة، وعندما سألته ماذا كان يريد أن يرينى إياه، لم يُصغ إلىّ ولم يتذكر أنه رأى شيئًا أراد أن يرينى إياه. فالكلمة التى بحث عنها طويلاً لكى يودعنى إياها، قد فرّت منه إلى الأبد.

كانت الليلة طويلة، لكنها، وعلىّ أن أقر بذلك، لم تكن شاقة علىّ وعلى الممرض فقط. تركنا المريض وشأنه يفعل ما يريد، وكان يسير فى الغرفة فى ثيابه الغريبة، وهو لا يدرك تمامًا أنه ينتظر قدوم الموت. حاول مرة أن يخرج فى الممشى، حيث كان الجو شديد البرودة. منعته من ذلك واستجاب لى فى الحال. مرة أخرى، على العكس من ذلك، أراد الممرض

أن يمنعه من القيام من فراشه، اتباعًا لتوصية الطبيب، لكن والدى ثار عليه فى تلك اللحظة. خرج من ذهوله، ونهض وهو يبكى ويسب، وتمكنت أنا من أن أعطى له الحرية الكاملة ليتحرك كيفما يشاء. اطمأن فى الحال وعاد إلى حياته الصامتة وإلى جريه العابث سعيًا وراء الراحة.

عندما عاد الطبيب، تركه يفحصه فى هدوء، وحاول أيضًا أن يتنفس من أعماق رئتيه، مثلما كان يطلب منه. ثم التفت إلىّ:

- ماذا يقول؟

تركنى لحظة، لكنه عاد إلىّ على الفور يسألنى:

- متى يمكننى أن أخرج؟

وبعد أن تحمس الطبيب من هدوئه الشديد ذاك حثنى على أن أقول له أن يلزم الفراش لفترة أطول. كان والدى ينصت فقط إلى الأصوات المألوفة له، مثل صوتى أنا وصوت ماريًا والممرض. لم أكن أؤمن بتلك النصائح، لكنّى على الرغم من ذلك كنت أوصيه بها وأنا أضع فى صوتى نبرة تهديد.

- نعم، نعم. وعد والدى، وفى اللحظة نفسها نهض وذهب إلى الأريكة.

نظر إليه الطبيب وهمس فى استسلام:

- من الواضح أن تغيير المكان يمنحه شيئًا من الراحة.

بعد قليل كنت في فراشي، لكن لم يغمض لي جفن. أخذت أنظر إلى المستقبل وأنا أنقِّب فيه حتى أعثر عما وعمن يجدر بي استمراري في بذل الجهد من أجله لكي أتحسن وأتقدم. بكيت كثيراً، لكنه كان رثاءً لنفسي على وجه الخصوص أكثر منه على ذلك البائس الذي كان يجري دون هوادة في حجرته.

عندما استيقظت، ذهبت ماريًا إلى مضجعها، وبقيت مع الممرض بجوار والدي. كنت مكتئبًا ومتعبًا؛ وكان والدي منزعجًا أكثر من أي وقت مضى.

حدث حينئذ ذلك المشهد المروِّع الذي لن أنساه أبداً والذي رمى بظلاله بعيداً بعيداً، حتى ثبط عزيمتي وأطفأ فرحتي. ولكي أتناسى ألم تلك اللحظة، كان لابد من أن تضعف السنون من قوة مشاعري. قال الممرض لي:

– ليتنا نستطيع أن نلزمه الفراش. الطبيب يعطي أهمية كبيرة لذلك!

كنت مسترخيًا على الأريكة حتى تلك اللحظة. نهضت وذهبت إلى الفراش حيث كان يرقد المريض، وكان يلهث حينئذ أكثر من أي وقت مضى. اتخذت قراري: سأجبر والدي على البقاء في الفراش على الأقل لنصف ساعة وكان ذلك مطلب الطبيب. ألم يكن هذا من واجبي؟

حاول والدى مباشرةً أن ينقلب تجاه حافة السرير كى يتخلص من ضغطى عليه وينهض. وبيدٍ قوية وضعتها على كتفه، منعته أن يفعل ذلك، وفى الوقت ذاته أمرته بصوتٍ عالٍ وحاسم ألاّ يتحرك. ولفترة قصيرة امتثل للأمر وهو مرتاع. ثم صاح:

- أنا أموت!

هبّ واقفًا. وارتعت أنا بدورى فى الحال من صراخه، خففت من ضغط يدى عليه. وهكذا استطاع أن يجلس على حافَة السرير فى مواجهتى بالضبط. يبدو لى أن ما زاد من غضبه فى تلك اللحظة هو أنه وجد نفسه - وإن كان لمجرد لحظة واحدة - فى وضع يحظر عليه الحركة، واعتقد أنّى أريد أن أمنع عنه الهواء الذى كان فى حاجة إليه، وأحجب كذلك عنه الضوء وأنا أقف فى مواجهته وهو جالس. وبعناء شديد جداً تمكن من الوقوف على قدميه، ورفع كفه إلى أقصى ما أمكنه عاليًا، كما لو أنه كان يدرك أنه لا يمكنه أن يمدها بقوة تفوق وزنها، ثم تركها تسقط على خدى. ثم انزلق على الفراش ومنه إلى أرضية الحجرة. سقط ميتًا!

لم أدرك أنه مات، لكن قلبى اعتصر من ألم العقاب الذى أراد أن ينزله بى، وهو يحتضر. وبمساعدة كارلو رفعته ووضعته على الفراش. وأخذت أبكى، تمامًا مثل طفل معاقب، وصحت فى أذنه:

- لم يكن ذنبى! إنه ذلك الطبيب اللعين الذى أراد أن يلزمك الفراش!

كانت كذبة كذبتها. ثم وعدته ألاّ أفعل ذلك مرة أخرى، ومثل الطفل قلت له:

- سأتركك تتحرك كيفما تشاء.

قال الممرض:

- لقد مات.

كان عليهم أن يبعدونى بقوة شديدة عن تلك الغرفة. مات وما عاد باستطاعتى أن أثبت له براءتى!

فى وحدتى حاولت أن أعود إلى رُشدى. أخذت أفكر: كان من المستبعد أن يكون والدى، وهو مَن ظل غائب الوعي، قد استطاع أن يقرر معاقبتى وتوجيه كفه بدقة شديدة ليصيب خدى.

كيف كان يمكن التأكد من صحة استنتاجى ذاك؟ فكرت أن ألجأ إلى كويروسيش. لعله يتمكن، بصفته طبيبًا، من أن يخبرنى شيئًا عن إمكانات اتخاذ القرار والتصرف لدى المحتضر. ربما كنت أيضًا ضحية حركة ناتجة عن محاولة لتيسير عملية التنفس! لكنّى لم أتحدث مع الدكتور كويروسيش. كان من غير الممكن أن أذهب لأكشف له كيف ودعنى والدى. أخبره، وهو *الذى* قد وجّه لى من قبل أصابع الاتهام بالتقصير فى حق والدى!

كانت ضربة أخرى شديدة تلقيتها عندما سمعت كارلو، الممرض، فى المطبخ، فى المساء، يحكى لماريًا: - رفع الوالد يده عاليًا وبآخر حركة له ضرب ابنه. كان يعرف الأمر؛ ولهذا كان كويروسيش سيعلم به.

عندما ذهبت إلى حجرة المتوفى، وجدتهم وقد ألبسوا الجثمان ثيابه، وكان على الممرِّض أيضًا أن يهندم شعره الجميل وقد علاه الشيب.

كان الموت قد صلَّب ذلك الجسد المتغطرس والمتوعد. كانت يداه الكبيرتان القويتان، حسنتا البنية، شاحبتين، لكنهما ترقدان بشكل طبيعى جدًا، حتى بدتا متأهبتين للقبض والعقاب. ما وددت، وما استطعت رؤيته ثانيةً.

بعد ذلك، فى أثناء تشييع الجنازة، تمكنت من تذكّر والدى الواهن والطيب كما عرفته دائمًا بعد طفولتى، وأقنعت نفسى أن الصفعة التى أنزلها بى وهو يحتضر، لم تكن بإرادته. أصبحت طيبًا، طيبًا وأخذت ذكرى والدى تلازمنى وتزداد عذوبة. كانت كحلم لذيذ: أصبحنا منذ زمن متفقين تمامًا، صرت أنا الأضعف، وبات هو الأقوى.

عدت وظللت لفترة طويلة مخلصًا للمبادئ الدينية التى تعلمتها فى طفولتى. كنت إخال والدى يسمعنى ويمكننى أن أخبره أن الذنب ليس ذنبى، لكنها جريرة الطبيب. فالكذب لم يعد له أهمية لأنه، صار يعرف كل شىء وأنا أيضًا. ولوقت طويل استمر حديثى مع أبى حلوًا رفيقًا وخفيًا، مثله مثل علاقة حب غير مشروعة؛ لأنّى لم أتوقف عن السخرية، أمام الجميع من كل ممارسة دينية، فى حين فى الحقيقة – وهنا أود أن أعترف بها – أن هناك من توجهت له، فى حرارة، كل يوم لأوصيه نفس وصية والدى. فالديانة الصادقة هى التى لا يلزم اتباعها بصوتٍ عالٍ لكى ننال فيها التعزية التى لا يمكن الاستغناء عنها – أحيانًا – بل يندر ذلك.

٥- قصـــة زواجـــى

يقترن مفهوم حياة الإنسان في ذهن أى شاب من عائلة برجوازية بمفهوم السلك الوظيفى، وفى مرحلة الصبا تتمثل الوظيفة فيما قام به نابليـون الأول. ولكن دون أن يحلم الشـاب بـأن يصـبح إمـبـراطوراً؛ لأنه يمكنه أن يشـابه نابليون على أن يظل أقل منه بكثير وكثير. ومـهما كانت الحياة زاخرة فإن خـلاصة قصـتـها تـأتـى من أول الأصـوات وأقدمـهـا، صـوت موج البـحر، الذى، ما إن يبدأ حتى يأخذ فى التـغيير لحظة بعد لحظة إلى أن يموت! على هذا النحـو كنت أتوقع أن أصـبح وأختفى مثل نابليون أو موجة البحر.

مـا كـان بإمكـان حيـاتـى أن تصـدر سـوى نغمـة واحـدة دون أدنى اختـلاف، نغمة عالية لحد كبير، كان البـعض يحسدنى عليهـا، مع أنها باعثة على المـلل بصـورة مـخيفة. ظل أصدقـائى طيلة حيـاتـى يكنون لى التقدير نفسـه، وأظن أنه ولا حتى أنا قد غيرت كثيراً من ذلك المفهوم الذى كونته عن نفسى، منذ أن بلغت سن الرشد.

وربما لهذا لاحت لى فكرة الزواج؛ ذلك لتعبى من إصدار تلك النغمة والاستماع إليها. يظن من لم يـخض التجربة بعد أن الزواج أكثر أهمية

مما هو عليه. سوف تقوم الرفيقة التى نختارها بالتجديد، سواء للأسوأ أو للأفضل، في النسل، لكن الطبيعة الأم التى تريد ذلك أو ربما لا تستطيع أن توجهنا إليه بطريق مباشر؛ ذلك لأنه في تلك اللحظة لا نفكر بالأبناء على الإطلاق، فهى توحى لنا أن هناك تجديداً لأنفسنا ينشأ أيضاً من الزوجة، وهو إيهام غريب لم يرد فى أى نص. وبالفعل يعيش الواحد منا بجانب الآخر، لا نتغير، باستثناء شعور بالنفور يتولد من شخص يختلف عنا تماماً، أو شعور بالحسد تجاه من هو أعلى منا منزلة.

الطريف أن مغامرة زواجى بدأت بتعارفى على صهر المستقبل وبالصداقة والإعجاب الذى شعرت به نحوه، قبل أن أعرف أنه أب لفتيات فى سن الزواج؛ ولهذا فمن الواضح أنه لم يكن قرارى ذلك الذى دفع بى نحو الهدف الذى كنت أجهله. أهملت فتاة كنت أرى لفترة من الوقت أنها تهتم بى، وظللت مرتبطاً بصهر المستقبل. تكاد تراودنى الرغبة فى الإيمان حتى بالقدر.

رغبتى فى الجديد التى كانت تكمن بداخل نفسى أشبعها چوڤانى مالفنتى، الذى كان يختلف كثيراً عنّى وعن كل الأشخاص الذين بحثت عن رفقتهم وصداقتهم. كنت على درجة كافية من الثقافة، حيث التحقت بكليتين بالجامعة فضلاً عن وضع الخمول الطويل الذى عشته وأرى أنّى تعلمت منه الكثير. على النقيض منّى تماماً، كان مالفنتى تاجراً كبيراً، جاهلاً ونشيطاً. بل إن قوته وصفاء نفسه نشأت من جهله، كان النظر إليه يثير إعجابى، وحسدى.

كان يبلغ آنذاك من العمر حوالى الخمسين، صحته من حديد، ضخم البنية، طويل وعريض يصل وزنه إلى قنطار أو أكثر. والأفكار القليلة التى كانت.تدور برأسه الضخم كان يديرها بوضوح تام، يدرسها ويفحصها بدأب شديد، ويطبقها فى الأعمال الكثيرة المتجددة كل يوم، حتى صارت جزءاً منه، كما لو أنها أعضاؤه، شخصيته. كنت أفتقر إلى تلك الأفكار، ولازمته حتى أستزيد منه.

كنت قد ذهبت إلى ترچيستيو[1]، وقد أشار أوليڤى علىّ بذلك وكان يقول لى إنها بداية جيدة لنشاطى التجارى أن أتردد على البورصة، وإننى سأتمكن أيضاً من إمداده بأخبار مفيدة من ذلك المكان.

جلست إلى تلك الطاولة التى كان يجلس إليها صهر المستقبل جلسة الملك على عرشه، ومن هناك لم أتحرك قط، وخيل إلى إنّى توصلت إلى المنصب التجارى الحقيقى الذى كنت أبحث عنه منذ زمن بعيد.

لم يلبث أن أدرك إعجابى به، وبادل شعورى ذاك بصداقة بدت لى فى الحال صداقة أبوية. هل ياترى علم لساعته كيف ستسير الأمور فيما بعد؟ فعندما، صرحت ذات ليلة، وقد حمسنى نموذج نشاطه العظيم، برغبتى فى التخلص من أوليڤى وإدارة أعمالى بنفسى، نصحنى بألاّ أفعل ذلك، وبدا عليه أيضاً الانزعاج من اقتراحى ذاك. باستطاعتى أن

(١) ترچيستيو: قصر بوسط المدينة، وهو مقر بورصة تداول الأوراق المالية.

أهتم بأعمال التجارة، ولكن عليّ أن أظل مرتبطًا ارتباطًا قويًا بأوليفي الذي كان يعرفه.

كان على استعداد تام لتعليمي، حتى إنه دوّن بيده في مفكرتي ثلاثة أمور كان يعدّها تكفي لازدهار أية شركة:

١- معرفة العمل ليست ضرورية، لكن من لا يعرف تشغيل الآخرين يموت.

٢- ليس هناك إلاّ ندم واحد كبير، وهو عدم تحقيق المصلحة الخاصة.

٣- النظرية مجدية للغاية في المشاريع التجارية، لكنها تستخدم فقط عندما يتم تصفية المشروع.

إنّي أعرف هذه النظريات والكثير غيرها عن ظهْر قلب، لكنّي لم أستفد منها.

عندما أعْجَب بشخص ما، أحاول في الحال أن أحاكيه. تشبهت أيضًا بمالفنتي. وددت أن أصبح داهية، وشعرت أنّي كذلك إلى حد كبير. بل حلمت ذات مرة أنّي أكثر دهاءً منه. ظننت أنّي اكتشفت خطأ في تنظيم أعماله التجارية: أردت أن أخبره به حتى أفوز بتقديره لي. ذات يوم استوقفته ونحن حول منضدة ترچيستيو عندما كنا نتناقش حول صفقة من الصفقات ونعت المتحدث معه بالحيوان. لفت نظره إلى أنّي

أراه يخطئ عندما يظهر دهاءه للجميع. فالداهية الحقيقى، فى مجال التجارة، من وجهة نظرى هو من يتصنع البلاهة.

سخر منّى. إن شهرة الإنسان بالمكر تفيده للغاية. ومع ذلك كان الجميع يأتون إليه طلباً لنصائحه ويمدونه بأخبار حديثة، فى حين يزودهم هو بنصائح مجدية تؤكدها خبرة جناها من العصور الوسطى فصاعداً. أحياناً، كانت تسنح له الفرصة ليحصل على الأخبار الحديثة ويبيع أيضاً بعض البضائع. وفى النهاية - وهنا أخذ يصيح لأنه رأى أنه عثر أخيراً على الموضوع الذى يمكن أن يقنعنى به - يلجأ الجميع إلى الأكثر دهاءً فى البيع أو الشراء بطريقة مربحة. أما عن الأبله فلا يمكنهم أن يأملوا فى أكثر من دفعه إلى التضحية بأى ربح له، ومع ذلك فبضاعته أغلى دائماً من بضاعة الماكر؛ لأنهم احتالوا عليه وقت شرائها.

كنت أهم الأشخاص بالنسبة له حول تلك المنضدة. أباح لى بأسرار تجارته التى لم أخنها قط. كانت ثقته فى محلها تماماً، حتى إنه استطاع حقيقةً أن يخدعنى مرتين، وقد أصبحت حينئذ زوج ابنته. حقًا كلفتنى فطنته مالاً المرة الأولى، لكن أوليڤى هو الذى وقع فريسةً له؛ ولهذا لم أتألم كثيراً. كان أوليڤى قد أرسلنى إليه لأحصل منه بلباقة على بعض المعلومات. حصل عليها حتى إنه لم يغفرها لى قط، وعندما كنت أفتح فمى لأخبره بأية معلومة،كان يسألنى:

- «ممن حصلت عليها؟ من حميك؟». ولكى أبرئ ساحتى كان علىّ أن أدافع عن چوڤانى، وانتهى بى الأمر إلى الشعور بأننى المخادع وليس المخدوع. إنه شعور ممتع للغاية.

إلا أنّي لعبت مرة أخرى دور الأحمق، لكنى لم أستطع حتى فى ذلك الوقت أن أشعر بالحقد تجاه والد زوجتى. كان يثير بداخلى شعوراً بالحسد تارة وبالمرح تارة أخرى. كنت أجد فى بليتى التطبيق المضبوط لمبادئه التى شرحها لى آنفًا باستفاضة. بل إنه وجد فيها مادة للضحك معى، ولم يعترف قط بأنه خدعنى وهو يؤكد بأنه يلزم السخرية من الجانب المضحك بالكارثة التى لحقت بى. وما هى إلاّ مرة واحدة فقط، تلك التى اعترف فيها بأنه صوب إلىّ تلك الضربة المؤذية، كانت ليلة زفاف ابنته آدا ذلك بعد أن ثمل من الشمبانيا التى هزت ذلك الجسد الضخم الذى اعتاد أن يرتوى بالماء الخالص.

روى فى تلك اللحظة ما فعله، وهو يصيح حتى يتغلب على ضحكه الذى كان يعوق كلماته:

– وهكذا وقع ذلك القرار! أخذت وأنا مثبط الهمة أحسب كم يكلفنى الأمر. وفى تلك اللحظة ها هو ذا يدخل زوج ابنتى. يصرح لى أنه يرغب فى الاشتغال بالتجارة. أقول له: «إنها فرصة عظيمة». يندفع إلى الوثيقة ليوقع عليها خشيةً أن يصل أوليقى فى الميعاد ويمنعه من ذلك وتمت الصفقة. – ثم يوجه لى المدح ويغمرنى به:– يعرف الكلاسيكيون عن ظهر قلب. يعرف من قال هذا ومن قال ذاك. لكنه لا يجيد قراءة الجريدة!

حقًا كان الأمر كذلك! لو أنّى لمحت ذلك المرسوم الذى نشر فى مكان غير واضح فى الجرائد الخمس التى أقرؤها كل يوم، لما وقعت فى

تلك المصيدة. كان عليّ أيضاً أن أفهم على الفور ذلك القرار وأرى ما به من تداعيات، الأمر الذى لم يكن هيناً؛ حيث إنه يقضى بتخفيض نسبة إحدى الضرائب، وبناء عليه فإن البضاعة التى تتعلق بتلك الصفقة يجب أن ينخفض سعرها.

وفى اليوم التالى نفى صهرى اعترافاته. فالصفقة اتخذت على لسانه ذلك الشكل الذى كانت عليه قبل ليلة العشاء تلك. النبيذ يكذب، هكذا أخذ يقول فى هدوء، وظل يصر على أن القرار الذى أتحدث عنه قد نُشر بعد يومين من إتمام تلك الصفقة. ولم يفترض قط أنه لو أنّى رأيت ذلك القرار لأمكن أن أسىء الظن به. وضعت فيه ثقتى، لكنه لم يعمل على توفير جهدى كرماً منه، بل لأنه كان يظن أن الجميع يفكرون فى مصالحهم وهم يقرءون الجرائد. أنا على العكس منهم، عندما أقرأ جريدة، أشعر بأنّى صرت مع الرأى العام، وعندما أرى انخفاض الرسوم أتذكر كوبدين[1] ومذهب الحرية. إنه تفكير تفوق أهميته أن يترك لى مجالاً حتى أتذكر بضاعتى.

غير أنه ذات مرة قدّر لى أن أنال إعجابه وبى أنا بالذات، وأنا على هذه الحالة الخاملة، بل ومن أجل خصالى السيئة بالتحديد. كنا نمتلك أنا وهو منذ فترة أسهماً لمصنع للسكر كانوا ينتظرون منه المعجزات.

---

(١) رجل اقتصادى ورجل سياسى إنجليزى، ريتشارد كوبدين: (١٨٠٤-١٨٦٥) كان مؤيداً لحرية تداول البضائع بين البلاد.

إلا أن قيمة الأسهم أخذت تنخفض بشكل طفيف، ولكن يومًا بعد يوم. وچوڤاني، الذى لم تكن لديه النية فى السباحة ضد التيار، تخلص من أسهمه، وأقنعنى ببيع أسهمى. اتفقت معه تمامًا فى الفكرة، نويت أن أعطى أمرًا بالبيع لوكيل أعمالى، ودونت ذلك للتذكرة فى كتيب عدت فى ذلك الوقت لاستخدامه.

لكن من المعروف أن المرء لا يرى ما فى جيبه طوال النهار، وهكذا فوجئت لأمسيات عديدة بالعثور فى جيبى على تلك الملاحظة وأنا آوى إلى الفراش بعد فوات الأوان حتى أستفيد منها.

ذات مرة صرخت من الحسرة، ولكى لا أضطر إلى إعطاء تفسيرات كثيرة لزوجتى قلت لها إنى عضضت لسانى. مرة أخرى، وقد راعتنى غفلتى الكبيرة، عضضت يدى. «انتبه الآن، إلى قدميك!» هكذا قالت زوجتى وهى تضحك. بعد ذلك لم تعد هناك كوارث أخرى؛ لأنى اعتدت عليها. كنت أنظر وأنا متبلد الحس إلى ذلك الكتيب اللعين الصغير بالدرجة التى لا أشعر بها بضغطه فى أثناء النهار، ولا أتذكره حتى مساء اليوم التالى.

ذات يوم دفعنى المطر الشديد المفاجئ إلى الاحتماء بمقر ترڤيستيو. وهناك وجدت عن طريق المصادفة وكيل أعمالى، الذى حكى لى أن سعر الأسهم فى الأيام الثمانية الأخيرة قد وصل تقريبًا إلى الضعف.

– وأنا سأبيع الآن! صحت بنشوة الانتصار.

أسرعت إلى والد زوجتى، الذى كان قد علم بارتفاع سعر تلك الأسهم، وكان يتألم لأنه باع أسهمه، وكان ألمه أقل قليلاً لما دفعنى إليه من بيع أسهمى.

– صبراً! قال لى وهو يضحك – إنها المرة الأولى التى تخسر فيها؛ لأنك اتبعت نصيحتى.

الصفقة الأخرى لم تكن نتيجة نصيحته؛ بل بناء على اقتراح منه، الأمر الذى كان، بالنسبة له، مختلفًا كثيرًا.

أخذت أضحك باستمتاع.

– لكنى لم أتبع تلك النصيحة! لم يكفنى تحالف الحظ معى، وحاولت أن أنسب الفضل فى ذلك إلى نفسى. قصصت عليه أن الأسهم ستباع فقط فى اليوم التالى، وبهيئة الرجل المهم التى اتخذتها، أردت أن أجعله يصدق أنى حصلت على أخبار نسيت أن أطلعه عليها، وأنها دفعتنى إلى عدم أخذ نصيحته بعين الاعتبار.

وفى تجهم واستياء خاطبنى دون النظر فى وجهى.

– عندما يكون للمرء عقل مثل عقلك لا يجب أن يشتغل بالتجارة. وعندما يتصادف أن يُرتَكب فعل خبيث كهذا، لا يجب الاعتراف به. عليك أن تتعلم أشياءَ كثيرة أخرى.

ساءنى أنّى أغضبته. كانت المتعـة أكبر بكثير عندما كان يتسبب فى أذيتى. حكيت له صراحة كيف سارت الأمور.

– كما ترى فإن من له حقًا عقل مثل عقلى ينبغى أن يهتم بالشئون التجارية.

هدّأ على الفور من ثورته، وضحك معى:

– ليس ربحًا ما حصلت عليه من هذه الصفقة؛ إنه تعويض. رأسك هذه كلفتك الكثير، فيما سبق، ومن الصواب أن تسترد جزءًا من خسارتك!

لا أدرى لماذا أتوقف كثيرًا لأحكى عن الخلافات بينى وبينه التى لم تكن كثيرة. حقيقة كنت أحبه، حتى إنّى كنت أبحث عن رفقته، على الرغم من أنه كان يعتاد الصراخ لكى يتجلى تفكيره. واستطاعت طبلة أذنى أن تتحمل صراخه. لو أنه صاح بها بدرجة أقل، نظرياته اللاأخلاقية تلك لكانت أكثر قسوة، ولو كان مهذبًا بشكل أفضل، لاتخذت قوته مظهرًا أقل أهمية. وعلى الرغم من أنى كنت أختلف عنه كثيرًا، فإننى أعتقد أنه بادلنى الحب بحب مماثل له. وقد كان يمكن التأكد من ذلك بصورة أفضل لو أنه لم يلق حتفه قبل الأوان. أخذ فى دأب يعطينى دروسًا بعد زواجى، وكثيرًا ما كان يضيف لها الصراخ والإهانات التى كنت أتقبلها وأنا مقتنع بأنى أستحقها.

تزوجت ابنته. الطبيعة الأم المكتنفة بالأسرار وجّهتنى لذلك وسنرى، بأى عنف آمر فعلت. والآن أتفحص أحيانًا وجوه أبنائى، وأبحث عما إذا كان بجانب ذقنى الرفيع، وهو دليل الضعف، أو بجانب عينى الحالمتين، التى ورّثتهما لهم، لعلنى أجد على الأقل بعض ملامح القوة الشرسة التى كانت لذلك الجَدّ الذى اخترته لهم.

بكيت على مقبرة صِهرى على الرغم من أن وداعه الأخير لى لم يتسم بالعواطف الغامرة. قال لى وهو على فراش الموت إنه كان معجبًا بحظى المتبجح الذى يسمح لى بالتحرك بحرية فى حين أنه مقيد كالمصلوب على ذلك السرير. اندهشت، وسألته ماذا فعلت له حتى يتمنى أن يرانى طريح الفراش. فأجابنى على هذا النحو:

- لو استطعت أن أتخلص من مرضى بإعطائه لك، لأعطيتك إياه فى الحال، وربما مضاعفًا! ليس لدى هوس حب الخير للإنسان ذلك الذى لديك!

لم يكن هناك ما يدعو للشعور بالإهانة: لو استطاع لرغب فى أن يكرر تلك الصفقة التى تمكن بها من أن يحمّلنى بضاعة خاسرة. ثم إنه كان هناك أيضًا شىء من الود؛ لأننى لم أستْآ من رؤية اعتبار ضعفى نوعًا من الإنسانية المفرطة، يصفنى بها.

على مقبرته ذرفت الدمع كما ذرفته على كل المقابر الأخرى، وتألمت أيضًا على جزء من نفسى مدفون هناك. أى نقصان ذلك الذى أصابنى

وقد حرمت من أبى الثانى، ذلك العادى، الجاهل، المصارع الشرس الذى كان يكشف ضعفى، وثقافتى وخجلى. إنها الحقيقة: أنا بالفعل خجول! لم أكن لأكتشف ذلك لو لم أقم هنا[1] بدراسة تحليلية لچوڤانّى. من يدرى كيف كنت سأتعرف على نفسى بصورة أفضل، لو استمر هو بالبقاء بجانبى!

سرعان ما أدركت أنه حول منضدة ترچيستيو، حيث كان چوڤانّى يتمتع بأن يظهر حقيقة نفسه كما كانت عليه وأسوأ من ذلك قليلاً، كان كذلك يلزم نفسه بتحفظ محدد: لم يكن يتحدث قط عن بيته، وعندما كان يضطر فقط لذلك، كان يتكلم باحتشام وبصوت ألطف بعض الشىء عن المألوف. كان يكن احترامًا كبيرًا لعائلته، وربما كان يرى أنه ليس كل من يجلس حول تلك المنضدة جديرًا بمعرفة شىء عن بيته. هناك علمت فقط أن أسماء بناته الأربع تبدأ بحرف الألف، كان شيئًا عمليًا للغاية، بالنسبة له؛ وذلك لأن الأشياء التى يكتب عليها ذلك الحرف بمثابة علامة كان يمكن أن تنتقل من واحدة إلى الأخرى، دون أن تطرأ عليها تغيرات. كانت بناته تسمى (حفظت على الفور تلك الأسماء فى ذاكرتى) آدا وأوجوستا وألبرتا وأنّا. قيل أيضًا حول تلك المنضدة إن البنات الأربع كن جميلات. شد انتباهى ذلك الحرف الأول، ربما أكثر مما كان يستحق. حلمت بتلك البنات الأربع وقد ربطهن اسمهن بشكل وثيق، كما

(١) يقصد بها اليوميات التى يعدّها تزينو للطبيب S.

لو كن للتسليم فى حُزمة واحدة. كان الحرف الأول ينمّ أيضًا عن شىء آخر. أنا أدعى تزينو؛ ولذا كان لدى شعور بأنّى على وشك أن أتخذ زوجة بعيداً عن بلدى.

ربما كانت مصادفة أننى تخلصت قبل أن أتقدم إلى بيت مالفنتى، من علاقة قديمة بما يكفى مع سيدة لعلها كانت تستحق منّى معاملة أفضل. لكنها مصادفة جديرة بالتفكير. كان قرار الانفصال الذى اتخذته لسبب تافه للغاية. ظنت المسكينة أنه من البراعة أن تثير غَيرتى حتى تربطنى بها. وكان الشك، على العكس من ذلك، كافيًا كى يدفعنى لهجرها نهائيًا. لم يكن بإمكانها أن تعرف أن فكرة الزواج كانت تسيطر علىّ آنذاك، وأننى كنت أعتقد أنه لا يمكننى أن أقترن بها بالزواج، لمجرد أن التجديد معها لن يكون كبيراً بحد كافٍ. والشك الذى زرعته بى عمداً كان برهانًا على سمو حياة الزواج التى لا ينبغى أن تنشأ فيها مثل هذه الشكوك. عندما تبدد ذلك الشك الذى سرعان ما شعرت بعدم مصداقيته، تذكرت أيضًا أنها تكبدت الكثير. اليوم، وبعد أربعة وعشرين عامًا من الزواج المضبوط، لم أعد أتبع ذاك الرأى.

كان ذلك من حسن حظها حقًا، لأنها تزوجت، بعد بضعة شهور، من رجل ثرى وحظت قبلى بالتغيير المأمول. وما إن تزوجت حتى وجدتها فى المنزل؛ لأن زوجها كان صديقًا لصهرى. تقابلنا فى كثير من الأحيان، بل ولأعوام كثيرة، طيلة أيام شبابنا، وكان يسود بيننا الاحترام

الكامل ولم ننوه قط إلى الماضى. فى يوم ليس ببعيد سألتنى فجأة، بوجهها الذى يُتوّجه الشعر الرمادى وتصبغه حمرة الشباب:

- لماذا هجرتنى؟

كنت صريحاً؛ لأنّى لم أملك الوقت الكافى لإعداد كذبة:

- لم أعد أدرى، لكنى أجهل أشياءَ أخرَى كثيرةً فى حياتى.

- يؤسفنى ذلك!، قالت وقد سارعت بانحناءة رداً على مجاملتها الواعدة. أراك فى الشيخوخة رجلاً مسلياً للغاية. استقمت بعناء. لم يعد هناك ما يستدعى تقديم الشكر.

علمت ذات يوم أن عائلة مالفنتى قد عادت إلى المدينة من رحلة للاستمتاع طالت لحد ما بعد إقامة صيفية فى الريف. لم أقم بعمل أية خطوة لكى يدخلونى ذلك البيت؛ لأن المبادرة قام بها چوڤانّى.

أطلعنى على رسالة لصديق حميم له كان يسأل عن أخبارى: كان من رفقائى منذ أيام الدراسة، وكنت أحبه كثيراً، حتى إننى ظننت أنه مؤهل لأن يصبح كيميائياً عظيماً. فى ذلك الحين كنت، على العكس، لا أبالى به فى شىء لأنه تحول إلى تاجر كبير للسماد، وأنا لم أرغب قط فى معرفته وهو على ذلك الوضع. دعانى چوڤانّى فى بيته؛ لأنى كنت بالتحديد صديقاً لصديقه، ومن المفهوم أننى لم أعترض على الإطلاق.

تلك الزيارة الأولى أتذكرها كما لو أننى قمت بها بالأمس. كان الجو ما بعد الظهيرة معتماً وبارداً فى فصل الخريف؛ وأتذكر حتى تلك

الراحة التى شعرت بها عندما تخلّصت من معطفى بدفء ذلك البيت. كنت بالفعل على وشك الوصول إلى مرساى. مازلت إلى الآن أتعجب من ذلك العمى الشديد الذى كان يبدو لى حينئذ وضوحًا فى الرؤية. كنت ألهث وراء الصحة، ووراء الشرعية. لا بأس فى أن يتضمن ذلك الحرف الأول أربع فتيات، لكن ثلاثة منهن سيتم استبعادهن على الفور، أما الرابعة فستخوض امتحانًا قاسيًا. ربما لزم علىّ أن أكون قاضيًا بالغ القسوة. لكن فى تلك الأثناء ما كنت لأعرف اسم الصفات التى أطلبها منها وتلك التى أنفر منها.

فى حجرة "الصالون" الأنيق الفسيح والمؤثث بأثاث من طرازين مختلفين، أحدهما طراز لويس الرابع عشر والآخر طراز ڤينيسيا المليء بالذهب المطبوع أيضًا على الجلد، ويقسمان الحجرة إلى جزءين، كما كان المعتاد فى ذلك الوقت، حيث وجدت أوجوستا وحدها تقرأ بجانب إحدى النوافذ. مدت إلىّ يدها لتصافحنى، كانت تعرف اسمى وقالت لى إنهم كانوا ينتظروننى؛ لأن أباها أخبر بزيارتى. ثم خرجت مسرعة لتنادى أمها.

هاهى ذى تنتهى بالنسبة لى واحدة من الفتيات الأربع ذات الحرف الأول ذاته. كيف أمكنهم أن يحسبوها حسناء؟ حينما أعود للتفكير فيها بعد مرور زمن لم أرها فيه، أتذكر أول شيء لاحظته وهو الحول الشديد الذى يميزها. فضلاً عن ذلك، لم يكن شعرها بالغزارة الشديدة، كان أشقر لكن لونه باهت يفتقد إلى البريق ولم يكن شكلها العام سيئًا،

حتى وإن كانت بدينة بعض الشىء بالنسبة لعمرها. وفى اللحظات القليلة التى مكثت فيها بمفردى أخذت أفكر:"ماذا! لو شابهت الثلاثة الأخريات أختهن هذه!"

بعد قليل انخفض عدد الفتيات إلى اثنتين. دخلت واحدة منهن مع أمها، وكانت لا تبلغ من العمر إلا ثمانية أعوام. كانت جميلة تلك الطفلة ذات الشعر الملتف فى حلقات، اللامع، الطويل والمسترسل على كتفها! كانت تبدو بوجهها الممتلئ والهادئ كملاك صغير مستغرق فى التأمل (ما دامت صامتة)، كما لو صورها رفاييللوسانتسيو.

حماتى... أى نعم! أشعر أنا أيضًا بأنه من اللائق ألا أبالغ فى حرية الحديث عنها. منذ سنوات عديدة وأنا أحبها لأنها أمى، لكنى أقصّ الآن قصة قديمة لن تظهر فيها بمظهر الصديقة لى ولا حتى فى هذا الملف، الذى لن تراه أبدًا، وأعتزم ألاّ أوجه إليها ألفاظًا لا تحمل الاحترام. كما أن تدخلها كان وجيزًا، لدرجة أنه كان باستطاعتى أيضًا أن أنساه: ضربة صغيرة فى اللحظة المناسبة، لم تكن أقوى مما يلزم لكى أفقد اتزانى الضعيف. ربما كنت سأفقده أيضًا دون تدخلها، ثم من يدرى ألعلها أرادت ما حدث بالضبط؟ كانت مهذبة بدرجة كبيرة، حتى لا يمكن أن يحدث لها مثلما وقع لزوجها، وأن تشرب كثيرًا حتى تكشف لى شئونى. بالفعل لم يحدث لها قط شىء من هذا القبيل؛ ولهذا فإنى أحكى قصة لا أعرفها جيدا؛ بمعنى أننى لا أدرى إن كان لدهائها أم لحماقتى يرجع السبب في زواجى بتلك التى لم أكن أريدها من بين بناتها.

على كلٍّ يمكنني القول بأنه في الوقت الذي قمت فيه بزيارتي الأولى تلك كانت حماتي امرأة لا تزال تحتفظ بجمالها. كانت أنيقة حتى في أسلوب ملابسها الفاخرة الخالية من البهرجة. كان كل شيء فيها معتدلاً ومتناسقًا.

هكذا كان لدى في والد زوجتي مثال للتوافق الاجتماعي بين الزوج وزوجته كنت أحلم به. كانا سعيدين معًا للغاية، هو يصيح دائمًا وهي تبتسم ابتسامة تعني الموافقة والعطف في الوقت ذاته. كانت تحب زوجها الضخم، ومن المؤكد أنه أسرها واحتفظ بها بكثرة صفقاته الرابحة. لم تكن المصلحة، بل إعجاب حقيقي ذلك الذي كان يربطها به، إعجاب كنت أشاركها فيه؛ ولهذا أدركته بسهولة. كان ينطلق بالنشاط في نطاق محدود للغاية، قفص ليس به إلا بضاعة وعدوان (المتعاقدان)، حيث كانت تنشأ وتنكشف تدابير وعلاقات جديدة، كان يبعث الانتعاش في الحياة على وجه رائع. يقص عليها كل شئونه وكانت هي على درجة عالية من الأدب، بحيث لم تعطه نصائح قط خشية أن تبعده عن الصواب. كان يشعر بالحاجة إلى تلك المعونة الصامتة ويسرع أحيانًا إلى المنزل ليحادث نفسه وهو مقتنع أنه ذاهب إلى المنزل لأخذ النصيحة من زوجته.

لم تصبني المفاجأة عندما علمت أنه يخونها، وأنها على علم بذلك ولا تُكنّ له أية ضغينة. كنت قد تزوجت منذ عام عندما حكى لي جوفانّي ذات يوم وهو منزعج للغاية أنه فقد رسالة كانت تهمه كثيرًا، وأراد أن يراجع أوراقًا كان قد سلمها لي آملاً في أن يعثر عليها بينها. إلاّ أنه

حكى لى بعد ذلك، بأيام قلائل، وهو مسرور جداً أنه عثر عليها فى حافظة أوراقه. «هل كانت من سيدة؟» سألته، فأومأ برأسه بالإيجاب، متباهياً بحظه السعيد. أعقب ذلك، أنهم اتهمونى ذات يوم بضياع بعض الأوراق، ولكى أبرئ نفسى، قلت لزوجتى وحماتى إنه ليس باستطاعتى أن يكون لى حظ الأب الذى تعود الأوراق إليه بمفردها فى حافظة أوراقه. أخذت حماتى تضحك من الأعماق، حتى إننى لم أشك فى أن تلك الورقة لم تعد فى مكانها إلا بيدها هى. من الواضح أنه لم تكن هناك أهمية لذلك فى علاقتهما. كلٌّ يحب بطريقته، وطريقتهما، كما أرى، لم تكن أكثر حماقة من غيرها.

استقبلتنى السيدة بلُطف بالغ. التمست العذر لأنه كان عليها أن تبقى الصغيرة أنّا معها خلال ربع الساعة التى يتعذر فيها تركها مع آخرين. كانت الطفلة تنظر إلىّ وهى تتفحصنى بنظرات جادة. وعندما عادت أوجوستا وجلست على أريكة صغيرة أمام تلك التى كنا جالسين عليها أنا والسيدة مالفنتى، ذهبت الصغيرة لتستلقى فى حجر أختها، حيث أخذت تحدّق طوال الوقت بإصرار سرنى، حتى إنّى لم أعرف أى أفكار كانت تدور فى ذلك الرأس الصغير. لم يكن الحديث ممتعاً بدرجة كبيرة فى بادئ الأمر. كانت السيدة، كغيرها من الأشخاص المهذبين، باعثة على الملل إلى حد كبير فى اللقاء الأول، فضلاً عن أسئلتها الكثيرة عن أخبار ذلك الصديق الذى تظاهرت بأنه هو الذى أدخلنى ذلك البيت والذى لم أتذكر حتى اسمه فى العماد.

وأخيراً دخلت آدا وألبرتا. تنفست الصعداء: كانتا جميلتين، وأضاءتا بحسنهما تلك الحجرة التى كان ينقصها النور حتى تلك اللحظة. كانتا تتميزان بالشعر الأسود، وطول القامة والقوام المشوق، لكن إحداهما تختلف كثيراً عن الأخرى. لم يكن اختياراً صعباً ذلك الذى كان علىّ أن أقوم به. كانت ألبرتا فى ذلك الوقت تزيد قليلاً عن السابعة عشرة. كانت كأمها بشرتها وردية وشفافة – مع أن شعرها أسود – مما زاد من الطابع الطفولى فى شكلها. أما آدا، فقد كانت مكتملة الأنوثة بعينيها الجادتين ووجهها الذى يقارب فى بياضه نقاء الثلج وشعرها الغزير، المموج، لكنه مصفف بأناقة وبساطة.

من الصعب اكتشاف البدايات الهادئة التى كانت لذلك الشعور الذى أصبح بعد ذلك قوياً جداً، لكنى على يقين من أنه لم تنل منّى ما يسمونها بصعقة الحب من أول نظرة تجاه آدا. لكن، حل محل تلك الصعقة اقتناع استحوذ علىّ مباشرة، وهو أن تلك هى المرأة التى كنت فى حاجة إليها، وأنها لابد أن تقودنى إلى الصحة نفسياً وجسمانياً من خلال ذلك الزواج المقدس من امرأة واحدة. عندما أفكر فى ذلك الأمر أظل مندهشاً من أنه لم يكن هناك وجود لتلك الصاعقة، بل ذلك الاقتناع الذى استحوذ علىّ. ومن المعروف أننا – معشر الرجال – لا نبحث فى الزوجة عن الخصال التى نعشقها ونزدريها فى المحبوبة. يبدو إذن أننى لم أرَ حسن آدا وجمالها كله، وأنّى بدلاً من ذلك كنت مأخوذاً بالإعجاب بصفات أخرى من الوقار والحيوية نسبتها لها، أى تلك الخصال التى

كنت أحبها فى أبيها، مع شىء من النعومة. ونظراً لأنى ظننت بعد ذلك (كما مازلت أظن) أنّى لم أخطئ، وأن تلك الصفات اكتسبتها آدا منذ صباها، يمكن أن أعتبر نفسى ملاحظًا جيداً، ولكن ملاحظ جيد كفيف البصر لحد ما. فى تلك المرة الأولى نظرت إلى آدا وبداخلى رغبة واحدة: أن أغرم بها حيث ينبغى أن أعبُر ذلك الطريق لكى أتزوجها. تأهبت لذلك وأنا مزوَّد بتلك الطاقة التى أوجهها دائمًا لاهتماماتى الصحية. لا أستطيع تحديد متى نجحت فيه؛ ربما حدث ذلك بالفعل فى الوقت الوجيز الذى أتاحته تلك الزيارة الأولى.

لابد أن جوڤانّى تحدث عنّى كثيراً مع بناته. فضلاً عن ذلك كنّ على علم بأنّى انتقلت فى دراستى من كلية الحقوق إلى كلية الكيمياء لأعود مرة أخرى – مع الأسف! – إلى الدراسة الأولى. حاولت أن أفسِّر الأمر: كان من المؤكد أنه عندما ينغلق المرء فى كلية من الكليات، يبقى الجزء الأكبر من المعارف مغطى بالجهل. وأخذت أقول:

– لو لم تضغط علىّ آنذاك جِدية الحياة، لظللت أتنقل من كلية إلى أخرى – وأخفيت أنى شعرت بتلك الجِدية من وقت وجيز، منذ أن قررت الزواج.

ثم، لكى أثير المرح، قلت إنه كان من المضحك أن أترك الكلية وقت تأدية الامتحانات بالضبط.

– كانت حالة فريدة: هكذا أخذت أضيف بابتسامة من يريد أن يوهم بأنه يروى أكاذيب، ولكن الحقيقة أنى غيرت دراستى فى أوقات عديدة.

وهكذا بدأت السعى للفوز بآدا، وواصلت جهدى فى أن أجعلها تسخر منّى وتستهزئ بى، ناسيًا أنى انتقيتها من أجل جديتها. إنى غريب الأطوار قليلاً، ولكن من المؤكد أنى ظهرت لها حقيقة بمظهر مختل العقل. الذنب ليس ذنبى أنا وحدى، ويدل على ذلك أن أوجوستا وألبرتا، اللتين لم أخترهما، كان رأيهما فيّ مختلفًا. آدا، التى كانت فى ذلك الحين بالذات إنسانة جادة للدرجة التى تجول بها فيما حولها بعينيها الجميلتين بحثًا عن الرجل الذى تقبله فى عشها، كانت عاجزة عن حب الإنسان الذى يضحكها، أخذت تضحك، تضحك كثيرًا، أكثر مما ينبغى، وبذلك أخذت تكسو بالسخرية شخص من أضحكها. ذلك كان عيبًا حقيقيًا بها، وكان لابد أن يلحق بها الأذى، لكنه أضرّ بى أنا أولاً. لو أننى تمكنت من الصمت فى الوقت المناسب ربما أخذت الأمور مجراها بعكس ماحدث. ولعلنى تركت لها حينئذ الفرصة لكى تتكلم، وتفصح لى عن نفسها ولاستطعت أن أحتاط منها.

كانت الفتيات الأربع جالسات على الأريكة الصغيرة التى كانت تتسع لهن بصعوبة، على الرغم من أن أنّا كانت تجلس على ركبتى أوجوستا. كنّ جميلات معًا على ذلك النحو. أدركت ذلك بارتياح داخلى، وقد وجدت نفسى أسير فى درب رائع نحو الإعجاب والحب. كن حقيقةً حسناوات! كان لون شعر أوجوستا الباهت يعمل على إبراز لون شعر الأخريات الأسود.

كنت قد تحدثت عن الجامعة وألبرتا، التى كانت تدرس بالصف قبل النهائى بالمدرسة الثانوية، حكت عن دراستها. كانت تشكو من اللغة اللاتينية التى كانت تبدو لها صعبة للغاية. قلت إنى لا أندهش من ذلك؛ لأنها لغة لا تصلح للسيدات، حتى إنى أعتقد أنه حتى فى أيام الرومان القدماء كانت النساء تتحدث بالإيطالية. وعلى عكس ذلك بالنسبة لى - هكذا جزمت - كانت اللاتينية تمثل المادة المفضّلة لدىّ. إلا أننى ارتكبت بعد ذلك بوقت قليل حماقة أن أستشهد بنص لاتينى اضطرت ألبرتا لأن تصححه لى. كان سوء حظ حقيقياً! لم أبالِ به ونبهت ألبرتا إلى أنه متى تركت خلف ظهرها عشرات الفصول الدراسية بالجامعة، فسوف تحترس هى أيضاً من القيام باستشهادات لاتينية.

حكت آدا، التى كانت مؤخراً مع والدها فى إنجلترا لبضعة شهور، أن فتيات كثيرة يعرفن اللاتينية فى ذلك البلد. ثم وبصوت جاد، خال من أى نغم، خفيض أكثر مما ينتظر من إنسانة لطيفة مثلها، واصلت تقول إن السيدات فى إنجلترا يختلفن كثيراً عن أمثالهنّ فى إيطاليا. يجتمعن لأهداف خيرية أو دينية أو حتى اقتصادية. وانساقت آدا فى الحديث، حيث أرادت أخواتها أن يسمعن مرة أخرى تلك الأمور التى أثارت دهشة فتيات مدينتنا فى ذلك العصر. ولكى ترضيهن، أخذت تتكلم عن تلك السيدات الرئيسات، والصحفيات، والسكرتيرات والقائمات بالدعاية السياسية اللاتى كن يصعدن المنبر لمخاطبة مئات الأفراد، دون أن يحمرّ وجههن أو يرتبكن، إن قاطعهن أحد أو إذا ما وجدن استنكاراً لموضوعاتهن.

كانت تحكى ببساطة، وبنبرة هادئة، دون أية نية فى إثارة العجب أو الضحك.

كنت أحب كلماتها البسيطة، أنا، الذى كنت متى فتحت فاى، شوهت الأشياء أو الأشخاص وإلاّ لما كان الحديث يبدو لى مجدياً . دون أن أكون خطيباً مفوهاً، كنت مصاباً بهوس الكلمة. كانت الكلمة بالنسبة لى لابد وأن تكون حدثاً فى حد ذاته وبناء على ذلك لا جب أن تصبح سجينة حدث آخر.

كنت على الرغم من ذلك أكنّ بغضاً خاصاً "لألبيون"[1] الغادرة، وكشفت عنه دون خوف من أن أغضب آدا، التى لم تكن قد أظهرت هى الأخرى كرهاً أو حباً لإنجلترا. أمضيت بها بضعة شهور، لكنى لم أتعرف على أى إنجليزى من أصل طيب؛ لأنّى فقدت فى أثناء سفرى خطابات التزكية لى التى حررها رجال الأعمال من أصدقاء والدى؛ لذلك تعاملت فى لندن مع بعض العائلات الفرنسية والإيطالية فقط، وانتهى بى التفكير إلى أن كل الأشخاص الشرفاء فى تلك المدينة ترجع أصولهم إلى أوروبا. كانت معرفتى باللغة الإنجليزية محدودة للغاية. لكن بمساعدة الأصدقاء تمكنت من فَهم بعض الأمور عن حياة سكان تلك الجزر، واستعلمت على وجه الخصوص عن بُغضهم لكل من هو غير إنجليزى.

---

(١) الاسم القديم الذى كانت تعرف به بريطانيا العظمى، وقد يستخدمه الإيطاليون أحياناً ربما للسخرية أو الازدراء.

وصفت للفتيات شعورى غير الطيب وليد إقامتى وسط أعداء. ربما تمكنت على الرغم من ذلك من المقاومة، حتى أتحمل إنجلترا لستة أشهر حسب إرادة والدى وأوليفى اللذين أرادا أن يسومانى العذاب لأدرس التجارة الإنجليزية (التى لم أعثر عليها قط حيث يبدو أنها كانت تتم فى الخفاء) ما لم يقع لى حادث غير مرغوب فيه. كنت قد ذهبت إلى محل كتب لأبحث عن قاموس. وهناك فى المحل، وعلى منضدة البيع، رأيت قطًا ضخمًا من نوع "الأنجوراه" الرائع مستلقيًا فى استرخاء، يغرى بالفعل على مداعبة فروته الناعمة. حسنًا! قمت فقط بمداعبته بلطف. هاجمنى على حين غرة، وخدشنى على نحو خطير فى يدى. ولم أعد أطيق إنجلترا منذ تلك اللحظة، وجاء اليوم التالى وأنا فى باريس.

ضحكت أوجوستا، وألبرتا وحتى السيدة مالفنتى من الأعماق. أما آدا فقد ظلت مندهشة، ظنًا منها أنها أساءت الفَهم. ألم يكن على الأقل بائع الكتب نفسه هو الذى تسبب فى الإساءة إلىّ وخدشنى؟ كان علىّ أن أكرر القص، وفى ذلك ما يبعث على الملل؛ لأنه يتكرر بصورة سيئة.

أرادت ألبرتا، المثقفة، مساعدتى:

– القدماء أيضًا كانوا ينقادون فى قراراتهم لحركات الحيوانات.

لم أتقبل المساعدة. إن القط الإنجليزى لم يتخذ شكل الرد الذى يأتى من الآلهة. لقد تصرف كما لو أنه القدر المحتوم!

بحثت آدا، بعينيها الواسعتين المحملقتين، عن استفسارات أخرى:

– وهل مثّل القط بالنسبة لك الشعب الإنجليزى بأسره؟

كم كنت سيئ الحظ! وعلى الرغم من أن تلك الحادثة كانت حقيقية، فإنها بدت لى مفيدة وشائقة، كأنها اختلقت لأهداف بعينها. ألم يكن يكفى لاستيعابها أن أذكّر بأنه بإيطاليا حيث أعرف الكثيرين وأحبهم، لم يكن ليبلغ سلوك ذلك القط مثل تلك الأهمية؟ لكننى لم أقل هذا، بل قلت:

– من المؤكـد أنه ليس هناك قط إيطالى، يمكنه أن يسلك ذلك السلوك.

ضحكت آدا طويلاً، أكثر مما ينبغى. حتى إن نجاحى بدا لى كبيراً يفوق الحد، حيث أنّى تواضعت وقللت من شأن الواقعة بتفسيرات أخرى.

– إن الدهشة أصابت بائع الكتب نفسه، لسلوك القط الذى كان يسلك سلوكًا طيبًا مع الآخرين جميعهم. إذن كانت الحادثة الفريدة من نصيبى، إما لأنى كنت أنا المتسبب فيها أو ربما لأنى إيطالى. كان حقًا مثيراً للاشمئزاز، وكان علىّ أن أفر هاربًا.

وهنا حدث أمر كان من شأنه أن ينبهنى وينقذنى. الصغيرة أنّا التى كانت حتى تلك اللحظة لا تزال ساكنة، تحدّق فى، أطلقت صوتها عاليًا لتعبر عن شعور آدا، فصرخت:

– أهو مجنون حقيقة، مجنون تمامًا؟

هددتها السيدة مالفنتى قائلة:

– ألا تصمتين؟ ألا تستحين من التدخُّل فى أحاديث الكبار؟

زاد التهديد الأمر سوءًا. صاحت أنّا:

- إنه مجنون! يتحدث مع القطط! يجب إحضار الحبال بسرعة لتقييده!

نهضت أوجوستا، وقد احمرّ وجهها من الاستياء، وحملتها بعيدًا وهى تحذرها، وتقدم لى اعتذارها فى الوقت نفسه. ولكن عند خروجها من الباب أيضًا ظلت الحية الصغيرة تحملق فى عيني، وتوجه لى امتعاضها وتصرخ فى وجهى:

- سترى أنهم سيقيدونك!

لقد انقضت علىّ بصورة غير متوقعة، حتى إنى لم أستطع للتو إيجاد طريقة للدفاع عن نفسى. لكنى تنفست الصُّعداء عندما أدركت أن آدا مستاءة هى أيضًا من ذلك الأسلوب فى التعبير عن شعورها. إن بذاءة لسان الصغيرة قد قاربت بيننا.

حكيت، وأنا أضحك من أعماقى، أنّى أحتفظ فى بيتى بشهادة مختومة رسميًا تشهد بالفعل بسلامة قواى العقلية. وهكذا أطلعتهم على قصة الدعابة التى لعبتها من قبل مع والدى العجوز. أبديت استعدادى لعرض تلك الشهادة على الصغيرة أنّوتشا.

وعندما هممت بالانصراف لم يسمحن لى بذلك. كن يردن أن أنسى أولاً تلك الخدوش المؤلمة التى سببها القط. قبلت مجاملتهن، وقدمن لى فنجانًا من الشاى.

من المؤكد أنه انتابنى فى الحال شعور غامض بأنى لابد أن أكون مختلفًا قليلاً عما كنت حتى أنال استحسان آدا؛ ظننت أنه من اليسير علىّ أن أصبح الرجل التى كانت تريده. واصلنا الحديث، وتكلمنا عن وفاة والدى، وبدا لى أن الإفصاح عن ألمى العميق الذى كان لا يزال يؤثر فى، سيكون من شأنه أن يجعل آدا الوقور تشاركنى فيه. لكننى سرعان ما فقدت تلقائيتى، وأنا أحاول جاهداً أن أشابهها؛ ولهذا – كما سيتضح حالاً – بعدت عنها كل البعد. قلت إن ألمى لهذه الخسارة كان شديداً لدرجة أنه لو كان لدىّ أبناء لبحثت عن طريقة تجعلهم لا يرتبطون بى بصورة كبيرة، حتى أجنبهم الألم الكبير عند رحيلى فيما بعد.

أصابتنى الحيرة قليلاً عندما سألتنى أى طريق سأسلكه للوصول إلى تحقيق ذلك الهدف. بالمعاملة السيئة والضرب؟ هكذا قالت ألبرتا، وهى تضحك:

– إن أكثر الوسائل ضمانًا قد تكون قتلهم.

كنت أرى أن هناك رغبة تدفع آدا لإرضائى؛ ولذلك كانت مترددة؛ لكن كل محاولة لها لم تساعدها على التغلب على ترددها. ثم ذكرت أنها ترى أننى من قبيل الإحسان أفكر فى تدبير حياة أولادى بهذا النحو، لكنها لا ترى من الصواب أن يعيش الإنسان كى يتأهب للموت. أصررت على رأيى وجزمت أن الموت هو المدبّر الحقيقى للحياة. كنت أفكر دائمًا فى الموت؛ ولذا ما كان يتملكنى إلاّ شعور بألم واحد: اليقين بأننى لابد أن أموت. أما الأمور الأخرى جميعها فقد صارت على درجة قليلة جداً

من الأهمية، حتى إنى كنت لا أعبأ لها إلاّ بابتسامة سعيدة أو ضحكة كذلك سعيدة. أطلقت لنفسى العنان فى الحديث عن أشياء بعضها غير حقيقى، خاصةً وأنى وجدت نفسى معها، فى حين أصبحت جانبًا بالغ الأهمية فى حياتى. حقيقة أظن أنى تحدثت معها هكذا رغبةً منّى فى إفهامها أنّى رجل مرح للغاية. فالمرح غالبًا ما كان يعزّز مكانتى عند النساء.

وبعد تفكير وتردد، أفصحت لى أن حالة نفسية على هذا النحو لا تروق لها. إن التقليل من قيمة الحياة، يزيد الإيحاء بتداعيها أكثر مما أرادته الطبيعة الأم. حقيقة قالت لى إنّى لست الشخص المناسب لها، لكنى تمكنت على الرغم من ذلك من وضعها فى حالة حيرة وانشغال، وكان ذلك بمثابة نجاح بالنسبة لى. استشهدت ألبرتا بفيلسوف قديم لابد أنه كان يتفق معى فى تفسير معنى الحياة، وقالت أوجوستا إن الضحك شىء جميل وعظيم، وهو وفير كذلك عند والدها.

– لأنه يسعد بالصفقات الرابحة، هكذا قالت السيدة مالفنتى وهى تضحك.

وأخيرًا أنهيت تلك الزيارة المشهودة.

ليس فى هذا العالم ما هو أصعب من الزواج كما يبغى المرء بالضبط. ويتضح ذلك من حالتى؛ حيث إن قرار زواجى سبق اختيار الخطيبة بوقت طويل. لماذا لم أذهب لرؤية الكثير والكثير من الفتيات قبل

أن أختار إحداهن؟ كلا! كان يبدو بالفعل أنني استأت من رؤية أعداد من النساء تفوق الحد، ورأيت ألاّ أجهد نفسي. خلت أنه ما إن يقع الاختيار على الفتاة، بإمكاني أن أختبرها بصورة أفضل وأتأكد على الأقل من أنها على استعداد لأن تتقابل معي في منتصف الطريق، كما هو المعتاد في روايات الحب ذات النهاية السعيدة. اخترت على عكس ذلك، الفتاة ذات الصوت الرزين جداً والشعر المتمرد بعض الشيء والمصفف، مع ذلك، في حزم وظننت أنها، بتلك الجدية الشديدة، لن ترفض رجلاً ذكيًا، غير دميم ومن عائلة طيبة، مثلي أنا. ومع الكلمات الأولى التي تبادلناها شعرت ببعض النشاذ، لكن النشاذ هو الطريق الذي يؤدي إلى ألفة النغم. بل عليّ أن أقر بأنّي قلت لنفسي:«ينبغي أن تظل كما هي؛ لأنها تعجبني على هذا النحو، وسوف أغير أنا من نفسي إن أرادت هي ذلك». كنت على العموم في غاية التواضع لأنه يسهل بالتأكيد على المرء أن يغير من نفسه عن أن يعيد تربية الآخرين.

بعد وقت وجيز أصبحت عائلة مالفنتي محور حياتي. كل مساء كنت أمضيه مع چوڤانّي الذي زاد من مودته وقُربه لي، بعد أن أدخلني بيته. كان هذا الودّ بالدرجة التي رفعت الكلفة بيننا. في بادئ الأمر قمت بزيارة أسرته مرة في الأسبوع، ثم أكثر من مرة، وانتهى بي الأمر إلى الذهاب إلى بيته كل يوم لقضاء ساعات عديدة فيما بعد الظهيرة. توافرت ذرائع جلوسي في ذلك البيت، وقد لا أخطئ لو قلت إن هناك أيضًا من أتاحها لي. حملت أحيانًا معي آلة الكمان، وقضيت بعض

الوقت فى العزف مع أوجوستا، الوحيدة التى كانت تعزف البيانو فى ذلك المنزل. كان من المؤسف أن آدا لا تعزف، ومن المؤسف أنّى لا أجيد العزف على الكمان، والأسوأ من ذلك أن أوجوستا لم تكن عازفة بيانو عظيمة. كنت أضطر مع كل معزوفة إلى إلغاء بعض الجمل الموسيقية؛ لأنّى أجدها بالغة الصعوبة، وأزعم أننى لم ألمس آلة الكمان منذ عهد بعيد. إن عازف البيانو غالبًا ما يفوق عازف الكمان الهاوى، وكانت لدى أوجوستا مقدرة على العزف لا بأس بها، لكنى حيث، كنت أعزف أسوأ منها بكثير، لم أستطع أن أرضى بذلك وأخذت أفكر: "آه لو استطعت العزف مثلها، لكان عزفى أفضل"! وبينما كنت أحسب قَدر أوجوستا، كان الآخرون يبدون رأيهم فى، وكما علمت فيما بعد، كان رأيًا سلبيًا. ثم إنه ربما رحبت أوجوستا بالعودة إلى معزوفاتنا، لكننى أدركت أن آدا كانت تمل ذلك؛ ولذا تظاهرت لعدة مرات بأنى نسيت الكمان فى المنزل. حينئذ لم تعد أوجوستا للحديث عن ذلك مرة أخرى.

للأسف لم أكن أجلس فقط مع آدا خلال الساعات التى كنت أمضيها فى ذلك البيت. وسرعان ما أصبحت صحبتى اليوم بأكمله. كانت المرأة التى انتقيتها بنفسى، وقررت بذلك أن تكون لى، وأضفيت عليها جمال كل أحلامى، حتى يزداد جمال ما فزت به من الحياة فى مُخيلتى. زينتها، وخلتها بكل الصفات التى كنت أحتاج إليها وكانت تنقصنى؛ لأنه فضلاً عن أنها ستصبح رفيقة حياتى، ستكون أيضًا أمى الثانية التى تقودنى إلى حياة كاملة، حياة الرجولة، الحافلة بالصراعات والانتصارات.

في أحلامي كنت أجمّل أيضاً ملامحها قبل أن أسلمها إلى أحلام أخرى. حقيقة كنت ألاحق نساء كثيرات في حياتي، وكثيرات منهن كن يستسلمن. في الحُلم أدركتهن جميعًا. بالطبع لا أجمّلهن ولا أغير ملامحهن، لكنى أفعل ما يفعله صديق لى، وهو رسام غاية في الرقة، عندما يرسم ملامح نساء حسناوات، ويستغرق أيضًا في التفكير في أشياء أخرى جميلة كالتحف الخزفية على سبيل المثال. إنه حلم له خطورته؛ لأنه يعطى سلطانًا جديدًا للنساء التى حلم بهن المرء، وعندما يظهرن ثانيةً فى ضوء الحقيقة يحتفظن بشيء من الفاكهة أو الزهور أو الخزف الذى اكتسين به.

يشق علىّ أن أحكى عن مغازلتى لآدا. فضلاً عن أن هناك فترة طويلة من حياتى حاولت فيها جاهداً أن أنسى تلك المغامرة الحمقاء التى أشعرتنى حقيقة بذلك النوع من الخجل الذى يستوجب الصراخ والاحتجاج: «لم أكن أنا شديد الحماقة!». ومن كان إذن؟ لكن الاحتجاج يمنح أيضاً شيئًا من الراحة ولقد أصررت عليه. لا بأس فى ذلك لو أننى سلكت ذلك السلوك قبل عشرة أعوام، فى العشرين من عمرى! لكن، أن ينزل بى العقاب بهذه القسوة ليس إلاّ لأنى اتخذت قرارًا بالزواج وحسب، فهو ما يبدو لى بالفعل ظلمًا. ها أنا ذا الذى جربت كل أنواع المغامرات بروح جريئة تصل إلى حد التبجح، أجد نفسى أعود فتى خجولاً يحاول أن يمس يد محبوبته، وربما دون أن تنتبه إلى ذلك، بل ويحب من جسده ذلك الطرف الذى نال شرف مثل هذه اللمسة. هذه التى كانت أطهر

مغامرة فى حياتى، أتذكرها حتى اليوم وقد صرت عجوزاً كأنها الأكثر حقارة. كان شيئًا خارج المكان والزمان، ما يشبه فتى فى العاشرة من عمره يلتصق بصدر المرضعة. ياله من شيء مقزِّز!

ثم كيف لى أن أفسر ترددى طويلاً فى الحديث بوضوح وتوجيه السؤال للفتاة: خذى قرارك! أتريديننى أم لا؟ كنت أذهب إلى ذلك المنزل وأصل إليه عبر أحلامى؛ كنت أحصى عدد درجات السُلَّم التى تؤدى إلى ذلك الطابق الأول، وأقول لنفسى إن كانت فردية فسوف يدل هذا على حبها لى وكانت دائمًا فردية؛ لأن عددها كان ثلاثًا وأربعين درجة. كنت أصل عندها وأنا فى ثقة كبيرة، وينتهى بى الأمر إلى الحديث عن أشياء أخرى. لم تكن أدا قد وجدت بعد اللحظة المواتية لتعبر لى عن ازدرائها وكنت أصمت! أنا أيضًا لو كنت مكانها لاستقبلت ذلك الشاب اليافع ذى الثلاثين من عمره بركلات فى مقعدته!

من ناحية أخرى ينبغى القول إننى لم أكن أشبه تمامًا الشاب العاشق ذا العشرين عامًا، الذى يظل صامتًا ينتظر أن تتعلق المحبوبة بعنقه. لم أكن أتوقع شيئًا مثل هذا. كنت مستعداً للحديث، ولكن فيما بعد. وإن لم أتقدم بخُطواتى، فهذا يرجع إلى عدم ثقتى بنفسى. كنت أنتظر أن أصبح أكثر نُبلاً، أكثر قوةً، أكثر جدارةً بفتاتى الرائعة. كان يمكن أن يحدث ذلك من يوم إلى آخر. لماذا لا أنتظر؟

أشعر أيضًا بالخجل أنّى لم أدرك فى الوقت المناسب أننى قد أقدمت على خيبة أمل كهذه. كان علىّ أن أتعامل مع فتاة من أكثر

الفتيات سذاجة، ومن فرط ما حلمت بها صورها لى خيالى امرأة من أكثر المتمرسات دلالاً. وكان شعورى القوى بالبغض فى غير موضعه عندما نجحت أن تفهمنى أن أمرى لا يهمها فى شىء. لكنّى كنت قد مزجت بداخل نفسى الواقع بالأحلام مزجًا شديداً، حتى إنّى لم أستطع إقناع نفسى بأنها ما كانت لتقبلنى أبداً.

إن سوء فَهم النساء يعد بالفعل دليلاً على قلة قيمة الرجل. فى بادئ الأمر لم أخطئ قط، وعلىّ أن أصدق أنّى اتهمتها خطأً؛ لأننى شوهت علاقتى معها منذ البداية. اقتربت منها ليس لإغوائها بل للزواج منها، وهذا يعد طريقًا غير مألوف للحب، طريق رحب ومريح للغاية، لكنه لا يؤدى إلى الهدف على الرغم من قربه الشديد منه. إن الحب الذى يصل إليه المرء على هذا النحو يفتقر إلى خاصية أساسية: إخضاع المرأة. وعلى ذلك يتأهب الرجل لدوره بفتور كبير ربما يمتد إلى جميع حواسه، حتى إلى حواس النظر والسمع.

كنت أحمل كل يوم أزهاراً للفتيات الثلاث وأهديتهن نوادرى، والأهم من ذلك أنّى كنت أقص عليهن بدقة متناهية أخباراً عن حياتى كل يوم.

يحدث للجميع أن يتذكروا الماضى عندما يكتسب الحاضر أهمية كبيرة. لكنّى قلت إن المشرفين على الموت، فى النزع الأخير، تتراءى لهم حياتهم برمتها. كانت حياتى الماضية تستولى علىّ آنذاك بقوة الوداع الأخير؛ لأنه كان يتملكنى شعور بأنّى أبتعد عنها كثيراً. وتحدثت دائمًا عن هذا الماضى الفتيات الثلاث، وتحمست من شدة انتباه أوجوستا وألبرتا،

الذى ربما كان يحجب عدم اكتراث آدا الذى لم أتأكد منه. كانت أوجوستا، بطبيعتها الهادئة، تتأثر بسهولة، وكانت ألبرتا تظل تستمع إلى وصفى لمغامراتى وأنا طالب جامعى وقد احمرت وجنتاها من رغبتها فى أن تمر هى أيضاً بمغامرات مثلها فى المستقبل.

وتتوالى أيام كثيرة، وتخبرنى أوجوستا بأنه ما من واحدة من الفتيات الثلاث صدقت القصص التى كنت أرويها. غير أنه بدا لأوجوستا أن لها قيمة بالغة حيث إنّى اختلقتها، فهى تُنْسب إلىّ حتى ولو أن القدر قد عذبنى بها. والجزء الذى لم تصدقه ألبرتا راق لها على الرغم من ذلك؛ لأنها رأت فيه بعض الإيحاءات العظيمة. الوحيدة التى استاءت من أكاذيبى كانت آدا الوقور. وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلتها قدر لى أن أشابه الرامى البارع الذى هيئ له أنه أصاب نقطة الهدف، لكنه صوّب تجاه هدف آخر.

ومن جانب آخر كانت تلك النوادر حقيقية فى الكثير منها. لن أستطيع القول كم منها بالتحديد؛ حيث إنى قصصتها على العديد من النساء الأخريات قبل أن أقصها على بنات السيد مالفنتى، وتبدلت، دون أن أرغب فى ذلك، لكى تعبر بشكل أفضل. فهى حقيقية مادمت لن أستطيع سردها بصورة أخرى.

واليوم لا أبالى بأن أبرهن على مصداقيتها. لا أود أن أخيِّب أمل أوجوستا التى تُسر بتصديق أنها من اختلاقى، وبالنسبة لآدا فأظن أنها قد بدّلت رأيها وتعتبرها حقيقية.

إن فشلى التام مع آدا قد اتضح بالفعل فى اللحظة التى رأيت فيها ضرورة الحديث بوضوح معها. تلقيت الحكم فى دهشة وفى بادئ الأمر، فى ارتياب. إنها لم تتفوه بكلمة واحدة تعبِّر عن نفورها منّى، وأنا فى تلك الأثناء أغمضت عينى حتى لا أرى تلك التصرفات الصغيرة التى كانت لا تعنى لى أهمية كبيرة. فضلاً عن أنى لم أقل بنفسى الكلمة اللازمة، وكنت أستطيع حتى تلك اللحظة أن أتوهم أن آدا لا تعرف أننى كنت مستعداً للزواج منها، وربما كانت تظن أنى - ذلك الطالب غريب الأطوار وغير السوى - أرغب فى شىء آخر.

طال عدم التفاهم بيننا بسبب نيّاتى الحاسمة فى الزواج. حقيقة أنّى كنت أرغب حينئذ فى آدا بأكملها، التى دأب خيالى على أن يجعل وجنتيها مشرقة ويديها وقدميها صغيرتين وخصرها نحيفاً ورشيقاً. كنت أرغب فيها زوجة وعاشقة. لكن الأسلوب الذى تتعامل المرأة به لأول مرة يظل حاسماً. حدث فى تلك الأثناء أنه لثلاث مرات متتالية فى ذلك المنزل استقبلتنى أوجوستا وألبرتا. إن غياب آدا تم تبريره فى المرة الأولى بزيارة واجبة، وفى الثانية بتوعك فى صحتها، وفى الثالثة لم يقدموا لى أية ذرائع، حتى إننى، وقد انتابنى القلق، لم أسأل عن السبب. وهكذا لم تجب أوجوستا، التى التفت إليها بالمصادفة. أجابت عنها ألبرتا التى نظرت إليها الأخرى كى تلتمس منها المساعدة: ذهبت آدا عند عمتنا.

ضاقت نفسى. كان واضحًا أن آدا تتحاشى رؤيتى. ففى اليوم السابق كنت قد تغاضيت عن غيابها، بل وأطلت زيارتى أملاً فى أن تظهر هى الأخرى فى النهاية. وفى ذلك اليوم، مكثت لبضع لحظات

أخرى، وعجزت عن فتح فمي، ثم تعللت بألم مفاجئ برأسي ونهضت للانصراف. تعجبت من أن أول شعور أصابني عندما تنبهت لصد آدا كان شعوراً بالغيظ والازدراء. فكرت أيضًا في أن ألجأ إلى چوڤانّي حتى يصلح من شأن ابنته. فالرجل الذي يرغب في الزواج قادر أيضًا على القيام بأفعال مماثلة، تكرار لما كان يفعل أسلافه.

كان لابد أن يكون لغياب آدا للمرة الثالثة مغزاه الهام. فالشواهد تدفعني لاكتشاف أنها بالمنزل، لكنها قابعة في حجرتها.

وقبل كل شيء عليّ أن أصرح بأنه كان هناك شخص آخر لم أتمكن من استمالته: إنها الصغيرة أنّا. لم تعد تهاجمني في وجود الآخرين، حيث سبق لهم أن وبخوها بقسوة. بل في بعض الأحيان كانت هي الأخرى ترافق أخواتها وتقعد لسماع نوادري. لكن في اللحظة التي كنت أنصرف فيها، كانت تلاحقني عند المدخل، وتطلب في رقة منّي أن أنحني إليها، فتقف على أطراف قدميها الصغيرتين، وعندما كانت توشك أن تلصق فمها الصغير مباشرة بأذني، تقول لي بصوت خافت لكي لا يسمعها أحد غيري:

– إنك لمجنون، مجنون حقيقي!

الغريب أن الماكرة كانت تخاطبني أمام الآخرين بصيغة الاحترام. وإذا كانت السيدة مالفنتي حاضرة، كانت تسرع لتحتمي بين ذراعيها، فتداعبها قائلة:

– كم أصبحت الصغيرة أنّا مهذبة! أليس حقًا؟

لم أعارض والرقيقة أنّا كانت لا تزال تعتقد بأنّي مجنون. كنت أتلقى حكمها بابتسامة بسيطة، ربما كانت تبدو وكأنها شكر. كنت آمل ألاّ تملك الطفلة الشجاعة لكي تقص هجومها على الكبار، وكان يسوءني أن أخبر آدا بأي حكم تطلقه عليّ الصغيرة. نجحت تلك الطفلة بالفعل في إثارة حيرتي. فإذا تقابلت عيني مع عينها، في أثناء حديثي مع الآخرين، كانت على الفور تجد الفرصة للنظر في مكان آخر، وكان يصعب أن تفعل ذلك بتلقائية. بالطبع كان يحمر وجهي. كنت أرى أن تلك البريئة بحكمها عليّ يمكن أن تُلحق بي الأذى. حملت لها الهدايا، لكنها لم تفلح في إرضائها. إنها لابد قد أدركت قوتها وضعفي، وفي حضور الآخرين، كانت تحدق فيّ بوقاحة. أظن أننا جميعًا لدينا في ضميرنا كما في جسدنا نقاط ضعيفة مستترة لا نرغب في التفكير فيها. ولا حتى نعرف ماهي، لكننا ندرك أنها هناك. كنت أبعد عيني عن تلك الطفلة التي كانت تريد أن تتفحصني.

غير أنني في ذلك اليوم الذي غادرت فيه المنزل وحيداً ومكتئباً حين لحقت بي لأنحني لسماع مجاملتها المعتادة، دنوت منها بذلك الوجه الذي يقارب وجه مجنون حقيقي، وما إن مددت نحوها كفي وهددتها بحركة من أصابعي المقوسة كالمخالب، حتى جرت مسرعة وهي تبكي وتصرخ.

هكذا تمكنت من رؤية آدا أيضًا في ذلك اليوم؛ لأنها هي التي تنبّهت إلى ذلك الصراخ. حكت الصغيرة وقد ارتفع صوتها بالبكاء أنني هددتها بقسوة لأنها كانت تنعتني بالمجنون:

– لأنه مجنون وددت أن أخبره بذلك. ما الضرر في هذا؟

لم أمكث لسماع الطفلة، وفوجئت عندما رأيت آدا بالمنزل. إذن فقد كذبت أختاها، حتى ألبرتا الوحيدة التى ألقت أوجوستا عليها بالمهمة لكى تنجو هى نفسها منها! وللحظة وجدت نفسى بالفعل على صواب، وقد أدركت كل شىء من حولى.

- يسرنى أن أراك. كنت أظن أنك عند عمتك منذ ثلاثة أيام.

لم تجبنى؛ لأنها كانت فى أول الأمر تنحنى على الطفلة الباكية. إن التأخير فى الحصول على تفسيرات يحق لى معرفتها جعل الدم يغلى فى رأسى. لم أجد الكلمات. تقدمت خطوة أخرى لكى أدنو من باب الخروج، ولولا أن آدا تحدثت، لانصرفت نهائيًا وبلا عودة. ورأيت فى غضبى أن التخلى عن حلم استغرق وقتًا طويلاً شىء هين جداً.

لكنها فى تلك الأثناء، وقد احمر وجهها، التفتت إلىّ وقالت إنها قد عادت منذ لحظات قليلة؛ لأنها لم تعثر على عمتها فى البيت.

كان ذلك كافيًا لتهدئة روعى. كم كانت حانية، وهى تميل بحنان الأم على الصغيرة التى أخذت تصرخ! كان جسدها مرنًا، حتى بدا وكأنه تضاءل حتى يدنو أكثر من الطفلة الصغيرة. تمهلت لكى أتأملها وأنا أعتبرها ملكى مرة ثانية.

شعرت بصفاء نفسى، حتى وددت أن أتناسى الاستياء الذى أبديته قبل قليل، وكنت غاية فى الرقة مع آدا ومع أنّا أيضًا. قلت وقد ارتفع صوتى بالضحك:

- إنها تراني مختل العقل، فأردت أن أطلعها على الوجه الحقيقي والحركات التي يسلكها المجنون. سامحيني! وأنتِ أيضاً، أيتها المسكينة أنّوتشا، لا تفزعي فأنا مجنون مسالم.

آدا أيضًا كانت غاية في الرقة. أنّبت الصغيرة التي أخذت تنوح، وطلبت مني أن أقدم لها اعتذاري. لو كان الحظ قد حالفني وجرت أنّا مسرعة وهي غاضبة، لتحدثت معها. ولنطلقت بجملة ربما توجد في بعض اللغات الأجنبية أيضًا، جملة تامة لتيسير الحياة على من لا يعرف لغة البلد الذي يقيم به: "يمكنني أن أطلب يدك من والدك؟". إنها المرة الأولى التي رغبت فيها في الزواج؛ ولهذا وجدت نفسي في بلد مجهول تمامًا بالنسبة لي. حتى ذلك الحين كنت أتعامل بصورة أخرى مع النساء اللاتي كنت على علاقة بهن. كنت أنقض عليهن، ولكن بعد أن أتلمسهن بيدي.

وعلى الرغم من ذلك لم أتمكن من التفوه حتى بتلك الكلمات القليلة. كان لابد أن تطول لبعض الوقت! كان لابد أن يصحبها تعبير بالوجه يتسم بالرجاء، يصعب تحقيقه فور المشاجرة مع أنّا وآدا أيضاً، وهاهي ذي السيدة مالفنتي قد أتت من نهاية الرواق وقد استرعى انتباهها صراخ الطفلة.

صافحت آدا بيدي، وعلى الفور وضعت يدها على يدي في ودّ وقلت لها:

- إلى أن نلتقي غداً. التمسي لي المعذرة عند السيدة مالفنتي.

لكنّي ترددت كثيراً في أن أدع يدها التي تسكن مطمئنة في يدي. كنت أشعر أني، عند انصرافي في تلك اللحظة، سأتخلى عن الفرصة الوحيدة مع تلك الفتاة التي كانت تهتم باستخدام أساليب اللياقة معي لكي تعوضني عن وقاحة أختها. اتبعت الإيحاء الذي جاءني في تلك اللحظة، انحنيت على يدها ولمستها بشفتي. ثم فتحت الباب وخرجت مسرعًا بعد أن لمحت آدا، وقد تركت في تلك اللحظة يدها اليمني في حين كانت اليسرى تمسك بأنّا التي كانت متعلقة بتنورتها، وقد أصابتها الدهشة وهي تنظر إلى تلك اليد الرقيقة التي لمستها شفتاي، كما لو أنها أرادت أن ترى إن كان بها شيء مكتوب. لا أظن أن السيدة مالفنتي قد لاحظت ما فعلت.

توقفت لحظة على درج السلم، وقد اندهشت أيضًا مما فعلت، ولم أكن قد فكرت فيه من قبل على الإطلاق. هل كانت لا تزال هناك فرصة للعودة إلى ذلك الباب الذي أوصدته ورائي، ولأن أقرع الجرس ولأطلب الإذن بإخبار آدا بتلك الكلمات التي كانت تبحث عنها في يدها بلا جدوى؟ لا أظن ذلك! كنت سأفقد كرامتي لو أبديت تلهفي الشديد. ثم أنّي وقد جعلتها تستشعر عودتي أوحيت إليها بمقاصدي. وما كان إلاّ عليها هي وحدها أن تبحث عنها، فتمنحني الفرصة أن أمنحها لها. وها أنا ذا قد عدلت أخيراً عن قص حكاياتي للثلاث فتيات وبدلاً من ذلك قبلت يد واحدة منهن.

لكن بقية اليوم كانت مزعجة للغاية. كنت مضطربًا وقلقًا. أخذت أحدث نفسى عن أن هذا القلق ينتابنى فقط من نفاد صبرى لاستيضاح تلك المغامرة. كنت أتخيل إذا ما رفضتنى آدا، كان بإمكانى فى هدوء شديد أن أجرى سعيًا وراء نساء أخريات. كان ارتباطى الشديد بها يرجع إلى قرار حر اتخذته، ويمكن أن يمحوه قرار آخر! لم أدرك فى ذلك الوقت أنه لم يكن هناك فى هذا العالم نساء أخريات أمامى، وأنّى أحتاج إلى آدا بشدة.

الليلة التالية بدت لى أيضًا طويلة للغاية؛ قضيتها ساهرًا تمامًا. فبعد وفاة والدى، كنت قد تركت عادتى فى قضاء الليل فى الخارج، وفى تلك الأثناء، منذ أن قررت الزواج، كان سيبدو شيئًا غريبًا أن أعود إلى ذلك؛ لهذا أويت إلى فراشى فى ساعة مبكرة رغبةً فى النعاس الذى يجرى بالوقت مسرعًا.

فى الصباح تلقيت بثقة عمياء تبريرات آدا لعدم حضورها ثلاث مرات فى حجرة الاستقبال فى الساعات التى كنت أقعدها هناك، ثقة ترجع إلى اقتناعى الشديد بأن السيدة الجادة التى اخترتها لا تعرف الكذب. لكن فى أثناء الليل تضاءلت تلك الثقة. أخذت أرتاب فى أنّى قد أخبرتها بأن ألبرتا - عندما رفضت أوجوستا الحديث - قد تعللت بعذر زيارتها تلك العمة. لا أذكر جيدًا الكلمات التى وجهتها إليها ورأسى مشتعل، لكنّى على يقين من أننى قد أوحيت إليها بذاك العذر. يالها من خسارة! ليتنى ما فعلت ذلك، فربما اختلقت شيئًا آخر لكى تعتذر. ولو أدركت كذبها، لحصلت فى النهاية على الوضوح الذى كنت ألهث وراءه.

وقد أدركت عندئذ أيضًا أهمية آدا بالنسبة لى، ولطمأنة نفسى أخذت أقول لها إذا كانت لا ترغب فى، سأتنازل عن الزواج نهائيًا. إذن كان سيغير رفضها حياتى. وبدأت أحلم وأنا أعزى نفسى أنه ربما يكون ذلك الرفض بمثابة حظ لى. أخذت أتذكر ذلك الفيلسوف اليونانى الذى كان يتنبأ بالندم لمن كان يتزوج أو لمن يظل أعزب؛ ومن ثم لم أكن قد فقدت بعد القدرة على السخرية من مغامرتى؛ كنت أفتقد القدرة على النعاس وحسب.

أويت إلى الفراش وكان الفجر قد بدأت تباشيره. عندما استيقظت كان الوقت متأخرًا ولم تبق إلاّ ساعات قليلة تبعدنى عن الزيارة التى سمحوا لى بها فى منزل مالفنتى؛ لهذا لم يكن هناك داع للخيال ولجمع دلائل أخرى توضح ما بنفس آدا. غير أنه يشق على المرء أن يوقف تفكيره عن الاهتمام بموضوع يهمه كثيرًا.

فالإنسان يصبح حيوانًا أكثر حظًا إذا ما تمكن من ذلك. وفى أثناء ما كنت أهتم بمظهرى الذى بالغت فيه ذلك اليوم، لم يشغل تفكيرى شىء آخر: "هل كنت على صواب عندما قبّلت يد آدا، أم أخطأت لأننى لم أقبّل شفتيها؟"

فى ذلك الصباح سيطرت علىّ بالفعل فكرة أعتقد أنها آذتنى بشدة، وحرمتنى من ذلك القدْر من المبادرة الجريئة الذى منحتنى إياه حالة المراهقة الغريبة التى انتابتنى. كان الشك مؤلمًا: لو تزوجتنى آدا وقد أرغمها والداها على ذلك، دون أن تحبنى بل ولا تزال تنفر منّى بشدة؟

حيث كان الجميع دون شك فى تلك العائلة، أى چوڤانى، السيدة مالفنتى، أوجوستا وألبرتا يكنون لى محبة كبيرة؛ كنت أشك فقط فى مشاعر آدا. أخذت تتجلى فى الأفق بالفعل تلك الرواية الشعبية المعروفة، رواية للفتاة التى أجبرتها عائلتها على زواج غير مرغوب فيه. لكنّى لم أكن لأسمح بذلك. هاهو ذا السبب الجديد الذى من أجله كان لابد أن أتحدث مع آدا، بل مع آدا وحدها. لم يكن ليكفى أن أوجه إليها تلك العبارة التى أعددتها من قبل. أن أسألها ما إن أنظر فى عينيها: "أتحبيننى؟" وإذا أجابت بنعم، ضممتها بين ذراعى لأشعر منها بنبض الصراحة.

هكذا خيِّل إلىَّ أننى تأهبت لكل شىء. فى حين كان لابد أن أدرك أننى وصلت إلى ذلك الامتحان وقد نسيت أن ألقى نظرة أخيرة على صفحات النص الذى كان من المفروض أن أتحدث فيه.

استقبلتنى السيدة مالفنتى وكانت بمفردها، فأجلستنى فى ركن الاستقبال الرحب، وفى الحال أخذت تثرثر بحَمية دون أن تعطينى الفرصة حتى للسؤال عن أخبار الفتيات؛ لهذا كنت شارد الذهن بعض الشىء، وأخذت أعيد لنفسى الدرس لكى لا أنساه فى اللحظة المناسبة. ودفعت فجأة للانتباه وكأنى أسمع دويًا بوحى النداء. أخذت السيدة مالفنتى تجتهد فى عرض مقدمة من المقدمات. أخذت تؤكد لى صداقتهما هى وزوجها وحب أفراد العائلة جميعهم المتبادل، بمن فيهم الصغيرة أنّا. ذكرت أننا كنا نعرف بعضنا البعض منذ فترة كبيرة. نتقابل يوميًا منذ أربعة أشهر.

– خمسة! صححت لها؛ حيث إنني حسبت تلك المدة في أثناء الليل، وتذكرت أن الزيارة الأولى التى قمت بها كانت فى فصل الخريف، وكنا فى تلك اللحظة فى أوْج فصل الربيع.

– نعم! خمسة! قالت وهى تفكر فيما قلت، كأنما أرادت أن تعيد النظر فى حساباتى. بعد ذلك، وبلهجة عتاب: – يبدو لى أنك أسأت إلى أوجوستا.

– أوجوستا؟ سألت ظنًا منّى أننى أخطأت السمع.

– نعم!– أكدت السيدة – تغويها وتضعها فى مأزق.

كشفت عن شعورى بسذاجة:

– لكننى لا أرى الآنسة أوجوستا أبداً.

قامت بحركة تنم عن الدهشة (أم هيئ لى؟) ودهشتها كانت مؤلمة.

فى تلك الأثناء كنت أحاول أن أمعن التفكير لكى أتوصل سريعًا إلى تفسير الأمر الذى كان يبدو لى سوء تفاهم، لكننى أدركت أهميته على الفور. أخذت أستعيد ذاكرتى، زيارة تلو الأخرى، فى أثناء الشهور الخمس الماضية، وأنا مهتم بمراقبة آدا. كنت أعزف الموسيقى مع أوجوستا، وبالفعل، تحدثت معها كثيراً فى بعض الأحيان؛ لأنها كانت تنصت إلىّ، ولم يحدث ذلك مع آدا، لكن كان ذلك بهدف أن تشرح لآدا حكاياتى ومعها تأييدها لى وحسب. هل كان ينبغى أن أتحدث بصراحة

مع السيدة مالفنتي وأخبرها برغبتي تجاه آدا؟ لكنّي قبل حدوث ذلك بوقت قليل كنت قد عزمت على أن أتحدث مع آدا بمفردها وأن أختبر شعورها. ولو تحدثت بوضوح مع السيدة مالفنتي، فربما أخذت الأمور مجرى آخر، أى أنه متى لم أتمكن من الزواج بآدا فما كان أيضًا علىّ أن أتزوج أوجوستا. بعد أن استسلمت للقرار الذى اتخذته قبل أن أقابل السيدة مالفنتي، وبعد سماع تلك المفاجآت التى قالتها لى، لذت بالصمت.

أخذت أمعن التفكير، لكن بشىء من الحَيرة. كنت أريد أن أفهم، أخمِّن كل شىء وبسرعة. نحن لا نرى الأشياء بصورة واضحة عندما نحدق بأعيننا أكثر من اللازم. تراءى لى أن هناك احتمالا لطردى خارج المنزل، ورأيت إمكانية إبعاد ذلك الاحتمال. كنت بريئًا، فلم أقم بمغازلة أوجوستا التى كانوا يريدون حمايتها. لكن ربما كانوا ينسبون إلىّ شيئا من الاهتمام بأوجوستا حتى يبعدوا آدا عن دائرة شكوكهم. ولِمَ يحمون آدا بتلك الصورة، وهى لم تعد فتاة صغيرة؟ فأنا على يقين من أنّى لم أمسك بشعرها إلاّ فى الحلم. فى الواقع لامست بشفتى يدها وحسب. لم أكن أريد أن يحرمونى من دخول ذلك البيت؛ لأننى كنت أود أن أتحدث مع آدا قبل أن أغادره؛ لذا سألت بصوت مرتجف:

– قولى لى، يا سيدتى، ماذا بوسعى أن أصنع حتى لا أسىء لأحد؟

ترددت. كنت أفضل أن أتعامل مع چوڤانى الذى يفكر وهو يصيح. ثم حسمت أمرها، لكن حاولت جاهدة أن تبدو لطيفة وكان ذلك يظهر واضحًا في نبرة صوتها، وقالت:

- ينبغى أن تقلّل من زياراتك لنا لبعض الوقت؛ أى يومان أو ثلاثة فى الأسبوع، بدلاً من كل يوم.

من المؤكد أنها لو كانت قالت لي بقسوة أن أنصرف وألاّ أعود ثانية، لرجوتهم، بدافع مما أحمله من نيّات، أن يسمحوا لى بزيارتهم فى ذلك المنزل، ليوم آخر أو يومين على الأقل، حتى أوضح ما هى علاقتى بآدا. على عكس هذا جاءت كلماتها، أكثر اعتدالاً مما كنت أخشاه، وشجعتنى أن أعبِّر عن أسفي:

- إذا كنت ترغبين فى ذلك، فلن أطأ بقدمى أبدًا هذا المنزل!

حدث الذى كنت آمل فيه. عارضت، وكررت الحديث عن التقدير الذى يكنّه الجميع لى، ورجتنى ألاّ أغضب منها. أظهرت سعة صدرى، وعدتها بأن أفعل كل ما طلبته منى، أى أن أبتعد عن المنزل لمدة أربعة أو خمسة أيام، على أن أعود إليه بانتظام مرة أو مرتين كل أسبوع وبما هو أهم، وهو ألاّ أكن لها كرهًا.

بعد أن قدمت تلك الوعود، وددت فى أن أعطى الدليل على وفائى بها فنهضت للانصراف. احتجت السيدة وهى تضحك:

- ليس هناك ما يخشى علىّ منه؛ لذا يمكنك أن تبقى معى.

وحيث إننى رجوتها أن تأذن لى بالانصراف لارتباط لى تذكرته فقط فى تلك اللحظة، فى حين كنت فى واقع الأمر متلهفًا للانفراد بنفسى لكى أفكر جيداً فيما وجب علىّ مواجهته، طلبت منى السيدة مالفنتى أن أبقى وهى تقول إنّى بهذا سأثبت عدم غضبى منها؛ لهذا مكثت، وقد أجبرت طويلاً وبعناء على أن أنصت إلى الثرثرة الفارغة التى استرسلت حينئذ فيها السيدة بالحديث عن الموضة النسائية التى لا تريد أن تسايرها، وعن المسرح، وأيضًا شدة جفاف الجو الذى يعلن به فصل الربيع عن قدومه.

أحسست بعد قليل بالسرور لبقائى؛ لأنّى أدركت أننى كنت فى حاجة إلى زيادة من الإيضاح. قاطعت السيدة دون أى تحفظ، ولم أسمع كلامها على الإطلاق، وسألتها:

– والجميع فى العائلة سيعلمون أنك طليت منّى الابتعاد عن هذا المنزل؟

بدت فى بادئ الأمر وكأنها لا تتذكر شيئًا عن اتفاقنا، ثم أكدت:

– الابتعاد عن هذا المنزل؟ لبضعة أيام فقط، هذا أمر مفهوم. لن أقول شيئًا عن ذلك لأحد، ولا حتى لزوجى، بل وسأكون أيضًا ممنونة لك إن أردت الاحتفاظ بالسر نفسه.

وعدتها بهذا أيضًا، وعدت أيضًا بأنه إذا طلب منى تفسير لعدم مجيئى كثيراً، سأقدم أعذاراً مختلفة. فى تلك اللحظة وثقت بكلمات السيدة،

وتخيلت أن آدا يمكن أن تنتابها الدهشة والألم لغيابى المفاجئ. ياله من تخيل ممتع للغاية!

ثم مكثت لفترة أخرى، وأنا أنتظر إيحاءات توحى لى وترشدنى، فى حين كانت السيدة تتحدث عن أسعار المواد الغذائية فى الآونة الأخيرة التى أصبحت باهظة للغاية.

وبدلاً من الإيحاءات الجديدة، جاءت العمة روزينا، وهى أخت چوڤانى، التى تكبره فى السن، لكنها تقل عنه كثيراً فى الذكاء.

لكن كانت لها بعض ملامح من أخلاقه تكفى لوصفها بأنها أخته. بادئ ذى بَدء كان لديها الوعى نفسه بحقوقها وواجبات الآخرين، ذلك الوعى المضحك بعض الشىء، لأنه يفتقر إلى أية أسلحة يفرض بها نفسه، فضلاً عن العادة السيئة فى رفع الصوت فى الحال. كانت تعتقد أن لها حقوقًا كثيرة فى منزل أخيها- كما علمت فيما بعد - كانت منذ فترة بعيدة تعتبر السيدة مالفنتى إنسانة دخيلة. لم تتزوج وكانت تعيش مع خادمة واحدة تتحدث عنها دائمًا كأنها عدوتها اللدود. عندما كانت على فراش الموت طلبت من زوجتى أن تراقب المنزل، إلى أن تنصرف الخادمة التى اعتنت بها. كان كل من فى منزل چوڤانى يتحملونها خشية فظاظتها.

لم أنصرف. كانت العمة روزينا تؤثِر آدا على بقية بنات أخيها. شعرت برغبة فى الاستحواذ على صداقتها، وبحثت عن عبارة ودود

أوجهها لها. أتذكر بصورة غير واضحة المرة الأخيرة التى رأيتها فيها (أى لمحتها، حيث إننى لم أشعر فى تلك المرة بالحاجة إلى النظر إليها) علقت بنات أخيها، فور انصرافها، على أن لون بشرتها ينبئ عن أنها ليست على ما يرام. بل قالت إحداهن:

- ربما تعكرت دماؤها بسبب غضبها من الخادمة!

وجدت ما كنت أبحث عنه. نظرت بود إلى وجه السيدة المتجعد العجوز وقلت لها:

- أراك وقد استرددتِ عافيتك، يا سيدتى.

ليتنى لم أنطق مطلقًا بتلك الجملة. نظرت إلىّ بدهشة واحتجت:

- أنا دائمًا بالهيئة نفسها. منذ متى وقد استعدت قواى؟

كانت تريد أن تعرف متى رأيتها المرة الأخيرة. لم أكن أتذكر بالضبط ذلك التاريخ، وكان علىّ أن أذكر لها أننا قضينا معًا عصر يوم كامل، وكنا جالسين فى حجرة الاستقبال نفسها مع الفتيات الثلاث، ولكن ليس فى الجهة التى كنا فيها فى تلك المرة، بل فى الجهة الأخرى. كنت قد عزمت على أن أبدى اهتمامى بها، لكن التفاصيل التى كانت تلح فى طلبها أطالت هذا الاهتمام كثيراً. كان نفاقى يثقل علىّ، وتسبب لى فى ألم حقيقى.

تدخلت السيدة مالفنتى وهى تبتسم:

- لكنك تقصد أن العمة روزينا قد امتلأت بعض الشىء؟

اللعنة! كان ذلك هو سبب استياء العمة روزينا؛ حيث كانت ضخمة جدًا مثل أخيها، غير أنها كانت تأمل فى أن يقل وزنها.

– سمنت؟ أبدًا على الإطلاق! كنت أود أن أتحدث عن صحة السيدة الجيدة وحسب.

كنت أحاول أن أتخذ مظهر الشخص الودود، ومع ذلك كان علىّ أن أسيطر على نفسى كى لا أتفوه بأية وقاحة.

لم يبدُ الرضا على العمة روزينا ولا حتى فى تلك المرة. فى الآونة الأخيرة لم تكن تشعر بالمرض على الإطلاق، ولم تكن تفهم لماذا كانت تبدو للآخرين مريضة. وافقتها السيدة مالفنتى الرأى قائلة:

– على العكس، إنها ميزة لها أن تحافظ على هيئتها. قالت وهى تلتفت إلىّ: أليس كذلك؟

كان يبدو لى ذلك. بل كان واضحًا. انصرفت على الفور. مددت يدى بمودة حارة إلى العمة روزيتا أملاً فى تهدئتها، لكنها مدت إلىّ يدها وهى تنظر إلى جهة أخرى.

لم أكد أطأ بقدمى مدخل ذلك البيت حتى تبدلت حالتى النفسية. يالها من حرية! لم يعد علىّ أن أدرس نيّات السيدة مالفنتى ولا أن أجتهد فى إسعاد العمة روزينا. فى الحقيقة أظن أنه إن لم يحدث قدوم العمة روزينا المزعج، كانت حصافة السيدة مالفنتى ستبلغ مأربها على نحو كامل، وكنت سأبتعد عن المنزل وأنا سعيد للغاية بأنهم عاملونى

معاملة حسنة. خرجت مسرعًا وأنا أقفز على درجات السُلَّم. كانت العمة روزينا بمثابة نقد للسيدة مالفنتى. السيدة مالفنتى التى اقترحت علىّ أن أبتعد عن منزلها لبعض الوقت. يالها من سيدة غالية طيبة القلب أكثر مما ينبغي! كنت سأرضيها إلى أبعد مما تتوقع، وكنت سأختفى تماماً. لقد عذبتنى هى، والعمة وآدا أيضا! بأى وجه حق؟ لمَ أردت الزواج؟ لكننى لم أعد أفكِّر فيه على الإطلاق! كم هى ممتعة الحرية!

جريت لمدة ربع الساعة عبر الطُّرق، وكان يغمرنى إحساس عميق. ثم شعرت بالحاجة إلى مزيد من الحرية. كان علىّ أن أجد أسلوبًا فى تسجيل قرارى ألاّ أطأ بقدمى ثانية ذلك البيت. نبذت فكرة أن أكتب رسالة أودعهم فيها. كان الابتعاد سيصبح أكثر ازدراءً إن لم أكشف عن نيّاتى. كنت سأنسى ببساطة أنّى رأيت چوڤانى وعائلته.

وجدت التصرف الحذر واللائق، ولكنه مضحك بعض الشيء لأسجل به قرارى. أسرعت إلى بائع زهور، وانتقيت طاقة رائعة من الأزهار أرسلتها إلى السيدة مالفنتى وبها بطاقة تحمل اسمى لم أكتب عليها سوى التاريخ. لم يلزم شيء غيره! كان تاريخًا لن أنساه أبدا وربما لن تنسياه أيضاً آدا ووالدتها: ٥ من شهر مايو، ذكرى رحيل نابليون.

حرصت على إرسال تلك البطاقة على وجه السرعة. كان ينبغى أن تصل فى اليوم ذاته.

ثم ماذا بعد؟ فعلت كل شيء، كل شيء، ولم يكن هناك شيء آخر أقوم به! كانت آدا منعزلة عنى مع بقية أفراد عائلتها، وكان علىّ أن

أعيش دون حيلة لى أترقّب أن يأتينى أحدهم للبحث عنى، أو لمنحى الفرصة لفعل شيء أو لقول شيء آخر.

أسرعت إلى مكتبى للتفكير ولكى أقبع به. إن كنت قد استسلمت للهفتي التى كانت تؤلمنى، فقد عدت فى التو إلى ذلك المنزل مجازفةً منّى أن أصل إليه قبل طاقة الزهور التى أرسلتها ولن أعدم الذرائع وقتئذ. ربما أكون قد نسيت مظلتى هناك أيضًا!

لم أرد القيام بشيء مماثل. لقد اتخذت بإرسالى طاقة الزهور تلك موقفًا حاسمًا كان ينبغى أن أحافظ عليه. كان لابد أن أصمد لأن الكرّة التالية كانت عليهم.

إن فترة استغراقى فى التأمل التى حرصت عليها فى حجرة مكتبى والتى كنت أتوقع أن تجلب لى الطمأنينة، أوضحت فقط أسباب يأسى الذى تفاقم حتى الدمع. كنت أحب آدا! لم أكن أدرك بعد ما إذا كان استخدام ذلك الفعل مناسبًا وأخذت أحلل الأسباب. لم أكن أريدها لى وحسب، بل أريدها زوجة لى. هى، بوجهها القاسى الذى يعلو عودها الغض، هى كذلك على جديتها، ذلك أنها ما كانت لتفهم طباعى وما كنت لأنقلها لها، بل أتخلى عنها إلى الأبد حتى تعلمنى هى حياة التعقل والعمل. كنت أرغب فيها كاملةً وأريد منها كل شيء. وخلصت فى النهاية إلى أن استخدام الفعل كان فى موضعه هذا: كنت حقًا مغرمًا بآدا.

ظننت أنّى فكرت فى شيء بالغ الأهمية يمكن أن يوجهنى. فلتنصرف الحيرة! لم أعد أبالى بما إذا كانت تحبنى. كان علىّ أن

أحاول الفوز بها، ولم تكن هناك ضرورة للحديث معها إن كان چوڤانى يستطيع أن يقوم بذلك. كان ينبغى استيضاح كل شىء مباشرةً لكى أصل سريعًا إلى السعادة، وإلاَّ نسيت كل شىء وبرئت منه. لماذا كان علىَّ أن أتعذب وقتًا طويلاً من الانتظار؟ لو علمت - وكنت أستطيع ذلك عن طريق چوڤانى وحسب - أننى فقدت آدا إلى الأبد، لم يكن على الأقل هناك داع لأن أصارع الوقت الذى كان سيستمر فى سيره البطىء دون أن أشعر بالحاجة إلى دفعه. فالأمر المحسوم ساكن دائمًا، لأنه منفصل عن الزمن.

أسرعت فى الحال بحثًا عن چوڤانى. أخذت أجرى فى اتجاهين. أحدهما إلى المكتب الذى يقع على ذلك الطريق الذى مازلنا نطلق عليه طريق المبانى الجديدة، كما كان يفعل أسلافنا. إنها منازل شاهقة قديمة تعتم طريقًا قريبًا جدا من شاطئ البحر غير مأهول فى أثناء الغروب، وأستطيع عن طريقه أن أسير مسرعًا. لم أكن أفكر، وأنا أسير، إلاَّ فى إعداد موجز للجملة المناسبة التى كان ينبغى أن أقولها له. كان يكفى أن أخبره بقرارى المحدد فى الزواج من ابنته. لم أكن مضطرًا لأن أستميله أو أقنعه. إن رجل الأعمال ذاك كان سيستنتج الإجابة للرد علىَّ بمجرد أن يصغى إلى سؤالى. وعلى الرغم من ذلك كانت تؤرقنى مسألة ما إذا كان لابد أن أتحدث فى مناسبة كتلك باللغة الفصحى أم بالعامية.

لكن چوڤانى كان قد غادر المكتب وذهب إلى ترجستيو. توجهت إلى هناك. وعلى مهل؛ فكنت أعلم بأنّى فى البورصة، وعلىَّ أن أنتظر طويلاً

حتى أستطيع الحديث إليه على انفراد. ثم، بعد أن وصلت إلى شارع كافانا، كان عليّ أن أبطئ، حيث كان حشد من المارة يعوق الطريق الضيق. وفي أثناء ما كنت أزاحم لكي أخترق الجمع، تراءى لي أخيراً فيما يشبه الرؤية ذلك التفسير الذي كنت أبحث عنه منذ ساعات عديدة. إن عائلة مالفنتي تود أن تزوجني أوجوستا، وليست آدا لسبب بسيط، هو أن أوجوستا كانت مغرمة بي، أما آدا فلم تكن تهتم بي قط. على وجه الإطلاق وإلاّ لما كان تدخلهم للفصل بيننا. قالوا لي إنني أغوي أوجوستا، بل هي التي غامرت بحبها لي. أدركت كل شيء في تلك اللحظة، بوضوح شامل، كأن أحدهم أخبرني بذلك. وظننت أيضاً أن آدا كانت متفقة على إبعادي عن ذلك المنزل. كانت لا تحبني ولن تشعر بذلك الحب على الأقل مادامت أختها مغرمة بي. على طريق كافانا المزدحم فكرت إذن بطريقة أصوب مما كان في حجرة مكتبي المنعزل.

واليوم، عندما أستعيد بذاكرتي تلك الأيام الخمس المشهودة التي قادتني إلى الزواج، أتعجب من نفسي التي لم تهدأ عندما علمت أن أوجوستا المسكينة كانت تحبني. كنت قد استبعدت وقتذاك عن منزل مالفنتي، وكنت غاضباً بسبب حبي لآدا. لماذا لم أرض بعدما رأيت أن السيدة مالفنتي أبعدتني دون جدوى، فانا لم أبتعد عن ذلك البيت، بل ظللت شديد القرب من آدا، أقصد أنّي كنت في قلب أوجوستا؟ وقد كنت أرى في دعوة السيدة مالفنتي لي بألاّ أغوي أوجوستا، أي أن أتزوجها، إهانة جديدة لي. كنت أشعر بنفور شديد من تلك الفتاة الدميمة التي كانت تحبني، ذلك الشعور الذي ما كنت لأحتمله من أختها الجميلة التي أحبها.

مازلت أسرع خطواتي، لكنني غيّرت المسار واتجهت إلى بيتي. لم تعد بي حاجة إلى الحديث مع جوڤاني، حيث كنت أدرك وقتئذ ما الذي أفعله بكل وضوح: وضوح يائس ربما يجلب عليّ السكينة في نهاية الأمر وينأى بي عن الوقت الذي يمر ببطء شديد. كان أيضًا من الخطورة الحديث عن ذلك الأمر مع جوڤاني قليل الحياء. كانت السيدة مالفنتي قد تحدثت بأسلوب لم أدرك مغزاه إلاّ عندما كنت هناك في شارع كاڤانا. كان الزوج قادراً على التصرف بصورة أخرى. ربما يصل به الأمر لأن يقول لي: "لمَ ترغب في الزواج من آدا؟ لنفكر معًا! أليس من الأفضل أن تتزوج أوجوستا؟ ". لأنه كان لديه حكمة كنت أتذكرها وربما كان سيتبعها في هذه الحالة: "عليك دائمًا أن تفسر المسألة بوضوح لخصمك؛ لأنك فقط في تلك اللحظة ستكون على يقين من إدراكها أكثر منه". وماذا بعد؟ ربما تبع ذلك مقاطعة صريحة. وكان من الممكن في ذلك الحين فقط أن يمضي الوقت كيفما يشاء، فلن يحق لي حينئذ محاولات أخرى: ولو وصلت ساعتها إلى نقطة النهاية!

تذكرت أيضًا قاعدة أخرى قالها جوڤاني وتعلقت بها؛ لأنها كانت تمدني بآمال عظيمة. استطعت أن أنغلق بها خمسة أيام، خمسة أيام قد حولت عاطفتي إلي مرض. كان جوڤاني يعتاد القول بأنه لا ينبغي التسرع في تصفية صفقة عندما لا يمكن التوقع بالحصول على فائدة من هذه التصفية: إن كل صفقة تنتهي إن عاجلاً أم آجلاً إلى تصفية، كما يؤكد ذلك تاريخ البشرية من قديم الزمان؛ حيث إن صفقات قليلة

جداً ظلت معلقة. إن أية صفقة ما دامت لم تصل بعد إلى التصفية، فإن فرص النجاح لاتزال أمامها.

لا أتذكر إن كانت هناك مسلمات أخرى يعتمد عليها چوڤاني، مخالفة في مضمونها. رأيت أن أتعلق بأى شيء. اتخذت قراراً حاسماً وهو ألاّ أتحرك حتى أتأكد من أن أمراً جديداً سيتم لصالحي. وكان من أضرار ذلك أننى لم أتمسك لفترة طويلة بقرار اتخذته، مثلما تمسكت بذلك القرار.

وفور أن اتخذت القرار، وصلتنى من السيدة مالفنتى رسالة. تعرفت على خطها على الظرف، و قبل أن أفتحه، توهمت أن قرارى الحاسم كان كافياً لكى تأسف على معاملتها السيئة لي ويدفعها للبحث عنّي. عندما وجدت أنه لا يوجد به سوى الحرفين "P, R" وهما اختصار للشكر على الزهور التى أرسلتها إليها، فقدت الأمل، وانطرحت على الفراش، وغرزت أسنانى فى الوسادة، كما لو أننى أتسمر بها، وأمتنع عن الإسراع إلى إيقاف قرارى. كم كانت السخرية ممزوجة بسعادتى عندما أدركت معنى الحرفين! كان إحساسي بالأمر يفوق ما عبّر عنه التاريخ الذى كتبته عمداً على بطاقتى، وكان يعنى وقتئذ قراراً وربما عتاباً أيضاً. "تذكر"، قالها تشارل الأول[1] قبل أن يطيحوا برأسه، ولابد أنه فكر مسبقاً فى تاريخ ذلك اليوم! وأنا أيضاً قد دفعت خصمى للتذكر والشعور بالخوف!

---

(١) ملك إنجليزى (١٦٠٠-١٦٤٩) حكم عليه بالإعدام فى أعقاب محاولة انقلاب فى الدولة حولت إنجلترا لفترة وجيزة من الملكية إلى الجمهورية.

كانت خمسة أيام وخمس ليالٍ مريعة قضيتها وأنا أرقب الفجر والغروب اللذين يدلان على النهاية والبداية ويقربان ساعة حريتى، حرية أن أقاوم من جديد من أجل حبى.

كنت أتأهب لذلك الصراع. كنت أعلم آنذاك أن فتاتى تريدنى رجلاً ناضجًا. ويسير علىّ أن أتذكر القرارات التى اتخذتها فى ذلك الحين، خاصةً وأننى اتخذت مثلها منذ فترة قريبة العهد، فضلاً عن أنّي دونتها على ورقة مازلت أحتفظ بها. نويت أن أصير أكثر جدية. وهذا كان يعنى وقتها ألاّ أحكى تلك النكات التى كانت تضحكهم وتسىء إلىّ، وجعلت أوجوستا الدميمة تقع أيضًا فى حبى، ودفعت حبيبتى آدا إلى الشعور بالازدراء نحوى. ثم كان هناك قرار بالذهاب فى الثامنة من كل صباح إلى مكتبى الذى لم أره منذ فترة بعيدة، ليس لمناقشة حقوقى مع أوليفى، ولكن للعمل معه لأستطيع إدارة شئون أعمالى عندما يحين الوقت. ذلك القرار كان ينبغى أن ينفذ فى فترة أكثر هدوءًا من تلك الفترة، كما كان علىّ أيضًا أن أقلع عن التدخين فيمابعد، أى عندما أسترد حريتى، حيث كان يلزم ألاّ أزيد من سوء فترة الانتظار تلك المفزعة. كان يليق بآدا زوج كامل؛ لهذا كانت هناك أيضًا نيّات عديدة منها الاهتمام بقراءات جادة، ثم ممارسة رياضة المشى نصف ساعة يوميًا وركوب الخيل مرتين فى الأسبوع. لم يكن هناك ما يكفى من ساعات اليوم الأربع والعشرين.

وفى أثناء أيام العزلة أصبحت الغيرة بالغة المرارة رفيقتى فى كل لحظة. كان قرارًا بطوليًا أن أرغب فى التخلص من أى عيب لكى أتأهب

لاستمالة قلب آدا بعد بضعة أسابيع. لكن في تلك الأثناء؟ في تلك الفترة التي كنت أخضع فيها لتضحية بالغة القسوة، هل كان شباب المدينة سيتحلون بضبط النفس ولن ينزعوا مني امرأتي؟ دون شك كان أحدهم لا يحتاج إلى تدريبات كثيرة ليحظى بالرضا. كنت أعلم، كنت أظن أنني على علم بأن آدا إن عثرت على من يناسبها، سترضى مباشرةً ودون انتظار بأن تغرم به. وفي أثناء تلك الأيام عندما كنت أقابل شاباً حسن المظهر، سليم البنية وصافي النفس، أبغضه، حيث كنت أراه ملائماً لآدا. فالشيء الذي أتذكره أكثر من غيره، في تلك الأيام، كان الشعور بالغيرة التي أسبلت على حياتي كالضباب.

لا يمكن الاستخفاف بالشعور بذلك الشك الحاد في أن يسلبوا منّي آدا في تلك الأيام، فمن المعروف من الآن فصاعداً كيف ستسير الأمور. عندما أعود لأيام العذاب تلك أشعر بإعجاب كبير بنفسي صاحبة النبوءة.

مرات عديدة، بالليل، مررت نحو نوافذ ذلك البيت. كان يبدو هناك من أعلى أنهم يتسامرون مثلما كنت أجلس معهم. في منتصف الليل أو قبله بقليل، كانت تطفأ الأنوار في حجرة الاستقبال. كنت أفر خشيةً أن يكتشفني أحد الزائرين، وهو يغادر البيت في تلك اللحظة.

هذا بالإضافة إلى أن كل ساعة في تلك الأيام كانت تثير قلقي أيضاً بسبب نفاد صبري. لمَ لمْ يسأل عنّي أحد؟ لماذا لم يتحرك جوڤاني؟ ألم يكن واجباً أن يندهش من عدم مجيئي للمنزل ولا لمكتب الترجستيو؟

هل كان إذًا مشاركًا لهم أيضًا في الرأى على إبعادى عن المنزل؟ كنت أقطع رياضتى بالمشى، نهارًا وليلاً لكى أسرع إلى المنزل للتأكد من أن أحدًا أتى للسؤال عنّى. لم أكن أستطيع الذهاب إلى الفراش وأنا فى شك، وكنت أوقظ ماريّا المسكينة كى أسألها. كنت أمكث لساعات أترقّب فى بيتى، فى المكان الذى يسهل فيه العثور علىّ. لكن أحدًا لم يسأل عنّى وأنا على يقين من أننى إذا لم أكن قد قررت اتخاذ البادرة بنفسى، لظللت عزبًا إلى اليوم.ذات مساء ذهبت للعب فى النادى. لم أرتده منذ سنوات وفاءً لوعد عاهدت به أبى. رأيت أنه لم تعد هناك قيمة لذلك الوعد؛ حيث إن والدى لن يدرك تلك الظروف المؤلمة التى كنت أمر بها وحاجتى الملحة للترويح عن نفسى. ربحت فى البداية من ضربة حظ كانت تؤلمنى؛ لأنّى رأيتها عوضًا عن تعاستى فى الحب. ثم أخفقت فى اللعب وآلمنى ذلك أيضًا؛ لأننى ظننت أنى استسلمت للعب كما أسلمت نفسى أسيرًا للحب. وسرعان ما تقززت من اللعب: لم يكن يليق بى ولا بآدا. يا لشدة ما جعلنى نقيًا، ذلك الحب.

أدرك أيضًا أن أحلام الحب فى تلك الأيام قد محاها الواقع المرير. تحول الحلم إلى شيء آخر. كنت أحلم بالانتصار بدلاً من الحب. ذات مرة أسبغت زيارة لآدا جمالاً على نومى. كانت فى ملابس العرس، تزف معى حتى المذبح بالكنيسة، لكن عندما انفردنا معًا لم نمارس الحب، ولا حتى فى تلك اللحظة. كنت زوجها واتخذت لنفسى الحق فى أن أسألها: "كيف سمحت لنفسك أن تعاملينى على هذا النحو؟" ولم يُلح علىّ حق آخر.

عثرت في درج على مُسوَّدات رسائل موجهة لآدا، ولچوڤاني وللسيدة مالفنتي. كانت تتعلق بتلك الأيام. كتبت للسيدة مالفنتي خطاباً بسيطاً أخبرها فيه بفترة تغيب لي قبل قيامي برحلة طويلة. ومع أني لا أذكر أنّي عقدت نية كتلك: لم أكن أستطيع أن أغادر المدينة وأنا أخشى أن يأتيني أحد للبحث عنّي. ياله من سوء حظ إن أتوا ولم يجدوني! لم أرسل واحدة من تلك الرسائل. بل أظن أنني كتبتها لأسجل أفكاري على الورق وحسب. منذ سنوات عديدة وأنا أحسب نفسي مريضاً، لكنه مرض كان يعاني منه الآخر أكثر منّي. أدركت حينئذ المرض "المؤلم"، وهو كم من الأحاسيس المادية غير المرغوب فيها التي جعلت منّي شخصاً غاية في البؤس.

بدأت على هذا النحو. في الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً ولم يغمض لي جَفن، نهضت وسرت في ليلة جوها معتدل، حتى وصلت إلى مقهى من مقاهي الضاحية لم أذهب إليه من قبل؛ ولهذا لم أكن لأجد به أحداً يعرفني، وكان ذلك مناسباً لي، حيث كنت أريد أن أكمل المناقشة مع السيدة مالفنتي، بدأتها في فراشي وكنت أود ألاّ يتدخل أحد فيها. إن السيدة مالفنتي قد وجهت لي لوماً جديداً. قالت إنّي حاولت أن "أغوي" بناتها. حتى وإن كنت حاولت شيئاً مشابهاً لفعلته دون شك مع آدا فقط. كنت أتصبب عرقاً بارداً عندما أفكر أنه ربما يثار في منزل مالفنتي لوم مماثل. فالغائب دائماً على خطأ، وربما انتهزوا فرصة بعدي عن المنزل ليضيفوه لحسابي. وتحت الضوء الشديد الآتي من المقهى كنت

أدافع عن نفسي بصورة أفضل. فأنا على يقين من أنني حاولت في بعض الأحيان أن ألمس بقدمي قدم أدا، بل ظننت ذات مرة أنني فعلتها برضائها. ثم كانت النتيجة أنني ضغطت على قدم المائدة الخشبي الذى لا يمكن أن يكون قد أبلغهم بذلك.

تظاهرت بالاهتمام بلعبة البلياردو. دنا منّي سيد يرتكز على عصاه، وجلس بجانبي مباشرةً. طلب عصير ليمون، وحيث إن نادل المقهى كان ينتظر أيضًا طلباتي، أمرته وأنا شارد الذهن بإحضار عصير آخر من الليمون، على الرغم من أنني لم أكن أستسيغ مذاقه. وفي تلك الأثناء انزلقت على الأرض العصا التي كانت ترتكز على الأريكة التى كنا نجلس عليها، وانحنيت لالتقاطها بحركة تلقائية.

– أوه، تزينو! صاح الأعرج المسكين، وقد تعرّف عليّ في اللحظة التي كان يود أن يوجه لي فيها الشكر.

– توليو! صحت وقد أدهشتني المفاجأة، ومددت له يدى للمصافحة. كنا زملاء بالمدرسة ولم يرَ بعضنا البعض منذ سنوات عديدة. كنت أعرف أنه، ما إن أكمل الدراسة بالمرحلة المتوسطة، حتى التحق بالعمل في أحد البنوك، حيث شغل مكانًا لا بأس به.

غير أنني كنت شارداً، حتى إني سألته بطريقة مفاجئة ما الذي حدث له وجعل ساقه اليمنى قصيرة بدرجة الاحتياج إلى عصا يتوكأ عليها.

وببشاشة، قص عليّ أنه مرض منذ ستة أشهر بالآلام الروماتزمية التى ألحقت الضرر بساقه.

أسرعت بإرشاده بنصائح عديدة. إنها الوسيلة المثلى للتظاهر بمشاركة حية دون القيام بمجهود كبير. وكان قد فعلها جميعها؛ ومن ثم نصحته بأخرى:

– ولمَ لمْ تذهب إلى فراشك حتى هذه الساعة؟ أرى أنه يؤذيك التعرض للهواء ليلاً.

أخذ يمزح على نحو متسم بالود: كان يعتبر أن هواء الليل لا يفيدنى أنا أيضًا وأن من يعانى من الآلآم الروماتزمية يمكنه أن يتغلب عليها، مادام لا يزال على قيد الحياة. إن حق الذهاب إلى الفراش فى الساعات الأولى من النهار قد أقره دستور النمسا أيضًا؛ ومن ثم فإن الحر والبرد ليس لهما علاقة بمرض الروماتيزم، بخلاف الرأى العام. كان قد درس طبيعة مرضه، بل لم يكن يفعل شيئًا آخر سوى تفحص الأسباب وطرق العلاج. واحتاج إلى إجازة ممتدة من البنك لكى يتمكن من التعمق فى تلك الدراسة أكثر من الراحة للعلاج. ثم حكى لى أنه كان يتناول علاجًا غريبًا. كان يأكل كل يوم كمية كبيرة من الليمون. التهم فى ذلك اليوم ثلاثين ليمونة، بل كان يأمل بالتدريب أن يتمكن من تناول أكثر من ذلك العدد. وأكد لى أن الليمون، حسب رأيه، يفيد فى أمراض أخرى كثيرة. فمنذ أن تناوله أصبح لا يشعر بالاضطراب بسبب تدخينه الشره، الذى كان أسيرًا له هو الآخر.

انتابتني رعشة عند رؤية تلك الكمية الكبيرة من الليمون، لكن، بعدها مباشرةً، جاءتني رؤية أكثر بهجة للحياة: لا يروقني الليمون، لكنه لو منحني الحرية للقيام بكل ما عليّ أو كل ما أبغي عمله دون أن يضرني، بل يحررني من كل القيود الأخرى، لالتهمت منه أنا أيضًا الكمية نفسها. إنها الحرية الكاملة أن يفعل المرء كل ما يشاء، بشرط أن يفعل أيضًا شيئًا لا يروقه كثيرًا. إن العبودية الحقيقية ماهي إلاّ عقوبة الحرمان: تانتالوس وليس هرقل[1].

ثم تظاهر توليو أيضًا بالقلق لمعرفة أخباري. عزمت على عدم إخباره بقصة حبي البائس، لكنّي كنت في حاجة إلى الترويح عن نفسي. تحدثت بنوع من المبالغة عن آلامي (سجلتها على هذا النحو، وأنا على يقين من أنها كانت خفيفة) حتى إنّي انتهيت إلى ذرف الدمع من عيني، في حين أخذ توليو يشعر بتحسن ملحوظ وقد ظن أنني مريض على نحو أخطر منه.

سألني إن كنت أعمل أم لا. الجميع في المدينة كانوا يقولون إنني كنت لا أفعل شيئًا وكنت أخشى من حسده، في حين أنني كنت في تلك اللحظة في حاجة شديدة لمن يشفق عليّ. كذبت!! أخبرته أنني كنت أعمل

(١) من ملوك الأساطير الإغريقية. عوقب الأول منهما بأن غمر إلى ذقنه في الماء وقد تدلت الأغصان المثقلة بالفاكهة قرب شفتيه، ولكن الماء أو الفاكهة كانا يرتدن بعيداً عنه كلما حاول بلوغهما. أما الثاني فهو بطل جبار اشتهر بمغامراته البطولية.

بمكتبي، ليس لفترة كبيرة، لكن على الأقل ست ساعات يوميا، بالإضافة إلى أن الأعمال المعقدة التى ورثتها عن والدى كانت تستغرق منى ساعات أخرى.

– اثنتا عشرة ساعة!– عقّب توليو، وبابتسامة راضية، منحنى ما كنت أطمح إليه، أى رثاءه لحالي:– أنت فى وضع لا تحسد عليه!

جاءت النهاية موفقة وتأثرت كثيراً منها، حتى إننى اجتهدت ألاّ أترك المجال لدموعى. شعرت بالتعاسة أكثر من أى وقت مضى، وفى حالة الضعف تلك التى كنت أشعر فيها بالرثاء لنفسى، من الواضح أننى تعرضت للأذى.

استأنف توليو الحديث عن حالته المرضية التى كانت أيضًا السبب الرئيسى لشرود ذهنه. درس علم تشريح الساق والقدم. قص علىّ ضاحكًا أنه عندما يسير المرء بخطوة سريعة، فإن الوقت الذى تستغرقه الخطوة لا يتعدى نصف الثانية وأنه فى أثناء نصف الثانية تلك تتحرك ما لا يقل عن أربع وخمسين عضلة. أصابتنى الدهشة وعلى الفور توجهت بفكرى إلى ساقى، أبحث فيها عن تلك الآلية الهائلة. أظن أننى قد عثرت عليها. بالطبع لم أجد أربعًا وخمسين آلة، بل تعقيداً هائلاً فقد نظامه ما إن أقحمت فيه انتباهى.

خرجت من ذلك المقهى وأنا أعرج وظللت أعرج لبضعة أيام أخرى. وأصبح السير بالنسبة لى عبئًا ثقيلا، ومؤلمًا أيضًا بعض الشىء.

ويبدو أن الزيت كان يقل وقتئذ فى تلك الكتلة المتشابكة من الأجهزة، وفى أثناء حركتها، كانت تتلف بعضها البعض. ومرت بضعة أيام، وأصبت بمرض أشد خطورة خفف من آلام مرضى الأول وسأتحدث عنه. ولكن حتى يومنا هذا، الذى أكتب عنه، إذا شاهدنى أحد وأنا أتحرك، فإن الأربع وخمسين حركة تضطرب وأنا أوشك على السقوط.

إننى مدين بهذه العلة أيضًا إلى آدا. إن حيوانات كثيرة تقع فريسة للصيادين أو لحيوانات أخرى حينما تكون منشغلة بالحب. وقعت حينئذ فريسة للمرض وأنا على يقين من أننى إذا ما كنت قد تعرفت على تلك الآلية الضخمة فى وقت آخر، لما أصابتنى بأى ضرر.

وتذكرنى بعض الإشارات على ورقة احتفظت بها بمغامرة أخرى عجيبة حدثت لى فى تلك الأيام نفسها. كانت هناك محاولة لنظم قصيدة... عن ذبابة، إلى جانب تدوين لسيجارة أخيرة مصحوب بتعبير ينم عن ثقة بإمكانية الشفاء من علة الأربع وخمسين حركة. ولو لم أكن أعلم شيئًا عن تلك القصيدة، لظننت أن تلك الأبيات نظمتها آنسة دمثة الخُلق تخاطب الحشرات التى تتغنى بها بصيغة "المخاطب"، لكن نظرًا لأننى كتبتها بيدى، فقد أيقنت أنه مادمت مررت بذلك الطريق، فبالإمكان أن يجد أى إنسان نفسه فى أى مكان.

هاهى ذى قصة مولد تلك الأبيات. كنت قد عدت فى ساعة متأخرة من الليل إلى المنزل، وبدلاً من الذهاب إلى مخدعى توجهت إلى مكتبى وأشعلت مصباحًا يعمل بالغاز. على ضوئه أخذت تضايقنى ذبابة.

تمكنت من إصابتها بضربة، وإنما خفيفة لكى لا أتلوث. نسيتها، لكننى بعد ذلك رأيتها تتوسط المنضدة وتستعيد قواها رويداً رويداً. كانت ثابتة، مستقيمة وتبدو أكثر طولاً عما قبل؛ لأن إحدى أرجلها تصلبت ولم تعد تستطيع ثنيها. أخذت في دأب تمسح بقدميها الخلفيتين على جناحيها. حاولت أن تتحرك، لكنها انقلبت على ظهرها. عاودت النهوض، وعادت في إصرار إلى عملها المتواصل.

في تلك اللحظة نظمت تلك الأبيات، وتعجبت وأنا أكتشف أن ذلك الجسم الضئيل الذى اجتاحه ألم شديد إنما يواجه خطأً في جهده ذلك المضني: قبل أى شيء تبينت أن الحشرة تكشف عن عدم درايتها عن أى الأعضاء يصدر الألم، وهى تمسح في عناد كبير على جناحيها السليمين؛ فضلاً عن أن مثابرتها فى القيام بذلك المجهود تنم عن أن هناك إيمانا راسخا في عقلها الضئيل بأن الصحة من حق الجميع، وأنها عندما تتركنا لابد أن تعود. إنها أخطاء يمكن أن تغتفر فى حشرة لا تعيش سوى حياة من فصل واحد، وليس لديها وقت كافٍ لاكتساب الخبرة.

غير أن يوم الأحد قد أتى. انتهى اليوم الخامس منذ زيارتى الأخيرة لمنزل مالفنتى.كنت أحمل دائمًا احترامًا كبيرًا، وأنا الذى يعمل لفترات قصيرة جداً، ليوم العطلة الذى يقسم الحياة إلى فترتين وجيزتين، مما يجعلها أكثر احتمالاً. فضلاً عن أن هذا اليوم ينهى أسبوعا مضنياً واستحق ما يجلبه من فرح. لم أبدل خططى على الإطلاق، لكن كان يتحتم

أن تفقد أهميتها فى ذلك اليوم الذى أرى فيه آدا. لم أكن لأفسد تلك الخطط ببعض الكلمات، لكن كان علىّ أن أراها ثانيةً، ولعل القضية تسير لصالحي ويصبح حينئذ استمراري فى العذاب خسارة كبيرة.

ومن ثم، ففى وقت الظهيرة، وبالسرعة التى كانت تسمح بها ساقاى المسكينتان، أسرعت إلى المدينة وإلى الطريق الذى كنت أعلم أن السيدة مالفنتي وبناتها لابد أن يسرن به فى أثناء عودتهن من القداس. كان يوم عيد مشرقًا، وفى أثناء سيرى، جال بخاطرى أنه ربما تنتظرنى بالمدينة تلك البشرى التى أترقبها، حب آدا!

لم يكن الأمر كذلك، لكن الأوهام لعبت بى للحظة أخرى. صادفنى الحظ بصورة لا يمكن تصديقها. تقابلت وجهًا لوجه مع آدا، مع آدا فقط. شلت خطاى وتوقفت أنفاسي. ماذا أفعل؟ كان فى نيتى أن أنتحى جانبًا، وأن أدعها تمضى بتحية لائقة. لكن تشوش فكرى. وكانت هناك فى البداية نيّات أخرى أتذكر واحدة منها، وهى أن أتحدث إليها بوضوح وأن أعرف مصيرى من فمها. ولم أنتح جانبًا وفى اللحظة التى حيتنى فيها، وكأننا قد افترقنا منذ خمس دقائق، رافقتها.

قالت لى:

– عمت صباحًا، يا سيد كوزيني! إننى فى عُجالة من أمرى.

فقلت:

– هل تسمحى لى أن أرافقك فى الطريق؟

قبلت وهى تبتسم. لكن هل كان لى إذن أن أحدثها؟ أضافت أنها ذاهبة مباشرةً إلى بيتها؛ لذا أدركت أنه ليس متاحًا لى إلاَّ خمس دقائق للحديث معها، وكنت قد فقدت أيضًا منها جزءًا فى حساب ما إذا كان الوقت يكفى للأشياء الهامة، التى لابد أن أبلغها بها. ألا أبلغها بها خير من ألا أبلغها بها بكاملها. كان الاضطراب يسيطر أيضًا علىَّ؛ لأنهم فى مدينتنا كانوا يحسبونه حينئذ أمرًا مثيرًا للشبهات أن تسمح فتاة برفقة شاب لها بالطريق. إنها سمحت لى بذلك. ألم يكن فى استطاعتى أن أمتلئ بالرضا؟ فى تلك الأثناء كنت أتأملها، وأنا أحاول أن أشعر من جديد بالحب كاملاً بما يشوبه من غضب وشك. أعساى على الأقل أستعيد أحلامى؟ كانت تبدو لى صغيرة وكبيرة فى الوقت نفسه، بانسجام قوامها. عاودتنى الأحلام وتدافعت حتى وأنا بجانبها، وهى حقيقة. إنه كان أسلوبى فى إشباع رغبتى وقد عدت إليه بفرحة غامرة. وأخذت تختفى من داخل نفسى أى آثار لغضب أو بغض.

لكن سمعنا من خلفنا نداءً متعلثمًا:

- هل تأذنى، يا آنستى!

التفت وأنا أتميز من الغيظ. من كان يجرؤ على مقاطعة التفسيرات التى لم أكن قد بدأتها بعد؟ كان فتى لم تنبت لحيته بعد، أسود الشعر وشاحب الوجه، ينظر إليها بعينين حائرتين. وبدورى نظرت إلى آدا بأمل كاذب أن تطلب مساعدتى. كانت تكفى إشارة منها، حتى أنقض على ذلك الشخص كى أسأله عن سبب جرأته. وليته كان يلح! كانت آلامى

ستشفى على الفور لوأتيح لى أن أترك العنان لنفسى فى تصرف يتميز بالقوة والخشونة.

لكن آدا لم تبدِ أية إشارة. وبابتسامة عفوية غيرت رسم وجنتيها وفمها بل وبريق عينيها أيضاً، صافحته باليد قائلة:

- السيد جويدو!

إن اسمه ذلك آذانى. فلقد نادتنى، منذ قليل، بلقب عائلتى.

تأملت جيداً السيد جويدو ذاك. كان يتأنق فى لباس مبالغ فيه ويمسك بيده اليمنى المكتسية بقفاز عصا بالغة الطول لها مقبض عاجى، ما كنت لأستخدمها ولو دفعوا لى من المال عن كل كيلو متر أمشيه. لم أؤنب نفسى على أن وصل بى الإحساس لرؤية تهديد لآدا يأتى من شخص كهذا. هناك أشخاص من غير الموثوق بهم يرتدون أزياء أنيقة ويمسكون أيضاً بعصى كتلك.

زجت بى ابتسامة آدا داخل أشد التعاملات الاجتماعية شيوعاً. عرفت آدا أحدنا بالآخر. وابتسمت أنا أيضاً! كانت ابتسامة آدا تذكر باهتزاز الماء الصافى مع لمسة نسمة ناعمة. وكانت ابتسامتى أنا أيضاً تشبه حركة مماثلة، لكنها من حصاة ألقيت فى الماء.

كان يدعى جويدوسبير. وصارت ابتسامتى أكثر عفوية حيث أتيحت لى فرصة توجيه ما يسىء له من كلام:

- هل سيادتكم ألمانى الجنسية؟

أجابني بأسلوب مهذب أنه يعرف أن الجميع ربما يظنونه ألمانياً بسبب الاسم. في حين كانت وثائق عائلته تثبت أن أصلها إيطالي منذ قرون عديدة. كان يتحدث بلهجة إقليم توسكانا بتلقائية شديدة، في حين حكم على أنا وآدا بلهجتنا الدارجة الفجة.

كنت أحملق فيه لكي أتمكن من سماع ما يقوله بصورة أفضل. كان شاباً جميلاً جداً: كانت شفتاه منفرجتين بشكل طبيعي وتكشفان عن أسنان ناصعة البياض ورائعة الشكل. كانت عينه نابضة ومعبرة، وعندما كشف رأسه، استطعت أن أرى شعره المجعد بعض الشيء ذا اللون الداكن، يكسو المساحة التي منحتها له الطبيعة الأم، في حين اجتاح جبيني قسماً كبيراً من رأسي.

كنت سأمقته حتى ولو لم تكن آدا حاضرة، لكني كنت أعاني من ذلك البغض، وحاولت أن أخفف من حدته. أخذت أفكر: - إنه يصغرها في السن، ثم جال بخاطري أن الود واللطف اللذين تتعامل بهما معه ربما كانا استجابة لأمر من والدها. ربما كان شخصية ذات أهمية بالنسبة لأعمال السيد مالفنتي، وتصورت أنه من الواجب على العائلة أن تتعاون جميعها في مثل هذه الحالات. سألته:

- هل تستقر، سيادتك في تريستي؟

أجابني أنه يقيم بها منذ شهر، حيث يقوم بتأسيس دار تجارية. تنفست الصُّعَداء! ربما أصبت في تخميني.

أخذت أسير وأنا أعرج، لكن في عدم اكتراث، فما من أحد، فيما رأيت، كان يلحظ ذلك. كنت أنظر إلى آدا ، محاولاً أن أتناسى كل شيء بما في ذلك الشخص الذي كان يرافقنا . في واقع الأمر أنا رجل الحاضر ولا أفكر في المستقبل، مادام لا يعتم الحاضر بظلال واضحة. كانت آدا تسير بيننا وقد انطبع على وجهها، تعبير غير محدد من الانشراح يكاد يصل إلى الابتسامة. تلك الفرحة كانت تبدو لي جديدة. لمن كانت توجه تلك الابتسامة؟ أليست لي فهي لم ترني منذ وقت بعيد؟

أنصت إلى حديثهما . كانا يتحدثان عن استحضار الأرواح، وعلمت على الفور أن جويدو أدخل المائدة الناطقة في منزل مالفنتي.

كنت أتحرق من شدة الرغبة في التأكد من أن الابتسامة العذبة التي كانت تهيم على شفتي آدا كانت لي. وتدخلت في موضوع حديثهما ، مرتجلاً قصة عن الأرواح. ما من شاعر يستطيع أن يرتجل أفضل منّي أبياتًا مقفاة عندما تتطلب الحاجة. ولما لم أكن أعرف كيف سينتهي بي أمر القصة، أخذت أعلن أني أؤمن أنا أيضًا بالأرواح بسبب قصة حدثت لي في اليوم السابق في ذلك الطريق نفسه....لا!.... بل في طريق موازٍ له كنا نراه. ثم قلت بعد ذلك إن آدا كانت تعرف هي أيضًا الأستاذ برتيني الذي وافته المنية منذ وقت ليس ببعيد في مدينة فلورنسا، حيث كان قد استقر بها بعد إحالته إلى المعاش. علمنا بوفاته من خبر صغير نُشر في جريدة محلية وقد نسيته، حتى إنني في الحقيقة، عندما كنت

أفكر في الأستــاذ برتيني، كنت أراه يتنـزه في منطقــة كاشـيني[1] في مستراحه الجديد به. ثم إنه، في اليوم السابق، وفي نقطة حددتها في الطريق الموازي للطريق الذي كنّا نسير به، دنا بالقرب منّي رجل يعرفني وأنا متأكد من معرفته. كانت طريقة سيره غريبة تشبه طريقة امرأة هزيلة تتلمس خُطواتها....

– بالتأكيد! ربما كان السيد برتيني! قالت آدا ضاحكة.

كانت الضحكة لي واسترسلت متحمساً:

– كنت أعرفه، لكنني لم أستطع أن أتذكره.

تحدثنا في السياسة. إنه السيد برتيني؛ لأنه تكلم عن كثير من تلك الحماقات، وبصوته ذلك الذي يشبه صوت العنزة:

– وأيضاً صوته! أخذت آدا تضحك وهي تنظر إليّ في ترقب لمعرفة نهاية القصة.

نعم! لابد وأنه كان الأستاذ برتيني، قلت متظاهراً بالفزع من ذلك الممثل العظيم الذي ضاع بداخلي. صافحني باليد للاستئذان وانصرف وهو يمشي بخطى خفيفة. تابعته لبضع خطوات وأنا أحاول أن استوضح الأمر. اكتشفت أنني كنت أتحدث مع الأستاذ برتيني فقط عندما غاب عن عيني. مع السيد برتيني الذي لقي حتفه منذ عام مضى!

---

(١) منطقة شاسعة خضراء على ساحل نهر الأرنو، غرب فلورنسا.

بعد قليل توقفت أمام باب منزلها . صافحت جويدو باليد، وقالت له إنها تنتظره في المساء. ثم، حيتني أنا أيضًا، وطلبت مني أن أذهب لزيارتهم في تلك الليلة لكي نحرك تلك المائدة الصغيرة إن لم يكن ذلك يصيبني بالضجر.

لم أجب ولم أشكرها. كان عليّ أن أدرس تلك الدعوة بدقة قبل أن أقبلها. هيئ لي أن كان لها نغمة المجاملة الواجبة. ها هو ذا: ربما كان يوم الإجازة يميل للانتهاء بالنسبة لي بذلك اللقاء. لكنني أردت أن أظهر لطيفًا كي أترك كل الطرق مفتوحة أمامي، حتى بقبول تلك الدعوة. سألتها عن جوڤاني الذي كان يلزم أن أتحدث معه. أجابتني أنني سأجده في مكتبه حيث ذهب لأمر عاجل.

وقفت أنا وجويدو لبضع لحظات نتأمل تلك الجميلة الأنيقة وهي تختفي في عتمة مدخل البيت. لا أدري ما الذي كان يفكر فيه جويدو في تلك اللحظة، وبالنسبة لي، كنت أشعر بمنتهى التعاسة؛ هل لأنها لم توجه تلك الدعوة لي أولاً ثم لجويدو؟

عدنا معًا إلى السير، في الموضع الذي التقينا فيه مع آدا بالتقريب. كان جويدو، مهذبًا ولبقًا (كانت اللباقة بالتحديد هي الشيء الذي كنت أحسد الآخرين عليها) وأخذ يتحدث عن تلك القصة التي ارتجلتها وأخذها بمحمل الجدية. لكن الشيء الحقيقي، في تلك القصة ها هو ذا: بمدينة تريستي، وحتى بعد وفاة الأستاذ برتيني، كان يعيش إنسان يتحدث عن تلك الحماقات، يسير بطريقة يبدو وكأنه يتحرك على أطراف

قدميه وكان له أيضًا صوت غريب. كنت قد تعرفت عليه في تلك الأيام، وللحظة، ذكرني بالأستاذ برتيني. لم يكن يسوغني أن جويدو أجهد فكره لدراسة قصتي تلك المختلقة. استقر الأمر عليّ ألاّ أبغضه؛ لأنه لم يكن بالنسبة لعائلة مالفنتي أكثر من تاجر ذي أهمية؛ لكنه كان لا يروق لي لأناقته المدروسة وعصاته. بل كنت أراه سخيفًا، حتى إنني كنت متلهفًا للتخلص منه. سمعته وهو يبدي رأيه:

– هناك احتمال أيضًا أن يكون الشخص الذي تحدثتم معه أكثر شبابًا من السيد برتيني، يسير كالجندي القوي البنية وبصوته رجولة، والتشابه معه ربما يقتصر على الحديث عن حماقات. قد يبدو ذلك كافيًا لتثبيت تفكيركم على السيد برتيني. لكن كي نقر هذا، ينبغي أيضًا أن ننتبه إلى أن سيادتكم شخص يشرد ذهنه كثيراً.

لم أتمكن من تقديم المساعدة له في محاولاته:

شارد الذهن؟ يالها من فكرة! إنني رجل أعمال. إلى أين سأنتهي إذا ما كنت شارد الذهن؟ ثم رأيت أنني أهدر وقتي. كنت أبغي رؤية جوڤاني. وبما أنّي قابلت الابنة، يمكنني أيضًا أن أقابل الوالد الذي يقل كثيراً عنها في الأهمية. كان عليّ أن أسرع ما دمت أرغب في العثور عليه في مكتبه.

استرسل جويدو في البحث عن قدر الجانب الذي يمكن أن يرجع في المعجزة إلى شرود ذهن من يقوم بها أو ذهن من يشاهدها. أردت أن

أستأذن بالانصراف، وأبدو على الأقل على سجيتي مثله؛ ومن هنا أتت السرعة في مقاطعته وتركه التي كانت شديدة الشبه بحركة فظة:

- أرى أن المعجزات موجودة وغير موجودة. لا ينبغي أن نعقدها بقصص كثيرة. لابد أن نؤمن بها أو لا نؤمن، وفي كلتا الحالتين فالأمور يسيرة للغاية.

لم أكن أبغي أن أشعره بنفوري، وأعتقد في الحقيقة أنني كنت أتساهل معه في الحديث؛ لأنني رجل واقعي عن اقتناع منّي ولا أؤمن بالمعجزات. غير أنه تنازل عن رأيي في غير رضى.

ابتعدت وأنا أعرج بشكل أشد من أي وقت مضى، وتمنيت ألاّ يشعر جويدو بالرغبة في النظر إليّ من خلفي.

كان من الضروري حقًا أن أتحدث مع چوڤاني. وكان مع ذلك سيعرّفني كيف أتصرف في تلك الليلة. تلقيت الدعوة من آدا، ومن سلوك چوڤاني كنت سأتمكن من معرفة ما إذا كان ينبغي أن أقبل الدعوة أو أن أتذكر، على عكس ذلك، أن تلك الدعوة كانت تخالف الرغبة التي عبرت عنها السيدة مالفنتي. كنت أحتاج إلى الوضوح في علاقاتي مع هؤلاء الناس، وإذا كان يوم الأحد لا يكفي لأصل إليها، فسأخصص لذلك يوم الاثنين أيضًا. أخذت أخالف قراراتي دون أن أفطن إلى ذلك. بل ظننت أنني أنفذ قرارًا اتخذته بعد خمسة أيام من التأمل. هكذا كنت أخطط لنشاطي في تلك الأيام.

احتفى بى چوڤانى بتحية جميلة صاخبة، طمأنتنى، ودعانى لأخذ مكان على أريكة لصيقة بالحائط المقابل للمكتب الذى كان يجلس إليه.

- خمس دقائق وأتفرغ لك على الفور! وبعدها مباشرةً: - ولكن أتعرج؟

احمر وجهى! لكننى كنت على استعداد للارتجال. أخبرته أننى انزلقت على الأرض وأنا أغادر المقهى، وحدّدت بالفعل المقهى الذى وقع به الحادث. خشيت أن يعزو سقوطى إلى ذهاب عقلى من تأثير الكحول، فأضفت وأنا أضحك أنه عندما سقطت كان فى رفقتى إنسان يعانى من الآلام الروماتزمية وكان يعرج.

كان يقف بجوار مكتب چوڤانى موظف وحمّالان. يبدو أنه حدث بعض الخلل فى عملية تسليم بضائع، ودخل چوڤانى فى إحدى مناقشاته الحادة عن إدارة مخزنه الذى قلما اهتم به رغبة منه فى إفراغ ذهنه كى يعمل فقط - كما كان يقول - ما لا يستطع عمله أحد بدلاً منه. كان يصيح أكثر من المألوف، كأنما أراد أن يحفر تعليماته فى آذان تابعيه. أعتقد أن المسألة كانت تتعلق بتحديد أسلوب التعاملات التى ينبغى أن تتم بين المكتب والمخزن.

- هذه الورقة - أخذ چوڤانى يصيح وهو ينقلها من يده اليمنى إلى اليسرى وقد انتزعها من دفتر - ستوقع عليها وسيعطيك الموظف الذى سيتسلمها ورقة أخرى مطابقة عليها توقيعه.

كان يحدّق في وجوههم تارة عبر نظارته وتارة أخرى من فوقها، وختم حديثه بصياح آخر:

- هل فهمتم؟

كان يرغب في تكرار عملية الشرح من البداية، لكن الأمر كان يبدو لي مضيعة كبيرة للوقت. كان لدى شعور غريب بأنّي إذا تعجلت فسأكسب الجولة من أجل آدا، في حين أنني أدركت بعدها وكانت دهشتي لذلك كبيرة أن أحداً لا ينتظرني وأني لا أنتظر أحداً، ولم يكن هناك شيء ينبغي القيام به من أجلي. ذهبت إلى چوڤاني ويدى ممدودة:

- سأقوم بزيارتك هذا المساء.

دنا منّي على الفور، في حين اتخذ الآخرون جانباً.

- لمَ لم نرك منذ وقت طويل؟ سألني ببساطة.

أخذتني الدهشة حتى أربكتني. كان هذا السؤال بالفعل ما لم توجهه آدا لي، وكنت جديراً به. ولو لم يكن هؤلاء الآخرون حاضرين، لتحدثت معه بصراحة وقد وجه لي هذا السؤال وأثبت لي براءته من مؤامرة كنت أشعر بها، وقد دُبرت ضدى في ذلك الحين. كان هو البرىء الوحيد الذي يستحق ثقتي.

ربما لم يُسعفني تفكيرى حينئذ لأستوضح الأمر، ويدل على هذا أنني لم أصبر حتى ينصرف الموظف والعمال. ومع ذلك كنت أريد أن

أدرس بدقة قدوم جويدو الذى لم يكن فى الحسبان، وكيف أنه ربما أعاق آدا من طرح هذا السؤال علىّ.

لكن چوڤانى أعاق حديثى هو الآخر، وهو يبدى رغبة كبيرة فى العودة إلى عمله.

- سنتقابل إذن هذه الليلة. ستستمع إلى عازف كمان لم تسمعه من قبل. يقدم نفسه كعازف هاوٍ فقط لآلة الكمان، فلديه أموال كثيرة ويترفع عن أن يجعل من عزفه مهنة. عزم على التخصص فى مجال التجارة. - رفع منكبيه تعبيراً عن استهانته بالفكرة - فأنا، على الرغم من حبى للتجارة، لو كنت فى مكانه لما بعت غير الألحان. لا أدرى إذا ما كنت تعرفه. إنه يدعى جويدو سبيير.

- حقًا؟ حقًا؟ - قلت وأنا أتصنع المجاملة، وأهز رأسى وأحرك فمى كلما أمكننى تحريكه بإرادتى. ذلك الشاب اليافع يستطيع أيضًا العزف على آلة الكمان؟ - حقا؟ حسن جداً؟ كنت أتمنى أن يكون چوڤانى مازحًا وأنه يقصد بمبالغته تلك فى الثناء عليه أن جويدو ليس إلاّ عازف كمان سيئ. لكنه داوم على هز رأسه معبراً عن إعجاب شديد به. ضغطت على يده قائلاً:

- إلى اللقاء!

اتجهت وأنا أعرج صوب الباب. انتابنى الشك فتوقفت. ربما كان من الأفضل ألاّ أقبل الدعوة، وفى تلك الحالة علىّ أن أخطر چوڤانى بذلك.

التفت لأعود إليه، لكننى انتبهت حينئذ إلى أنه يرمقنى بانتباه شديد، وقد مد جسمه إلى الأمام ليرانى عن كثب. لم أتحمل ذلك وانصرفت!

عازف كمان! إذا كان بالفعل يعزف الكمان بهذه المهارة، فأنا، ببساطة، رجل محطم. ليتنى على الأقل لم أعزف تلك الآلة، أو لم أندفع للعزف عليها فى بيت آل مالفنتى. هناك حملت معى آلة الكمان ليس لغزو قلوبهم بعزفى عليها، ولكنها كانت ذريعة منّى لإطالة زياراتى لذلك المنزل. كنت أبله! ليتنى لجأت إلى أعذار كثيرة أخرى غير شائكة!

لن يستطيع أحد أن يقول إننى أستسلم للأوهام فيما يخصنى. أدرك أننى أتمتع بإحساس مرهف بالموسيقى ولا أبحث عن الموسيقى الأكثر تعقيداً عن تكلف، بل إن إحساسى المرهف بالموسيقى ذاته يحذرنى وقد نبأنى منذ سنوات، أننى لن أتمكن أبداً من العزف بأسلوب يسعد من ينصت إلىّ. وعلى الرغم من ذلك فمواصلتى للعزف ترجع إلى السبب نفسه الذى من أجله أستمر فى العلاج. ربما استطعت أن أعزف جيداً لو لم أكن مريضًا، وأسعى وراء صحتى حتى وأنا أسعى وراء ضبط الأوتار الأربع. هناك شلل طفيف فى تكوينى، وينكشف كليةً على آلة الكمان؛ ولهذا يسهل الشفاء منه. فأكثر الناس جهلاً بفن العزف عندما يعلم ما هى ثلاثيات النغم أو رباعياتها أو سداسياتها، يستطيع أن ينتقل من الواحدة منها إلى الأخرى بإيقاع سليم، مثلما تنتقل عيناه بالنظر من لون إلى آخر. أما عنّى فعندما أعزف أحد تلك الأشكال، تتعلق بذاكرتى ولا أتخلص منها أبداً، لدرجة أنه يندس فى الشكل التالى له ويمسخه.

وحتى أضع النغمات في موضعها يلزمني أن أزن الإيقاع بقدمي وبرأسي، ولكن وداعًا للتمكن، وداعًا لصفاء النفس، ووداعًا للموسيقى. فالموسيقى التي تنبعث من جسم متزن ما هي إلا ذلك الإيقاع الذي تبدعه وتبعثه. وعندما أستطيع العزف على هذا النحو أكون قد شفيت.

فكرت للمرة الأولى في أن أترك هذا المجال، أن أغادر مدينة تريستي وأذهب بحثًا عن الراحة في مكان آخر. لم يكن هناك شيء يبعث بالأمل. فقدت آدا. كنت على يقين من ذلك! ألم أكن أعرف، أنها ستتزوج من رجل بعد أن تتفحصه وتزنه كأنما يتعلق الأمر بمنحه وسامًا أكاديميًا؟ بدا لي الأمر مضحكًا؛ لأن آلة الكمان لا تدخل بالفعل بين البشر في حساب اختيار الزوج، ولكن هذا لم ينصفني. كنت أشعر بأهمية ذلك النغم. كانت أهميته بالغة كما هو الحال لدى الطيور المغردة.

قبعت في حجرة مكتبي، ولم ينته بعد يوم العطلة بالنسبة للآخرين! أخرجت الكمان من الحافظة، وترددت في أن أحطمه تحطيمًا أو أعزف عليه. ثم جربت العزف عليه كأنما أردت أن ألقي عليه الوداع الأخير، وفي النهاية أخذت أتدرب على عزف كرويتزر[١] الخالد. في المكان ذاته الذي وقفت فيه جعلت القوس يقطع الكيلومترات الكثيرة، غير أنني في شتات فكري ذاك أخذت أقطع المزيد منها بصورة آلية.

---

(١) مؤلف موسيقي فرنسي شهير.

إن كل الذين أعطوا اهتمامهم لتلك الأوتار الأربع اللعينة يدركون أنه، ما دام المرء يعيش منعزلاً فإنه يظن أن أى مجهود ضئيل يحمل ما يقابله من تقدم. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فمن يقبل أن يضع نفسه تحت طائلة تلك الأعمال الشاقة التى لا نهاية لها، كما لو تعثر حظه وقتل شخصًا؟ وبعد فترة قصيرة بدا لى أن معركتى مع جويدو لم أخسرها بشكل حاسم. من يدرى ربما اتيحت لى الفرصة لأضع نفسى بين جويدو وأدا بآلة كمان ظافرة؟

لم يكن غروراً منى، لكنه شعورى بالتفاؤل الذى لم أستطع أن أتخلص منه قط. يفزعنى فى بادئ الأمر أى تهديد بكارثة، ثم سرعان ما أنساه فى ثقة أكيدة بتمكنى من تحاشيه. ثم إن الأمر كان لا يتعدى تحسين حكمى على قدراتى فى العزف على الكمان. وبوجه عام نعلم أنه فى مجال الفنون ينشأ الحكم المؤكد من المقارنة، التى لا تتوافر فى هذا المكان. ثم إن آلة الكمان الخاصة تصدر صداها قريبًا جداً من الأذن التى تعرف طريقها المختصر إلى القلب. فما إن شعرت بالتعب، حتى توقفت عن العزف وحدثت نفسى:

- أحسنت يا تزينو، كسبت قوتك.

دون تردد ذهبت إلى عائلة مالفنتى. لقد قبلت الدعوة ولم أعد أستطيع التراجع. وجدتها بشرى طيبة لى أن تقابلنى الخادمة بابتسامة لطيفة وأن تسألنى عما إذا كان قد حدث لى مكروه سبب عدم مجيئى لفترة طويلة.

أعطيتها بعض النقود. فعلى لسانها وجهت لي العائلة بأسرها ذلك السؤال، فهي التي كانت تمثلها.

قادتني إلي قاعة الجلوس التي كانت شاسعة الأبعاد تحت وطأة الظلام. ولما وصلت إليها عبر مدخل شديد الإضاءة، لم أر شيئًا لفترة قصيرة، ولم أسمح لنفسي بالحركة. ثم لمحت أشخاصًا مختلفون يلتفون حول منضدة صغيرة، على مسافة مني، في مؤخرة الحجرة.

جاءتني التحية من صوت آدا الذي غمر أحاسيسي وسط الظلام. كان باسمًا، كان لمسة ناعمة:

- استرح، في هذا المكان ولا تزعج الأرواح! ولو استمرت على هذا النحو، لما أزعجتهم دون شك.

ومن جانب آخر من المنضدة سمعت صدى لصوت آخر، ربما كانت ألبرتا أو أوجوستا:

- إذا أردت أن تشارك في عملية الاستحضار، ما زال يوجد هنا مكان خال.

عزمت على ألا أتنحى جانبًا، وتقدمت بحسم تجاه المكان الذي أتتني منه تحية آدا. ارتطمت ركبتي بإحدى زوايا المنضدة الفينتسية التي كانت مملوءة بالزوايا. تألمت منها ألمًا حادا، لكنني لم أتوقف وسقطت على مقعد لا أدري من قدمه لي، يتوسط فتاتين، إحداهما كانت تجلس على يميني، حسبتها آدا والأخرى أوجوستا. وفي الحال، كي أتفادى أي

حديث مع هذه الأخيرة، اندفعت نحو الأخرى. لكن انتابني الشك في أنني كنت مخطئًا، فسألت التي كانت عن يميني كي أسمع صوتها:

– هل توصلتم بالفعل إلى شيء من التعامل مع الأرواح؟ قاطعني جويدو، الذي يبدو أن كان جالسًا في مواجهتي.

وصاح بلهجة آمرة:

– هدوء!

ثم أضاف بنبرة أكثر اعتدالا:

– ركزوا انتباهكم، وفكروا بإمعان في الميت الذي تريدون أن تستحضروا روحه.

إنني لا أكن عداء لأي نوع من المساعي لاستكشاف العالم الآخر. لكني اغتظت لأنني لم أدخل تلك المائدة منزل جوڤاني، وقد حظت بكل هذا النجاح. لم أشعر بالرغبة في المثول لأوامر جويدو؛ ولهذا لم أستغرق على الإطلاق في التأمل. ثم لمت نفسي لومًا كبيرًا؛ لأنني سمحت بأن تسير الأمور إلى ذلك الحد دون أن أتحدث بوضوح مع آدا، فقد كانت الفتاة بجواري، في تلك الظلمة المواتية، وكان بإمكاني أن أفسر كل شيء. استوقفتني فقط عذوبة الجلوس بجوارها بعد أن خشيت أن أفقدها للأبد. كنت أحس بنعومة النسيج الدافئ الذي يلامس ملابسي، وأخذت أفكر أيضًا في كيف أننا قريبون بهذه الصورة من بعضنا،

وتلمس قدمي قدمها الصغيرة التي كما كنت أعلم يكسوها في المساء حذاء لامع يعلو الكاحل. كان بلا شك إحساسًا يفوق الحد بعد عذاب استمر لفترة طويلة للغاية.

استأنف جويدو الحديث قائلاً:

- أرجوكم، استغرقوا في التأمل. ألحوا الآن في الطلب من الروح التي تستحضرونها أن تظهر وتحرك المائدة. كان يروق لي أنه منشغل بالمنضدة. وصار واضحًا أن آدا تستسلم لتحمل قرابة ثقلي كله! إن لم تكن أحبتني، ما طاقت ذلك. حانت لحظة المصارحة. رفعت يدي اليمنى عن المنضدة، وشيئًا فشيئًا وضعت ساعدي على خصرها:

- أحبك، يا آدا! قلت بصوت خافت، ودنوت بوجهي منها حتى أسمعها صوتي بصورة أفضل.

لم تجب الفتاة في الحال. ثم، بصوت هامس، لكنه كان صوت أوجوستا، سألتني:

- لمَ لم تأتِ منذ فترة طويلة؟

كادت المفاجأة والشعور بالاستياء توقعني من مقعدي. وأحسست على الفور أنه إن لزم أن أبعد تلك الفتاة المزعجة عن مصيري، فعليَّ مع ذلك أن أعاملها بالاحترام الذي يوليه فارس دمث الخلق مثلي، للمرأة التي أحبته حتى وإن كانت المرأة الدميمة التي لم يخلق مثلها قط. كم كانت تحبني! كنت أشعر بحبها وسط آلامي. كان حبها بلا شك هو الذي

أملى عليها ألا تقول لى إنها ليست آدا، بل أن توجه لى السؤال الذى انتظرته عبثًا من آدا، فى حين كانت هى بالتأكيد قد تأهبت لتوجيهه لى مباشرةً ما إن ترانى مرة أخرى.

انسقت وراء فطرتى ولم أجب عن سؤالها، لكن، بعد لحظة تردد، قلت لها:

– على الرغم من هذا يسعدنى أننى بحت لك بسرى، يا أوجوستا، فأنا أثق فى قدر طيبتك!

استعدت فى الحال توازنى على القوائم الثلاث. لم أحظ بالمصارحة مع آدا، لكننى مع ذلك، أفصحت عنها كاملة مع أوجوستا. وهنا لم تعد هناك مفاهيم أخرى خاطئة.

حذر جويدو مجدداً:

– إن لم ترغبوا فى السكوت، فليس هناك داعٍ لقضاء وقتنا هنا فى هذه الظلمة!

ما كان يدرى بشىء، فى حين كنت بحاجة إلى الظلام كى يعزلنى ويسمح لى بأن أستجمع نفسى. اكتشفت الخطأ الذى اقترفته، والاتزان الوحيد الذى استعدته كان أن تمالكت نفسى على مقعدى.

كنت سأتحدث إلى آدا، ولكن فى وضَح النور. ساورنى الشك أنها ليست على يسارى، بل ألبرتا. كيف كان لى أن أتأكد من ذلك؟ كاد الشك يسقطنى تمامًا على يسارى، ولكى أعيد اتزانى، تساندت إلى المنضدة.

أخذ الجميع يصيحون: – إنها تتحرك، تتحرك! كانت حركتى اللاإرادية ستقودنى نحو الوضوح. من أين يأتى صوت آدا؟ لكن صوت جويدو وهو يغطى بصوته على الجميع، فرض علينا السكوت الذى رغبت بشدة فى أن أجبره هو عليه. ثم بصوت مختلف، مبتهل (ذلك الأحمق!) تحدث إلى الروح التى ظن أنها حضرت:

– أرجوك، اذكر اسمك، وحدد حروفه حسب حروفنا الهجائية!

كان يتحسب لكل شىء: يخشى أن تتذكر الروح الحروف الهجائية اليونانية.

مضيت فى تلك المسرحية وأنا أتحسس فى ظلمة المكان بحثًا عن آدا. بعد شىء من التردد جعلت المنضدة ترتفع سبع مرات حتى اكتمل حرف "ج". بدت لى الفكرة جيدة، وبالنسبة للحرف التالى "و" الذى كان يتطلب حركات عديدة، أمليت اسم جويدو بالتمام والكمال. لا أشك فى أنه وأنا أملى اسمه، كانت هناك رغبة تدفعنى لإزاحته بين الأرواح.

وعندما تم اسم جويدو، تكلمت أخيراً آدا:

– أحد أسلافك؟ أشارت بذلك. كانت تجلس بجواره بالضبط. كنت أريد أن أحرك المنضدة، بحيث أدفعها تجاهما وأفرِّق بينهما.

– ربما! – أجاب جويدو. كان يظن أن له أسلافًا، لكنه لم يخفنى.

كان يغير صوته انفعال حقيقى غمرنى بالفرحة التى يشعر بها المبارز عندما يدرك أن غريمه أقل خطورة مما كان يعتقد. لم تكن رباطة جأش منه أن يقوم بتلك التجارب. كان بالفعل أحمق! كانت صور الضعف جميعها تجد عندى الإشفاق عليها، فيما عدا ضعفه هو.

التفت بعد ذلك إلى الروح قائلاً:

- إذا كنت تدعى سبِيير قم بحركة واحدة. وإلا فحرك المنضدة مرتين. وحيث إنه كان يريد له أجداداً، حركت المائدة مرتين إرضاءً له.

- جدى! همس جويدو.

ثم أخذت المحادثة مع الروح طريقها نحو الإسراع. سئلت الروح عما إذا كانت تريد أن تدلى بأخبار. أجابت بنعم. عن أعمال أم عن أشياء أخرى؟ عن أعمال! حظيت هذه الإجابة بالتفضيل؛ لأنه كان يكفى تحريك المنضدة مرة واحدة فقط لإعطاء الرد. ثم سأل جويدو إذا كان الأمر يتعلق بأخبار طيبة أم سيئة. كان ينبغى الإشارة بحركتين إذا كانت الأخبار سيئة وكنت - هذه المرة دون أى تردد - أود أن أحرك المنضدة مرتين. غير أن الحركة الثانية عاكستنى وكان هناك حتماً أحد بيننا فى تلك الصحبة يرغب فى أن تكون الأخبار طيبة. ربما، كانت أدا؟ لكى أقوم بتحريك المنضدة مرة ثانية ارتميت بالفعل عليها وفعلتها بسهولة! وكانت الأخبار سيئة!

ولما كان من صراع، جاءت الحركة الثانية مبالغًا فيها، حتى إنها زحزحت الصحبة بكاملها.

- هذا غريب! همس جويدو. ثم، صاح، بلهجة حاسمة:

- كفى! كفى! هناك من يلهو على حسابنا!

كان أمراً امتثل له كثيرون في آن واحد، واجتاحت الحجرة على الفور موجات من الضوء في أماكن مختلفة. رأيت جويدو شاحب الوجه! خدعت آدا نفسها في تقدير ذلك الشخص، وكان عليّ أن أوقظها من غفلتها. فضلاً عن وجود الفتيات الثلاث في الحجرة، كانت هناك السيدة مالفنتي وامرأة أخرى أدخلت رؤيتها في نفسي الارتباك وعدم الارتياح؛ لأني ظننتها العمة روزينا. ولأسباب مختلفة حظت السيدتان منّي بتحية متزنة.

الطريف أنّي ظللت بجانب المنضدة، بمفردي وبجواري أوجوستا. وحاقت بي شبهة جديدة، لكني لم أستطع الانسياق في رفقة الآخرين جميعهم وهم يلتفون حول جويدو، الذي أخذ يفسر بشيء من الحدة كيف أدرك أن المنضدة لم تحركها الروح بل ماكر له شحم ولحم. لم تكن آدا، بل هو نفسه الذي حاول أن يوقف المنضدة بعد أن أحدث جلبة كبيرة. أخذ يقول:

- أمسكت بالمنضدة بكل قواي لكي أمنعها من الاهتزاز للمرة الثانية. فرأيي أنه لابد أن يرتمي شخص ما عليها كي يتغلب على مقاومتي.

جميل ذلك التواصل مع الأرواح: إن جهداً قوياً كهذا لا يمكن أن يأتي من روح!

حدقت النظر في أوجوستا المسكينة لكي أرى الانطباع الذى أخذته بعد أن علمت بالتصريح بحبى لأختها. كان وجهها شديد الحمرة، لكنها أخذت تنظر إلىّ بابتسامة متسامحة. وفى تلك اللحظة فقط قررت أن تؤكد أنها سمعت ذلك التصريح:

– لن أقول شيئًا لأحد! قالت لى بصوت خافت.

هذا ما يسعدنى كثيراً.

– أشكرك، همست لها وصافحت يدها ولم تكن صغيرة، لكنها كاملة الجمال. شعرت بالاستعداد لأن أكون صديقًا وفيًا لأوجوستا، فى حين كان هذا مستحيلاً قبل ذلك؛ لأننى لا أستطيع أن أكون صديقًا لأشخاص يتسمون بالدمامة. ومع ذلك بدأت أشعر بشيء من الانجذاب نحو خصرها الذى ضممته وأحسست به نحيلاً أكثر مما كنت أتخيل. وجهها أيضًا كان مقبولا، لا يشوهه سوى تلك العين التى تأخذ طريقًا مخالفًا. بالغت دون شك فى ذلك التشويه الذى اعتبرته ممتداً حتى الفخذ.

طلبوا إحضار شراب الليمون لجويدو. دنوت من المجموعة التى ظلت تلتف حوله وتقابلت وجهًا لوجه والسيدة مالفنتي التى كانت تبتعد عنهم. سألتها وأنا أضحك باستمتاع:

أهو بحاجة إلى شراب منعش؟ ارتسمت على شفتيها حركة استياء خفيفة:

– لا يبدو أنه رجل ناضج! قالت بصراحة.

توهمت أن يكون لانتصاري أهمية حاسمة. فلا يمكن أن ترى آدا خلاف رأي والدتها. وكان للنصر تأثيره المباشر الذي لا يمكن ألاّ يتوفر في رجل مثلي. ذهبت عنّي كل مشاعر البغض، وما عدت أرغب في المزيد من عذاب جويدو. لسوف يصبح العالم أقل ضراوة لو شابهني الكثير.

جلست بجواره، ودون النظر إلى الآخرين، قلت له:

– أرجو المعذرة، يا سيد جويدو. سمحت لنفسي بدعابة سيئة من هذا النوع. أنا الذي دفعت المنضدة لتظهر أنها تتحرك من قبل روح تحمل اسمكم نفسه. ما كنت لأفعل ذلك لو عرفت أن جَدكم يحمل ذلك الاسم.

خانته ملامح وجهه، الذي أشرق، كأنما كانت محادثتي هامة بالنسبة له. غير أنه لم يرغب في الاعتراف بذلك وقال لي:

– إنهن سيدات طيبات للغاية! لم أكن بحاجة قط إلى مساعدة. فالأمر ليست له أية أهمية. وأشكركم على صراحتكم، لكنني تصورت بالفعل أن أحداً انتحل شخصية جَدي.

ضحك، بارتياح، وهو يقول لي:

– لكم بنية قوية! كان عليّ أن أفهم أن المائدة يحركها الرجل الآخر الوحيد في هذه الصُّحبة.

أثبت، بالفعل، أنّى أشد قوةً منه، لكن سرعان ما فرض علىّ الإحساس بأننى أضعف منه. أخذت آدا تنظر إلىّ فى غير ود وهاجمتنى، وقد احتقنت وجنتاها:

- يؤسفنى أنكم أعطيتم لنفسكم الحق فى مُزاح كهذا.

شعرت بنفسى يضيق و، بلسانى يتلعثم، قلت:

- كنت أرغب فى الضحك! ظننت أنه ليس بيننا من يأخذ قصة المنضدة تلك على محمل من الجِدية.

كان الآوان قد فات لكى أهاجم جويدو، بل إنه لو كانت لدى أذن مرهفة الحِس، لسمعت أن الفوز لن يكون أبداً حليفى، إن دخلت فى صراع معه. فالثورة التى كانت تشنها آدا علىّ لها مغزاها الكبير. كيف لم أدرك أنها قد صارت بكاملها له؟ لكنى عاندت وتمسكت برأيى فى أنه غير أهل لها؛ لأنه ليس الرجل الذى كانت تبحث عنه بعينيها الجادتين. ألم تشعر بذلك حتى السيدة مالفنتى ذاتها؟

انحاز الجميع إلى جانبى وزادوا من سوء موقفى. أخذت العمة روزينا تهتز بجسمها الضخم من شدة الضحك، وهى تقول وقد بدا عليها الإعجاب:

- رائع!

شعرت بالأسف لأن جويدو كان ودوداً معى. كان لا يهمه شئ سوى التأكد من أن الأخبار السيئة المستوحاة من المنضدة، لم تجلبها الروح. قال لى:

- أراهن أنكم لم تحركوا المنضدة عن عمد في بادئ الأمر. حركتموها في المرة الأولى دون قصد، ثم قررتم على الفور أن تحركوها بدهاء منكم. وعلى هذا النحو قد يحتفظ الأمر بشيء من الأهمية، أي فقط حتى اللحظة التي قررتم فيها إفساد إيمانكم.

التفتت آدا ونظرت إليّ نظرة تعجب. أرادت أن تبدى لجويدو فرط إخلاصها فتسامحني لأنه منحني عفوه. فمنعتها من ذلك:

- ليس الأمر كذلك! قلت بحسم. أرهقني انتظار تلك الأرواح التى لا تريد أن تأتي وأخذت محلها لألهو. استدارت آدا بكتفيها عني ورفعتهما على نحو جعلني أشعر بصفعة على وجهي. حتى خصلات شعرها الملتفة المتدلية على عنقها كانت تبدو لي تعبيراً عن الازدراء.

وكالمعتاد دائمًا، بدلاً من أن أنظر وأنصت، كنت منشغلاً تمامًا بأفكاري. كان يحزنني أن تتورط آدا بهذا الشكل المفزع. أخذ يؤلمنى ذلك ألمًا شديداً، كأنما اكتشفت خيانة امرأتي. وعلى الرغم من كل ما تظهره من مشاعر لجويدو، فمازال في الإمكان أن تصير من قسمتي، لكنني كنت أشعر بأنني لن أغفر أبدًا لها سلوكها ذاك. هل هو تفكيرى البطيء بالدرجة التى لا يتمكن معها من متابعة ما يجرى من أحداث دون انتظار لأن تمحو الانطباعات التي تركتها الأحداث السابقة في عقلي؟ وعلى الرغم من ذلك كان عليّ أن أتحرك عبر الدرب الذى حدده لي قراري. كان حقًا عناداً، عناداً أعمى. ومع ذلك أردت أن أجعل قرارى أكثر قوة

بأن أسجله للمرة الثانية. ذهبت إلى أوجـوستا التى كانت تنظـر إليّ في قلق بابتسامة صادقة ومشجعة ترتسم على وجهها، وقلت لها في جدية وأسى:

– قد تكون هذه هى المرة الأخيرة التى أجىء فيها إلى منزلكم؛ لأننى، فى هذه الليلة ذاتها، سأعلن عن حبى لآدا.

– عليكم ألا تفعلوا، قالت لى راجية. ألا تدركون كل ما يجرى هنا؟ يؤسفنى أنكم تتألمون من ذلك.

واصلت تحول بينى وبين آدا. قلت لها كيداً:

– يجب أن أفعل ذلك. ثم لن أبالى على وجه الإطلاق بأية إجابة تعطيها.

أخذت أعرج مرة ثانية ناحية جويدو. بعد أن وصلت إلى جواره، أشعلت سيجارة، وأنا أنظر لنفسى فى المرآة. رأيت نفسى شاحبًا للغاية وهو الأمر الذى يدفع بى نحو مزيد من الشحوب. قاومت حتى أشعر بتحسن وأبدو على سجيتى. وفى محاولتى تلك المزدوجة قبضت يدى الشاردة على كوب جويدو. وما إن أمسكت به لم أجد شيئًا أفضل من أن أفرغه.

أخذ جويدو يضحك:

– هكذا ستعرفون كل أفكارى؛ لأننى شربت منه أيضًا منذ قليل.

لم يكن مذاق الليمون سائغًا لي قط. ووصل سوء طعم ذلك الكوب إلى الحد الذى بدا لى وكأنه يحمل السم، بداية لأن شربى منه أشعرنى بأنى خضعت إلى صلة بغيضة مع جويدو، فضلاً عن تأثرى فى الوقت نفسه بتعبير نفاد الصبر الثائر الذى ارتسم على وجه آدا. نادت الخادمة على الفور وأمرتها بإحضار كوب آخر من شراب الليمون، وأصرت على طلبها، على الرغم من تأكيد جويدو لها بعدم شعوره بالظمأ.

فى تلك اللحظة أشفقت عليها حقيقةً. كانت تورط نفسها أكثر فأكثر.

– أرجو المعذرة، يا آدا، قلت لها بصوت خافت وأنا أنظر إليها كأنما وجب علىّ تقديم الإيضاحات. ما كنت أرغب فى الإساءة إليك.

ثم اجتاحنى الخوف من أن تتبلل عيناى بالدمع. أردت تفادى الضحك منى.

صرخت:

– أطلقت رذاذ الليمون فى عينى.

غطيت عينى بالمنديل، ولم أعد هكذا بحاجة إلى التحكم فى دموعى، وكفانى أن انتبهت لئلا أجهش بالبكاء.

لن أنسى أبداً تلك الظلمة التى كانت خلف المنديل. كنت أخبئ فيها عبراتى، بل ولحظة جنون أيضاً. أخذت أتخيل كيف سأخبرها بكل شىء، و كيف أنها ستتفهمنى وستحبنى، وأننى لن أسامحها أبداً.

باعدت المنديل عن وجهى، أطلعت الجميع على عينى الدامعتين، وبذلت جهداً لكى أضحك وأضحكهم:

– أراهن أن السيد چوڤانى يرسل للبيت حمض الليمونيك لإعداد المشروبات.

فى تلك اللحظة وصل چوڤانى وحيّانى بحفاوته الكبيرة المألوفة. اغتنمت منها بشيء من الطمأنينة، التى لم تستمر طويلاً؛ لأنه أوضح أنه أتى قبل موعده المعتاد لرغبته فى الإستماع إلى عزف جويدو. توقف عن الكلام ليسأل عن الدموع التى تبلل عينى. حكوا له عن شكوكى حول نوعية شراب الليمون، فضحك من ذلك.

تدنيت للغاية عندما اشتركت بحماس فى التوسُّلات التى كان يوجهها چوڤانى لجويدو لكى يقوم بالعزف. أخذت أتذكر: ألم أجئ إلى هناك تلك الليلة كى أستمع إلى عزف جويدو على آلة الكمان؟ والغريب أنّى أدرك أننى رغبت فى استرضاء آدا بتوسلى لجويدو. نظرت إليها آملاً فى أن أكون قد انضممت إلى صفها أخيراً وللمرة الأولى فى تلك الليلة.

ياله من شيء عجيب! ألم يكن علىّ أن أتحدث إليها وألا أسامحها؟ وعلى الرغم من ذلك لم أر سوى كتفيها وخصلات شعرها الساخطة تتدلى على عنقها. سارعت لإحضار آلة الكمان من الحافظة.

طلب جويدو أن نتركه وشأنه لمدة ربع الساعة. كان يبدو متردداً. وعلى مدى السنوات الطويلة التى عرَفته فيها فيما بعد خبرت فيه التردد

دائمًا قبل أن يقوم بفعل الأشياء التى كانت تطلب منه حتى الأكثر بساطة منها. كان لا يفعل إلا الشيء الذى يروق له، وقبل أن يستجيب لأى رجاء يوجه إليه، كان يقوم بعملية تنقيب فى أعماق نفسه لكى يرى فيها ما الذى يرغبه.

ثم حدث فى تلك الأمسية المشهودة أن مر ربع ساعة من أكثر الأوقات سعادة بالنسبة لى. أمتعت ثرثرة اختلقتها الجميع، بمن فيهم أدا. وكان ذلك يرجع بلا شك إلى فرط حماسى، بل إلى المجهود البالغ الذى بذلته للتغلب على آلة الكمان المتوعدة تلك التى كانت تدنو، وتدنو... تلك الفترة الوجيزة التى بعثت فيها المرح فى الجميع، أتذكرها لحظة أنفقتها فى معركة مضنية.

حكى چوڤانى أنه شهد فى الترام، الذى كان يستقله وهو عائد إلى المنزل، حادثة مؤلمة. نزلت منه سيدة وهو ما زال يتحرك حتى سقطت على نحو بالغ الخطورة وجرحت. أخذ چوڤانى يصف بشيء من المبالغة قلقه عندما أدرك أن تلك السيدة كانت تستعد للقيام بتلك القفزة، وبطريقة كان واضحًا أنها ستطرح من جرائها أرضًا، وربما تدحرجت عليها. إنه لشيء مؤلم للغاية أن نتوقع الضرر وألا يسعفنا الوقت للنجدة.

لاحت لى فكرة. حكيت أننى اكتشفت علاجًا لذلك الدوار الذى كنت أعانى منه فى الماضى. عندما كنت أشاهد لاعبًا رياضيًا وهو يقوم بألعابه على ارتفاع شاهق، أو عندما كنت أشاهد شخصًا عجوزًا أو غير

قادر ينزل من الترام فى أثناء سيره، كنت أتخلص من أى شعور بالقلق بأن أتمنى لهم البلاء. كنت أصل إلى حد صياغة التعبيرات التى أبتغى بها سقوطهم أو هلاكهم. الأمر الذى كان يهدئ من روع نفسى بدرجة كبيرة؛ ولهذا كنت أتمكن من أن أكون حاضراً وقد تبلدت مشاعرى تماماً أمام النذير بالكارثة. وإذا ما باءت أمنياتى تلك بالفشل، كنت أقول فى نفسى إننى أكثر سعادة.

انبهر جويدو بفكرتى تلك التى بدت له اكتشافاً فى علم النفس. أخذ يحللها كما كان يفعل بالحماقات جميعها، ويتلهف لتجربة هذا العلاج. لكن كانت له بعض التحفظات: ألا تزيد الأمنيات المشئومة من المصائب. انضمت آدا إلى الضحك معه، ومع ذلك وجهت لى نظرة إعجاب. وأنا، كالأبله، نلت من تلك النظرة سعادة كبيرة. وعلى هذا اكتشفت أنه لم يكن صحيحاً ألاّ أستطيع أن أسامحها: وكان ذلك مكسباً عظيماً أيضاً.

ضحكنا معاً كثيراً، كفتيان طيبون يحب بعضنا البعض. وبعد وقت قليل كنت أجلس فى جانب من حجرة الصالون، بمفردى مع العمة روزينا. كانت لا تزال تتحدث عن المنضدة. كانت بدينة حقاً، وتجلس ساكنة على مقعدها، دون أن تنظر إلىّ. نجحت فى أن أفهم الآخرين أن ذلك يحرجنى، وكانوا ينظرون إلىّ جميعهم وهم يضحكون بحذر، دون أن تراهم العمة.

لكى أزيد من هذا المرح الصاخب فكرت فى أن أقول لها دون تمهيد:

- لكنك، يا سيدتى، استعدت صحتك كثيراً، أراك جددت شبابك.

كان لابد أن يكون هناك سبيل للضحك إن غضبت العمة. لكنها بدلاً من أن تثور أظهرت لى امتنانها وحكت لى أنها قد استعادت صحتها بالفعل بعد مرض تعرضت له من وقت قريب. تعجبت من تلك الإجابة، حتى إن وجهى لابد وأنه اتخذ شكلاً مثيراً للضحك، حيث لم تتوقف موجة المرح الصاخب الذى رغبت فيه من ذى قبل. بعد قليل تكشف لى السر فى ذلك. بمعنى أنّى علمت أنها ليست العمة روزينا، بل الخالة ماريًا، أخت السيدة مالفنتى. وهكذا أبعدت من ذلك الصالون مصدراً من مصادر عدم الارتياح، ولكنه ليس أكبرها.

ثم جاءت لحظة طلب فيها جويدو آلة الكمان. واستغنى فى تلك الأمسية عن مصاحبة آلة البيانو، وهو يعزف المقطوعة الموسيقية خاكون[1]. قدمت له أدا الكمان وابتسامة شكر ترتسم على وجهها. لم ينظر إليها، لكنه كان ينظر إلى الكمان كأنما أراد أن ينفرد بنفسه وبالإيحاء. ثم وقف فى وسط الحجرة واستدار بظهره إلى عدد لا بأس به من جمهوره الصغير، لمس الأوتار بالقوس لمسات خفيفة لكى يوازن بين نغماتها، وقام أيضًا بلمس كل منها على حدة بإصبعه. توقف كى يقول وهو يبتسم:

- إنها جرأة حقًا منّى، باعتبار أنّى لم ألمس آلة الكمان منذ المرة الأخيرة التى عزفت عليها هنا!

---

(١) مؤلّف موسيقى شهير لجون سيباستيان باخ (١٦٨٥-١٧٥٠).

مخادع! استدار أيضًا بظهره عن آدا. كنت أدقق النظر فيها بقلق لأرى إن كانت تعانى من ذلك. لم يبدُ الأمر كذلك! كانت تسند مرفقها على منضدة صغيرة وذقنها على كفها، وقد ركزت اهتمامها للإنصات.

بعد قليل، تجسد أمامى، الموسيقار العظيم باخ بشخصه. لم أبلغ، على وجه الإطلاق، لامن قبل ولامن بعد، هذا الإحساس بجمال تلك الموسيقى وليدة الأوتار الأربع كأنها ملاك جسّده ميكيلانجيلو فى كتلة رخامية. إنها وحسب حالتى النفسية الجديدة كانت هى ذاتها التى دفعتنى للنظر إلى أعلى فى نشوة، كأنما أنظر إلى شىء عجيب. وعلى الرغم من ذلك كنت أقاوم لكى أبعد تلك الموسيقى عنى. لم أتوقف قط عن التفكير: «احذر! إن الكمان "كالسيرانة"[١]، ويمكن أن تحمل المرء على البكاء حتى ولم يكن له قلب بطل!» فتنت من تلك الموسيقى التى سلبت عقلى. شعرت بأنها تحكى مرضى وآلامى فى ترفق وهى تخفف منها بالابتسامات واللمسات العطوف. لكنه جويدو الذى كان يتحدث! وكنت أحاول أن أتهرب من تلك الموسيقى وأقول لنفسى: «كى تستطيع أن تفعل هذا، يكفى استخدام جهاز إيقاعى، ويد متمكنة وقدرة على المحاكاة؛ كلها أشياء لا أمتلكها، ذلك ما لا يمثل دونية، وإنما كارثة».

أخذت أحتج، لكن باخ أخذ يواصل فى ثبات كالمصير. كان يشدو فى ولع بالنغمات العالية وينزل بحثًا عن النغمات الخفيضة الصعبة التى

---

(١) كائن أسطورى من الميثولوجية الإغريقية نصفه امرأة ونصفه سمكة، كان يغرى البحارة ويطلق عليه جنية البحر.

كانت تفاجئنا على الرغم من توقع الأذن والقلب لها: كانت النغمات جميعها في موضعها المناسب! لو تأخر لحظة أضاع الغناء دون أن يلحق به رنين النغم؛ ولو تقدم به لحظة لدهمه وخنقه. لم يحدث شيء من هذا لجويدو: كان ساعده لا يرتعش، حتى وهو يواجه باخ، وكان ذلك يمثل دونية حقة.

اليوم وأنا أسجل هذه الذكريات عندي كل الدلائل على ذلك. لا يسعدني أني أبصرت حينئذ كل ذلك بدقة متناهية. وعلى هذا النحو كنت مملوءاً بالبغض ولم تتمكن تلك المقطوعة الموسيقية، التي كنت أتقبلها بكل جوارحي، أن تلطف منه. ثم توالت الحياة المألوفة اليومية ومحته دون أية مقاومة من جانبي. هذا مفهوم! فالحياة اليومية يمكنها أن تقوم بأشياء من هذا القبيل. الويل لو انتبه العباقرة لذلك!

توقف جويدو عن العزف عن دراية. لم يصفق أحد سوى چوڤاني، ولفترة قصيرة صمت الجميع. بعد ذلك، مع الأسف، شعرت بالحاجة إلى إبداء رأيي. كيف تجرأت على فعل ذلك أمام أناس يعرفون عزفي على الكمان؟ كأنما تكلم كماني الذي كان يلهث دون جدوى وراء النغم، ويوجه اللوم للآخر الذي تحولت عليه الموسيقى - وهذا ما لا يمكن إنكاره - إلى حياة، نور وهواء.

- رائع! قلت بنبرة تدل على شيء مسلم به وليس استحساناً. لكنني لم أفهم لماذا أردتم، قرب النهاية، الفصل بين النغمات الموسيقية التي كتبها باخ موصولة.

كنت على دراية بنغمات الفاكون الواحدة تلو الأخرى. ومرت فترة ظننت فيها أنني أحسِن العزف، عليّ أن أواجه مثل هذه المغامرات، وأمضيت الوقت لشهور عديدة أتعلم جملة بعد جملة من بعض مؤلفات باخ الموسيقية.

أحسست أنه لم يكن في حجرة الصالون سوى الاستنكار والسخرية منّي. وعلى الرغم من ذلك أخذت أتحدث وأقاوم ذلك العداء.

– إن باخ – أضفت قائلاً – شديد التواضع في أساليبه، حتى إنه لا يقر مثل هذه الصنعة بالقوس.

ربما كنت على حق، لكن المؤكد أنني ما كنت لأقدر على تحريك القوس بهذا النحو.

سرعان ما تجاوز جويدو الصواب مثلما فعلت قبلاً. قال:

– ربما لم يكن باخ يعرف بإمكانية ذلك التعبير. وإنّي أقدمه له هدية!

سمح لنفسه بأن يقفز على كتف باخ، وعلى الرغم من ذلك لم يحتج أحد في ذلك المجلس، في حين كانت السخرية مني؛ لأنني حاولت فقط أن أقفز على كتفه هو.

في تلك اللحظة حدث شيء ضئيل الأهمية، لكنه كان حاسمًا بالنسبة لي. سُمع صدى صراخ الصغيرة أنّا يأتي من حجرة على قدر

من البعد عنا. كانت قد سقطت ونزفت شفتاها، كما علمنا بعدها. هكذا وجدت نفسى بمفردى مع أدا؛ لأن الجمع انصرف مسرعًا من الصالون. سلم جويدو كمانه الثمين ليد آدا، قبل أن يتبع الآخرين.

– هل تسمحين بإعطائى هذا الكمان؟ سألتها إياه وأنا أراها تتردد فى الإلحاق بالآخرين. حقًا لم أكن قد أدركت بعد أن الفرصة التى تمنيتها كثيراً قد حانت لى أخيراً.

ترددت، ثم تغلب عليها شعور غريب بالارتياب. ضمت إليها الكمان تماماً:

– لا – أجابت، لا يلزم أن أذهب معهم. لا أعتقد أن أنّا قد أصابها أذى. إنها تصرخ دون سبب.

جلست ومعها كمانها، وظننت أنها بتصرفها هذا ستدعونى إلى التحدث. ثم إنه كيف كان لى أن أعود إلى منزلى دون أن أتكلم معها؟ ما الذى كنت سأفعله بعد ذلك طوال تلك الليلة؟ كنت أرانى أتقلب يمنة ويسرة فى فراشى أو أهيم فى الطرق أو قاعات القمار لأروِّح عن نفسى. لا! ما كان ينبغى أن أغادر هذا البيت قبل أن أحظى بالمصارحة والطمأنينة.

حاولت أن أتكلم ببساطة وإيجاز. وكنت أيضًا مضطراً لذلك لضيق أنفاسى. قلت لها:

– أحبك، يا أدا. لما لا تسمحين لى بالحديث مع والدك عن هذا الشأن؟

حملقت فى وهى مندهشة ومرتاعة. خشيت أن تبدأ فى الصراخ كما تصرخ أختها، فى الخارج. كنت أعرف أن نظرتها الصافية وملامح وجهها المحددة للغاية لا تعرف الحب، لكننى لم أرها قط، بعيدة كل البعد عن الحب كتلك المرة. شرعت فى الحديث وقالت أشياءَ ينبغى اعتبارها تمهيداً. لكنّى كنت أريد الوضوح: القبول أو الرفض! وربما أشعرنى بالإهانة ما رأيته فيها من حيرة. ولكى أتعجل الإجابة وأحملها على اتخاذ القرار، ناقشتها فيما استباحته لنفسها من وقت:

- لكن كيف لم تشعرى بذلك؟ من المستحيل أن تكونى قد ظننتِ أنّى أغازل أوجوستا!

وددت أن أؤكد كلماتى، لكن، فى اندفاعى، جاء ذلك التأكيد فى غير موضعه، وانتهى بى الأمر أن ذكرت أوجوستا المسكينة بنبرة وحركة تنم عن الازدراء.

وعلى هذا النحو أخرجت آدا من حيرتها. فلم تكتشف شيئًا سوى الإهانة الموجهة لأوجوستا:

- لماذا ترين نفسك أرفع منزلة من أوجوستا؟ لا أعتقد مطلقًا أن أوجوستا تقبلك زوجًا!

على الفور تذكرت أنه ينبغى أن أعطى لها إجابة:

- أما عنّى أنا... فيدهشنى أنها فكرت فى شىء كهذا.

لابد أن هذه الجملة اللاذعة كانت ثأراً لأوجوستا. وفكرت وسط ارتباكي الشديد في أنه حتى معنى الكلمة لا يحمل مرمى آخر؛ ولو أنها صفعتني لترددت في البحث عن الأسباب؛ ولهذا أخذت ألح عليها:

- فكرى بالأمر، يا آدا. إننى لست رجلاً سيئًا. لدى ثروة .. غريب الأطوار بعض الشيء، لكنه سيكون من السهل عليّ أن أقوّم نفسي.

آدا أيضًا كانت معى أكثر لطفًا، لكنها تحدثت مرة أخرى عن أوجوستا.

- فكر أنت أيضاً؛ يا تزينو: إن أوجوستا فتاة طيبة وتقدرك بالفعل حق قَدْرك. إننى لا أستطيع أن أتحدث نيابةً عنها، لكنّى أرى...

شعرت بعذوبة بالغة وأنا أسمع اسمى وهى تنطق به للمرة الأولى. ألم تكن هذه دعوة للتحدث معي بصراحة أكثر؟ ربما كنت قد فقدتها، أو ما كانت على الأقل لترضى بالزواج منّى بسرعة، ومع ذلك يلزمَ تحاشى تورطها بصورة أكبر مع جويدو الذى كان عليّ أن ألفت نظرها بشأنه. كنت حذراً، وبادئ ذى بَدء قلت لها إننى أقدّر وأحترم أوجوستا، لكنى لا أود الزواج منها. قلت لها ذلك مرتين لكى تفهمنى بوضوح: «لم أكن أريد الزواج منها». وهكذا أصبح بإمكانى أن آمل فى تهدئة آدا التى ظنت من قبل أننى أريد إهانة أوجوستا.

- أوجوستا فتاة طيبة، عزيزة، حانية، لكنها لا تصلح لى.

فور ذلك اندفعت بالحديث، لأنه كانت تسمع بعض الضوضاء تأتى من الممر، وخشيت أن يتوقف كلامى من لحظة لأخرى.

– آدا! ذلك الشاب لا يناسبك. إنه أحمق! ألم تلاحظى كم تألم من إجابات المنضدة؟ هل رأيت عصاه؟ إنه يعزف جيداً على الكمان، لكن توجد أيضًا قردة تستطيع العزف عليه. إن بكل كلمة ينطق بها خداعًا، هذا الخامل...

بعد أن أنصتت إليّ وعلى وجهها أمارات من يعجز عن التسليم بمغزى الكلمات الموجهة إليه، قاطعتنى. انتفضت واقفة على قدميها ومعها الكمان والقوس فى يديها، وغمرتنى بموجة من الكلمات الجارحة. بذلت ما فى وسعى كى أنساها ونجحت فى ذلك. أتذكر فقط أنها أخذت تسألنى بصوتٍ عالٍ كيف استطعت التحدث عنه وعنها على ذلك النحو! حدقت إليها من الدهشة؛ لأنى رأيت أنى تحدثت عنه فقط. لم أعد أذكر الألفاظ الحانقة العديدة التى وجهتها لى، غير أنّى لا أنسى وجهها الجميل النبيل رائع القسمات الذى احمر لونه من الغضب، وازدادت قسماته تحديداً لتشابه تماثيل المرمر. ذلك ما لم أنْسهُ قط وعندما أستعيد ذكريات حبى وفترة شبابى، يتراءى لى وجه آدا الحسن البهى الصافى فى اللحظة التى أزاحتنى فيها عن مصيرها إلى الأبد.

عاد الجميع وهم يلتفون حول السيدة مالفنتى، التى كانت تحمل أنّا على ذراعيها وهى مازالت تبكى. لم ينشغل أحد بى ولا بآدا وخرجت من حجرة الصالون، دون أن ألقى بالتحية على أحد منهم؛ أخذت قبعتى من الممر. شىء عجيب! لم يستوقفنى أحد. لهذا توقفت بنفسى؛ لأنّى تذكرت أنه لا ينبغى أن أخل بقواعد السلوك المهذب، ويجب لذلك أن أحيى

الجميع التحية اللائقة قبل أن أنصرف. حقًا إنّى على يقين من أنه لم يمنعنى من مغادرة ذلك المنزل إلاّ اقتناعى بأنه سرعان ما سوف تحل علىّ ليلة أسوأ من الليالى الخمس التى سبقتها. حينئذ وبعد أن حظيت أخيراً بالمصارحة كنت أشعر بالحاجة إلى شىء آخر: الحاجة إلى السلام الداخلى، السلام مع الآخرين. ولو استطعت إبعاد أية مرارة كانت فى علاقاتى مع آدا والجميع، لسهل علىّ أن أخلد إلى النوم. لماذا كانت كل تلك القسوة مازالت قائمة؟ إن لم يكن بوسعى أن أصب غضبى حتى على جويدو الذى لم يكن يتمتع بأية ميزة، فمن المؤكد أنه ليس له أى ذنب فى أن فضلته آدا علىّ!

كانت هى الشخص الوحيد الذى انتبه إلى خطواتى فى الممر، وعندما لمحتنى عائداً، نظرت إلى. أكانت تخشى ثورة غضب؟ رغبت على الفور فى تهدئتها. مررت بجوارها وهمست:

– سامحينى إذا كنت قد أسأت إليكِ!

أمسكت بكفى، وفى هدوء، صافحتها. شعرت براحة كبيرة. أغمضت جفنى لفترة قصيرة كى أنعزل بنفسى، وأشعر بمدى الطمأنينة التى تنبعث منها.

شاء قدرى أن أجد نفسى جالسًا بجوار ألبرتا، فى حين كان الجميع لا يزالون يهتمون بالطفلة. لم أكن قد رأيتها ولم أفطن إليها إلاّ عندما تحدثت إلىّ قائلة:

– لم تصب بأذى. الخطورة هى حضور أبى الذى، إذا رآها تبكى، سيكافئها مكافأة عظيمة.

توقفت عن دراسة نفسى؛ لأنّى رأيت نفسى كاملاً! كان علىّ، وحتى أحظى بالطمأنينة، أن أتصرف بحيث لا يغلق هذا الصالون فى وجهى على الإطلاق. نظرت إلىّ ألبرتا! كانت تشبه أدا! تصغرها قليلاً وتظهر على جسدها ملامح واضحة من الطفولة لم تمح بعد. كثيراً ما كانت ترفع من صوتها، وكان ضحكها المفرط فى كثير من الأحيان يزيد من صغر وجهها الصغير ويصبغه بالحمرة. شىء غريب! فى تلك اللحظة استعدت بذاكرتى وصية والدى: "تخير فتاة شابة، وسيسهل عليك أن تعلمها على طريقتك". كانت رسالة تذكير حاسمة. أخذت أحملق فيها، وأعملت خيالى لأجرِّدها، وأعجبتنى بتلك الصورة الوديعة والرقيقة التى افترضت أن تكون عليها.

قلت لها:

– اسمعى، يا ألبرتا! خطرت ببالى فكرة: ألم تفكرى مطلقًا فى أنك صرت فى مرحلة الزواج؟

– أنا لا أفكر فى الزواج! أجابت وهى تبتسم وتنظر إلىّ بهدوء، دون تحرج أو احمرار. بل أفكر فى الاستمرار فى دراستى. وأمى أيضًا ترغب فى ذلك.

– تستطيعين مواصلة دراستك حتى بعد الزواج.

خطرت ببالى فكرة بدت لى مرحة فقلت لها فى الحال:

– وأنا أيضًا أفكر في البَدء فى الدراسة بعد زواجي.

أخذت تقهقه بالضحك، لكني أدركت أنّى أضيع وقتى؛ لأنه لا يمكن الفوز بزوجة وبالراحة عن طريق مثل تلك الحماقات. كان لابد من الجِدية. ثم إن الأمر كان هناك هينًا؛ حيث إنهم احتفوا بى بوجه مختلف تمامًا إلا آدا.

كنت حقًا جادا. فى تلك الأثناء كان لابد أنْ تعرف زوجتى المقبلة كل شيء. وبصوت يبدو عليه الانفعال قلت لها:

– منذ قليل، وجهت إلى آدا الاقتراح نفسه الذى عرضته عليكِ الآن. رفضت بازدراء. يمكنك أن تتخيلى في أية حالة أكون الآن.

لم تكن هذه الكلمات التى تصاحبها حركات تنم عن الحزن إلا آخر تصريح لى بحب آدا. اتخذت شكلاً جاداً للغاية، وأضفت قائلاً، وأنا أبتسم:

– أظن أنك إذا قبلتِ الزواج منى، سأكون سعيدًا وسأنسى الجميع وكل شيء من أجلك.

اتخذت هى الأخرى مظهر الجدية لتقول لي:

– لا ينبغي أن تشعر بالإهانة، يا تزينو؛ لأن ذلك سيؤسفنى. أكنّ لك تقديراً كبيراً. أعلم أنك عفريت بارع، ثم أنك تعرف أشياءً كثيرة،

دون أن تعلم بذلك، فى حين يدرك أساتذتى تمامًا كل ما يعلمونه. لا أرغب فى الزواج. ربما استعدت ثقتى بنفسى فى المستقبل، لكن بالنسبة للوقت الراهن ليس لدى سوى هدف واحد: أود أن أصبح كاتبة. أترى مدى الثقة التى أبديها لك. لن أقول شيئًا لأحد مطلقًا وآمل ألا تخون عهدى. ومن جانبى، أعدك ألا أعرّف أحداً بعرضك هذا.

– بل يمكنك أن تخبرى به الجميع! قاطعتها فى حدة. أحسست بنفسى وقد وضعت من جديد تحت التهديد بإقصائى عن ذلك الصالون وأسرعت للبحث عن ملاذ. ثم كان هناك أسلوب واحد للتخفيف من تفاخر ألبرتا لرفضى زوجًا لها، فاتخذته فور أن تيقنت له، وقلت لها:

– الآن سأقدم الطلب نفسه إلى أوجوستا، وسأخبر الجميع فيما بعد بأننى اتخذتها زوجة لى؛ لأن أختيها رفضتا الزواج منّى!

أخذت أضحك فى ابتهاج زائد غمرنى إثر ما كان من غرابة فى خطواتى.

لم أحمّل كلماتى بتلك الروح التى كنت أفخر بها كثيراً، وإنما حملتها لأفعالى.

تلفت حولى بحثًا عن أوجوستا. كانت قد خرجت فى الممر ومعها صينية عليها كوب نصفه فارغ يحتوى على مسكّن لأنّا. اتبعتها مسرعًا وناديت عليها باسمها فارتكزت على الحائط تنتظرنى. توقفت أمامها وقلت لها:

– أوجوستا، اسمعى، أترغبين فى أن نتزوج؟

حقًا كان عرضى جافًا. كان علىّ أن أتزوج منها وأن تتزوج هى منّى، وما سألتها رأيها، وما التفت إلى ما كان يجب علىّ تقديمه من مبررات لذلك. ما دمت لم أفعل إلا ما كان الجميع يريدونه!

رفعت عينيها وقد أذهلتها المفاجأة. وهكذا اختلف الحَوَل كثيراً عن المألوف. فى بادئ الأمر ازداد شحوب وجهها الناعم الأبيض، ثم احتقن على الفور. وبصوت خافت قالت لى:

- أنت تمزح وهذا غير حسن.

خشيت أن تبكى، وجاءتنى فكرة غريبة، وهى أن أواسيها بأن أحكى لها عن أحزانى.

- أنا لا أمزح، قلت فى جدية وحزن. - طلبت فى بادئ الأمر يد آدا التى رفضتنى فى غضب، ثم طلبت من ألبرتا أن تتزوجنى وقد رفضت هى الأخرى، بكلمات لطيفة. إنى لا أكن أى سخط لأى منهما. أشعر فقط بأننى تعِس، وفى شدة التعاسة.

وأمام آلامى استعادت هدوءها وبدأت تنظر إلىّ فى تأثر، وهى تمعن التفكير. كانت نظراتها تشبه لمسة حُنوّ لم تسعدنى.

- علىّ إذن أن أعرف وأتذكر أنك لا تحبنى؟ - سألتنى.

ماذا كانت تعنى هذه الجملة المبهمة؟ هل كانت تمهِّد إلى قبول؟ كانت تريد أن تتذكر! ألا تنسى طوال حياتها التى سوف تقضيها معى؟ شعرت بإحساس من أراد أن يقتل نفسه فوضع نفسه فى وضعٍ خطر،

والآن هو مجبر على بذل الجهد لكى ينجو بنفسه. ألم يكن من الأفضل ألا تقبل أوجوستا هى الأخرى ويُسمح لىِ أن أعود سليمًا ومعافًى إلى مكتبى الذى لم أعانِ فيه كثيراً ولا حتى فى ذاك اليوم ذاته؟ قلت لها:

– نعم! لا أحب سوى آدا ولعلنى أتزوجك أنتِ الآن... كدت أخبرها بأنى لا أستطيع التسليم بأن أكون غريبًا عن آدا؛ ولذا ارتضيت بأن أصبح زوج أختها. ورأيت فى ذلك نوعًا من المغالاة، وربما ظنت أوجوستا مرة أخرى أننى أهزأ بها؛ لذا فقلت فقط:

– لم أعد أستطيع الحياة وحيداً.

كانت لا تزال تستند إلى الحائط الذى ربما كانت تشعر بالحاجة إلى دعمه لها؛ لكنها كانت تبدو أكثر سكينة وتحمل حينئذ الصينية بيد واحدة. هل نجوت، أى أنه هل كان ينبغى علىّ أن أغادر حجرة الصالون، أم يمكننى البقاء بها وأن أتزوج؟ قلت كلمات أخرى، لمجرد أنّى لم أصبر وأنتظر كلماتها التى أبت أن تخرج من فمها:

– أنا عفريت طيب، وأعتقد أنه من السهل العيش معى، حتى دون أن يكون هناك حب كبير.

هذه هى الجملة التى كنت قد أعددتها خلال الأيام الطويلة السابقة من أجل آدا لكى أحثها على قبولى زوجًا لها، حتى ولو لم تشعر نحوى بحب كبير.

أخذت أنفاس أوجوستا تضطرب قليلاً وظلت صامتة. ربما كان ذلك الصمت يعنى رفضاً، خلته أرق رفض يمكن أن يكون: وكدت ألوذ بالفرار بحثًا عن قبعتي، في الوقت المناسب لأضعها على رأس حظى بالنجاة.

إلا أن أوجوستا، في حسم، وبحركة تفيض وقاراً لم أنسها قط، اعتدلت وبعدت عن الحائط. وفى الممر غير الواسع اقتربت منّى أكثر فأكثر وكنت أمامها. قالت لى:

– تزينو، أنت بحاجة إلى امرأة تريد أن تعيش من أجلك وترعاك. أود أن أكون هذه المرأة.

مدت إلىّ يدها الممتلئة التى لثمتها فى حركة شبه عفْوية. من المعروف أنه ما كان هناك بديل لذلك. ثم إنه علىّ أن أعترف بأنه تملكنى فى تلك اللحظة شعور بالرضا أثلج صدرى. لم يكن علىّ أن أحل شيئًا؛ لأن كل شيء أصبح محلولاً. هذه كانت المصارحة الحقة.

وعلى هذا النحو تمت خطبتي. وعلى الفور احتفلوا بنا احتفالاً كبيراً. كان نجاحي يشبه النجاح الكبير الذى حققه جويدو بعزفه على الكمان، وكان الجميع يصفقون تصفيقًا حاداً. قبلنى چوڤانى وعلى الفور خاطبنى بصورة ودية. وبتعبير يفيض بالحنو قال لى:

– كنت أشعر أننى أب لك منذ وقت بعيد، منذ أن بدأت أعطيك نصائح لتجارتك.

مدت حماتى المقبلة هى الأخرى وجنتها فقبلتها. ولم تكن لتفوتنى تلك القبلة حتى ولو تزوجت آدا.

- أترى كيف صدقت توقعاتى فى كل شىء، قالت لى بطلاقة مذهلة، ولم تنل جزاءها مثلى؛ ذلك لأننى لم أعرف ولم أرغب فى أن أعارضها.

ثم احتضنت أوجوستا وظهرت عظمة حبها الكبير فى نحيب أفلت رغمًا عنها، وقطع كل مظاهر الفرحة التى كانت تبدو عليها. لم أكن أطيق السيدة مالفنتى، لكن كى أكون نزيهًا فإن نحيبها ذاك أسبغ، على الأقل طوال تلك الليلة، على حفل خطوبتى بريقًا من الجاذبية والأهمية.

صافحتنى ألبرتا، بوجهها المشرق:

- أتمنى أن أصبح أختًا طيبةً لك. وقالت آدا:

- أحسنت، يا تزينو! ثم، بصوت خافض:- ليكن هذا معلومًا لديك: ما من رجل يظن أنه قام بعمل شىء باندفاع، وتصرف أكثر منك حكمة.

فاجأنى جويدو مفاجأة كبيرة:

- منذ هذا الصباح وقد أدركت أنكم ترغبون فى إحدى بنات السيدة مالفنتى، لكنى لم أتوصل لمعرفة من منهن.

لم يكونا إذن على علاقة حميمة؛ إذ لم تحدثه آدا عن حبى لها! أحقًا تصرفت باندفاع؟

غير أنه بعد قليل، قالت لي آدا أيضاً:

- أود أن تحبني حب الأخ. ليُمْح ما عدا ذلك من الذاكرة: لن أخبر جويدو بشيء على الإطلاق.

وما هو جميل، فضلاً عن ذلك، هو أنّي أشعت مظاهر الفرحة الغامرة في عائلة بأسرها. وما كان باستطاعتي التمتع بها كثيراً؛ ذلك فقط لأني كنت متعبًا للغاية. وغلبني النعاس أيضًا وهذا يدل على أنني تصرفت بفطنة واعية. وتوسمت في ليلتي أن تكون هادئة.

حول مائدة العشاء جلسنا أنا وأوجوستا صامتين أمام الاحتفالات التي أعدت لنا. شعرَت بالحاجة إلى طلب المعذرة لعدم قدرتها على المشاركة في محادثة الجمع:

- لا أدري ما أقول. عليكم أن تتذكروا أنني، من نصف ساعة مضت، كنت لا أعرف ما الذي يوشك أن يحدث لي.

كانت بالتأكيد تقول الحقيقة الواقعة. وجدت نفسها ما بين الضحك والبكاء، ونظرت إليّ. وددت أن ألاطفها أنا أيضًا بعيني، ولا أدري إن كنت قد نجحت في ذلك.

في تلك الليلة ذاتها أصابني ضرر آخر حول تلك المائدة. أصبت بجرح أحدثه لي جويدو بالتحديد.

يبدو أنه قبل وصولي بقليل للمشاركة في جلسة الأرواح، كان جويدو قد قص عليهم أني أعلمته في الصباح بأنّي ليست شخصاً شارد الذهن.

فأعطوه مبـاشرةً دلائل كثـيرة على كذبى، وكى يثـأر لنفسه، (أو ربما لكى يطلعهم على تمكنه من الرسم)، رسم لى صورتين بأسلوب الكاريكاتير. صورنى فى الأولى، وأنفى لأعلى، وأعتمد على مظلة راكزة فى الأرض. أما فى الثانية فرسم المظلة مكسورة ومقبضـها نافذ فى ظهرى. حققت الصورتان الهزليتان الهدف، وأضحكتا الجميع بوسيلة سهلة متواضعة رامية إلى أن الشخص الذى كان من المفترض أن يمثلنى - حقيقة لم يشبهنى البتة، وإنما كانت تميزه رأس صلعها ممتد - ظهر مطابقًا فى الرسم الأول والثانى، وعلى هذا النحو كان من السهل تصوره شارداً للدرجة التى لم يغير معها ملامحه؛ لأن مظلة اخترقت جسده.

ضحك الجميع كثيراً، بل أكثر مما ينبغى. آلمتنى بشدة تلك المحاولة التى نجحت نجاحًا كبيراً فى السخرية منّى. وحدث حينئذ أنه للمرة الأولى يتسلط علىّ ألم مبرِّح. فى تلك الأمسية شعرت بألم فى ساعدى وفخذى. كان احتقانًا حاداً، إحساس بخدر فى الأعصاب كأنه إنذار بتصلب. انتابتنى الدهشة فوضعت يدى اليمنى على فخذى وقبضت باليسرى على ساعدى المصاب. سألتنى أوجوستا:

- ماذا بك؟

أجبتها بأنى أشعر بألم فى مكان الرضوض التى أصبت بها عند سقوطى فى المقهى، مما كنا قد تطرقنا فى الحديث عنه أيضًا فى الأمسية نفسها.

اجتهدت على الفور فى محاولة للتخلص من ذلك الألم. بدا لى أنى سأبرأ منه إذا ما أخذت بثأرى من تلك الإهانة التى وجهت لى. طلبت ورقة وقلمًا وحاولت أن أرسم شخصًا يقاسى الضغط وقد انقلبت فوقه منضدة. ثم وضعت بجواره عصا أفلتت من يده فى أعقاب الكارثة. لم يتعرف أحد على العصا؛ لذا لم تلق الإهانة النجاح الذى ابتغيته. ولكى يتم التعارف على ذلك الشخص فيما بعد وكيف وقع في هذا الموقف، كتبت تحت الرسم: «جويدو سبيير فى صراع مع المنضدة». غير أنه لا ترى سوى ساقي ذلك الشقي من تحت المنضدة، اللتين كانتا ربما تشبهان ساقي جويدو، لو لم أشوهما عن قصد، ولم تتدخل روح الثأر لتزيد الرسم رداءة وهو ما كان حقيقة صبيانيًا للغاية في مستواه.

دفعني الألم المستمر للعمل بسرعة كبيرة. أبدًا لم تَجْتَحْ جسدى المسكين مثل هذه الرغبة فى الإيذاء؛ ولو أمسكت بيدى سيفًا مكان القلم الذى لم أكن أتقن تحريكه، ربما لاقى علاجى نجاحًا.

ضحك جويدو وبصدق من رسمى، لكنه بعد ذلك أبدى ملاحظته بهدوء قائلاً:

– لا يبدو لى أن المنضدة آذتنى!

حقًا لم تصبه المنضدة بأذى، وهذا هو الظلم الذى كان يؤلمنى.

أخذت آدا الصورتين اللتين رسمهما جويدو، وقالت إنها ترغب فى الاحتفاظ بهما. نظرت إليها كى أعبر لها عن استيائى، واضطررت

لإبعاد نظرها عنّي. كان لدي الحق في توجيه اللوم لها؛ لأنها كانت تزيد من آلامي.

وجدت في أوجوستا نصيرًا لي. أرادت أن تكتب تحت الصورة التي رسمتها تاريخ خطوبتنا حرصًا منها على الاحتفاظ أيضًا بذلك الرسم الرديء. اندفعت موجة دم ساخن تغمر عروقي حيال لمحة الحنان تلك التي سلمت للمرة الأولى بأنها بالغة الأهمية بالنسبة لي. وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف الألم، وجال بخاطري أنه لو قامت آدا بلفتة الحب هذه، لدفعت في عروقي دفق ذلك الدم الساخن حتى يخلص أعصابي من جميع النفايات التي تراكمت بها.

لم يفارقني هذا الألم قط. الآن، وقد تقدم بي السن، أعاني منه بصورة أقل؛ لأنه عندما يهاجمني، أتحمله دون كدر: «آه! أأنت هنا، دليل واضح على أنني كنت شابًا؟». لكنه كان في فترة شبابي شيئًا آخر. لا أقول إنه كان مبرحًا، على الرغم من أنه كان في بعض الأحيان يعوق حريتي في الحركة أو يبقيني يقظًا ليالي طوالا. لكنه شغل جزءًا كبيرًا في حياتي. كنت أرغب في الشفاء منه! لماذا كان عليّ أن أحمل على جسدي طوال حياتي علامة المهزوم؟ أن يصل الأمر لأن أصبح الأثر المتجول الشاهد على انتصار جويدو؟ كان لابد من القضاء على هذا الألم في جسدي.

وعلى هذا النحو أخذ العلاج مجراه. لكن، بعد ذلك مباشرةً، نسيت السبب الذي أدى للمرض، حتى إنني ما كنت لأعثر عليه في سهولة

وقتذاك. لم تكن المسألة غير ذلك: كانت لدى ثقة كبيرة بالأطباء الذين كانوا يعالجوننى وصدقتهم عندما أرجعوا تلك الآلام تارة إلى عملية التمثيل الغذائى، وتارة أخرى إلى خلل بالدورة الدموية، ثم إلى الإصابة بالدرن أو إلى أنواع من العدوى كان أحدها مخجلاً. ومن ثم لكى أكون صادقًا فإن كل أنواع العلاج أتاحت لى شيئًا من الراحة المؤقتة، مما كان يدفعنى فى كل مرة إلى الظن بأن التشخيص المحتمل الجديد سوف يكون مؤكداً. ثم طالت المدة أو قصرت كان يتضح أنه لم يكن بالدقة الكافية، لكنه لم يكن مخطئًا تمامًا؛ حيث إنه ليست لدى بجسمى وظيفة تعمل بشكل سليم تمامًا.

حدث خطأ حقيقى مرة واحدة فقط: وقعت بين يدى رجل أشبه بالأطباء البيطريين، صمم لفترة طويلة أن يهاجم عرق النسا بعقاقيره المصرّفة[1]، وانتهى الأمر إلى أن استخفت آلامى به فقفزت فجأة، فى أثناء إحدى الجلسات، من الفخذ إلى العنق، مما لم تكن له أية علاقة بعرق النسا. اشتد حنقَ ذاك الجراح وأخذنى إلى الباب فانصرفت - أتذكره تمامًا - لم أشعر بالإهانة على وجه الإطلاق، بل تأخذنى الدهشة من أن الألم لم يتغير مطلقًا فى المكان الجديد. ظل ثائرًا ومنيعًا، كما كان عندما أخذ يؤلم فخذى. شىء عجيب أن يشعر كل جزء فى جسمنا البشرى بالألم بالطريقة نفسها.

---

(١) من شأنها أن تحول الدم من جزء إلى آخر فى الجسم.

أما ما تم تشخيصه من علل أخرى فهو يعيش بصورة دقيقة في جسدي ويتعارك فيما بينه للفوز بالأولوية. هناك أيام أعيشها لمرض النقرس وأخرى يتم فيها قتله، أي أبرأ منه، بفعل التهاب الأوردة. لدى أدراج ممتلئة بالأدوية، وهي الوحيدة التي أحرص على ترتيبها بنفسي. أحب أدويتي وأعلم أنني إذا تركت واحداً منها، فسأعود إليه إن عاجلاً أو آجلاً؛ ومن ثم فلا أظن أنني أهدرت وقتي. من سوف يدري كم من الوقت مضى وبأي مرض كنت سأموت، لو لم تكشف آلامي عن تلك الأمراض جميعها في الوقت المناسب، وتدفعني لعلاجها قبل أن تفترسني.

إنّي أعرف متى شعرت بهذا الألم لأول مرة، لكن دون مقدرة منّي على الدخول في طبيعته. كان يرجع إلى ذلك الرسم بالتحديد الذي كان أفضل كثيراً من الصورة التي رسمتها. وكانت القطرة التي أفاضت الوعاء! أنا على يقين من أني لم أشعر قط بهذا الألم من قبل. أردت أن أشرح طبيعته لأحد الأطباء، لكنه لم يدرك ما أقوله. من يدري؟ ربما يكشف التحليل النفسي عن كل ذلك الاضطراب الذي عاني جسدي منه في تلك الأيام، وخاصةً في تلك الساعات القلائل التي مرت بعد حفل خطوبتي.

بل لم تكن قط قليلة، تلك الساعات!

في ساعة متأخرة، عندما انفضت الصحبة، قالت لي أوجوستا وهي سعيدة:

- إلى اللقاء في الغد!

سرتني دعوتها؛ حيث إنها الدليل على بلوغ غايتي، وأن شيئًا لم ينتهِ، وسوف يستأنف كل شيء في اليوم التالي. حدقت في عيني ووجدت عيني تومئان لها حتى ترضيها. هبطت درجات السُّلم التي لم أعد أحصيها، وأخذت أتساءل:

– من يدري هل أحبها؟

ظل هذا الشك يصاحبني طوال حياتي، واليوم أستطيع أن أرى أن الحب الذي يشوبه ارتياب كبير هو الحب الحقيقي.

غير أني بعد أن غادرت ذلك المنزل، لم تسنح كذلك لي الفرصة كي أعود إلى فراشي وأجني ثمرة جهدي طوال تلك الأمسية في نعاس عميق مجدد للنشاط. كان الجو حارا. شعر جويدو بالحاجة إلى تناول الچيلاتي، ودعاني لمرافقته في مقهي. تعلق في ود بذراعي وساندته، على نحو مماثل من المودة. كان شخصية بالغة الأهمية بالنسبة لي وما كنت أتوانى في طلب له. إن إرهاقي الشديد الذي كان لابد أن يدفعني إلى الفراش، جعلني أكثر استسلامًا عن المألوف.

دخلنا بالفعل إلى المقهى، حيث نقل لي المسكين توليو عدوى مرضه، وجلسنا إلى منضدة منعزلة. على الطريق عذبني ألمي كثيراً، هذا الألم الذي لم أكن أدرك بعد أي صنف من الأصدقاء الأمناء يكون، وللحظات قليلة، ظننت أنه يخف حتى تمكنت من الجلوس.

كانت صحبة جويدو مزعجة حقًا. كان يستفسر بفضول كبير عن قصة حبي لأوجوستا. هل كان يساوره الشك في أني أخدعها؟ قال لي دون مواراة إنّي عشقت أوجوستا منذ الوهلة الأولى ما إن زرت منزل مالفنتي. جعلني ألمي ثرثارًا، حتى إنني وددت أن أصيح بصوت أعلى منه. ومع ذلك تحدثت كثيرًا، ولو كان جويدو أكثر يقظة لأدرك أنني لم أكن مغرمًا بأوجوستا على هذا النحو. تحدثت عن أكثر أجزاء جسم أوجوستا إثارة للاهتمام، أي تلك العين المصابة بالحول التي توهم خطأً بأن الأجزاء الأخرى في جسدها ليست كذلك في مكانها الصحيح. ثم أردت أن أشرح له لمَ لم أتقدم قبل ذلك. فربما أصابته الدهشة عند رؤيتي في ذلك المنزل في اللحظة الأخيرة لكي أطلب الزواج. صحت:

– على كلٍّ فإن بنات السيد مالفنتي اعتدن حياة الترف الزائد، ولم أكن أعرف إن كانت ظروفي تسمح لي بمثل هذه المسئولية.ساءني أني على هذا النحو أتحدث أيضًا عن آدا ، لكن لم يعد أمامي ما أعالج به ذلك؛ كان في غاية الصعوبة أن أفصل أوجوستا عن آدا! واصلت كلامي في صوت خافت حتى أتحكم فيما أقول بصورة أفضل:

– لذا كان عليّ أن أعيد حساباتي. رأيت أن أموالي لا تكفي. وعلى ذلك أخذت أدرس إمكانية توسيع تجارتي...

ثم أضفت أنني كنت بحاجة، كي أعيد حساباتي، إلى كثير من الوقت؛ ولهذا امتنعت عن زيارة آل مالفنتي لخمسة أيام. وأخيرًا وصل

لساني الذي استرسل في الحديث إلى شيء من الصدق. كدت أذرف دمعي وهمست، وضغطت على فخذي:

- خمسة أيام طوال!

قال جويدو إنه سعيد؛ لأنه اكتشف في شخصي إنسانًا حريصًا.

أبديت ملاحظتي بحدة قائلاً:

- الإنسان الواعي ليس محبوبًا أكثر من الطائش!

ضحك جويدو:

- غريب أن يشعر الشخص الحريص بالحاجة إلى الدفاع عن الطائش!

ثم أخبرني في اقتضاب، دون أية مقاطعة أخرى، أنه ينوي طلب الزواج من آدا. هل أتى بي إلى ذلك المقهى ليكشف لي عن ذلك الاعتراف أم أصابه السأم من واجب الاستماع إليّ وأنا أتحدث عن نفسي لفترة طال وقتها، فأراد أن يأخذ بثأره؟

كدت أتأكد من نجاحي في إظهار دهشتي وسروري البالغين. لكن بعدها مباشرةً عثرت على طريقة أؤلمه بها ألمًا شديداً:

- فهمت الآن لما أعجبت آدا كثيراً بذلك الباخ المختلف بتلك الصورة! كان عزفًا جيداً، لكن الثمانية[1] يمنعون التشوية في بعض المواضع.

---

(١) ربما يشير الكاتب هنا إلى الساده الحضور من أفراد عائلة مالفنتي، أو إلى نظام الأمن في مدينة فلورنسا في القرن الرابع عشر.

كانت الضربة قاسية فاحمرَّ وجه جويدو من الألم. كان معتدلاً في رده؛ لأنه كان في تلك اللحظة يفتقد إلى مؤازرة جمهوره الصغير المتحمس له.

- يا إلهي! - بدأ حديثه لكسب الوقت - أحيانًا ينساق المرء وراء مزاجه وهو يقوم بالعزف. في تلك الغرفة كان القليل منهم يعرفون باخ، وقمت بعرضه عليهم بصورة محدثة بعض الشيء.

بدا راضيًا عما وجد من تبرير، أما أنا فكان شعوري بالارتياح مماثلاً؛ لأني لمست فيه اعتذارًا وإذعانا.

كان ذلك كافيًا لتهدئة روع نفسي، وفوق ذلك، لم أكن لأرغب بأية حال من الأحوال في أن أتنازع مع زوج آدا المقبل. صارحته بأنني نادرًا ما استمعت إلى هاوٍ يعزف بهذه الدرجة من الجودة.

لم يكفه ذلك: أبدى رأيه أنه من الممكن اعتباره هاويًا، ليس إلا لأنه لا يقبل أن يظهر للناس كصاحب مهنة.

ألم يكن يرغب في شيء آخر؟ وافقته في الرأي. كان من الواضح أنه لا يمكن أن يُعتبر هاويًا من الهواة.

وهكذا عدنا من جديد صديقين مخلصين.

ثم، فجأة، أخذ يتحدث عن النساء بسوء. أصابتني الدهشة! الآن وأنا أعرفه أكثر، أعرف أنه ينطلق في الحديث باستفاضة في كافة الاتجاهات عندما يتأكد أنه يعجب من يتحدث إليه. كنت قد بدأت الحديث،

منذ قليل، عن الحياة المترفة التى كانت تعيشها بنات السيد مالفنتى، فاستأنف هو الحديث عن ذلك حتى انتهى بذكر كل الصفات الأخرى السيئة فى النساء. كان إرهاقى يمنعنى من مقاطعته واكتفيت بإشارات مستمرة بالموافقة، وأحسستها شاقة للغاية. وإلاَّ، عارضته دون شك. أعلم أنه يحق لى الحديث بسوء عن النساء اللاتى يتمثلن بالنسبة لى فى آدا، وأوجوستا وحماتى المقبلة؛ أما هو فلم يكن لديه أدنى حق فى الهجوم على الجنس الناعم المتمثل له فى أدا وحدها، التى كان مغرمًا بها.

كان على درجة عالية من الثقافة، وعلى الرغم من إرهاقى أخذت أصغى إليه بإعجاب. اكتشفت بعد فترة طويلة أنه اعتنق الأفكار العبقرية التى خلفها الشاب المنتحر وينينچر[1]. شعرت حينئذ أننى تحت طائلة باخ آخر. حتى إنه راودنى الشك فى أنه يرغب فى معالجتى. وإلاَّ لحاول أن يقنعنى بأن المرأة لا تستطيع أن تكون نابغة ولا طيبة؟ رأيت أن العلاج لم يفلح؛ لأن من جرعه لى كان جويدو. لكننى حفظت تلك النظريات، وأتقنت معرفتها بقراء تيلوينينچر. غير أنها لا تؤدى أبدًا إلى الشفاء، ولكنها رفقة تبعث بالراحة عندما يسعى المرء وراء النساء.

بعد أن انتهى من تناول الچيلاتى، شعر جويدو بالحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق، ودفعنى إلى صحبته فى نزهة تجاه ضواحى المدينة.

---

(١) أوتو وينينچر (١٨٨٠-١٩٠٣) من أصل يهودى، مؤلف نمساوى. له كتاب مشهور عنوانه "الجنس والطابع". مات منتحرًا فى شبابه.

أتذكر: منذ أيام كنا نتلهف، في المدينة، إلى قليل من المطر نأمل به أن يخفف من وطأة الجو الحار الذى أتى قبل أوانه. إنى لم أشعر مطلقًا بذلك الحر. فى تلك الليلة بدأت السماء تغشيها سحب خفيفة، بيضاء، من تلك التى ينتظر بها العامة هطول المطر الغزير، لكن قمرًا كبيرًا أخذ يتقدم فى السماء شديدة الزرقة أينما كانت صافية، قمر من تلك الأقمار ذات الوجنات الممتلئة التى يعتقد أيضًا العامة أنها قادرة على التهام السحب. كان بالفعل واضحًا أنه هناك حيثما يصل، كان يذيب ويصفى.

أردت أن أقاطع ثرثرة جويدو التى كانت تجبرنى على الإيماء المستمر بالموافقة، وكان عذابًا لى، فأخذت أصف له القبلة التى اكتشفها الشاعر تزامبونى[1] فى وجه القمر: كم كانت حلوة تلك القبلة فى قلب ليالينا، مقارنةً بالظلم الذى أخذ جويدو يرتكبه فى حقى! فى أثناء حديثى وانحناءات رأسى من النعاس وقد غلبنى من كثرة إيماءاتى بالتصديق على ما يقوله، ظننت أن آلامى تخف. وكانت الجائزة التى أستحقها لأنّى قاومت فتمسكت بها.

كان على جويدو أن يساير الموقف ليدع النساء وشأنهن للحظات ويتأمل السماء. لكن لدقائق معدودة! ما إن اكتشف، فى أعقاب إرشاداتى،

---

(١) فيليبّو تزامبونى (١٨٢٦–١٩١٠)، شاعر ومؤلف مسرحى بمدينة تريستى.

صورة امرأة شاحبة فى وجه القمر، حتى عاد إلى حديثه وهو يمزح، وضحك على ما قاله بصوتٍ عالٍ، لكنه ضحك وحده، بالطريق الخالى:

- ترى أشياء كثيرة تلك المرأة! خسارة ألاّ تستطيع تذكرها لكونها امرأة.

كانت إحدى نظرياته (أو نظريات وينينجر) أن المرأة لا يمكنها أن تبلغ درجة النبوغ؛ لأنها لا تملك الذاكرة.

وصلنا عند حافة شارع بيلڤديرى. قال جويدو إن قليلاً من السير فى الطريق الصاعد مفيد لنا. ووافقته أيضًا هذه المرة. هناك بأعلى، وبحركة تتواءم أكثر مع الفتيان الصغار، استلقى على السور المنخفض الذى كان يحمى الشارع من الجانب المطل على الشارع الآخر بأسفل. ظن أنه يقوم بحركة جريئة وهو يعرض نفسه للسقوط من ارتفاع مسافة عشرة أمتار. شعرت فى بادئ الأمر بالرجفة المعتادة عندما رأيته يتعرض لخطر كبير كهذا، لكن بعدها تذكرت النظام الذى ابتدعته فى تلك الأمسية ذاتها، فى انطلاقة ارتجال، ولكى أتخلص من ذلك القلق تمنيت له وفى حرارة أن يسقط.

واصل إرشاداته ضد النساء وهو على ذلك الوضع. كان يقول حينذاك إنهن بحاجة إلى لعب كالأطفال، على أن تكون باهظة الثمن. تذكرت أن آدا كانت تعشق الجواهر كثيراً. هل كانت هى إذن التى يتحدث عنها؟ خطرت حينئذ ببالى فكرة مروعة! لماذا كنت أتوانى عن

دفعه للقيام بقفزة الأمتار العشرة تلك؟ أما كان من العدل أن أقضي على من سلب منّي آدا دون أن يحبها؟ في تلك اللحظة كان يبدو لي أنني لو قتلته، لأسرعت إلى آدا لأنال منها جائزتي على الفور. في تلك الليلة العجيبة بضوئها الغامر هيئ لي أنها تسمع كيف يسيء جويدو إلى سمعتها.

يجب أن أعترف بأني تهيأت في تلك اللحظة حقيقةً لقتل جويدو! كنت واقفًا بجواره وهو مُسْتَرْخٍ على السور المنخفض، وأخذت أتفحص في برود كيف يلزم أن أمسك به، حتى أكون واثقًا من نجاح ما أفعله. ثم اكتشفت أنني لست في حاجة إلى الإمساك به على الإطلاق. كان يرقد وذراعاه متشابكتان تحت رأسه، وتكفي دفعة قوية مفاجئة لتفقده توازنه دون خلاص.

خطرت ببالي فكرة أخرى بدت لي هامة للغاية، حتى يمكن مقارنتها بالقمر العظيم الذي كان يسبح في السماء وهو يبدد السحب: لقد قبلت أن أخطب أوجوستا كي أضمن خلودي للنوم تلك الليلة. كيف كان لي أن يغمض جفناي لو قتلت جويدو؟ كانت هذه الفكرة هي النجاة لي وله. في الحال وددت أن أترك ذلك الوضع الذي كنت أسيطر فيه على جويدو ويغريني بالقيام بتلك الفعلة. انحنيت على ركبتي، وارتميت وكدت ألمس الأرض برأسي:

– ياله من ألم، يا للألم! صرخت.

ارتاع جويدو، قفز على قدميه ليسألنى عما ألمّ بى. واصلت التأوّه بصوت أهدأ دون إجابة. كنت على علم بما أشكو منه: لأنّى أردت قتله وربما، أيضًا، لأنّى لم أتمكن من ذلك. كان الألم والأنين يعفوان عن كل شيء. أعتقد أنّى كنت أصرخ بأنّى لم أكن أرغب فى قتل جويدو، كما هيئ لى أنّى صرخت بأنه لا ذنب لى إن لم أستطع القيام بذلك. كان الذنب ذنب مرضى وآلامى. إلا أنّى أذكر أنه فى تلك اللحظة بعينها اختفى الألم تمامًا، وبقيت تأوهاتى مجرد تمثيلية. حاولت عبثًا أن أضيف لها مضمونًا بأن أستحضر الألم وأستعيد شكله؛ لكى أشعر به وأعانى منه. لكن الجهد الذى بذلته كان عبثًا؛ لأن الألم لم يعد إلا حينما أراد.

وكالمعتاد أخذ جويدو يبحث فى اتجاه الافتراضات؛ لذلك سألنى إذا كان الأمر له علاقة بالألم نفسه الذى تسبب فيه سقوطى فى المقهى. وجدت الفكرة جيدة ووافقته عليها.

أمسك بذراعى، وبمحبة صادقة، أنهضنى. ثم أنزلنى المنحدر الصغير، وهو لا يزال يسندنى بحرص شديد. عندما هبطنا إلى أسفل، أخبرته بأنّى أشعر بشيء من التحسن، وأنّى اعتقدت بأننى سأتمكن من السير بصورة أسرع وأنا مرتكز عليه. وهكذا تهيأت للذهاب أخيرًا إلى مخدعى! ثم إنه كان أول شعور حقيقى وعظيم بالرضا يمنح لى فى ذلك اليوم. كان يعمل من أجلى؛ لأنه كاد أن يحملنى. كنت أنا الذى أفرض عليه إرادتى فى نهاية الأمر.

وجدنا صيدلية كانت لا تزال مفتوحة، وخطرت بباله فكرة أن يرسلنى إلى الفراش ومعى دواء مهدئ. بنى نظرية تدور كلها حول الألم والشعور المفرط به: رأى أنه يتضاعف أى ألم من جراء المبالغة التى أدى إليها هو ذاته. بدأت مجموعة أدويتى بتلك الزجاجة، وصح أن تكون من اختيار جويدو.

لكى يعطى أساسًا راسخًا لنظريته، افترض أننى كنت أعانى من ذلك الألم منذ عدة أيام. أسفت لعدم استطاعتى موافقته. شرحت له أننى فى تلك الليلة، لم أشعر بأى ألم فى منزل مالفنتى. من المفهوم أنه فى اللحظة التى أتيح لى فيها تحقيق حلمى البعيد، ما كان يمكن أن أتألم.

صراحة، أردت بالفعل أن أكون مثلما أكدته من قبل وقلته لنفسى مرات عديدة: "أحب أوجوستا، لا أحب آدا. أحب أوجوستا، وفى تلك الأمسية نجحت فى تحقيق حلمى البعيد".

وهكذا أخذنا نسير فى تلك الليلة المقمرة وأعتقد أن جويدو كان متعبًا من ثقلى؛ لأنه عقد لسانه أخيرًا. لكنه عرض علىّ أن يرافقنى حتى الفراش. رفضت وعندما سنحت لى الفرصة أن أوصد باب المنزل ورائى، تنفست الصُّعداء. لكن مما لا ريب فيه أن جويدو أيضًا احتاج لالتقاط النفس ذاته.

صعدت درجات سلَّم ڤيللتى أربعًا فأربعًا، وبعد عشر دقائق كنت فى فراشى. سرعان ما غلبنى النوم، وفى اللحظات القليلة التى تسبق النُّعاس،

لم أتذكر آدا ولا أوجوستا، بل جويدو وحده، وهو على هذا القدر من الوداعة والطيبة والصبر. لم أنس بلا شك، أننى قبل قليل كنت أريد قتله، لكن ذلك لم يكن له أية أهمية، فالأشياء التى لا يعلمها أحد، والتى لم تترك لها آثاراً، لا وجود لها.

توجهت فى اليوم التالى إلى منزل عروسى وأنا فى شىء من التردد. لم أكن على ثقة بأن ماقطعته على نفسى من التزامات فى الليلة السابقة له القيمة نفسها التى كنت أظن أنى أوليته إياها. اكتشفت أن لها قيمة لدى الجميع. وأوجوستا أيضًا كانت ترى نفسها عروسًا، بل بثقة أكبر مما كنت أعتقد.

كانت خطوبة مجهدة. أشعر بأنى قمت بحلها أكثر من مرة، وعدت إليها بصعوبة بالغة، وإنى أندهش لعدم ملاحظة أحد لذلك. لم أكن متأكداً قط من أنى مقدم على الزواج فى حد ذاته، لكن يبدو أننى تصرفت على الرغم من ذلك كالخطيب الذى يكن قدراً من الحب. كنت بالفعل أقبل أخت آدا وأضمها إلى صدرى فى كل مرة كانت تسنح لى الفرصة. كانت أوجوستا تتحمل اعتداءاتى، مثلما تعتقد أنه واجب على العروس، وكنت أتصرف بصورة لائقة نسبياً، فقط لأن السيدة مالفنتى لم تتركنا ننفرد ببعضنا سوى لحظات معدودة. كان قبح عروسى أقل بكثير مما كنت أتخيل، ومكمن جمالها العظيم اكتشفته وأنا أقبلها: احمرار وجهها! رأيت أنه أينما كنت أقبلها توقد شعلة إكرامًا لى فأخذت أقبلها بدافع فضول من يجرى تجربة أكثر من شغف العاشق.

لكن الرغبة لم تنقصنى ولطفت بعض الشىء من وطأة تلك الفترة العصيبة. الويل إذا لم تكن أوجوستا ووالدتها قد منعتانى من إيقاد تلك الشعلة دفعة واحدة كما كنت أرغب فى أغلب الأحيان. كيف كان يمكننى أن أواصل حياتى فى تلك الفترة؟ على أية حال هكذا استمرت تلك الرغبة فى إثارة القلق ذاته بداخلى على درجات سُلم ذلك المنزل، مثلما كنت أصعدها من قبل لكى أستميل آدا إلىّ. كانت تبشّرنى درجات السلم الفردية بأننى فى ذلك اليوم سأظهر لأوجوستا كيف تكون الخطوبة التى تمنتها. كنت أحلم بالقيام بفعل عنيف يعيد لى الإحساس كله بحريتى. ما كنت أرغب فى خلاف ذلك، والغريب أنه عندما أدركت أوجوستا ما كنت أريده، فسرته على أنه حَميَّة الحب.

تنقسم تلك الفترة فى ذاكرتى إلى مرحلتين. فى الأولى كانت السيدة مالفنتى غالبًا ما تراقبنا عن طريق ألبرتا، أو كانت تقحم معنا الصغيرة أنّا مع معلمتها فى حجرة الاستقبال. لم تنضم إلينا آدا قط فى ذلك الوقت بأى صورة من الصور، وكنت أقول فى نفسى إنه يجب أن أسعد لذلك، وعلى الرغم من ذلك أتذكر بصورة قاتمة تلك المرة التى فكرت فيها كم ستكون سعادتى كبيرة لو تمكنت من تقبيل أوجوستا فى حضور آدا. من يدرى بأى عنف كنت سأفعل ذلك.

تبدأ المرحلة الثانية عندما خطب جويدو آدا بطريقة رسمية والسيدة مالفنتى كامرأة متمرسة بطبيعتها، جمعت بيننا جميعًا فى الصالون نفسه كى يراقب بعضنا البعض.

أعرف أنه في الفترة الأولى كانت أوجوستا تقول في نفسها إنها راضية عنّي رضاءً تامًا. عندما كنت لا أنقض عليها، كنت أنخرط في الحديث بصورة تفوق العادة. كانت تلك اللباقة ضرورة من ضروراتي. وجدت فيها الوسيلة المناسبة وقد رسخت في رأسي فكرة أنه من الواجب أيضًا أن أقوم بتعليم أوجوستا، بما أنّي سأتزوجها. كنت أدرّبها على الوداعة والحب والإخلاص. لا أذكر بالضبط الشكل الذي كنت أصبغه على مواعظي التي ذكرتني هي بواحدة منها لم تنسها قط. كانت تنصت إليّ في انتباه وتواضع. وذات مرة، في أثناء حماسي في إلقاء تعاليمي، صرّحت بأنه إذا اكتشفت خيانة مني لها، سيكون لها الحق في أن تذيقني من الكأس نفسها. ثار سخطها، واحتجت بأنها لن تقدر على خيانتي، حتى وإن سمحت بذلك، وأنه لن يترتب، على خيانتي، سوى حريتها في البكاء.

أعتقد أن إرشاداتي تلك التي كان الهدف منها ما هو أبعد من الرغبة في الكلام، كان لها تأثير نافع على زواجي. بقي حقيقة أثرها في نفس أوجوستا. لم يوضع إخلاصها قط في التجربة لأنها لم تعلم قط شيئًا عن خياناتي، لكن حبها وعذوبتها لم يتغيرا طوال السنوات الطوال التي قضيناها معًا، ظلا بالضبط مثلما حملتها على الوعد بهما من ذي قبل.

عندما عقد جويدو النية، بدأت المرحلة الثانية لخطوبتي بعزم حددته على هذا النحو: «ها أنا ذا قد برئت من حبي لأدا!». اعتقدت حتى تلك

اللحظة أن احمرار وجه أوجوستا كان كافيًا لشفائي، لكن من الواضح أننا لا نبرأ أبدًا كما ينبغي! إن تذكر تلك الحمرة أدى إلى أن يخطر ببالي أنها ربما كانت أيضًا موجودة بين جويدو وآدا. وهذه الأخيرة، كانت تفضل بكثير تلك، في استطاعتها القضاء على أية رغبة تجتاحني.

وفي المرحلة الأولى يرجع اشتياقي إلى الاعتداء على أوجوستا. أما في المرحلة الثانية فقد كانت إثارتي أقل بكثير. لم تخطئ بلا شك السيدة مالفنتي، عندما رتبت مراقبتنا على تلك الصورة بما فيها من لحظات التشتيت التي كانت تتسبب فيها.

أذكر أنني ذات مرة كنت أمزح وأخذت أقبِّل أوجوستا. وبدلاً من أن يمزح جويدو معي، أخذ يقبل آدا هو الآخر. ورأيته يفتقر للحياء فيما فعل؛ لأنه كان لا يقبلها قبلة بريئة مثلما فعلت مراعاة لهما، كان يقبلها في فمها لدرجة أنه كان يمتصه. إنني على يقين من أنه في تلك الفترة كنت قد اعتدت على اعتبار آدا أختًا لي، لكني لم أكن مهيأً لأن أراها تستغل بهذا الأسلوب. وأشك أيضًا في أنه يروق لأخ حقيقي أن يرى أخته تعامل بمثل هذه الطريقة.

ولهذا، لم أقبل أوجوستا مرة أخرى في أثناء وجود جويدو. أما جويدو فقد حاول، في حضوري، أن يجذب إليه آدا ثانية، لكنها هي ذاتها التي تحاشته، ولم يعد المحاولة بعد ذلك.

وتختلط في ذهني ذكريات لأمسيات عديدة قضيناها معًا. فالمشهد الذي تكرر إلى ما لا نهاية، انطبع في ذاكرتي بهذا الشكل: كنا جالسين

نحن الأربعة حول المنضدة الفينتسية رفيعة الأناقة، وكان عليها مصباح كيروسين مضاء تلتف من حوله دائرة من نسيج أخضر اللون، يلقى بظله على كل شيء، إلا أعمال التطريز التى كانت تنشغل بها الأختان. كانت آدا تطرز منديلاً من الحرير يتدلى من يدها، وتمسك أوجوستا إطار شد صغيرًا للتطريز. وها أنا ذا أرى جويدو يتحمس فى الكلام ولعلنى كنت الوحيد الذى غالبًا ما أوافقه القول. ما زلت أتذكر رأس آدا بشعرها الأسود المموج تحت ذلك التأثير الغريب الذى أضفاه عليه الضوء الأصفر والأخضر.

دارت المناقشة حول ذلك الضوء وحول لون ذلك الشعر الحقيقى أيضًا. شرح لنا جويدو، وكان يتقن التصوير الزيتى أيضًا، الطريقة اللازمة لتحليل اللون. لم أنس مطلقًا درسه ومازلت إلى اليوم، عندما أريد أن أشعر بصورة أفضل بألوان منظر طبيعى، أفتح بالكاد عينى حتى تتلاشى خطوط كثيرة، ولا ترى سوى الأضواء وحدها التى تتحدد هى الأخرى فى اللون الحقيقى وحده. ولكن، عندما كنت أنشغل بتحليل مماثل وفيما يشبه ردة فعل خاصة بى، كان يعود، على شبكية عينى، وبعد الصورة الحقيقية مباشرةً، ذلك الضوء الأصفر والأخضر والشعر الداكن الذين علّمت بهم عينى أول مرة.

لا أستطيع نسيان أمسية من الأمسيات كانت لها أهمية خاصة بفضل تعبير عن غَيرة أبدتها أوجوستا، وتلاها مباشرةً أيضًا ما أنَّبت نفسى عليه من إفشاء للسر. على سبيل الضحك علينا، ذهب جويدو وآدا

ليجلسا بعيداً عنا، في الجانب الآخر من الصالون، بجوار منضدة من طراز لويس الرابع عشر، ومن ثم سرعان ما أصابني ألم بعنقي الذي كنت أستدير به لكي أتحدث معهما. فقالت لي أوجوستا:

- دعهما! يتبادلان حقًا هناك الحب.

قلت لها، دون أدنى تفكير، وبصوت خافت إنه لا ينبغي أن تظن ذلك؛ لأن جويدو لا يحب النساء. هكذا بدا لي أني أقدم اعتذاراً عن اقتحامي لحديث الحبيبين، في حين كانت عملية إفشاء سر دنيئة أن أخبر أوجوستا بالحديث عن النساء الذي استرسل فيه جويدو في صحبتي، لكنه لم يتم قط في حضور فرد آخر من عائلة عروسينا. إن ذكرى تلك الكلمات كدرت حياتي لأيام عديدة، وأستطيع القول بأني عندما أتذكر رغبتي في قتل جويدو لم أنزعج مطلقًا ولو لساعة. لكن القتل حتى ولو كان غدراً، هو عمل أكثر رجولة من إلحاق الأذى بصديق بإفشاء سره.

نعم لقد أخطأت أوجوستا في تلك اللحظة عندما شعرت بالغيرة من آدا. لم أكن أستدير بعنقي على تلك الصورة كي أنظر لآدا. كان جويدو يعينني، بطلاقة لسانه، على قضاء تلك الفترة الطويلة. كنت بالفعل أكنُّ له المودة وأمضي معه قسماً كبيراً من أيامي. كان يربطني أيضاً به عرفاني له بالجميل؛ لأنه كان يكن لي احتراماً ويظهره للآخرين. حتى آدا كانت في ذلك الوقت تستمع إليَّ باهتمام عندما أتحدث.

كنت كل مساء أنتظر بشيء من الشغف رنين "الجونج" ليدعونا للعشاء، وأتذكر على وجه الخصوص من تلك الدعوات ما يرتبط بها من سوء دائم للهضم. كنت أفرط فى تناول الطعام كى أبقى يقظًا. حول مائدة العشاء كنت أغرِق أوجوستا بكلمات الحب، بالقدر الذى كان يسمح لى به فمى الممتلئ، وما كان لدى والديها سوى انطباع واحد سيئ بأن حبى الكبير لها أضعفه التهامى المفرط للطعام. أدهشتهما المفاجأة أننى لم أستعِدْ شهيتى الكبيرة عند عودتى من شهر العسل. اختفت باختفاء حاجتى الملحة لإظهار رغبة لم أكن أشعر بها. لا يسمح بأى برود يظهر فى معاملة العروس أمام والديها فى أثناء الاستعداد للذهاب إلى الفراش معها! وأوجوستا تستعيد بذاكرتها خاصةً تلك الكلمات الحانية التى كنت أهمس بها فى أذنها حول تلك المائدة. بين لقمة وأخرى لابد وأنى ابتدعت كلمات رائعة وتنتابنى الآن الدهشة، عندما تُذكرنى بها؛ لأنها لا تبدو أنها صدرت منّى.

وصهرى نفسه، چوڤانى الداهية، خدع بذلك، فطوال حياته، عندما كان يريد إعطاء مثال لمشاعر حب فياضة، ظل يستشهد بحبى لابنته، أقصد أوجوستا. وبصفته أبًا كريمًا بطبيعته كان يبتسم من ذلك وهو سعيد، ومع ذلك كان يضيف بداخله شعورًا بالازدراء تجاهى؛ لأنه كان يرى، أنه ليس رجلاً حقًا من يضع مصيره بين يدى امرأة ومن لا يدرك قبل كل شىء أنه توجد فى هذا العالم نساء أخريات فضلاً عن امرأته. من هذا يتضح أنه لم يحكم علىّ دائمًا برأى منصف.

أما حماتي فلم تصدق حبي على الرغم من أن أوجوستا ذاتها كانت تسترسل بالحديث عنه في ثقة تامة.

ظلت تحدق في لسنوات طوال بعين تملؤها الريبة والشك، تجاه مصير ابنتها التي كانت تؤثرها؛ لهذا السبب أيضًا يرجع اقتناعي بأنه لابد أن قامت هي بقيادتي في الأيام التي أدت بي إلى الخطوبة. كان من المحال خداعها هي أيضا، وقد تعرفت بالتأكيد على نفسي أفضل من معرفتي أنا لذاتي.

وأخيراً جاء يوم زواجي، وفي ذلك اليوم بالذات انتابتني لحظة تردد أخيرة. كان عليّ أن أذهب إلى العروس في الثامنة صباحًا، وعلى العكس من ذلك، كنت ما أزال حتى الثامنة إلا ربعًا أرقد في مخدعي وأدخن في عصبية وأتأمل نافذة حجرتي تتلألأ عليها ضاحكة، أول شمس ظهرت في ذلك الشتاء. كنت أفكر في هجر أوجوستا! أخذ يتجلى أمامي ما بزواجي من عبث، بعد أن فقد البقاء إلى جوار آدا أهميته عندي. لو لم أحضر حسب ذلك الموعد لما حدثت أية أمور على هذا القدر! فضلاً عن ذلك: كانت أوجوستا عروسًا حانية، لكن لم يكن من الممكن قط التكهن بسلوكها في اليوم التالي للزفاف، وماذا لو اتهمتني على الفور بالحماقة لأنني استسلمت على هذا النحو؟

لحسن الحظ جاء جويدو، وأنا، رغمًا عن مقاومتي، اعتذرت عن تأخيري مؤكداً أنني كنت أظن أنه تم تحديد ساعة أخرى لحفل الزفاف. وبدلاً من توجيه اللوم لي، أخذ جويدو يتحدث عن نفسه وعن المرات

العديدة التى تخلف فيها، بسبب غفلة منه، عن بعض المواعيد. كان يرغب أيضًا فى التفوق علىّ فى مسألة شرود الذهن، وكان لابد ألاّ أنصت له حتى أتمكن من مغادرة البيت. وهكذا حدث أنى ذهبت إلى حفل الزفاف جريًا.

وعلى الرغم من ذلك وصلت متأخرًا أكثر مما ينبغى. لم يوبخنى أحد، وارتضى الجميع فيما عدا العروس ببعض الاعتذارات التى قدمها جويدو نيابة عنى. كانت أوجوستا شاحبة الوجه حتى إن شفتيها كانتا باهتتين. حتى وإن كنت لا أستطيع القول بأنّى أحبها، فمن المؤكد أننى لم أكن لأسبب لها أذى.

حاولت أن أصلح الموقف، وارتكبت حماقة أن أنسب تأخيرى إلى ثلاثة أسباب. كانت أكثر مما ينبغى وتحكى بوضوح شديد كل ما تأملته هناك فى فراشى، وأنا أنظر إلى شمس الشتاء، مما أخر ذهابنا إلى الكنيسة، وبالتالى إتاحة الوقت لأوجوستا لكى تستعيد حيويتها.

أمام مذبح الكنيسة قلت نعم وأنا شارد الذهن؛ لأنى من إشفاقى الشديد على أوجوستا أخذت أفكر فى تبرير رابع لتأخرى رأيته أفضلها.

على العكس، عندما خرجنا من الكنيسة، لاحظت أن أوجوستا استعادت حيويتها. أصابنى بشىء من السخط؛ لأن تلك الإجابة بنعم

التى نطقت بها ليست بالشىء الذى يضمن حبى لها فى المستقبل. كنت على استعداد لمعاملتها بغلظة شديدة إذا كانت استعادت رباطة جأشها، حتى تتهمنى بالحماقة لأنى تركت نفسى للانسياق على هذا النحو. على عكس ذلك، فى منزلها، انتهزت لحظة أن تركونا بمفردنا، كى تقول لى وهى تبكى:

- لن أنسى أبداً أنك، على الرغم من أنك لا تحبنى، تزوجتنى.

لم أبدِ اعتراضاً؛ لأن المسألة كانت واضحة بدرجة لا يمكن إنكارها. لكنى، تأثرت بشدة، وضممتها إلى صدرى.

بعد ذلك لم نتحدث قط أنا وأوجوستا عن تلك الأمور؛ لأن الزواج مسألة أيسر بكثير من الخطبة. بمجرد أن يتزوج الإنسان يكف عن الحديث عن الحب، وعندما يشعر بالحاجة إلى الحديث عنه، سرعان ما تتدخل الحيوانية لتعيد الصمت. ربما أصبحت هذه النزعة الحيوانية إنسانية حتى تتعقد وتتزيف وقد يحدث أن ينحنى المرء، على شعر امرأة وأن يبذل الجهد، فى استحضار ضوء فيه غير موجود. تغمض العينان وتصبح المرأة امرأة أخرى لتعود هى ذاتها ما إن تترك. ويوجه لها كل عرفان بالجميل ومزيداً منه إذا فلح هذا الجهد المبذول، ولهذا السبب إذا قدّر لى أن أولد مرة أخرى (الطبيعة الأم قادرة على كل شىء!) فقد أقبل الزواج بأوجوستا، ولكن ليس بأن أعدها بالالتزام.

في المحطة مدت آدا إليّ وجنتها للقبلة الأخوية. رأيتها فقط في تلك اللحظة، وقد كنت مشتتًا من وجود أناس كثيرين لرفقتنا، وخطر ببالي على الفور: «إنكِ أنتِ بالذات التي زججتِ بي في هذا الموقف!». دنوت بشفتي على وجنتها الناعمة حريصًا حتى على ألاّ أمسها. كان أول إرضاء لنفسي في ذلك اليوم، لأني لوهلة أحسست بمدى الفائدة التي جلبها لي زواجي: ثأرت لنفسي وأنا أرفض انتهاز الفرصة الوحيدة التي منحت لي لتقبيل آدا! ثم بينما كان القطار يقطع طريقه مسرعًا، وأنا جالس بجوار أوجوستا، ارتبت في أنّي لم أحسن التصرف. كنت أخشى أن تتحرج صداقتي مع جويدو. لكني كنت أتألم أكثر من ذلك عندما أفكر في أن آدا ربما لم تنتبه إلى أني لم أقبل وجنتها التي مدتها إليّ.

وقد تنبهت إلى ما فعلت، غير أني لم أعلم بذلك إلا عندما رحلت، هي الأخرى، بعد شهور عديدة، مع جويدو من محطة القطار ذاتها. قبلت الجميع. مدت إليّ أنا فقط يدها بمودة كبيرة. صافحتها في برود. وصل ثأرها متأخرًا تمامًا حيث تغيرت الظروف كاملاً. فمنذ عودتي من شهر العسل وقد نشأت بيننا علاقة أخوية، وما عاد هناك تفسير لاستبعادها لي من القبلة.

٦- زوجتى والعشيقة

كانت هناك فترات عديدة فى حياتى خلت فيها أنّى أخذت طريقى نحو الصحة والسعادة. لسكنّى ما أحسست قط بمثل هذا اليقين القوى، مثلما أحسسته فى الفترة التى استغرقتها رحلة شهر العسل وتلتها أسابيع بعد عودتنا إلى المنزل. بدأ ذلك الشعور باكتشاف أذهلنى: كنت أحب أوجوستا مثلما كانت مولَعة بى. فى بداية الأمر انتابنى الشك، غير أنّى كنت أتمتع بيومى، وأنتظر أن يليه آخر يحمل ملامح مختلفة. لكن الواحد كان يلى الآخر ويشبهه، يتلألأ، تغمره عذوبة أوجوستا - وتلك كانت المفاجأة - ورقتى أيضاً. فى كل صباح كنت ألمس فيها العاطفة الجياشة ذاتها ونفس التقدير الذى، إن لم يكن حباً، فهو يشبهه إلى حد كبير. من كان يمكنه أن يتوقع ذلك عندما كنت أتهافت على آدا وألبرتا لكى أصل فى النهاية إلى أوجوستا؟ اكتشفت أنّى لست أحمق متخبطاً يقوده الآخرون، بل رجل حكيم. وعندما رأتنى أوجوستا وقد بدت علىّ الدهشة، أخذت تقول:

- لكن لمَ تندهش؟ ألم تكن تدرى أن هذا هو الزواج؟ كنت أعلم بذلك على الرغم من أنّى على درجة كبيرة من الجهل مقارنة بك!

لم أعد أدرى إن كان قبل إحساسى بالحب أم بعده، أن تولّد بداخلى الأمل، ذلك الأمل الكبير فى أن أصبح مثل أوجوستا التى تجسدت الصحة فى شخصها. وفى أثناء فترة الخطبة لم أستشف تلك الصحة على الإطلاق، حيث كنت مستغرقًا فى تفحص نفسى فى المقام الأول ثم فى دراسة آدا وجويدو. إن مصباح الكيروسين فى حجرة الاستقبال تلك لم يصل قط إلى إلقاء الضوء على شعر أوجوستا الخفيف.

وناهيك عن احمرار وجهها خجلا! عندما اختفى بالسهولة ذاتها التى تختفى بها ألوان الفجر أمام ضوء الشمس الساطع. عبرت أوجوستا فى ثقة ذلك الطريق الذى عبرت فيه أخواتها من قبل على هذه الأرض، تلك الأخوات اللاتى يمكنهن أن يجدن كل شىء فى القانون وفى النظام، وإلا تنازلن عن كل شىء. كنت أحب، وأعشق تلك الثقة، على الرغم من أنّى كنت أعرف أن بها قصوراً؛ لأنها كانت تعتمد علىّ. كان لابد أن أجاريها على الأقل مثلما حدث عندما تعلق الأمر بتحضير الأرواح. ربما كان الأمر كذلك، كان هناك أيضا الإيمان بالحياة.

لكنها كانت تذهلنى؛ كان يتضح من كل كلمة تقولها، ومن كل تصرف منها أنها تؤمن حقا بالحياة الخالدة. هذا لا يعنى أنها قالت ذلك: اندهشت على العكس ذات مرة، حينما شعرت بالحاجة إلى أن أذكرها بقصر الحياة، وأنا الذى ما كنت أحب الأفكار الخاطئة قبل أن أحب أخطاءها. مطلقًا! كانت تدرك أنه لابد أن يموت الناس جميعهم، لكن هذا لا يمنع أننا ما إن صرنا زوجين، سنظل معًا، معًا على طول المدى.

كانت تجهل إذن أنه عندما يرتبط اثنان فى هذا العالم، وهذا يحدث فى فترة وجيزة، وجيزة للغاية، لا يدركان كيف توصلا إلى التخاطب بصيغة الأصدقاء بعد أن كانا غريبين لفترة مجهولة الحدود ويستعدان للفراق لفترة أخرى مجهولة الحدود. فهمت أخيراً ماهى صحة الإنسان السليمة عندما أدركت أن الحاضر بالنسبة لها حقيقة ملموسة، يستطيع الفرد أن يعيش بداخلها ويجد الدفء فيها. حاولت أن أكون مقبولا بها واجتهدت أن أقيم فيها، وقد عزمت ألا أستخف بنفسى وبها، حيث لم تكن هذه المحاولة سوى مرضى، وكان لابد على الأقل أن أتوخى الحذر حتى لا أصيب بالعدوى مَنْ وثق بى؛ ولهذا أيضا ، تمكنت لبعض الوقت من التحرك كإنسان سليم، وأن أبذل جهدى فى حمايتها.

كانت على دراية بجميع الأمور التى تبعث باليأس، لكنها كانت تغير طبيعتها فى يدها. حتى وإن كانت الأرض تدور فليس من الضرورة أن نشعر بدوار البحر! المسألة مختلفة تماماً: إن الأرض تدور، لكن الأشياء الأخرى جميعها تظل فى مكانها. وهذه الأشياء الثابتة كانت لها أهمية عظيمة: خاتم الزواج، الجواهر والملابس جميعها، الأخضر منها والأسود، الثوب الذى نرتديه للتنزه، ونضعه فى صوان الملابس عند عودتنا إلى المنزل وثوب المساء الذى ما كان يمكن ارتداؤه بأية حال من الأحوال نهاراً، ولا حتى عندما كنت لا أستسلم لارتداء الملابس الرسمية. ساعات الوجبات كانت محددة تحديداً صارماً وساعات النوم كذلك. كان لتلك الساعات وجود، وظلت دائما فى مكانها.

كانت تذهب يوم الأحد إلى القُدّاس، وكنت أصطحبها أحيانًا إلى هناك لكى أشاهد كيف كانت تتحمل صورة الألم والموت. لم يكن هناك وجود لتلك الصورة بالنسبة لها، وتلك الزيارة كانت تثير بداخلها صفاءً يبقى طوال الأسبوع. كانت تذهب إلى هناك أيضًا فى بعض أيام الأعياد التى كانت تحفظها بذاكرتها. ليس أكثر من هذا، فى حين لو كنت رجلاً متدينًا لكفلت لنفسى السعادة الكاملة، وأنا أقضى بالكنيسة طوال اليوم.

كان هناك أيضًا عالم من المراجع تحميها على وجه هذه الأرض. سواء السلطة النمساوية أو الإيطالية كانت تكفل الأمان فى الطرق والمنازل، وبذلت أنا على الدوام كل ما فى وسعى لكى أشارك أيضًا فى احترامها. فضلاً عن الأطباء الذين انتظموا بالدراسات لكى ينقذونا إذا ما - لا قدّر الله - هاجمتنا الأمراض. كنت أستفيد كل يوم من تلك المراجع: أما هى، على العكس منّى، لم تفعل ذلك قط. ولكنّى كنت لذلك أعرف مصيرى المروع إذا ما داهمنى مرض الموت، فى حين كانت تعتقد أنه ستكتب لها النجاة فى تلك اللحظة أيضًا، وهى ترتكز راسخة هنا وهناك.

إنّى أتفحص صحتها، لكنّى لا أفلح فى ذلك؛ لأننى أدرك أنه، فى أثناء عملية التحليل هذه، أحولها إلى مرض. ويراودنى الشك ، وأنا أكتب الآن عنها، إذا ما كانت تلك الصحة وقتئذ بحاجة إلى علاج أو إرشادات للشفاء، فى حين لم ينْتَبِه هذا الارتياب قط وأنا أعيش بجوارها لسنوات عديدة.

يا لها من أهمية نسبت إليّ في عالمها الصغير ذاك! كان عليّ أن أعبّر عن رغبتي في كل أمر، بالنسبة لاختيار الأطعمة والملابس، واختيار الأصدقاء والقراءات. كنت مرغمًا على القيام نشاط كبير لم يزعجني. كنت أتعاون في بناء أسرة يحكمها الأب وأصبحت أنا ذلك الأب الذي كرهته فيما سبق، وأصبح يبدو لي علامة من علامات الصحة. فالأمر يختلف تمامًا متى كان المرء رب أسرة، أو تحتم عليه تبجيل آخر استأثر بمثل هذه المكانة. كنت أريد الصحة لنفسي على حساب أن أحمل المرض على غير الآباء السادة، وخاصة في أثناء السفر حين طاب لي أن أتخذ أحيانا شكل تمثال الفارس.

لكن في أثناء الرحلة أيضا لم تيسر لي مواصلة المحاكاة التي عزمت عليها. كانت أوجوستا ترغب في مشاهدة كل شيء كأنما ذهبت في رحلة تعليمية. لم يكفِ قط أننا قمنا بزيارة قصر بيتّي[1]، بل كان ضروريًا أن نمر بالقاعات العديدة جميعها، ونتوقف ولو للحظات أمام كل لوحة فنية. رفضت أن أترك القاعة الأولى ولم أشاهد شيئًا بعدها، وأنا أجتهد فقط في البحث عن أسباب حالة خمولي. قضيت منتصف النهار أمام صور لمؤسسي بيت آل ميديتشي، واكتشفت أنه يوجد تشابه بينهم وبين كارنيتچ وڤاندربلت. شيء رائع! كانوا مع ذلك ينحدرون من أصولي نفسها!

---

(١) قصر بيتّي: هو أكبر قصر منذ عصر النهضة بمدينة فلورنسا، وهو قصر متاحف هامة ومجموعة مختارة من الأعمال الفنية.

لم تشاركنى أوجوستا فى انبهارى ذلك. كانت تعرف من هم اليانكين، لكن لم تعرف بعد جيداً من أكون. وأتت لحظة خارت فيها قواها، وكان عليها أن تتنازل عن زيارة المتاحف. قصصت عليها أنه ذات مرة وأنا باللوفر، أصابنى الضجر وسط كثرة الأعمال الفنية، حتى كدت أحطم تمثال ڤينوس. قالت أوجوستا فى استسلام:

– لا بأس، إننا نرى المتاحف فى أثناء رحلة الزفاف ثم لن يتكرر ذلك ثانية!

فى واقع الأمر ليست بالحياة رتابة المتاحف. تمر الأيام الجديرة بالتصوير داخل الأطر، لكنها تزخر بالأصوات التى تشد الآذان للسمع والخطوط والألوان العديدة فضلاً عن أضوائها الحقيقية، تلك الأضواء التى تلسع؛ ولذا لا تبعث بالملل.

تدفع الصحة إلى النشاط وإلى تحمل الكثير من الأشياء المزعجة. فبعد أن أغلقت المتاحف، بدأت عمليات الشراء. كانت أوجوستا تعرف ڤيللتنا أفضل منّى، وهى لم تقطن بها من قبل، وكانت تعرف أن حجرة من الحجرات تنقصها مرآة، وأنه لا توجد بأخرى سجادة، ويوجد بالثالثة مكان لموضع تمثال صغير. قامت بشراء أثاث غرفة الاستقبال جميعه، وكانت لنا من كل مدينة نقيم بها عملية الشحن على الأقل. كنت أرى أن عمليات الشراء بمدينة تريستى أنسب وأقل إزعاجًا. وها قد فرض علينا أن ننشغل بعمليات الشحن والضمان والإجراءات الجمركية.

– ألا تعلم أن البضائع جميعها يتم شحنها؟ ألست تاجراً؟ سألتنى وضحكت.

كان لديها بعض من الحق. عارضتها قائلاً:

– البضائع تشحن للبيع والربح! فيما عدا ذلك الهدف نتركها لحالها ونعيش فى سلام!

لكن أكثر صفة كنت أحبها فيها كانت روح المبادرة.

كانت تطيب لى روح المبادرة تلك وهى على ذلك النحو من السذاجة! ساذَجة لأنه ينبغى أن نكون جهلاء بتاريخ العالم؛ كى نعتقد أننا قمنا بصفقة عظيمة لمجرد قيامنا بعملية شراء لشىء من الأشياء: فعند البيع يتم تقدير عملية الشراء.

كنت أعتقد أنّى فى فترة نقاهة كاملة. فأمراضى أصبحت أقل إيلاما. ومنذ ذلك الحين أصبح سلوكى الثابت سلوكًا ينم على السرور. كان بمثابة التزام عاهدت به نفسى تجاه أوجوستا فى تلك الأيام المشهودة، وكان العهد الوحيد الذى لم أنقضه إلا لبضع لحظات، أى عندما استخفت الحياة بى بصورة أعنف. كانت عَلاقتنا باسمة وظلت كذلك لأنّى كنت أسخر منها، وظننتها لا تدرى وكانت تسخر هى منّى، وتعزو إلىّ العلم الوفير والأخطاء الكثيرة التى – حسبما كانت تنخدع – كان عليها إصلاحها. كنت فى الظاهر سعيداً، حتى عندما عاودنى المرض بشكل كامل. كنت سعيداً كما لو أننى كنت أشعر بالألم وكأنه الدغدغة.

فى أثناء الجولة الكبيرة عبر أنحاء إيطاليا، وعلى الرغم من الحالة الصحية الجديدة التى كنت عليها، لم أفلت من معاناة كثيرة. رحلنا دون خطابات توصية، وبدا لى، فى كثير من الأحيان، أن هناك أعداء وسط ذلك الجمع الغفير من الناس الغرباء، الذين نتحرك وسطهم. كان شعوراً بالخوف مثيراً للضحك، لكنّى لم أستطع التغلب عليه. الخوف من أن يهاجمنى أو يسبنى أحدهم أو يفترى علىّ، ومَنْ كنت سأحتمى به؟

كانت هناك أيضًا أزمة حقيقية نتجت عن ذلك الخوف الذى لم يعلم به أحد، لحسن الحظ، ولا حتى أوجوستا. كان من المعتاد أن آخذ جميع الجرائد تقريبًا التى يعرضونها علىّ فى الطريق. ذات يوم توقفت أمام عارضة بائع جرائد، وانتابنى الشك أنه، بواعز من الكره، كان يستطيع أن يعمل على أن يقبضوا علىّ بسهولة، كما لو كنت لصًا؛ لأنّى أخذت منه جريدة واحدة وحملت تحت ذراعى جرائد كثيرة اشتريتها من مكان آخر ولم أفتحها بعد. جريت بعيداً ومن ورائى أوجوستا التى لم أخبرها بسبب إسراعى بالمشى.

وطدت الصداقة مع سائق عربة ومرشد سياحى كنت فى مأمن فى صحبتهما من أن أتهم بسرقات سخيفة.

كانت بينى وبين السائق نقاط تلاقٍ واضحة. كان يحب كثيراً نبيذ منطقة كاستللى، وحكى لى أن قدميه كانتا تنتفخان من حين إلى آخر. ذهب حينئذ إلى المستشفى، وبعد أن تم شفاؤه، صرحوا له بالخروج مع توصيات كثيرة بالإقلاع عن شرب النبيذ. ولهذا عقد العزم على نية من

حديد، حسبما كان يقول، ولكي ينفذها، قام بربط عقدة في سلسة ساعة يده المعدنية. لكنني عندما تعرفت عليه، كانت السلسة تتدلى على سترته، دون أية عقدة. دعوته للمجيء معي إلى تريستي. وصفت له مذاق نبيذ مدينتنا، الذي يختلف كثيراً عن نبيذ مدينته، حتى أطمئنه إلى نتيجة علاجه الجذري. لكنه لم يبد اهتماماً، ورفض دعوتي ووجهه ترتسم عليه علامات الحنين إلى ما اعتاد عليه.

ارتبطت علاقتي بالدليل؛ لأنّي رأيته يفوق زملاءه. ليس من الصعب معرفة التاريخ بصورة أفضل من معرفتي به، وقد تحققت أوجوستا أيضاً بدقتها وبكتابها السياحي بيدكر من دقة الكثير من معلوماته. هذا بالإضافة إلى أنه كان شاباً، وكان السير معه حثيثاً عبر الطرق ذات التماثيل الكثيرة.

عندما فقدت هذين الصديقين، غادرت روما. بعد أن تحصل منّي سائق العربة على أموال كثيرة، أراني كيف أن النبيذ كان أيضاً يصيب رأسه في بعض الأحيان، وألقى بنا في مواجهة أثر روماني قوى البنيان. أما الدليل فقد أراد ذات يوم أن يزعم أن الرومان القدامى كانوا يعرفون جيداً القوة الكهربائية، وكانوا يستخدمونها على نطاق واسع. وأنشد كذلك أبياتًا باللغة اللاتينية، من شأنها أن تؤكد صحة ذلك.

لكن في تلك الفترة اعتراني مرض آخر هين، لم أكن لأبرأ منه أبداً. كان شيئًا تافهًا جداً: الخوف من الشيخوخة وخاصة من الموت. أعتقد أن المتسبب فيه كان نوعًا خاصًا من الغيرة. كانت الشيخوخة تخيفني

فقط لأنها تقربنى من الموت. ومادمت حيًا، فلن تخوننى أوجوستا بلا شك، لكنّى كنت أتخيل أنه فور وفاتى ودفنى، وبعد أن تهتم بتجهيز كل شيء حتى تصير مقبرتى على أحسن ما يليق وتتلو الصلوات اللازمة، ستبحث فى الحال بعينيها يمنةً ويسرةً عمن يخلفنى وتحيطه بعالم من الصحة والنظام نفسه الذى كنت أنعم به فى الوقت ذاك. لا يمكن لهذه الصحة الجيدة أن تزول لأننى لاقيت حتفى. كانت ثقتى بتلك الصحة كبيرة، حتى بدا لى أنها لن تهلك إلا بتمزيق صاحبتها تحت قطار كامل ينطلق مسرعًا.

أتذكر ذات مساء، بمدينة ڤينتسيا، ونحن نتنزه بالجندول عبر إحدى تلك القنوات التى يخيم عليها الهدوء التام الذى كانت تقطعه من لحظة إلى أخرى أضواء طريق ينفتح فجأة عليها ويبعث ضوضاءه. كانت أوجوستا، كعادتها، تشاهد الأشياء وتسجلها بعناية: حديقة خضراء نضرة ترتفع فوق قاعدة داكنة انحسرت عنها المياه؛ برج ينعكس فى المياه العكرة؛ طريق ضيق طويل ومعتم فى نهايته نهر من الأضواء والناس. أما أنا، فكنت بإحباط شديد أشعر فى الظلمة، بذات نفسى. حدثتها عن الوقت الذى ينقضى وأنها سرعان ما ستعيد رحلة شهر العسل تلك مع شخص آخر. كنت على يقين تام من ذلك، حتى بدا لى أنّى أروى لها قصة حدثت بالفعل. أحسست أنه من غير المناسب أن تجهش بالبكاء لتنكر حقيقة تلك القصة. ربما فهمت حديثى بصورة خاطئة، وظنت أنّى أعزو إليها نية قتلى. كان الأمر مختلفًا تمامًا! لكى أعبر

بصورة أفضل وصفت لها ما يمكن أن تكون عليه طريقة وفاتي: ساقاي، حيث كانت بالفعل تسرى الدورة الدموية ضعيفة، ستصيبهما الغرغرينة التى ستمتد أكثر، فأكثر، إلى أن تصل إلى أى عضو آخر، لا غنى عنه كي تبقى عيناى مفتوحتين. سأغمضهما فى تلك اللحظة، ووداعًا أيها الأب! وسيكون من الضرورى إيجاد نسخة أخرى منه.

استمرت فى البكاء وبدا لى بكاؤها ذاك ذا أهمية بالغة وسط جو الكآبة الذى ساد تلك القناة. أهو القنوط الذى دفعها إليه حين تحققت من صحتها تلك المفزعة؟ ولو كان الأمر كذلك لنشجت البشرية كلها فى ذلك البكاء. وقد عرفت، فيما بعد، أنها لم تكن حتى تعرف ما هى الصحة. إن الصحة لا تقوم بتفحص ذاتها، ولا حتى أن تنظر إلى نفسها فى المرآة؛ نحن فقط المرضى نعرف بعض الأشياء عن أنفسنا.

حينئذ حكت لى أنها أحبتنى قبل أن تتعرف عليّ. أحبتنى منذ أن سمعت اسمى، الذى جاء على لسان والدها على هذا النحو: تزينو كوزينى، شاب طيب، ينتبه بدرجة كبيرة عندما يسمع حديثًا عن أى تصرف فطن فى مجال التجارة، ويسرع ليدونه ويحفظه فى دفتر إرشادات، لكنه يضيعه. ولو أنّى ما تنبهت لاضطرابه عند أول لقاء لنا، لتوهمت بأنّى كنت مضطربًا كذلك.

تذكرت أنّى كنت شاردًا عندما رأيت أوجوستا؛ وهذا يرجع إلى دمامتها حيث كنت أتوقع أن أجد فى ذلك البيت الفتيات الأربع صاحبات الأسماء البادئة بحرف الألف وجمالهن الرائع. وها أنا ذا أعرف فى تلك

اللحظة أنها كانت تحبنى منذ وقت بعيد، لكن مـاذا كان يثبت ذلك؟ لم أرغب فى إرضائها باستعادتى الثقة فى نفسى. متى مت، ستستبدل بى آخر. بعد أن هدأ بكاؤها، استندت علىّ بصورة أفضل، وفى الحال سألتنى، وهى تضحك:

- أين يمكننى أن أعثر على خليفة لك؟ ألا ترى كم أنا دميمة؟

حقًا، فمن المحتمل، أن يتاح لى ما يكفى من الوقت حتى أتحلل فى هدوء. لكن الخوف من الشيخوخة لم يعد يفارقنى، الخوف الدائم من تسليم زوجتى لآخرين. لم يقل الخوف عندما خنتها، ولم يزدد كذلك عند التفكير فى فقدان العشيقة بالأسلوب نفسه. كانت مختلفة تمامًا، ليس لها أدنى شبه بالأخرى. عندما كان يداهمنى الفزع من الموت، كنت ألجأ إلى أوجوستا لأجد عندها العون والسند، مثل أولئك الأطفال الذين يمدون أيديهم الصغيرة التى بها جُرح إلى قبلة أمهم. كانت تجد دائمًا كلمات جديدة لتهدئ من روعى.

فى أثناء شهر العسل كانت تضيف إلى عمرى ثلاثين عامًا أخرى من الشباب وآخرين مثلهم اليوم. فى حين كنت أدرك أن أسابيع الفرحة فى رحلة شهر العسل تقربنى من عبوس سكرات الموت المروع. كان لأوجوستا أن تقول ما تشاء، لكن اللحظة وشيكة: وكنت أدنو منها كلما مر أسبوع.

عندما لاحظت أن الألم نفسه يتشبث بى أحيانًا كثيرة، تحاشيت أن أزعجها بالحديث دائمًا عن الأمور نفسها، وحتى أجذب انتباهها إلى

حاجتى إلى ما يخفف عنى الألم، كان يكفى أن أهمس: «كوزينى، يا لك من مسكين!» كانت تعرف حينئذ ما الذى يزعجنى بالضبط، وتسرع لتغمرنى بحبها الكبير.

وعلى هذا النحو تمكنت من الحصول على مؤازرتها، حتى عندما كنت أعانى من آلام مختلفة تمامًا. ذات يوم أعيانى الألم لأنّى خنتها، وهمست خطأ: «مسكين كوزينى!». كان ما كسبته من ذلك كبيراً؛ لأن تسريتها عنى فى تلك اللحظة كانت أيضًا ثمينة القدر.

عند عودتى من رحلة شهر العسل، أخذتنى الدهشة أنّى لم أقطن مطلقًا فى بيت مريح ودافئ بهذه الدرجة. أدخلت أوجوستا به كل أسباب الراحة التى كانت تتوافر فى بيتها، لكن بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة ابتكرتها. فغرفة الحمام، حسبما تحفظ ذاكرة البشر، ظلت فى نهاية ممر يبعد نصف كيلو متر من حجرة نومى، اقتربت من حجرة فراشنا وتم تجهيزها بعدد أكبر من فوارات المياه. ثم كانت هناك حجرة صغيرة بجانب حجرة الطعام تحولت إلى غرفة لتناول القهوة. فرشتها بالبسط، وزينتها بمقاعد كبيرة من الجلد، وكنا نجلس بها كل يوم حوالى ساعة بعد تناول الإفطار. كان يتوافر كل ما يلزم للتدخين، ضد رغبتى. حتى حجرة مكتبى الصغيرة، على الرغم من أنّى حاولت أن أحميها، طرأت عليها بعض التعديلات. كنت أخشى أن تنفرنى منها هذه التغييرات، لكن سرعان ما أدركت أنه فى تلك اللحظة فحسب أصبح من الممكن العيش بها. وضعت أوجوستا الإضاءة على نحو أستطيع معه القراءة

جالسًا إلى المكتب، أو مستلقيًا على مقعد أو مضطجعًا على الأريكة. حتى آلة الكمان وفرت لها حاملا للقراءة له مصباح صغير رائع يلقى الضوء على الألحان دون أن يصيب العين. وكانت ترافقنى هناك أيضًا، وضد رغبتى، جميع الأدوات اللازمة لكى أدخِّن فى سلام.

لهذا كانت عمليات البناء تتم كثيرًا فى المنزل، ويصاحبها بعض الفوضى التى كانت تقلل من هدوئنا. بالنسبة لها، وهى من تعمل من أجل الخلود، أى لم يكن اختلالا يسيرًا ليعنى شيئًا، لكن بالنسبة لى فالمسألة تختلف. عارضتها بشدة عندما رغبت فى إنشاء مغسلة صغيرة فى حديقة منزلنا، وكان ذلك يتطلب إقامة مبنى صغير. أخذت تؤكد أن وجود المغسلة فى البيت يضمن صحة الأطفال. لكن حتى ذلك الحين لم يكن هناك أطفال، وكنت لا أرى أية ضرورة للانشغال بهم قبل مجيئهم. إلا أنها جلبت إلى بيتى القديم نزعة تأتى من الهواء الطلق، وفى لحظات الحب، كانت تشبه طائر السنونو الذى يفكر على الفور فى عُشّه.

لكنّى كنت أعرف الحب أنا أيضًا، وأحمل إلى المنزل أزهارًا وجواهر. تغيرت حياتى كاملاً منذ أن تزوجت. بعد محاولة مقاومة هزيلة، تنازلت عن التصرف فى الوقت وَفقًا لرغباتى، وتواءمت مع أكثر المواعيد صرامة.

وبناء على ذلك أتى تعليمى لها بنتائج رائعة. ذات يوم، فور العودة من شهر العسل، وبنية سليمة لم أذهب إلى المنزل لتناول الإفطار، وبعد أن تناولت الطعام فى أحد البارات، مكثت خارج البيت حتى حلول

المساء. عدت عندما أقبل الليل، ووجدت أن أوجوستا لم تتناول الإفطار وأنهكها الجوع. لم توجِّه إلىّ أى لوم، لكنّها لم تقتنع بأنها أخطأت. وبلطف، لكن بنبرة حاسمة، قالت إنه لو لم أخطرها من قبل، لظلت تنتظرنى لتناول الإفطار حتى ساعة الغداء. لم يكن الأمر مُزاحًا! مرة أخرى انسقت وراء صديق، ومكثت خارج المنزل حتى الثانية بعد منتصف الليل. وجدت أوجوستا تنتظرنى وأسنانها تصطك من البرد؛ لأنها تغاضت عن تشغيل المدفأة. وتبع ذلك أيضًا وعكة خفيفة ألمت بها، مما جعلنى لا أنسى ذلك الدرس الذى اقتصت به منّى.

ذات يوم أردت أن أقدم لها هدية أخرى عظيمة: أن أعمل! كانت ترغب فى ذلك، وكنت أعتقد أنا نفسى أن العمل سوف يكون مفيداً لصحتى. من المفهوم أن المرء يشعر بالمرض بصورة أقل عندما لا يكون لديه وقت كافٍ له. ذهبت إلى العمل، وعلى الرغم من أنّى لم أمكث به، لم يكن حقًا ذنبى. ذهبت إليه وأنا أحمل معى أحسن النيات واستعداداً صادقًا للتواضع، لم أطالب بالمشاركة فى إدارة الأعمال، ولكنّى مع ذلك طلبت أن أمسك بدفتر الأستاذ. وأمام ذلك الدفتر الضخم الذى سُجلت به الحسابات المدينة والدائنة بطريقة مصفوفة على شاكلة الطرق والمنازل، شعرت باحترام يملؤنى وبدأت أسجل ويدى ترتجف.

أخذ ابن السيد أوليڤى على عاتقه مهمة تعليمى، ولم أستأ منه فى واقع الأمر، وكان شابًا يافعًا أناقته معتدلة، يضع نظارة على عينيه وعلى علم بجميع العلوم التجارية. أزعجنى بعض الشىء بعلمه فى مجال الاقتصاد

ونظرية العرض والطلب، التى كنت أرى فى وضوحها ما يفوق عدم اعترافه بذلك. لكنى كنت ألمس فيه نوعًا من الاحترام لصاحب العمل، وكنت أقدر فيه ذلك كثيراً، فلم يكن من المعقول أن يكون قد تعلمه من والده. إن احترام الملكية كان بلا شك جزءًا من علمه بالاقتصاد. لم يوجه لى قط اللوم على الأخطاء التى كثيراً ما كنت أرتكبها فى عملية التسجيل؛ كان يميل إلى أن يرجعها إلى عدم المعرفة وحسب، ويقدم لى إيضاحات مفرطة بحق.

السيئ فى الأمر أنّى من فرط النظر فى الصفقات التجارية، تملكتنى الرغبة فى القيام بها. فى وضوح شديد، تخيلت جيبى يتمثل فى ذلك الدفتر عندما كنت أقوم بتسجيل الحسابات المدينة للعملاء، وخلت أنّى أمسك بيدى بدلاً من القلم تلك العصا الصغيرة التى يمسك بها "الكروبييه"(١) ليجمع النقود المتناثرة على منضدة اللعب.

كان الشاب أوليڤى يطلعنى كذلك على المراسلات اليومية، وكنت أقرؤها بانتباه، وينبغى القول إنّى فى البداية كنت آمل فى فهمها بصورة أفضل من الآخرين. وذات يوم سيطر على اهتمامى المشغوف عرض مألوف للغاية. وحتى قبل أن أقرأه شعرت بشىء ما يختلج بصدرى سرعان ما تعرفت عليه فى ذلك الهاجس الغامض الذى كان يأتينى أحيانًا وأنا جالس إلى مائدة القمار. من الصعب وصف مثل هذا

---

(١) موظف مسئول عن إدارة اللعب على مناضد القمار.

الإحساس المسبق. إنه يتمثل فى اتساع للرئتين يسمح باستنشاق الهواء فى متعة على الرغم من أنه معبأ بالدخان. لكن لايزال هناك المزيد: سرعان ما تدركون أنكم فى تحسن متزايد إذا ضاعفتم مبلغ المقامرة. ولكن الأمر يحتاج إلى الخبرة لفهم ذلك كله. فمن الضرورى الابتعاد عن مائدة القمار والجيوب فارغة والشعور بالألم لتركها؛ وعندئذ لن يزول بالمرة. وحينما نتركها، فلا مفر فى ذلك اليوم لأن الأوراق ستأخذ بثأرها؛ ذلك لأن الأمر حول المائدة الخضراء يصبح أكثر تسامحًا لعدم الإحساس بذلك الشعور منه أمام دفتر الأستاذ ذلك الرابض على المكتب. وأنا فى واقع الأمر أدركت ذلك فى وضوح، وهو يصيح بداخلى:

«اشتر فى الحال تلك الفاكهة الجافة!».

تحدثت عن هذا الأمر بهدوء تام إلى السيد أوليفى، بالطبع دون الإشارة إلى ذلك الإيحاء. أجاب أنه لا يقوم بتلك الصفقات إلا لصالح الآخرين، عندما يستطيع أن يحقق شيئًا من الربح؛ ومن ثم كان يستبعد من صفقاتى قدرة إيحاءاتى ويحتفظ بها للآخرين.

عند حلول الليل تأكد اقتناعى: كان الحدس إذن يكمن بداخلى. كنت أتنفس جيدًا لدرجة أنى لم أغمض جفنى. أحست أوجوستا بقلقى، وكان علىّ أن أخبرها عن السبب. فى الحال شعرت بإيحائى نفسه، وأخذت تهمس فى أثناء نومها:

– ألست أنت صاحب العمل؟

في الحقيقة عندما أشرق الصباح، وقبل أن أغادر المنزل، قالت لي وهي قلقة:

– لا يليق بك أن تغضب أوليڤي. أتريد أن أتحدث إلى أبي في هذا الشأن؟

لم أرغب في ذلك؛ لأنّي كنت أعلم أن چوڤاني كان لا يعطي أيضًا أهمية كبيرة للإيحاءات.

وصلت إلى المكتب وقد عقدت النية على أن أقاوم من أجل فكرتي حتى أثأر للأرق الذي عانيت منه. استمرت المعركة حتى منتصف النهار عندما تم النطق باللفظ المفيد لقبول العرض. ظل أوليڤي ثابتًا على رأيه، وتخلص منّي بتعليقه المعتاد:

– ربما ترغب سيادتك في التقليل من شأن مهاراتي التي رآها في المرحوم والدك؟

عدت في تلك اللحظة في شيء من الضيق إلى دفتري، وقد عزمت ألا أقحم نفسي بعد ذلك في مشاريع أخرى. لكن مذاق العنب المجفّف ظل في فمي، وكل يوم كنت أستعلم عن سعره في البورصة. لم أنشغل بشيء آخر غيره. كان يرتفع شيئًا، فشيئًا، كما لو أنه كان في حاجة لاستجماع قواه لكي يقفز. ثم في يوم واحد كانت الوثبة هائلة إلى أعلى. كان الحصاد هزيلاً ولم ندرِ به إلا في تلك اللحظة. إن الإيحاء لشيء عجيب! إنه لم يتحسب للحصاد الضئيل بل لارتفاع السعر وحسب.

أخذت الأوراق بثأرها. وعلى ذلك لم أستطع البقاء أمام دفتر الأستاذ، وفقدت كل أنواع الاحترام لأساتذتى، حتى إن أوليڤى لم تبدُ حينئذ عليه الثقة بأنه أحسن صنعًا. ضحكت وسخرت؛ وكان ذلك ما يشغلنى بالدرجة الأولى.

وصل عرض آخر ثمنه يكاد يبلغ الضعف. سألنى أوليڤى النصيحة، لكى يهدئ من روعى، فقلت بلهجة ظافرة، إنّى لن آكل العنب بهذا السعر. فهمهم أوليڤى، الذى شعر بالإهانة، قائلاً:

– سأتبع النظام الذى سرت عليه طوال حياتى.

وذهب سعيًا وراء المشترى. عثر على راغب فى كمية قليلة للغاية، وبما عرف به من نيّاته الحسنة، عاد إلىّ وسألنى فى تردد:

– هل أضمنها، عملية البيع هذه الصغيرة؟

أجبته، ونيتى سيئة:

– لو أردت لضمنتها قبل أن أقوم بها.

انتهى أوليڤى إلى أن فقد قوة اقتناعه، وترك عملية البيع بلا ضمان. واصل سعر العنب الارتفاع وتكبدنا خسارة كل ما كان يمكن أن نخسره فى هذه الكمية القليلة.

لكن أوليڤى غضب منى، وصرح بأنه قد غامر فقط إرضاءً لى. نسى الداهية أنّى نصحته باللعب على اللون الأحمر؛ ولكى يستخف بى،

لعب هو على اللون الأسود. أصبح الخلاف بيننا لا أمل فى إصلاحه. استغاث أوليڤى بحماى وأخبره أن الشركة بينى وبينه ستتدهور أوضاعها، وسينسحب هو وابنه ليخلى لى الساحة، إذا ما رغبت أسرتى فى ذلك. فى الحال بت حماى فى الأمر مراعاة لأوليڤى. وقال لى:

– إن صفقة الزبيب درس مفيد للغاية. أنتما رجلان لا يمكنكما أن تظلا معًا. والآن من عليه أن ينسحب؟ من لن يستطيع إتمام صفقة واحدة رابحة دون الآخر، أم من يدير بمفرده هذه الشركة منذ نصف قرن؟

حث جوڤانى ابنته أيضًا على إقناعى ألا أقحم بعد نفسى فى إدارة مشاريعى.

– يبدو أن طيبتك وحسن نيتك – هكذا قالت لى – جعلا منك رجلاً غير مؤهل للصفقات. ابق معى فى البيت.

تخليت وقد اشتد حَنقى على قضيتى، أو بالأحرى قبعت فى حجرة مكتبى.

أخذت أقرأ بفتور وأعزف لبعض الوقت ، ثم شعرت برغبة فى مزاولة نشاط من الأنشطة أكثر جِدية، وكدت أعود إلى دراسة الكيمياء أو القانون. فى نهاية الأمر، ولا أعرف لماذا ، انشغلت لبعض الوقت فى دراسة الدين. رأيت أن أستأنف الدراسة التى ابتدأتها عند رحيل والدى. ربما كانت هذه المرة محاولة فعالة كى أدنو من أوجوستا ومن صحتها .

لم يكف أن أذهب معها إلى القداس؛ كان عليّ أن أذهب إلى هناك، وأن أقرأ أيضًا رينان وستراوس، أقرأ أولهما بمتعة، والثانى على مضض كأنه عقاب لى. أتحدث عن ذلك هنا فقط؛ لأكشف عن أية رغبة كبيرة جعلتنى أرتبط بأوجوستا. أما هى فلم تدرك هذه الرغبة عندما رأت فى يدى الإنجيل فى طبعة مزودة بالشروح. كانت تفضِّل عدم الاكتراث بالعلم، وبناءً عليه لم تستطع تقدير أكبر دليل على الحب الذى منحتها إياه. عندما كانت تتوقف، كعادتها، خلال زينتها أو أعمال المنزل، لتطل على باب حجرتى وتلقى عليّ عبارة تحية، وتجدنى منكبًا على هذه الكتب، كانت تلوى شفتيها قائلةً:

- أما زلت مشغولاً بهذا الشأن؟

إن الدين الذى كانت أوجوستا فى حاجة إليه لا يتطلب وقتًا لاكتسابه أو ممارسة شعائره. فهو انحناءة ثم العودة الفورية للحياة! ليس أكثر من ذلك. كان الدين بالنسبة لى يكتسب شكلاً مختلفًا تمامًا. لو كان عندى إيمان حقيقى، لما كنت أملك سواه فى هذا العالم.

من جانب آخر كان الملل يصيبنى أحيانًا فى حجرتى الصغيرة التى تم تنسيقها بصورة رائعة. كان على الأصح شعورًا بالقلق؛ لأنّى كنت أحس برغبة شديدة فى العمل تتملكنى فى تلك الفترة بالتحديد، لكنّى كنت أتوقع أن تفرض الحياة عليّ بعض المهام. وفى أثناء فترة الانتظار تلك كنت أخرج بانتظام، وأقضى ساعات طوالا بمقر التيرچيستيو أو بالمقهى.

كنت أعيش متظاهراً بمزاولة نشاط من الأنشطة. نشاط مثير السأم.

جاءت زيارة صديق لى من أيام الدراسة بالجامعة، واضطر أن يعود فى عجالة كبيرة إلى بلد صغير بالنمسا ويعالَج من مرض خطير، وكانت بمثابة آلهة الثأر بالنسبة لى، على الرغم من أنها لم تتخذ مظهره.

جاءنى بعد أن لازم الفراش لمدة شهر بمدينة تريستى، وكان ذلك كافيًا لتحويل مرضه، وهو التهاب بالكلى، من الحالة الحادة إلى المزمنة التى ربما لا أمل فى الشفاء منها. لكنه كان يعتقد أن حالته تتحسن وكان يستعد وهو سعيد للانتقال مباشرةً، فى أثناء الربيع، إلى أماكن ذات مناخ أكثر اعتدالاً من جو مدينتنا، حيث كان يتطلع إلى استعادة صحته كاملةً. ربما أضر به بقاؤه طويلاً فى مسقط رأسه فى تلك البيئة القاسية.

أعتبر زيارة ذلك الرجل الذى اشتد عليه المرض، لكنه سعيد ومبتسم، زيارة باعثة للشؤم بالنسبة لى؛ لكن ربما أكون مخطئًا: إنها لا تسجل إلا تاريخًا معينا فى حياتى، كان لابد من اجتيازه.

اندهش صديقى، ويدعى أنريكو كوبلر، أنّى لم أعلم شيئًا عن أخباره وعن مرضه الذى كان چوڤانى على عِلم به. لكن چوڤانى، منذ أن مرض هو الآخر، لم يكن لديه وقت لأحد ولم يخبرنى بشىء عن هذا على الرغم من أنه كان يأتى كل يوم مشمس إلى ڤيلّتى ليضطجع فى الهواء الطلق لبضع ساعات.

أمضيت عصر اليوم في غاية البهجة وسط مريضين. دار الحديث عن مرضيهما، الأمر الذى يبعث بالراحة الكبيرة للمريض، ولا يبعث حزنًا كبيراً للأصحاء الذين يجلسون للاستماع. كان هناك فارق وحيد بينهما، حيث كان چوڤانى يحتاج إلى الهواء الطلْق الذى كان محرمًا على الآخر. زال الفارق عندما هبت ريح خفيفة دفعت چوڤانى أيضًا إلى البقاء معنا، في الحجرة الصغيرة الدافئة.

حكى لنا كوبلر عن مرضه الذى كان لا يؤلمه بل يسلب منه القوة. في تلك اللحظة فقط التى شعر فيها بتحسن أدرك كم كان مريضًا. تحدث عن الأدوية التى كان يتجرعها، وعندئذ بلغ اهتمامى أشده. فضلاً عن ذلك نصحه الطبيب باتباع نظام فعال يوفر له نومًا عميقًا، دون أن يؤذيه بتناول عقاقير منومة. إنه الشيء الذى كنت في حاجة إليه بالضبط!

ولوهلة توهم صديقى المسكين، أنّى مصاب بمرضه نفسه، عندما أحس باحتياجى إلى دواء، ونصحنى أن أعرض نفسى للفحص، أن أتحدث مع طبيب، وأن أخضع للتحاليل.

أخذت أوجوستا تقهقه ضاحكة، وصرحت بأننى لست إلا مريضًا وهميًا. حينئذ مر على وجه كوبلر الهزيل تعبير أشبه بالأسى. على الفور، وبشجاعة، تخلص من الإحساس بالدونية الذى بدا وكأنه يكبِّله، وهاجمنى بحيوية شديدة قائلاً:

– مريض وهمي؟ حسنًا، أنا أفضِّل أن أكون مريضًا حقيقيا. قبل كل شيء فالمريض الوهمي يمثل تشوُّهًا باعثًا على السخرية، ثم إنه لا توجد له عقاقير؛ لأنها، كما ترون بالنسبة لحالتي، لها دائمًا أثرها علينا نحن المرضى الحقيقيين!

كانت كلمته تبدو وكأنها صدرت من رجل سليم، ولكي أكون صادقًا، تألمت منها.

انضم حماي في الحديث معه بحيوية كبيرة، لكن كلماته لم تتمكن من الازدراء من المريض بالوهم؛ لأنها في وضوح شديد، كانت تفشي الشعور بالحسد إزاء السليم. قال إنه لو كان يتمتع بصحة سليمة مثلي، فبدلاً من إزعاج الآخرين بشكواه المتواصلة، كان سيُسْرِع إلى مشاريعه المحببة إلى نفسه والرابحة، خاصة بعد أن تمكن من إنقاص حجم بطنه. إنه لم يكن يدرك كذلك أن نحافته لا تعد مؤشراً لصالحه.

إثر هجوم كوبلر عليّ، اتخذت حقيقة مظهر المريض، بل مريض تعرض للإساءة. شعرت أوجوستا بالحاجة إلى التدخل لمساعدتي. قالت، وهي تداعب يدي التي أرخيتها على المائدة، إن مرضي لا يسبب إزعاجًا لأحد، وإنها لم تقتنع مطلقًا أنّي أتوهم المرض، وإلا لما شعرت بتلك السعادة في الحياة. وهكذا عاد كوبلر إلى حالة الدونية التي حكم عليه بها. كان وحيداً تماماً في هذا العالم، وإن كان بإمكانه منازلتي في مسألة الصحة، فما استطاع أن يواجهني بأية عاطفة حانية تشبه تلك التي

كانت أوجوستا تغمرني بها. استسلم واعترف لي فيما بعد، حين كان بحاجة ماسة إلى ممرضة، كم كان يحقد عليّ لهذا السبب.

وتتوالى الأيام، وتستمر المناقشة بنبرة أكثر أعتدالاً، في حين كان چوڤاني يرقد في الحديقة. بعد أن أمعن التفكير، أخذ كوبلر يؤكد حينئذ أن المريض بالوهم هو مريض حقيقي، لكن بصورة أكثر شدة وأكثر عمقًا. ففي حقيقة الأمر تكون أعصابه قد تهيأت على تحمُّل مرض لا وجود له، في حين أن وظيفتها الطبيعية تكمن في الإنذار بالألم والحث على الإسراع لمواجهته.

- نعم! أجبت. كما يحدث بالأسنان، حيث يظهر الألم فقط عندما ينكشف العصب، وينبغي إخماده حتى يحدث الشفاء.

أفضى به الأمر إلى الاتفاق معي في الرأي أن المريض الحقيقي والمريض بالوهم متساويان. إن التهاب الكلي عنده افتقر، وظل يفتقر إلى إنذار من الأعصاب، في حين أن أعصابي، على العكس منه، ربما كانت شديدة الحساسية حتى تنذرني بالمرض الذي سيقضي علي بعد ما يقرب من عشرين عاماً. كانت إذن أعصاباً سليمة تمامًا وعيبها الوحيد هو أنها منحتني أيامًا قلائل من السعادة في هذا العالم. شعر كوبلر برضاء كامل، عندما تمكن من تصنيفي كمريض بين المرضى.

لا أدري لمَ كان لدى ذلك المريض المسكين هوس الحديث عن النساء، ذلك الذي كان لا يدور غيره عند غياب زوجتي. كان يزعم أن الجنس يضعف بالنسبة للمريض الحقيقي، ذلك على الأقل في حالة الأمراض

التى كنا نعرفها، مما يشكل دفاعًا قويًا لجسم الإنسان، فى حين أن المريض بالوهم الذى لا يعانى إلا من اضطراب الأعصاب المجهدة بصورة زائدة (هذا طبقًا لتشخيصنا) يكون الجنس لديه نشطًا بشكل مرضى. عضدت نظريته بخبرتى، ورثى كل منا لحال الآخر. لا أعلم لماذا لم أفكر فى إخباره بأنّى بعيد عن أى خلل فى نظام الجسم منذ وقت مضى. كنت أستطيع على أى حال أن أقر بأنّى أعد نفسى متماثلاً للشفاء إن لم أكن سليمًا، لكى لا أفرط فى جرح مشاعره، ولأنه يصعب القول بأننا أصحاء عندما نطّلع على جميع تعقيدات جسمنا البشرى.

– أترغب فى جميع النساء الجميلات اللائى تراهن؟ أخذ كوبلر يواصل التحرى.

– ليست جميعهن! هممت لأخبره أنّى لست مريضًا إلى هذه الدرجة. ومع ذلك كنت لا أرغب فى آدا التى كنت أراها كل مساء. تلك كانت بالنسبة لى، المرأة الممنوعة حقًا. إن حفيف تنوراتها لم يكن يعنى لى شيئًا ، ولو سمح لى أن أحركها بيدى هاتين، لما تغير فى الأمر شىء. لحسن الحظ أنّى لم أتزوجها. إن عدم اهتمامى ذاك كان، أو كان يبدو لى، عرضًا من أعراض الصحة الطبيعية. ربما كانت رغبتى فيها عنيفة بالدرجة التى أدت إلى إخمادها من تلقاء نفسها. لكن عدم اكتراثى امتد أيضًا إلى ألبرتا على الرغم من أنها كانت لطيفة جدًا فى زيها المدرسى الأنيق والجاد. هل كان امتلاكى لأوجوستا كافيًا لكى يسكت رغبتى لعائلة مالفنتى جميعها؟ لو كان كذلك لكان أمرًا أخلاقيًا بحق.

ربما لم أتحدث عن أخلاقى الفاضلة؛ لأنى كنت أخون أوجوستا دائمًا فى خاطرى، وحتى تلك اللحظة، وأنا أتحدث مع كوبلر، كنت أفكر فى النساء جميعهن اللاتى كنت أتجاهلهن من أجلها. تذكرت النساء اللائى يسرعن فى الطرق، الملابس تغطيهن تمامًا، ولهذا فإن أعضاءهن الأنثوية الثانوية كانت لها أهمية بالغة، فى حين كانت تختفى لدى المرأة التى كنت أمتلكها، كأنما تسبب التملك منها فى ضمور هذه الأعضاء. كانت الرغبة فى المغامرة تتسلط علىّ دائمًا؛ تلك المغامرة التى تبدأ بالإعجاب بحذاء، أو قفاز، أو تنورة، الإعجاب بكل ما يحجب ويغير الشكل. لكن هذه الرغبة لم تكن تصل إلى الخطيئة. لكن كوبلر لم يُحسنتحليل حالتى. إن عملية إفهام الآخر بما هو عليه، إنما هى وسيلة للسماح له بالتصرف حسبما يشاء. لكن كوبلر قام أيضًا بما هو أسوأ من ذلك، إلاّ أنه سواء عندما تحدث، أو تصرف، لم يستطع أن يتوقع إلى أين يسوقنى.

وعلى هذا النحو تظل كلمة كوبلر ذات أهمية فى ذاكرتى، وكلما تذكرتها، تستحضر كل ما يرتبط بها من أحاسيس، وأشياء وأشخاص. كنت قد رافقت صديقى إلى الحديقة، وكان عليه أن يعود إلى منزله قبل الغروب. وكانت ڤيلّتى تقع على تل، وتطل على الميناء والبحر، ذلك المشهد الذى تحجبه الآن مبان جديدة. وقفنا نتأمل البحر طويلاً، وكان يحركه نسيم خفيف يعكس ضوء السماء الصافية إلى أضواء حمراء لا حصر لها. كانت شبه جزيرة استريا تريح العين بلون خضرتها الهادئ الذى

يمتد على شكل قوس ضخم بالبحر كالظل المجسم. كانت أرصفة الميناء والسدود تبدو ضئيلة لا أهمية لها، وهي بأشكالها وخطوطها تلك الجافة، والماء في الأحواض كان لونه داكنًا بسبب ركوده أو ربما كان عكرًا؟ تضاءل هدوء ذلك المشهد الرحب حيال الضوء الأحمر المتحرك على المياه ما إن عشيت منه أبصارنا بعد قليل، استدرنا عن البحر. و كان ظلام الليل يخيِّم على العكس على الفناء الصغير أمام البيت.

كان صبِهري يرقد أمام الممشى، على مَقعد رحب، ويغطي رأسه بقبَّعة ويحتمي أيضًا بياقة ترتفع من الفراء، وساقاه ملفوفتان بغطاء من الأغطية. توقفنا للنظر إليه. كان فمه مفتوحًا، وفكه السفلي يتدلى كأنه لا ينبض بالحياة، وكانت أنفاسه متلاحقة وتحدث صوتًا عاليًا. وبين الحين والآخر كانت رأسه تسقط على صدره وكان يرفعها، دون أن يستيقظ. كان جفناه يتحركان في تلك اللحظة، كأنما أراد أن يفتح عينيه ليستعيد توازنه بصورة أسهل، وكان إيقاع تنفسه يتغير. كانت لحظات ينقطع فيها للنوم حقًا.

كانت المرة الأولى التي رأيت فيها وبوضوح شديد مرض حماي الخطير، وتألمت لذلك ألمًا شديدًا.

قال لي كوبلر بصوت خفيض:

– إنه يحتاج إلى علاج. ربما يكون مريضًا أيضًا بالتهاب الكلى. إن ما به ليس نومًا: أنا أعلم بحالته تلك. ياله من مسكين!

أنهى حديثه، ونصح باستدعاء طبيبه.

سمعنا جوڤانى وفتح عينيه. بدا عليه فى الحال أنه أقل مرضًا، وأخذ يمزح مع كويلر:

– تخاطر سيادتك بالجلوس فى الهواء الطلق؟ ألن يصيبكم أذى؟

كان يظن أنه استمتع فى أثناء نومه، ولم يعرف أنه تعرض للاختناق أمام ذلك البحر الهائل الذى كان يمده بالوافر منه! ومع ذلك كان صوته خافتًا، ويقطع لهاث أنفاسه كلامه؛ كان وجهه شاحبًا عندما نهض من على المقعد، وكان يشعر بالبرد الشديد. كان لابد أن يحتمي داخل البيت. ما زلت أراه يتحرك فى الفناء، والغطاء تحت ذراعه، كان يلهث وعلى الرغم من ذلك يضحك، ويلقى علينا بالتحية كذلك.

– أترى كيف يكون المريض الحقيقى؟ قال كويلر الذى لم يستطع التخلص من تلك الفكرة المتسلطة عليه. إنه على وشك الموت، ولا يدرك أنه مريض.

بدا لى أنا أيضًا أن المريض الحقيقى يتألم قليلاً. يستريح حماى وكويلر معًا فى مدافن سانتانًا منذ سنوات عديدة، غير أننى مررت يومًا بجوار قبريهما، وأيقنت أن تلك النظرية التى طرحها أحدهما لم تبطل مع طول رقدتها تحت حجارة القبر.

قبل أن يترك مسكنه القديم، قام كويلر بتصفية أعماله وهكذا، مثلى، لم يعد لديه منها شيئًا على الإطلاق. لكنه، ما إن غادر فراشه، لم يقف ساكنًا، وبينما كان يفتقر إلى شئون خاصة يهتم بها، أخذ يهتم

بشئون الآخرين التى كانت تبدو له ذات أهمية كبيرة. كنت أسخر من ذلك آنذاك، لكن فيما بعد تحتم عليّ أنا أيضًا أن أكتشف أى مذاق مقزز تتمتع به شئون الآخرين. أخذ يهتم بأعمال الخير، ولما كان عقد العزم على العيش من أرباح ماله فقط، لم يكن بإمكانه أن ينعم بالقيام بتلك المهمة على نفقاته الخاصة فقط؛ ولهذا أخذ يجمع التبرعات ويلزم بها الأصدقاء والمعارف. كان يسجل كل شيء، كما يجدر برجل أعمال بارع مثله، وأحسست أن ذلك الدفتر كان زاده الأخير وأنّى، لو كنت فى حالته، مريض محكوم عليّ بأجل قصير وليس لى عائلة مثله، لأثريت ذلك السجل على حساب مالى. لكنه كان يتوهم أنه شخص سليم، ولم يكن يمس سوى الأرباح التى كانت تخصه، ولم يتمكن من التسليم بمستقبل قصير المدى.

ذات يوم فاجأنى بطلب بضعة مئات من الكورونات لشراء بيانو صغير لفتاة فقيرة كنت أكفلها عن طريقه مع آخرين، بمرتب شهرى هزيل. كان لابد من الإسراع لاغتنام مثل تلك الفرصة المواتية. لم أستطع الامتناع، لكنّى، بشيء من عدم اللياقة، عبرت عن أننى أحسن عملاً لو لم أخرج من منزلى فى ذلك اليوم. فأنا شخص تتملكه نوبات من الشح الزائد من حين إلى آخر.

أخذ كوبلر المال، وانصرف بكلمة شكر وجيزة، لكن كان لكلماتى أثرها بعد مرور أيام قلائل وبلغ، مع الأسف، درجة من الأهمية. جاء ليخبرنى أن البيانو الصغير على ما يرام، وأن الآنسة كارلا چيركو

ووالدتها ترجوانى أن أذهب لزيارتهما حتى توجها لى الشكر. كان كوبلر يخشى أن يفقد أحد عملائه، وأراد أن يربطنى به بأن يمتعنى بمذاق عمل الخير.

فى بادئ الأمر كنت أريد التخلص من ذاك الإزعاج وأكدت له أنّى على اقتناع تام بأنه قدير فى القيام بأعمال الخير، لكنّه أصر حتى انتهى بى الأمر إلى الموافقة:

– هل هى حسناء؟ سألته ضاحكًا.

– رائعة الجمال – أجابنى – لكنها ليست طعامًا لأسناننا.

إنه لشىء عجيب أن يضع أسنانه وأسنانى معًا، مع خطورة أن ينقل لى عدوى تسوس أسنانه. حكى لى عن استقامة تلك العائلة المنكوبة التى فقدت عائلها منذ بضع سنوات، وأنها على الرغم من فقرها الشديد تحيا حياة شريفة على نحو صارم.

لم يكن يومًا جميلاً. هبت فيه ريح ثلجية، وكنت أحقد على كوبلر؛ لأنه كان يرتدى معطفًا من الفراء. كان علىّ أن أمسك القبعة بيدى وإلاّ طارت فى الهواء. لكنّى كنت أشعر بالسرور، حيث أذهب لأتلقى العرفان بالجميل مقابل حبى للآخرين. قطعنا شارع كورسيا ستاديون سيراً على الأقدام، وعبرنا الحديقة العامة. كانت ناحية من المدينة لم أرها قط. دخلنا أحد البيوت التى كانت تسمى ببيوت التأمل، التى بناها أسلافنا منذ أربعين عامًا، فى أماكن نائية عن المدينة التى سرعان ما طغت عليها؛

كان مظهرها متواضعًا مع أنها تفوق في قيمتها المنازل التي تبنى في وقتنا الحاضر للأهداف نفسها. كان السُلم يشغل حيزًا ضيقًا؛ ولهذا كان درجه عالي الارتقاع.

توقفنا في الطابق الأول، حيث وصلت أسرع كثيرًا من صاحبي؛ لأنه كان يصعد ببطء شديد. أصابتني الدهشة عندما رأيت لافتتين مكتوبًا عليهما اسم كارلا جيركو، معلقتين بمسامير على البابين الجانبيين من الأبواب الثلاثة التي كانت تطل على بسطة السلم، في حين كان الباب الثالث يحمل أيضًا لافتة لكن باسم آخر. فسّر لي كوبلر أن ما يخص عائلة جيركو هو مطبخ وحجرة نوم على اليمين، في حين لا يوجد على اليسار سوى حجرة واحدة، هي مكتب الآنسة كارلا. وقد استطاعتا أن تؤجرا من الباطن جزءًا في وسط الشقة، وعلى هذا النحو أصبح الإيجار لا يكلفهما كثيرًا، لكن كان يزعجهما عبور بسطة السلم للذهاب من حجرة إلى أخرى.

قرعنا الباب على الجانب الأيسر، باب حجرة المكتب وبها الأم والفتاة، اللتان كانتا على علم بزيارتنا، وفي استقبالنا. قام كوبلر بعملية التعارف بيننا. كانت السيدة إنسانة خجولاً جدًا ترتدي ثوبًا فقيرًا أسود اللون، ورأسها يعتليه الشيب، وتحدثت معي حديثًا وجيزًا، لابد أن أعدته من قبل: كانتا تشعران بالامتنان لزيارتي، ووجهتا الشكر لي للهدية العظيمة التي قدمتها لهما. ثم لم تتفوه الأم بكلمة واحدة بعد ذلك.

كان كوبلر يشاهدنا مثل معلم يجلس منصتًا فى امتحان رسمى للدرس الذى قام بجهد كبير فى تلقينه. راجع السيدة قائلاً إنّى لم أتبرع لشراء آلة البيانو وحسب، بل كنت أساهم أيضًا فى المعونة الشهرية التى كان يعمل على تجميعها لهما. كان يحب الدقة.

نهضت الآنسة كارلا من على المقعد حيث كانت تجلس بجوار البيانو،

صافحتني وقالت لي مجرد كلمة واحدة:

- أشكرك!

لم يستغرق ذلك على الأقل وقتًا طويلاً. أخذت شحنة حب الناس تثقل علىّ. كنت أنشغل أنا أيضًا بشئون الآخرين مثل أى مريض حقيقى! أى شيء كان يمكن أن تراه فى تلك الفتاة الجذابة؟ قد ترى شخصًا جديرًا بالاحترام ولكنه ليس رجل الأحلام! وكانت حقًا حسناء! أظن أنها أرادت أن تبدو أصغر سنًا عما كانت عليه، بتنورتها تلك القصيرة جداً بالنسبة للذوق السائد فى ذلك الحين، إلاّ إذا كانت ترتدى فى المنزل تنورة من تنورات الفترة التى كان نموها لم يكتمل فيها بعد. ومع ذلك كان رأسها رأس امرأة، ترغب فى إعجاب الآخرين بها لما يوحى به شعرها المصفف بصورة متكلفة بعض الشيء. اتخذت جديلتا شعرها الغزير الأسود شكلاً جميلاً يغطى أذنيها وجزءاً من عنقها. سيطر علىّ الوقار لدرجة أنّى خشيت نظرة كوبلر الفاحصة، حتى إنّى

فى البداية لم أمعن النظر إلى الفتاة؛ لكنّى الآن أعرفها جيداً. كان صوتها يحمل شيئًا من النغم عندما تتحدث فى تصنُّع، اتخذ بعد ذلك سمة طبيعية. كانت تستمتع بمد مقاطع الألفاظ، كأنما أرادت أن تداعب الأصوات الصادرة فيها؛ ولهذا وفضلاً عن بعض الحروف الصائتة التى كانت تمد فى نطقها بصورة مبالغ فيها بالنسبة لمدينة تريستى، فإن لغتها كانت ما يشبه اللكنة الأجنبية. علمت بعد ذلك أن بعض المعلمين، وهم يقومون بتعليم قواعد النطق، يغيرون معيار الصوت. كانت طريقة نطقها للأصوات تختلف تمامًا عن آدا. كان كل صوت تنطق به يبدو لى وكأنه صوت حب.

فى أثناء تلك الزيارة كانت الآنسة كارلا تبتسم طوال الوقت، ربما كان يخيَّل إليها أنها تطبع بذلك على وجهها العرفان بالجميل. كانت ابتسامة مفتعلة بعض الشىء؛ ذاك كان الشكل الحقيقى للعرفان بالجميل. بعد ذلك، عندما أخذت أحلم بكارلا بعد مرور ساعات قليلة، هيئ لى أنه كان على ذلك الوجه صراع بين السعادة والألم. ثم لم أجد فيه شيئًا من ذلك كله، ومرة أخرى تأكدت من أن جمال الأنثى يقوم بتمثيل مشاعر ليس له علاقة بها. وعلى هذا النحو فإن قماش اللوحة المرسوم عليها المعركة لا يتمتع بأى إحساس بطولى.

كان كوبلر سعيداً بالتعارف الذى أجراه بيننا، كما لو كانت السيدتان عملين من أعماله. أخذ يصفهما لى: كانتا دائمًا راضيتين بنصيبيهما فى الحياة وتعملان. كان يقول كلمات تبدو كما لو أنه أخذها

من كتاب مدرسى، ويبدو أنّى بإيماءاتى الآلية برأسى، أردت أن أؤكد له علمى بذلك ومعرفتى بالتالى بما يمكن أن تكون عليه الفقيرات الفضليات اللاتى حرمن من المال.

ثم طلب من كارلا أن تغنى لنا شيئًا. لم ترغب فى الغناء متعللة بإصابتها بنزلة برد، واقترحت أن تقوم بذلك فى يوم آخر. كنت أشعر بتعاطف معها أنها تخشى حكمنا عليها، لكنّى كنت أرغب فى إطالة الجلسة وشاركت كوبلر فى رجائه. قلت أيضًا إنّى لا أدرى ما إذا كانت سترانى مرة أخرى؛ لأنّى مشغول جداً. أكد كوبلر بجدية شديدة ما قلته، على الرغم من أنه يعلم أنه لم يكن لدى أى التزام فى هذا العالم. ثم فى سهولة فهمت أنه لم يكن يرغب فى أن أعود لرؤية كارلا على وجه الإطلاق.

حاولت أن تعتذر مرة أخرى، لكن كوبلر أصر على طلبه بكلمة أشبه بالأمر فأطاعته: كم كان سهلاً إرغام تلك الفتاة!

غنت أغنية "رايتى". أخذت أتابع غنائها وأنا جالس على أريكة ناعمة الملمس. انتابتنى رغبة شديدة فى أن أمتع عينى بها. كم كان يسعدنى أن أراها فى ثوب الموهبة! لكنّى على العكس اندهشت عندما شعرت بأن صوتها، وهى تغنى، كان يفقد كل نغماته. كان يتبدل بالجهد الذى تبذله فى الغناء. كانت كارلا لا تجيد العزف أيضًا وأخذت مصاحبتها القاصرة تزيد فقرًا على تلك الموسيقى الفقيرة. تذكرت أنّى

أمام تلميذة، وتساءلت عما إذا كانت قوة الصوت كافية. كانت على العكس فائقة! أصابت بالجراح أذني في ذلك المكان الضيق. ولكي أتمكن من الاستمرار في تشجيعها، رأيت أن مدرستها فقط هي السيئة.

عندما توقفت، شاركت كويلر في تصفيقه الحار المخادع. أخذ يقول:

– تتصور مدى التأثير الذي سيكون لهذا الصوت إذا ما صاحبته فرقة موسيقيه جيدة.

كان هذا بلا شك حقيقيًا. كانت هناك حاجة لجوقة موسيقية كاملة لمصاحبة هذا الصوت. قلت بصراحة شديدة إنّي أنتظر أن أستمع إلى الآنسة مرة ثانية بعد بضعة أشهر، وحينئذ سأبدي رأيي في تقويم مدرستها. أضفت ولم أكن في ذلك صادقًا تمامًا أن ذلك الصوت كان دون شك مدرسة من الدرجة الأولى. ثم في تبرير، أخفّف به من وطأة ما قد يكون قد صدر منّي في بداية حديثي، أكدت ضرورة العثور على أرقى مدرسة، لرعاية أرقى صوت. وغطى أسلوب التفضيل كل شيء. لكن بعد ذلك، عندما مكثت بمفردي، أدهشني شعوري بالحاجة إلى أن أكون صادقًا مع كارلا. هل أحببتها بالفعل؟ لكنّي لم أكن قد رأيتها جيدًا!

على درج السلم ذي الرائحة المشكوك فيها، قال كويلر مرة أخرى:

– إن صوتها قوي للغاية. إنه صوت جدير بالمسرح.

لم يكن يعرف أنّي كنت حينئذ أعرف ما هو أكثر: كان ذلك الصوت ينتمي إلى محيط ضيق جداً، حيث يمكن تذوق نوع من الإحساس الغَضّ بالفن والحُلم بنقل الفن بداخله، أى الحياة والألم.

قال لى كوبلر وهو يغادر ڤيلّتى، إنه سيخبرنى عندما يقوم المايسترو معلم كارلا بتنظيم حفلة موسيقية عامة. كان معلمًا لا يزال مغموراً فى المدينة، لكنه سيحظى بالتأكيد بشهرة عظيمة فى المستقبل. كان كوبلر على يقين من ذلك على الرغم من أن المايسترو كان متقدمًا فى السن بما يكفى. يبدو أن الشهرة كان سينالها فى ذلك الوقت، بعد أن تعرف كوبلر عليه. كلاهما حالتان مشرفتان على الموت، إحداهما المعلم والأخرى كوبلر.

العجيب أنّى شعرت بالحاجة إلى إخبار أوجوستا بتلك الزيارة. ربما اعتقدت أنها حكمة منّي، بما أن كوبلر على علم بالأمر وترفعت عن أن أرجوه أن يكتمه. غير أنّي تحدثت عنه عن طيب خاطر. وشعر براحة كبيرة في ذلك. وحتى ذلك الحين لم يكن لدي ما آخذه على نفسى سوى إخفائى الزيارة عن أوجوستا. وهكذا كنت بريئًا تمامًا فى تلك اللحظة.

سألتنى عن أخبار الفتاة وعما إذا كانت حسناء. وجدت صعوبة فى الإجابة عن أسئلتها: قلت إن الفتاة المسكينة بدت لى مصابة بفقر الدم. ثم لاحت لى فكرة جيدة:

– هل لكِ أن توليها بعض رعاية؟

كان لأوجوستا ما يشغلها كثيراً فى منزلها الجديد وفى منزل عائلتها القديم، حيث كانوا يستدعونها لتساعد فى رعاية أبيها المريض؛ لذا لم تنشغل بالأمر. ومع ذلك كانت فكرتى حقًا جيدة.

أما عن كوبلر فقد علم من أوجوستا أنّى أخبرتها عن زيارتنا، ونسي هو أيضًا تلك الصفات التى نسبها للمريض بالوهم. أخبرنى فى حضور أوجوستا أننا سنقوم خلال وقت وجيز بزيارة أخرى لكارلا. كان يثق فى ثقة كاملة.

وعلى الرغم من حالة خمولى سرعان ما سيطرت على الرغبة فى رؤية كارلا مرة ثانية. لم أجرؤ على الإسراع إليها خشيةً أن يعلم كوبلر بذلك. لكنّى لم أكن لأفتقر إلى الذرائع. كنت أستطيع الذهاب إليها لتقديم معونة كبيرة لها دون علم كوبلر، لكن كان علىّ أن أتأكد أولاً أنها تجد كتمان الأمر فى صالحها. ماذا لو كان ذلك المريض الحقيقى صديقًا للفتاة؟ فأنا، لا أعلم شيئًا عن المرضى الحقيقيين، وربما كان صحيحا أنهم يعتادون دفع الآخرين لتحمل نفقات حبيباتهم. وفى تلك الحالة كانت تكفى زيارة واحدة لكارلا لأعرض نفسى للخطر. لم أستطع أن أجازف باستقرار عائلتى الصغيرة؛ أو بمعنى أدق: لم أخاطر بها، إلى أن زادت رغبتى فى كارلا.

لكن الرغبة أخذت تشتد بإلحاح. كنت أعرف تلك الفتاة من قبل على نحو أفضل بكثير عما صافحتها بيدى وأنا أهم بالانصراف. كنت أتذكر على وجه الخصوص تلك الجديلة السمراء التى كانت تحجب عنقها

ناصع البياض، والتى كان ينبغى إزاحتها بالأنف لتقبيل البشرة المغطاة بهـا. ولإثارة رغبتـى كـان يكفى التـفكيـر فى أنه على راحـة السُّلم، فى المدينة الصغيرة ذاتها التى أقطن بها، توجد فتاة حسناء يمكن الوصول إليـها بعد نزهة قـصيـرة مـعهـا! فى هـذه الظروف يصـبح الصـراع مع الخطيئة قاسيًا، حيث ينبغى تجديده فى كل ساعة وفى كل يوم، مادامت الفتاة على راحـة السلم. كانت الحروف الصـائتة التى تمدها كارلا تدعوننى، وربما حملتنى نبراتـها بالفعل على الاعتقاد بأنه عندمـا يتلاشى صـمود نفسى، لن تكون هناك مقاومة أخرى على وجه الإطلاق. لكن كان واضحًا لى أنّى ربما أكون واهمًا، وأن كوبلر يبصر الأمـور بدقة أكبر؛ وكـان لهذا الشك أيضًـا أهميته فى إضـعـاف مقـاومـتى؛ حيث إن كـارلا نفسـها كـان يمكن أن تنقذ أوجوسـتـا المسكينة من خيـانتى لأنـها، كامرأة، تقع على عاتقها مهمة المقاومة.

لِـمَ كـان الخوف من تأنيب الضـمير بسبب رغبتى التى ربما جاءت فى اللحظة المواتيـة لتحررنى من الرتابة التى كانت تهددنى فى تلك الفترة؟ لم تؤثر مطلقًا على عـلاقتى بـأوجـوسـتـا، كـان الأمـر على الـعكس من ذلك تمامًا. لم أكن أسـمـعـهـا وحسب كلمـات الحب الذى كنت أكنّه لهـا دائمًـا، بل أسمعها أيضًا الكلمـات التى أخذت تنمو بداخل نفسى تجاه الأخرى. لم تغمر بيتى قط مشـاعر مماثلة فيّاضـة بالمودة، وبدت أوجوسـتـا مفتـونة بها. كنت دقـيقًا دائمًا فيما كنت أطلق عليه مواعيد العائلة. كان ضـميرى حيًـا للغـاية، حـتى إنه من خـلال سلوكيـاتى أخذ يعدّنـى منذ تلك الفـتـرة للتخفيف من تأنيبى لنفسى فيما بعد.

ومما يدل على أن مقاومتي لم تضعف تماماً أنّي لم أذهب عند كارلا دفعة واحدة، لكن ذهبت إليها تدريجياً. في بداية الأمر ولبضعة أيام كنت أصل إلى الحديقة العامة فقط ونيتي صادقة في أن أتمتع بالخضرة الناصعة التي تطل وسط رمادية الشوارع والمنازل المحيطة بها. ولما لم تتح لي الفرصة لمقابلتها مصادفةً، كما كنت أتمنى، كنت أخرج من الحديقة لأتمشى بالفعل تحت نوافذ منزلها. قمت بذلك في انفعال شديد كان يشبه تماماً الإحساس اللذيذ الذي يداعب الشاب وهو يحب لأول مرة. فمنذ وقت كبير وأنا لم أفقد الشعور بالحب، بل المغامرة التي تسوق إليه.

وفور أن خرجت من الحديقة تقابلت وجهاً لوجه مع حماتي. في البداية اعتراني شك غريب: كيف في تلك الساعة المبكرة من الصباح، وفي تلك الناحية التي تبعد كثيراً عن الحي الذي نسكن فيه؟ ربما كانت هي أيضاً تخون زوجها المريض. أدركت فور ذلك مباشرةً أنّي أخطأت في حقها؛ لأنها كانت قد ذهبت لمقابلة الطبيب لكي يطمئنها بعد أن قضت ليلة قاسية بجوار زوجها. قال لها الطبيب كلمات مطمئنة، لكنها كانت مضطربة، وسرعان ما تركتني، ونسيت أنها فوجئت بوجودي في ذلك المكان الذي عادةً ما يرتاده العجائز والأطفال بصحبة مربياتهم.

لكن رؤيتها كانت كافية لتشعرني بقبضة العائلة. سرت نحو منزلي بخطوات حاسمة، وأخذت أدندن في همس: "أبداً، مطلقاً!". في تلك اللحظة أيقظت في والدة أوجوستا إحساسي بواجباتي جميعها. وكان ذلك درساً جيداً كافياً طوال ذاك اليوم.

لم تكن أوجوستا بالبيت، حيث أسرعت إلى جوار والدها، وبقيت معه طيلة النهار. قالت لي ونحن نتناول الطعام حول المائدة إنهم تناقشوا حول مسألة وجوب تأجيل زواج أدا الذى تم تحديد موعده فى الأسبوع التالى، نظرًا لحالة چوڤانى الصحية. كان چوڤانى آنذاك فى حالة أحسن. يبدو أنه انساق وراء شهيته وأكل أكثر، حتى آذى سوء الهضم حالته الصحية.

حكيت لها أنّى سبق أن علمت بتلك الأخبار من والدتها عندما قابلتها فى الصباح فى الحديقة العامة. لم تندهش أوجوستا هى الأخرى من نزهتى هناك، لكنّى شعرت بالحاجة إلى تفسير ما حدث. وضحت لها أنّى منذ وقت كنت أفضل القيام بالتنزه فى الحديقة العامة. كنت أجلس على أريكة وأقرأ الجريدة. ثم أضفت قائلاً:

– يا لذلك الأوليڤى! لقد أخطأ فى حقى خطأً عظيمًا عندما حكم علىّ بالخمول.

بدت على أوجوستا ملامح الألم والأسى، وقد شعرت بشىء من الذنب فى هذا الشأن. شعرت بأنّى بحالة جيدة عندئذ. شعرت حقًا بحالة فى غاية الصفاء، حيث قضيت فترة الظهيرة بكاملها فى حجرة مكتبى، وخلت حقًا أنّى شفيت تمامًا من أية رغبة خاطئة. كنت حينئذ قد قطعت شوطًا فى قراءة سفر الرؤيا.

وعلى الرغم من أن جواز ذهابى وقتذاك إلى الحديقة العامة كل صباح أصبح شيئًا مقبولاً، فإن مقاومتى للرغبة اشتدت، حتى إنّى

خرجت فى اليوم التالى، وسرت فى الجهة المقابلة تماماً. ذهبت أبحث عن مؤلفات فى الموسيقى؛ لأنّى كنت أرغب فى تجربة أسلوب جديد للعزف على الكمان أشاروا، به علىّ من قبل. علمت قبل خروجى من المنزل أن حماى قد أمضى ليلة هادئة، وسيأتى لزيارتنا فى الظهيرة بسيارته. سعدت كثيراً لما سمعت ذلك، سواء من أجل چوڤانى أوجويدو، الذى سيتمكن أخيراً من الزواج. كل شيء كان على مايرام: نجوت أنا ونجا أيضاً حماى.

لكن كانت الموسيقى هى التى قادتنى بالفعل إلى كارلا! من بين الأساليب التى قدمها لى البائع عن طريق الخطأ وجدت أسلوباً خاصاً بفن الغناء وليس للعزف على آلة الكمان. قرأت العنوان باهتمام: «دراسة كاملة لفن الغناء (مدرسة جارشا) لأ. جارشا(الابن) تشتمل على تقرير حول الذاكرة وعلاقتها بالصوت البشرى، ألقى بأكاديمية العلوم بباريس».

تركت البائع يهتم بزبائن آخرين وأخذت أقرأ الكتاب. وينبغى القول إنّى كنت أقرأ بنهم ربما شابه إثارة النهم الذى يقترب به الشاب الذى لا أخلاق له نحو الكتابات الإباحية. ها هو ذا: وجدت الطريق الذى قادنى إلى كارلا، كانت تحتاج إلى ذلك العمل، وشعرت بالجرم لو لم أطلعها عليه. اشتريته وعدت إلى البيت.

يتألف عمل جارشا من جزءين، أحدهما نظرى والآخر عملى. أخذت أقرؤه بغرض أن أستوعبه كاملاً؛ حتى أتمكن من تقديم إرشاداتى لكارلا

فيما بعد عندما أذهب لزيارتها مع كوبلر. فى غضون ذلك كان لدىَّ المتسع من الوقت لأعيش أحلامى فى هدوء، على الرغم من روح المغامرة التى كانت تداعب تفكيرى وتنتظرنى.

لكن أوجوستا هى التى دفعت الأحداث بسرعة. قاطعت قراءتى لكى تلقى علىّ التحية، انحنت بالقرب منّى ومست خدى بشفتيها. سألتنى عما أفعله وعندما سمعت أن الأمر يتعلق بأسلوب فنى جديد، ظنت أنه يخص آلة الكمان ولم تبالِ بتدقيق النظر فيما أقرأ. أما أنا فبعد ما تركتنى، بالغت فى تقدير الخطر الذى تعرضت له، ورأيت أنه من الأفضل أن أبعد هذا الكتاب عن مكتبى حرصاً على سلامتى. كان علىّ أن أحمله مباشرة إلى وجهته، وعلى هذا النحو اضطررت إلى التوجه نحو مغامرتى. لقد عثرت على أكثر من ذريعة للقيام بما كنت أرغب فيه.

لم يراودنى أى نوع من أنواع التردد. وصلت إلى راحة السُّلم، وتوجهت مباشرةً إلى الباب على الجانب الأيسر من السلم. لكنّى توقفت للحظة أمام الباب للاستماع إلى غناء القطعة الموسيقية "رايتى"، التى كان صداها يهيمن على السلم. كان يبدو أن كارلا أخذت تغنى المقطوعة ذاتها، طوال تلك الفترة. ابتسمت وكانت تغمرنى مشاعر الحب والرغبة الصِّبيانية. ثم فتحت الباب بحذر دون أن أقرعه ودخلت الحجرة على أطراف قدمى. كنت أود رؤيتها سريعًا، فى الحال. كان صوتها رديئًا حقًّا فى المحيط الضيق. كانت تغنى بحماس أشد، مما كانت عليه تلك المرة التى قمت فيها بزيارتها. كانت تستلقى بالفعل على ظهر المقعد لكى

تخرج أنفاسها كلها من الرئتين. رأيت منها رأسها الصغير فقط تلتف حوله جديلتا شعرها الضخمتان، فانسحبت وقد انتابنى إحساس عميق بأنّى تجرأت أكثر مما ينبغي. في تلك الأثناء كانت قد وصلت إلى النغمة الأخيرة التى لم ترغب فى أن تنهيها، وتمكنت أنا من العودة إلى راحة السلم وإغلاق الباب ورائى دون أن تشعر بوجودى. حتى النغمة الأخيرة كانت تترنح كذلك صعوداً وهبوطًا قبل أن تثبت بصورة سليمة. كانت كارلا إذن تحس بالنغمة الصحيحة، وكان على جارشا أن يتدخل عندئذ ليعلمها كيف تعثر على تلك النغمة في أسرع وقت ممكن.

قرعت الباب عندما شعرت بأنّى أهدأ. أسرعت تفتح الباب على الفور، ولن أنسى مطلقًا صورتها اللطيفة، وهى تستند إلى الباب، وتحدق فى بعينيها الواسعتين داكنة اللون، قبل أن تتمكن من التعرف علىّ فى العتمة.

لكنّى فى تلك الأثناء شعرت بالهدوء، حتى إنّى تغلبت على ما راودنى من تردد. شرعت فى خيانة أوجوستا، لكنّى أخذت أفكر كيف استطعت أن أكتفى بالوصول إلى الحديقة العامة فى الأيام الماضية، وكم كان سهلاً علىّ للغاية أن أتوقف أمام ذلك الباب، وأسلم ذلك الكتاب المتواطئ معى ولأنصرف بعد ذلك راضيًا تمامًا. كانت لحظة وجيزة مفعمة بالقرارات الجيدة. تذكرت أيضًا نصيحة غريبة وجهت إلىّ؛ حتى أبرأ من عادة التدخين وربما أفادت فى تلك المناسبة: يكفى فى بعض الأحيان إشعال عود ثقاب، للشعور بالرضا، ثم إلقاء السيجارة وعود الثقاب بعد ذلك بعيداً.

كان سهلاً عليّ أن أفعل أيضًا ذلك الشيء، حيث إن كارلا نفسها، عندما تعرفت عليّ، احمرّ وجهها وفرت مسرعة؛ لأنها شعرت بالخجل – كما عرفت بعد ذلك – لأنّي وجدتها في ثياب منزلية بالية.

فور أن علمت بذلك، شعرت بالحاجة إلى الاعتذار، فقلت:

– أحضرت هذا الكتاب وأظنه هامًا بالنسبة لكِ. إن شئت، يمكنني أن أتركه وأنصرف في الحال.

كانت نبرة كلماتي وليس مغزاها حادة بعض الشيء – أو هكذا بدت لي – فعلى العموم تركت لها حرية الاختيار لتقرر هي نفسها: هل يجب أن أنصرف أم أبقى وأخون أوجوستا.

قررت على الفور، فقبضت بيدها على يدي لتستبقني على نحو مطمئن وأذنت لي بالدخول. غشى الانفعال على بصري، وأظن أن الملامسة الناعمة لتلك اليد ليست وحدها التي أثارته، بل الشعور بالألفة الذي رأيته حاسمًا لمصيري ومصير أوجوستا. لهذا أعتقد أنّي دخلت ببعض التحفظ، وكلما استحضرت بذاكرتي قصة أول خيانة لي، ينتابني إحساس بأنّي ارتكبتها مدفوعًا إليها.

كان وجه كارلا الذي تكسوه الحمرة جميلاً حقًا. أدهشتني المفاجأة السارة عندما علمت أنها كانت تأمل أيضًا في زيارتي، حتى ولو لم تكن في انتظاري. قالت لي في مجاملة عظيمة:

– شعرتم إذن بالحاجة إلى رؤيتي مرة أخرى؟ لتروا الفتاة البائسة التي تكن الكثير لسيادتكم؟

وبلا شك، لو شئت، لضممتها في الحال بين ذراعي، لكنّي لم أفكر في ذلك على وجه الإطلاق. انشغل تفكيري به قليلاً حتى إنّي لم أجب عن أسئلتها التي بدت لي محفوفة بالمخاطر، وأخذت أتحدث معها عن كتاب جارشا وعن أهميته بالنسبة لها. تحدثت في اندفاع أدى بي إلى التلفظ بكلمات ليس لها أهمية. سيعلمها جارشا الأسلوب الذي ترسخ به النغمات الموسيقية كالمعدن وتطلقها ناعمة كالهواء. سيفسر لها كيف أن النغمة لا تمثل إلا خطًا مستقيمًا بل ومستوى للصوت، لكنه مستوى مصقول تمامًا.

تلاشت حماستي فقط عندما قاطعتني كي تطلعني على شك يؤلمها:

– إذن غنائي لا يروق لسيادتكم؟

أدهشني سؤالها. كان نقدي فجًا، لكنّي لم أشعر به واحتججت بنية سليمة خالصة. اعترضت بشدة حتى بدا لي أنّي عدت إلى حبي من جديد، وأنا أتحدث عن الغناء فقط، الحب الذي انتصر وساقني إلى ذلك البيت. وجاءت كلماتي حانية حتى إنها أظهرت شيئًا من الصدق:

– كيف تظنين هذا؟ أكنت أجيء إلى هنا لو كان الأمر كذلك؟ مكثت على راحة السلم لفترة كبيرة لكي أستمتع بغنائك العذب والجميل على الرغم من سذاجته. أرى فقط أنه يلزم شيء آخر لبلوغ درجة الإتقان، فجئت لأحمله لكِ.

أي قوة تلك التي ملأت داخلي بالتفكير في أوجوستا، وأنا لم أكف عن الاحتجاج في إصرار بأنّي لم أكن منساقًا وراء رغبتي!

أخذت كارلا تنصت إلى كلماتى المغرية التى لم تكن قادرة على معرفة مداها. لم تكن على درجة عالية من الثقافة، لكنّى أدركت ، والدهشة تأخذنى، أنها تتمتع بالكياسة. حكت لى أنها نفسها لديها شكوك كبيرة حول موهبتها وصوتها: كانت تشعر أنها لا تبدى أى تقدم. كثيرًا ما كانت تسمح لنفسها باللهو، بعد قضاء بضع ساعات فى حجرة المكتب، وتكافئ نفسها بغناء "رايتى" على أمل أن تكتشف فى صوتها مزايًا جديدة. واستمر الأمر على منوال واحد: لم يذهب إلى أسوأ مما كان، وربما اكتسب شيئًا من الجودة حسبما كان يؤكده كل من سمعوها وأنا معهم (وهنا رمقتنى بعينيها الجميلتين السوداوين بنظرة استفهام هادئة تنم على حاجتها لما يطمئنها عن مدلول كلماتى التى كانت تبدو لها مشوبة بالشك)، لكن لم يكن هناك تقدم حقيقى. كان المعلم يقول إنه ليس هناك تقدم بطىء فى الفن، بل قفزات كبيرة تؤدى إلى الهدف ويأتى يوم تجد نفسها فيه فنانة عظيمة.

– لكنه درب بعيد – أضافت وهى تحملق بعيداً، ولعلها كانت تستعيد ساعات الملل والألم.

يوصف بالأمانة من كان يتمتع أولاً بالصراحة، ومن وجهة نظرى فلعله كانت من الأمانة الحقيقية أن أنصح الفتاة المسكينة بأن تترك دارسة الغناء وتصير عشيقة لى. ولكنّى ما كنت تجاوزت بعد حدود الحديقة العامة، فضلاً عن أنّى لم أكن واثقًا من حكمى فى مسألة فن الغناء، وماذا كان يمكن أن يكون خلاف ذلك. منذ فترة وأنا أنشغل انشغالاً

كبيراً بشخص واحد: كوبلر المزعج ذاك الذى كان يقضى كل عيد فى ڤيلّتى معى أنا وزوجتى. ولعلها كانت اللحظة التى أجد فيها ذريعة لأرجو الفتاة ألا تحكى لكوبلر شيئًا عن زيارتى. لكنّى لم أفعل، حيث لم أستطع أن أغلِّف طلبى وقد أحسنت، فبعد أيام قلائل مرض صديقى المسكين وقضى نحبه بعد ذلك مباشرةً.

مع ذلك قلت لها إنها ستجد في جارتشا كل ما تبحث عنه ولفترة قصيرة، بل اللحظة وحسب، أخذت تترقب المعجزات فى قلق من خلال هذا الكتاب. لكن سرعان ما انتابها الارتياب فى فعالية السحر، وهى تجد نفسها فى مواجهة كل ذلك الكلام. أخذت أقرأ نظريات جارشا باللغة الإيطالية، ثم أفسِّرها لها بالإيطالية وعندما لم يكن هذا كافيًا، أقوم بترجمتها بلهجة تريستى، لكنّها كانت لا تشعر بشىء يتحرك فى حلقها وما كان يمكنها من أن تلمس أى تأثير حقيقى فقط إلاّ إن ظهر ذلك في ذلك الموضع بعينه. وما يسىء هو أنّى أنا أيضًا، اقتنعت بعد قليل، بأن ذلك الكتاب لا يفيد بشىء وهو بين يدى. وإذ كنت أتفحص تلك الجمل لثلاث مرات ولا أعرف ماذا أعمل حيالها، كنت أنتقم لعجزى وأطلق لنفسي العِنان لأنتقدها. كان جارشا يبدد وقته ووقتى ليثبت أنه ليس من العدل اعتبار الصوت البشرى آلة واحدة فقط، لأنه قادر على إنتاج أصوات عديدة. وعلى هذا النحو فإن آلة الكمان أيضًا لابد أن نعتبرها تجمع آلات مع بعضها البعض. ربما أخطأت وأنا أكشف لكارلا عن نقدى هذا، لكن بالقرب من امرأة أرغب فى استمالتها يشق علىّ أن

أتماسك وأهدر الفرصة المواتية التى أظهر لها فيها أهمية معارفى. واقع الأمر أنّى أثرت إعجابها، غير أنها أبعدت بالفعل عنها ذلك الكتاب الذى كان بمثابة وسيط الغرام جاليوتو بالنسبة لنا، لكنّه لم يصاحبنا حتى الخطيئة. وما كنت مستسلمًا لفكرة الامتناع عنها، فأرجأت الأمر إلى زيارة أخرى. وعندما لقى كوبلر حتفه لم تعد هناك حاجة لزيارة إليها. انقطعت كل صلة بين ذلك المنزل وبينى، وعلى هذا النحو فإن اندفاعى لم يكن ليوقفه إلا ضميرى.

لكننا مع ذلك أصبحنا صديقين حميمين، كانت بيننا مودة أكبر مما يمكن أن تنشأ خلال نصف الساعة نتبادل فيها الحديث. أعتقد أن الاتفاق فى الرأى النقدى يوثق الألفة. انتهزت المسكينة كارلا الفرصة من تلك الألفة وأشركتنى فى أحزانها. كانت تعيش هى ووالدتها حياة متواضعة لدى مساعدة كوبلر لهما، لكن لم تكن هناك أشياء كبيرة تنقصهما فى ذلك المنزل. كان الهم الأكبر الذى يثقل على هاتين البائستين هو المستقبل. كان كوبلر يأتى لهما بمعونته فى تاريخ محدد، لكنه لم يسمح لنفسه بأن يحسبه بدقة؛ كان لا يريد أن يشغل باله بذلك وفضل أن تعنيا هما بالأمر. ثم إنه لم يكن يمنحهما تلك الأموال دون مقابل: فهو صاحب المنزل الحقيقى، وكان يرغب فى معرفة كل كبيرة وصغيرة. الويل لو سمحتا لنفسيهما بشراء شىء دون الرجوع إليه لطلب موافقته! منذ فترة وجيزة، كانت والدة كارلا تعانى من وعكة صحية، فانصرفت الابنة عن الغناء لبضعة أيام لكى تعتنى بشئون البيت. عندما علم كوبلر

بهذا الأمر من أستاذها، عنفهما غاضباً وانصرف وهو يقول إنه ما من جدوى إذن من إزعاج رجال كرام، وحملهم على تقديم المعونة لهما. ولبضعة أيام عاشتا فى فزع خشيةً أن يتركهما لمواجهة مصيريهما. ثم عندما عاد، وجدد اتفاقه معها وشروطه، وفى دقة حدد لهما عدد الساعات التى لابد أن تجلس فيها كارلا للعزف على البيانو كل يوم وعدد الساعات التى تهتم فيها بالمنزل. توعدهما أيضًا بأنه سيباغتهما بمجيئه فى أية ساعة من ساعات النهار.

- حقًا - وهكذا أنهت الفتاة حديثها قائلةً - إنه لا يريد سوى الخير لنا، لكنّه يغضب كثيراً لأسباب ليست لها أية أهمية، وها هو ذا شيئًا فشيئًا، حتى إن غضبه هذا قد يحمله مرة، على أن يلقى بنا على قارعة الطريق. أما الآن وسيادتك تهتم أيضًا بشئوننا، فلم يعد هناك خطر، أليس الأمر كذلك؟

وشدت على يدى مرة أخرى. وحيث إنّى لم أجب فى الحال، خافت من أن أكون متضامنًا مع كوبلر، فأضافت:

- السيد كوبلر أيضًا يقول إن لك قلبًا كبيراً!

قالت هذه الجملة بقصد مجاملتى، لكنّها كانت مجاملة لكوبلر أيضًا.

الصورة المنفرة التى رسمتها لى كارلا عنه كانت جديدة بالنسبة لى، وأثارت بداخلى بالفعل تعاطفًا معه. كنت أود أن أشبهه فى حين أن

الرغبة التى دفعتنى إلى المجىء إلى ذلك المنزل تجعلنى شخصًا مختلفًا عنه كثيرًا! حقًا كان يحضر إلى المرأتين أموال الآخرين، لكن كان يكرس جهده كاملاً، جزءًا من حياته الذاتية. إن ثورة الغضب التى كان يوجهها لهما، كانت بالفعل لأب ثائر. لكن راودنى بعض الشك: وإذا كانت الرغبة تستحوذ عليه وتدفعه إلى تلك المهمة؟ دون تردد سألت كارلا:

– هل طلب منك كوبلر قُبلة من قبل؟

– مطلقًا! – أجابت كارلا بحماس – عندما كان يرضى عن أدائى، يعبِّر عن موافقته باقتضاب، ويصافح يدى بخفة وينصرف. مرات أخرى، عندما يثور غضبه، يرفض حتى المصافحة باليد، ولا يدرك حتى أنِّى أبكى أحيانًا من الخوف. ولو كانت هناك قبلة، لكانت بمثابة النجاة لى فى تلك اللحظة.

تنبهت لأنِّى أخذت أضحك، ففسرت كلامها بصورة أفضل:

– قد أتقبل قبلة وأنا مقرَّة بالجميل من رجل هَرِم أكنّ له الكثير!

هاهى ذى ميزة المرضى الحقيقيين؛ يبدون مسنين أكثر مما هم عليه فى الحقيقة.

قمت بمحاولة ضعيفة أحاكى بها كوبلر. فى ابتسامة حتى لا أخيف الفتاة المسكينة، قلت لها إنِّى كذلك عندما أهتم بشخص، يفضى بى الأمر إلى أن أصبح حازمًا. على العموم كنت أرى أنا أيضًا أنه عندما يدرس المرء فنًا من الفنون عليه أن يأخذه مأخذ الجِد. ثم غاليت وتقمصت

دورى حتى توقفت عن الضحك تمامًا. كان كويلر محقًا عندما يصبح قاسيًا مع فتاة لا تستطيع أن تدرك قيمة الوقت: كان لابد أيضًا أن تتذكر كم من الأشخاص يقومون بتضحيات لتقديم يد العون لها. كنت بالفعل جادًا وحازمًا.

وهكذا حانت ساعة الذهاب لتناول الغذاء، ولم أرد أن أبقى أوجوستا فى انتظارى فى ذلك اليوم خاصةً. صافحت كارلا، وعندئذ أدركت كم كانت شاحبة. رغبت فى تهدئتها:

– كونى مطمئنة، سأبذل ما فى وسعى لكى أساندك عند كويلر والآخرين جميعهم.

وجهت الشكر لى، لكن بدا عليها الانكسار على الرغم من ذلك. ثم علمت فيما بعد أنها عندما رأتنى قادمًا، كاد تخمينها يقودها إلى الحقيقة، حيث ظنت أنّى مغرم بها وعلى ذلك شعرت بالرضى. فى حين أنه فيما بعد – وتحديداً عندما تأهبت للانصراف – اعتقدت أنّى أنا أيضًا عاشق للفن وللغناء وحسب؛ ومن ثم فإن لم تجد الغناء وتحرز تقدمًا، فسوف أتخلى عن زيارتها.

أحسست بأنها خائرة العزم. غلبت علىّ الشفقة، ونظراً لأنه لم يكن هناك وقت آخر لإهداره، هدأت من روعها بالأسلوب الذى حددته هى نفسها على أنه هو الأمثل. كنت قد وقفت بالباب وجذبته نحوى، أزحت بأنفى بعناية شديدة تلك الجديلة الكبيرة من جانب عنقها، وهكذا دنوت

منه بشفتي ومسسته حتى بأسناني. كان الأمر يبدو، مزاحًا وضحكت هي منه أيضًا، لكن في اللحظة التي تركتها فيها فقط. فحتى تلك اللحظة ظلت مستسلمة ومندهشة بين ذراعي.

رافقتني حتى راحة السلم، وعندما بدأت هبوط درج السلم، سألتني وهي تضحك:

– متى ستعود؟

– في الغد أو ربما في وقت لاحق! أجبتها في غير تأكيد. ثم بنبرة أكثر حسمًا:

– دون شك سآتي غدًا! ولهذا، ثم بدافع من رغبتي في عدم التورط أكثر مما ينبغي، أضفت قائلاً: – سنستأنف قراءة كتاب جارشا.

لم تغير تعبيرات وجهها في تلك اللحظة: وافقت على أول وعد غير موثوق به، رحبت بالوعد الثاني وهي ممتنّة، ووافقت كذلك على اقتراحي الثالث، وهي لا تزال تبتسم. إن السيدات يعرفن دائمًا ما يرغبن فيه. لم يكن هناك تردد من جانب أدا وهي ترفضني، ولا من ناحية أوجوستا عندما أخذتني، ولا حتى من كارلا، التي لم تبدِ أية مقاومة.

وأنا بالطريق سرعان ما شعرت بأنّي أقرب من أوجوستا عنّي من كارلا. استنشقت الهواء المنعش الطلْق، وشعرت بحريتي كاملة. لم أفعل شيئًا غير الدعابة، ولا يمكن له أن يأخذ طابَعًا آخر؛ لأنه انتهى عند ذلك العنق تحت تلك الجديلة. نهاية الأمر أن كارلا قبلت القبلة على أنها وعد بالمودة وبتقديم المعونة على الأخص.

غـيـر أنّه بدأت بـالفـعل مـعـاناتى فـى ذلك اليـوم، وأنـا جـالس إلى المـائدة. كانت مغامـرتى ماثلة بينى وبين أوجوستا، كظل ضـخم معتم هيأ لى أنه من المسـتـحـيل ألاّ تراه هى أيضًـا. كنت أشـعـر بضـآلة نفـسى، وبذنبى ومـرضى، وبالألم الذى كـان بجـانبى، وكـأنه ألم فى الأعـصـاب الوديّة يبـعـثـه جـرح عـميق فى ضـمـيـرى، فى حين كنت أتظاهر بتناول الطعـام وأنا شارد الذهن، أخذت أبحث عن راحتى فى قرار حـاسم: «لن أراها أبداً – أخذت أفكر– وإن كانت هناك ضـرورة أن أراهـا مرة أخرى، مراعاة لها، ستكون المرة الأخيرة». ثم لن يتطلب ذلك منّى كثيراً: جهد واحد فقط، وهو ألا أرى كارلا ثانيةً.

سألتنى أوجوستا، وهـى تضـحك:

– هل ذهبت إلى أوليفى، إنّى أراك مشغول البال جداً؟

أخذت أضـحك أنا أيضـاً. كانت راحـتى الكبيرة تتـمثل فى أن أتمكن من التـحدث معـها. ومـا كـان الكلام ليقدر على إدخال السـلام الكامل إلى نفسى؛ لأنّى لو قلت ذلك الكلام لاضطررت إلى الاعتـراف ثم تقديم الوعود، ولمـا لم أستطـع القيـام بذلك، وجدت ضـالّتى فى حـديث آخر. اسـترسلت فى الحديث، وأنا أظهر البهجة واللُّطف. ثم وجدت ما هو أفضل من ذلك: ذكرت حجـرة غسـيل المـلابس التى كانت ترغب فيـها كثيراً وحـتى تلك اللحظة لم أوافقها عليها، وعلى الفور أذنت لها أن تبدأ فى بنائها. تأثّرت كثيراً بموافقتى التى لم تلح حينئذ فى طلبها، ونهضت لتعطينى قبلة. هاهى ذى قبلة من الواضح أنها أخذت تمحو الأخرى، وشـعـرت بعدها على الفور بتحسن.

وهكذا أصبح لدينا حجرة للغسيل وإلى اليوم، عندما أمر أمام هذا المبنى الصغير، أتذكر رغبة أوجوستا فيه وتأييد كارلا له.

أعقبت ذلك فترة ما بعد ظهيرة ساحرة يغمرها حبنا. كان ضميرى يؤلمنى بصورة كبيرة وأنا بمفردى. أما كلمات أوجوستا وحبها فقد عملا على تهدئته. خرجنا معًا. اصطحبتها بعد ذلك عند والدتها، وأمضيت أيضًا الأمسية كلها معها.

قبل أن أستسلم للنوم، كما كان يحدث لى أحيانًا كثيرة، تأملت طويلاً زوجتى وكانت غارقة فى نومها، تتنسم أنفاسها الخفيفة. حتى فى أثناء نومها كانت كاملة النظام، تصل الأغطية حتى ذقنها، وشعرها الخفيف تضمه جديلة صغيرة معقودة تتدلى عند العنق. أخذت أفكر: «لا أريد أن أسبِّب لها أية آلام. مطلقًا!». خلدت إلى النوم هادئًا. رأيت أن أستوضح فى اليوم التالى علاقتى بكارلا، وأجد الوسيلة لأطمئن الفتاة المسكينة على مستقبلها، ولكن دون أن أضطر إلى تقبيلها.

حلمت حلمًا غريبًا: لم أكن أقبِّل عنق كارلا وحسب، لكنّى كنت ألتهمه. غير أن الجروح التى كنت أحدثها برغبتى المحمومة فى ذلك العنق كانت لا تدميه؛ لذلك ظل يحتفظ ببشرته البيضاء وميلها الطفيف. كانت كارلا، وهى مستسلمة بين ذراعى، لا يبدو عليها الألم مما أفعله، فى حين أن أوجوستا التى هرعت فجأة هى التى كانت تتألم. قلت لها لأهدئ من روعها: «لن ألتهمه كله: سأترك لكِ أيضًا جزءًا منه».

اتخذ الحلم شكل الكابوس فقط عندما استيقظت فى منتصف الليل، وانقشع الضباب عن ذهنى واستطعت أن أتذكره، ولم يكن هكذا قبل ذلك؛ لأنه على مدى اللحظة التى استمر فيها، لم يستطع حتى وجود أوجوستا أن ينتزع عنّى شعورى بالشبع الذى كان يمنحنى إياه.

ما إن أفقت، حتى أدركت تمامًا قوة رغبتى والخطر الذى تمثله بالنسبة لأوجوستا ولى أنا أيضًا. ربما كانت المرأة التى تنام إلى جوارى تحمل حياة جديدة سأكون مسئولاً عنها. ومن يدرى ما الذى ستطالبنى به كارلا لو أصبحت عشيقتى؟ كانت تبدو لى راغبة فى المتعة التى كانت تتوق إليها حتى تلك اللحظة، وكيف كان لى أن أعول عائلتين؟ كانت أوجوستا تطلب حجرة الغسيل النافعة، وسوف تطلب كارلا أشياءَ أخرى، لكنها لن تكون أقل تكلفة. تراءت لى كارلا ثانيةً عندما كانت تُحَيِّينى على راحة السلم وهى تضحك بعد أن قبلتها. كانت تعرف آنفًا أنى سأقع فى حبائلها. أصابنى الفزع من ذلك وهناك، فى وحدتى فى الظلمة المعتمة، لم أستطع أن أتمالك نفسى فتأوهت.

استيقظت زوجتى فى الحال، وسألتنى ماذا بى فأجبتها بعبارة وجيزة، بأول عبارة وردت فى ذهنى عندما استطعت أن أتمالك وأنزع عن نفسى الخوف، وهى توجه لى سؤالاً فى لحظة خلت فيها أنى صحت بالاعتراف:

– أفكر فى الشيخوخة الداهمة!

ضحكت وحاولت تهدئتي، لكن دون أن تقطع نُعاسها الذى كانت تتشبث به. قالت لى العبارة ذاتها التى كانت تقولها دائمًا عندما ترانى مرتاعًا من الزمن الذى ينقضى:

– لا تفكر بالأمر، الآن ونحن شباب... فإن النوم مفيد للغاية!

أفادت النصيحة: توقفت عن التفكير فى الأمر وعدت إلى نُعاسى.

إن الكلمة فى الليل مثلها مثل شعاع من نور. يُضىء جزءًا من الواقع تتلاشى أمامه أوهام الخيال. لمَ ظللت أخشى كارلا المسكينة كثيراً وأنا لم أصبح عشيقها بعد؟ كان من الواضح أنّى بذلت ما فى وسعى كى أهدئ من حالتى. فى نهاية الأمر، فإن «الطفل» الذى خطر ببالى احتمال وجوده فى حضن أوجوستا لم يعطِ حتى تلك اللحظة أية إشارة بالحياة سوى بناية حجرة الغسيل.

نهضت من فراشى، وتقودنى أفضل القرارات. أسرعت إلى حجرة مكتبى ووضعت بعض المال فى ظرف رأيت أن أقدمه إلى كارلا فى اللحظة ذاتها التى أخبرها فيها بأنّى سأهجرها. وعزمت على الرغم من ذلك على أن أخبرها باستعدادى لإرسال أموال أخرى عن طريق البريد فى كل مرة تسألنى إياها كتابة العنوان الذى سوف أعرفها به. وفى اللحظة ذاتها التى هممت فيها بالانصراف، دعتنى أوجوستا بابتسامة رقيقة إلى اصطحابها إلى منزل أبيها. كان والد جويدو قد وصل من بوينس أيرس لحضور حفل الزفاف، وكان لابد من ذهابى للتعرف عليه.

دون شك كانت تهتم بى أكثر من اهتمامها بوالد جويدو. كانت ترغب فى تجديد الشعور بحلاوة اليوم السابق. لكن الأمر لم يعد كما كان: رأيت أنه من الصواب ألاّ أدع الوقت يمر بين قرارى الجيد وإمكانية تنفيذه. وبينما كنا نسير بالطريق أحدنا بجوار الآخر ونحن فى الظاهر، واثقين من حبنا، كانت تلك الأخرى قد حسبت نفسها محبوبة منّى. كان ذلك سيئًا. شعرت بتلك النزهة وكأنها إكراه حقيقى.

وجدنا چوڤانى وقد تحسنت صحته بالفعل. كان لا يستطيع فقط ارتداء الحذاء لتورم قليل بقدميه لم أبالِ به أنا أيضًا وقتئذ. كان مع والد جويدو فى حجرة الضيوف وقدمنى له. تركتنا أوجوستا على الفور لتلحق بأمها وأختها.

رأيت فى السيد فرانشيسكو سبيير رجلاً أقل ثقافة من ابنه. كان قصير القامة عريض الأكتاف، يناهز الستين من عمره، محدود الفكر، محدود الحيوية، ربما عاد ذلك أيضًا إلى سمعه الذى أصبح ضعيفًا إثر مرض تعرض له. كان يزج ببعض الكلمات الإسبانية فى حديثه بالإيطالية:

– فى كل مرة أجىء إلى تريستى... (قالها بالأسبانية والإيطالية معًا)

أخذ الشيخان يتحدثان عن الأعمال التجارية، وكان چوڤانى ينصت باهتمام لأن تلك الأعمال تشكل أهمية بالغة بالنسبة لمستقبل آدا. ومكثت أستمع وأنا شارد الذهن. سمعت أن السيد سبيير قرر تصفية

أعماله فى الأرجنتين وتسليم أمواله جميعها إلى جويدو ليستثمرها فى تأسيس شركة بتريستى؛ ثم يعود هو إلى بوينس أيرس ليعيش مع زوجته وابنته على ريع مزرعة صغيرة سوف تتبقى له. لم أعِ لمَ كان يحكى عن كل ذلك لچوڤانى فى حضورى، ولا أعرف ذلك ولا حتى اليوم.

بدا لى أنهما توقفا عن الحديث عند نقطة معينة، وهما ينظران إلىّ كأنهما يتوقعان منّى رأيًا، وحتى أبدو لطيفًا معهما، عقبت قائلاً:

- أرى أن تلك المزرعة لن تكون صغيرة إن كانت تكفى لمعيشتك!

على الفور صاح چوڤانى:

- ما الذى تقوله؟ أعاد صوته الصارخ إلى ذاكرتى زمانه الجميل، لكن دون شك لو لم يصرخ هكذا، لما تنبه السيد فرانشيسكو لملاحظتى. إلا أنه شحب وجهه، وهكذا قال:

- آمل خيراً فى أن يفى جويدو بتسديد أرباح رأس المال لى.

حاول چوڤانى أن يطمئنه، وهو لا يزال يصيح:

- الفوائد يسددها بالتأكيد! وحتى ضعفها أيضًا إن احتجت إليه! أليس هو ولدك؟

رغم ذلك لم تبدُ على السيد فرانشيسكو الطمأنينة، وظل ينتظر منّى أنا قولاً يريحه. أجبته فى الحال وكنت سخيًا فى الكلام؛ لأن إنصاته حينئذ أخذ يقل عما قبل.

ثم استمر الحديث بين رجلى الأعمال، لكنّى تنبهت جيداً من ألاّ أتدخل فى الحديث أكثر من ذلك. أخذ چوڤانى بين الحين والآخر يحملق فىّ من فوق نظارته ليراقبنى، وبدت لى أنفاسه المجهدة وعيداً. ثم استرسل فى الحديث، وعند نقطة معينة سألنى:

- أليس كذلك؟

أومأت برأسى فى حماس. لابد أن موافقتى بدت متحمسة للغاية؛ حيث كانت كل حركة من حركاتى تدفعها ثورة غضب اجتاحتنى، وأخذت حدتها فى ازدياد. ماذا كنت أفعل فى ذلك المكان تاركًا الوقت ينقضى وهو يفيدنى فى تحقيق نيّاتى الحسنة؟ يرغموننى أن أتجاهل عملاً نافعًا جداً بالنسبة لىِ ولأوجوستا! وبينما كنت أتأهب للاستئذان بالانصراف، اجتاحت الغرفة فى تلك اللحظة السيدات يصاحبهن جويدو. ذلك الذى فور وصول والده قدم للعروس خاتمًا رائعًا. لم يلتفت إلىّ أحد أو يوجه لى التحية، ولا حتى الصغيرة أنّا. وكان الخاتم بجوهرته المتلألئة بإصبع آدا التى كانت تريه لأبيها وهى لا تزال تسند ذراعها على كتف خطيبها. كانت السيدات ينظرن إليه كذلك فى حالة من النشوة.

حتى الخواتم لم أكن أهتم بها. ما دمت لا ألبس خاتم الزواج ذاته لأنه كان يعوق الدورة الدموية لدى! ودون أن أحيى أحداً، ذهبت إلى باب المنزل وتأهبت للخروج. لكن أوجوستا أدركت فرارى ولحقت بى. أدهشنى وجهها المضطرب. كانت شفتاها شاحبتين كيوم زفافنا، قبل قليل من ذهابنا إلى الكنيسة. قلت لها إن لدى أمراً عاجلاً. ثم أسعفتنى

الذاكرة، حيث أحسست بجيب الصديرى بنظارة خفيفة لطول النظر كنت قد اشتريتها منذ أيام قليلة، لمجرد الرغبة فى شرائها ولم أكن قد جربتها، فقلت لها إنه لدى ميعاد مع طبيب العيون لفحص نظرى الذى أظنه قد ضعف منذ فترة. ردت علىّ بأنه بإمكانى الانصراف على الفور، لكنها رجبتنى أن أتعامل بما يليق مع والد جويدو. رفعت كتفى من نفاد صبرى، لكنّى على الرغم من ذلك أرضيتها.

عدت إلى حجرة الاستقبال، فقابلنى الجميع بتحية لائقة. أما بالنسبة لى، فقد حظيت أنا أيضًا بلحظة من الرضا على الرغم من أنّى كنت واثقًا من أنهم سيلقون بى بعيدًا فى تلك اللحظة. سألنى والد جويدو، الذى لم تكن الأشياء واضحة أمامه وسط ذلك العدد الكبير من أفراد العائلة:

– هل سنلتقى مرة أخرى قبل رحيلى إلى بوينس أيرس؟

– أوه! – أجبت – كل مرة (قلتها بالإسبانية) ستجيئون سيادتكم إلى هذا المنزل، ربما تجدوننى هنا!

ضحك الجميع وانصرفت ظافرًا تصاحبنى أيضًا تحية سعيدة غمرتنى بها أوجوستا. انصرفت بانتظام بعد أن وفيت بالقيام بكل الشكليات المتعارف عليها، حتى تمكنت من السير فى طريقى مطمئنًا. إلاّ أنه كان هناك سبب آخر يخلصنى من الشكوك التى كانت حينئذ تقيدنى: أسرعت بمغادرة منزل حماى حتى أبتعد عنه بقدر المستطاع،

أى حتى أصل إلى كارلا. كان يراودهم الشك فى ذلك البيت ولم تكن المرة الأولى (كما كان يبدو لى) ويظنون أنّى أتآمر بدناءة ضد جويدو. قد تحدثت بنية سليمة وفى شرود تام عن المزرعة الموجودة فى الأرجنتين، وسرعان ما فسر چوڤانى حديثى كأنما فكرت فيه مليًا لأفسد العلاقة بين جويدو وأبيه. كان من السهل علىّ أن أبرر سلوكى مع جويدو إن لزم الأمر: وأما عن چوڤانى والآخرين، الذين شكوا فى ورأوا قدرتى على القيام بمكائد كتلك، فكان الثأر منهم كافيًا. هذا لا يعنى أنّى عزمت على الإسراع بخيانة أوجوستا. لكنّى كنت أفعل كل ما أرغب فيه فى وضَح النهار. إن زيارتى لكارلا لم تكن تحمل فى طياتها أية إساءة، بل إنه إذا ما تقابلت بالمصادفة مرة ثانية مع حماتى فى تلك الناحية، وإذا ما سألتنى عما أفعله هناك، لأجبتها على الفور:

– نعم، سيدتى! إنّى ذاهب إلى كارلا! لأن تلك كانت المرة الوحيدة التى ذهبت فيها كارلا دون أن أبالى بأوجوستا. كم أهاننى تصرف حماى معى!

لم أسمع صوت كارلا يتردد على راحة السلم. اعترانى الخوف للحظة: ربما خرجت؟ قرعت الباب، وعلى الفور دخلت قبل أن يأذن لى أحد. كانت كارلا موجودة بالفعل، لكنها كانت تجلس مع والدتها. كانتا تحيكان معًا فى مشاركة ربما كانت مألوفة لديهما، لكنّى لم أرها من قبل. كانت كلتاهما تقومان بالعمل بأطراف ملاءة كبيرة، لكن إحداهن كانت تجلس بعيدة تمامًا عن الأخرى. وها أنا ذا قد أسرعت إلى كارلا،

ووصلت عندها ووالدتها تصاحبها. كان الأمر مختلفًا تمامًا. ما كان يمكن تنفيذ قرارات طبية كانت أو سيئة. ظل كل شيء معلقًا كما كان.

نهضت كارلا في حرارة، وفي بطء رفعت العجوز نظارتها ووضعتها في جرابها. إلاّ أنني أحسست بضيق ربما كان لسبب آخر غير إعاقتي عن الإفصاح توًا عما يدور في نفسي. ألم تكن تلك هي الساعات التي حددها كوبلر من قبل للدراسة؟ حييت السيدة العجوز بتحية مهذبة، وحتى مثل هذا السلوك اللائق أحسسته يثقل عليّ. وجهت التحية أيضًا لكارلا دون الالتفات إليها. وقلت:

– جئت لأرى ما إن كان بإمكاننا أن ننظر في هذا الكتاب، وأشرت إلى مؤلف جارتشا الذي لم يمسه أحد، وظل على المنضدة في الموضع الذي تركناه فيه، ونخرج منه بأشياء أخرى مفيدة. جلست في المكان الذي شغلته في اليوم السابق وفتحت الكتاب في الحال. حاولت كارلا في بادئ الأمر أن تبتسم لي، لكنها عندما رأتني لا أستجيب لملاطفتها، ورغبة منها في إطاعتي جلست إلى جواري، لكي تنظر إلى الكتاب. كانت متحيرة؛ لا تفهم ما تقرؤه. نظرت إليها ورأيت يرتسم على وجهها تعبير ربما كان ينم عن الاستياء والعناد. فتخيلت أنها كانت تواجه لوم كوبلر لها بتلك الصورة. إلا أنها لم تكن قد تحققت بعد عما إذا كان لومي ذلك هو ذاته الذي كان يوجهه لها كوبلر؛ حيث إنها – كما حكت لي فيما بعد – كانت ما زالت تتذكر قبلتي لها في اليوم السابق، وكانت تحسب أنها قد نجت من ثورة غضبي إلى الأبد؛ ولذلك ظلت على استعداد لتحويل ذلك

الاستياء إلى ابتسامة ودود. وهنا علىّ أن أذكر؛ لأنه لن يكون لدى الوقت لذلك بعد الآن، أن ثقتها تلك بأنها أثرت علىّ بشكل قاطع بتلك القبلة الوحيدة التى منحتنى إياها، لم تعجبنى بحال من الأحوال: فالمرأة التى تفكر بهذا الأسلوب هى امرأة بالغة الخطورة.

لكن كانت نفسى فى تلك اللحظة مثل نفس كوبلر تمامًا مملوءة بمشاعر اللوم والاستياء. أخذت أقرأ بصوتٍ عالٍ الجزء ذاته الذى قرأناه من قبل فى اليوم السابق، وكنت قد نقدته بنفسى وأنا أقوم معها بدور المعلم المتحذلق، ولم أضف شيئًا آخر، وأخذت ألح على بعض كلمات بدت لى معبرة بشكل أوفر.

قاطعتنى كارلا بصوت بدت عليه الرجفة:

– أظن أننا قرأنا هذا من قبل!وهكذا اضطررت أخيرًا إلى أن أقول شيئًا من عندى. إن الكلمة فى حد ذاتها يمكن أيضًا أن تمنح شيئًا من الصحة. ولم يكن كلامى أكثر هدوءًا من حالتى النفسية وسلوكى وحسب، بل إنه أعادنى حتى إلى حياة رجال المجتمع:

– انظرى، يا آنستى، وصاحبت على الفور ندائى المتلطف بابتسامة يمكن أن تصدر أيضًا من شخص عاشق، أود أن أعيد النظر فى هذا الشىء قبل أن أنتقل إلى غيره. ربما حكمنا عليه بالأمس فى شىء من العجلة، وقد نصحنى صديق لى منذ وقت بأنه حتى نستوعب كل ما يقوله جارتشا ينبغى دراسته كاملاً.

أخيراً شعرت بالحاجة أيضًا إلى مراعاة وجود السيدة العجوز المسكينة التى لم تتعرض بلا شك لموقف عصيب مثل هذا طوال حياتها، مهما كان حظها منها قليلاً. ابتسمت لها ابتسامة كلفتنى جهداً أكبر مما كلفتنى إياه تلك التى منحتها لابنتها من قبل:

– الأمر لا يبعث على التسلية الكبيرة – قلت لها – لكن يمكن أن يشعر به فى شيء من الاهتمام أيضًا حتى من لا يشتغل بالغناء.

فى إصرار تابعت القراءة. من المؤكد أن كارلا كانت تشعر بتحسن، وأخذ يحوم على شفتيها الممتلئتين ما يشبه الابتسامة، فى حين ظلت العجوز تبدو وكأنها حيوان مسكين يعانى الأسر وهى تجلس فى تلك الحجرة لمجرد أن حياءها يمنعها من إيجاد الوسيلة التى تخرج بها منها. ثم إنّى ما كنت لأخشى رغبتى إبعادها عن تلك الحجرة مهما كان الثمن. لشد ما كان يوقعنى ذلك فى حرج الشبهات.

كانت كارلا أكثر منّى حسماً: رجتنى باحترام بالغ أن أتوقف عن القراءة للحظة والتفتت إلى الأم، قالت لها إن بإمكانها أن تنصرف على أن تستأنفا العمل فى تلك الملاءة بعد الظهيرة.

دنت السيدة منّى وهى تمد لى يدها بحركة متعثرة. فصافحتها بحرارة وقلت لها:

– أدرك أن هذه القراءة ليست مسلية على الإطلاق.

كان يبدو وكأنّي آسف لأنها تتركنا. انصرفت الأم بعد أن وضعت جانبًا تلك الملاءة التي كانت حتى تلك اللحظة في حجرها وهي على المقعد. ثم لحقت بها كارلا على راحة السلم لتقول لها شيئًا ما في حين كنت أتحرق لهفةً لعودتها أخيرًا بجواري. دخلت، أغلقت الباب وراءها، وعادت إلى مكانها وهي ترسم على فمها تعبيرًا جامدًا يذكر بالإصرار الذي يرتسم أحيانًا على وجه الأطفال. قالت:

- أستذكر دروسي كل يوم في مثل هذه الساعة. وقد حدث لي في تلك اللحظة بالضبط أن انشغلت بذلك العمل العاجل.

- ألا ترين أنّي لا أبالي مطلقًا بغنائك؟ صحت وهاجمتها بحضن عنيف دفع بي إلى تقبيلها في فمها أولاً ثم مباشرةً في الموضع ذاته الذي قبلتها فيه في اليوم السابق.

غريب! أخذت تذرف دمعًا غزيرًا وابتعدت عنّي. قالت وهي تبكي إنها تألمت كثيرًا عندما رأتني أدخل بذاك الأسلوب.

كانت تبكي بدافع تلك الشفقة المعروفة على الذات عندما يشعر بها من يجد من يرثي لآلامه. إن العبرات لم تكن تذرف من الألم، بل من قصة حياتها. هناك من يبكي عندما يصرخ من الظلم. حقًا كان من غير العدل إرغام تلك الفتاة الحسناء على الدراسة وهي جديرة بالتقبيل.

على العموم صار الأمر أسوأ مما كنت أتخيل. كان عليّ أن أبررّ سلوكي، ولكي أسرع بذلك لم آخذ الوقت اللازم لاختلاق كذبة، وحكيت

الحقيقة الكاملة. أخبرتها بلهفتى لرؤيتها ولتقبيلها. كنت قد عزمت على المجىء إليها فى ساعة مبكرة؛ وأمضيت طوال الليل فى اتخاذ هذا القرار. بالطبع لم أستطع إبلاغها بما كنت أنوى القيام به عندما آتى إليها، لكن لم تكن لذلك أهمية كبيرة. شعرت حقيقة باللهفة الأليمة ذاتها عندما رغبت فى الذهاب إليها لإخبارها برغبتى فى هجرها إلى الأبد، وعندما أسرعت لضمها بين ذراعى. ثم قصصت عليها ما حدث فى الصباح، وكيف أن زوجتى فرضت علىّ الخروج معها وحملتنى على زيارة والدها، وكيف أنّى قبعت هناك للاستماع إلى حديث عن أعمال تجارة لا تخصنى. وتمكنت فى نهاية الأمر من الانسحاب بعناء شديد لأقطع مسافة طويلة بخطوات سريعة وماذا وجدت؟ الحجرة تغطيها بالكامل تلك الملاءة!

انفجرت كارلا فى الضحك؛ لأنها فهمت أنّى لا أشبه كوبلر على وجه الإطلاق. كانت الابتسامة تعلو وجهها الحسن، وكأنها هالة قوس قزح، وقبلتها مرة أخرى.

كانت لا تتجاوب مع مداعبتى لها، بل تتحملها وهى مستسلمة، كان أسلوباً أعشقه ربما لأنّى أحب الجنس اللطيف كلما كان ضعيفاً. وللمرة الأولى قالت لى إنها علمت من كوبلر أننى أحب زوجتى كثيراً:

– لذلك لن تربط بيننا سوى صداقة قوية ولا شىء خلاف ذلك – هكذا أضافت، ولمحت على وجهها الجميل طيف قرار جاد اتخذته.

لم أصدق كثيراً ذلك القرار الحكيم جداً؛ لأن الشفاة ذاتها التى عبرت عنه لم تستطع حتى فى تلك اللحظة أن تنسحب من قبلاتى.

تحدثت كارلا طويلاً. كان من الواضح أنها رغبت فى إثارة شفقتى. أتذكر كل ما قالته لي وصدقته فقط عندما اختفت من حياتى. ظللت أخشاها طوال المدة التي كانت فيها إلي جوارى، وكنت أرى فيها امرأة سوف تغتنم فرصة تأثيرها علىّ إن عاجلاً أو آجلاً حتى تحطمنى وتقضى على أسرتي. لم أصدقها عندما أكدت لى أنها لا تبغى سوى الاطمئنان على حياتها وحياة والدتها. الآن أنا على يقين من أنها لم تخطط قط حتى تحصل منّى على أكثر مما كانت تحتاج إليه، وعندما أفكر فيها يحمر وجهى خجلاً لأنّى فهمتها وأحببتها على نحو سيئ جداً. لم تنل، المسكينة شيئًا منّى. كنت سأقدم لها لو أرادت كل ما تطلبه، فأنا ممن يوفون ديونهم. لكنّى كنت أنتظر دائمًا أن تطلب منّى.

حكت لي عن حالتها البائسة التي وجدت نفسها فيها عند رحيل والدها. اضطرت هى وأمها لشهور عديدة لأن تقوما بأعمال التطريز نهارًا وليلاً لحساب أحد التجار. كانت تعتقد ببراءتها أن المعونة ستأتيها من العناية الإلهية، حتى إنها فى الواقع ظلت أحيانًا تطل من النافذة لساعات وساعات لمراقبة الطريق الذى لابد أن تأتيها منه. غير أن كوبلر هو الذى جاء إليها. تعتبر نفسها حينئذ سعيدة لحالتها، لكنها كانت تقضى الليل هى ووالدتها فى قلق؛ لأن المساعدة التي يمنحهما إياها كانت مؤقتة. وإن اتضح يومًا أنها لا تملك الصوت ولا موهبة الغناء؟

كان كويلر يتركهما. ثم إنه كان يتحدث عن تقديمها على المسرح الغناء بعد بضعة أشهر من ذلك الحين. وإن حدث وأخفقت إخفاقًا تامًا في ذلك؟

حكت لي، وهي لا تزال تبذل جهداً في إثارة شفقتي، أن الكارثة المادية التي حلت بعائلتها قضت أيضًا على حلم حبها: لقد هجرها خطيبها.

قلت لها حيث كانت مشاعري بعيدة عن أية شفقة:

- هل قبلك كثيراً خطيبك ذاك؟ كما أفعل أنا؟

ضحكت حيث كنت أعوقها عن الكلام، وهكذا وجدت أمامي رجلاً رسم لي الطريق.

كان قد مضى وقت طويل على الساعة التي ينبغي أن أكون فيها بالمنزل لتناول الطعام، وجب عليّ الانصراف. كان ذلك كافيًا يومئذ. كنت بعيداً حقًا عن الندم الذي أبقاني يقظًا طوال الليل، وتلاشى تمامًا ذلك القلق الذي دفعني نحو كارلا تمامًا. لكنّي لم أكن مطمئن النفس. ربما قدِّر لي ألاّ أكون كذلك. لم ينْتَبْني شعور بالندم بما أن كارلا على أية حال وعدتني بقبلات كثيرة كنت أرغب فيها باسم الصداقة التي لا يمكن أن تسيء إلى أوجوستا. خيل لي أنّي اكتشفت سبب شعوري بعدم الارتياح الذي عادةً ما كان يدفع بالآلام للتوغل في جسدي. كانت كارلا تراني في صورة زائفة! كان بإمكانها أن تزدريني عندما أشتهي قبلاتها

في الوقت الذى أحب أوجوستا! وكانت هى ذاتها التى أظهرت تقديراً كبيراً لى؛ لأنها كانت في حاجة ماسة إلىَّ!

قررت أن أكسب تقديرها لى، وتفوهت بكلمات كان لها أن تؤلمنى، كما لو كنت أتذكر جريمة دنيئة، أو خيانة ارتكبتها عن محض إرادة، دون أية ضرورة أو منفعة.

كنت واقفًا بالباب على وجه التقريب وبهيئة الإنسان الهادئ الذى يعترف على مضض، قلت لكارلا:

- حكى لكِ كوبلر عن العاطفة التى أكنها لزوجتى. حقًا قال: إننى أحترم زوجتى كثيراً.

ثم أخذت أحكى لها جملةً وتفصيلاً قصة زواجي، وكيف أنّى وقعت فى حب أخت أوجوستا الكبيرة التى كانت لا تهتم بى؛ لأنها مغرمة بآخر، ثم محاولتى للزواج من أخت أخرى لها رفضتنى هى أيضًا، وكيف تهيأت فى النهاية للزواج من أوجوستا.

سرعان ما صدقت كارلا صحة روايتى. ثم علمت أن كوبلر كان على علم ببعض شئون منزلى وأخبرها ببعض تفاصيل غير صحيحة، أو تكاد، فقمت عندئذ بتصحيحها لها وتأكيدها.

- هل زوجتك جميلة؟ سألتنى وهى منشغلة البال.

- إنها مسألة أذواق، أجبتها.

كانت هناك مراكز تحذيرية لا تزال تعمل بداخلى.

قلت إنّي أحترم زوجتي، ومع ذلك لم أقل إنّي لا أحبها. لم أقل إنها تروق لي، وما قلت كذلك إنها ربما لا تعجبني. في تلك اللحظة رأيت أنّي صادق جداً؛ والآن أعلم أنّي بتلك العبارات خنت المرأتين معًا وخنت الحب كله، حبي أنا وحب كليهما.

واقع الأمر أن نفسي لم تكن قد هدأت بعد؛ بالفعل كان لا يزال هناك شيء ما. ورد إلى ذهني ظرف النيّات الحسنة فقدمته إلى كارلا. فتحته وأعادته إليّ وهي تقول إن كوبلر قد أحضر لها المعونة الشهرية منذ أيام قلائل، وإنها ليست بالفعل بحاجة إلى المال في ذلك الوقت. ازداد شعوري بالقلق من جراء فكرة قديمة كنت أعتقد فيها وتفيد بأن النساء الخطيرات حقًا هن اللاتي لا يرضين بالمال القليل. لاحظت حرجي وفي براءة جذابة أقدرها الآن فقط وأنا أكتب عنها، طلبت منّي بعض الكورونات لتشتري بها بعض الأطباق مكان تلك التي تحطمت في حادثة وقعت بالمطبخ.

ثم حدث شيء ترك أثرًا لا يمحى في ذاكرتي. في لحظة انصرافي قبلتها، لكنها تجاوبت هذه المرة مع قبلتي، بقوة شديدة. لقد سرى مفعول السم الذي بداخلي. وقالت في براءة شديدة:

– أحبك لأنك طيب جداً، حتى إن ثروتك لم تفسدك.

ثم في دهاء أضافت قائلة:

– أعرف الآن أنه لا داعي لأن أتسبب في تأخيرك، وأنه فيما عدا ذلك الخطر ليس هناك ما يخشى منه معك.

وعلى راحة السلم سألتنى ثانية:

- أبإمكانى أن أتخلص من أستاذ الغناء والسيد كويلر؟

قلت لها وأنا أسرع بهبوط السلم:

- سنرى!

وَهَا هو ذا شيء ظل معلقًا فى علاقتنا؛ أما بقية الأمور فقد تم تحديدها بوضوح.

ولّد ذلك فى نفسى شعورًا بعدم الارتياح، حتى إنّى ما أن خرجت للهواء الطلق، تحركت فى تردد عكس اتجاه منزلى. كادت تتملكنى الرغبة فى العودة فورًا عند كارلا لأفسِّر لها أمرًا آخر: حبى لأوجوستا. كان بوسعى أن أفعل ذلك، حيث لم أقل إنّى لا أحبها. نسيت فقط أن أتم لها تلك القصة الحقيقة التى رويتها، وأقول لها إنّى أحببت أوجوستا بحق فى نهاية المطاف. ثم إن كارلا قد استنتجت أنّى لم أكن أحبها مطلقًا؛ ولهذا السبب تجاوبت بحرارة شديدة مع قبلتى، وهى تؤكد تجاوبها ذلك بتصريحها لى بحبها. وشعرت أنه لولا ما حدث، لما صعب علىّ تحمل نظرة أوجوستا المعبرة عن ثقتها فى. والغريب أننى شعرت بسعادة قبل ذلك بقليل، حين حسبت أن كارلا على دراية بحبى لزوجتى، وعلى ذلك، وبإرادتها، كانت المغامرة التى أبحث عنها تتوافر لى على شكل صداقة تضاف إليها القبلات.

في الحديقة العامة جلست على أريكة، وأخذت أسجل على الحصى بعصاي، وأنا شارد الذهن تاريخ ذلك اليوم. ثم ضحكت بمرارة: كنت أعلم بأن ذلك التاريخ لن يحدد نهاية خياناتي، بل، إنها على العكس من ذلك بدأت في ذلك اليوم. كيف كان لي أن أتمالك عن العودة إلى تلك المرأة التي كانت رغبتي فيها شديدة وهي تنتظرني؟ ثم إنّي اتخذت بالفعل على عاتقي بعض الالتزامات، التزامات أمانة. فزت ببعض القبلات وفي المقابل لم يسمح لي إلاّ بدفع ثمن بعض الأواني الخزفية! ما كان يربطني بكارلا في ذلك الحين كان حقًا حسابًا لم يتم تسديده.

كان الغداء حزينًا. لم تسألني أوجوستا عن مبررات لتأخيري وأنا لم أعطها إياها. كنت أخشى أن أفضح نفسي، والأدهى من ذلك أنني طوال الطريق القصير ما بين الحديقة والبيت تركت خاطري لتعبث به فكرة أن أحكي لها كل ما حدث وأن قصة خيانتي يمكن أن ترتسم على وجهي الأمين. حسبتها الوسيلة الوحيدة لنجاتي. ولو حكيت لها كل شيء لوضعت نفسي تحت حمايتها ومراقبتها. ولكانت تلك حركة حاسمة بالدرجة التي أستطيع معها وقتئذ وأنا في كامل نياتي الحسنة، أن أسجل ذلك اليوم ليكون تاريخ بداية للإخلاص ولاستعادة الصحة.

تحدثنا في أمور شتى غير ذات أهمية. حاولت أن أكون مرحًا، لكنّي لم أتمكن حتى من محاولة أن أكون ودودًا. أما هي فقد كانت تتحدث دون حماس؛ كانت تتوقع دون شك تفسيرًا لم يأتها.

بعد ذلك، ذهبت لتستأنف عملها الكبير في إعادة ترتيب ملابس الشتاء فى خزانات خاصة. كثيراً ما كنت ألمحها بعد الظهيرة، وهى منهمكة في عملها، هناك، فى نهاية الممر الطويل، وتساعدها الخادمة. لم يكن ألمها العميق ليعوق نشاطها العفىّ.

وفى قلق، تنقلت كثيراً من حجرة فراشي إلى الحمام. وددت لو أنادى أوجوستا وأقول لها على الأقل إنّى أحبها لأنه بالنسبة لها - المسكينة، البسيطة، طيبة القلب! - كان ذلك كافيًا. لكنّى على العكس أخذت أمعن التفكير وأدخن.

بالطبع مررت بمراحل متنوعة. كانت هناك أيضًا لحظة أوقفت فيها لهفة شديدة دافع الفضيلة بداخلى، فأمام اللهفة الشديدة فى انتظار اليوم التالى أسرعت بالذهاب إلى كارلا. ربما كانت تلك الرغبة أيضًا وليدة شيء من النيّات الحسنة. واقع الأمر أن الصعوبة الكبيرة كانت تتمثل فى إمكانية، وأنا هكذا بمفردى، تعهدى والتزامى بواجباتي. الاعتراف الذى كان سيكفل لى تعاون زوجتى أصبح غير وارد؛ وعلى هذا النحو بقيت كارلا التى كنت أستطيع أن أقسم على شفتيها بقبلة أخيرة! من كانت كارلا؟ حتى الابتزاز لم يكن أكبر المخاطر التى أتعرض لها معها! كانت ستصبح عشيقتى فى اليوم التالى: من كان يدرى بتداعيات ذلك فيما بعد! تعرفت عليها فقط بقدر ما حدثنى عنها ذلك الأحمق كوبلر، وبناء على معلومات ترد من ذلك الأخير، فإن رجلاً أكثر منّى فطنة مثل أوليفى على سبيل المثال، لم يكن حتى ليقبل أبداً عقد صفقة تجارية.

كل نشاط أوجوستا الجميل، العفيّ بأركان بيتي بات مهدراً. وباء بالفشل ذلك العلاج الأكيد الذى لجأت إليه وهو زواجى وأنا فى خضم بحثى المضنى عن الصحة. بقيت مريضًا أكثر من أى وقت مضى ومتزوجًا على حساب نفسى وغيرى.

وبعد أن صرت بالفعل عشيقًا لكارلا، وعندما كنت أستعيد بذاكرتى فترة ما بعد تلك الظهيرة الحزينة لم أستطع أن أفهم لِمَ لم أمنع نفسى بقرار رجولى، قبل أن أتورط أكثر من ذلك. أسفت كثيراً على خيانتى قبل أن أرتكبها، حتى إننى كنت أرى بسهولة تجنبها. هناك دائمًا مجال للسخرية من الحكمة التى تأتى فيما بعد كما تثير السخرية كتلك التى تأتى فيما قبل، لأنها لا تنفع. فى ساعات المعاناة تلك سجلت حرف ك(كارلا) بحروف كبيرة فى قاموس مفرداتى وتاريخ ذلك اليوم مع تدوين ملاحظة: "الخيانة الأخيرة". لكن الخيانة الفعلية الأولى، التى جرّت وراءها خيانات أخرى، كانت تلك التى وقعت فيما بعد، فى اليوم التالى فقط.

فى ساعة متأخرة من اليوم، أخذت حمامًا، حين لم أستطع القيام بما هو أفضل. كنت أشعر بما يزعجنى على جسدى وأردت الاغتسال. لكنّى عندما وجدت نفسى فى الماء أخذت أفكر: «لكى أنظف نفسى علىّ أن أنوب تمامًا فى هذه المياه». ارتديت ملابسى بعد ذلك، فى تراخٍ، حتى إنّى لم أجفف نفسى جيداً. انقضى النهار وبقيت أنا بالنافذة أنظر إلى الأوراق الخضراء التى نبتت حديثًا بأشجار حديقتى. أخذتنى رجفة فظننتها الحمى ورضيت بها. لم أكن أرغب فى الموت بل فى المرض، مرض يفيدنى ذريعة لأفعل كل ما أرغب فيه، أو يمنعنى من القيام به.

بعد ما ترددت لفترة طويلة، جاءت أوجوستا عندى. عندما لمست مدى لُطفها وعدم شعورى بالاستياء، زادت رجفات جسدى حتى تخبطت أسنانى. ارتاعت، فأجبرتنى على أن ألزم الفراش. ظلت أسنانى تصطك من البرد، لكنّى كنت أعلم أنّى لست محمومًا ومنعتها من استدعاء الطبيب. رجوتها أن تطفئ المصباح، وتجلس إلى جوارى وألاّ تتحدث. لا أدرى كم من الوقت مكثنا على تلك الحالة: استعدت ما يلزمنى من الدفء وكذلك شيئًا من الثقة. لكن ذهنى ظل مشوشًا، حتى إنه عندما تحدثت أوجوستا مرة أخرى عن استدعاء الطبيب، قلت إنّى أعلم سبب وعكتى وسأخبرها به فيما بعد. عاودنى قرارى بالاعتراف لها. لم يتبق لى سبيل آخر أطرقه حتى أتخلص من شدة ضيق نفسى.

وبهذا جلسنا صامتين لفترة. فيما بعد انتبهت لأوجوستا تنهض من على المقعد وتدنو منّى. شعرت بالخوف: ربما كانت تشعر بكل شىء. أمسكت بيدى وربتت عليها، ثم وضعت كفها برفق على جبينى لتعرف ما إذا كانت به سخونة، ثم قالت فى النهاية:

– كان عليك أن تتوقع ذلك! لمَ كل هذه الدهشة المؤلمة؟

تعجبت من تلك الكلمات الغريبة التى كانت تخرج فى الوقت ذاته بين أنفاس سريعة. كان من الواضح أنها لم تكن تشير إلى مغامرتى. كيف كان لى أن أكون على هذا النحو؟ سألتها بنبرة حادة بعض الشىء:

– ماذا تعنى بهذا القول؟ ماذا كان علىّ أن أتوقعه؟

همهمت وهى مضطربة:

– وصول والد جويدو لزواج آدا ...

وفهمت أخيراً: كانت تظن أنّى أعانى من قرب زواج آدا. ورأيت أنها تتجنى علىّ حقيقة: لم أقع فى جريمة كتلك. شعرت بأنّى نقى وبرىء براءة الوليد، وأنّى فى الحال تخلصت من أى نوع من أنواع الضيق. قفزت من الفراش:

– أتظنين أنّى أتألم لزواج آدا؟ إنك لمجنونة! فمنذ أن تزوجنا، لم أفكر فيها مطلقًا. ولا أتذكر حتى أن السيد كادا وصل هذا اليوم!

قبلتها وأخذتها بين أحضانى برغبة شديدة، وفى حركة على درجة من الصدق خجلت معها من شكوكها فىّ.

وكذلك انجلى عن وجهها البرىء كل غيام، وأسرعنا لتناول العشاء معًا؛ لأننا كنا جائعين. ومثل رفيقين حميمين يقضيان إجازة، جلسنا إلى المائدة ذاتها، حيث عانينا كثيراً منذ بضع ساعات.

ذكرتنى أنّى وعدتها أن أخبرها بسبب معاناتى. اختلقت مرضًا، مرض يعطينى إمكانية أن أفعل ما يروق لى دون أن أكون مذنبًا. حكيت لها أننى منذ الصباح شعرت بإحباط شديد، وأنا بصحبة السيدين الشيخين. ثم ذهبت إلى طبيب العيون لأتسلم نظارتى التى نصحنى بها. ربما كان لعلامة الشيخوخة تلك أثرها الأكبر فى شعورى بالإحباط.

وأخذت أجوب شوارع المدينة لساعات وساعات. و قصصت عليها كذلك شيئًا من خيالاتى التى عذبتنى كثيراً، وأتذكر أنها تضمنت أيضًا لمحات من اعتراف. ولا أدرى ما هى العلاقة التى ربطت بها أيضًا بين المرض الوهمى، ودمائنا البشرية التى تحدثت عنها أيضًا والتى تدور، وتدور، حتى نستطيع أن نقف على أرجلنا، وأن نفكر ونعمل؛ ومن ثم نخطئ وننتدم. إنها لم تفهم أن الأمر يتعلق بكارلا، مع أنه يبدو أننى قلت ذلك.

بعد العشاء وضعت نظارتى على عينى ولوقت طويل تظاهرت بقراءة الجريدة، لكن ذلك الزجاج كان يشوش لى الرؤية. وازداد بذلك توترى النشوان وكأننى مخمور. قلت إنّى لا أقوى على فهم ما أقرؤه. وظللت أقوم بدور المرض.

قضيت ليلتى فى شبه أرَق. كنت أتلهف أحضان كارلا برغبة كبيرة. كنت أرغب فيها حقًا، فى تلك الصبية ذات الجدائل الثرية غير السجينة والصوت الموسيقى دون نغمات تفرض عليه. زاد من رغبتى فيها كذلك كل ما عانيت من أجلها. ظل يلح علىّ طوال الليل قرار حاسم. قررت أن أكون صادقًا مع كارلا قبل أن تكون امرأتى و أن أقول لها الحقيقة كاملةً بشأن علاقتى بأوجوستا. أخذت أضحك فى وحدتى: من الطريف جداً أن أذهب لاستمالة امرأة وعلى لسانى تصريح بحب أخرى. ربما تعود كارلا إلى عدم مقاومتها! ومع هذا؟ حتى تلك اللحظة لم يكن هناك أى تصرف لها من شأنه أن يقلل من قدر استسلامها لى، الذى كنت أرى أنّى واثق منه.

أشرق صباح اليوم التالى وأخذت أهمهم وأنا أرتدى ملابسى بالكلمات التى سأقولها لها. كان ينبغى أن تعلم كارلا، قبل أن تصبح عشيقتى، أن أوجوستا بطباعها وبصحتها أيضًا قد استطاعت أن تظفر باحترامى، بل وحبى كذلك (ربما كان يمكننى أن أسهب بالحديث عن تفسير ما أعنيه بالصحة، مما كان يفيد فى تربية كارلا أيضًا).

غرقت فى التفكير وأنا أتناول قهوتى، انشغلت بإعدادى ما سوف أقوله لها، حتى إن أوجوستا لم تحظ بأى علامة من علامات عاطفتى نحوها سوى قبلة سريعة سبقت انصرافى. آه لو كنت لها وحدها! كنت ذاهبًا عند كارلا لكى أستعيد إشعال حبى لها.

فور دخولى إلى حجرة مكتب كارلا، حظيت براحة كبيرة عندما وجدتها بمفردها ومتأهبة، حتى إنّى على الفور جذبتها نحوى، وأخذتها بين أحضانى بلهفة شديدة. أفزعتنى القوة التى صدتنى بها. كان عنفًا بحق!

وجدتها رافضة لى، وبقيت أنا وسط الحجرة وفمى فاغر، مع خيبة أملى الأليمة.

لكن كارلا ما إن تمالكت نفسها حتى همست:

– أما ترى أن الباب مازال مفتوحًا، وأن هناك من يهبط السلم؟

اتخذت هيئة الزائر المهذب حتى يمر ذلك المزعج. ثم أوصدنا الباب. اصفر وجهها عندما رأتنى أغلقه أيضًا بالمفتاح. وهكذا اتضح كل شىء.

ثم همست بصوت يختنق بين أحضـانى: - أترغب فى هـذا؟ أترغب فيه حقًا؟

تبادلت معى الحديث دون تكليف، وقد حسمت الأمـر. ثم أجبتها على الفور:

- بل إنّى لا أرغب إلاّ فيه!

نسيت أنّى كنت أريد أن أوضح لها شيئًا قبل ذلك.

كنت أرغب بعد ذلك مباشرةً في أن أبدأ كلامى معها عن عَلاقتى بأوجوستا بما أنّى أغفلت ذلك قبل ذلك. لكن الأمر أصبح صعباً فى تلك اللحظة. إن الحديث مع كارلا وقتئذ عن أشياء أخرى كان بمثابة تقليص أهمية عطائها. إن أكثر الرجال تبلداً يعلم أنه لا يمكن الإقدام على شىء كذلك؛ حيث إن الجميع يعلمون أنه ليس هناك وجه للمقارنة بين وقع اتخاذ هذا القرار قبل تنفيذه وبعده مباشرةً. إنها أكبر إهانة لامرأة، فتحت ذراعيها لأول مرة، لكى تسمع هذه الكلمات: «قبل كل شىء يجب أن أوضح لكِ تلك العبارات التى قلتها بالأمس...». ولكن ما شأننا بالأمس؟ فكل ما حـدث فى اليوم السابق يجـب أن يكون غير جـدير بالذكر، وإذا ما حـدث لرجل ألا يحس بذلك، فالويل له وعليه أن يسعى فى ألاّ ينتبه إليه أحد.

كنت بالتأكيد ذاك الرجل المهذب الذى لم يشعر بذلك؛ لأنّى لم أعرف كيف أتصنع تماماً مثلما أخطأت فى الصدق. سألتها:

– كيف حدث أن اسلمتنى نفسك؟ كيف كان لى أن أستحق شيئًا كهذا؟

هل كنت أريد إظهار الامتنان أم توجيه اللوم لها؟ لعلها لم تكن سوى محاولة للبدء فى توضيح بعض الأمور.

فى شىء من الدهشة نظرت إلى أعلى لترى تعبير وجهى:

– يبدو لى أنك أخذتنى، وابتسمت ابتسامة تحمل وداً لتثبت لىِ أنها لم تكن تنوى توجيه اللوم لى.

تذكرت أن السيدات يتطلبن قول الرجل برغبته فيهن. ثم أدركت بنفسها أنها أخطأت، وأن الأشياء هى التى تؤخذ، أما الأشخاص فيتفقون مع بعضهم فهمست:

– كنت أنتظرك! كنت الفارس الذى لا بد أن يأتى لفك قيدى. إنه لمؤسف حقًا أنك متزوج، ولكن لأنك لا تحب زوجتك فأنا أعلم على الأقل أن سعادتى لن تهدم سعادة أى شخص آخر.

داهمنى الألم بجانبى بشدة، حتى إنّى توقفت عن معانقتها. ألم أبالغ إذن فى أهمية كلماتى تلك غير الجديرة بالاعتبار؟ هل حقيقة كان كذبى هو الذى دفع كارلا لتكون لى؟ وعلى هذا إن كنت قد فكرت فى الحديث عن حبى لأوجوستا، فإن لكارلا الحق فى أن تلومنى وتتهمنى بالمخادعة! إن عملية تصحيح المفاهيم والتفسيرات لم تعد ممكنة فى تلك اللحظة.

لكن ربما أتيحت هناك الفرصة المواتية فيما بعد لكى أبرر سلوكى وأوضح الأمور. وفى انتظار أن تأتى، ها هو ذا رباط جديد ينشأ بينى وبين كارلا.

هناك إلى جوار كارلا، تولدت بداخلى لهفة شديدة نحو أوجوستا. فى تلك الأثناء لم تَنْتَبنى سوى رغبة واحدة: أن أسرع إلى زوجتى الحقيقية، فقط لأراها وهى مهتمة بعملها مثل النملة الدءوب؛ ترتب ملابسنا وتحفظها فى جو معبأ بالكافور والنفتالين.

لكنّى التزمت بواجبى، الذى زادت أهميته بصورة بالغة من جراء واقعة أزعجتنى كثيراً فى بادئ الأمر، وبدت لى بمثابة تهديد آخر يأتينى من خبايا ذلك المجهول الذى كنت أتعامل معه. حكت لى كارلا أنه بعد انصرافى مباشرةً فى اليوم السابق، جاء أستاذ الغناء وأنها، ببساطة، قامت بطرده.

لم أستطع أن أخفى حركة تعبِّر عن استيائى مما فعلت. ذلك كان يعنى بالضبط إخبار كوبلر بعَلاقتنا!

– ماذا سيكون رأى كوبلر فى ذلك؟ صحت.

أخذت تضحك وبمبادرة منها تلك المرة، احتمت بين ذراعى:

– ألم نقل من قبل إننا سنلقى به هو أيضًا خارج المنزل؟

كانت حسناء، لكنها لم تستطع حينئذ استمالة قلبى. اهتديت فى الحال أنا أيضًا إلى أسلوب يناسبنى، ألا وهو أسلوب المعلم؛ لأنه كان

يمنحنى كذلك إمكانية أن أفرغ ذلك السخط الذى كان عميقًا بداخلى تجاه تلك المرأة التى لم تسمح لى بالحديث عن زوجتى كما كنت أرغب. ينبغى العمل، آنسة، فى هذا العالم - قلت لها - لأنه، كما كان ينبغى أن تعلمى من قبل، عالم سيئ يصمد فيه الأكفاء فقط. وإذا فرضنا أنه لا بد أن يداهمنى الموت الآن؟ ما الذى يمكن أن يحدث لك؟ نظرت إلى احتمالية هجرى لها فيما بعد بصورة لا يمكن أن تشعر بالفعل معها بالإهانة وكان أن تأثرت حقًا. ثم قلت لها، بنية واضحة للتقليل من شأنها، إنه يكفى أن لزوجتى أية رغبة حتى أجدها تلبيها.

- حسنًا! - قالت فى استسلام - فلنرسل للأستاذ أن يعود! - ثم أخذت تحدثنى عن شعورها بالنفور تجاه ذلك المعلم. كان عليها أن تتحمل كل يوم رفقة ذلك العجوز المنفِّر الذى يجعلها تكرر التمارين ذاتها لمرات لا حصر لها وكانت لا تفيد بشىء، حقًا بلا جدوى. قالت إنها لا تذكر أنها قضت أيامًا طيبة إلا عندما أصابه المرض. تمنَّت كذلك أن يموت، لكن الحظ لم يكن حليفها.

وصلت فى نهاية الأمر إلى درجة من الحدة وهى تعبر عن شعورها باليأس. أخذت تعيد شكواها من تعاسة حظها، وتزيد: بؤس لا رجاء فيه. وعندما ذكرت لى أنها قد أحبتنى على الفور؛ لأنها فى سلوكى، وكلامى، ونظرات عينى رأت وعداً يأتى بحياة أقل قسوة، وإلزامًا، وسأمًا، رأيت الدمع فى عينيها.

وهكذا سرعان ما عرفت نحيبها وقد أزعجني؛ كان بكاؤها عنيفًا هزّ ذلك الجسد النحيف وهو يسيطر عليه تمامًا. هيئ لى أنّى فى الحال وقعت فريسة هجوم مفاجئ على جيبى وعلى حياتى. سألتها:

– أتظنين أن زوجتى لا تفعل شيئًا فى هذه الدنيا؟ وإننا نتحدث معًا الآن، أما هى فتعانى من رئتين ملوثتين بالكافور والنفتالين.

ارتفع صوت كارلا بالبكاء:

– المنزل وشئونه، والمقتنيات، والملابس... يالشقائها!

خطرت لى وأنا أتذمر فكرة أنها ترغب فى أن أسرع بشراء تلك الأشياء جميعها لها، ليس إلاّ لأن أوفر لها الانشغال الذى كانت ترغب فيه. لم أبدِ شيئًا من ثورة غضبى، حمداً للسماء وأذعنت لصوت الواجب الذى أخذ يهتف: «داعب الفتاة التى استسلمت لك!» فقمت بمداعبتها. مررت يدى برفق على شعرها. انسابت دموعها التى لم تستطع إيقافها غزيرة مثل المطر الذى يأتى بعد العاصفة.

– أنت أول عشيق فى حياتى – ثم أستأنفت الحديث – وآمل أن يستمر حبك لى!

إن تصريحها ذاك، بأنّى أول رجل فى حياتها، بما فيه من تحديد يمهد المكان لآخر، لم يؤثّر فىّ كثيراً. جاءت المعلومة فى وقت متأخر؛ حيث إننا تركنا الحديث فى هذا الشأن منذ نصف الساعة تقريبًا.

فضلاً عن كونه تهديداً جديداً. إن المرأة تظن أن لها كافة الحقوق لدى رجلها الأول. همست في أذنها برفق:

- وأنت أيضًا أول عشيقة لي... منذ أن تزوجت.

كانت عذوبة صوتي تحجب محاولة إظهار تعادل الجانبين.

تركتها بعد قليل؛ لأنّي لم أرغب في الوصول متأخراً على الغذاء مهما كلفني الأمر. قبل انصرافي أخرجت للمرة الثانية من جيبي ظرفًا، مثلما كنت أسميه، النيّات الحسنة لأن قراراً حسنًا قد أتى بها. أحسست بالحاجة إلى دفع الثمن حتى أشعر بحرية أكبر. بلطف أبت كارلا مرة أخرى أن تأخذ المال، وحينئذ غضبت بشدة، لكنّي استطعت أن أكظم غيظي، بأن صرخت بكلمات ناعمة للغاية. كنت أصيح لكي لا أضربها، غير أن أحداً ما كان يمكنه أن يدرك الأمر. قلت إن شهوتي قد بلغت ذروتها عندما امتلكتها وإنني أريد أن أشعر بامتلاكها أكثر وأنا أتكفل بنفقاتها كاملاً؛ ولذلك كان عليها ألاّ تثير غضبي، وإلاّ عانيت كثيراً. وإذ أردت أن أنصرف مسرعًا، لخصت في كلمات وجيزة أفكاري التي خرجت - في صراخي - بنبرة خاطفة جداً:

- أنتِ صاحبتي؟ لذا أتكفل بالإنفاق عليك.

توقفت، وهي مرتاعة، عن المقاومة، وأخذت الظرف وهي تحملق فيّ وتبحث عن الحقيقة، وعما إذا كان صراخ السخط أم كلمة الحب هي التي منحتها كل ما كانت تتمناه. عادت إلى شيء من صفاء نفسها

عندما لامست بشفتي جبينها عند انصرافي. ساورني الشك وأنا على درج السلم في أنها، بعد ما حصلت على تلك النقود وسمعتني أتعهد بمستقبلها، ستطرد كوبلر أيضًا في حالة ما إذا جاء لزيارتها بعد الظهيرة. كنت أود صعود السلم مرة ثانية لأنذرها بألاّ تجذب الأنظار لي بمثل ذلك التصرف. لكن الوقت كان قد أزف، واضطررت أن أنصرف مسرعًا.

أخشى أن يخطر ببال الطبيب الذي سيقرأ كتابي هذا أن كارلا تمثل أيضًا موضوعًا يدخل في اهتمام التحليل النفسي. سوف يرى أن ترك نفسها لي، قبل طردها معلم الغناء، كانت حركة عاجلة للغاية. وكان يبدو لي أنا كذلك أنها كانت تتوقع مني عطاءً أوفر مقابل حبها لي. احتجت إلى شهور، بل شهور كثيرة، حتى أفهم جيداً تلك الفتاة المسكينة. من المحتمل أنها لم تبد أية مقاومة معي لكي تتخلص من وصاية كوبلر التي كانت تشعرها بالقلق، ومن المؤكد أنها كانت مفاجأة مؤلمة لها، أن تعرف أنها وهبت نفسها هباءً؛ ذلك لأنّي واصلت مطالبتها بكل ما كان يزعجها كثيراً، ألا وهو الغناء. كانت لا تزال بين ذراعي، وعلمت أن عليها أن تستأنف دراسة الغناء. نتج عن ذلك كله سخط وألم تعجز الكلمات عن التعبير عنهما. وهكذا ولأسباب متفرقة تحدث كلانا بكلام غاية في الغرابة. عندما أحبتني هي، استعادت فطرتها الطبيعية التي كانت الحسابات قد انتزعتها منها. أما أنا فلم أجد سجيتي معها قط.

ورد بخاطرى وأنا أسرع بالخروج: «لو علمت كم أحب زوجتى، لتصرفت على نحو آخر». وعندما علمت بذلك سلكت بالفعل سلوكًا آخر.

فى الهواء الطلق تنفست حريتى ولم أشعر بالألم من إضرارى بها. كان لا يزال هناك وقت حتى اليوم التالى، وربما وجدت علاجًا للمشكلات التى كانت تحيط بى. وانتتنى أيضًا الجرأة، وأنا أسرع إلى البيت، حتى ألقيت باللوم على النظام الاجتماعى، كما لو أنه كان وراء تجاوزاتى. تصورت أنه لا بد أن يتسع النظام حتى يسمح لى بين الحين والحين (ليس دائمًا) بأن أتطارح الغرام، دون الخوف من تبعاته، حتى مع السيدات غير الجديرات بالحب مطلقًا. لم يكن هناك أى أثر للإحساس بالذنب بداخل نفسى؛ ولهذا فأنا أعتقد أن الإحساس بالذنب لا يتولد من الأسف على سيئة ارتكبت، بل من رؤية الإنسان لاستعداده لاقتراف الذنب. ينحنى الجانب العلوى من الجسد البشرى لينظر إلى الجانب الآخر ويحكم عليه فيجده مشوهًا.

يشعر بالتقزز من ذلك، وهذا يسمى بالشعور بالذنب. ثم إنه فى المأساة القديمة كانت الضحية لا تعود للحياة، وعلى الرغم من ذلك كان الإحساس بالذنب يعبر. هذا يعنى أن التشويه قد تم الشفاء منه، وأن بكاء الآخرين أصبح لا أهمية له. كيف يمكن للشعور بالذنب أن يحتل مكانًا بداخلى وأنا أسرع بكل الفرحة والحب إلى زوجتى الشرعية؟ لم أكن قد شعرت منذ وقت بعيد بمثل ما كان من نقاء نفسى فى تلك اللحظة.

حول مائدة الطعام، ودون أى افتعال منّى، كنت مرحًا وعاطفيًا مع أوجوستا. فى ذلك اليوم لم تكن هناك أية نغمات شاذة بيننا. لم يكن هناك ما يفوق الحد: كنت كما كان يجب علىّ أن أكون مع امرأتى الأمينة والمخلصة لى بالتأكيد. فى أحيان أخرى كان هناك إفراط من جانبى فى التعبير عن عواطفى، لكن ذلك كان فقط عندما كنت أقاوم بداخل نفسى صراعًا بين المرأتين. فكانت مبالغتى فى إظهار حبى لأوجوستا تسهل علىّ إخفاء وجود خيال امرأة أخرى ماثل بقوته بيننا؛ لذلك يجدر بى أيضًا أن أقول إن أوجوستا كانت تفضلنى عندما لا أكون معها بكامل كيانى وصدقى المفرط.

ولقد اندهشت أنا نفسى مما أنا عليه من هدوء، وأرجعت ذلك إلى نجاحى فى إقناع كارلا بقبول ظرف النيات الحسنة. ولا يعنى هذا أنّى اعتقدت بذلك سداد ما علىّ لها. لكنّى كنت أرى فيه بداية دفع قيمة مقابل ما يمنحنى من العفو. مع الأسف ظل المال يمثل اهتمامى الأساسى، طوال فترة علاقتى مع كارلا. كنت أحتفظ ببعضه كلما أمكننى ذلك، بعيداً فى مكان خفى فى مكتبتى، حتى أكون مستعداً لمواجهة أى احتياج مالى تحتاجه عشيقتى التى كنت أخشاها كثيراً. وعلى هذا النحو استفدت بذلك المال فى تسديد أشياء أخرى، عندما هجرتنى كارلا تاركة لى إياه.

كان لا بد أن نمضى الأمسية فى منزل والد زوجتى حول مائدة عشاء لم يدعوا إليها سوى أفراد العائلة، وكانت بديلاً عن المأدبة التقليدية، تمهيداً لحفل الزواج الذى كان ينبغى أن يتم بعد يومين من ذلك الحين.

أراد جويدو أن ينتهز فرصة تحسن صحة چوڤانى ليتم زواجه؛ لأنه كان غير واثق من استمرار ذلك التحسن طويلاً.

اصطحبت زوجتى فى ساعة مبكرة من بعد الظهيرة إلى منزل والدها. ذكرتها ونحن بالطريق أنها ارتابت فى اليوم السابق من أنّى ما زلت أعانى من أجل زواج آدا. فخجلت من ظنونها، وأخذت أتحدث أنا طويلاً عن براءتى تلك. أما عدت إلى منزلى وقد نسيت حتى ما أقيم من احتفال فى تلك الأمسية ذاتها، تمهيداً لعقد ذلك الزواج؟

على الرغم من أنه لم يكن هناك مدعوون آخرون غيرنا نحن أفراد العائلة، فإن آل مالفنتى أرادو أن تعد المأدبة إعداداً فخماً. طلبوا من أوجوستا أن تساعدهم فى تجهيز القاعة والمائدة. وأظهرت ألبرتا عدم اهتمامها بالأمر. فمنذ وقت وجيز كانت قد نالت جائزة فى إحدى مسابقات مسرحيات الفصل الواحدة وتستعد بحماس فى ذلك الحين لإصلاح المسرح القومى. وهكذا مكثت أنا وأوجوستا حول تلك المنضدة، تعاوننا إحدى الخادمات ولوتشانو، وكان فتى يعمل بمكتب چوڤانى، وأظهر موهبته فى إدارة شئون المنزل على قدر مهارته فى أعمال المكتب.

وقد ساهمت أيضًا فى وضع الزهور على المائدة وتنسيقها تنسيقًا جميلاً.

– انظرى – قلت لأوجوستا وأنا أمزح – إننى أشارك أيضًا فى سعادتهم. ولو طلبا منّى أن أعد لهما حتى فراش الزواج، لفعلت بذات نفسى الصافية!

بعد ذلك توجهنا للقاء العروسين، وقد عادا حينئذ من زيارة رسمية. كانا يجلسان فى ركن منعزل من حجرة الاستقبال، وأظن أنهما كانا يتبادلان القبلات خلسة حتى وصولنا. فالعروس لم تبدل حتى ثوب النزهة الذى كانت ترتديه وكانت فائقة الحسن، وقد احمرّ وجهها من شدة الحر.

أعتقد أن العروسين، لكى يخفيا أى أثر للقبلات التى تبادلاها أرادا أن يقنعانا بأنهما كانا يتناقشان فى مسألة علمية. كانت حماقة، وربما أيضًا فى غير موضعها! أكانا يريدان أن يبعدانا عن خلوتهما أم يظنان أن قبلاتهما قد تؤذى أحدًا؟ إلا أن ذلك لم يغير مِزاجى الحسن. أخبرنى جويدو أن آدا لا تريد أن تصدق فيما قاله فى أن أنواعًا من الدبابير تستطيع بلدغة منها أن تشل حركة حشرات أخرى، حتى الأكبر منها قوة لتحتفظ بها فى حالة الشلل هذه حية وغضّة، لتطعم بها صغارها. أظن أنّى تذكرت وجود مثل هذه الظواهر الوحشية فى الطبيعة، لكنّى لم أرغب فى تلك اللحظة فى إرضاء جويدو والتأكيد على ما قال:

- أتظننى دبورًا تتجه نحوى؟ قلت له ضاحكًا.

تركنا العروسين لنسمح لهما بالاهتمام بما يسعدهما أكثر. لكنّى بدأت أشعر بثقل طول الوقت، وتمنيت أن أعود إلى المنزل لأنتظر ساعة الغداء فى حجرة مكتبى.

فى الردهة وجدنا الطبيب باولى وهو خارج من حجرة نوم حماى. كان طبيبًا شابًا لكنه استطاع أن يكتسب ثقة عدد كبير من المرضى.

كان أشقر الشعر غضّ البشرة أحمر الوجه مثل فتى يافع. غير أنه كان لعينه دور كبير فى إضفاء هيئة الجدية والأهمية على كامل بنية بدنه الضخم. كان يبدو أكبر من سنه بفضل نظارته، وكانت نظرته تثبت على الأشياء وكأنها لمسة مداعبة. الآن وقد عرفته جيداً هو والطبيب "س"- المتخصص فى التحليل النفسى - أرى أن عين ذلك الأخير تتفحص الأشياء عن قصد، فى حين أن عين الطبيب باولى تحدق فيها فى فضول لا يكلّ. حقا ينظر باولى إلى مريضه، ولكن إلى زوجة المريض أيضًا وإلى المقعد الذى تجلس عليه. يعلم ربنا أيًا منهما كان يفضل الآخر فى إتعاس مرضاه! فى أثناء مرض حمى كنت أذهب كثيراً إلى باولى لأحثه على ألا يطلع العائلة على أن الكارثة التى تهددها وشيكة الحدوث، وأذكر أنه ذات يوم، أخذ يحملق فىّ طويلاً بشكل ليعجبنى، وقال لى مبتسماً:

- حقًا أنك تحب زوجتك حبًا جمًا يا سيدى!

كان يتمتع بدقة الملاحظة؛ لأنّى كنت بالفعل فى تلك الفترة مولعًا بزوجتى التى كانت تتألم لمرض والدها، وكنت أخونها أنا كل يوم.

أخبرنا أن چوڤانى تحسنت أيضًا صحته عن اليوم السابق. وحينئذ لم يكن لديه ما يزيد من مشاغله؛ لأن الوضع كان مناسبًا جداً، ويرى أن العروسين يمكنهما الاستعداد للسفر فى اطمئنان. بالطبع - أضاف فى حذر - باستثناء حدوث ما قد يطرأ من مضاعفات. - تحققت توقعاته حيث حدثت مضاعفات للمرض لم تكن فى الحسبان.

عند لحظة الانصـــراف ذكــر أننا نعــرف بلا شك كــوبلر، وأنه تم استدعاؤه إلى منزله لاستشارته فى اليوم ذاته. وجده مصابًا بحالة شلل كلوى. وحكى لنا أن أعراض الشلل ظهرت بألم مخيف أصاب الأسنان. وهنا ذكر أحد التوقعات الخطيرة، لكنه، كالمعتاد، خفف من وقع الكلام بشىء من الاحتمالات:

– يمكن أيضًا أن يكون لعمره بقية إذا رأى شمس صباح غد.

تأثرت أوجــوسـتـا، ودمـعت عيـنـاها، رجتنى أن أسـرع فى الحـال لزيارة صديقنا المسكين. بعد لحظة تردد، أذعنت لرغبتها، عن طيب خاطر؛ لأن فكرى سرعان ما استحوذت عليه كارلا بغتة. كم كنت قاسيًا مع تلك الفتاة المسكينة! ها هو ذا كوبلر، عندما يختفى، وتبقى هى هناك، على راحة السلم وحيدة، ولن يكون هناك أى شىء يحرمها على وجه الإطلاق، وقد انقطعت بعالمى عن أية علاقات. كان لا بد أن أسرع إليها لأمحو الانطباع الذى تركه بالتأكيد سلوكى الحاد معها فى الصباح.

لكنّى، وفى حَيطة منّى، ذهبت أولاً لزيارة كوبلر. كان علىّ كذلك أن أخبر أوجوستا بأنّى رأيته.

كنت أعرف من قبل ذلك المسكن المتواضع والمريح مع ذلك وله ذوق، حيث كان يعيش كوبلر فى كورسيا ستاديون. كان قد تنازل له رجل مسنّ متقاعد عن ثلاث من حجرات منزله الخمس. استقبلنى هذا الأخير، وكان رجلاً ضخم البنية، تغشو الحمرة عينيه، كان يلهث وهو يروح

ويجىء فى قلق فى ممر رواق صغير معتم، حكى لى أن الطبيب المعالج قد انصرف منذ قليل، بعد أن تحقق من أن كوبلر يعانى سكرات الموت. كان العجوز يتحدث بصوت خافت، وهو لا يزال يلهث، كأنما كان يخشى أن يزعج هدوء المحتضر. فأخفضت صوتى أنا أيضاً. إنه وجه من أوجه الاحترام الذى نشعر به نحن الأحياء، فى حين لا يوجد دليل قاطع على أن المحتضر لا يرتاح لسماع أصوات جلية قوية، ترافقه فى اللحظات الأخيرة من حياته وتذكره بالحياة.

أخبرنى الرجل أن هناك راهبة تعتنى بالمحتضر. توقفت بكل إجلال لبعض الوقت أمام باب تلك الحجرة التى كان كوبلر يضبط فيها وقت لحظاته الأخيرة، بإيقاع أنفاسه الرتيب. كانت تصدر من أنفاسه المحشرجة نغمتان: تتعثر الناجمة عن دخول هواء شهيقه، وتندفع تلك التى يصدرها هواء زفيره. هل كان يتعجل الموت؟ كان يلى النغمتين توقف، وتذكرت أنه عندما يطول ذلك التوقف تكون الحياة الأخرى قد بدأت. كان العجوز يريد أن أدخل تلك الحجرة، لكنّى لم أرغب فى ذلك. فكثير من المحتضرين قد حملقوا فىّ بتعبير توبيخ لائم.

لم أنتظر أن يطول ذلك التوقف وأسرعت إلى كارلا. قرعت باب حجرة المكتب الذى كان موصداً بالمفتاح، لكن لم يجب أحد. بعد نفاد صبرى ركلت الباب بقدمى، وعندئذ فتح باب الشقة من خلفى. سمعت صوت والدة كارلا تسألنى:

– من بالباب؟ – ثم أطلت العجوز فى حذر، وتعرّفت علىّ فى الضوء الأصفر الذى كان يأتى من المطبخ، وحينئذ تنبهت إلى الحمرة الشديدة التى كانت تكسو وجهها ويظهرها بياض شعرها الناصع. لم تكن كارلا بالبيت، فعرضت علىّ أن تذهب لإحضار مفتاح المكتب لتستقبلنى فى تلك الحجرة التى تعدها الوحيدة اللائقة لاستقبالى. لكنّى قلت لها ألا تنزعج، ودخلت المطبخ وجلست دون تردد على مَقعد من الخشب. كانت تشتعل على الموقد، تحت القدر، كمية قليلة من الفحم. قلت لها ألاّ تنشغل عن طهى طعام العشاء بسببى. فطمأنتنى أن تفعل. كانت تطهو بعض الفاصوليا لم يكن ليزيد نضجها قط. إن فقر الطعام الذى كان يعدّ فى البيت الذى أصبح علىّ أن أتكفل بنفقاته بمفردى، قد جعلنى ألين وأسكن سخطى الذى شعرت به عندما لم أجد عشيقتى متأهبة للقائى.

ظلت السيدة واقفة على الرغم من أنّى دعوتها مرارًا لتجلس، ودون مقدمات حكيت لها أنّى جئت لأحمل لكارلا خبرًا مؤسفًا للغاية: إن كوبلر يشرف على الموت.

سقطت ذراعا العجوز، وعلى الفور شعرت بالحاجة إلى الجلوس.

– يا إلهى! – همهمت – ماذا سنفعل نحن الآن؟

ثم تذكرت أن ما أصاب كوبلر أسوأ مما يصيبها، وفى حزن شديد أضافت قائلة:

– سيدى المسكين! كان طيب القلب!

وسارعت دموعها تبلل وجهها. كان واضحاً، أنها لم تكن تدرى أن ذلك المسكين إن لم يمت فى الوقت المناسب لطرد من ذلك المنزل. وهذا ما طمأننى أيضاً. كم كنت محاطًا بالسرية الكاملة!

أردت تهدئتها وأخبرتها أن ما كان يصنعه كوبلر من أجلهما حتى تلك اللحظة، سأقوم به بنفسى. احتجت بأنها لا تبكى لحالها، فقد كانت تعلم أنها وابنتها تحت رعاية أناس طيبين، بل كانت تبكى لمصير ولى نعمتهما الكريم.

أرادت أن تعرف من أى مرض يموت. وأنا أقص عليها كيف عرفنا بتلك الكارثة، تذكرت تلك المناقشة التى تبادلتها من قبل مع كوبلر حول فائدة الألم. وقد حدث أن اضطربت أعصاب أسنانه وأخذت تستغيث لأن الكليتين، قد توقفتا عن أداء وظيفتهما، وهما على بعد متر منها. كنت غير مبال بمصير صديقى الذى كنت أسمع أنفاسه المحشرجه منذ قليل، حتى إننى واصلت التفكير مازحاً. ولو كان لا يزال يسمعنى، لقلت له إن الأعصاب لدى المريض بالوهم يمكنها أن تتألم ألمًا حقيقيًا لمرض ظهر على بعد الكيلو مترات.

لم يكن بينى وبين السيدة العجوز الكثير لنتبادله بالحديث، فقبلت أن أذهب إلى حجرة مكتب كارلا لانتظارها. أخذت فى يدى جارتشا، وحاولت أن أقرأ صفحات منه. لكن فن الغناء لم يكن يهمنى كثيراً.

لحقت بى العجوز ثانيةً. كانت قلقة لعدم وصول كارلا. قالت لى إنها ذهبت لشراء أطباق هما فى حاجة ماسة إليها.

كاد صبرى أن ينفد حقًا. سألتها فى غضب:

– أحطمتما الأطباق؟ ألم يمكنكما أن تكونا أكثر انتباهًا؟

وهكذا تخلصت من العجوز التى انصرفت وهى تتمتم:

– اثنان فقط... حطمتهما وحدى...أنا...

ذلك ما جلب لى لحظة من السرور؛ لأنّى كنت أعلم أن الأطباق جميعها التى بالمنزل لم تحطمها العجوز، بل كارلا بالتحديد. ثم إنّى علمت أن كارلا لم تكن لطيفة قط مع أمها التى كانت لهذا السبب تخاف خوفًا كبيرًا من أن تستفيض فى الحديث عن تصرفات ابنتها مع من يحسنون عليها. يبدو أنها، بسذاجة منها، حكت ذات مرة لكوبلر عن الضيق الذى تشعر به كارلا فى أثناء دروس الغناء. استشاط كوبلر غضبًا من كارلا التى انتقمت من أمها.

ومن ثم عندما أدركتنى أخيرًا رفيقتى الحلوة، كان حبى لها عنيفًا وغضوبًا. أخذت تهمهم، وهى مفتونة:

– وأنا التى كنت أرتاب فى حبك! أخذت الرغبة فى الانتحار تلاحقنى طوال اليوم؛ لأنّى استسلمت لرجل سرعان ما عاملنى بهذا السوء!

شرحت لها أنّى أصاب أحيانًا بآلام حادة فى الرأس، وأننى وجدت نفسى فى حالة، لو لم أستطع أن أقاومها بقوة، لأعادتنى إلى أوجوستا جريًا، ثم عاودت الحديث معها عن تلك الآلام، وتمكنت من السيطرة على نفسى.

كنت أستعيد ضبط نفسي. مع ذلك بكينا معًا كوبلر المسكين، حقًا معًا!

فضلاً عن أن مشاعر كارلا لم تكن لتبرد أمام نهاية وليّ نعمتها المروعة. شحب وجهها وهي تتحدث عنه:

إنّي أعرف نفسي! - هكذا قالت - سوف يتملكني الخوف لوقت طويل من أن أكون في مكان بمفردي. كان وهو حي يخيفني خوفًا شديدًا!

وللمرة الأولى، اقترحت عليّ في خجل أن أبقى معها طوال الليل. لم أكن أفكر في ذلك على الإطلاق، ولم أكن أستطيع أن أطيل وجودي ولا أكثر من نصف الساعة في تلك الحجرة. لكنّي، وبقصد ألاّ أكشف لتلك الفتاة المسكينة عما بداخل نفسي وكنت أول من يتألم منه، أبديت اعتراضي، وقلت لها إن شيئًا كهذا غير ممكن؛ لأن والدتها موجودة أيضًا في المنزل. وفي ازدراء شديد لوت شفتيها قائلة:

- يمكننا أن ننقُل الفراش هنا؛ ولن تخاطر أمي بالتجسس عليّ.

عندئذ قصصت عليها مأدبة حفل الزفاف التي تنتظرني في المنزل، غير أنّي بعد ذلك شعرت بالحاجة لأن أخبرها بأنه لن يكون في الإمكان أن أقضي ليلة معها. وبالقرار الذي اتخذته منذ قليل بأن أكون طيبًا، تمكنت من ضبط كل نبرة تحدثت بها ولذا ظلت ودية، ورأيت أنه لو منحتها أي شيء آخر منّي أو حتى تسببت في أن تأمل فيه، فسيكون ذلك بمثابة خيانة أخرى لأوجوستا لا أريد أن أرتكبها.

في تلك اللحظة أدركت ما هو أقوى ارتباطاتي بكارلا: ابتغاء العواطف ثم الأكاذيب التي ذكرتها حول علاقتي بأوجوستا والتي رويداً رويداً، وعلى مر الأيام، كان ينبغي أن تقل وتمحي؛ لذا بدأت العمل في الليلة ذاتها، وبالطبع مع الحذر اللازم حيث كان تذكر الثمار التي أثمرت عنها كذبتي سهلاً للغاية. قلت لها إن إحساسي بواجبي نحو زوجتي قوي جداً وهي سيدة جديرة بالتقدير، تستحق دون شك أن أحبها بصورة أفضل ولا أريد مطلقًا أن أشعرها بأنّي أخونها.

أحاطتني بذراعيها وهي تقول:

- ولهذا أحبك: أنت طيب ولطيف مثلما أحسست بك منذ الوهلة الأولى. لن أحاول أبداً أن أسيء إلى تلك المسكينة.

لم يسرني أن يطلق لفظ مسكينة على أوجوستا، لكنّي كنت ممتنًا لكارلا المسكينة وداعتها. كان شيئًا طيبًا ألاّ تبغض زوجتي. أردت أن أعبر لها عن عرفاني وتلفت يَمنة ويَسرة بحثًا عن دليل لحبي لها. أفضى بي الأمر إلى العثور عليه. أهديتها هي أيضًا مغسلتها: وعدتها بألاّ أدعو البتة معلم الغناء.

اندفعت كارلا في التعبير عن حبها مما أزعجني بما يكفي، لكنّي تحملت في قوة. أخبرتني بعد ذلك أنها لن تترك الغناء أبداً. كانت تغني طوال اليوم، لكن بأسلوبها. وأكثر من ذلك أنها كانت ترغب في أن أستمع في الحال إلى أغنية لها. غير أنّي لم أبال بها وخرجت مسرعًا

بطريقة غير لائقة؛ ولهذا أظن أنها فكرت كذلك في الانتحار في الليلة ذاتها، لكنّي لم أتح لها الوقت قط لتخبرني بذلك.

عدت إلى كوبلر لأنه كان عليّ أن أحمل لأوجوستا آخر أخبار المريض لأوهمها بأنّي أمضيت معه تلك الساعات جميعها. كان كوبلر قد فاضت روحه منذ ساعتين تقريبًا، عقب انصرافي مباشرةً. رافقني العجوز المتقاعد الذي استمر في قياس الممر الصغير بخطواته، ودخلت غرفة الميت. كانت الجثة ترقد، وقد ألبسوها ثيابها، على خشبة دون ملاءة. كانت تمسك بالصليب بين يديها. حكى لي العجوز بصوت منخفض أن الإجراءات قد تمت، وأن قريبة للمتوفى ستأتي لقضاء الليلة بجوار الجثة.

وبهذا كان يمكنني أن أنصرف بعد ما علمت بأنهم قد قاموا بكل ذلك الشيء القليل الذي كان يلزم لصديقي المسكين، غير أنّي مكثت لبضعة دقائق أنظر إليه. كنت أود أن أشعر برقرقة دمعة صادقة من عيني رثاءً لذلك المسكين، الذي طالما صارع المرض حتى حاول العثور على اتفاق معه. إنه شيء مؤلم! قلت في نفسي. إن الداء الذي كانت له عقاقير كثيرة، قد تسبب في وفاته بقسوة. بدا الأمر وكأنه سخرية. وأما دمعتي فلم تأتني. لم أرَ وجه كوبلر النحيف شديد القوة مثلما كان عليه في جمود الموت. كان يبدو وكأنما صنعه إزميل نحات من الرخام الملون، وما من أحد يستطيع تصور أن تحلله وشيك. ومع ذلك كانت حياة حقيقية ما كان يكشفه ذلك الوجه: ربما كان يوبخني في ازدراء،

أنا المريض بالوهم، أو ربما كارلا أيضًا، التى كانت لا تريد الغناء. ارتعدت للحظة وقد هيئ لى أنه قد عادت إلى المتوفى أنفاسه اللاهثة. على الفور عدت إلى هدوء الناقد عندما تنبهت إلى أن ما بدا لى حشرجة الموت لم يكن سوى لهاث العجوز، الذى ارتفع صوته من الانفعال.

بعد ذلك رافقنى حتى الباب وأوصانى أن أبلغه إذا ما عرفت أحداً يحتاج إلى استئجار مسكن صغير مثل ما لديه:

– كما ترى، إننى استطعت فى ظروف كهذه أن أقوم بواجبى وأكثر منه أيضًا، أكثر منه بكثير. وللمرة الأولى رفع صوته الذى حمل فى صداه استياء كان يوجهه دون شك للمسكين كوبلر الذى ترك مسكنه خاليًا دون الإخطار اللازم. خرجت مسرعًا ووعدته بتلبية كل ما طلب.

عند وصولى إلى منزل صهرى وجدت الصحبة تلتف حول المائدة. سألونى عن أخباره، وحتى لا أفسد بهجة تلك الوليمة، قلت إن كوبلر مازال حيًا؛ ومن ثم فلا يزال هناك بصيص من الأمل.

أحسست بلمحة حزن عميق تغمر ذلك الجمع. ربما انتابنى ذاك الشعور عندما رأيت چوڤانى وهو محكوم عليه بطبق من الحساء وكوب من اللبن، فى حين أن الجميع من حوله يغترفون من أشهى الأطعمة. كان لديه كل فراغ الوقت، فأخذ يستثمره فى مشاهدة ما يتناوله الآخرون، وعندما وجد السيد فرانشيسكو مستغرقًا فى تناول المشهّيات، أخذ يهمس:

– مع أنه يكبرنى بعامين!

ثم عندما وصل السيد فرانشيسكو لكأس النبيذ الثالثة، تمتم بصوت خافض:

- إنها الثالثة! فلتذهب في جوفه مريرة!

لم تكن لتزعجني تلك الأمنية لو لم أتناول أنا أيضًا الطعام والشراب على تلك المائدة، ولو لم أكن أعرف أن أمنية التحول ذاتها يستطيع أن يتمناها أيضًا للنبيذ الذي كان يعبر شفتي؛ لهذا أخذت أتناول طعامي وشرابي خلسة. كنت أغتنم اللحظات التي كان يدس خلالها أنفه الضخم في فنجان اللبن أو يجيب على ما يوجه له من حديث، حتى ألتهم من اللقم الكبيرة أو أتجرع كئوسًا كبيرة من النبيذ. ألبرتا، ولمجرد الرغبة في إضحاك الجميع، حذرت أوجوستا من أنّي أشرب أكثر مما ينبغي. فهددتني زوجتي بإصبعها وهي تمزح معي. لا بأس لم يكن ما يسيء في ذلك، ولكنه أساء حيث لم تعد هناك جدوى من تناول الطعام في الخفاء. إن چوڤاني، الذي كان ناسيًا وجودي حتى تلك اللحظة، حدق فيّ من فوق نظارته بنظرة يملؤها بغض حقيقي. قال:

- أنا لم أسرف قط في النبيذ أو في الطعام. من يفرط في تناولهما ليس برجل حقيقي بل...، وكرر مرات عديدة الكلمة الأخيرة التي لم تكن تحمل بالتأكيد معنى به مجاملة.

وتحت تأثير النبيذ، تلك الكلمة الجارحة التي صاحبتها ضحكات الجميع، أثارت في نفسي رغبة جامحة بحق في الانتقام. هاجمت صهري من النقطة الأكثر ضعفًا لديه: مرضه. صحت أنه ليس رجلا

حقيقيًا من يسرف فى الطعام بل من ينساق فى سلبية وراء إرشادات الطبيب. فأنا، لو كنت مثل حالتك، لتحررت بوجه مختلف تمامًا. فى حفل زفاف ابنتى - وليس إلا تعبيرًا عن الحب - لن أسمح أبدًا أن يمنعوا عنّى الطعام والشراب.

تفحصنى چوڤانى بعينيه فى سخط قائلاً:

- أود أن أراك فى مكانى!

- ألا يكفيك أن ترانى فيما أنا فيه؟ أعسانى تركت التدخين؟

كانت المرة الأولى التى تمكنت فيها من التفاخر بضعفى، وعلى الفور أشعلت سيجارة لأثبت ما قلته. ضحك الجميع، وأخبروا السيد فرانشيسكو كم كانت حياتى مليئة بالسجائر الأخيرة. لكن تلك لم تكن الأخيرة، وأحسست بنفسى قويًا ومناضلاً. غير أنّى سرعان ما فقدت تأييد الآخرين عندما سكبت النبيذ لچوڤانى فى كأسه الكبيرة المخصصة للماء. ارتاعوا من أن يتناول چوڤانى الكأس، وصاحوا ليمنعوه أن يفعل، إلى أن نجحت السيدة مالفنتى فى أخذها وإبعادها عنه.

- أحقًا، أترغب فى قتلى؟ سألنى چوڤانى فى هدوء وهو ينظر إلىّ فى دهشة. ما لديك أنت نبيذ سيئ! ولم يقم بمجرد حركة واحدة ليستغل النبيذ الذى قدمته له.

شعرت حقًا بالإهانة والهزيمة. كدت أرتمى عند قدمى حمى لأطلب الصفح منه. لكن ذلك أيضًا كان إيحاءً من تأثير النبيذ ولم أقم به. فطلب

الصفح يعني أنني أقرّ بذنبي، في حين استمرت الوليمة وكانت ستستمر بما يكفي لمنحي الفرصة المواتيه لإصلاح ذلك المزاج الذي أخفق على نحو سيئ جداً. وهناك وقت لكل شيء في هذا العالم. لا يقع السكارى جميعهم فريسة سريعة لإيحاءات النبيذ كلها. عندما أفرط في الشراب، أفكر في إمكاناتي، مثلما أفعل عندما أكون يقظًا وربما أنتهي إلى النتيجة ذاتها. واصلت فحص نفسي لأعي كيف وصلت إلى ذلك التفكير السيئ في إيذاء والد زوجتي. فأدركت أنّي متعب، متعب تعبًا مميتًا. لو علم الجمع كيف قضيت ذلك اليوم، لالتمسوا لي العذر. كانت بين يدي امرأة وتركتها بعنف ولمرتين اثنتين، ثم عدت إلى زوجتي مرتين لكي أتخلى عنها هي أيضًا لمرتين. شاء حظي في تلك اللحظة، أن تداعت الأفكار في ذاكرتي، وأطلت منها فجأة تلك الجثة التي حاولت عبثًا أن أبكيها، وتلاشى التفكير في المرأتين؛ وإلا لأفضى بي الأمر إلى الحديث عن كارلا. ألم تلح عليّ دائمًا الرغبة في الاعتراف، حتى عندما لم يزدني فعل الخمر من سعة الصدر؟ انتهيت إلى الحديث عن كوبلر. كنت أود أن يعلم الجميع أنّي فقدت صديقي العظيم في ذلك اليوم. فربما غفروا لي سلوكي.

صحت أن كوبلر وافته المنية، مات بالفعل، وأنني لم أتحدث بشأنه حتى ذلك الحين لكي لا أكدر صفوهم. يا للعجب! يا للعجب! أخيراً شعرت بتدفق الدموع في عيني، وكان عليّ أن أدير وجهي لأخفيها.

ضحك الجميع؛ لأنهم لم يصدقونى. وعندئذ تدخل العناد وهو أكثر سمات تأثير النبيذ وضوحًا. أخذت أصف الميت:

- كان يبدو وهو جامد على تلك الصورة، وكأن ميكل أنجلو نحته على أقوى الأحجار صلابة.

خيم السكون على الجميع وقطعه جويدو صائحًا:

- والآن لم تعد تشعر بالحاجة إلى عدم تكديرنا؟

كانت ملاحظة سليمة. إنّى لم أفِ بعهد تذكرته! أليست هناك وسيلة لإصلاح ما أفسدته؟ انطلقت أضحك بلا قيود:

- تلاعبت بكم! إنه حى يرزق، وعلى ما يرام.

حدق الجميع النظر إلىّ كى يتبينوا الأمر.

- إنه يتحسن، أضفت بنبرة جادة - تعرف علىّ، حتى إنه ابتسم لى.

صدقنى الجميع، لكن الشعور بالاستياء سيطر عليهم جميعًا. صاح جوڤانى بأنه إن لم يكن يخشى أن يصاب بأذى جراء بذل الجهد، لقذفنى بطبق على رأسى. حقًا كان خطأً لا يغتفر أن أكدر صفو الحفل باختلاق خبر كهذا. لو كان حقيقيًا، لما أصبح هناك ذنب. ألم يكن من الأفضل أن أخبرهم بالحقيقة مرة أخرى؟ إن كوبلر قد مات، وفور أن أكون بمفردى،

سأجد دموعى مستعدة لبكائه، تلقائية، وفيرة. كنت أبحث عن الكلمات، لكن السيدة مالفنتي، برزانة السيدة الفاضلة، قاطعتني:

- فلندع الآن ذلك المريض المسكين وشأنه. سنهتم به في الغد!

امتثلت الأمر فوراً، حتى أن تفكيرى انفصل تماماً عن المتوفى: «وداعًا! فلتنتظرنى! سأعود إليك لاحقًا على الفور!».

حانت ساعة نخب العروسين. أجاز الطبيب لچوڤانى أن يتجرع فى تلك الساعة كأسًا من الشامبانيا. كان يراقب بانتباه شديد كيف يصبون له النبيذ، ورفض أن يحمل الكأس إلى شفتيه حتى امتلأت عن آخرها. وبعد أن عبّر عن أمنية صادقة ودون تجميل تمناها لآدا وجويدو، أفرغها على مهل حتى آخر نقطة. قال لى وهو ينظر إلىّ شزراً إن الرشفة الأخيرة قد ارتشفها نخب صحتي. ولكي أمحو تأثير تلك الأمنية، التى كنت أعلم أنها أمنية غير طيبة، فمن تحت غطاء المنضدة جعلت من السبابة والخنصر قرنين وبكلتا اليدين(*).

ما أتذكره من بقية الأحداث فى تلك الأمسية مشوش بعض الشىء. أعلم أنه بعد ذلك وبمبادرة من أوجوستا مدحوا فىّ، حول تلك الوليمة، بكلام كثير طيب، ورأوا فىّ مثال الزوج النموذجي. صفحوا عنّى تماماً،

(*) إعطاء شكل القرنين لأصابع اليد بمد الخنصر والسبابة وضم باقى الأصابع إلى راحة اليد وتوجيه شكل القرنين إلى أسفل، حركة تدخل فى نطاق الموروث الشعبى الإيطالى من الخرافات، ويقصد بها إبعاد الشر أو إبطال مفعول العين الحاسدة. (المراجع)

حتى حمى أصبح أكثر لطفًا معى؛ لذا أضاف أنه يأمل فى أن يكون زوج آدا دمث الخلق مثلى، على أن يكون أيضًا فى الوقت نفسه تاجرًا جيدًا وقبل كل شيء إنسانًا... وأخذ يبحث عن الكلمة. ولم يعثر عليها ولم يطالب بها أحد من حولنا؛ ولا حتى السيد فرانشيسكو الذى رآنى للمرة الأولى فى صباح ذلك اليوم، ولم يكن يعرف عنّى إلا القليل. ومن جانبى لم أشعر بالإهانة. كم يعمل الشعور بارتكاب أخطاء جسيمة ينبغى إصلاحها على تهدئة النفس! أخذت أتقبل بسعة صدر تلك الكلمات السفيهة جميعها مادامت تصحبها مشاعر الود التى لا أستحقها. وفى ذاكرتى، المضطربة من الإرهاق والخمر، وبصفاء نفس كامل، أخذت أترفق بصورتى كزوج مثالى لا تقل طيبته من جراء خيانته الزوجية. رأيت أنه يجب أن نكون طيبين، طيبين، طيبين، وفيما عدا ذلك فلا أهمية له. أرسلت بيدى قبلة لأوجوستا التقطتها بابتسامة شاكرة.

ثم، كان هناك حول تلك المائدة من رغب فى أن يغتنم حالة السُّكر التى كنت فيها للسخرية، واضطررت إلى أن أقول شيئًا نخب العروسين. انتهيت إلى قبول الأمر، حيث بدا لى حينئذ أنه من القوة أن أستطيع اتخاذ قرارات جيدة على رءوس الأشهاد. هذا لا يعنى أنّى فى تلك اللحظة كنت أرتاب فى نفسى، فقد كنت أشعر بنفسى حقًا مثل الصورة التى وصفونى بها، ولكنى كنت أبغى أن أكون أيضًا أفضل من ذلك، إن أكدت أمام الجميع غايات سوف يصدقون عليها بصورة أو بأخرى.

وهكذا، تحدثت فى النخب عن نفسى وعن أوجوستا وحسب. رويت قصة زواجى للمرة الثانية فى تلك الأيام. قمت بتزييفها لكارلا وكتمت عنها حبى لزوجتى؛ وزيفتها هنا بوجه آخر؛ لأنّى لم أذكر أهم شخصيتين فى قصة زواجى، أعنى آدا وألبرتا. تحدثت عن حيرتى التى لم أستطع أن أجد الراحة منها؛ لأنها حرمتنى السعادة لوقت طويل. ثم، فى شهامة منّى، ذكرت أن أوجوستا أيضًا عانت شيئًا من التردد. لكنها نفت ذلك وأخذت تضحك بشدة.

عثرت على خيط الحديث بصعوبة. حكيت كيف توصلنا فى نهاية الأمر إلى رحلة شهر العسل، وكيف تحاببنا فى متاحف إيطاليا جميعها. غرقت كليةً وحتى أعلى رأسى فى أكاذيبى، حتى إننى حشرت أيضًا فيها بعض التفاصيل الزائفة التى لم تفد فى أى شىء. ثم يقولون إن فى الخمر الحقيقة.

قاطعتنى أوجوستا للمرة الثانية حتى تصحح ما قلت وحكت أنها أضطرت إلى تجنب زيارة المتاحف لكى لا تعرض التحف إلى خطر بسببى. لم تدرك أنها بهذا الأسلوب لم تكشف زيف تلك الجزئية وحدها! ولو كان هناك من هو دقيق الملاحظة حول تلك المائدة، لاكتشف على الفور ما هى طبيعة ذلك الحب الذى أشرت إليه فى مكان لا مكان له فيه.

استأنفت الحديث الطويل الخالى من الرونق وتحدثت عن العودة إلى منزلنا، وكيف أننا أخذنا نجمله معًا بعمل هذا وذاك، فضلاً عن بناء حجرة الغسيل أيضًا.

قاطعتنى أوجوستا من جديد، وهى لا تزال تضحك:

- إنه ليس احتفال تكريم لنا على وجه الإطلاق، بل إنه على شرف آدا وجويدو! فلنتحدث عنهما!

وافق الجميع فى صخب. وضحكت أنا أيضًا، عندما أدركت أن ما قمت به قد أيقظ روح بهجة حقيقية صاخبة، كما هى العادة فى مثل هذه المناسبات. لكن لم يعد لدى شيء أقوله. هيئ لى أنّى تحدثت لساعات. ابتلعت كئوسًا أخرى عديدة من النبيذ، الواحدة تلو الأخرى وأنا أقول:

- هذه فى نخب آدا! - هممت واقفًا للحظة لأرى إذا ما كانت قد قرنت إصبعيها تحت غطاء المائدة.

- هذا نخب جويدو! وأضفت، بعد ما شربت النبيذ دفعة واحدة:

- من أعماق قلبى! وقد نسيت أن تلك العبارة لم أذكرها عند الكأس الأولى.

- هذا لطفلكما الأول!

وكنت سأشرب العديد من الكئوس نخب أولادهما، لو لم يمنعونى من ذلك فى نهاية الأمر. كنت سأشرب كل النبيذ الذى كان على تلك المائدة نخب هؤلاء الأبرياء المساكين.

ثم زاد أيضًا عدم وضوح كل شيء. ما أذكره بوضوح كان أمرًا واحدًا: اهتمامى الأساسى ألا أبدو ثملاً. مكثت واقفًا ولم أتحدث كثيرًا.

كنت أرتاب في نفسي، وأنا أشعر بالحاجة إلى تحليل كل كلمة قبل أن أنطق بها. في حين كان يتحدث الجميع، كان عليّ ألاّ أشاركهم فيه؛ لأنهم ما كانوا ليتركوا لي الفرصة لأستوضح ما بفكري المشوش. أردت بَدء حديث بنفسي فقلت لچوڤاني:

- أسمعت بأن الأكستريور فقدت نقطتين؟

ذكرت شيئًا لا يمت لي بصلة على وجه الإطلاق وسمعت به في البورصة؛ كنت أرغب في الحديث عن الأعمال التِّجارية وحسب، وهو أمر جاد لا يتذكره عادةً رجل ثمل. لكن يبدو أن الخبر كان له جانب من الأهمية لدى صهري، حتى إنه نعتني بغراب الأخبار السيئة. لم أكن أوفق قط في أي مبادرة معه.

عندئذ انشغلت بألبرتا، التي كانت تجلس بالقرب منِّي. تحدثنا عن الحب. على المستوى النظري كان يهمها، أما بالنسبة لي، في تلك اللحظة، فلم يكن من الناحية العملية يشغلني؛ لهذا كان الحديث عنه شيئًا جميلاً. سألتني عن فكرتي عنه. وعلى الفور وردت على خاطري فكرة تراءت لي واضحة من خلال تجربتي في الصباح ذاته. فالمرأة عنصر تتغير قيمته أكثر من أي قيمة في البورصة. أساءت ألبرتا فهم ما قلته، وظنت أنّي كنت أعني بالقول مفهومًا شائعًا، وهو أن المرأة حينما تبلغ من العمر قدرًا معينًا، تختلف قيمتها تمامًا عنها في مرحلة أخرى. قمت بتفسير ما قلته بصورة أكثر إيضاحًا: يمكن للمرأة أن تحظى بقيمة عالية في ساعة معينة من الصباح، ولا يكون لها أية قيمة في الظهيرة، حتى تبلغ بعد

الظهيرة ضعف ما كانت عليه من قيمة فى الصباح، إلى أن تصل فى نهاية الأمر إلى قيمة سلبية تمامًا عند المساء. قمت بتوضيح مفهوم القيمة السلبية: إن المرأة تبلغ تلك القيمة عندما يقوم الرجل بحساب القيمة التى يمكنه سدادها، حتى يصرفها بعيداً، بل بعيداً جداً عنه.

على الرغم من ذلك لم تدرك كاتبة المسرح المسكينة دقة اكتشافى هذا، فى حين كنت على يقين منه، وأنا أتذكر حركة تغيير القيمة التى عانت منها فى اليوم ذاته كارلا وأوجوستا. تدخل الخمر عندما أردت أن أفسر ما أقوله على نحو أفضل، وخرجت عن الموضوع كليًا:

– هيا، قلت لها – فلنفترض أن قيمتك فى هذه اللحظة هى "س"، واسمحى لى أن أضغط بقدمي على قدمك الصغيرة، سترتفع حتمًا قيمتك على الأقل بقدر "س" أخرى.

وصاحبت القول فى الحال بالفعل.

احمرّ وجهها كليًا، جذبت قدمها وأرادت أن تبدو مرحة، فقالت:

– لكنه مثال عملى وليس نظريًا. سأشكوك لأوجوستا.

ينبغى أن أقرّ بأننى أنًا أيضًا شعرت بتلك القدم الصغيرة شيئًا يختلف حقيقة عن جفاء النظرية، ومع ذلك اعترضت وصحت وأنا أرسم على وجهى البراءة المتناهية:– إنها نظرية خالصة، بحتة، ومن المؤسف أنك أحسست بها من جانبك بشكل آخر.

إن خيالات النبيذ أحداث حقيقية.

لفترة طويلة لم ننس أنا وألبرتا أنّى لمست جزءًا من جسدها، وأنا أنبهها أنّى أفعله من أجل المتعة. عبّر القول عن الفعل وجسَّد الفعل القول. ظلت تقابلنى بابتسامة وحمرة بالوجه إلى أن تزوجت، ثم، تحول التعبير إلى احمرار وسخط. فالنساء خلقت على هذه الصورة. كل صباح يشرق يحمل لهن تأويلاً جديداً لما مضى. لابد أن حياتهن ليست رتيبة بدرجة كبيرة، فى حين أن تفسيرى لتلك الحركة ظل كما هو: كانت سرقة لشىء صغير لذيذ جداً ووقع العبء على ألبرتا التى ظللت لفترة أذكرها بهذا الشىء، ثم جاء وقت بعد ذلك تمنيت فيه أن أدفع أى ثمن لكى أنساه تماماً.

فضلاً عن ذلك أتذكر أمراً آخر قد حدث قبل مغادرتى ذلك البيت وكانت أهميته أكبر. مكثت، لبضعة لحظات، بمفردى مع آدا. كان چوڤانى قد ذهب إلى مخدعه منذ فترة، وانصرف الآخرون وذهب جويدو ليرافق السيد فرانشيسكو إلى الفندق. تأملت آدا طويلاً وهى ترتدى ثوبًا بكامله من الدانتيل الأبيض، يكشف عن كتفيها وذراعيها. ظللت صامتًا لفترة طويلة على الرغم من أنّى كنت أشعر بالحاجة إلى الحديث إليها؛ لكنّى كنت أكتم كل عبارة تأتى على شفتى، بعد أن أقوم بتحليلها. أذكر أنّى أخذت أدقق فى تعبيرى على الرغم من أنه كان مسموحاً لى بالكلام: «كم يسعدنى أنك تتزوجين فى النهاية وتتزوجين صديقى الحميم جويدو. الآن فقط سينتهى كل شىء بيننا». كنت أرغب فى قول كذبة حيث يعلم الجميع أن كل شىء قد انتهى بيننا منذ شهور عديدة، لكن بدت لى تلك

الأكذوبة مجاملة رائعة وامرأة ترتدى على هذا النحو، تحتاج بلا شك إلى كلمات المجاملة وتسعد بها. لكن بعد تأمل طويل لم أفعل شيئًا من هذا. كتمت تلك الكلمات؛ لأنّى عثرت فى بحر الخمر الذى كنت أسبح فيه على لوح أنقذنى. فطنت إلى أنّى أخطئ بالمجازفة بحب أوجوستا لكى أسعد آدا التى لم تكن تحبنى. نظرت فى شكوكى التى أزعجت تفكيرى لبضع لحظات، فضلاً عن المجهود الذى بذلته لأبعد تلك الكلمات عن ذهنى، نظرت إلى آدا نظرة جعلتها تنهض وتنصرف بعد أن التفتت لتراقبنى وهى منزعجة، وربما كانت تتأهب للفرار.

حتى نظرة الإنسان ذاته يتذكرها بقدر ما يتذكر العبارة، وربما على نحو أفضل من الكلمة؛ إنها أهم من الكلمة، حيث لا توجد بقاموس اللغة مفردة تستطيع أن تجرد امرأة من ثيابها. وأنا على يقين الآن من أن نظرتى تلك قد كشفت زيف الكلمات التى كانت بخاطرى حين بسطتها. ورأت آدا فيها محاولة النفاذ إلى ما وراء ردائها وجلدها أيضاً. رأت أنها تعنى بلا شك:

«أما ترغبين فى أن تأتى معى الآن إلى الفراش؟». إن الخمر خطر كبير خاصة وأنها لا تدع الحقيقة تطفو على السطح. إنها تظهر على العكس شيئًا آخر غير الحقيقة: يزيح الستار خاصة عن حياة الفرد الماضية والمنسية وليس عن رغبته الحالية؛ تخرج فى عشوائية إلى الضوء كذلك الأفكار السريعة جميعها التى داعبت خيالنا فى فترة حديثة العهد ثم نسيناها؛ تغفل ما محوناه وتقرأ كل ما تزال تشعر به قلوبنا.

وكلنا يعلم أنه ليست هناك وسيلة لمحو أى شىء بصورة جذرية، تمامًا كما يحدث مع توقيع خاطئ على كمبيالة. تاريخ حياتنا بأكمله متاح للقراءة والخمر تجهر به، وهو يغفل ما أضافته له الحياة لاحقًا.

استقللنا أنا وأوجوستا عربة، للعودة إلى منزلنا. فى ظلمة الليل رأيت أنه من واجبى أن أقبِّل زوجتى وأعانقها؛ حيث اعتدت أن أفعل ذلك مرات عديدة فى لقاءات مماثلة، وخشيت أنها، إن لم أقم بذلك، ربما تظن أن هناك شيئًا قد تغير بيننا. لم يتغير شىء بيننا: كانت الخمر تعلن ذلك أيضًا عاليًا! إنها تزوجت تزينو كوزينى الذى يعيش معها، ولم يطرأ عليه أى تغيير. ماذا يهم إذا كنت قد استحوذت فى ذلك اليوم على نساء أخريات زاد الخمر من عددهن، لكى تسعدنى، ووضعت بينهن لم أعد أدرى إن كانت آدا أو ألبرتا؟

أتذكر أنه، عندما خلدت إلى النوم، مرت لحظة تراءى لى فيها للمرة الثانية وجه كوبلر المتصلب على فراش الموت. بدا وكأنه يطالب بالعدل، أى الدموع التى وعدته بأن أبكيه بها. لكنه لم يحظ بها حتى فى تلك اللحظة؛ لأن النعاس أخذ يضمنى بين ذراعيه حتى غلبنى. غير أنِّى استسمحت الشبح فى بادئ الأمر قائلاً: «انتظر قليلاً. سأفرغ لك فى الحال!». لم أعد إليه، على الإطلاق؛ لأنِّى لم أحضر حتى ولا لتشييع جنازته. كان لدينا الكثير للقيام به فى المنزل وعندى ما هو خارج المنزل أيضًا، فلم يكن هناك وقت له. تحدثنا عنه فى بعض الأحيان، للضحك فقط ونحن نتذكر الخمر التى تجرعتها، وكانت تقتله لمرات عديدة ثم تبعثه من جديد.

الأدهى أن ذكره فى العائلة ظل يجرى مجرى الأمثال، فعندما كانت الجرائد تعلن خبر موت فلان أو تنفيه، كما يحدث فى أحيان كثيرة، كنا نقول: «مثل المسكين كوبلر».

فى صباح اليوم التالى استيقظت ورأسى يؤلمنى قليلاً. كان يزعجنى بعض الشىء ألم بجانبى، ربما لأنّى لم أشعر به مطلقًا، فى أثناء تأثير الخمر، وسرعان ما فقدت اعتيادى عليه. بيد أنّى فى واقع الأمر لم أكن مكتئبًا. وقد ساهمت أوجوستا فى إراحة نفسى عندما قالت لى إنه لو لم أذهب إلى عشاء حفل الزفاف، لكان أمرًا مؤسفًا، فقبل وصولى إلى هناك بدا لها أنها تحضر مأتمًا. إذن لم يكن هناك ما يوجب ندمى على سلوكى. ثم أحسست بشىء واحد لم يغتفر لى: نظرتى الجائرة على آدا!

عندما تقابلنا بعد الظهيرة، مدت لى آدا يدها بارتباك زاد من قلقى، إلاّ أنه ربما كان يثقل ضميرها فرارها تلك الليلة الذى لم يكن لائقًا على الإطلاق. لكن نظرتى كانت كذلك سلوكًا فى غاية القبح. كنت أتذكر جيداً حركة عينى، وأشعر كما لو أنها لم تستطع أن تنسى من تسببت فى جرحه. كان ينبغى إصلاح الموقف بأسلوب يرقى لمستوى الأخوة.

يقال إنه عندما يعانى الفرد لإفراطه فى الشراب، لا يوجد علاج أفضل من أن يتناول شرابًا آخر. فى صباح اليوم ذاته، ذهبت إلى كارلا لأستعيد حيويتى. ذهبت إليها وكلّى رغبة فى لحظات من حياة أكثر عمقًا، وذلك يؤدى إلى تناول الخمر مرة أخرى، ولكنّى وأنا فى طريقى إليها،

تمنيت أن تمدنى بما يختلف تمامًا عن اليوم السابق من حيوية أخرى. كانت تصاحب خطواتى نيات غير حاسمة لكنها صادقة جميعها. كنت أعلم أنّى لن أقوى على هجرها توًا، لكنه كان بإمكانى أن أشرع فى تلك العملية الأخلاقية الكبيرة تدريجيًا. وعلى ذلك نويت أن أستمر فى الحديث معها عن زوجتى. وبدون مفاجآت ستدرك ذات يوم كيف أحب زوجتى. وكان بسترتى ظرف آخر به بعض المال؛ حتى أكون مستعداً لأى ظروف.

وصلت عند كارلا، وبعد ربع الساعة وجهت لى لومًا بكلمة ظلت لصحتها ترن طويلاً فى أذنى: «كم هو خشن سلوكك، فى الحب!». لا أعى أنّى كنت خشنًا فى تلك اللحظة بالذات. كنت قد بدأت فى الحديث معها عن زوجتى، وكلمات الثناء التى كنت أنسبها لأوجوستا أخذت ترن فى أذن كارلا، كما لو كانت لومًا كثيراً أوجهه إليها.

ثم ها هى ذى كارلا ترد لى الإهانة. حكيت لها، لكى أمضى وقتى، كم ضقت بتلك المأدبة، خاصةً فى أثناء كلمة النخب التى قلتها وجاءت فى غاية الحماقة. كانت ملاحظتها هى:

- إذا كنت تحب زوجتك لن تخطئ النخب بمائدة والدها.

وأعطتنى أيضًا قبلة تعوضنى بها عن حبى القليل الذى كنت أكنه لزوجتى.

غير أن رغبتى فى البحث عن الأعمق فى حياتى، التى جذبتنى إلى الذهاب لكارلا، كادت هى ذاتها أن تدفعنى مباشرةً إلى أوجوستا،

الوحيدة التى كنت أستطيع التحدث معها عن حبى لها. إن الخمر التى شربتها كعلاج كانت أكثر مما ينبغي أو لعلنى كنت فى تلك اللحظة أرغب فى شرب خمر أخرى. لكن فى ذلك اليوم كان لابد وأن ترتقى علاقتى بكارلا، وتتوج فى النهاية بذلك الود الذى – كما علمت فيما بعد – كانت تستحقه تلك الشابة المسكينة. لقد عرضت عليّ لمرات عديدة أن تغنى لى أغنية، وهى تتوق إلى معرفة رأيى. لكنّى كنت لا أبالى بالغناء ذاك الذى لم تعد سذاجته تثير انتباهى. قلت لها إنه مادامت رفضت دراسته، فليس هناك ما يستحق العناء أن تغنى.

كانت إهانتى كبيرة حقًا وتألمت هى منها. وإذ كانت تجلس جوارى، وحتى لا تظهر لى دموعها التى تذرفها أخذت تنظر بلا حراك إلى يديها المضمومتين فى حجرها. وكررت لى لومها:

– كم تريد أن تكون قاسيًا مع من لا تحب، إن كنت كذلك معى بدرجة كبيرة!

وبما أنّى رجل شقى حقًا، فلقد أثارت شفقتى قطرات الدمع تلك، ورجوت كارلا أن تمزق أذنىّ بصوتها القوى فى تلك الغرفة الصغيرة. عندئذ أخذت تتهرب حتى كان عليّ أن أهددها بالانصراف إن لم تستجب لرغبتى. ينبغى أن أقر بأنّى اعتقدت للحظة أنّى عثرت على ذريعة لاستعادة حريتى ولو على نحو مؤقت، لكن، أمام تهديدى، توجهت جاريتى المطيعة وهى خافضة العينين إلى الجلوس أمام البيانو. ثم جلست لحظة قصيرة

تستجمع أنفاسها ومسحت بيدها على وجهها كأنها تزيح عنه كل أسى. نجحت فى ذلك بسرعة أذهلتنى وعاد وجهها، عندما كشفت عنه تلك اليد، وهو لا يذكر على الإطلاق شيئًا عن ألمها السابق.

تلقيت على الفور مفاجأة كبيرة. كانت كارلا تنشد أغنيتها، وتحكيها، وما كانت تصرخ بها. إن الصياح - كما قالت لى لاحقًا - كان يفرضه عليها معلِّمها؛ وقد حان الوقت لتصرفه معه. أخذت تغنى أغنية تقول بلهجة تريستى:

أتبادل الحب وهى الحقيقة

ما العيب فى ذلك

أتريدوننى فى السادسة عشرة

وأظل هنا كالحمقاء...

إنها أغنية أشبه بقصة أو اعتراف. كان المكر يلمع فى عينى كارلا التى كانت مع ذلك تعبر بصورة أفضل من الكلام. لم يعد هناك خوف من أن تؤذى طبلة أذنى ودنوت منها، مندهشًا ومبهورًا. جلست إلى جوارها وحينئذ قصت الأغنية لى أنا شخصيًا، وهى تسدل جفنيها لكى تخبرنى بأنعم النبرات وأنقاها أن تلك السنوات الستة عشرة ترغب فى الحرية والحب.

للمرة الأولى نظرت فى تدقيق إلى وجه كارلا اللطيف: نقى فى شكله البيضاوى تميزه عيناها العميقتان ووجنتاها الناعمتان، ويزيد من

صفائه نقاء بياضه، إذ كانت تتجه حينئذ بوجهها نحوى ونحو الضوء، دون أى ظل يشوبه. تلك الصورة بخطوطها المرهفة فى ذلك الجسد الشفاف أو يكاد، الذى يكسو الدم والشرايين غير القادرة على الظهور ربما لضعفها الشديد، كانت صورة تبحث عن الحب والحماية.

فى تلك اللحظة شعرت بالاستعداد لمنحها الكثير من العواطف والحماية، بلا قيد ولا شرط، وفى تلك اللحظة أيضًا كان بإمكانى أن أعود إلى أوجوستا؛ لأنها لم تطلب منّى حينئذ سوى الحب الأبوى، الذى كان يمكننى من أن أمنحها إياه دون أية خيانة. يا له من شعور بالرضا! بإمكانى أن أمكث هناك مع كارلا، أعطيها كل ما كان يطلبه ذلك الوجه البيضاوى ولا أبعد عن أوجوستا! زاد حبى لكارلا. فمنذ ذلك الحين، عندما كنت أشعر بالحاجة إلى الصدق والنقاء، لم يكن هناك داعٍ لهجرها، بل تمكنت من البقاء هناك لأتجاذب أطراف الحديث معها.

إلام كانت ترجع تلك العذوبة الجديدة؟ هل إلى الوجه الصغير البيضاوى الذى اكتشفت ملامحه فى تلك اللحظة أم إلى موهبتها الموسيقية؟ الموهبة التى لا يجب إنكارها! تنتهى الأغنية الغريبة التريستية بمقطع تصرح فيه الشابة ذاتها بأنها عجوز بائسة، وأنها لم تعد تحتاج سوى حريتها فى أن تموت. أخذت كارلا تمزج فى البيت التعس ما بين المكر والسعادة. إنه على أية حال الشباب الذى يتظاهر بالشيخوخة لكى يطالب بحقه بأسلوب أفضل، بحسب وجهة النظر تلك الجديدة.

عندما انتهت من الغناء ووجدتني شديد الإعجاب به، شعرت هى أيضًا وللمرة الأولى بالود تجاهى فضلاً عن غرامها بى. كانت تدرك أن تلك الأغنية ستعجبني أكثر من الأغاني التى كان يعلِّمها لها أستاذها:

- إنه لأمر مؤسِف - أضافت فى حزن - أن من لا يريد الذهاب إلى مقاهى المغنى، لا يستطيع أن يحصل على ما يلزمه من أجل العيش.

وفى يُسْر أقنعتها بأن الأمور لا تسير على هذا النحو. ففى هذا العالم هناك العديد من الفنانات الكبيرات يؤدين ولا يغنين.

طلبت منّى ذكر أسماء بعضهن. غمرتها الفرحة، عندما علمت كم يمكن أن يكون لفنها من شأن عظيم.

- إننى على علم - أضافت بنبرة ساذجة - بأن هذا الغناء غاية فى الصعوبة بالنسبة للأسلوب الآخر الذى يكفيه الصراخ الشديد.

ابتسمت ولم أجادلها. كان أسلوبها صعبًا كذلك بلا شك، وكانت تعلم ذلك لأنه كان الأسلوب الوحيد الذى تعرفه. كلفتها تلك الأغنية دراسة طويلة جداً. كانت تنشدها وتعيد إنشادها وتصحِّح أداء كل لفظ، وكل نغمة. فى تلك الفترة كانت تتدرب على أداء آخر، لكنها لم تتمكن منه إلاّ بعد بضعة أسابيع. كانت لاترغب فى إسماعه لأحد قبل ذلك.

فى أعقاب ذلك جاءت لحظات ممتعة قضيناها فى تلك الحجرة التى لم تحدث بها حتى ذلك الحين سوى مشاهد وضيعة. ها هى ذى المهنة التى تفتح أيضًا أبوابها أمام كارلا. المهنة التى كانت ستحررنى منها.

وتشبه كثيراً ما كان يحلم لها به كوبلر! اقترحت عليها أن أجد لها أستاذاً. ارتاعت فى بادئ الأمر عند سماع تلك الكلمة، لكنها بعد ذلك اقتنعت بسهولة، عندما قلت لها إنها تستطيع أن تخوض التجربة، وإنها ستكون لها الحرية فى طرده إذا ما بدا لها مثيراً للسأم أو عديم الفائدة.

فى ذلك اليوم كنت أيضاً على أحسن ما يكون مع أوجوستا. كنت مرتاح الفؤاد كأنما عدت من نزهة، وليس من منزل كارلا أو مثلما كان لا بد أن يشعر به كوبلر المسكين، عندما كان يغادر فى تلك الأيام ذاك البيت ولم تسبب له المرأتان أى غضب. استمتعت بذلك الشعور كأنما وصلت إلى واحة. ولو كانت علاقتى الطويلة بكارلا قد استمرت فى حالة من القلق لكان لذلك خطورته البالغة علىّ وعلى صحتى. فمنذ ذلك اليوم، ونتيجة لجمال الشكل ذاك، سارت الأمور على نحو أهدأ مع التوقفات اللازمة لتجديد حبى سواء لكارلا، أو لأوجوستا، فى حين كانت كل زيارة لى لكارلا تعنى خيانة لأوجوستا، لكن سرعان ما كان يتم نسيان كل شيء فى بحر من الصحة والنيّات الحسنة. ثم إن هذه النيّات الحسنة لم تكن عنيفة وقاسية، مثلما كانت عندما توقفت فى حلقى رغبتى فى أن أخبر كارلا بأنّى لن أعود لرؤيتها على وجه الإطلاق. كنت وديعاً وأبوياً لها: ها أنا ذا أهتم من جديد بعملها. إن هجر امرأة كل يوم والسعى وراءها اليوم التالى، كان جهداً لم تكن لقلبى المسكين القدرة على احتماله. وهكذا ظلت كارلا، على العكس، فى دائرة سلطانى، أوجّهها تارة فى طريق وتارة أخرى فى طريق آخر.

توالت لأيام عديدة لم تكن لنيّاتي الحسنة القوة التي تدفعني إلى الإسراع إلى المدينة بحثًا عن المعلم المناسب لكارلا. ظللت مستسلمًا لذلك القرار الحكيم، وأنا قابع في بيتي. ثم ذات يوم أفضت إليّ أوجوستا أنها تستشعر أنها ستصبح أمًا، وعندئذ كبر قراري لفترة وحظت كارلا بأستاذها.

لقد ترددت كثيرًا؛ لأنه كان أيضًا واضحًا أن كارلا قد تمكنت من السير قُدمًا في عملها بصورة جادة حقًا، حتى دون معلم، على اتخاذ أسلوب جديد لها. كانت قادرة على أن تسمعني كل أسبوع أغنية جديدة ومدروسة دراسة دقيقة في الحركة وفي اللفظ. كانت هناك نغمات ما زالت في حاجة إلى الصقل بعض الشيء، لكن ربما كان سينتهي بها الأمر إلى التحسن من تلقاء نفسها. كان لدي دليل قاطع على أن كارلا فنانة حقيقية، وهو كيفية تحسينها المستمر لأغنياتها، دون أن تتنازل مطلقًا عن الأساليب الجيدة التي استطاعت أن تكتسبها منذ البداية. وكثيرًا ما كنت أحثها على أن تعيد لي غناء أول عمل لها، وفي كل مرة أجد أنها أضافت له بعض النبرات الجديدة والمؤثرة. ونظرًا لجهلها كان من الرائع أنه لم يحدث قط أن أقحمت في الأغنية نغمات زائفة أو مبالغًا فيها في أثناء جهدها الكبير في الوصول إلى تعبير قوي. وكفنانة حقيقية، كانت تضيف كل يوم حجرًا صغيرًا إلى المبنى الصغير، ويظل الباقي دون مساس. لم تكن الأغنية نتاج قالب معين، وإنما الوجدان هو الذي كان يمليها. وقبل أن تبدأ الغناء، كانت كارلا تمسح دائمًا وجهها

بيدها، ووراء تلك اليد كانت تتهيأ لحظة تركيز كافية لدفعها إلى المسرحية الصغيرة التى كان عليها أن تقوم ببنائها. إلاّ أنها لم تكن دائمًا بالمسرحية غير الناضجة. إن المعلم الساخر:

أنت مولودة فى كوخ يا روزينا

كان يتوعد، ولكن دون إفراط فى الجِدية. وكان بالمغنية فيما يبدو ما ينم على أنها تعلم قصة كل يوم. كانت كارلا تفكر على نحو مختلف، ولكن كان ينتهى بها الأمر إلى التوصل إلى النتيجة نفسها:

– أما تعاطفى فهو مع روزينا، وإلاّ لما استحقت أن أقوم بغناء الأغنية، هكذا كانت تقول.

فى بعض الأحيان كان يحدث أن كارلا، ودون أن تدرى، تستثير حبى لأوجوستا وندمى أيضًا. كان يحدث ذلك فى الواقع فى كل مرة كانت تسمح فيها لنفسها بالقيام بحركة مهينة تجاه المكانة الراسخة التى كانت تحتلها زوجتى. لم تخمد قط لديها تلك الرغبة فى أن تستحوذ علىّ كليًا لليلة كاملة؛ وأفضت إلىّ أنها ترى أننا لسنا بحميمين بما يكفى؛ لأننا لم نستسلم قط للنوم، الواحد منا بجانب الآخر. ولرغبتى فى التعود على معاملتها على نحو أكثر لطفًا، لم أرفض إرضاءها بصفة نهائية، لكن غالبًا ما كنت أفكر فى أنه لم يكن بالإمكان القيام بشىء كهذا اللهم إلا إذا استسلمت لفكرة أن أرى أوجوستا فى الصباح تطل من النافذة التى انتظرتنى بها طوال الليل. ثم إنه، أما يُعدّ ذلك خيانة

جديدة لزوجتى؟ بمعنى أنه عندما كنت أسرع أحيانًا إلى كارلا وقد غمرتنى الرغبة، كنت أشعر بالميل إلى إسعادها، لكن سرعان ما كنت أجد ذلك مستحيلاً وغير لائق. وعلى هذا النحو، ولوقت طويل، لم نتمكن من استبعاد تلك الغاية ولا تحقيقها. يبدو أنه كان هناك اتفاق فيما بيننا: عاجلاً أو آجلاً سنقضى معًا ليلة كاملة. ثم أتى وقت إمكانية ذلك الاقتراح فى ذاك الوقت لأنّى دفعت آل جيركو إلى إخلاء المستأجرين الذين كانوا يقتسمون المنزل معهم، وظفرت كارلا في نهاية الأمر بغرفة نوم خاصة بها.

حدث وقتذاك فور حفل زواج جويدو بقليل، أن الأزمة هاجمت چوڤانى وكادت تقضى عليه، ولم أتوخ الحذر وأخبرت كارلا أن زوجتى ستقضى الليلة ساهرة على والدها لتمنح حماتى قسطًا من الراحة. لم يعد هناك سبيل للامتناع: طالبتنى كارلا بأن أمضى معها الليلة ذاتها التى كانت مؤلمة جداً بالنسبة لزوجتى. لم أملك الشجاعة أن أقاوم تلك النزوة، وتهيأت لها وصدرى ضائق.

تأهبت لتلك التضحية. لم أذهب إلى كارلا فى الصباح، ولكنّى أسرعت إليها مساءً ورغبتى شديدة وأنا أحدث نفسى أيضًا بأنه صبيانى الظن أننى أخون أوجوستا بصورة أكثر خطورة؛ لأنّى أقوم بخيانتها فى الوقت الذى تعانى هى فيه لأسباب أخرى. ولهذا وصل بى الأمر إلى نفاد صبرى حين أخذت أوجوستا المسكينة تستوقفنى لتشرح لى كيف أتصرف لإعداد الأشياء اللازمة التى أحتاج إليها فى العشاء، وفى الليل بل وحتى القهوة فى صباح اليوم التالى.

احتفت بي كارلا في حجرة المكتب. وبعد قليل قدمت لنا والدتها وخادمتها في الوقت ذاته عشاءً شهيًا، وأضفت أنا له الحلوى التي أحضرتها معي. ثم عادت العجوز لترفع الأطباق عن المائدة، وفي الحقيقة كنت أود أن أذهب على التو إلى فراشي، لكن الوقت كان لا يزال مبكرًا، ودفعتني كارلا للاستماع إلى غنائها. استعرضت كل محصلتها منه، وكان ذلك بلا شك هو أفضل ما قضيته من وقت في تلك الساعات؛ لأن اللهفة التي كنت أنتظر بها محبوبتي، زادت من العذوبة التي كان يمنحني إياها غناء كارلا.

– سوف يغمرك الجمهور بالأزهار والتصفيق – قلت لها في لحظة نسيت فيها أنه أمر مستحيل أن يكون جمهور بكامله في الحالة النفسية ذاتها التي كنت أشعر بها.

في نهاية الأمر ذهبنا لننام في الفراش واحد في حجرة صغيرة خالية تمامًا مما يجمِّلها. كانت تبدو وكأنها رواق يسده حائط. لم يغلبني النعاس وأنا أعاني من التفكير في أنه لو جاءني النوم فلن أتمكن منه في ذلك الهواء القليل من حولي.

نادت الأم كارلا بصوت خجول. فذهبت إلى الباب لكي تجيبها، وتركته مواربًا. سمعتها بصوت حاد تسأل العجوز عما تريد. قالت الأخرى في استحياء كلمات لم أدرك مغزاها، وعندئذ صاحت كارلا قبل أن توصد الباب في وجه أمها:

– دعيني وشأني. قلت لكِ من قبل إنّي سأنام هذه الليلة في هذه الناحية!

هكذا عرفت أن كارلا إذ كان الخوف يزعجها ليلاً، كانت تنام دائمًا مع أمها في حجرة نومها القديمة وكان بها فراش آخر، ولما كنّا لا نرقد عليه معًا كان يظل خاليًا. كان لفزعها بلا شك الدور في حثي على القيام بذلك الفعل السخيف مع أوجوستا. أقرت بفرحة ماكرة لم أشاركها فيها، أنها تشعر بأمان معي أكثر منه مع أمها. جذبت تفكيري نحو ذلك الفراش الواقع على مقربة من حجرة المكتب المنعزلة. لم أكن قد رأيته قط من قبل. أحسست بالغَيرة! بعد قليل انتابني أيضًا شعور بالازدراء من سلوك كارلا مع تلك الأم المسكينة. كانت تختلف عن أوجوستا التي تنازلت عن رفقتي لتسهر على راحة والديها. فأنا شديد الحساسية أمام التقصير في احترام الوالدين بوجه خاص، أنا، الذي تحمل في خضوع تام نزوات أبي المسكين الحانقة.

لم تستطع كارلا أن تلحظ غَيرتي ولا استيائي. أخمدت في نفسي مظاهر الغيرة وأنا أتذكر أنه ليس من حقي الشعور بالغيرة، حيث تمر عليّ الأيام الكثيرة التي آمل فيها أن يأتي أحد ليصرف عنّي عشيقتي. لم يعد هناك أيضًا أدنى غاية في إظهار ازدرائي للفتاة البائسة التي كانت منذ زمن تراودني الرغبة في هجرها نهائيًا، ومهما كان شعوري بالازدراء كبيرًا للأسباب ذاتها التي كانت ستثير غيرتي قبل قليل. كان لابد أن أبتعد بأسرع وقت ممكن عن تلك الحجرة الصغيرة التي لا تتسع لأكثر من متر مكعب واحد من الهواء، فضلاً عن شدة الحرارة بها.

لم أعد أتذكر جيداً حتى العذر الذي تعللت به لكي أبتعد في الحال. أخذت أرتدي ملابسي وأنا ألهث. تحدثت عن مفتاح نسيت أن أسلمه

لزوجتي التي لن تستطيع أن تدخل المنزل، إن احتاجت إليه. أريتها المفتاح الذي لم يكن سوى ما أضعه دائما في جيبي، لكنّي قدمته كدليل قاطع على حقيقة ما أزعم به. كذلك كارلا لم تحاول أن تمسك بي؛ ارتدت ملابسها، وصاحبتني إلى أسفل السُّلم كي تنيره لي.

وفي ضوء السلم المعتم، بدا لي أنها تتفرس فيّ بنظرة فاحصة أزعجتني: هل بدأت تفهمني؟ لم يكن الأمر غاية في اليسر، حيث كنت أتقن التخفي بطريقة جيدة جداً. ولكي أشكرها لأنها تركتني أنصرف، أخذت بين الحين والآخر ألصق شفتي بوجنتيها وأتظاهر بأنه ما زال يسيطر عليّ الحماس ذاته الذي دفعني إليها. لم يساورني بعد ذلك أدنى شك في نجاح تظاهري بتلك الأحاسيس. قبل قليل، وبواعز من الحب، قالت لي كارلا إن اسم تزينو السيئ، الذي ألصقه والدي بي، لم يكن بلا شك الاسم الجدير بشخصي. كانت تود لو كان اسمي داريو، وفي الظلام الدامس، ودعتني وانصرفت وهي تناديني بذلك الاسم. ثم انتبهت إلى أن الجو ينذر بالمطر، وعرضت عليّ أن تحضر لي مظلة. لكنّي لم أكن لأطيقها أكثر من ذلك على الإطلاق، وأسرعت بالانصراف وكنت مازلت أمسك بيدي المفتاح ذاك الذي بدأت أؤمن أنا أيضاً بمصداقيته.

كان يتخلل ظلمة الليل الدامس وميض خاطف بين الحين والحين. وكان هزيم الرعد يبدو بعيداً. والجو لا يزال ساكناً وخانقاً، مثلما كان في حجرة كارلا الصغيرة. كذلك كانت قطرات المطر الكبيرة القليلة تتساقط دافئة. كان النذير واضحاً في السماء، فأخذت أسرع الخُطى.

حالفنى الحظ أن وجدت فى كورسيا ستاديون بوابة منزل لا تزال مفتوحة ومضاءة احتميت بها فى الوقت المناسب تمامًا. وعلى الفور مباشرة انقض الغيم بمائه على الطريق. قاطعت هدير الماء هبة ريح هوجاء، يبدو أنها جلبت فجأة معها الرعد أيضًا قريبًا جدًا. ارتجفت! ولو كنت قد صعقت وقتئذ فى كورسيا ستاديون، لانفضح أمرى! من حسن الحظ أن زوجتى تعرف أيضًا عنّى أنّى رجل غريب الأطوار يمكنه أن يسرع إلى هناك ليلاً، وعندئذ هناك دائمًا مبرر لكل شىء. اضطررت أن أظل محتميًا بتلك البوابة لمدة تزيد على الساعة. كان يبدو أن الجو يميل إلى الاعتدال، لكنه سرعان ما كان يستعيد ثورته بأشكال أخرى. وبدأ البَرَد أيضًا يتساقط.

أتى حارس المنزل ليرافقنى، ووجب علىّ أن أعطيه بعض النقود ليرجئ غلق الباب. ثم دخل من البوابة رجل يرتدى ملابس بيضاء يتصبب منه ماء المطر. كان مسنًا نحيفًا وجافًا. لم أره ثانية، لكنّى لا أستطيع نسيانه من بريق عينيه السوداء والطاقة التى كانت تنبعث من كل جسمه الضئيل. كان يسب لأنه كان مبللاً على تلك الصورة.

أحببت دائمًا أن أتحادث مع أناس لا أعرفهم. أشعر معهم بأنّى معافًى وآمن. إنها حقًا راحة لى. علىّ أن أحترس حتى لا أعرج، وأصبح فى آمان.

وأخيرًا عندما اعتدل الجو، لم أتوجه على الفور إلى بيتى، بل عند والد زوجتى. رأيت أنه من الواجب فى تلك اللحظة أن أثبت حضورى وأزهو بوجودى هناك.

كان جوڤاني قد خلد إلى النوم، وتمكنت أوجوستا من المجيء إليّ، وقد أتت راهبة لتعاونها. قالت إنّي أحسنت صنعًا بحضوري وارتمت بين ذراعي وهي تذرف الدمع. لقد رأت والدها وهو يتألم ببشاعة.

لاحظت أنّي مبلل بكاملي. أجلستني على أريكة وغطتني بالأغطية. وأرادت البقاء بجواري لبعض الوقت. كنت أشعر بإرهاق شديد، وأخذت أصارع النوم، حتى في الوقت الوجيز الذي استطاعت فيه الجلوس معي. شعرت بأنّي بريء بشدة، فأنا لم أكن قد خنتها لليلة كاملة في الوقت الذي كنت فيه بعيداً عن منزل الزوجية. كان الشعور بالبراءة شعوراً جميلاً، حتى أنّي حاولت أن أزيد منه. أخذت أتحدث بكلمات أشبه بالاعتراف. قلت لها إنّي أشعر بالضعف والذنب وما إن نظرت إليّ حينئذ نظرة تطلب فيها تفسيراً لما قلته، أخرجت كالفرخ رأسي من تحت الغطاء، وإذ ألقيت بنفسي في خضم الفلسفة، قلت لها إن الإحساس بالذنب لا يفارقني في كل لحظة تفكير، وفي كل نفس أتنفسه.

– على هذا النحو يفكر المتدينون أيضاً، – هكذا قالت أوجوستا: – من يدري ربما نعاقب بهذه الصورة على ذنوب لا ندري بها!

أخذت تنطق بكلمات تتناسب مع دموعها المنهمرة. رأيتها لم تعِ جيداً الفارق بين ما كان يدور بخلدي وبتأمل العابدين، لكنّي لم أرغب في مجادلتها وعلى أنين الريح الرتيب التي بدأت تشتد، والشعور بالراحة الذي منحني إياه أيضًا إقبالي على الاعتراف، استغرقت في نعاس عميق مجدد للقوى.

عندما حان وقت معلم الغناء، تم تنظيم كل شيء في ساعات قليلة. كنت قد اخترته منذ وقت بعيد، ولكي أصدق القول، استوقفني اسمه، ثم إنه قبل كل شيء كان أجره أزهد أجر في مدينة تريستي. ولكي لا أتعرض للشبهات، ذهبت كارلا بنفسها لتتحدث معه في الأمر. لم أره مطلقًا، لكن ينبغي القول إنّي أعلم حاليًا الكثير عنه، وهو من أكثر الأشخاص قدرًا عندي في هذا العالم. من المؤكد أنه إنسان بسيط يتمتع بالصحة، وهذا أمر غريب بالنسبة لفنان يعيش لفنه، مثل ڤيتوريو لالي هذا؛ ومن ثم فهو رجل جدير بالحسد؛ لأنه عبقري وسليم الصحة أيضًا.

وعلى ذلك سرعان ما سمعت صوت كارلا يلين ويصبح أكثر مرونةً وثباتًا، وكنا نتخوف من أن المعلم يفرض عليها جهدًا، مثلما فعل المعلم الذي اختاره كوبلر من قبل. ربما أراد أن يتماشى مع رغبة كارلا، غير أنه في الحقيقة ظل ملتزمًا بالأسلوب الذي كانت تؤثره. وبعد مرور شهور عديدة فقط أدركت أنها ابتعدت عنه قليلاً، وهي ترقى بأسلوبها. لم تعد تغني أغاني تريستي ولا نابولي، بل ارتقت إلى أغاني إيطالية قديمة وإلى موزارت وشوبرت. أتذكر بوجه خاص «تهويدة» ينسبونها إلى موزارت، وفي الأيام التي أشعر فيها بمرارة الحياة وأتحسر على الصبية الغضة التي كانت لي ولم أحبها، يتردد صدى هذه «التهويدة» في أذني أشبه باللوم. تتراءى لي عندئذ كارلا على هيئة أم تخرج من صدرها أعذب الأصوات تستميل بها النوم لطفلها. ومع ذلك، وحتى وإن كانت لي محبوبة لا تنسى، فإنها لا تصلح لأن تكون أمًا صالحة؛ لأنها كانت ابنة عاقة.

لكن من الواضح أن إتقان اتخاذ ثوب الأم فى الغناء إنما هو خاصية تحجب كل ما عداها من خواص.

علمت من كارلا قصة معلمها. كان قد درس المعهد الموسيقى بقيينا لبضع سنين، ثم جاء إلى تريستى، حيث حالفه الحظ ليعمل لدى أكبر مؤلف موسيقى لدينا، وقد كف بصره. كان يكتب مؤلفاته التى يمليها عليه، وكان يحظى أيضاً بثقته فيه، فالمكفوفون لا بد أن يمنحوها كاملة. على هذا النحو تعرف منه على غاياته، الآراء الناضجة منها والأحلام دائمة الشباب فيها. سرعان ما تشبعت روحه بموسيقاه، حتى ذلك الأسلوب الذى كان يلزم كارلا. كما أنها وصفت لى أيضاً مظهره؛ شاب، أشقر اللون، قوى البنية إلى حد ما، لا يكترث بثيابه، يرتدى قميصاً متهدلاً لا يواظب على غسله باستمرار، رابطة عنقه كان من المفترض أن تكون سوداء اللون، وهى ضخمة غير معقودة، وقبعته رخوة حوافها فى غير موضعها. كان قليل الكلام ومنكباً على ما كلف به نفسه من مسئولية – هذا ما قالته لى كارلا، ويجب أن أصدقها فى ذلك؛ لأنه بعد مرور عدة شهور صار ثرثاراً معها، وسرعان ما أخبرتنى هى بذلك.

وفى وقت وجيز أصابت التعقيدات أيامى. فضلاً عن الحب كنت أحمل فى الصباح من عند كارلا شعوراً بغيرة مريرة، تقل مرارتها على مدار اليوم. كان يبدو لى مستحيلاً ألاّ يستغل ذلك الشاب اليافع تلك الفريسة الطيبة، السهلة. كانت الدهشة تعتلى كارلا من أنه يمكن أن أفكر فى شىء كهذا، ولكنّى كنت مثلها أندهش. ألم تعد تتذكر كيف سارت الأمور بينى وبينها؟

ذات يوم وصلت عندها وقد أثارتني الغيرة، فأكدت لى على الفور وهى مرتاعة أنها مستعدة لصرف المعلم. لا أظن أن فزعها كان يرجع فقط إلى أنها كانت تخشى أن أحرمها من مساعداتي، فقد لمست فيها فى تلك الفترة شيئًا من علامات الحب التى لا أستطيع أن أرتاب فيها، والتى كانت تسعدنى أحيانًا، عندما أكون فى حالة نفسية مختلفة، فى حين كانت تزعجنى وتبدو لى تصرفات معادية لأوجوستا أرغِمتُ على المشاركة فيها، على الرغم مما كلفتنى إياه. أثار اقتراحها ارتباكي. كنت لا أرغب فى قبول تضحية منها، سواء كنت فى لحظة حب أو فى لحظة ندم. كان لابد أن يكون هناك اتصال بين حالتى النفسيتين وأنا لم أرغب فى أن أنقص من ذلك القدر القليل المتاح لى من الحرية فى المرور من حالة إلى أخرى؛ ولهذا لم يكن بإمكانى قبول اقتراح كهذا جعلنى، على العكس، أكثر حرصًا عندما أثارتنى الغيرة، وتمكنت من إخفائها. صار حبى غضوبًا بصورة أكبر، وانتهى بى الأمر إلى أن أرى فى كارلا مخلوقًا دونيًا، سواء عندما كنت أرغب فيها أو لا أرغب على الإطلاق. لعلها كانت تخوننى، أو أن أمرها ما لم يكن يعنينى فى شىء. عندما كنت لا أكن لها بغضًا لا أتذكر أنها لا تزال هناك. فأنا أنتمى إلى مناخ الصحة والأمانة الذى تجلس على عرشه أوجوستا التى كنت أعود إليها بجسدى وروحى بمجرد أن تتركنى كارلا وشأنى.

ولما كانت كارلا صريحة بشكل مطلق، فأنا أعرف بالضبط كم الوقت الطويل الذى استحوذت فيه عليها، أما غيرتى المتكررة فى ذلك الحين فما كانت إلاّ تعبيراً عن إحساس دفين بالعدالة. ومع ذلك،

كان لا بد أن يصيبنى ما أستحقه. فى بادئ الأمر وقع المعلم فى غرامها. وكما رأيت فإن أول مؤشر لحبه كان يتمثل فى تعبيرات منه أبلغتنى بها كارلا، وهى تبدو عليها مظاهر الانتصار، حيث اعتبرت تلك الكلمات دليلاً على أول نجاح عظيم لها فى الفن يستحق ثناءً من جانبى. لعله أخبرها كذلك بأنه قد أصبح مغرمًا بالقيام بواجبه كمعلم، حتى إنه سيستمر فى إعطائها الدروس بلا مقابل، حتى إن لم تستطع أن تدفع له الأجر. كنت سأصفعها، لولا أن جاءت بعد ذلك لحظة تظاهرت فيها أنّى أستطيع أن أستمتع بفوزها الحقيقى. ونسيت هى ما أصاب وجهى للوهلة الأولى من تشنج عضلى يشابه حالة من يقضم ليمونة بأسنانه، وتقبلت مصدقة المدح الذى جاءها متأخراً بصفاء نفس. إنه حكى لها عن شئونه الخاصة جميعها التى لم تكن كثيرة: كالموسيقى، والبؤس والعائلة. كانت أخته قد سببت له شقاءً كبيراً، واستطاع أن يبث فى كارلا بغضًا شديداً إزاء تلك المرأة التى لا تعرفها. فرأيت فى ذلك النفور ما يثير الشكوك. ثم أخذا يغنيان معًا أغنيات كتبها هو وبدت لى قليلة القيمة، تمامًا مثلما كنت أحب كارلا، وبالقدر نفسه أشعر بأنها قيد من القيود. ربما كانت على النقيض من ذلك أغانى جيدة على الرغم من أنّى لم أسمع بها قط. قاد بعد ذلك فرق موسيقية فى الولايات المتحدة، وربما كانوا يشدون هناك أيضًا بتلك الأغنيات.

أخبرتنى ذات يوم أنه طلب منها الزواج لكنها رفضت. مرت علىّ حينئذ نصف ساعة سيئة حقًا: فى الربع الأول شعرت بثورة غضب شديدة تتملكنى حتى رغبت فى انتظار المعلم لكى ألقى به بعيداً بوابل

من الركلات، وفى الربع الثانى لم أعثر على الوسيلة التى أوفق بها بين إمكانية الاستمرار فى علاقتى غير المشروعة، وبين ذلك الزواج وهو فى حقيقة الأمر شىء جيد وأخلاقى وضمان تجعل وضعى أكثر بساطة علاوة على مهنة الغناء التى تحلم كارلا بالبدء فيها وهى فى رفقتى.

لمَ التهبت مشاعر ذلك المعلم المبجَّل على هذا النحو وبهذه السرعة؟ فى تلك الأثناء، وبعد مرور عام على علاقتنا، كان كل شىء قد هدأ بينى وبين كارلا، حتى العبوس الذى كان يصاحبنى عندما كنت أتركها. كذلك مشاعر الندم التى كنت أشعر بها أصبحت حينئذ محتملة إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن كارلا كان لا يزال لديها الحق فى اتهامى بالفظاظة فى حبى معها، كان يبدو أنها قد اعتادت عليها. لعلها تمكنت من ذلك أيضًا بسهولة؛ لأنّى لم أعد قط فظًا بالصورة التى كنت عليها فى الأيام الأولى لعلاقتنا وبعد أن تحملت تلك المغالاة فى البداية، فما حدث بعد ذلك لا بد أنها رأته أكثر لطفًا مقارنة بما قبله.

وعلى هذا النحو أيضًا عندما أصبحت لا أبالى كثيراً بكارلا، كانت تلح على خاطرى فكرة عدم ارتياحى لو ذهبت فى اليوم التالى للبحث عن محبوبتى ولم أجدها. لعله كان بالتأكيد شيئًا جميلاً أن أعود إلى أوجوستا دون ذلك التوقف المعتاد عند كارلا، وكنت أشعر حينئذ بقدرة كبيرة على فعل ذلك؛ ربما كان علىّ القيام بالتجربة أولاً. لا بد أن قرارى كان فى تلك الفترة ما يقارب هذه الصيغة: «غداً سأرجوها أن تقبل طلب المعلم، لكنى سأمنعها اليوم من ذلك». وفى عناء شديد واصلت التعامل

معها كعاشق. الآن، وأنا أنظر للأمر، بعد أن قمت بتسجيل مراحل مغامرتي جميعها، ربما يبدو أنّي أقوم بمحاولة تزويج عشيقتي برجل آخر وأن أحتفظ بها لنفسي، تلك هي سياسة رجل أكثر فطنةً مني وأكثر اتزانًا، وإن كان فاسداً مثلي. لكنها ليست الحقيقة: كان بمقدورها أن تتزوج المعلم، لكن كان عليها أن تقرر هذا الأمر في اليوم التالي. ولهذا السبب وفي تلك اللحظة فقط توقف إحساسي بتلك الحالة التي كنت أصر على وصفها بالبراءة. لم يعد ممكنًا أن أغرم بكارلا لوقت وجيز من النهار، ثم أبغضها لأربع وعشرين ساعة متواصلة، وأستيقظ كل صباح وأنا جاهل مثل الوليد وأعود لأعيش يومًا يشابه كثيرًا ما سبقه، حتى أفاجأ بما يحمله لي من مخاطر، كان عليّ أن أعرفها عن ظهر قلب. ذلك لم يعد ممكنًا. تراءى لي احتمال فقدان عشيقتي إلى الأبد، إن لم أستطع السيطرة على رغبتي في التخلص منها؛ لهذا سارعت بإسكاتها!

وبناءً على هذا ففي ذلك اليوم، وبينما لم تعد كارلا تهمني، قمت بافتعال مشهد غرام معها يشبه، في عدم مصداقيته وعنفه، ذلك المشهد الذي اصطنعته مع أوجوستا، وقد أسكرني النبيذ، تلك الليلة في العربة. إلا أنه في هذه المرة لم يكن هناك نبيذ، وأفضى بي الأمر إلى التأثر الحقيقي عند سماع رنين كلماتي. صارحتها بأنّي أحبها، ولن أقوى على الحياة بدونها؛ ولذلك ظننت أنّي طالبتها بأن تضحي بحياتها، فليس في وسعي أن أقدم لها شيئًا يعادل ما عرضه عليها المعلم لالي.

كانت نغمة جديدة فى عَلاقتنا التى استغرقت مع ذلك ساعات طويلة من الحب العميق. أخذت كارلا تنصت إلى كلماتى فى نشوة. فيما بعد أخذت تقنعنى أنه لا داعى لأن أتألم كثيراً بسبب غرام لالى. إنها لا تفكر فيه مطلقًا!

شكرتها، وبالحماس ذاته الذى لم يفلح ساعتئذ فى تحريك مشاعرى. كنت أشعر بثقل على معدتى: من الواضح أنّى تورطت أكثر من أى وقت مضى. ازداد حماسى الظاهرى بدلاً من أن يهدأ، ليس إلاّ ليسمح لى بالتفوّه ببضع كلمات إعجاب لشخص لالى المسكين. لم أكن أريد بالطبع أن أفقده نهائيًا، كنت أرغب فى الحفاظ عليه، ولكن فى اليوم التالى عندما اقتضى الأمر اتخاذ القرار فى أن نبقى أو نصرف المعلم، سرعان ما توصلنا إلى اتفاق. ثم أنّى ما كنت لأرغب فى حرمانها من المهنة أيضاً فضلاً عن الزواج. وقد أقرّت هى أيضاً أنها تتمسك بالمعلم: كان لديها الدليل فى كل درس على ضرورة معاونته. وأكدت لى أنّى أستطيع أن أكون واثقًا ومطمئنًا: إنها تحبنى ولا تحب أحداً سواى.

من الواضح أن خيانتى بعد ذلك ازدادت واتسعت. ارتبطت بعشيقتى بشعور جديد من العاطفة، أخذ يوثقنى بروابط جديدة، وأخذ يغزو مساحة كنت أخصصها حتى تلك اللحظة لحبى المشروع فقط. لكنّى، عندما كنت أعود إلى منزلى، كانت تختفى تلك المشاعر وتنعكس مزدادة على أوجوستا. لم يكن لدى نحو كارلا سوى شعور عميق بعدم الثقة. من يدرى أية حقيقة كانت فى اقتراح ذاك الزواج! ما كنت لأندهش إذا ما

جاءتني كارلا ذات يوم، وبدون أن تتزوج ذلك الرجل، لتهبني ابنًا موهوبًا موهبة عظيمة في مجال الموسيقى. وعادت القرارات الحاسمة تصاحبني عند كارلا، لكي تتركني عندما أكون معها ولتراودني ثانية حينما لم أكن قد تركتها بعد. كلها أمور بلا تداعيات من أي نوع.

ولم تكن هناك عواقب أخرى سوى هذه الأخبار الجديدة. انقضى الصيف وحمل معه چوڤاني. انشغلت بعد ذلك بأعمال كبيرة في شركة جويدو التجارية الجديدة، حيث عملت بها أكثر من أي مكان آخر، بما في ذلك الكليات الجامعية المختلفة التي التحقت بها. أما عن نشاطي هذا فسأتحدث عنه لاحقًا. ومضى الشتاء أيضًا، ثم ظهرت في حديقتي الأوراق الخضراء الأولى التي لم ترني قط في الإحباط الذي رأتني به مثيلتها في العام السابق. ولدت ابنتي أنتونيا. داوم معلم كارلا التعاون معنا، لكن كارلا لم ترغب في الاهتمام به على الإطلاق وأنا أيضًا كنت مثلها.

على الرغم من ذلك وقعت عواقب وخيمة في علاقتي بكارلا بسبب أحداث ما كنت أتصور حقيقة أن لها جانبًا من الأهمية. مرت دون أن يفطن لها أحد تقريبًا، وتكشفت فقط من الآثار التي خلفتها.

فعند حلول فصل الربيع بالتحديد، تقبلت فكرة القيام بنزهة مع كارلا في الحديقة العامة. كان الأمر يبدو لي مجازفة كبيرة، لكن كارلا كانت شديدة الرغبة في السير في دفء الشمس وهي تتعلق بذراعي، حتى إنني وافقتها في النهاية. لم يكن ينبغي أن يسمح قط بأن نعيش ولو للحظات وجيزة كزوج وزوجة، وحتى هذه المحاولة باءت بالفشل أيضًا.

جلسنا على أريكة، حتى نتمتع على نحو أفضل بذلك الدفء المفاجئ الجديد الذى تبعثه السماء، وبدت الشمس بها وقد استعادت منذ قليل سلطانها. فى صباح أيام العمل، تكون الحديقة خالية وخُيل إلىّ أنه، إن لم أتحرك، فليس هناك خطر كبير فى أن يرانى أحد. على العكس من ذلك، دنا منّا توليو، ذو العضلات الأربع والخمسين، وهو يرتكز على عكازه بخطوات بطيئة، لكنها واسعة، وجلس إلى جوارنا بالضبط، دون أن يلتفت إلينا. ثم رفع رأسه، فتقابلت نظراتنا وألقى علىّ التحية:

- مر وقت طويل! كيف حالك؟ أعساها قلّت أخيراً مشاغلك؟

جلس إلى جوارى بالضبط، وما إن فوجئت به أخذت أتحرك حتى أمنعه من رؤية كارلا. لكنه، بعد أن صافحنى بيده، سألنى:

- زوجتك؟

كان ينتظر أن أعرّفها به.

رضخت وقلت:

- الآنسة كارلا چيركو، إحدى صديقات زوجتى.

ثم استرسلت فى الكذب وأنا أعرف من توليو نفسه أن الكذبة الثانية كانت كافية لأن تكشف له الأمر كله. وبابتسامة مفتعلة، قلت:

- الآنسة أيضًا جلست إلى جوارى على هذه الأريكة دون أن تراني.

إن الكاذب لابد أن يعى ضرورة عدم قول سوى الأكاذيب الضرورية حتى يصدقه الآخرون. وبأسلوب أولاد البلد الطيبين، قال توليو لى عندما تقابلنا ثانية:

- شرحت أموراً كثيرةً؛ ولذلك استنتجت أنك تكذب، وأن تلك الفتاة الحسناء كانت عشيقتك.

كنت حينئذ قد فقدت كارلا، وأكدت له فى مرح أنه أصاب فى تصوره، لكنّى أخبرته فى أسى أنها منذ زمن هجرتنى. لم يصدقنى وشعرت له بالامتنان. ارتأيت حسن الطالع فى عدم تصديقه.

انتابت كارلا حالة سوء مزاج لم أشهدها من قبل. وأنا أعلم الآن أنها منذ ذلك الحين بدأت فى تمردها. لم أفطن إلى ذلك على الفور؛ لأنّى أدرت لها ظهرى، لأستمع إلى توليو، الذى أخذ يقص علىّ عن مرضه والعلاج الذى كان يتناوله. فيما بعد تعلمت أن المرأة لا تقبل أن ينكرها أحد على الملأ، حتى ولو كانت تتسامح أحياناً مع معاملة أقل لياقة باستثناء لحظات معينة. أبدت استياءها بوجه خاص من الأعرج المسكين بدلاً منّى، ولم تجبه عندما وجه إليها الحديث. ولم أكن أنصت أنا أيضاً إلى توليو؛ لأنه لم يكن بإمكانى الاهتمام بعلاجه فى تلك اللحظة. كنت أحدق فى عينيه الصغيرتين لأتبين ما يظنه من ذلك اللقاء. كنت أعلم أنه كان متقاعداً فى ذلك الوقت، وأن لديه الوقت الكافى طوال اليوم، ويستطيع بسهولة أن يغزو بأحاديثه الثرثارة مدينتنا تريستى كلها فى ذلك الوقت بمجتمعها الصغير.

ثم بعد أن استغرقت كارلا فى التفكير، نهضت لتتركنا وهى تهمهم:

- إلى اللقاء - وانطلقت تبتعد.

كنت أعلم أنها غاضبة منّى وإذ لم يَفُتْنى قَطّ وجود توليو، حاولت أن أغتنم الوقت الملائم لأهدئ من روعها. طلبت منها أن تسمح لى بمصاحبتها، حيث كان علىّ أن أتخذ اتجاه طريقها ذاته. كانت تحيتها الجافة تلك تعنى حقًّا هجرها لى، وتلك كانت المرة الأولى التى خشيته فيها بصورة جادة. وضاقت نفسى من ذاك التهديد القاسى.

لكن كارلا لم تكن تعرف بعد إلى أين تتوجه بخطواتها الحاسمة. كانت تتنفّس عن ثورة غضب سيطر عليها وقتئذ وسيذهب عنها عما قليل.

انتظرتنى ثم سارت بجانبى دون أن تتفوه بكلمة واحدة. عندما ذهبنا إلى المنزل، أخذتها نوبة بكاء لم تفزعنى؛ لأنها دفعتها إلى الاحتماء بين ذراعى. أخبرتها من هو توليو ومدى الضرر الذى كان يمكن أن يصيبنى من لسانه. عندما رأيتها تستمر فى البكاء، وهى لا تزال بين ذراعى، تجرأت على الحديث بنبرة أكثر حسمًا: أكنت تريدين إذن أن تعرِّضينى للشبهات؟ ألم نقل دائمًا إننا سنبذل ما فى وسعنا لكى نكفى تلك المرأة المسكينة آلامًا وهى على أية حال زوجتى وأم ابنتى؟

يبدو أن كارلا قد عادت إلى رُشدها، لكنها أرادت أن تمكث بمفردها لتهدأ. أسرعت بالانصراف وأنا مسرور للغاية.

لابد أن تلك الواقعة كانت وراء ما تملكتها من رغبة فى الظهور معى أمام الناس وكأنها زوجتى. يبدو أنها، وقد رفضت الزواج من المعلِّم، كانت ترغب فى أن ترغمنى على شغل جانب كبير من المكانة التى أبت أن تمنحه إياها. أخذت تزعجنى لوقت طويل لكى أحجز مقعدين فى المسرح، نصل إليهما من اتجاهين مختلفين لنجد أنفسنا نجلس الواحد إلى جوار الأخرى مصادفةً. وصلت معها إلى الحديقة العامة فقط لعدة مرات، تلك كانت حدود تجاوزاتى، التى أصبحت أصل إليها بعد ذلك من الجانب الآخر. لم أذهب إلى أبعد من ذلك، على الإطلاق! وعلى هذا النحو انتهى الأمر بأن تشبهنى عشيقتى بدرجة كبيرة. كانت تتشاجر معى فى كل لحظة، فى نوبات غضب مفاجئة دون أية أسباب. وسرعان ما كانت تعود إلى رشدها، بل كانت تلك النوبات كافية لتجعلنى طيباً ثم فى غاية الطيبة والوداعة. كثيراً ما كنت أجدها تذرف الدموع بغزارة ولا أتمكن قط من الحصول منها على تفسير لآلامها. ربما كان الذنب ذنبى؛ لأنّى لا أصر بما يكفى لأحصل على ذلك التفسير. وعندما عرفتها بصورة أفضل، عندما هجرتنى، لم أعد أكن فى حاجة إلى تفسيرات أخرى. إنها، تحت ضغط الحاجة، اندفعت فى تلك المغامرة التى لم تكن تناسبها. لقد صارت بين ذراعى امرأة - وأحب أن أفترض ذلك - امرأة أمينة. بالطبع على ألاّ يُنسب لى أى فضل فى ذلك، بل كان منّى الضرر كله.

انتابتها نزوة جديدة أدهشتنى فى بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن حركت مشاعرى بالشفقة عليها: أرادت أن ترى زوجتى. أقسمت لى بألاّ أقترب

منها، وأن تتصرف بحيث لا تشعر بها. وعدتها بأن أخبرها، عندما أعلم بخروج زوجتي في ساعة محددة. كان لابد أن ترى زوجتي بعيداً عن فيلتي، فهي تقع في مكان خالٍ تسهل ملاحظة أي عابر فيه، بل في أحد شوارع المدينة المزدحمة.

وفي تلك الأثناء أصيبت حماتي بمرض مفاجئ بعينيها، ألزمها بأن تعصبهما لعدة أيام. كان السأم يقتلها، وكانت بناتها تتبادلن السهر عليها ليدفعنها لتناول العلاج بانتظام: كانت زوجتي تأتي في الصباح، وآدا في الرابعة بالضبط بعد الظهر. فبقرار فوري منّي قلت لكارلا إن زوجتي تترك منزل والدتها كل يوم في الرابعة تمامًا. ولا أدري بالتحديد حتى الآن لمَ قدّمت آدا لكارلا على أنها زوجتي. مما لا ريب فيه أنه، بعد طلب المعلم للزواج من فتاتي، صرت في حاجة إلى أن أربطها بي برباط أوثق، وربما اعتقدت أنها كلما رأت الجمال في زوجتي، قدّرت الرجل الذي يضحي (على سبيل القول) بامرأة كهذه من أجلها. لم تكن أوجوستا وقتذاك سوى مرضعة جيدة في غاية الصحة. ربما كان للحيطة كذلك تأثيرها على قراري. من المؤكد أنّي كنت على حق في أن أخشى نزوات امرأتي، ولو كانت قد انساقت وراء أي سلوك طائش مع آدا، لما كان له أية أهمية، حيث أثبتت لي هذه الأخيرة أنها لن تحاول مطلقًا أن تشوّه صورتي أمام زوجتي.

ولو كانت كارلا أحرجتني أمام آدا، لحكيت لتلك الأخيرة القصة كلها لكي أكون صادقًا، مع شيء من المتعة.

غير أن سياستى كانت لها فى حقيقة الأمر نتيجة غير متوقعة. بعد أن ساورنى بعض القلق، ذهبت فى صباح اليوم التالى إلى كارلا فى ساعة مبكرة على غير عادتى. وجدتها فى حالة متغيرة تماماً عن اليوم السابق. كانت تكسو وجهها البيضاوى السامى ملامح بالغة الجدية. رغبت فى تقبيلها، لكنها دفعتنى، ثم سمحت بأن ألمس وجنتيها بشفتى، لتدفعنى إلى الإنصات إليها فى هدوء. جلست أمامها فى الجانب المقابل بالمنضدة. فى مهل أخذت ورقة، كانت تكتب عليها حتى اللحظة التى وصلت فيها ووضعتها بين أوراق الموسيقى الموضوعة على المنضدة. لم أنتبه إلى تلك الورقة، ولم أعرف إلاّ مؤخراً أنها كانت رسالة تكتبها إلى لالى.

ومع ذلك أعرف الآن أنه حتى تلك اللحظة كانت هناك شكوك بداخل كارلا. كانت عيناها تنظران إلىّ فى ثبات وتتفحصنى؛ ثم تلتفت تجاه ضوء النافذة لتنفرد بنفسها بصورة أفضل، وتمعن التفكير فيما يدور بداخلها. من يدرى! لو كنت استنتجت فى التو على نحو أفضل ما الذى كان يتشاحن فى خلدها، لتمكنت من الاحتفاظ بعشيقتى المحبَّبة حتى الآن.

قصت علىّ لقاءها مع آدا. كانت فى انتظارها أمام منزل حماتى، وعندما رأتها قادمة عَرفتها فى الحال.

– لم يكن هناك مجال للخطأ. إنك قمت بوصف أهم ملامحها لى. أوه! أنت تعرفها جيداً!

سكتت للحظة لكى تسيطر على انفعالها الذى كان يسد حلقها، ثم استأنفت قائلة:

- لا أدرى ما الذى حدث بينكما، لكنّى لا أرغب أبداً فى خيانة تلك السيدة رائعة الجمال التى تشعر بحزن شديد! وسأكتب اليوم رسالة إلى معلم الغناء أقول له فيها إنّى مستعدة للزواج منه!

- رأيتها حزينة! صحت فى دهشة. لقد انخدعت، ربما كانت فى تلك اللحظة تعانى من حذائها الضيق.

آدا حزينة! إذا كانت الضحكة والابتسامة لا تفارقان وجهها؛ وقد رأيت أيضاً فيها ذلك فى بيتى فى الصباح ذاته.

لكن كارلا كانت على عِلم أفضل منّى:

- حذاء ضيق! كانت لها خطوات إلهة تسير على السحاب!

حكت لى وهى تزداد انفعالاً أنها تمكنت من الحصول على كلمة منها - أوه! فى غاية الرقة! كلمة من آدا. أوقعت هذه الأخيرة منديلها، فالتقطته كارلا وقدمته لها. أثرت كلمة الشكر البسيطة على كارلا تأثيراً كبيراً، حتى إنها بكت. ثم كان هناك المزيد من الأمور الأخرى التى وقعت بين المرأتين: أكدت كارلا أن آدا لاحظت أيضاً أنها تبكى، وأنها شاركتها وهى تبتعد بنظرة ألم وتضامن. كان كل شىء واضحاً أمام كارلا: كانت زوجتى تعلم أنّى أخونها، وكانت تتألم من تلك الخيانة! فجاءت النتيجة أنها قررت ألاّ تلقانى ثانيةً وأن تتزوج من لالى.

لم أستطع الدفاع عن نفسي! كان من السهل عليّ أن أتحدث باستياء كبير عن آدا، ولكن ليس عن زوجتي، المرضع العفية التي لم تكن تلحظ مطلقًا ما يدور بداخلي، وهي منكبّة كعادتها على مهامها النبيلة. سألت كارلا إن كانت قد لاحظت قسوة عين آدا، وإذا ما فطنت إلى صوتها الخافض الجاف، الذي يخلو من أية عذوبة. ولكي أسرع في استعادة حب كارلا، كنت على استعداد لأن أنسب إلى زوجتي جرائر أخرى كثيرة، لكن ذلك كان مستحيلاً؛ لأنّي، على ما يقرب من العام، لم أكف عن مدحها وأنا أحادث عشيقتي.

نجوت من ذلك بشكل آخر. تأثرت أنا نفسي تأثيراً شديداً، حتى تدفقت الدموع في عيني. وجدت ما يبرّر تحريك مشاعري. أوقعت نفسي في مأزق، دون أن أدري، شعرت فيه بشدة التعاسة. كان ذلك الخلط بين آدا وأوجوستا أمرًا لا يطاق. فالحقيقة أن زوجتي ليست رائعة الجمال، وآدا (التي كانت تُشفق كارلا عليها كثيرًا) قد أخطأت في حقي خطأً كبيرًا. لذا كانت كارلا حقًا ظالمة في حكمها عليّ.

هدأت كارلا عندما رأت دموعي وقالت:

– داريو الحبيب! كم تريحني دموعك! لابد أن وقع سوء تفاهم بينكما، ويحسن أن تستوضحه الآن. لا أريد أن أكون قاسية في حُكمي عليك، لكنّي لن أخون أبدًا طوال حياتي تلك المرأة، ولا أريد أن أكون سببًا لدموعها. أقسمت بذلك!

وعلى الرغم من ذلك القسم انتهى بها الأمر إلى خيانتها للمرة الأخيرة. كانت ترغب فى الانفصال عنّى بقبلة أخيرة، غير أنّى تجاوبت مع تلك القبلة بأسلوب واحد، وإلاّ لانصرفت ممتلئًا من الغيظ؛ ولهذا رضخت. كان كلانا يهمس:

- للمرة الأخيرة!

كانت لحظة ممتعة. كان للقرار الذى اتخذناه معًا تأثير فعال جَبَّ أى إحساس بالذنب. كنا بريئين وسعيدين! كان قدَرى الكريم قد ادخر لى لحظة سعادة كاملة.

كنت أشعر بسعادة بالغة، حتى إنّى واصلت المسرحية حتى لحظة افتراقنا. قررنا ألاّ نتقابل أبدًا مرة أخرى. رفضت الظرف الذى كنت ما أزال أحمله فى جيبى ولم ترغب حتى فى الاحتفاظ بأية ذكرى لى.

كان يلزم أن نمحو فى حياتنا الجديدة أى أثر لهفوتنا القديمة؛ ومن ثم رضيت أن أقبّلها قبلة أبوية على جبينها حسبما شاءت من قبل.

ثم مرت بى لحظة تردد، على درج السلم؛ لأن المسألة أصبحت جِدية بالفعل، لكنّى لو كنت أعلم أنها ستكون على العكس فى متناول يدى فى اليوم التالى، لما جاءنى التفكير فى المستقبل على هذا النحو من السرعة. من راحة السلم، كانت تنظر إلىّ وأنا أهبط الدرج، فصحت وأنا أضحك قليلاً:

- إلى الغد!

تراجعت فى دهشة كأنما ارتاعت وابتعدت قائلة:

– لن يكون أبداً!

على الرغم من ذلك شعرت بالراحة؛ لأنّى تمكنت من أن أقول لها تلك الكلمة التى تمكننى من أن أعانقها مرة أخيرة عندما تتملكنى الرغبة فى ذلك. خالٍ من الرغبة والالتزامات قضيت نهاراً جميلاً مع زوجتى، ثم ذهبت إلى مكتب جويدو. يجب أن أصدق القول بأنّى كنت أدنو من زوجتى وابنتى؛ لأنه لم يكن لدى أية التزامات. تعاملت معهما بما يفوق المألوف: لم أكن معهما لطيفًا وحسب، وإنما كنت أبًا حقًا يتصرف ويصدر الأوامر فى هدوء، ذهنه كله حاضر فى شئون بيته. وأنا ذاهب إلى مخدعى قلت لنفسى وكأنه اقتراح:– ينبغى أن تُشابه أيامى هذا اليوم.

شعرت أوجوستا ، قبل أن تستسلم لنومها، بالحاجة إلى أن تأتمننى على سر خطير: أخبرتها به والدتها فى اليوم ذاته. قبل بضعة أيام فاجأت آدا جويدو عندما كان يعانق إحدى خادماتهم. عمدت آدا إلى إهانتها، لكنها لاقت بعد ذلك وقاحة من الخادمة فطردتها. أخذت حالة من القلق تنتاب الجميع لمعرفة كيف سيتقبل جويدو الأمر. لو كان قد احتج، لطلبت آدا الانفصال. لكن جويدو أخذ يضحك وكانت حُجته أن آدا لم ترَ جيداً؛ لذلك لم يكن لديه ما يعترض به على طرد تلك المرأة، التى كان يزعم أنه يشعر إزاءها بنفور شديد، حتى ولو كانت بريئة. وبدا أن الأجواء قد هدأت حينئذ.

كان يهمنى معرفة ما إذا كانت آدا أخطأت الحكم عندما فاجأت زوجها فى ذلك الوضع. هل كان لا يزال هناك احتمال للشك؟ لأنه علينا أن نتذكر أنه عندما يتعانق اثنان، فإنهما يكونان فى وضع يختلف عن ذلك الذى ينطِّف فيه أحدهما حذاء الآخر. كنت فى حالة مِزاجية ممتازة. شعرت كذلك بحاجتى إلى أن أكون عادلاً وهادئًا فى حكمي على جويدو. شعرت آدا دون شك بالغيرة، وربما حدث أن رأت المسافات تقترب والأشخاص فى غير أماكنها.

قالت لى أوجوستا بصوت حزين إنها على يقين من أن آدا لم يغالطها النظر، وإنها من فرط عاطفتها أخطأت بعد ذلك فى حكمها. أضافت:

– كانت ستحسِن صُنعًا لو كانت تزوجتك!

وإذ ما زلت أشعر ببراءة شديدة، جاملتها بهذه العبارة:

– أتحدى أن يكون أفضل لى لو تزوجتها بدلاً منك!

ثم همهمت، قبل أن يغلبنى النوم:

– وغْد كبير! أيدنِّس بيته بهذه الصورة!

كنت صادقًا بحق وأنا ألومه بالتحديد فى ذلك الجانب من جريرته الذى لم أكن بحاجة إلى توجيهه لذات نفسى. فى صباح اليوم التالى نهضت ورغبتى شديدة فى أن يكون مستهل ذلك النهار مشابهًا تمامًا لما قبله. فمن المحتمل ألاّ تكون النيّات الطريفة التى تعهدنا بها فى يومنا

السابق قد التزمت بها كارلا أكثر منّى، فى حين كنت أشعر بتخلصى الكامل منها. كانت نيات يفوق جمالها إمكانية الالتزام بها. إن القلق بلا شك فى معرفة ما يدور فى خلَد كارلا، كان يدفعنى للتعجل. لعل رغبتى كانت أن أجدها متأهبة لتقديم عهد آخر. وهكذا سوف تمر الحياة، مفعَمة مع ذلك بالمتعة، بل وأيضًا بالجهود الكثيرة المبذولة نحو الأفضل، وسيخصص الجزء الأكبر من كل يوم أعيشه للخير والأصغر منه للندم. كان القلق قائمًا؛ لأنه على مدار ذلك العام كله المليء بالنسبة لى بالاهتمامات لم أكن أرى على كارلا سوى تحقيق هدف واحد: هو أن تظهر حبها لى. لقد حافظت عليه ومع شيء من الصعوبة فى الاستدلال على ذلك إن بات يسهل عليها حينئذ اتخاذ قرار جديد يوقف القديم. لم تكن كارلا بالبيت. كانت خيبة أمل كبيرة، وعضضت على أناملى من الغيظ. أدخلتنى العجوز في المطبخ. أخبرتنى أن كارلا ستعود قبل حلول المساء. قالت لها إنها ستتناول الطعام فى الخارج؛ ولهذا لم يكن هناك على الموقد ذلك اللهب الصغير الذى كان يشتعل فى المعتاد:

– ألم تكن تعرف يا سيدى؟ – سألتنى العجوز وعيناها جاحظتان من الدهشة.

همهمت، وأنا قلق وشارد الذهن:

كنت على علم بذلك بالأمس. لكنّى لم أكن متأكدًا من أن ما أخبرتنى سيكون اليوم بالتحديد.

انصرفت بعد أن حييتها بتحية لائقة. كنت أصرّ بأسنانى، لكن خلسة. كان لابد أن يمر الوقت لكى أملك الشجاعة وأثور جهاراً. دخلت الحديقة العامة، ومشيت بها لنصف الساعة حتى أخذ الوقت لأفهم بصورة أفضل كيف تسير الأمور. وكانت فى غاية الوضوح، حتى إنّى لم أعد أفهم منها شيئًا. فجأة، وبدون رحمة اضطررت إلى اتخاذ مثل ذلك القرار. كنت أشعر بألم، ألم حقيقى. أخذت أعرج، وأقاوم أيضًا شيئًا من ضيق التنفس. فأنا أعانى من ضيق النفس: نعم أتنفس بصورة جيدة لكنّى أحصى كل نفس، لأنّى لابد أن أخرج الواحد تلو الآخر فى موضعه. فلدى إحساس بأنه إن لم أنتبه، فسأموت مختنقًا.

فى تلك الأثناء كان علىّ أن أذهب لمكتبى أو من الأفضل إلى مكتب جويدو. لكنّى لم أتمكن من الابتعاد عن ذلك المكان. ماذا كنت سأفعل بعد ذلك؟ كان نهاراً مختلفًا تمامًا عما سبقه! ليتنى عرفت على الأقل عنوان ذاك المعلم اللعين الذى سلب منّى فتاتى من كثرة الغناء، على نفقتى.

أفضى بى الأمر إلى أن عدت عند العجوز. ربما عثرت على كلمة أبعث بها إلى كارلا لأحثّها على مقابلتى مرة أخرى. بات بالفعل من أصعب الأمور علىّ أن أراها بأسرع وقت ممكن. أما ما يلى ذلك من أحداث فلم يكن ليمثّل صعوبات ذات شأن.

وجدت العجوز جالسة إلى جوار نافذة بالمطبخ وهى منشغلة برفء جورب. رفعت نظارتها ووجهت إلىّ فى شىء من الخوف نظرة متسائلة. ترددت! ثم سألتها:

- أتعلمين أن كارلا قررت الزواج من لالى؟

أحسست كما لو أنّي أحدِّث نفسي بهذا الخبر. قالته لي كارلا مرتين، لكنّي لم أبالِ به في اليوم السابق. أصابت كلماتها أذني وبوضوح؛ لأنّي عثرت عليهما بعدئذ، لكنها انزلقت دون أن تتوغل إلى أبعد من ذلك. ها هي ذي تصل في تلك اللحظة فقط إلى أحشائي التي أخذت تتلوى من الألم. نظرت إليّ العجوز مترددة هي أيضًا. من المؤكد أنها كانت تخشى أن تتلفظ بأسرار يمكن أن تلومها عليها ابنتها. ثم انفجرت قائلة، في فرحة واضحة:

– هل قالت كارلا لك هذا؟ إذًا فالأمر كذلك! أعتقد أنها تُحسن صُنعًا! ما رأيك في ذلك يا سيدي؟

أخذت تضحك من قلبها، تلك العجوز اللعينة، التي أعتقد أنها كانت مطّلعة دائمًا على عَلاقتي بكارلا. وددت لو أصفعها، لكنّي بعد ذلك اكتفيت بقولي إنّي ربما فضلت الانتظار حتى يتمكن المعلم من وضعه الوظيفي. ومن ثم، فإنّي أرى بالمسألة تسرعًا.

في غمرة فرحتها أخذت المرأة للمرة الأولى تثرثر معي. لم توافقني الرأي. عندما يتزوج الشاب، عليه أن يحسب وضعه الوظيفي بعد الزواج. لمَ ينبغي عليه أن يتقدم فيه أولاً؟ وهكذا لن يكون لكارلا احتياجات كبيرة. ولن يكلفها صوتها، حينئذ، كثيرًا، فسوف تجد في زوجها معلّمًا لها.

تلك الكلمات التي ربما كانت تعني لومًا موجّهًا للقليل الذي أقدمه، أوحت لي بفكرة بدت لي رائعة، وأراحتني في تلك اللحظة. لابد أن المبلغ

الذى كنت أحمله دائمًا فى ظرف داخل جيب سترتى الداخلى قد أصبح ضخمًا. أخرجته من جيبى، أغلقته، وسلمته إلى العجوز لتعطيه لكارلا. لعلنى كنت أرغب أيضًا فى نهاية الأمر أن أدفع لفتاتى بصورة لائقة، لكن رغبتى كانت أشد فى رؤيتها من جديد واستعادتها لى. لابد أن ترانى كارلا ثانيًا سواء فى حالة ما إذا شاءت أن تعيد لى المال، أو إن استحسنت الاحتفاظ به؛ لأنها ستشعر حينئذ بالحاجة إلى توجيه الشكر لى. تنفست الصُّعداء: لم ينته بعد كل شىء إلى الأبد!

قلت للعجوز إن الظرف به بعض المال المتبقى مما سلمه لى أصدقاء كوبلر المسكين من أجلهما. ثم فى هدوء تام وجهت كلمة لكارلا، أقول فيها إنّى سأظل صديقها الوفى مدى الحياة وإنها، إذا احتاجت إلى مساندة، تستطيع أن تلجأ لى فى حرية تامة. وهكذا تمكنت من إعطائها عنوانى الذى كان مكتب جويدو.

انصرفت بخُطى أكثر مرونة من تلك التى قادتنى إلى هناك.

لكنّى فى ذلك اليوم تشاجرت مع أوجوستا مشاجرة عنيفة. كانت المسألة تافهة. قلت إن ملِح الحساء كثير فنفت ذلك. اعترتنى نوبة غضب فائقة للحد، حيث هيئ لى أنها تسخر منّى، فجذبت بعنف مفرش المائدة نحوى حتى طارت أوانى المائدة جميعها وسقطت على الأرض. أخذت الطفلة تصرخ وهى على ذراع المربية، مما آلمنى ألمًا مبرِّحًا، كأنما كان ذلك الفم الصغير يلومنى. شحب وجه أوجوستا مثلما يحدث فى مثل تلك الحالة، أخذت الصغيرة بين ذراعيها وخرجت. بدا لى سلوكها زائدًا أيضًا عن

حده: أتتركني حينئذ آكل بمفردى مثل الكلب؟ لكنها عادت على الفور، دون الطفلة، أعادت تجهيز المائدة، جلست أمام طبقها الذى حرّكت فيه الملعقة، كأنما أرادت أن تتهيأ لتناول الطعام. أما أنا، فبينى وبين نفسى أخذت أسب وألعن، لكننى كنت أدرك أنّى لُعبة فى يد قوى الطبيعة الجامحة. فالطبيعة التى لم تجد أية صعوبة فى تجميع تلك القوى، لا تجد كذلك ما يعوق إطلاقها. كنت أوجّه لعناتى فى تلك اللحظة إلى كارلا التى كانت تتظاهر بأنها لا تعمل إلا لصالح زوجتى. ها هو ذا الوضع الذى وضعتنى به!

من الأساليب التى تتمسك بها أوجوستا حتى يومنا هذا، أنها عندما ترانى فى مثل هذه الحالة، لا تحتج، ولا تبكي، ولا تجادل. وعندما بدأت أطلب فى هدوء منها المعذرة، أرادت أن تفسّر لى شيئًا: إنها لم تضحك، بل ابتسمت فقط بالطريقة ذاتها التى كانت تروق لى مرات عديدة، وامتدحتها فيها العديد من المرات.

خجلت من نفسى خجلاً شديداً. رجوتها حتى تحضر الطفلة على الفور معنا وما إن ضممتها بين ذراعى، حتى أخذت ألاعبها طويلاً. ثم أجلستها على رأسى ومن تحت ردائها الصغير الذى كان يحجب وجهى، جففت عيني اللتين كان يغمرهما الدمع الذى لم تذرفه أوجوستا. كنت ألاعب الطفلة، وأنا على يقين من أنّى بهذه الطريقة، ودون أن أتدنّى بتقديم الاعتذارات، سأتقرّب إلى أوجوستا، وبالفعل استعادت وجنتاها لونهما المألوف.

ثم انقضى ذلك النهار بنهاية جميلة أيضًا، وكانت فترة ما بعد الظهيرة مشابهة لسابقتها. كان الشيء نفسه بالضبط كما لو أنّي في الصباح تقابلت مع كارلا في المكان المعتاد. لم أفتقر إلى التنفيس عن نفسي. طلبت المعذرة مرارًا؛ لأنّي كنت أريد أن أحمل أوجوستا على استعادة ابتسامة الأمومة فيها عندما كنت أقول لها أشياء غريبة أو أقوم بفعلها. الويل لو رأيتها مضطرة لافتعال ذلك الأسلوب أو لإخفاء ابتسامة كذلك من ابتساماتها العطوف التي أعرفها، وكنت أجد فيها رضاها الكامل.

في المساء عدنا بالحديث عن جويدو. بدا أنه تصالح مع آدا صلحًا تامًا. أخذت أوجوستا الدهشة من طيبة أختها. أتى دوري لأبتسم أنا تلك المرة؛ لأنه كان من الواضح أنها نسيت طيبتها هي التي كانت عظيمة. سألتها:

– وإذا دنست أنا بيتنا، ألن تغفري لي؟

ترددت:

– إن لدينا طفلتنا، صاحت، في حين أن آدا لا يربطها أولاد بهذا الرجل.

كانت لا تحب جويدو؛ تراودني أحيانًا فكرة أنها كانت تستاء منه؛ لأنه تسبب في معاناتي.

مرت بضعة أشهر، وأهدت آدا توأمين لجويدو الذى لم يفهم قط لِمَ كانت تهنئتى له حارة جداً. ها هو ذا وقد رزق بأطفال، وبحسب تقدير أوجوستا أيضًا، كان يمكن أن تكون له خادمات بالمنزل دون خطر عليه.

لكنّى، فى صباح اليوم التالى، تنفست الصُّعَداء، عندما وجدت على مكتبى ظرفا عليه عنوانى والمرسلة كارلا. إذن فكل شىء لم ينتهِ بعد، ويمكن أن أستمر فى حياتى مزوداً بالعناصر اللازمة جميعها. فى كلمات وجيزة أعطتنى كارلا موعداً فى الحادية عشرة صباحًا بالحديقة العامة، عند المدخل المواجه لمنزلها. لن نتقابل فى حجرتها، بل فى مكان قريب جداً منها. لم أطق الانتظار فذهبت قبل الميعاد بربع الساعة. فإن لم تكن كارلا بالمكان المحدد، فسأتجه مباشرةً إلى بيتها، وسيريحنى ذلك كثيراً.

كان ذلك النهار أيضًا مترعًا بربيع جديد زكى مشرق. عندما غادرت شارع كورسياستاديون الصاخب ودخلت الحديقة، شعرت بسكون الريف الذى لم يكن يقطعه حفيف أوراق الشجر الناعم المتواصل وقد لامسها الندى.

بخطوة سريعة تأهبت لمغادرة الحديقة عندما جاءت كارلا نحوى. كان الظرف بيدها ودنت منّى دون ابتسامة تحية، بل كان يرتسم على وجهها اللطيف الشاحب قرار حاسم. كانت ترتدى ثوبًا بسيطًا من قماش سميك به خطوط زرقاء، لائقًا جداً لقوامها. كانت تبدو وكأنها هى أيضًا جزءٌ من الحديقة. فيما بعد فى اللحظات التى كنت أشعر فيها

بالسخط عليها، كنت أنسب إليها العمد فى ارتداء ذلك الثوب حتى تثير رغبتى فيها فى اللحظة ذاتها التى كانت تبعدنى فيها عنها، فى حين كان أول أيام الربيع هو الذى يكسوها. لابد أن أذكر أيضًا أن زينة فتاتى لم تحظ على مدار فترة حبى الخاطف الطويلة إلاّ بقدر ضئيل من الاهتمام. كنت أتوجه مباشرة إلى حجرة المكتب تلك، ثم إن السيدات المتواضعات يرتدين ثيابًا بسيطة جدًا عندما يمكثن بالبيت.

وضعت يدها فى يدى فصافحتها قائلاً:

- أشكرك على مجيئك!

كم كـان أهلاً لى لو كنت مكثت هادئًا على هذا النحـو فى أثناء الحديث كله!كانت كارلا تبدو منفعلة وكانت شفتاها، عندما تتحدث، ترتعشان على نحو أشبه بتقلص عضلى. كانت رعشة شفتيها تلك تعوق أحيانًا النغمة أيضًا فى أثناء غنائها. قالت لى:

- كنت أود أن أرضيك وأتقبل منك هذا المال، لكنه ليس فى استطاعتى، لا أقدر على الإطلاق. خذه أرجوك.

عندما رأيت عينيها وشيكة الدمع رثيت لحالها، وأخذت الظرف الذى وجدته بعد ذلك فى يدى، بعد أن مضى وقت طويل منذ أن غادرت ذاك المكان.

- أحقًا لا ترغبين فى رؤيتى ثانية؟

وجهت لها هذا السؤال، ولم أفكر فى إجابتها عنه فى اليوم السابق. أكان من الممكن أن تمتنع عنى، وهى كما كنت أراها مثيرة للرغبة؟

– تزينو! – أجابت الفتاة بشىء من الدعة – ألم نتعاهد بألاّ نتقابل على الإطلاق؟ فى أعقاب العهد الذى اتخذناه معًا أخذت على عاتقى التزامات مثل تلك التى كانت تشغلك قبل أن تعرفنى. إنها مقدسة كذلك مثل التزاماتك. آمل أن تدرك زوجتك أنك الآن لها وحدها.

ظل إذن جمال آدا يأخذ أهمية فى تفكيرها. لو كنت على يقين من أن آدا هى سبب هجرها لى، لوجدت الطريقة لإصلاح الوضع. كان يمكننى أن أخبرها أن آدا ليست زوجتى، وكان من الممكن أن أريها أوجوستا بعينها المائلة وهيئتها التى تشبه المرضعة العفية. لكن ألم تصبح الالتزامات التى التزمت بها حينئذ أكثر أهمية؟ كان ينبغى أن نناقشها.

حاولت أن أتحدث بهدوء فى حين كانت شفتاى أنا أيضًا ترتعشان، ولكن من الرغبة. قلت لها إنها لم تدرك بعد كم صارت ملكًا لى، وإنه ليس لديها الحق فى التصرف فى نفسها. كان يدور فى رأسى الدليل العلمى لما كنت أقصده، أى تجربة داروين الشهيرة تلك حول الفرس العربية، لكن، حمداً للسماء، فأنا أكاد أكون متأكداً من أنّى لم أتحدث عنها. غير أنّى لابد تحدثت عن حيوانات أخرى وعن وفائها الغريزى، فى تمتمة بلا معنى. ثم تركت الحديث عن موضوعات بالغة الصعوبة والفَهم لها ولى فى تلك اللحظة، وقلت:

– ما الالتزامات التى تعهدتِ بها؟ وما أهميتها فى مقابل عاطفة كالتى تربط بيننا منذ أكثر من عام؟

قبضت على يدها بشدة وأنا أشعر بالحاجة إلى إطلاق طاقة، لم أجد أية كلمة يمكن أن تنوب عنها.

نهضت بحركة انفعالية من قبضة يدى، كما لو أنّى سمحت لنفسى بمثل هذا التصرف للمرة الأولى.

– مطلقًا – قالتها بلهجة من يُقْسم – أخذت العهد الأقدس! اتخذته مع رجل اتخذ بدوره مثيله نحوى.

لم يعد هناك مجال للشك! إن الدم الذى صبغ وجنتيها فجأة إنما دفعه شعورها بالسخط تجاه الرجل الذى لم يتعهد معها بأى التزام. ثم شرحت لى الأمر بصورة أفضل:

– بالأمس قمنا بنزهة فى الطريق، يتأبط كلانا ذراع الآخر وبصحبة والدته.

كان واضحًا أن فتاتى تنصرف عنّى مسرعة، بعيدًا بعيدًا عنّى. أسرعت خلفها فى جنون، فى وثبات تُشْبه وثبات كلب يتنافس على قطعة لحم شهية. أمسكت يدها ثانية بعنف:

– حسنًا، اقترحت عليها قائلاً: فلنسر على هذا النحو، ونحن نتشابك بأيدينا، فى أنحاء المدينة. فى هذا الوضع غير المألوف، لكى يرانا الجميع جيداً، سنمر بكورسيا ستادين ثم بأقواس كيوتزا، إلى

أن نعبر الكورسو حتى نصل إلى سانتاندريا لنعود إلى حجرتنا من اتجاه آخر، حتى يرانا الناس جميعهم فى المدينة.

ها هى ذى كانت المرة الأولى التى أتخلى فيها عن أوجوستا! وخلت فى ذلك خلاصى؛ لأنها هى نفسها التى أرادت أن تبعد عنّى كارلا.

نزعت يدها ثانيةً من قبضتى، وقالت بنبرة جافة:

– سيكون الطريق نفسه تقريباً الذى سرنا فيه بالأمس!

استشطت من جديد غيظًا:

– وهو يعرف، يعرف كل شىء؟ هل يعرف أنك بالأمس أيضًا كنت لى؟

– نعم – قالت بعزة نفس – إنه على علم بكل شىء، كل شىء.

شعرت بالضياع وفى ثورة غضبى، ومثل الكلب الذى ينهش ثياب من ينازعه، عندما لم يعد قادراً على الوصول إلى القضمة التى يلهث وراءها، صحت:

– خطيبك هذا له معدة رائعة. يهضمنى اليوم، وسيستطيع فى الغد أن يهضم كل من ترغبين فيه.

لم يكن صوت كلامى واضحًا فى أذنى. ما أعرفه هو أنّى كنت أصرخ من الألم. أما هى فقد صدر عنها تعبير بالازدراء لم أكن أصدق أن عينيها السمراوين الوديعتين كعينى الغزال قادرتان عليه:

– أتقول ذلك لى؟ ولماذا لا تملك الشجاعة لتخبره هو به؟

استدارت عنّى، وبخطوة سريعة اتجهت نحو طريق الخروج. أما أنا فسرعان ما أنّبنى ضميرى على ما قلته لها، فلشد ما تعكرت نفسى من فرط المفاجأة، حتى إننى لم أستطع إلاّ أن أعاملها بغلظة. ذلك ما سمرتنى فى مكانى. وعندما قررت أن أسرع خلفها، كانت الصورة بلونيها الأزرق والأبيض قد وصلت بخطواتها الوجيزة الخفيفة إلى بوابة الخروج. لم أكن أدرى ما الذى سأقوله لها، لكنه كان من غير المحتمل أن نفترق على هذا النحو.

أوقفتها عند بوابة المنزل التى تقطن به، وعبرت لها فقط بصدق عن ألم تلك اللحظة الكبير:

- هل نفترق بالفعل على هذا النحو، بعد كل هذا الحب؟

واصلت سيرها إلى الأمام دون أن تجيبنى، اتبعتها أيضًا على درج السلم. ثم نظرت إلىّ بعينيها المتوعدة:

- إن كنتم ترغبون سيادتكم فى رؤية خطيبى، فلتأتم معى. ألا تسمعونه؟ إنه هو الذى يعزف على البيانو.

حينئذ فقط سمعت نغمات مقطوعة شوبيرت "التحية"، التى قام بعزفها ليسزت.

ومهما كنت منذ طفولتى لم أمسك بيدى سيفًا ولا عصًا، فأنا لست رجلاً جبانًا. إن الرغبة الشديدة التى أثارتنى حتى تلك اللحظة تلاشت بغتة. لم يتبقَ من نزعات الرجولة سوى المصارعة. لقد طلبت بغطرسة

شيئًا لا يخصني. ولكي أقلل من شأن خطئي وجب عليّ النزال، وإلاّ لكانت ذكرى تلك المرأة التي كانت تهددني بعقاب خطيبها لي، مروعة.

– حسنًا! – قلت لها – إن أذنْتِ لي سآتي معكِ.

كان قلبي يخفق ليس من الخوف، بل من خشيتي ألاّ أحسن التصرف.

واصلت الصعود إلى جوارها. لكنها توقفت فجأة، استندت إلى الجدار وأجهشت في البكاء دون أية كلمة. وهناك في الطابَق الأعلى ظلت تتردد نغمات "التحية" على ذلك البيانو الذي دفعت قيمته من مالي. إن بكاء كارلا جعل ذلك اللحن مؤثرًا جداً.

– سأفعل ما تشائين! أترغبين في أن أنصرف؟ سألتها.

– نعم، أجابت بمجرد أن شعرت بالقدرة على نطق تلك الكلمة الوجيزة.

– الوداع! – قلت لها. – وكما تشائين، وداعًا إلى الأبد!

هبطت السلم على مهل، وأخذت أصفِّر أيضًا لحن شوبيرت. لا أدري إذا كان وهمًا، لكن هيئ لي أنها نادتني:

– تزينو!

كان بإمكانها في تلك اللحظة أن تدعوني أيضًا داريو، ذلك الاسم الغريب الذي كانت تشعر بأنها تدللني به ولما توقفت. تملكتني رغبة

شـديدة في الانصراف والعـودة مـرة أخـرى، صـافـيًـا، إلى أوجـوسـتـا. والكلب أيضًا الذى يمنعونه ركلاً من الاقتراب من أنثاه، يبتعد مسرعًا بريئًا جداً، في تلك اللحظة.

عندما عاودتني في الغد الحالة التي كنت عليها وأنا أتوجه إلى الحديقة العامة، أحسست في وضوح بأنّي كنت خسيسًا: نادتني حتى وإن كان بغير اسمي في الحب، وأنا لم أجبها! كان اليوم الأول للألم، وتوالت عليه أيام أخرى عديدة من الوحدة المريرة. لم أدرك بعد لمَ ابتعدت على هذا النحو؛ لذا عزوت الذنب إلى شعورى بالخوف من ذلك الرجل أو خشية الفضيحة. أحسست حينئذ بالاستعداد للعودة لقبول أية مجازفة، مثلما عرضتها على كارلا في تلك النزهة الطويلة في أنحاء المدينة. لقد أضعت لحظة مواتية، وكنت أعلم جيداً أن من النساء مَن يحظين بها لمرة واحدة. وكانت تكفني تلك المرة الوحيدة.

على الفور قررت أن أكتب لكارلا. ما كان بإمكاني أن أترك قط ولو يومًا آخر يمر دون أن أبذل أية محاولة للتقرُّب منها من جديد. كتبت تلك الرسالة، وأعدت لمرات كتابتها حتى أضع بكلماتها القليلة كل الدقة التى كنت أهلاً لها. أعدت كتابتها أكثر من مرة؛ لأن الكتابة كانت أيضًا راحة كبيرة لي؛ السلوى كانت متنفسًا كنت في حاجة إليه. أخذت أطلب منها المعذرة عن ثورة الغضب التى صدرت عنّي، وشرحت لها أن حبى الكبير يحتاج إلى الوقت ليهدأ. وأضفت: «إن كل يوم يمر سيجلب لى ذرة من السكينة»، وكتبت تلك الجملة مرات عديدة وأنا ما زلت أصر بأسناني،

ثم قلت لها إنّى لا أستطيع أن أسامح نفسى على الكلمات التى وجهتها إليها، وأشعر بالحاجة إلى طلب المعذرة. لم أكن لأستطيع، مع الأسف، أن أقدِّم لها ما يقدمه لها لالى وهى جديرة به.

كنت أتخيل أن يكون للرسالة أثر كبير. وبما أن لالى يعرف كل شىء، فإن كارلا ستطلعه عليها، وربما رأى من صالحه أن يحظى بصديق له منزلتى. حلمت كذلك بأنه يمكننا أن نبدأ ثلاثتنا حياة حلوة، حيث كان حبى على نحو جعلنى حينئذ أرى حظى يبتسم لى، حتى لو سمح لى بمجرد أن أغازل كارلا وحسب.

فى اليوم الثالث تسلمت منها رسالة موجزة. لم تطلق علىّ تزينو ولا داريو على الإطلاق. قالت لى وحسب: «شكرًا! أتمنى أن تسعدوا سيادتكم أيضًا وزوجكم، الجديرة بكل خير!». كانت تتحدث عن آدا، بالطبع.

لم تستمر اللحظة المواتية ولدى النساء لن تستمر أبدًا ما لم يغتنمها المرء بأن يجذبهن من جدائلهن. اشتدت رغبتى فى صورة سخط ثائر. ليس إزاء أوجوستا! كانت كارلا تستحوذ على نفسى، حتى إن ضميرى كان يؤنبنى على ذلك، وكان من واجبى التعامل مع أوجوستا بابتسامة بلهاء، مفتعلة كانت تراها هى طبيعية.

إلاّ أنه كان علىّ أن أفعل شيئًا. لم أكن أستطع بالطبع أن أنتظر، وأتألم كل يوم على هذا النحو! لم أعد أرغب فى الكتابة إليها. فالورقة المكتوبة ليس لها أهمية كبيرة لدى النساء. كان يلزم أن أجد حلاً أفضل.

ودون اتخاذ أى قرار محدد، اتجهت مسرعًا إلى الحديقة العامة. ثم، فى سرعة أبطأ، نحو منزل كارلا، وعندما وصلت إلى راحة السلم، قرعت باب المطبخ. ولو واتتنى الفرصة، لتحاشيت رؤية لالى، لكنه لم يكن ليسوءنى أن أعثر عليه. ولوقعت الأزمة التى كنت فى حاجة إليها.

كانت السيدة العجوز، كعادتها، أمام الموقد، وكانت عليه شعلتان كبيرتان متقدتان. أخذتها الدهشة عندما رأتنى، لكن بعدها ابتسمت بطيبتها الفطرية التى كانت عليها. وقالت لى:

– تسعدنى رؤيتكم! كنتم تعتادون على زيارتنا كل يوم، ومن الواضح أنه ليس من السهل عليكم أن تمتنعوا نهائيًا.

كان من السهل علىّ أن أدفعها للثرثرة. حكت لى أن الحب الذى يربط بين كارلا وڤيتوريو كبير. فى ذلك اليوم كان سيأتى لزيارتهما هو ووالدته لتناول الغداء. أضافت ضاحكة:– سرعان ما سيدفعها إلى مصاحبته حتى فى دروس الغنـاء العديدة التى كان ملتزمًا بها كل يوم. لا يمكنهما أن يفترقا ولو لحظات قليلة.

كانت فى أمومة تبتسم لتلك السعادة. أخبرتنى أنهما سيتزوجان بعد بضعة أسابيع.

كنت أشعر بمذاق مرير فى فمى، وكدت أتوجه للباب لأنصرف. ثم تماسكت آملاً فى أن توحى لى ثرثرة العجوز بأفكار جيدة، أو تعطينى بصيصًا من الأمل. فالخطـأ الأخـير، الذى اقترفتـه حقـًا مع كارلا،

هو تعجّلى بالانصراف، قبل أن أقوم بدراسة كل الإمكانات التى قد تتاح لى.

وفجأة ظننت أيضًا أنه جاءتنى فكرة مواتية. سألت العجوز إذا كانت قد قررت حقًا أن تقوم بخدمة ابنتها حتى تتوفاها المنية. أخبرتها بأنّى على عِلم بأن كارلا لا تعاملها بالحُسنى.

أخذت تواصل عملها الدءوب إلى جوار الموقد، على الرغم من أنها كانت تستمع إلىّ. كانت تعاملنى بنية سليمة لم أكن لأستحقها. لامت على كارلا نفاد صبرها لأشياء لا قيمة لها. والتمست العذر قائلة:

– بلا شك يتقدم بى السن كل يوم، وأنسى كل شىء. ليس لى ذنب فى ذلك!

لكنها تمنت أن تسير الأمور بعد ذلك على ما يرام. أن تقل تقلبات مزاج كارلا، حيث أصبحت تشعر حينئذ بالسعادة. ثم إن ڤيتّوريو أخذ، منذ البداية، يبدى لها احترامًا كبيرًا.

وأضافت أخيرًا، وهى لا تزال مهتمة بصنع أشكال من خليط من العجين والفاكهة:

– واجبى يحتِّم علىّ أن أبقى مع ابنتى. لا يمكننى عمل خلاف ذلك.

حاولت وأنا أشعر بالقلق إقناعها. قلت لها إنها تستطيع أن تتحرر تمامًا من تلك العبودية التى استمرت طويلاً. ألست موجودًا؟ وكان بإمكانى إعطاؤها المعونة الشهرية التى كنت أمنحها لكارلا حتى تلك اللحظة.

صرت أرغب في الاحتفاظ بإحداهما! أردت أن أتمسك بالعجوز التي كنت أراها جزءاً من ابنتها.

أبدت لي العجوز امتنانها. أخذت تثني على كرمي، لكنها ضحكت من فكرة أن يُوحى لها بترك ابنتها. كانت شيئًا لا يرد على خاطرها.

ها هي ذي عبارة قاسية خرجت لتصدم جبيني الذى انحنى! عدت إلى تلك الوحدة الكبيرة، حيث لا توجد كارلا، وما من سبيل أراه يقودني إليها. أتذكر أنّى بذلت محاولة أخيرة لأوهم نفسى بأن فى تلك الوسيلة التى أتلمسها ما أهتدى به. قلت للعجوز، قبل أن أنصرف، إنه ربما فى خلال وقت قصير يتقلب مِزاجها. رجوتها فى تلك الحالة أن تتذكرنى.

شعرت باستياء وسخط شديدين وأنا أغادر البيت، كأنما عوملت حقًا معاملة سيئة بالفعل وأنا أشرع فى القيام بعمل نبيل. حقًا أهانتى تلك العجوز عندما انفجرت في الضحك. كنت ما أزال أسمع صداه فى أذنى ولم يكن يعنى قط السخرية من اقتراحى الأخير وحسب.

لم أرغب فى الذهاب إلى أوجوستا وأنا على تلك الحالة. كنت أتوقع ما سيحدث بيننا. لو كنت قد ذهبت إليها، لعاملتها معاملة سيئة، ولأخذت هى بثأرها منّى بذلك الشحوب الشديد الذى كان يؤلمنى كثيراً. فضلت أن أسير فى الطريق بخُطوات ذات إيقاع يستطيع أن يعيد بعض النظام لنفسى. وبالفعل أتى النظام! امتنعت عن لوم قدرى، وأبصرت ذاتى،

كـأنما سلط علىّ ضوء شـديد، وأظهرني كـامـلاً على بلاط الطريق الذى كنت أنظر إليه. لم أكن أطلب كارلا، وإنما كنت أرغب فى عناقها وبالأحرى عناقـها الأخيـر. شىء مـضـحك! دسـست أسنانى فى شـفتى لكى ألقى الألم، وهذا يعنى شيئًا من الجِدية، على صـورتى المضـحكة. كنت أعرف كل شىء عن نفسى، ولم يكن هناك مبرر لكل ذلك الألم، لقد أتتنى فرصة فريدة لكى أقلع عن عادة كـانت تسيطر علىّ. اختـفت كارلا بالفـعل من حياتى، مثلمـا رغبت فى ذلك مرات عديدة.

ومع مـثل هذا الوضـوح الشـديد فى نفسى، وبعـد وقت وجيـز، وفى طريق بعيد عن وسط المدينة، وصلت إليه دون قصد منّى، ما إن أشـارت إلىّ امرأة فى زينة صـارخة، أسرعت إليـها دون تردد. وصلت فى سـاعة متـأخرة جداً على الغـداء، غير أنّى كنت فى غـاية اللطف مـع أوجـوسـتـا التى سـرعـان مـا أصـبحت سـعيدة. لكنّى لم أقوَ على تقبيل طفلتى، ولم أستطع كذلك تناول الطعام لسـاعات طويلة. كنت أحس بأنّى متسخ! لم أتصنع المرض مثلمـا فعلت مـرات أخرى لكى أخـفى جرمى وأخفّف من وطأة ندمى. كنت أتصـور عـدم قـدرتى على النسـيـان واتخـاذ قـرارات مـستقبليـة، وللمرة الأولى لم أشرع فى ذلك. كـان لابد أن تمر سـاعات طويلة حتى تعـود حياتى لإيقاعها المعتاد، الذى أخذ يقودنى من الحاضر القاتم نحو مستقبل مضـىء.

أدركت أوجوستا أن بى شيئًا جديداً؛ لذا ضـحكت قائلة:

– لا يسـتطيع أحـد أن يشـعـر بالملل مـعك أبداً . فـأنت كـل يـوم رجـل جـديد.

نعم! تلك السيدة التى وجدتها فى ضاحية المدينة لا تشبه أية امرأة أخرى، وقد كانت بداخلى.

قضيت أيضًا فترتى ما بعد الظهيرة والمساء مع أوجوستا. كانت فى حالة انشغال بالغ، وجلست أنا بجوارها فى حالة خمول. هيئ إلىّ أن تيارًا، تيارًا من الماء الصافى، يحملنى على هذا النحو من الخمول: إنها حياة بيتى الصادقة.

استسلمت لذلك التيار الذى حملنى لكنه لم يطهِّرنى. فالأمر مختلف تمامًا! كان يكشف عن جريرتى.

وفى الليلة الطويلة التى أعقبت ذلك وصلت بطبيعة الحال إلى قرار. كان القرار الأول الأكثر حسمًا. سأتزود بسلاح أقضى به على نفسى فى الحال، إذا ما فوجئت بالتوجُّه إلى تلك الناحية من المدينة. استحسنت ذلك القرار الذى سكن روعى.

لم أئنّ مطلقًا فى فراشى، بل حاكيت تنفس أنفاس النائم المنتظمة. على هذا النحو عدت إلى الفكرة القديمة بأن أتطهر بالاعتراف لزوجتى، تمامًا مثلما كنت فى سبيلى لخيانتها مع كارلا. لكنه أصبح اعترافًا عسيرًا للغاية، ليس لجسامة الجرم، بل للتعقيدات التى نتج عنها. فأمام قاضٍ كزوجتى، كان علىّ أيضًا أن أستشهد بظروف مخففة، وهذه الظروف ما كانت لتتضح إلا بإمكانية الإفصاح عن الأسلوب العنيف

الذى لم يكن فى الحسبان، وانقطعت به علاقتى بكارلا. لكن إذن كان يجب أن أعترف فى تلك اللحظة أيضًا بتلك الخيانة التى أصبحت قديمة. كانت خيانة أنقى من هذه، لكنها (من يدرى؟) ربما كانت أكثر إهانة بالنسبة للزوجة.

توصلت لقرارات أكثر حكمة من فرط ما تفحصت نفسى. فكرت فى تجنب تكرار مثل هذه التجاوزات بالإسراع إلى إيجاد علاقة أخرى كالتى فقدتها، وكان واضحًا أنّى بحاجة لها. لكن فكرة المرأة الجديدة كانت تفزعنى كذلك. كنت أخشى آلاف الأخطار تهددنى وتهدد أسرتى الصغيرة أيضًا. لم تكن هناك كارلا أخرى فى هذا العالم، وبكيتها بدموع حارة، بكيتها هى، تلك الحلوة، الطيبة، التى حاولت أيضًا أن تحب المرأة التى كنت أحبها ولم تفلح فى ذلك، ليس إلاّ لأنّى وضعت أمامها امرأة أخرى لم أكن حقًا أحبها على الإطلاق!

قصة شركة تجارية

كان جويدو هو من أراد أن أعمل معه في شركته التِّجارية الجديدة. ومن جانبي كنت أتحرَّق شوقًا إلى مشاركته، لكنِّي على يقين أنِّي لم أدعه قط يستشعر رغبتي تلك. من الواضح أن اقتراح مزاولة ذلك النشاط برفقة صديق في أثناء حالة خمولي تلك التي كنت عليها بعد زواجي، كان يروق لي. ولكن كان هناك المزيد. لم يفارقني الأمل قط في أن أصبح تاجرًا جيدًا، وكنت أعتقد أنه من السهل عليَّ أن أتقدم وأنا أعلم جويدو، عن أني أتلقى دروسًا من أوليفي. فالكثيرون في هذا العالم يتعلمون فقط وهم ينصتون إلى أنفسهم أو بالأحرى لا يتقنون التعلم وهم ينصتون إلى الآخرين.

كانت لدي دوافع أخرى أيضًا في رغبتي في تلك المشاركة. وددت أن أقدم خدمات نافعة لجويدو! باديء ذي بَدء كنت أكن له حبًا، وعلى الرغم من أنه أراد أن يبدو قويًا وواثقًا من نفسه، كنت أراه أعزل يحتاج إلى حماية رغبت في منحه إياها عن طيب خاطر. فضلاً عن أنه بداخلي أيضًا وليس أمام عيني أوجوستا وحسب، رأيت أنِّي بقدر ما أرتبط بجويدو سيتضح بالتأكيد عدم مبالاتي بآدا.

ومن ثم لم أنتظر سوى كلمة من جويدو حتى أضع نفسى تحت تصرفه، وتلك الكلمة لم تأتِ من أول وهلة، فقط لأنه لم يكن يعتقد أنه لدىَّ ميول فى مجال التجارة؛ حيث إنّى لم أكن أبالى بما يعرضيونه علىَّ فى شركتى.

قال لى ذات يوم:

– أنهيت دراستى فى المدرسة التِّجارية العليا، وعلى الرغم من هذا يشغلنى قليلاً ضرورة تنظيم تلك التفاصيل جميعها تنظيماً دقيقًا نضمن به التشغيل السليم للشركة التجارية. فمن الأفضل ألا يحتاج التاجر إلى أن يتعلم شيئًا؛ لأنه إن كان فى حاجة إلى عمل ميزانية فسيستدعى كاتب الميزانية، وإذا احتاج إلى الشئون القانونية فسيلجأ إلى المحامى ولمسك دفاتر حساباته سيتوجه إلى المحاسب. وإن كان يشق عليه كثيراً أنه عليه أن يسلّم فى البداية حساباته إلى غريب!

كان ذلك الحديث هو أول تلميح واضح له لنيته فى إشراكى معه. لم أقم حقًا ممارسة المحاسبة إلا عندما أمسكت دفتر الأستاذ لعدة شهور نيابة عن أوليڤى، لكنِّى كنت متأكداً من أنِّى المحاسب الوحيد الذى لن يكون غريباً بالنسبة لجويدو.

تحدثنا بوضوح وللمرة الأولى عن احتمال وجود مشاركة بيننا عندما ذهبنا لاختيار أثاث مكتبه. وأمر بلا تردد بشراء مكتبين لحجرة الإدارة.

سألته وقد احمر وجهى:

- لمَ اثنان؟

أجاب:

- الآخر لك.

شعرت بامتنان كبير إزاءه، حتى كدت أعانقه.

عندما غادرنا المكتب، فسَّر لى جويدو، وهو مرتبك قليلاً، أنه ليس بصدد أن يخصِّص لى بعد مكانًا فى شركته. ترك تحت تصرفى ذلك المكان فى حجرته، فقط لكى يحثنى على المجىء لمرافقته كلما راق لى ذلك. لم يرغب فى إرغامى على شىء، وظل هو أيضًا حرًا. فإذا نجحت تجارته منحنى مكانًا فى إدارة شركته.

ظهرت على وجهه الخمرى الحسن ملامح من الجِدية البالغة، وهو يتحدث عن تجارته. كان يبدو وكأنه قد بحث فى كل العمليات التى كان يرغب فى التخصص فيها. أخذ ينظر بعيداً، فوق رأسى، ووثقت كثيراً فى تأملاته الجادة، حتى إنِّى توجهت أيضًا بالنظر إلى ما كان ينظر إليه، أى تلك العمليات التى من شأنها أن تجلب له الثروة. إنه لم يشأ أن يسير فى الدرب الذى طرقه حمى بنجاح شديد، ولا أن ينتهج البساطة والثقة التى سلكها أوليفى. هؤلاء جميعهم كانوا، بالنسبة له، تجاراً على الطريقة القديمة. كان يلزم طرق درب آخر؛ ولذلك شاركنى عن طيب خاطر؛ لأنه كان يرانى ولم تفسدنى بعد طريقة التجارة القديمة.

وجدت كل ذلك حقيقة. هنأني على أول نجاح لي في مجال التجارة، واحمر وجهي من الفرحة للمرة الثانية. سارت الأمور على هذا النحو، وعرفانًا منّي بالجميل إزاء التقدير الذى قدمه لي، عملت معه ولصالحه، يومًا بعد يوم وبجهد أقل، عملت لمدة عامين كاملين دون أية مكافأة سوى الفخر بذلك المكان في حجرة الإدارة. وحتى ذلك الحين كانت تلك الفترة بالتأكيد أطول فترة تفرغت فيها لعمل واحد. لكنّي لا أستطيع أن أتفاخر بذلك؛ حيث إن نشاطي الذى مارسته لم يأت بثماره لي ولا لجويدو، ففي مجال التجارة - والجميع يعرفون هذا - لا يمكن إطلاق الحكم إلاّ على النتائج.

وثقت بنفسي في أن أبدأ بالقيام بتجارة كبيرة لمدة ثلاثة شهور تقريبًا، الوقت اللازم لتأسيس تلك الشركة. أدركت أنه لا يتعين عليّ تنظيم بعض البنود كالمكاتبة والمحاسبة وحسب، بل ومراقبة الصفقات أيضًا، في حين اختص جويدو لنفسه بهيمنة كبيرة، لدرجة كادت تضر بي أيضًا، لولا حظي العظيم الذى منعها من ذلك. كانت إشارة منه تكفي لكي أسرع إليه. وهذا لا يزال يثير دهشتي إلى الآن وأنا أكتب عنه، بعد أن أتيح لي الوقت في التفكير في جزء كبير من حياتي.

وأكتب المزيد عن هذين العامين؛ لأنّي أرى أن ارتباطي به له علاقة واضحة بمرضي. أي سبب كان في ارتباطي به لكي أتعلم التجارة الكبيرة وفور ذلك مباشرةً أظل بالقرب منه لأعلمه التجارة الصغيرة؟ أي سبب كان وراء ارتياحي في ذلك الوضع لمجرد أنّي كنت أرى في صداقتي

العظيمة بجويدو عدم اكتراث تجاه آدا؟ من كان يطالبنى بذلك كله؟ أما كان يكفي أن يبعث عدم الاهتمام المتبادل بيننا وجود كل أولئك الأطفال الذين كنا ننفق من أجلهم حياتنا؟ لم أكن أكره جويدو، لكنه لم يكن بالتأكيد ذلك الصديق الذى أختاره بمحض إرادتى. كنت ألمس فى وضوح شديد عيوبه، حتى إن تفكيره كثيراً ما كان يضجرنى، متى لم أشفق على بعض نقاط ضعفه. لفترة طويلة ضحيت بحريتى، وانسقت وراءه فى مواقف مزعجة للغاية لمجرد مساعدته! كان شكلاً واضحاً من أشكال المرض أو مظهراً من مظاهر الطيبة العظيمة على حد سواء، فهما صفتان لهما علَاقة حميمة فيما بينهما.

سيظل هذا حقيقياً، حتى وإن كانت قد نمت بيننا مع مرور الوقت مودة كبيرة، مثلما يحدث دائماً بين الناس الأسوياء الذين نراهم كل يوم. وكانت مودتى له عظيمة! فمنذ أن وافته المنية، ظللت أفتقده لوقت طويل، بل بدت لى حياتى كلها خالية؛ حيث إنه كان يشغل هو وصفقاته جزءاً كبيراً منها.

يساورنى الضحك عندما أتذكر أننا، فى أول عمل لنا، وهو شراء الأثاث، أخطأنا الهدف من زاوية معينة. التزمنا بشراء الأثاث ولم نكن قد قررنا بعد تحديد موقع المكتب. كان هناك خلاف فى الرأى بينى وبين جويدو، فى مسألة اختيار المكتب، هذا ما تسبب فى تأخير تأسيسه. لاحظت من حمى وأوليفى أن يكون المكتب ملاصقاً دائماً للمتجر، لكى تتاح إمكانية مراقبته. احتج جويدو على ذلك بعبوس ينم عن استياء:

– مكاتب تريستى تلك تفوح منها رائحة البكّالا والجلود! أخذ يؤكد أنه يستطيع أن يدير عملية المراقبة من مكان بعيد أيضًا، ومع ذلك لم يتخذ قرارًا فى تلك المسألة. ذات يوم أنذره تاجر الأثاث بأن ينقله، وإلاّ ألقى به فى الطريق، وعندئذ أسرع فى تحديد مكان المكتب، وكان آخر ما عرض أمامه، ودون متجر بالقرب منه، لكن بوسط المدينة تمامًا؛ ولهذا فإن المتجر لم نحصل عليه على الإطلاق.

كان المكتب يتكون من غرفتين واسعتين إضاءتهما جيدة وحجرة صغيرة دون نوافذ. كانت هناك على باب تلك الحجرة غير الصالحة السكنى لافتة ملصقة مكتوب عليها بحروف مظللة: إدارة الحسابات، ثم على أحد البابين الآخرين اللافتة: الخزينة، وتعلو الآخر لافتة خاص ذات الطابع الإنجليزى الواضح. كان جويدو قد درس أيضًا التجارة بإنجلترا، وجلب منها مفاهيم نافعة. كانت حجرة الخزينة، كما ينبغى، مزودة بخزانة عظيمة من الحديد وبالباب الحديدى المعروف. حجرتنا الخاصة كانت فاخرة، فرشها رائع لونه بنى مخملى ومزودة بمكتبين، وأريكة ومقاعد عديدة مريحة للغاية.

ثم حان وقت شراء الدفاتر والأدوات المختلفة. وبصفتى مديرًا كان دورى فى هذا الأمر لا جدال فيه. أعطى الأوامر والطلبات تصل. كنت فى الواقع أفضِّل ألا تنفذ أوامرى على هذا النحو من السرعة، لكن واجبى كان يحتم أن أذكر كل الأشياء اللازمة فى المكتب. ظننت حينئذ أنّى اكتشفت الفارق الكبير بينى وبين جويدو. كل ما كنت أعرفه، كان يفيدنى

فى القول وينفعه فى الفعل. وعندما كان يصل إلى معرفة ما كنت أنا على دراية به وليس أكثر من ذلك، كان يقوم بعملية الشراء. حقًّا أنه قرر أحيانًا ألاّ يفعل شيئًا فى التجارة، أى ألاّ يقوم بأى من عمليتى الشراء أوالبيع، لكن ذلك أيضًا كان يبدو لى قرارًا يأتى من قبل شخص يثق فيما يعرفه. ولو عنّى أنا لساورنى الشك كثيرًا حتى فى أثناء عدم القيام بالعمل. كنت غاية فى الحذر فى تلك المشتريات. أسرعت إلى أوليڤى لمعرفة مقاييس سجلات النسخ ودفاتر الحسابات. ثم قدم لى ابن أوليڤى يد المعاونة فى فتح الدفاتر، وشرح لى أيضًا ذات مرة القيد المزدوج، إنها أمور عسيرة، لكنها تنسى بسهولة شديدة. وكان على استعداد لشرح الميزانية لى، عندما نصل إليها.

لم نكن نعلم بعد ما الذى كان علينا أن نقوم به فى ذلك المكتب (أنا الآن على يقين من أن جويدو أيضًا لم يكن حينئذ يعلمه)، وكنا نتناقش فى كامل عملية تنظيم عملنا. أتذكر أننا تحدثنا طويلاً عن أين نضع الموظفين الآخرين إذا كنا فى حاجة إليهم. اقترح جويدو أن نضعهم فى الفراغ المتاح فى حجرة الخزينة. لكن لوتشانو الصغير، وكان الموظف الوحيد لدينا فى ذلك الوقت، أشار بأنه حيثما توجد الخزانة، لا يجب أن يكون هناك موظفون آخرون سوى المكلفين بالخزانة نفسها. كان حقًا قاسيًا علينا أن نتلقى درسًا من معاون لدينا! ولاحت لى فكرة:

– أظن على ما أتذكر أن عملية الدفع بإنجلترا تتم عن طريق الشيكات.

ذلك ما قالوه لى بتريستى.

- أحسنت! عقّب جويدو. إنى أتذكر ذلك أيضًا الآن. غريب أنه غاب عن فكرى!

أخذ يشرح للوتشانو طولاً وعرضًا كيف أنه لم تعد هناك حاجة إلى تداول أوراق نقدية كثيرة. فالشيكات تنتقل من شخص إلى آخر بجميع المبالغ اللازمة. كان انتصارنا انتصاراً عظيمًا، ولاذ لوتشانو بالصمت.

ولقد حظى هذا الأخير بفوائد عظيمة مما تعلمه من جويدو. إن صبينا الساعى أصبح اليوم تاجراً بتريستى له احترامه الشديد. لا يزال يلقى علىّ بالتحية على نحو من التواضع تخفف منه ابتسامتة. كان جويدو يستثمر جزءًا من اليوم فى تلقين دروس للوتشانو أولاً ، ثم إلىّ وبالتالى إلى الموظفة. أذكر أنه قد داعبته طويلاً فكرة الاشتغال بالتجارة على أساس العمولة كى لا يخاطر بأمواله. شرح لى ماهية تلك التجارة، وبما أنّى كنت أستوعب بسرعة فائقة، وكان ذلك واضحًا ، فقد أخذ يشرحها للوتشانو الذى طالما مكث للاستماع إليه بإيماءات تدل على الاهتمام الشديد، وعيناه الواسعتان اللامعتان تطلان فى وجهه الصغير. لا يمكننا القول إن جويدو قد بدد وقتــه؛ لأن لوتشانو هو الوحيد من بيننا الذى نجح فى مزاولة هذا النوع من التجارة. رغم أنه يقال إن الغلبة للعِلم!

فى تلك الأثناء وصلت الأموال (البيزوس) من بوينوس أيرس. كان عملاً جاداً! بادئ ذى بَدء ظننت أن المسألة هينة، فى حين أن سوق المال فى تريستى لم تكن متأهبة لتلك العملة الغريبة. احتجنا من جديد إلى الشاب أوليفى الذى علمنا كيفية تحويل الشيكات. فى أعقاب ذلك، تركنا بمفردنا فى وقت بعينه، حيث ظن أوليفى أنه أبلغنا غايتنا، ووجد جويدو نفسه لأيام عديدة وقد امتلأت جيوبه بالكورونات، حتى عثرنا على الوسيلة للوصول للمصرف الذى خفف عنا العبء الشاق، وسلمنا دفتر الشيكات، وسرعان ما تعلمنا كيفية استخدامه.

شعر جويدو بالحاجة إلى أن يخبر أوليفى بأن ييسِّر له ما يسمى بحساب رأس المال قائلاً:

– أؤكد لك أنّى لن أدخل فى منافسة على الإطلاق مع شركة صديقى!

فأجابه الشاب الذى كان لديه مفهوم آخر فى التجارة قائلاً:

– حبذا لو دخل عدد كبير من المتعاملين فى بنود تجارتنا، فسيكون ذلك من الأفضل لنا!

ففغر جويدو فاه، واستوعب بصورة فائقة كما كان يحدث له دائماً، ولازمته تلك النظرية التى كان يقدمها لكل من يرغب فيها.

على الرغم من المدرسة العليا التى التحق بها جويدو، فقد كان مفهومه فى الأصول والخصوم مفهوماً يشوبه عدم الدقة. ظل ينظر إلىّ

فى دهشة كيف أنشأت حساب رأسمال الشركة وكيف سجلت النفقات أيضًا. ثم أصبح كبير العلم فى إدارة الحسابات، حتى إنه عندما كانت تعرض عليه صفقة، كان يحللها فى بادئ الأمر من منظور المحاسبة. كان يعتقد بالفعل أن معرفة المحاسبة تضفى على العالم شكلاً جديداً. كان يرى وجود المدينين والدائنين فى كل شىء حتى عندما يتعارك شخصان أو يتبادلان القبلات.

يمكن القول بأنه اقتحم مجال التجارة مسلَّحًا بالحذر الشديد. رفض عدداً من الصفقات، بل ظل يرفضها جميعها لستة أشهر، وكانت له هيئة من يعرف أكثر من الآخرين:

– كلا! كان يقولها، وكانت تلك الكلمة ذات المقطع الواحد تبدو وكأنها نتيجة حساب دقيق، حتى عندما كان الأمر يتعلق بسلعة لم يكن قد رآها من قبل. لكن تلك الملاحظة قد تبددت عندما وجد أن الصفقة بفرض ربحها المحتمل أو الخسارة التى قد تسفر عنها كانت لابد أن تمر عبر عملية المحاسبة. كان هذا هو آخر أمر تعلمه، وأضافه إلى معلوماته جميعها.

يؤلمنى أن أتحدث هكذا بصورة سيئة عن صديقى المسكين، لكن علىّ أن أكون صادقًا أيضًا لأتفهم نفسى على نحو أفضل. أتذكر كم الذكاء الذى استثمره كى يربك مكتبنا الصغير بأضغاث أحلام أخذت تعوقنا عن مزاولة أى نشاط سليم. فى وقت محدد، بعثنا، حتى نبدأ فى

العمل باستخدام العمولة، آلافًا من الخطابات الدورية عن طريق البريد.
لاحت لجويدو هذه الفكرة:

– كم من الطوابع نوفِّرها إذا علمنا قبل أن نبعث بهذه الرسائل أيها سيصل إلى الأشخاص الذين سيأخذونها فى الاعتبار. لم تكن هذه الجملة فى حد ذاتها تعوق شيئًا، لكنه أعجب بها كثيرًا وأخذ يطوح فى الهواء بالخطابات المقفلة ليرسل فقط منها تلك التى تسقط على الجانب المدَّون عليه العنوان. تذكرنى هذه التجربة بشىء مماثل قمت به فى الماضى، على الرغم من أنّى لم أصل قط فيما أرى إلى هذا الحد. لم أجمع بالطبع ولم أرسل الدوريات التى استبعدها، حيث لم أكن على يقين مما إذا كان هناك بالفعل إلهامًا جادًا قد أرشده لهذا الاستبعاد؛ لذا كان علىّ ألا أبدد الطوابع التى يتعين عليه أن يدفع ثمنها.

حال حظى دون أن يقضى جويدو علىّ، بل إن حظى ذاته منعنى أيضًا من أن أقوم بدور كبير الأهمية فى إدارة أعماله. أقول ذلك بصوت عالٍ لأن بعض الناس فى مدينة تريستى يعتقد أن الأمر خلاف ذلك: فى أثناء الوقت الذى أمضيته معه، لم أتدخل قط بأية مقترحات، على غرار فكرة الفاكهة المجففة تلك. لم أدفعه إلى القيام بأية صفقة على الإطلاق، ولم أمنعه من إحداها مطلقًا. كنت أقوم بدور الناصح! كنت أحثه على مزاولة النشاط، وعلى اتخاذ الحذر. لكنّى ما كنت لأجرؤ على طرح أمواله على طاولة اللعب.

أصبحت خاملاً جداً إلى جواره. حاولت أن أهديه سواء السبيل، وربما لم أفلح فى ذلك لسلبيتى الكبيرة. وعلى أية حال، فعندما يتعايش اثنان معًا، فليس عليهما أن يقررا من منهما يجب أن يكون دونكيشوت ومن يلعب سانشو پانسا. كان يقوم بالصفقة وعلى غرار سانشو الحق كنت أتابعه على مهل فى دفاترى، بعد أن أتفحصه وأقوم بتوجيه النقد له كما كان يجب علىّ.

باءت التجارة على أساس العمولة بالفشل التام، لكن دون أن تلحق بنا أية أضرار. فالوحيد الذى أورد إلينا بضاعة كان وراقًا من ڤيينا، وكمية من الأدوات الكتابية تلك باعها لوتشانو الذى توصل رويداً رويداً إلى معرفة نسبة الربح التى تخصنا، ودفع جويدو ليتنازل له عما يقرب من غالبيتها. انتهى الأمر بجويدو إلى قبول ذلك؛ لأنها كانت أشياء قليلة الشأن، ثم إن الصفقة الأولى، وقد تم بيعها على هذا النحو، كانت لا بد أن تجلب الحظ. تركت لنا هذه الصفقة الأولى بالمخزن كمية من الأدوات المكتبية كان علينا أن ندفع قيمتها ونحتفظ بها. كان لدينا منها ما يكفى لعدة سنوات لاستهلاك محل تجارى له نشاط يفوق نشاطنا.

ذلك المكتب الصغير المضاء، بوسط المدينة، ظل لمدة شهرين ملتقى ممتعًا لنا. كنا نعمل به على نطاق ضيق حقًا (أذكر أنه تمت بالمدة كلها صفقتان لصناديق تغليف مستعملة فارغة توافقت فيها عمليتا العرض والطلب فى اليوم ذاته، وحصلنا منهما على ربح زهيد) وكانت ثرثرتنا فيه

كثيرة، كما يحق لشباب مثلنا، وكانت أيضًا مع لوتشانو ذاك الساذَج، الذى، عندما كنا نتحدث عن الصفقات، كان يهتاج ويتحمس مثل آخرين فى عمره لو سمعوا حديثًا عن النساء.

حينئذ كان يسهل علىَّ أن ألهو فى براءة مع الأبرياء؛ لأنِّى لم أكن قد فقدت كارلا بعد. ويسعدنى تذكر يومى بكامله فى تلك الفترة. فى المساء، بالمنزل، كان لدى الكثير لأقصه على أوجوستا، وكنت أستطيع أن أحدثها عن كل الأمور التى تخص المكتب، دون أى استثناء، ودون أن أضيف أشياء أخرى لأزيفها.

لم أهتم قط عندما صاحت أوجوستا فى قلق:

– ولكن متى ستشرعون فى كسب الأموال؟

أموال؟ لم نفكر قط فى تلك الأموال. كنا نعلم أنه فى بادئ الأمر يتعين علينا أن نتوقف للمراقبة، لتفحص البضائع، ودراسة البلد ومقاطعتنا هينترلاند. لا تقام قط أية شركة تجارية بلا استعداد على هذا النحو! وكانت أوجوستا تسكت أمام تفسيراتى هذه.

فضلاً عن أننا سمحنا بضيافة ضيف كان يحدث جلبة كبيرة فى مكتبنا. كان كلب صيد يبلغ من العمر شهورًا قليلة، مضطرب الحركة وفضوليًا. كان جويدو يحبه كثيرًا، ويحرص على تزويده باللبن واللحم بانتظام. وعندما لم يكن لدىَّ ما أعمله أو أفكر فى شىء، كنت أنظر إليه أنا أيضًا عن طيب خاطر وهو يتقافز فى المكتب بتلك الحركات الأربع

أو الخمس التى نعرفها عن الكلاب وتحببها لنا بدرجة كبيرة. لكنى ما كنت لأرى مكانًا له معنا، وهو على هذا القدر من الإزعاج والقذارة! إن وجود ذلك الكلب فى مكتبنا، حسبما أرى، كان الدليل الأول الذى قدمه جويدو على أنه ليس جديراً بإدارة شركة تِجارية. كان ذلك يثبت الغياب المطلق لجِدية العمل. حاولت أن أشرح له أنه ليس بإمكان الكلب ترويج صفقاتنا، غير أنّى لم أملك الشجاعة على الإصرار، وقد أسكتنى بِردّ به استخفاف.

لذا رأيت أنّى لا بد أن أهتم بنفسى بتأديب زميلى ذاك، وفى أثناء غياب جويدو سددت إليه بعض الركلات وأنا أشعر بلذة كبيرة. كان الكلب ينبح وفى البداية أخذ يعود إلىّ ظنّاً منه أنّى لكمته عن طريق الخطأ. لكن ركلة ثانية كانت كفيلة بإفهامه معنى الأولى بصورة أفضل، وعندئذ كان يقبع فى مكانه. لم يكن هناك أى هدوء متى وصل جويدو إلى المكتب. بعد ذلك ندمت على معاملتى لبرىء بهذا العنف، ولكن بعد فوات الأوان. غمرت الكلب بمعاملة لطيفة، حين لم يعد يثق بى، وكانت حركته فى حضور جويدو علامة واضحة على نفوره منّى.

– أمر عجيب!– قال جويدو. – لحسن الحظ أنّى أعرف من أنت، وإلا لارتبت فيك. فالكلاب لا تخطئ عادةً فى نفورها .

كدت أقص على جويدو لكى أزيل شكوكه، بأية وسيلة استطعت الفوز بنفور الكلب.

سرعان ما حدث بيني وبين جويدو خلاف حول مسألة لم تكن لتهمني كثيراً. ولما كان يهتم بإدارة الحسابات بشغف كبير، وأراد أن يضع نفقات عائلته ضمن حساب النفقات العامة، عارضته في ذلك، بعد أن تشاورت مع أوليفي، ودافعت عن مصالح العجوز "كادا". كان من المحال حقًا أن نضع في ذلك الحساب كل ما ينفقه جويدو، وآدا ثم نفقات التوأمين بعد أن ولدا. كانت نفقات ملزمة له بصفة شخصية، ولا تخص الشركة. ثم اقترحت، في مقابل ذلك، مراسلة بوينوس أيرس للاتفاق على مرتب لجويدو. رفض الوالد أن يمنحه إياه معللاً أن جويدو يحصل على خمس وسبعين بالمائة من الأرباح، في حين يئول إليه هو ما تبقى. بدا لي رداً سليماً، في حين أخذ جويدو يرسل خطابات مطولة إلى الوالد ليناقش المسألة من وجهة نظر أعلى، حسبما كان يقول. كانت بوينوس أيرس شديدة البعد؛ ولهذا فإن المراسلة استغرقت الوقت الذي استمرت فيه شركتنا. لكنّي سجلت انتصاراً! فحساب النفقات العامة ظل منفصلاً، ودون أن يختلط بنفقات جويدو الخاصة وأتى انهيار الشركة على رأس المال بكامله. بكامله حقًا دون أية استقطاعات.

أما الشخص الخامس الذي تم قبوله في مكتبنا (مع أخذ أرجو أيضًا في الحسبان) فقد كانت كارمن. كنت حاضراً في أثناء تكليفها بالوظيفة. وصلت إلى المكتب عائداً من منزل كارلا، وكنت أشعر براحة شديدة، تلك الراحة التي كان يستمتع بها في الثامنة صباحًا الأمير تاليرون[1].

---

(١) تاليرون: دبلوماسي وسياسي فرنسي (١٧٥٤-١٨٣٨).

لمحت فى الرواق المعتم فتاة شابة، وقال لى لوتشانو إنها تريد التحدث مع جويدو بصفة شخصية. كان لدى ما يشغلنى، فرجوتها أن تنتظر بالخارج. دخل جويدو غرفتنا بعد وقت وجيز، وكان واضحًا أنه لم ير الفتاة، وجاء لوتشانو ليضع أمامه بطاقة التزكية التى كانت تحملها. قرأها جويدو ثم صاح:

- كلا! قالها بغلظة وهو يخلع عنه السترة؛ لأن الجو كان حارًا. لكنّه تردد بعد ذلك مباشرةً:

- ينبغى أن أحدِّثها اعتبارًا لمن يوصينى بها.

دعاها للدخول، ونظرت إليها فقط عندما رأيت جويدو يقفز بوثبة على سترته ليرتديها، ويتوجه نحو الفتاة ذات الوجه الحسن الخمرى الذى تكسوه الحمرة وتلمع فيه العينان.

أنا على يقين الآن من أنّى رأيت فتيات فى مثل حُسن كارمن، ولكن ليس على ذلك الجمال الطاغى، أى شديد الوضوح للنظرة الأولى. فالمعتاد أن النساء تصطنعه في بادئ الأمر، رغبة منهن فى ذلك، فى حين أن تلك ليست فى حاجة إلى هذه الخطوة الأولى. ابتسمت وأنا أنظر إليها وضحكت أيضًا. كانت تبدو لى مثل صاحب صناعة يجوب العالم وهو يصيح بتفوق منتجاته. أتت لتحظى بوظيفة، لكن رغبة ألحت علىّ فى التدخل فى المناقشة لأسألها:

- أية وظيفة؟ لمخدع النوم؟

رأيت وجهها خاليًا من الأصباغ، لكن ألوانه كانت فى غاية الدقة، فالبياض الناصع شديد الزرقة والحمرة فيه كبيرة الشبه بلون الثمار الناضجة، لشدة ما كانت المحاكاة متقنة. كانت عيناها الواسعتان عسليتا اللون تعكسان من الضوء ما يجعل لكل حركة لهما أهمية كبيرة.

أجلسها جويدو، وكانت تنظر بخجل إلى طرف مظلتها الصغيرة، أو ربما كانت على الأرجح تنظر إلى حذائها البوت الملمع. عندما تحدث إليها، رفعت عينيها بسرعة نحو وجهه ببريقيهما، حتى خار عزم رئيسى المسكين. كانت ترتدى ما هو بسيط، لكن لم يكن هذا فى صالحها؛ حيث إن كل لمسة تواضع على جسدها كانت تتلاشى. كان حذاؤها فقط فاخرًا، ويذكر قليلاً بالورق شديد البياض الذى كان ڤيلاسكيز يضعه تحت أقدام موديلاته. وحتى لو أراد ڤيلاسكيز أن يظهر كارمن عما حولها، لوضعها على الأسود اللامع.

وفى حالة الصفاء التى كنت أشعر بها جلست أستمع باهتمام. سألها جويدو إذا ما كانت على علم بالاختزال. أقرت أنها لا تعرف عنه شيئًا، لكنها أضافت أن لديها خبرة واسعة فى مجال الكتابة عن طريق الإملاء. غريب! تلك الهيئة طويلة القامة، الممشوقة، حلوة التناسق، يصدر منها صوت به بحّة. لم أتمكن من أن أوارى دهشتى:

– هل أصابتك نزلة برد؟ سألتها.

– كلا! أجابتنى. لمَ توجه لى هذا السؤال؟ واندهشت جدًا لدرجة أن النظرة التى طوقتنى بها جاءت أيضًا شديدة التدقيق. لم تكن تعرف

أن صوتها على تلك الدرجة من النشاز، وتحتم علىّ أن أفترض أن أذنها الصغيرة لم تكن أيضًا مرهفة تمامًا فى سمعها كما كان يبدو.

سألها جويدو إن كانت تجيد الإنجليزية، أو الفرنسية أو الألمانية. ترك لها الاختيار بما أننا لم نكن نعلم بعد أى اللغات نحتاج إليها. أجابت كارمن أنها تتحدث الألمانية، ولكن قليلا جداً.

لم يتخذ جويدو قط أى قرار دون تفكر:

- لسنا فى حاجة إلى الألمانية؛ لأنّى أتقنها جيداً.

كانت تنتظر الكلمة الحاسمة التى بدت لى أنها قد ذكرت، ولكى تعجل بها، قالت إنها تسعى أيضًا فى الوظيفة الجديدة إلى إمكانية التدريب؛ ولهذا سترتضى بمرتب زهيد.

إن من بين التأثيرات الأولى لجمال المرأة على الرجل أن تخلع عنه البخل. رفع جويدو منكبيه تعبيراً عن عدم اهتمامه بأمور لا قيمة لها، وحدّد لها المرتب الذى قبلته فى امتنان، وأوصاها فى جِدية شديدة أن تدرس الاختزال. هذه النصيحة قالها فقط مراعاةً لى، بناء على أنه اتفق معى فيما قبل، وصرح بأن أول موظف سيرضى به يجب أن يكون متقنًا للاختزال.

أخبرت زوجتى فى المساء ذاته بزميلتى الجديدة. استاءت من ذلك استياءً شديداً. ودون أن أحكى لها، ظنت فى الحال أن جويدو اتخذ تلك الفتاة للعمل عنده لتصير عاشقة له. تجادلت معها، وعلى الرغم من

إقرارى بأن جويدو كان يتصرف بغرام بعض الشىء، أكدت لها أنه سوف يبرأ من صعقة الغرام تلك دون عواقب. فالفتاة، فى مجمل القول، تبدو فتاة جادة.

مرت أيام قلائل حظينا بزيارة آدا فى المكتب، ولا أدرى إن كانت مصادفةً. لم يكن جويدو قد جاء بعد، وتوقفت معى لفترة قصيرة لتسألنى متى سيأتى. ثم، بخطوة مترددة، اتجهت إلى الحجرة المجاورة التى لم يكن بها فى تلك اللحظة سوى كارمن ولوتشانو. كانت كارمن تتدرب على الآلة الكاتبة، وهى مستغرقة فى العثور على الحروف، حرفًا حرفًا. رفعت عينيها الجميلتين لتنظر إلى آدا التى كانت تحدق فيها. ياله من اختلاف بين المرأتين! كانتا متشابهتين قليلاً، لكن كارمن كانت تبدو وكأنها آدا الزائفة. جال بخاطرى كيف أن إحداهما وعلى الرغم من أنها ترتدى ثيابًا أكثر فخامة، فهى مخلوقة لتكون زوجة أو أمًا، فى حين أن الأخرى، وعلى الرغم من أنها كانت ترتدى فى تلك اللحظة مريولاً متواضعًا يقى ثوبها من الاتساخ من الآلة، فهى أنسب لدور العاشقة. لا أدرى إن كان هناك فى هذا العالم علماء قادرون على تفسير لماذا تجمع عين آدا الجميلة ضوءًا أقل مما تجمعه عين كارمن، وتصبح بذلك مجرد عضو حقيقى يفيد فى رؤية الأشياء والأشخاص وليس فى إثارة فتنتهم. وهكذا وفى ثبات شديد تحملت كارمن منها نظـرة الاستياء تلك والفضول أيضًا؛ وربما كانت تحمل داخلها شيئًا من الحقد كذلك، أو ربما أضفته أنا إليها.

كانت تلك هى المرة الأخيرة التى رأيت فيها آدا، وهى لا تزال تتمتع بذلك الحسن الذى كانت عليه حين تمنعت علىّ. ثم جاء حملها المفزع وضرورة تدخل الطبيب الجراح لإخراج التوأمين إلى النور. وفور ذلك مباشرةً أصيبت بالمرض الذى نزع عنها كل لمحة جمال؛ لهذا فأنا أتذكر جيداً تلك الزيارة. بل أتذكرها خاصة؛ لأن تعاطفى اتجه كله فى تلك اللحظة إليها هى ذات الجمال الوديع الهادئ الواقع تحت غلبة جمال الأخرى الذى يختلف عنه كثيراً. من المؤكد أنّى لم أكن أحب كارمن، ولم أقدر فيها سوى العينين الرائعتين، والألوان البراقة، ثم الصوت الأبحّ، وفى النهاية الطريقة التى كانت بريئة منها، والتى تم من خلالها قبولها هناك داخل المكتب. غير أنّى شعرت حقًا حينئذ بمودة نحو آدا، وإنه لغريب حقًا أن تشعر بالحب إزاء المرأة التى رغبنا فيها بشدة، ولم نفز بها ثم لم نعد نبالى بها بعد ذلك. ومن ثم قد نجد أنفسنا فى الظروف ذاتها التى يمكن أن تتوافر لو حدث واتفقت مع رغباتنا، وما يثير الدهشة أننا نكتشف مرة أخرى كم من الأمور نحيا من أجلها وهى ذات أهمية قليلة جداً.

أردت أن أخفِّف عنها الألم وتقدمتها إلى الحجرة الأخرى. احمر وجه جويدو بدرجة كبيرة، ما إن دخل إلى المكتب بعد ذلك ورأى زوجته. ذكرت له آدا سببًا وجيهًا لزيارتها، لكنها سألته على الفور وهى تهم بالابتعاد:

– هل عينتم موظفة جديدة بالمكتب؟

– نعم! أجاب جويدو، و لكى يخفى ارتباكه، لم يجد وسيلة أفضل من التوقف عن الكلام ليسألنى عما إذا جاء أحد ليسأل عنه. ثم بعد أن أجبته بالنفى، ظلت على شفتيه امتعاضة أسف، كأنما كان يأمل فى زيارة مهمة، فى حين أننى كنت أعلم أننا لم نكن ننتظر أحداً أيا كان، وعندئذ قال لآدا وهو يرسم على وجهه أمارات اللامبالاة التى نجح فى اتخاذها أخيراً:

– كنا بحاجة إلى كاتب اختزل!

ضحكت كثيراً عندما سمعته يخطئ فى جنس الشخص الذى كنا نحتاج إليه.

إن قدوم كارمن جلب معه الحيوية إلى مكتبنا. لا أقصد الحيوية التى تنبعث من عينيها، ولا شكلها اللطيف ولا الألوان التى ترسم وجهها؛ إنّى أتحدث عن الصفقات فى حد ذاتها. لقد دفع وجود تلك الفتاة بجويدو إلى العمل. أراد بادئ ذى بَدء أن يظهر لى وللآخرين جميعهم ضرورة وجود الموظفة الجديدة، وأخذ يختلق كل يوم أعمالاً يقوم بالمشاركة فيها هو أيضًا. ثم، ولفترة طويلة، أصبح نشاطه وسيلة لمغازلة الفتاة بصورة أكثر فعالية. وبلغ تأثيراً غير مسبوق. كان عليه أن يعلِّمها شكل الحروف التى كان يمليها عليها، ويصحح لها كتابة الكثير والكثير من الكلمات. كان يداوم على القيام بذلك فى رِفق. وأى مقابل من جانب الفتاة لم يكن ليحتسب مجاوزاً الحدود.

وقليل من الأعمال التى كان يفتعلها باسم الحب حملت له ثماراً.
ذات مرة سعى طويلاً فى صفقة سلعة من السلع اتضح أنها محظورة، وفى لحظة ما وجدنا أنفسنا أمام رجل يصرخ وجهه بالألم وقد دهسنا، دون أن ندرى، مسامير قدميه. كان يريد هو نفسه أن يعرف ما شأننا بتلك السلعة ظنًا منه أننا مندوبون لمنافسين أقوياء من الخارج. وللمرة الأولى اضطرب وكان يخشى الأسوأ. وعندما اتضحت له براءتنا، ضحك فى وجوهنا، وأكد أننا لن ننجح فى شىء. فى نهاية الأمر كان هو على صواب، ولكن قبل أن نستعد للإدانة لم يكن قد مضى حينئذ وقت وجيز، وكانت كارمن قد كتبت خطابات كثيرة. وجدنا أن السلعة لا يمكن الحصول عليها حيث تحفها بعض العوائق. لم أذكر شيئًا عن تلك الصفقة لأوجوستا، لكنها حدثتنى عنها؛ لأن جويدو قد أخبر آدا بها ليظهر لها مدى عبء الأعمال التى يقوم بها المختزل. لكن الصفقة تلك التى لم تتم، ظلت لها أهمية بالغة بالنسبة لجويدو. كان يتحدث عنها كل يوم. كان اقتناعه بأنه لن يتكرر فى أية مدينة أخرى فى العالم مثلها.
كان المحيط التِّجارى الذى نعيش فيه فقيراً، وكان أى تاجر مغامر يختنق فيه. وعلى هذا النحو جاء دوره كذلك. فى تلك السلسلة الفوضوية المضطربة للصفقات وقعت بين أيدينا واحدة، وأحرقتها بالفعل. لم نقم بالسعى وراءها، وإنما هى التى زجّت بنا. أقحمنا بداخلها دلماسى الجنسية، يدعى تاشيك، قد عمل والده مع والد جويدو بالأرجنتين. فى بادئ الأمر جاء لزيارتنا للحصول على بعض المعلومات التجارية منًا فحسب، وقد تمكنا من تزويده بها.

كان تاشيك شابا وسيما، بل كان فى غاية الحسن. طويل القامة، قوى البنية، وجهه خمرى اللون، تمتزج فيه فى تناغم عذب العينان الزرقاوان الداكنان، والحاجبان العريضان، والشارب القصير الغليظ بنى اللون مع بريق ذهبى؛ ومن ثم ترتسم عليه تلك اللوحة التى تتناغم فيها الألوان، وقد رأيته الرجل الذى خلِق ليكون رفيقًا لكارمن. وظن هو الآخر الشىء نفسه، وكان يأتى لزيارتنا كل يوم. كانت أحاديثنا تستمر كل يوم فى مكتبنا لبضعة ساعات، لكن لم تكن باعثة على الملل على الإطلاق. كان الرجلان يتنافسان لاستمالة المرأة الشابة، وكما يحدث بين الحيوانات جميعها، فباسم الحب يتفاخر كل منها بأفضل ما لديه من مزايا. تماسك جويدو قليلاً، حيث كان الدلماسى يأتى أيضًا لزيارته بالمنزل، وبالتالى تعرف على آدا، لكن لم يعد هناك شىء يمكن أن يسبب له ضررًا أمام عينى كارمن؛ فأنا، الذى أعرف جيدًا تلك العينين، أدركت ذلك فى الحال، فى حين فطن إليه تاشيك بعد مضى وقت طويل، وحتى يجد حُجة دائمة لرؤيتها اشترى منا، بل من صاحب المصنع، كميات كبيرة من الصابون، سدد قيمتها بنسب فوائد أكثر غلوًا. ثم أقحمنا، باسم الحب دائمًا، فى تلك الصفقة المشئومة.

نبه والد الشاب إلى أن سلفات النحاس دائمًا ما كان يعلو سعرها فى بعض المواسم، ويهبط فى مواسم أخرى، وبالتالى قرر أن يشترى منها ستين طنا ليضارب فى اللحظة المواتية فى البورصة، فى بريطانيا. تحدثنا طويلاً عن تلك الصفقة، بل تأهبنا لها، وكنا على اتصال بشركة إنجليزية.

ثم بعث الوالد برقية لابنه، يخبره فيها بأن الوقت الملائم - حسبما كان يرى - قد حان، وذكر أيضًا السعر الذى يمكنه من إغلاق الصفقة. أسرع تاشيك إلينا وهو مغرم، مثلما كان حاله دائمًا، وسلم إلينا الصفقة، ونال منها جائزته، وكانت نظرة رائعة عظيمة ومداعبة من كارمن. تلقى الدلماسى المسكين النظرة وهو ممتن، ولا يدرى أنها كانت تعبيراً عن حب جويدو.

أذكر الطمأنينة والثقة اللتين انكب بهما جويدو على الصفقة، والتى بدت فى الواقع سهلة جداً؛ حيث كان من الممكن إرساء البضاعة بإنجلترا حتى يتم تسليمها إلى مينائنا ومنه إلى المشترى، دون أن يتم تحريكها. حدد بدقة قيمة الربح التى كان يرغب فيها، وعاونته فى تحديد السعر النهائى اللازم تقريره لثمن الشراء بالنسبة لصديقنا الإنجليزى. استعنا بالقاموس لتنسيق البرقية باللغة الإنجليزية. وبعد أن تم إرسالها، فرك جويدو يديه، وأخذ يعد الكورونات التى كانت ستنهمر على الخزينة ثمنًا لمجهود بسيط ووجيز. ووجد أنه من العدل، لكى يحظى برضا الآلهة، أن يتعهد بعمولة ضئيلة لى وبالتالى، وبشىء من الدهاء، إلى كارمن أيضًا التى أسهمت بعينيها فى الصفقة. رفض كلانا، لكنه رجانا أن نتظاهر على الأقل بالقبول. كان يخشى على أية حال من أعيننا الحاسدة، فوافقته على الفور حتى أهدئ من روعه. كنت على يقين مطلَق من أنه لن يأتيه منِّى سوى الأمنيات الطيبة، لكنّى كنت أدرك أنه ربما يرتاب فى ذلك. ونحن فى هذا المكان عندما لا نكره بعضنا البعض نحب الخير للجميع، غير أن أمانينا الحارة تصاحب الأعمال التى نشارك فيها وحسب.

تم تقدير الصفقة من كل الجوانب، بل أتذكر أن جويدو أخذ يحسب عدد الشهور، والربح الذى سيتحصل عليه منها، وبالقدر الذى يمكن أن يكفل أسرته ومكتبه، أى أسرتيه كما كان يطلق عليهما فى بعض الأحيان، أو مكتبيه كما كان يقول أحيانًا أخرى عندما كان يشعر بالملل كثيراً فى بيته. تم تقدير حجم تلك الصفقة أكثر مما ينبغى، وربما لم تلق نجاحًا لهذا السبب. وصلت من لندن برقية مختصرة: خطاب مسجل ثم تحديد لسعر السلفات فى ذلك اليوم، الذى ارتفع كثيراً عن السعر المتفق عليه مع المشترى. وداعًا للصفقة. علم تاشيك بهذا الخبر، وبعد مدة قصيرة غادر تريستى.

فى تلك الفترة امتنعت عن الذهاب إلى المكتب لمدة شهر تقريبًا؛ ولهذا لم يقع بين يدى خطاب كان قد وصل إلى الشركة، كان فى ظاهره خيراً، ولكنه كان يحمل فى طياته عواقب جسيمة لجويدو. لقد أكدت به تلك الشركة البريطانية برقيتها، وانتهت بإعلاننا بأنها تعد طلبنا ساريًا ما لم يتم إلغاؤه. لم يفكر جويدو قط فى إلغائه، وأنا عندما عدت إلى المكتب، لم أتذكر مطلقًا تلك الصفقة. وهكذا توالت شهور عديدة، وذات مساء، أتى جويدو ليبحث عنّى بالمنزل ومعه برقية لم يفهمها، وكان يظن أنها أرسلت إلينا عن طريق الخطأ، على الرغم من أنها تحمل بصورة واضحة عنواننا التلغرافى، الذى كنت قد كتبته بدقة بمجرد أن أقمنا فى مكتبنا. كانت البرقية تتضمن ثلاث كلمات فقط: ٦٠ طنًا مدفوعًا، ففهمت فى الحال، فلم يكن من الصعب إدراك الأمر؛ حيث إن سلفات النحاس

كانت الصفقة الكبرى الوحيدة التى تفاوضنا عليها. فقلت له: من الواضح من تلك البرقية أن السعر، الذى قمنا بتحديده لتنفيذ طلبنا، قد تحقق، وهكذا أصبحنا ملاكًا سعداء لستين طنًا من سلفات النحاس.

احتج جويدو قائلاً:

- كيف لهم أن يظنوا أنّى سأوافق بعد طول هذه المدة على تنفيذ هذا الطلب؟

على الفور أخذت أفكر أنه لابد أن خطاب التصديق على البرقية الأولى موجود فى مكتبنا، فى حين كان جويدو لا يتذكر أننا قمنا بتسلمه. اقترح، وهو مضطرب، أن نسرع إلى المكتب فى الحال لنرى إن كان هناك، وراق هذا الاقتراح لى كثيراً حيث كانت تزعجنى تلك المناقشة أمام أوجوستا التى لم تكن تعلم أنّى لم أذهب إلى المكتب منذ شهر.

أسرعنا إلى المكتب. كان جويدو مستاءً جداً؛ حيث وجد نفسه ملتزمًا بتلك الصفقة الأولى الكبيرة، ولكى يتخلص منها، ربما تحتم عليه أن يعود إلى لندن. فتحنا المكتب؛ ثم وجدنا، ونحن نتحسس فى الظلام، الطريق نحو حجرتنا، ووصلنا إلى المصباح لإنارته. حينئذ وجدنا الخطاب على الفور وكان به ما توقعته من قبل؛ إنه يخبرنا أن طلبنا السارى ما لم يتم إلغاؤه تم تنفيذه.

حدق جويدو فى الخطاب وقطب جبينه، ولا أدرى إن كان استياءً منه أم جهداً أراد به أن يلغى بنظرته ما تم إخطارنا به بالبرقية بكلمات بسيطة جداً.

– علمًا بأنه – عقب قائلاً – كانت تكفى مجرد كلمتين موجزتين لتجنب خسارة كهذه!

مما لا شك فيه أنه لم يكن لومًا يوجهه لى، حيث كنت متغيبًا عن المكتب، وعلى الرغم من أنّى تمكنت من العثور فورًا على الخطاب لعلمى بالمكان الذى لابد أن نجده فيه، فإننى لم أكن قد رأيته قط قبل ذلك الحين. وحتى أبرئ نفسى كليًا من أى لوم، وبخته بنبرة حاسمة قائلاً:

– فى أثناء غيابى كان عليك أيضًا أن تقرأ بدقة الخطابات جميعها!

استرخى جبين جويدو. رفع منكبيه وهمس:

– ربما آلت تلك الصفقة أيضًا إلى الثراء.

تركنى بعد قليل فعدت إلى منزلى.

لكن تاشيك كان على صواب: ففى بعض المواسم يهبط سعر سلفات النحاس كثيراً، وكان يهبط كل يوم أكثر فأكثر، وأتيحت لنا الفرصة للانتباه للظاهرة بأكملها، ذلك فى تنفيذ طلبنا وعدم إمكانية التنازل عن البضاعة بذلك السعر لآخرين. وارتفعت قيمة خسارتنا. سألنى جويدو النصيحة فى اليوم الأول. كان يمكن أن يبيع بخسارة قليلة مقارنةً بالخسارة التى كان عليه أن يتكبدها فيما بعد. لم أرد أن أعطيه نصائح، لكنّى لم أغفل أن أذكّره باعتقاد تاشيك الراسخ بأن انخفاض السعر كان لابد وأن يستمر لأكثر من خمسة شهور. ضحك جويدو قائلاً:

– هذا حقًا ما كان ينقصنى، أن يوجِّهنى قَروى فى أعمالى!

أذكر أنّى حاولت مراجعته رغم ذلك، وأن أخبره أن ذلك القروى كان يقضى وقته منذ عدة سنوات فى البلدة الدلماسية الصغيرة لدراسة سلفات النحاس. إنّى لا أقوى على الإحساس بأى أسف إزاء الخسارة التى تكبدها جويدو فى تلك الصفقة. ولو أنصت إلىَّ لأمن منها.

تناقشنا فيما بعد فى صفقة سلفات النحاس مع أحد العملاء: رجل بدين قصير القامة، وذو حيوية وفِطنة، وقد وجَّه لنا اللوم فى عملية الشراء تلك، لكن يبدو أن رأيه لم يكن موافقًا لرأى تاشيك. كان يرى أن سلفات النحاس، على الرغمْ من أنها كانت لها سوقها الخاصة، فهى تتأثر بتقلب أسعار المعدن. حظى جويدو ببعض الثقة من ذلك اللقاء. ورجا العميل أن يخبره بتقلبات السعر؛ كان ينتظر راغبًا فى البيع دون خسارة وحسب، بل وبقليل من الربح. ضحك العميل فى وقار، ثم قال فى أثناء الحديث كلمة دونتها؛ لأنّى رأيتها غاية فى الصدق:

- من الغريب أن أناسًا قليلين فى هذا العالم يستسلمون أمام خسارات صغيرة؛ فالخسارات الجسيمة فقط هى التى تدفعنا إلى الاستسلام الكبير.

لم يقم جويدو للأمر وزنًا. غير أنه أدهشنى كذلك، حيث لم يقص على العميل أى طريق سلكناه للوصول إلى تلك الصفقة. أخبرته بذلك فشعر بالزهْو. وقال لى إنه كان يخشى، إذا ما حكى قصة الصفقة أن نفقد سمعتنا، ونقلل من قيمة بضاعتنا أيضًا.

ثم مر وقت طويل لم نعد نتحدث عن السلفات، إلى أن وصل إلينا من لندن خطاب يدعونا إلى التسديد وإعطاء التعليمات بشأن الشحن، أى تسلم ستين طنًا وتخزينها! بدأ جويدو يشعر بدوار، قمنا بحساب النفقات التى تلزم للاحتفاظ بهذه البضاعة لشهور عديدة، مبلغ ضخم! لم أتفوه بشىء، لكن الوسيط الذى كان سيترقب وصول البضاعة إلى تريستى، حيث سوف توكل إليه عاجلاً أو آجلا مهمة بيعها، لفت انتباه جويدو إلى أن ذلك المبلغ الذى يراه ضخمًا، ليس شيئًا خطيراً إذا ترجم إلى نسب «الأرباح» من قيمة البضاعة.

أخذ جويدو يضحك؛ لأن الملاحظة بدت له غريبة:

– أنا لا أملك مائة من الكيلو جرامات من السلفات؛ لدىّ أطنان منها، مع الأسف!

ولولا هاجس خطر بباله آنذاك، كاد يقتنع بحسابات العميل، التى كانت سليمة بالتأكيد، حيث إن تغييراً هيِّنًا فى اتجاه ارتفاع السعر، كان يكفى لتغطية النفقات من الفوائد. فقد لاحت له فكرة تجارية استلهمها من وحى أفكاره، وقد سيطرت عليه حتى لم يبق فى ذهنه متسع لاعتبارات أخرى. هاهى ذى فكرته: تم بيع البضاعة له معفاة من مصاريف النقل حتى تريستى، من قبل أناس عليهم أن يدفعوا نقلها من بريطانيا. فلو أنه باع حينئذ البضاعة لتجارها ذاتهم الذين سيوفرون بالتالى نفقات هذا النقل، لاستطاع أن ينتفع بسعر أفضل بكثير مما عُرض عليه فى تريستى. لم يكن الأمر كذلك حقًا، لكن أحداً لم يناقشه، إرضاء له.

وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة ما إن تم تصفية الصفقة، حيث بدا فى تلك اللحظة مثل مفكر متشائم، وقال:

- لن نتحدث عنها على الإطلاق. كان الدرس غالياً بما يكفى؛ علينا الآن أن نتعلم كيف نستفيد منه.

لكنه عاد يتحدث عنها. لم يعد يتحلى بثقته القوية تلك فى رفض الصفقات. وعندما أطلعته فى نهاية العام على كم الأموال التى خسرناها، أخذ يهمس:

- إن سلفات النحاس اللعينة تلك تسبب لى كارثة! ما أزال أشعر بحاجتي إلى أن أبرأ من تلك الخسارة!

تسبب هجر كارلا لى فى غيابي عن المكتب. لم أعد أتحمل مشاهد غرام كارمن وجويدو. كانت نظراتهما تتلاقى، وكانا يتبادلان الابتسامات في وجودى. انصرفت معبراً عن ازدرائى، وقد اتخذت قراراً فى المساء في أثناء غلق المكتب دون أن أذكر لأحد عنه شيئًا. كنت أنتظر أن يسألنى جويدو عن سبب هذا الابتعاد، وكنت مستعداً حينئذ لأصارحه بما كان منه. كنت قادراً على معاملته بشدة، بما أنه لم يكن يدرى شيئًا على الإطلاق عن جولاتى فى الحديقة العامة.

كان موقفي نوعًا من الغَيرة؛ لأن كارمن كانت تبدو لى مثل كارلا بالنسبة لجويدو، كارلا أخرى أكثر وداعةً واستسلاماً. كان الحظ يحالفه أكثر منّى مع المرأة الثانية أيضاً، مثلما حدث مع الأولى. ولعل ما دفعنى

لأعيبه مرة أخرى، هو أن حظه ذاك كان يرجع إلى صفاته التى كنت أحسده عليها، وكنت ما أزال أراها قليلة الشأن: طلاقته التى تسرى فى حياته بالتوازى مع ثقته بالعزف على الكمان. كنت على يقين فى ذلك الحين من أنّى تخليت عن كارلا من أجل أوجوستا. كلما كنت أذهب بعيداً بفكرى إلى هذين العامين من السعادة اللذين منحتهما لى كارلا، كان يصعب علىَّ إدراك كيف استطاعت - وهى على شخصيتها التى عرفتها بها آنذاك - أن تتحملنى طوال هذا الوقت. ألم أتسبب أنا فى إهانتها كل يوم من أجل حبى لأوجوستا؟ فى حين كنت أعلم عن يقين أن جويدو يعرف كيف يستمتع بكارمن دون التفكير بآدا على الإطلاق. إن وجود امرأتين فى قلبه الطليق لا يصيبه بالتخَمة. عندما كنت أقارن نفسى به، كان يبدو لى أنّى برىء حقًا. لقد تزوجت من أوجوستا بلا حب، وعلى الرغم من هذا لم أقوَ على خيانتها دون أن أشعر بالألم من أجلها. ربما تزوج هو أيضًا آدا دون أن يحبها، لكنّى - على الرغم من أنّى لم أعد الآن أبالى بآدا على الإطلاق - كنت أتذكر الحب الذى ولّدته بداخلى، وأرى أننى لو كنت فى مكانه، وعلى قدر الحب الكبير الذى كنت أكنه لها، لكنت أكثر لطفًا تجاهها عما أنا عليه الآن.

لم يأتِ جويدو ليبحث عنّى. بل عدت أنا من تلقاء نفسى إلى المكتب؛ بحثًا عما يخفِّف عنِّى إحساسى بملل شديد. جاء تصرفه بمقتضى شروط العقد بيننا، والتى تنص على أنّى غير ملزم بمزاولة نشاط منتظم فى إدارة أعماله، وكلما تقابل معى فى البيت أو فى أى مكان آخر، كان

يظهر لى صداقته الحميمة التى اعتدتها منه، وكانت تشعرنى دائمًا بالامتنان له، وبدا وكأنه نسى أنّى تركت المقعد الذى اشتراه من أجلى فى ذلك المكتب شاغراً. لم يكن بيننا سوى شعور واحد بالحرج: ذلك كان من جانبى أنا. عندما عدت إلى مكانى احتفى بى، كأنما تغيبت فقط ليوم واحد، عبّر بحرارة عن سروره لاستعادة رفقتى مرة ثانية، وعندما سمع قرارى فى استئناف عملى، صاح:

– إذن لقد أحسنت صنيعًا عندما لم أسمح لأحد أن يمس دفاترك!

وبالفعل وجدت دفتر الأستاذ والجريدة أيضًا فى المكان الذى تركتهما به.

قال لى لوتشانو:

– نأمل، وسيادتكم بيننا الآن، أن نتحرك من جديد؛ فإننى أظن أن السيد جويدو قد وهَن عزْمه بسبب صفقتين سعى وراءهما، وباءتا بالفشل. لا تقولوا له شيئًا عما دار بيننا، ولكن إن أردتم حاولوا أن تشدوا من أزْره.

أدركت بالفعل أن العمل فى ذلك المكتب كان قليلاً؛ حيث إن الخسارة التى تكبدها من سلفات النحاس أفقدته الحياة، التى كانت تمر فيه حقًا هادئة ناعمة. وعلى الفور استخلصت من كل هذا أن جويدو لم يعد بحاجة إلى العمل لكى يقود كارمن تحت إدارته، خاصةً وأنه بالسرعة ذاتها، قد مضت فترة الغزل بينهما، وصارت عشيقته منذ حين.

أدهشني احتفاء كارمن بي؛ لأنها أرادت على الفور أن تذكرني بشيء نسيته تمامًا. يبدو أنّي قبل أن أغادر ذلك المكتب، جريت وراء نساء كثيرات في تلك الأيام، حيث كان من المحال عليّ أن أصل إلى فتاتي، وبذلك تعرضت أيضًا لكارمن. تحدثت إليّ بجِدية شديدة وبشيء من الارتباك: لقد أسعدتها رؤيتي ثانيةً؛ لأنها كانت تعتقد أنّي أحب جويدو وربما كانت نصائحي مفيدة له، وكانت ترغب في الاحتفاظ بصداقة صادقة معي، أخوية، متى وافقتها في ذلك. قالت لي شيئًا من هذا القبيل، وصافحتني بيمينها في مبادرة جميلة، وعلى وجهها رائع الحسن، الذي كان يتسم بالعذوبة والوداعة، ارتسم تعبير جاد حاسم يكشف عن الأخوة المجرَّدة بالعلاقة التي عرضتها لتوها عليّ. في تلك اللحظة استعدت الأحداث بذاكرتي فاحمرَّ وجهي. ربما لو تذكرت ذلك من قبل، لما عدت إلى ذلك المكتب على الإطلاق. كان حدثًا لم يستغرق وقتًا طويلاً، وتاه وسط أحداث أخرى عديدة لها الوزن نفسه، ولو لم أتذكره حينئذ، لخيل لي أنه لم يحدث قط. توالت أيام قلائل بعد هجْر كارلا لي، وأخذت أتفحص الدفاتر بمساعدة كارمن شيئًا فشيئًا، ولكي أرى جيدًا في الصفحة نفسها، مررت ذراعي حول خَصرها، ثم ضغطت عليه أكثر فأكثر. تخلصت كارمن منّي بوثبة، فغادرت عندئذ المكتب.

كان في استطاعتي أن أدافع عن نفسي بابتسامة، وأحملها على الابتسام، فالنساء يملن كثيرًا إلى الابتسام من حماقات مماثلة! كنت أستطيع أن أقول لها:

– حاولت فعل أمر لم أوفَّق فيه وأنا آسف عليه، ولا أحمل لكِ أية ضغينة، وأريد أن أكون صديقًا لكِ، إلى أن يروقك خلاف ذلك.

أو كان من الممكن أن أجيب كذلك بجِدية، وأقدِّم اعتذارى لها ولجويدو أيضًا:

– فلتلتمسوا لى العذر، ولا تحكموا علىَّ قبل أن تعلموا الحالة التى كنت عليها فى تلك اللحظة.

على عكس ذلك لقد فارقتنى الكلمات. انغلق حلقى – أعتقد ذلك – نتيجة شعور بالسخط تجمد بداخلى، ولم أستطع الكلام. هؤلاء النساء اللاتى امتنعن علىَّ بحسم صبغن جميعهن حياتى حقًا بلمسة مأساوية. لم أمر مطلقًا بفترة تعسة كهذه. وبدلاً من إيجاد مخرج لم يكن بوسعى سوى أن أصُرَّ بأسنانى، كان الأمر شاقًا، وكان علىَّ أن أخفيه. ربما لم تسعفنى الكلمات أيضًا من الألم، عندما رأيته ينأى عنِّى، وكان علىَّ أن أخفيه ذلك الأمل الذى كان مع ذلك يراودنى وعلى هذا النحو وبصورة نهائية. ينبغى الاعتراف بما يلى: لم يكن هناك أفضل من كارمن لاستبدال العشيقة التى فقدتها، تلك الفتاة التى لم تكن تشكل إلاّ خطورة بسيطة جداً، ولم تطلب منِّى إلا السماح لها بأن تعيش إلى جوارى إلى أن سألتنى ألاَّ ترانى ثانيةً. إن عشيقة لاثنين تصبح عشيقة بلا مخاطر. مما لا شك فيه أن أفكارى لم تكن واضحة لى بصورة جيدة فى ذلك الوقت، بل كنت أشعر بها فقط والآن عرفتها. فلو كنت قد أصبحت رفيقًا لكارمن،

لأحسنت صنيعًا بالنسبة لآدا، ولما ألحقت ضررًا كبيرًا بأوجوستا. ولكانت خيانتهما بالتأكيد أقل عما إذا اتخذ كل منا، أنا وجويدو امرأة كاملة له.

أعطيت إجابتى لكارمن بعد عدة أيام، لكنِّى إلى اليوم أخجل منها. إن حالة الإثارة التى ألقانى فيها هجر كارلا لى كان لابد أنها أوصلتنى إلى شىء مثل ذلك. وإنِّى نادم على ذلك ندمًا لم أشعر به على أى شىء آخر فعلته فى حياتى. فالكلمات القاسية التى تفلت منا تؤلمنا بشدة أكثر من الأعمال الشائنة التى تقودنا إليها أهواؤنا. أشير بالطبع إلى الكلمات فقط التى ليست أفعالا، لأنِّى على يقين من أن كلمات چاجو[1]، على سبيل المثال، كانت فى حد ذاتها أفعالاً حقيقية. لكن الأفعال، وبما فيها كلمات چاجو، ترتكب لنحظى منها بمتعة أو منفعة، وعندئذ فإن الجسم بكامله، بما فى ذلك الجزء الذى سينصب نفسه بعد ذلك حكمًا، سيشارك فيها؛ وبالتالى سيصبح قاضيًا متسامحًا بدرجة كبيرة. فى حين يتصرف اللسان الأحمق من تلقاء نفسه إرضاءً لأجزاء صغيرة فى الجسم، تشعر بدونه بالهزيمة، وتتجه نحو التظاهر بالدخول فى صراع انتهى وخسرت جولته. أيريد أن يجرح أم يرغب فى المداعبة. إنه يتحرك دائمًا وسط تعبيرات مجازية هائلة. وعندما تكون الكلمات حارقة فإنها تلسع من تلفظ بها.

---

(١) شخصية بارزة فى عطيل لشكسبير.

لاحظت أنها لم تعد تتمتع بالألوان التى عجلت بقبولها فى مكتبنا. تخيلت أنها تلاشت من جراء معاناة لم أقبل أن أتصورها، ربما كانت جسدية، وعزوتها إلى حب جويدو؛ وذلك لأننا نحن الرجال نميل كثيراً إلى رثاء النساء اللاتى يستجبن لآخرين. لا نرى أية فائدة يمكن أن يجنينها منهم. ربما نستطيع أن نحب الرجل المعنى بالأمر كما حدث فى حالتى – لكننا لا نريد أن ننسى كذلك كيف تنتهى فى المعتاد مغامرات الحب. شعرت إزاء كارمن بشفقة صادقة، لم أشعر قط بمثلها نحو أوجوستا أو كارلا. قلت لها:– حيث إنك دعوتنى فى رقة إلى أن أكون صديقًا لكِ، فهل لى بأن أقدم لكِ بعض النصائح؟

لم تسمح لى بذلك؛ لأنها، مثل النساء جميعهن فى تلك المواقف الحرجة، ظنت أن كل تحذير منِّى سيكون بمثابة اعتداء. احمرَّ وجهها وتلعثمت قائلة: – لا أفهم! لمَ تقول هذا؟ وعلى الفور مباشرة، لكى تسكتنى: – عندما أكون فى حاجة إلى نصائح سألجأ دون شك إلى سيادتكم، يا سيد كوزينى.

وعلى هذا النحو لم تتح لى الفرصة أن أعظها بما أردت، وكان ذلك خسارة بالنسبة لى. فالحديث معها عن مقصدى كان بلا شك سيوصلنى إلى درجة رفيعة من الصدق، ربما وأنا أحاول أن آخذها بين ذراعى مرة ثانية. لم يعد صدرى يضيق من رغبتى فى اتخاذ مظهر المعلم المخلص الكاذب.

أصبح جويدو لا يأتى إلى المكتب فى أيام عديدة من كل أسبوع، حيث شغف بهواية صيد البر والبحر. أما أنا، فبعد عودتى، أصبحت لبعض الوقت مداومًا عليه، وانشغلت كثيراً بتحديث الدفاتر. كثيراً ما كنت بصحبة كارمن ولوتشانو اللذين كانا يعتبراننى بمثابة رئيس عملهما. كان لا يبدو لى أن كارمن تتألم لغياب جويدو، وهيئ لى أنها تحبه لدرجة أنها تسعد عندما تعلم أنه يلهو. لابد أنها كانت أيضًا على علم بالأيام التى كان يتغيب فيها؛ لأنها كانت لا تخيب أى انتظار به شغف. علمت من أوجوستا أن آدا كانت فى صورة مختلفة عنها، حيث كانت تشكو بمرارة من تغيب زوجها المتكرر. بل إن تلك لم تكن شكواها الوحيدة. ومثل النساء غير المحبوبات جميعهن، كانت تشكو بنفس الانفعال أمام إهانة، كبيرة كانت أو تافهة. لم يخنها جويدو فحسب، بل كان يعزف دائمًا على آلة الكمان كلما كان بالمنزل. ذاك الكمان، الذى تألمت منه كثيراً، كان أشبه بسهم أخيل لتنوع أدائه. بلغنى أنه قد مر أيضًا بالمكتب، حيث بدأ غزل كارمن بتعبيرات رائعة فى موسيقى «باربييرى»[1]. ثم غاب الكمان ثانيةً، حيث لم تعد هناك ضرورة له بالمكتب، وعاد إلى المنزل لينقذ جويدو من الشعور بالملل، حيث كان عليه أن يتحدث مع زوجته.

ثم لم يحدث بينى وبين كارمن شىء على الإطلاق. سرعان ما تملكنى شعور مطلق بعدم الاهتمام بها، كأنما تغيرت طبيعتها،

---

(١) باربييرى دى سيفيليا: ميلودراما شهيرة لروسّينى (١٧٩٢-١٨٦٨).

وهو إحساس مماثل لما كنت أشعر به إزاء آدا . إحساس بشفقة متقدة لكلتيهما ولا شيء خلاف ذلك. كان ذاك بالتحديد!

أخذ جويدو يغمرني بمعاملة مهذبة. أظن أنه تعلم من الشهر الذى تركته فيه بمفرده كيف يقدِّر صحبتي. فصُحبة فتاة مثل كارمن يمكن أن تكون محببة بين الحين والآخر، لكن لا يمكن احتمالها لأيام كاملة. دعاني إلى الذهاب معه فى رحلات الصيد البرى والبحرى، ولأنني أبغض الصيد البرى رفضت بحسم أن أصاحبه إلى هناك. فى حين دفعني الملل، ذات مساء، إلى الذهاب معه لصيد الأسماك. ليس هناك تواصل بيننا وبين السمك؛ ولذلك لا يستطيع أن يثير فينا الشفقة، حتى حينما يفتح فاه ويغلقه وهو سالم وفى مأمن تحت الماء! كما أن الموت لا يغير شكله. فآلامه، إن وجدت، تواريها تمامًا قشوره. وعندما دعانى ذات يوم إلى رحلة صيد ليلية، تذرعت بأني سوف أرى إن أذنت لى أوجوستا بالخروج فى ذلك المساء والبقاء خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل. قلت له إنِّى أتذكر أن زورقه سينطلق من رصيف سارتوريو فى التاسعة مساءً، وإنِّى متى أمكنني الذهاب سأكون هناك، إذا ما أمكنني ذلك؛ ومن ثم ظننت أنه بالتأكيد قد عرَف على الفور أنه لن يراني مرة أخرى فى تلك الأمسية، وأنني لن أذهب إلى الميعاد كما فعلت مرات أخرى عديدة.

ولكن حدث فى ذلك المساء أن صراخ طفلتي أنتونيا قد أبعدني عن البيت. فقد كان صراخها يزداد كلما كانت أمها تداعبها . بحثت عن أحد أساليبي المتمثل فى الصياح بكلمات وقحة فى أذن تلك الماكرة الصغيرة

التى لا تكف عن الصراخ. وحصلت منه على نتيجة واحدة، وهى أن إيقاع صراخها قد تغير؛ لأنها أخذت تصيح من الفزع. كان علىّ أن أبحث عن أسلوب آخر أقل شدة، لكن أوجوستا تذكرت فى الوقت المناسب دعوة جويدو فاصطحبتنى إلى الباب، ووعدتنى بأن تخلد إلى النوم بمفردها لو لم أعد إلى البيت إلاّ فى ساعة متأخرة. بل وعدت أيضًا، لكى تصرفنى بعيدًا عن المنزل، بأنها سوف تتحمل تناول القهوة دون أن أكون بصحبتها فى صباح اليوم التالى، إذا بقيت خارجه حتى ذلك الحين. كان هناك خلاف هيّن بينى وبين أوجوستا – وكان الخلاف الوحيد – حول أسلوب التعامل مع الأطفال المثيرين للإزعاج: فأنا أرى أن الألم الذى يشعر به الطفل أقل أهمية من آلامنا، ويستحق أن نشعرهم به حتى نجنِّب الكبار إزعاجًا كبيرًا، أما بالنسبة لها فيتعين علينا، بما أننا أنجبنا أطفالاً، أن نحتملهم أيضًا.

كان لدىّ الوقت الكافى للوصول فى الموعد، فمررت على مهلٍ بالمدينة وأنا أشاهد النساء، وفى الوقت نفسه أفكر فى ابتكار آلة خاصة، من شأنها أن تمنع أى خلاف بينى وبين أوجوستا. ولكن البشرية لم تكن متحضرة بما يكفى لتحقيق آلتى تلك. كانت آلتى تصلح للمستقبل البعيد، ولم تكن لتقدر على مساعدتى إلاَّ فى أن تكشف لى لأى سبب تافه كان يحدث شجار بينى وبين أوجوستا: إنه عدم وجود مجرد آلة صغيرة! إنها آلة بسيطة، أشبه بعربة ترام منزلية، مقعد صغير مزوَّد بعجلتين وسكة حديدية تمضى طفلتى عليه يومها: ثم زر كهربائى متى ضغط عليه يجرى

المقعد بعيداً والطفلة به، وهى تصرخ حتى تصل إلى أبعد مكان بالمنزل، حيث يتخافت صوتها من هذا البعد، إلى أن يبدو لنا مقبولاً. ونمكث أنا وأوجوستا معًا فى راحة وتعاطف.

كانت ليلة زاخرة بالنجوم وخالية من القمر، ليلة من تلك الليالى التى نرى فيها بعيداً جداً على مرمى البصر، فهى ليلة هادئة تبعث الطمأنينة. تأملت النجوم التى شعرت أنها ما زالت تحمل أثر نظرة وداع والدى وهو يحتضر. تخيلتها تنقضى تلك الفترة المكروهة التى يتسخ فيها أطفالى ويصرخون. رأيت أنهم قد يشبهوننى، وسأحبهم بما يقتضى الواجب ودونما عناء. فى الليل البديع الرحب سكنت نفسى تمامًا دون حاجة إلى عقد أية نيّات.

عند زاوية رصيف سارتوريو كانت الأضواء قادمة من المدينة يقطعها منزل قديم تبرز منه الزاوية ذاتها التى تدخل فى أساساته. كان الظلام حالكًا، وكانت المياه العالية الداكنة الهادئة تبدو لى فى حالة استرخاء.

لم أعد أنظر إلى السماء ولا البحر. كانت هناك على بعد خُطوات قليلة منِّى سيدة أثارت دهشتى بحذائها المطلىّ الذى لمع للحظة فى الظلمة الدامسة. فى ذلك الحيز الضيق من الوقت وفى ظلام الليل، خلتُ تلك المرأة طويلة القامة وربما الأنيقة أيضاً، فى حجرة معى. فالمغامرات الأكثر متعة ربما نُصادفها عندما لا نفكر بها كثيراً، وعندما رأيتها فجأة تدنو عْمداً تملكنى للحظة إحساس ممتع للغاية، وسرعان ما تلاشى

عندما سمعت صوت كارمن ذا البحة. كانت ترغب فى التظاهر بالسرور، عندما علمت أنِّى أنضم إلى جماعتهم. لكن فى دجنة الليل وبنبرة الصوت تلك لم تكن هناك إمكانية للتظاهر.

قلت لها بجفاء:

– لقد دعانى جويدو. لكن إذا شئتم فإن لدىَّ أشياء أخرى أقوم بها، وأدعكم وشأنكم!

احتجت، وقالت إنها على العكس سعيدة لرؤيتى مرة ثالثة فى ذلك اليوم. أخبرتنى أن أعضاء المكتب جميعهم سيلتقون فى ذلك الزورق؛ حيث يأتى أيضًا لوتشانو. الويل لصفقاتنا لو غرق الزورق! قالت لى إن لوتشانو معهم أيضًا، حتمًا لتقيم الدليل على براءة اللقاء: ثم أخذت تثرثر بذلاقة لسانها، فى بادئ الأمر قالت لى إنها المرة الأولى التى تذهب فيها مع جويدو للصيد، ثم اعترفت أنها المرة الثانية. استرسلت لتقول إنه يسرُّها أن تجلس فى «قاع» الزورق، فأدهشنى أنها تعرف ذلك المصطلح؛ ومن ثم أرادت أن تعترف لى أنها تعلمته فى المرة الأولى التى خرجت فيها للصيد مع جويدو.

– فى ذلك اليوم – أضافت لكى تكشف عن البراءة التامة بالجولة الأولى تلك – ذهبنا لصيد سمك الماكريل، ولم نصطد الدنيس. وكان ذلك فى الصباح.

أمر مؤسف أننى لم أنل الوقت الكافى لأجعلها تقصُّ أكثر من ذلك، حتى أتمكن من معرفة كل ما يهمنى، حيث ظهر زورق جويدو وسط

ظلمة منطقة ساكنًا، واندفع نحونا بسرعة. أخذ الشك ينتابنى. ألم يكن علىَّ أن أبتعد منذ اللحظة التى جاءت فيها كارمن؟ ربما لم يكن فى نية جويدو مطلقًا أن يدعو كلينا معًا؛ حيث أذكر أنِّى رفضت تقريبًا دعوته. فى غضون ذلك رسا القارب، وبثقة شبابها حتى فى الظلام الدامس، نزلت به كارمن، وأهملت أن تستند إلى يد لوتشانو الذى كان يمدُّها لها. صاح جويدو، عندما ترددت، قائلاً:

- لا تُضيعْ وقتنا!

وبوثبة قفزت أنا أيضًا داخل القارب. كادت وثبتى تكون لا إرادية: نتيجة لصراخ جويدو. كنت أنظر إلى الأرض اليابسة برغبة شديدة، لكن لحظة تردد واحدة كانت كافية لتمنعنى من النزول من القارب. أفضى بى الأمر إلى أن جلست عند مقدمة القارب الصغير. عندما اعتدت على الظلمة، رأيت فى المؤخرة، جويدو يجلس فى مواجهتى، وعند قدميه تجلس كارمن بالقاع الخشبى. كان يفصل بيننا لوتشانو، الذى كان يبحر بنا. لم أكن أشعر باطمئنان أو بارتياح كبير فى الزورق الصغير، لكن سرعان ما تعودت عليه، وتأملت النجوم التى سكَّنت من روعى مرة أخرى. حقًا لم يكن جويدو ليخاطر بخيانة آدا فى حضور لوتشانو - وهو خادم وفىٌّ لأسرة أزواجنا -وبالتالى لم يكن هناك ضرر أن أبقى معهم. كانت رغبتى شديدة فى الاستمتاع بتلك السماء، وذلك البحر وبالسكون الفسيح. لو ساورنى شعور بالأسف على ذلك ومن ثم بالمعاناة، لكان الأجدر بى أن أبقى فى منزلى لأتعذب من الصغيرة أنتونيا.

لقد ملأ الهواء الليلى الطلق رئتى، وأدركت أنِّى أستطيع أن أجد سلواى مع جويدو وكارمن، اللذين كنت حقًا أشعر نحوهما بودٍّ صادق.

مررنا أمام المنار، ووصلنا إلى عرض البحر. على بعد ميل منَّا كانت تبرق أضواء زوارق شراعية عديدة: لقد كانوا ينصبون هناك فخاخًا أخرى كثيرة للسمك. ومن بانيوميليتارى - وهو بناء ضخم قوى، أعمدته قاتمة اللون - أخذنا نتحرك جيئة وذهابًا بطول ساحل سانتاندريا، وهو المكان الذى يؤثره الصيادون. كانت قوارب أخرى عديدة تتحرك بالقرب منّا، وبنفس طريقتنا فى هدوء. أعدَّ جويدو ثلاث صنانير وطعَّم كل صنَّارة بجمبرى صغير الحجم مثبت من ذيله. أعطى كل واحد منَّا صنارة وقال إن صنارتى، عند المقدمة - وهى الوحيدة المزوَّدة بثقالة رصاصية - وسوف يفضلها السمك. فى الظلام الحالك لمحت الجمبرى بذيله الذى نفذ فيه الشص كغمد السيف وهيئ إلىَّ أنه يحرك ببطء الجزء العلوى لجسمه، ذلك الجزء الذى لم يتحول إلى جراب له. بدا لى من هذه الحركة وكأنه مغرق فى التفكير وليس متوجعًا من الألم. ربما ما يسبب الألم فى الأجسام الكبيرة يتضاءل فى الصغيرة إلى الحد الذى يصبح فيه تجربة جديدة، حافزًا للتأمل. أنزلته فى الماء، وأخذت أنزله فيه عمق عشر أذرع كما أخبرنى جويدو. أنزل كارمن وجويدو من بعدى صنَّارتيهما. فى تلك اللحظة كان جويدو لديه أيضًا عند المؤخرة مجداف يدفع به القارب بالمهارة اللازمة حتى لا تتشابك الصنانير. ويبدو أن لوتشانو لم يكن معدًا بعد لقيادة القارب بتلك البراعة،

فضلاً عن أنه كانت عليه مهمة الشبكة الصغيرة ليرفع السمك المعلق بالصنَّارة من على سطح الماء. ظلَّ لوقت طويل دون أن يجد ما يعمله. كان جويدو يُثرثر كثيراً. من يدرى ربما لم يولع بكارمن إلاَّ بدافع شغفه بالتعليم وليس من دافع الحب. كنت أودُّ ألاَّ أستمع إليه حتى أعاود التفكير فى الحيوان الصغير الذى أعرِّضه لشراسة الأسماك، وهو معلق فى الماء ليجذب نحوه السمك بصورة أفضل بإيماءات رأسه الصغير، ذلك إذا ما استمر أيضًا فى إيماءاته تحت الماء. لكن جويدو نادى علىَّ مرَّات كثيرة وكان علىَّ أن أستمع إلى نظريته فى الصيد. سيلمس السمك الطُّعم أكثر من مرة وسنشعر به، لكن علينا أن نحذر فى جذب الصنَّارة إلاَّ عندما يكون خيطها مشدوداً، وعندئذ علينا أن نكون مستعدين للشدة التى سوف تغرز الصنَّارة تمامًا فى فم السمك. كان جويدو مسهبًا، كعادته، فى إيضاحاته. كان يريد أن يفسِّر لنا بوضوح ما ستحسه أيدينا، عندما يشم السمك الصنَّارة وبها الطعم. وأخذ يواصل عملية الشرح فى حين كنَّا نعرف، عن خبرة سابقة، أنا وكارمن وقع الذبذبات التى تكاد تكون صوتية على اليد فى كل تعامل مع الصنَّارة. كان علينا أن نسحب الصنَّارة مرات كثيرة لتغيير الطعم. وانتهى الأمر بالحيوان الصغير المفكِّر إلى أن استسلم فى شدق سمكة من الأسماك الماهرة التى تتقن تجنُّب الصنَّارة.

كان على متن القارب بعض زجاجات البيرة والسندوتشات. أخذ جويدو يُضفى على كل ذلك ثرثرته التى لا تنتهى. فى تلك الأثناء كان

يتحدث عن الثروات الضخمة التى ترقد داخل البحر. لم يكن الأمر يتعلق، مثلما اعتقد لوتشانو، بالأسماك أو بالثروات التى أغرقها فيه الإنسان. هناك الذهب فى مياه البحر ذائبًا. وفجأة تذكر أنِّى قد درست الكيمياء، فقال لى:

– وأنت أيضًا لابد أنك تعرف شيئًا عن هذا الذهب.

لم أكن أتذكر عنه الكثير، لكنِّى أومأت برأسى بالموافقة، وخاطرت بإبداء ملاحظة لم أكن واثقًا من مصداقيتها. أدليت بها قائلاً:

– إن تكلفة استخراج ذهب البحر هى أغلى التكاليف. وللحصول على مقدار نابليون واحد من ذلك الذهب الراقد هنا ذائبًا فى مياه البحر، ينبغى إنفاق قيمة خمس من تلك العملة.

بعد أن كان لوتشانو ملتفتًا إلىَّ فى لهفة ليسمع منِّى التأكيد بالثروات التى كنَّا نسبح عليها، استدار عنِّى وقد خاب أمله. ما عاد يبالى بذلك الذهب. فى حين صدَّق جويدو على ما قلته بأن تذكر أن سعر الذهب ذاك كان يعادل بالضبط خمسة أضعاف، مثلما قلت أنا بالفعل. أخذ يمتدحنى على نحو صريح مؤكدًا الرأى الذى أدليت به، وكنت أعلم أنه من وحى خيالى. كان واضحًا أنه كان يشعر بأنِّى قليل الخطر، ولم يكن بداخله ثمة ظل من غيرة من أجل تلك المرأة التى كانت مستلقية عند قدميه. وفى لحظة فكرت فى أن أضعه فى حرج، فأصرِّح له بأننى تذكَّرت حينئذ جيدًا أنه يكفى ما قيمته ثلاث عملات، أو أنه يلزم ما يصل إلى عشرة لكى نستخرج من البحر نابليونًا واحدًا.

واسترعت انتباهى فى تلك اللحظة صنارتى التى جذبتها بغتةً شدة قوية، فسارعت بشدها أنا أيضًا وصحت. جاء جويدو بوثبة واحدة بالقرب منِّى وأخذ الصنارة من يدى. تركتها له عن طيب خاطر. أخذ يجذبها إلى أعلى، بسحبات هينة أولاً، ثم بشدّات أقوى جذبها، عندما قلَّت المقاومة. ورأينا جسم الحيوان الفضِّى الضخم يتلألأ فى الماء الداكن. كان حينئذ يجرى خلف آلامه بسرعة ودون مقاومة؛ لهذا أدركت أيضًا آلام الحيوان الصامت، التى كانت تصرخ بها تلك العجلة فى جريه نحو الموت. وسرعان ما وجدته يفتح فاه ويغلقه عند قدمى. جذبه لوتشانو بالشبكة من الماء، وبعد أن انتزعه من الشبكة، ودون مراعاة له، نزع الشص من فمه.

جسَّ لوتشانو السمكة الضخمة قائلاً:

– سمكة دنيس تزن ثلاثة كيلوجرامات!

ووسط إعجابه بها قدر الثمن المطلوب فى سوق السمك حال شرائها. ثم نبهنا جويدو إلى أن المياه هادئة فى تلك الساعة، وسيصعب صيد أسماك أخرى. قال إن الصيادين يرون أن السمك لا يأكل، عندما لا ترتفع مياه البحر ولا تهبط، وبالتالى لا يمكن صيده. أخذ يتفلسف حول الخطر الذى يجابهه الحيوان وينجم عن شهيته. ثم أخذ يضحك، دون انتباه منه أنه يعرض نفسه للحرج، قائلاً:

– أنت الوحيد الذى استطعت أن تصطاد هذا المساء.

كانت ضحيتى لا تزال تتخبط داخل القارب، في اللحظة التى صرخت فيها كارمن. سأل جويدو دون أن يتحرك وبرغبة شديدة في الضحك يعبرٌ عنها صوته:

– سمكة دنيس أخرى؟

أجابت كارمن وهى مضطربة:

– كنت أعتقد هذا! لكنها قد تركت الصنَّارة!

أنا على يقين أنه قد قرصها، عندما تملَّكت منه رغبته.

عندئذ بدأت أشعر بعدم الارتياح فى ذلك القارب. لم تعد لدىّ رغبة فى تجهيز الصنَّارة، بل كنت أحركها بحيث لا تتمكن الحيوانات المسكينة من ابتلاع الطعم. صرَّحت بأن النعاس قد غلبنى، ورجوت جويدو أن ينزلنى بسانتاندريا. ثم حرصت على أن أزيل عنه الشك فى أن انصرافى ينجم عن انزعاجى بما تكشَّف لى من صراخ كارمن، فأخبرته بالحالة التى كانت عليها طفلتى فى تلك الليلة، ورغبتى فى التأكد أنها على ما يرام.

بدماثته المألوفة، دنا جويدو من الشاطئ. قدم لى السمكة التى اصطدتها، لكنِّى أبيت، واقترحت أن يهبها الحرية ثانيةً ويلقى بها فى البحر، الأمر الذى دفع لوتشانو للصياح محتجًا، فى حين قال جويدو فى هدوء:

– لو كان بإمكانى أن أعيد لها الحياة والصحة من جديد لفعلت. لكنها المسكينة فى هذه الساعة لا تنفع إلاَّ طعامًا فى طبق!

تابعتهما بعينى، وتمكنت من التأكد من أنهما لم يستفيدا من المساحة التى أفسحتها وأنا أترك القارب. كانا على ما يرام يجلسان متلاصقين، وانطلق القارب وقد ارتفعت مقدمته بعض الشىء بسبب زيادة الثقل بمؤخرته.

بدا لى عقاباً إلهيًا عندما علمت أن الحمَّى قد أصابت طفلتى. ألم أتسبب فى مرضها، عندما تظاهرت أمام جويدو بقلقى على صحتها، ولم أكن أشعر به؟ لم تكن أوجوستا قد خلدت إلى نومها بعد، لكن الطبيب باولى كان بالبيت قبل وصولى بقليل، وقد طمأنها بأنه على يقين أن الحمى المفاجئة الشديدة لا تنبئ بمرض خطير. مكثنا طويلاً نتأمل أنتونيا التى كانت ترقد مسترخية فى مهدها، ووجهها الصغير وقد جفَّت بشرته وزادت حمرته، يطل من بين خصلات شعرها البنِّى المتفرقة. لم تصرخ، بل كانت تئنُّ بين الحين والحين، أنيناً قليلاً يقطعه نُعاس ويتغلب عليه. ياإلهى! كم قرَّبها المرض منِّى. تمنيت أن أهبها من حياتى لأنجّيها من كرب أنفاسها. كيف أتخلص من ندمى؛ لأنّى ظننت أنّى قادر على ألاّ أحبها، فضلاً عن الوقت الذى أمضيته بعيداً عنها مع تلك الصُّحبة، عندما كانت هى تعانى من الألم؟

- إنها تشبه آدا! قالت أوجوستا وهى تنخرط فى البكاء. حقًّا كانت تشبهها! أدركنا ذلك للمرة الأولى فى تلك اللحظة، وأخذ التشابه يزداد وضوحًا رويداً رويداً، إلى أن كبرت أنتونيا، حتى إنّى كنت أشعر أحيانًا برجفة فى قلبى، عندما كنت أفكر أن مصيرها ربما يماثل مصير المسكينة التى تشبهها.

ذهبنا إلى مضجعنا، بعد أن وضعنا فراش الصغيرة بجوار أوجوستا . لكن النوم استعصى عليّ: لقد كان قلبي ضائقًا مثل تلك الليالي التي كانت تنعكس فيها زلاّتي التي كنت أقترفها في النهار في صورة خيالات ليلية مفعمة بالألم والندم. كان مرض طفلتي يؤثّر في نفسي كأنما تسببت فيه. قاومت! كنت بريئًا وأستطيع الكلام، وأن أقول كل شيء. وقد فعلت. قصصت على أوجوستا اللقاء مع كارمن، والمكان التي كانت تجلس فيه بالقارب، فضلاً عن صرختها التي تشككت في أنها كانت نتيجة لمداعبة عنيفة من قبل جويدو، وأنّي لم أكن على يقين من ذلك كله. لكن أوجوستا كانت واثقة منه. وإلاّ فلماذا، بعد ذلك مباشرةً، تغير صوت جويدو وهو يضحك؟ حاولت أن أخفّف من اقتناعها، لكنّي بعد ذلك كنت ما أزال بحاجة إلى أن أحكي. أدليت باعتراف آخر فيما يخصني، ووصفت شعوري بالملل الذي دفع بي خارج المنزل، وندمي على عدم حب أنتونيا بصورة أفضل. في الحال أحسست بتحسن وخلدت إلى نوم عميق.

في صباح اليوم التالي، تحسنت صحة أنتونيا؛ تكاد تكون برئت من الحمى. كانت ترقد ساكنة وأنفاسها هادئة، لكنها كانت شاحبة ومتعبة، كأنما أضناها مجهود فائق على جسمها الصغير؛ كان واضحاً أنها قد عادت ظافرة من معركة قصيرة. وفي أثناء الهدوء الذي شعرت به أنا أيضًا، تذكرت وأنا أتألم أنّي قد عرضت جويدو لشبهة منفرة؛ فأردت أن أحصل على وعد من أوجوستا ألاّ تخبر أحداً بشكوكي.

اعترضت على أن الأمر يتعلق بشبهات، وإنما بما هو واضح ومؤكد، الأمر الذى أنكرته، دون أن أفلح فى إقناعها. ثم وعدتنى بكل ما رغبت فيه، فانصرفت إلى المكتب فى اطمئنان.

لم يكن جويدو قد وصل بعد، وحكت لى كارمن أن الحظ حالفهما بعد رحيلى؛ فاصطادا سمكتين، أقل حجمًا من سمكتى، لكن وزنهما كبير. لم أرغب فى تصديق ما قالته، وظننت أنها إنما أرادت أن تقنعنى أنهما بعد مغادرتى القارب قد تركا ما كانا يفكران فيه ويترقبانه مادمت معهم. ألم تكن مياه البحر ساكنة؟ إلى متى بقيا فى عرض البحر؟

دفعت كارمن، لكى تقنعنى، لوتشانو ليؤكد أيضًا صيد السمكتين، ومن تلك اللحظة انتبهت إلى أن لوتشانو قادر على عمل أى شىء ليسترضى جويدو.

إلاَّ أنه فى أثناء فترة الهدوء الحالمة التى سبقت صفقة سلفات النحاس حدث أمر غريب إلى حد ما فى ذلك المكتب لا أستطيع نسيانه، سواء لأنه يبرز اعتداد جويدو بنفسه الذى يفوق الحد، أو لأنه يضعنى فى ضوء يصعب علىَّ فيه التعرف على نفسى.

ذات يوم كنَّا نحن الأربعة فى المكتب، وكان الوحيد بيننا الذى يتحدث عن الصفقات، كعادته، هو لوتشانو. ومن كلماته طرق سمع جويدو أشبه بلوم صعب عليه تحمله فى حضور كارمن. وكان يشق عليه بالمثل أن يدافع عن نفسه؛ لأن لوتشانو كان لديه الأدلة على صفقة

أوصى بها قبل شهور ورفضها جويدو، وقد انتهت بتقديم أموال كثيرة لمن تكفَّل بها . أفضى الأمر بجويدو إلى أن صرَّح بأنه يزدرى التجارة، مؤكداً أنه إن لم يكن الحظ قد حالفه فى مجال التجارة؛ سيعثر على الوسيلة التى تجلب له المال بمزاولة أنشطة أخرى أفضل بكثير، آلة الكمان، على سبيل المثال. كانوا جميعًا متفقين معه وأنا أيضًا، ولكن ببعض التحفظ:

- بشرط أن تدرسه دراسة مستفيضة.

استاء من تحفظى، ورد فى الحال بأنه إذا كان الأمر يتعلق بالدراسة فإنه كان باستطاعته حينئذ أن يقوم بأشياء أخرى كثيرة مثل الأدب. وفى هذه المرة أيضًا وافقه الجميع، وأنا أيضًا، لكن فى شىء من التردد. لم أكن أتذكر جيداً ملامح شخصيات أدبائنا العظماء، وأخذت أستحضرها، حتى أعثر علىَ واحدة منها تشبه جويدو. فى تلك اللحظة صاح:

- أترغبون فى قصص خرافية جيدة؟ سأرتجل لكم بعضًا منها مثل إيسوبو!

ضحك الجميع، إلاَ هو. أخذ الآلة الكاتبة، وفى سلاسة، كأنما يمليه أحد وهو يكتب نسيج القصة الأولى بحركات تفوق ما يتطلبه عمل له فائدة على الآلة. وسرعان ما مد يده بالورقة للوتشانو، لكنه عدل عن رأيه، فأخذها ثانية وأعادها إلى الآلة، وكتب قصة أخرى، لكن هذه الأخيرة

أرهقته أكثر من الأولى، حتى إنه نسى الاسترسال فى حركات التظاهر بالاستلهام، وكان بحاجة إلى تصحيح ما كتبه مرات عديدة. ومن ثم فأنا أعتقد أن القصة الأولى لم يؤلفها هو، فى حين أن الثانية جاءت بالفعل من وحى خياله، وهى تنم عنه. كانت القصة الأولى تحكى عن طائر أدرك أن نافذة قفصه الصغيرة ظلت مفتوحة. فى بادئ الأمر فكر فى أن ينتهز الفرصة ليطير بعيداً، لكنه بعد ذلك بدَّل رأيه خشيةَ أن يفقد حريته إذا ما انغلقت النافذة فى أثناء غيابه. كانت القصة الثانية تتحدث عن فيل وكانت بالفعل مثل الفيل. كان الحيوان الضخم يعانى من وهن فى ساقيه، فذهب ليستشير رجلاً، وهو طبيب مشهور، فصاح ذلك الأخير عندما رأى تلك الأعضاء الهائلة: - لم أرَ فى حياتى قط ساقين بمثل هذه القوة.

لم يتأثر لوتشانو بالقصتين؛ لأنه لم يفهمهما أيضاً. أخذ يضحك كثيراً، بل كان واضحاً أنه كان يرى من العبث عرض شىء كهذا للإتجار به. ثم ضحك أيضاً باستمتاع عندما فسَّرنا له أن الطائر كان يخشى أن يحرم من حريته فى العودة إلى القفص، وأن الرجل كان معجباً بساقى الفيل على الرغم من ضعفهما. لكنه سأل بعد ذلك:

- كم ستربح من قصتين كهاتين؟

أجاب جويدو فى ترفُّع:

- متعة أنّى كتبتهما، فضلاً عن أموال كثيرة، إذا رغبت فى تأليف العديد منها.

وقد تأثرت كارمن من شدة الانفعال. طلبت الإذن بنسخ القصتين، وشكرت جويدو، وهى ممتنة، عندما قدم لها الورقة التى كتبها هدية بعد ما وقّع عليها أيضاً بالقلم.

ماذا كان شأنى بهذا؟ لم يكن لدىّ ما يجعلنى أدخل فى صراع بسبب إعجابى بكارمن التى، كما قلت، لم أكن أبالى بها. لكن وأنا أتذكر سلوكى، يجب أن أصدّق أن أية امرأة يمكن أن تدفع بنا إلى الصراع حتى ولو لم تدخل فى إطار رغبتنا. ألم يتقاتل بالفعل أبطال القرون الوسطى كذلك من أجل نساء لم يروهن قط؟ فى ذلك اليوم حدث لى أن الآلام الواخزة فى جسدى البائس احتدت فجأة، واعتقدت أنّى لن أستطيع أن أسكّنها إلاّ بالدخول فى نزال مع جويدو بتأليفى أيضاً لقصص خيالية على الفور.

طلبت أن يحضروا الآلة الكاتبة وبالفعل ارتجلت. الحقيقة أن القصة الأولى التى كتبتها، كانت بداخلى قبل أيام عديدة. وقد ألفت عنواناً لها:«أنشودة الحياة». ثم، بعد تأمل وجيز، كتبت أسفل منه: «حوار». بدا لى أن ترك الحيوانات تتحدث أكثر سهولة من وصفها. وعلى هذا النحو كان ميلاد أول قصة لى ذات حوار قصير:

الجمبرى الصغير المفكر: الحياة جميلة، لكن ينبغى توخى الحذر فى المكان الذى نجلس فيه.

سمكة الدنيس، وهى تهرول إلى طبيب الأسنان: الحياة جميلة، لكن ينبغى فيها القضاء على تلك الحيوانات الصغيرة الشريرة الخائنة، التى تخفى المعدن المسنون فى لحمها اللذيذ.

في تلك الأثناء كان على أن أكتب القصة الثانية، لكنّى كنت بحاجة للحيوانات. نظرت إلى الكلب الذى كان يرقد فى ركنه وينظر إلىَّ هو أيضًا. تذكرت شيئًا من هاتين العينين الخجولين؛ قبل أيام قلائل عاد جويدو من رحلة صيد مملوءًا بالبراغيث، وذهب إلى غرفة المخزن بمكتبنا لينظف نفسه. فى تلك اللحظة لاحت لى القصة فى الحال وكتبتها بيُسْر: «يحكى أن أميراً لسعته براغيث كثيرة؛ فدعا الآلهة أن تعاقبه ببرغوث واحد، كبير وشرِه، لكن واحد فقط، وأن يوجهوا الباقى إلى أناس آخرين. لكن ما من برغوث قبِل أن يبقى وحيداً مع ذلك الرجل الأبله، فكان عليه أن يحتفظ بها كلها».

فى تلك اللحظة حسبت قصتىَّ رائعتين. فالأفكار التى تخرج من عقولنا محببة إلى النفس بدرجة كبيرة، وخاصةً عندما يتم تحليلها بمجرد أن تولد. حقيقة أن الحوار الذى كتبته يروق لى إلى الآن، وقد قمت بجهد كبير فى تأليفه. إن أنشودة الحياة على لسان المحتضر شيء لطيف جداً من أجل أولئك الذين ينظرون إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وإنه حقيقة أيضًا أن كثيراً من المحتضرين يبددون أنفاسهم الأخيرة ليقولوا ما يظنونه سبب وفاتهم، رافعين بذلك أنشودة لحياة الآخرين، الذين سيتمكنون من تجنب ذلك الحادث. فيما يخص القصة الثانية لا أرغب فى الحديث عنها، وجويدو نفسه علق عليها ببراعة وصاح ضاحكًا:

– إنها ليست قصة خرافية، بل هى أسلوب تصفنى من خلاله بالحماقة.

ضحكت معه وهدأت على الفور آلامى التى دفعت بى إلى الكتابة. ضحك لوتشانو عندما وضّحت له ما كنت أبغى قوله، ورأى أن أحداً لن يدفع شيئًا لقصصى ولا لقصص جويدو. أما قصتيَّ فلم تعجبا كارمن، التى نظرت إليَّ نظرة سيئة متفحصة، نظرة جديدة حقًا بالنسبة لهاتين العينين، وقد فهمتها كأنما كانت كلمة قالتها:

– أنت لا تحب جويدو!

شعرت منها بالفعل باضطراب؛ لأنها لم تخطئ دون شك فى تلك اللحظة. رأيت أنّى أخطأت حينما تصرفت كأنما لا أحب جويدو، أنا الذى كنت أعمل من أجله دون انتظار لمنفعة. كان عليَّ أن أنتبه إلى أسلوبى فى التصرف.

قلت لجويدو فى هدوء:

– يسعدنى الإقرار بأن قصتيك أفضل من قصتى، لكن ينبغى القول إنهما أول ما كتبت فى حياتى.

فأجابنى فى عناد:

– ألعلك تعتقد أننى ألفت غيرهما؟

هدأت نظرت كارمن، ولكى أحظى منها بنظرة أكثر رفقًا، قلت لجويدو:

– لديك، بلا شك، موهبة خاصة فى تأليف القصص الخيالية.

غير أن مجاملتي أضحكتهما، وفورهما مباشرةً ضحكت أنا أيضاً، لكن بصفاء قلب منَّا جميعًا؛ حيث كان واضحًا أنّي كنت أتحـدث دون أية نية سيئة.

إن صفقة سلفات النحاس ولَّدت جِدِّية كبيرة في مكتبنا؛ فلم يكن هناك وقت للحكايات. كل الصفقات تقريباً التي كانت تُطرح علينا في تلك الفترة كنَّا نقبلها. جلب بعضها لنا أرباحًا، لكنها قليلة؛ وبعضها الآخر جلب خسائر، لكنها كبيرة. كان عيب جويدو الرئيسي أنه كان حريصًا بشكل غريب، مع أنه كان عظيم الكرم بعيداً عن الصفقات. عندما كانت صفقة من الصفقات يجدها جيدة، كان يتمها في عجل، متلهفًا للحصول على الربح الضئيل الذي يعود عليه منها. في حين كان عندما يجد نفسه متورطًا في صفقة لا يتخذ أبداً قرارًا بالانسحاب بدلاً من التأجيل إلى الوقت الذي يضطر فيه إلى السداد من جيبه الخاص. من أجل هذا أظن أن خسائره كانت جسيمة دائمًا وأرباحه ضئيلة. إن خصال التاجر ما هي إلا محصلة جسده كله، من أطراف شعره حتى أظافر قدميه. هناك كلمة عند اليونان ربما تناسب جويدو: «داهية أحمق». كان حقًّا ماكراً، لكنه بالفعل كان أيضًا أبله. كانت لديه حَيطة كبيرة لم تفده في شيء سوى تشحيم المنحدر الذي كان يزداد انزلاقه إلى أسفل.

وتزامنًا مع صفقة سلفات النحاس باغته ميلاد التوأمين. كان انطباعه الأول مفاجأة بعيدة عن السعادة، لكن فور أن أبلغني بالخبر، أطلق عبارة فكاهية أضحكتني كثيراً، وبناء عليه، وقد سعد بتأثير الفكاهة عليّ،

لم يتمكن من الاحتفاظ بعبوس وجهه. كان أن ربط ميلاد الطفلين بقدر الستين طنًا من السلفات، فقال:

– حُكِم عليّ أن أعمل بالجملة!

ولكي أُخفّف عنه قلت له إن أوجوستا تحمل طفلاً للمرة الثانية وإنها في الشهر السابع وإنّي سرعان ما أبلغ حمولته فيما يتعلق بمسألة الأطفال. وعلى الرغم من هذا أجاب بذكاء:

– بالنسبة لمحاسب جيد مثلي، لا يبدو الشيء نفسه!

وبعد أيام قلائل ، ولفترة من الوقت قد استحوذ عليه حب كبير للطفلين. أخبرتني أوجوستا، التي كانت تمضي جزءًا من النهار عند أختها، أنه كان يكرّس لهما بضع ساعات كل يوم. كان يداعبهما ويهدهدهما، وكانت آدا ممتنة له على ذلك كثيراً، حتى إنه بدا ازدهاراً لحب من جديد بين الزوجين. في تلك الأيام دفع مبلغًا من المال ضخمًا بعض الشيء لشركة تأمين، لكي يوفّر لأبنائه ثروة صغيرة عندما يبلغون العشرين. أتذكر ذلك؛ لأنني قيّدت ذلك المبلغ في حسابه المدين.

دعيت أنا أيضًا لرؤية التوأمين؛ بل أبلغتني أوجوستا أنّي أستطيع أن أهنئ أيضاً آدا، التي لم تتمكن من مقابلتي؛ لأنها كانت تلزم الفراش رغم مضي عشرة أيام بعد الولادة.

كان الرضيعان يرقدان في مهدين في حجرة صغيرة ملاصقة لغرفة نوم الأبوين. صاحت عليّ آدا من فراشها:

– تزينو، هل هما جميلان؟

أدهشتنى نبرة ذلك الصوت، وقد بدا لى أكثر عذوبة: كانت صرخة حقيقية؛ لأنّى أحسست فيها بمجهود، لكنها بقيت عذبة للغاية. من المؤكد أن وداعة ذلك الصوت كانت صادرة من الأمومة، لكنى تأثرت بها لأنّى اكتشفتها خاصة عندما وُجّهت لى. تلك العذوبة أشعرتنى كأنما لم تدعنى آدا باسمى الأول وحسب، بل سبقته أيضًا ببعض صفات حانية مثل «عزيزى» أو «أخى»! أحسست منه بامتنان كبير وصرت طيبًا وودوداً. أجبت بسعادة:

- رائعان، غاليان، متشابهان، معجزتان. فى حين كنت أجدهما صغيرين هزيلين وشاحبين. كانا يصرخان معًا فى غير اتفاق.

سرعان ما عاد جويدو إلى حياته المعتادة. ففى أعقاب صفقة السلفات أصبح أكثر مواظبة على الحضور إلى المكتب، لكن فى يوم السبت من كل أسبوع، كان يخرج للصيد، ولا يعود إلاّ صباح يوم الاثنين فى وقت متأخر ليلقى بالكاد نظرة على ما يجرى فى المكتب قبل الإفطار. فى المساء كان يذهب لصيد السمك، وغالبًا ما كان يقضى الليل فى عرض البحر. كانت أوجوستا تحكى لى عن استياء آدا، التى كانت تعانى منه إلى جانب شعورها بالغَيرة الشديدة، وشكواها من بقائها وحيدة لساعات كثيرة طوال اليوم. كانت أوجوستا تحاول أن تسكِّن من روعها، وهى تؤكد لها أنه ليست هناك نساء برحلات صيد البر أو البحر. على الرغم من هذا علمت آدا - لم ندرى ممن - بأن كارمن كانت فى بعض الأحيان تصاحب جويدو أثناء ذهابه لصيد السمك. اعترف لها

جويدو فيما بعد، وأضاف أنه ليس هناك فى ضرر فى مجاملة يعامل بها إحدى الموظفات التى تفيده كثيراً. ثم ألم يكن لوتشانو دائم الحضور معها؟ وانتهى به الأمر إلى أن وعدها بألاّ يدعوها مرة أخرى، عندما وجد أن هذا يسىء إليها. صرّح بأنه لا يعتزم التخلّى عن صيده البرّى الذى كان يكلّفه المال الكثير ولا عن صيد الأسماك. قال إنه كان يعمل كثيراً (وفى تلك الفترة بالفعل كانت هناك أعمال كثيرة فى مكتبنا)، ويرى أنه فى حاجة إلى قسط من الراحة. لم تكن آدا توافقه فى الرأى، وكان يبدو لها أن التسلية الكبيرة سيجدها وسط الأسرة، ولاقت فى هذا الأمر تأييداً مطلقًا من أوجوستا، فى حين كنت أراها تسلية صخب نغمها يفوق الحد.

عندئذ صاحت أوجوستا:

– وأنت، ألست بالبيت كل يوم كما يجب؟

كانت هذه حقيقة، وكان علىّ أن أقرّ بوجود اختلاف كبير بينى وبين جويدو، لكنّى ما أردت التفاخر بذلك. قلت لأوجوستا وأنا أداعبها:

– الفضل يرجع إليكِ؛ لأنك مارستِ أساليب حاسمة فى التربية.

من جانب آخر كانت الأمور تزداد سوءًا كل يوم بالنسبة لجويدو: فى البداية كان هناك طفلان، ومع ذلك كانت هناك مرضعة واحدة؛ حيث كان من المنتظر أن ترضع آدا أحدهما. ولكنها لم تتمكن من ذلك، وكانا بحاجة إلى مرضعة أخرى. وكلما أراد جويدو أن يضحكنى،

كان يجوب المكتب ذهابًا وإيابًا وهو يدندن لحنًا بهذه الكلمات: زوجة... طفلان... مرضعتان!

كان هناك شيء تمقته آدا بوجه خاص: وهو آلة كمان جويدو. كانت تتحمل صراخ طفليها، لكن كانت تعاني بصورة مفزعة من صوت الكمان. لقد قالت لأوجوستا:

– أريد لو أنبح كالكلب ردًا على تلك النغمات.

غريب! على العكس منها كانت أوجوستا تشعر بالسعادة، عندما كانت تمرّ أمام حجرة مكتبي، وتسمع النغمات المضطربة التي كانت تنبعث منها.

– ومع ذلك ألم يكن زواج آدا أيضًا عن حب – قلت مندهشًا – ألم يكن الكمان هو أفضل ما كان في جويدو؟

تلاشت تلك الأحاديث عندما رأيت آدا من جديد للمرة الأولى. كنت أنا بالفعل الشخص الأول الذي لاحظ مرضها. ذات يوم من أوائل شهر نوفمبر – كان نهاره باردًا ورطبًا، لم تسطع فيه شمس – غادرت المكتب بصفة استثنائية في الثالثة عصرًا، وأسرعت إلى المنزل وأنا أفكر في أن أستريح وأحلم لبضع ساعات في مكتبي الدافئ. ولكي أتوجّه إليه كان ينبغي المرور بممر طويل، وتوقفت أمام الحجرة التي تعمل بها أوجوستا حينما سمعت صوت آدا. ربما كانت وديعة أو مضطربة (وهو الشيء نفسه) مثل ذلك اليوم الذي توجّهت فيه بالكلام إليّ. دخلت تلك الغرفة وقد

دفعني فضول غريب لأرى كيف لصوت آدا الوديع الصافى، أن يكتسى بذلك الصوت الذى يذكّرنا بصوت ممثلة لدينا عندما كانت ترغب فى إبكائنا ولا تستطيع أن تبكى هى نفسها. كان حقًا صوتها مختلفًا، أو ربما شعرت أنا به هكذا؛ وذلك لأنّى شعرت به هو ذاته لا يزال يبدو عليه الانفعال ومؤثرًا بعد مرور أيام كثيرة، حتى دون أن أرى من أصدره. اعتقدت أنهما تتحدثان عن جويدو، وإلاَّ فأى موضوع آخر يمكن أن يؤثر فى آدا إلى هذا الحد؟

على عكس ذلك كانت السيدتان تتناولان معًا فنجانى القهوة، وتتحدثان عن شئون منزلية: بياضات، خدم إلى آخر تلك الأمور. لكن كان يكفينى أن أرى آدا؛ لأدرك أن ذلك الصوت لم يكن زائفًا. كان وجهها أيضًا يثير الأسى، وكنت أول من اكتشف التغييرات التى طرأت عليه، فذلك الصوت، إن لم يكن مرتبطًا بشعور ما، كان مرآة دقيقة لكامل حالة جسد، ومن ثم كان صادقًا وحقيقيًا. هذا ما شعرت به على الفور. أنا لست طبيبًا؛ ولهذا لم أفكر بأى مرض، لكن حاولت أن أفسِّر لنفسى التغيير الذى طرأ على شكل آدا بأنه تأثير فترة النقاهة بعد الولادة. لكن كيف يمكن تفسير عدم انتباه جويدو للتغيير الكبير الذى طرأ على زوجته؟ على كلٍّ، فأنا أحفظ عن ظهر قلب تلك العين، التى طالما خشيتها كثيرًا؛ لأنّى أدركت على الفور أنها تتفحص بهدوء الأشياء والأفراد لتقبلهم أو لتنبذهم، تمكنت فى الحال من استنتاج التغيُّر الذى حدث فيها، فقد اتسعت، كأنما أجهدت محجر العين لترى جيدًا. كانت تلك العين الواسعة تشذ وسط وجه بائس وشاحب.

صافحتنى بيدها بود كبير:

– أعلم بالفعل بذلك – قالت لى – تنتهز أية فرصة لتأتى لرؤية زوجتك وطفلتك.

كانت يدها مبتلة بالعرق، وأنا على علم أن هذا ينم عن ضعف. وخصوصًا أننى قد تخيلت أنها، بعد أن تبرأ من مرضها، ستستعيد لون بشرتها، وتعود لوجنتيها وتجويف عينيها ملامحها المحددة.

فسرّت الكلمات التى وجّهتها إلىّ على أنها لوم ملقى على جويدو، فأجبت بنية سليمة أن جويدو، بصفته مالكًا للشركة، لديه مسؤليات أكبر من مهامى تربطه بالمكتب.

نظرت إلىّ متفحصة؛ لكى تتحقق من أنّى كنت أتحدث على نحو جاد.

– لكن على الرغم من هذا – قالت – يبدو لى أنه يستطيع إيجاد بعض الوقت لزوجته وطفليه، وغمر صوتها الدمع. ثم تداركت بابتسامة تلتمس العفو، وأضافت قائلة:

– علاوة على الأعمال هناك أيضًا صيد البر والبحر! هما، هما اللذان يهدران كثيراً من الوقت. وتحولت فى سرعة أدهشتنى لتتحدث عن الأطعمة الشهية التى يأكلانها فى أعقاب رحلات صيد جويدو البرية والبحرية.

– على الرغم من هذا يمكن أن أستغنى عنها عن طيب خاطر! – هذا ما أضافته بين تنهد ودمعة. لكنها لم تبدُ تعسة، بل على العكس من ذلك! أخذت تحكى أنها ما عادت تستطيع أن تتخيل ألا تنجب هذين الطفلين اللذين تحبهما حبًا جمًا! وأضافت بشيء من المكر، وهى تبتسم، أنها أصبحت تحبهما أكثر، خاصةً بعد أن صار لكل واحد منهما مرضعته. كانت لا تنام كثيراً، لكن على الأقل عندما كان يغلبها النعاس، كان لا يزعجها أحد. وعندما سألتها إذا كانت حقًا تنام قليلاً، أخذت ملامح الجِدِّية والتأثر لتخبرنى أنه مصدر انزعاجها الكبير. ثم أضافت، وهى مبتهجة:

– لكن الوضع يتحسن!

بعد قليل تركتنا لسببين؛ كان عليها أن تزور والدتها قبل حلول المساء، فضلاً عن أنها لم تكن تطيق درجة حرارة حجرات منزلنا المزوَّدة بمدافئ كبيرة. ولما كنت أرى تلك الحرارة بالكاد مناسبة، خلت أن الشعور بأنها شديدة، إنما هو دليل على القوة:

– لا يبدو أنكِ ضعيفة جداً – قلت وأنا أبتسم – سترين كيف ستشعرين على وجه مخالف عندما تبلغين عمرى.

راقها كثيراً أن تسمع أنها شابة صغيرة.

اصطحبناها أنا وأوجوستا حتى باحة السلم. كان يبدو أنها تشعر بحاجة كبيرة إلى صداقتنا، حيث إنها صارت تتوسطنا حتى تقوم بتلك

الخطوات القصيرة، وأمسكت أولاً بذراع أوجوستا ثم بذراعى الذى صلَّبته في الحال خشيةً أن أستسلم لعادة من عاداتى القديمة، وهى أن أضغط على أى ذراع امرأة يقبل ملامستى. أخذت تتحدث على بسطة السلم طويلاً، وعندما تذكرت والدها، اغرورقت عيناها بالدمع من جديد، للمرة الثالثة خلال ربع الساعة. عندما انصرفت قلت لأوجوستا إنها ليست امرأة، بل نبع مياه. وعلى الرغم من أنّى رأيت ملامح مرض آدا، فإننى لم أبدِ أى اهتمام به. كانت عيناها متسعتين بما يزيد؛ ووجهها هزيلاً؛ وقد تغير صوتها فضلاً عن طباعها التى تحولت إلى ذلك التعاطف ولم يكن من سماتها، لكنّى عزوت ذلك كله إلى الأمومة المضاعفة ووهنها. ومن ثم فقد كنت أرى فى نفسى مراقبًا رائعًا؛ حيث لاحظت كل شىء، ولكنى كنت جاهلاً عظيمًا؛ لأنّى لم أنطق بالكلمة الحقيقة: المرض!

فى اليوم التالى طلب طبيب النساء والتوليد، الذى كان يعالج آدا، الاستعانة بالدكتور باولى، الذى أعلن مباشرةً الكلمة التى لم أستطع التفوه بها: موربوس باسيدوى. أخبرنى بها جويدو وأخذ يصف لى، بكلام علمى كبير، حقيقة المرض ويعبر عن إشفاقه على آدا التى كانت تعانى كثيرًا. وبدون أية اعتبارات خبيثة منّى رأيت أن حنوه وعلمه لم يكونا عميقين. كان يرتسم بمظهر الحزين عندما يتحدث عن زوجته، لكن عندما كان يملى على كارمن الخطابات كانت تظهر عليه بهجته بالحياة وبالتعليم؛ ثم إنه كان يعتقد أن من أطلق اسمه على المرض هو باسيدوى الذى كان صديقًا لجوته، غير أنّى عندما بحثت عن ذلك المرض بإحدى دوائر المعارف، أدركت على الفور أن المسألة تتعلق بشخص آخر.

كان مرض باسيدوى مرضًا خطيراً، وهامًا! كان بالنسبة لى فى غاية الأهمية عندما عرفته. قمت بالاطلاع عليه فى كتب عديدة، وظننت أنّى اكتشفت حينئذ فقط اللغز الأساسى بجسمنا البشرى. أعتقد أنه بالنسبة لكثير مثلى تأتى فترات من الوقت تشغل فيها بعض الأفكار أذهاننا، وتزحمها وتغلقها أمام الأفكار الأخرى. لكن إذا ما حدث أيضًا الشىء ذاته بالنسبة للجميع! فإنهم يعيشون مهتمين بداروين بعدما عاشوا منشغلين بروبسبيير وينابليون، فضلاً عن ليبيج أو ربما ليوباردى، إلى أن يسيطر بيسمارك على الكون كله!

لكنّى عشت وحدى مهتمًا بباسيدوى! هيئ لى أنه أخرج للنور معرفة جذور الحياة التى صنعت على هذا النحو: تتوزع الأجسام البشرية على خط، يقع على طرفه مرض باسيدوى الذى ينضوى على استهلاك القوى الحيوية على نحو مفرط طائش وبإيقاع سريع، وضربات قلب جامحة، وعلى الطرف الآخر توجد الأجسام الواهنة بسبب شح عضوى، ومآلها الموت من مرض قد يبدو وكأنه استهلاك فى حين أنه فى الواقع خمول. إن النقطة الوسط بين المرضين تقع فى المركز، ويشار إليها بلفظ فى غير موضعه وهو الصحة، التى ليست سوى محطة. وما بين المركز وأحد الأطراف - أى أطراف الباسيدوى - يوجد جميع أولئك الذين يستميتون ويبددون حياتهم فى رغبات كثيرة، وطموحات، ومتع، وعمل أيضًا، ومن الجهة الأخرى هناك من لا يلقى على صحفة الحياة سوى الفتات ويدخرون، وبذلك يعدّون أولئك الخاملين المعمّرين الذين

يمثل ظهورهم عبئًا على المجتمع. ويبدو أن هذا العبء ضرورى أيضًا. فالمجتمع يتقدم لأن الباسيدويين يدفعونه، ولا يهوى؛ لأن الآخرين يمسكون به. إنّى على اقتناع بأنه عند تكوين المجتمع، كان يمكن أن يكون بصورة أيسر، لكنه صُنع على هذا النحو، بانتفاخ على أحد طرفيه وأوديما على الآخر، وليس هناك علاج للأمر. يوجد فى الوسط أولئك الذين لديهم بدايات التورم أو الأوديما، وعلى طول الخط فى البشرية جميعها ليست هناك صحة مطلقة.

حسب ما كانت تقوله لى أوجوستا فإن آدا لم يكن عندها تورم، لكن كانت لديها جميع أعراض المرض الأخرى. مسكينة آدا! بدت لى تجسيداً للصحة والاتزان، حتى إنّى ظننت لوقت طويل أنها اختارت زوجها بالروح الباردة نفسها التى كان يختار بها والدها بضاعته، وها هى ذى تصاب بمرض يجذبها نحو نظام مختلف تمامًا: الانحرافات النفسية! ومع أنّى أصبت معها بمرض بسيط، لكنّه امتد طويلاً. هذا لأنّى أخذت أفكر طويلاً فى باسيدوى. الآن أعتقد أننا ننتهى إلى العدوى به فى أى موضع نستقرُّ عليه فى هذا الكون. ينبغى أن نتحرك، فالحياة بها سموم، لكن توجد بها أيضًا سموم أخرى تفيد فى أنها مضادة للسموم. فى حالة الإسراع فقط نستطيع أن نفلت من الأولى ونستفيد من الثانية.

كان مرضى عبارة عن فكرة مسيطرة، كان حلمًا، وخوفًا أيضًا. لابد أنه نجم عن تفكير منطقى: إن كلمة انحراف يقصد بها انحراف فى

الحالة الصحية، تلك الحالة الصحية التي لازمتنا لفترة ما في حياتنا. كنت حينئذ على علم بحالة آدا الصحية. ألم يكن ممكنًا أن يحملها انحراف صحتها إلى حبِّي، وقد رفضتني وهي سليمة؟

لا أدري كيف نما هذا الفزع (أو هذا الأمل) بداخل ذهني!

ربما لأن صوت آدا العذب والمتقطع بدا لي وكأنه حبٌّ عندما وجَّهته إليَّ؟ تحولت المسكينة آدا إلى دميمة بالفعل، ولم أعد قادرًا على الرغبة فيها، في حين أخذت أستعيد بذاكرتي علاقتنا في الماضي، وهيئ لي أنه لو كان حبها المفاجئ لي قد استولى عليها، لوجدت نفسي في الظروف السيئة التي تُذكِّر لحد ما بظروف جويدو إزاء الصديق الإنجليزي صاحب صفقة الستين طنًّا من سلفات النحاس. حقًّا إنه الموقف ذاته! فمنذ بضع سنين صرَّحت لها بحبي، ولم أقم بأية حركة تراجع سوى أن تزوجت بأختها. لم يحْم آدا في هذا العقد القانون بل شهامتي. كنت أرى أنِّي ملتزم معها بشدة، حتى ولو وجدتها أمامي بعد عدة سنوات فيما بعد، وقد تحسَّنت في أثناء المرض باسيدوي من التورم الشديد، لالتزمت بشروط توقيعي على عقد قراني بأختها.

لكنيِّ أذكر أن هذا المنظور قد صبغ على تفكيري بالمودة إزاء آدا. حتى ذلك الحين عندما أخبروني بآلام آدا التي يسببها جويدو لها، لم أسعد بذلك دون شك، ولكنِّي وجهت اهتمامي أيضًا بشيء من الرضا نحو البيت الذي أبت آدا أن تدخله، ولم تكن به أية معاناة على الإطلاق.

في تلك الفترة كانت الأمور قد تغيرت: آدا لم تعد هي تلك التي نبذتني في ازدراء، إن لم تخطئ كتب الطب التي اطلعت عليها.

إن مرض آدا كان خطيراً. فلقد نصح الدكتور باولي، بعد أيام قلائل، بإبعادها عن العائلة وإرسالها إلى مصحة بمدينة بولونيا. علمت ذلك من جويدو، لكن فيما بعد حكت لي أوجوستا أنها حتى هذه اللحظة لم تنج مما يكدر بشدة. اقترح جويدو بكل وقاحة أن يولِّي كارمن رعاية العائلة في أثناء غياب زوجته. لم تملك آدا الجرأة لكي تصرِّح بما كانت تفكِّر فيه عن هذا الاقتراح، لكنها أعلنت أنها لن تتحرك من البيت إن لم تتح لها إمكانية أن تعهد إلى خالتها ماريًا بالرعاية، وبدون تردد وافق جويدو. غير أنه لم تظل تداعبه فكرة أن يجد كارمن تحت تصرفه بالنسبة للمكان الشاغر الذي تركته آدا. ذات يوم قال لكارمن إن لم يكن لديها أعمال كثيرة بالمكتب، لعهد إليها بإدارة منزله وهو مطمئن. نظرنا بعضنا إلى بعض أنا ولوتشانو، وبلا شك اكتشف كل منَّا في وجه الآخر تعبيراً ماكرًا. احمرَّ وجه كارمن، وهمست بأنها ما كانت لتقبل الأمر. – حقًا – قال في سخط – من أجل تلك الاعتبارات الحمقاء السارية بالمجتمع لا يمكن أن نقوم بما يفيد كثيراً! لكنه سرعان ما صمت هو الآخر، وكانت مفاجأة أنه اختصر عظة لها كل هذه الأهمية.

اصطحب جميع أفراد العائلة آدا إلى المحطة. ورجتني أوجوستا أن أحضر زهوراً لأختها. وصلت متأخراً قليلاً ومعي باقة من الأوركيديا

أعطيتها لأوجوستا. كانت آدا ترمقنا، وعندما قدّمت أوجوستا الزهور إليها قالت لنا:

- أشكركما من صميم قلبى!

ذلك كان يعنى أنها تقبلت الزهور منّى أنا أيضًا، لكنِّى أحسست أن هذا تعبير عن حب أخوى، حلو وبه أيضًا شيء من الفتور. من المؤكد أن باسيدوى لم يكن له علاقة بالأمر.

كانت آدا المسكينة بتلك العينين المتسعتين تبدو عروسًا، من فرط السعادة. كان مرضها قادرًا على محاكاة الانفعالات جميعها.

رحل معها جويدو لمرافقتها، على أن يعود بعد بضعة أيام. انتظرنا على الرصيف رحيل القطار. ظلت آدا مطلة من نافذة العربة التى استقلتها، وأخذت تلوّح بالمنديل بقدر ما كانت تستطيع رؤيتنا.

ثم اصطحبنا السيدة مالفنتى وهى تذرف الدمع إلى البيت. وفى لحظة الافتراق، قبّلت حماتى أوجوستا، وبعدها قبّلتنى أنا أيضًا.

- معذرة! قالت مبتسمة وسط دموعها. فعلت ذلك دون عمد، لكن إذا سمحت لى فسأعطيك قبلة أخرى.

والصغيرة أنّا أيضًا أرادت أن تقبِّلنى، وقد بلغت من العمر وقتئذ الثانية عشرة. وألبرتا، التى كانت توشك أن تترك المسرح القومى استعدادًا للخطبة، وكانت عادتها أن تكون متحفظة معى بعض الشيء، صافحتنى بحرارة فى ذاك اليوم.

كن يحببنني؛ لأن زوجتي كانت نضرة، في حين كن يبدين استياءهن من جويدو، الذي كانت زوجته سقيمة.

وفي ذلك الوقت تمامًا تعرضت لخطر أن أصبح زوجًا غير صالح؛ حيث آلمت زوجتي إيلامًا شديداً، دون ذنب لي، بسبب حلم أشركتها ببراءة فيه.

ها هو ذا الحلم: كنًّا ثلاثة، أنا وأوجوستا وآدا؛ كنًّا نطلُّ من إحدى النوافذ، وبالتحديد من أصغر تلك النوافذ التي كانت ببيوتنا الثلاثة، أي مسكني ومسكن حماتي ومسكن آدا. هذا يعني أننا كنًّا بشرفة مطبخ منزل حماتي الذي كان بالفعل يطل على فناء صغير، في حين كان في الحلم يطلُّ على طريق الكورسو. كان الحيز ضيقًا على متكأ النافذة، حتى إن آدا، التي كانت تتوسطنا وهي تستند إلى ذراعينا، كانت تميل نحوي أنا بالتحديد. تأملتها ورأيت أن نظرة عينها عادت من جديد باردة ودقيقة، وملامح وجهها شديدة النقاء، حتى عنقها الذي رأيته مغطى بخصلات شعرها اللطيفة، تلك الخصلات التي كثيراً ما رأيتها عندما كانت آدا تستدير عنِّي بكتفيها. على الرغم من هذا البرود الكبير (وهذا ما كنت أراه يعكس صحتها) فقد ظلت مائلة نحوي كما اعتقدت أنها كانت كذلك في ليلة حفل خطوبتي تلك حول المائدة الناطقة. قلت لأوجوستا في ابتهاج (كنت بالتأكيد أبذل جهداً في الاهتمام بها هي أيضًا): «انظري كيف استعادت صحتها؟ لكن أين باسيدوي؟» «ألا ترين؟» سألت أوجوستا التي كانت الوحيدة من بيننا التي كان بإمكانها مشاهدة الطريق.

وبمشقة طللنا نحن أيضاً، ولمحنا جمعا غفيرا يتقدم وهو يصيح مهدداً: «لكن أين باسيدوى؟» سألت مرة أخرى، ثم رأيته. كان هو الذى يتقدم ويطارده الجمع الغفير: عجوز بائس يغطيه معطف طويل مهلهل، ولكن من نسيج البروكار الثقيل، رأسه الكبير يغطيه شعر شائب أشعث يتطاير فى الهواء، عيناه جاحظتان وكانتا تنظران فى قلق نظرة رأيتها من قبل فى الحيوانات حين يطاردونها، وتجمع بين الفزع والتهديد. وكان الحشد يصيح: «اقتلوا من ناقل العدوى!».

ثم كانت هناك لحظة من ليلٍ خالٍ. وبعد ذلك مباشرة، كنَّا أنا وآدا بمفردنا على السلم الأكثر انحداراً بمنازلنا الثلاثة، وكان يؤدى إلى سقيفة ڤيلّتى. كانت آدا تقف على بعض الدرجات فى الأعلى، لكنها كانت تلتفت إلىّ وأنا أقوم بالصعود، فى حين كانت تبدو وكأنها تريد الهبوط. كنت أحتضن ساقيها، وكانت تنحنى نحوى لا أدرى إن كان من وهنها أو لتدنو أكثر فأكثر منِّى. بدت لى للحظة وقد مسخها مرضها، لكن فيما بعد، وأنا أنظر إليها فى قلق، تمكنت من رؤيتها كما ظهرت لى من النافذة، فى حُسنها وسلامة صحتها. قالت لى بصوتها المتماسك: «تقدم، سألحق بك على الفور!». وإذ كنت مستعداً استدرت لأسبقها مسرعًا، لكن بما لا يكفى من سرعة حتى لا ألاحظ باب السقيفة وهو يُفتح شيئًا فشيئًا ويطل منه رأس باسيدوى ذو الشعر الأشيب وبوجهه ذاك ما بين الخوف والتهديد. رأيت منه أيضًا الساقين الواهنتين والبدن الهزيل البائس الذى لم يفلح المعطف فى إخفائه. تمكنت من الابتعاد مسرعًا، لكن لا أدرى إن كان لكى أسبق آدا أو للهروب منها.

يبــدو أنّى فى ذاك الوقت اسـتـيـقظت فى أثناء الليل وأنا ألهث، وحكيت في أثناء غفوتي لأوجوستا كل شيء أو جزءًا من الحلم لأستعيد بعد ذلك نومًا أكثر هدوءًا وعمقًا. أعتقد أنِّى بين الغفوة والوعى انسقت بلا تبصُّر وراء الرغبة القديمة فى الاعتراف بزلاَّتى.

فى الصـبـاح، كان واضـحًـا على وجـه أوجـوسـتـا ذلك الشـحـوب الشديد، الذى كان يصاحب المناسبات الخطيرة. كنت أتذكر الحلم بدقة، لكن لم أتذكر بالضـبط مـاذا قلته لها منه. قالت لى وقد بدا عليها مظهر الاستسلام المؤلم:

– تشعر بالحزن لأنها مرضت ورحلت؛ ولهذا تحلم بها.

دافعت عن نفسي وأنا بين الضحك والسخرية. لم تكن لآدا أهمية بالنسبة لى، بل باسيدوى، وحكيت لـهـا عن دراساتى والتطبيقات التى قمت بها أيضًا. لكن لا أدرى إن كنت نجحت فى إقناعها. فعندما نؤخذ على غِرَّة فى الحُلم يصعب أن ندافع عن أنفسنا. إنه أمر يختلف تمامًا عن العودة إلى الزوجة بعد خيانتها بوعي كامل خيانة حديثة العهد. ثم إنه لم يكن هناك ما أفقده بسبب غيرة أوجوستا تلك؛ لأنها كانت تحب آدا، حتى إن غيرتها من تلك الناحية لم تلقِ بأية ظلال، وفيما يخصُّنى، كانت تعاملنى باحترام وبشكل أكثر ودًا أيضًا، وكانت تقر لى بالجميل كثيرًا عن أى تعبير لى بحبها ولو طفيفًا.

ومـرَّت أيام قـلائل، وعـاد جويدو مــن بولونيا ومـعـه أنباء عظيمة. أكد مدير المصحَّة الشفاء التام، شرط أن تجد آدا فيما بعد فى المنزل هدوءًا كبيرًا.

نقل جويدو تشخيص الطبيب بيُسر وبدون إدراك، حتى إنه لم ينتبه إلى أن ذلك الحكم كان يؤكد فى عائلة مالفنتى شكوكًا كثيرة تحوم حوله. فقلت لأوجوستا:

- ها أنا ذا مهدد بقبلات أخرى من والدتك.

يبدو أن جويدو لم يكن يشعر براحة كبيرة فى المنزل تحت إدارة الخالة ماريا. فى بعض الأحيان كان يسير هنا وهناك فى أرجاء المكتب وهو يهمس:

- طفلان... ثلاث مربيات... ولا توجد زوجة.

كان يتغيب كذلك فى كثير من الأحيان عن المكتب، حيث كان يُفرِّج عن ضيق نفسه وهو يهاجم الحيوانات مهاجمة عنيفة، سواء فى صيد البر أو فى صيد البحر. لكن قرب نهاية العام، عندما جاءنا الخبر من بولونيا أن آدا تماثلت للشفاء، وأنها تستعد للعودة إلى بيتها، لم يبدُ لى أنه كان سعيدًا جدًا من ذلك النبأ. هل اعتاد على الخالة ماريًا أم أنه قلما كان يراها حتى أصبح من السهل والميسور له أن يتحملها؟ لم يكن يظهر لى بالطبع من سوء مِزاجه سوى ارتيابه من أن آدا ربما تتعجل كثيرًا فى مغادرة المصحة قبل أن تتأكد من عدم الوقوع فى انتكاسة. الواقع أنه عندما كان عليها أن تعود إلى بولونيا، بعد وقت وجيز فى أثناء فصل الشتاء ذاته، قال لى بنبرة الظافر:

- ألم أقل لك ذلك من قبل؟

لكن لا أظن أنه كان هناك فى ذلك الظفر سوى فرحته الشديدة بقدرته على التنبؤ بشىء من الأشياء. لم يكن يتمنى السوء لآدا، لكنه كان يروق له أن تبقى لمدة طويلة ببولونيا.

عند عودة آدا، كانت أوجوستا تلزم الفراش من أجل ميلاد طفلنا الصغير ألفيو، وصدر منها فى تلك المناسبة ما يؤثر حقًا على المشاعر. أرادت أن أذهب إلى المحطة ومعى بعض الزهور، وأن أقول لآدا إنها ترغب فى رؤيتها فى اليوم ذاته. ورجتبى أن أعود سريعًا إلى المنزل، إن لم تستطع آدا المجىء مباشرةً من المحطة، لأصفها لها وأخبرها عمّا إذا كانت قد استعادت تمامًا جمالها، الذى كانوا يتباهون به كثيراً فى العائلة.

كنّا أنا، وجويدو، وألبرتا فقط بالمحطة؛ لأن السيدة مالفنتى كانت تقضى جزءاً كبيراً من أيامها بجوار أوجوستا. كان جويدو يحاول أن يقنعنا بفرحته الغامرة لوصول آدا، لكن ألبرتا كانت تنصت إليه وهى تتظاهر بأنها فى حالة شرود شديد حتى لا تجيبه، كما قالت لى فيما بعد. أما بالنسبة لى فمنذ زمن لم يكن التصنع مع جويدو يكلفنى عناءً كبيراً. قد اعتدتُ على التظاهر بعدم إدراكى لميوله نحو كارمن، ولم أتجرأ قط على التنويه بأخطائه إزاء زوجته؛ ومن ثم فلم يشقّ علىّ أن أظهر الاهتمام كأنما استحسن فرحته لعودة زوجته المحبوبة.

عندما دخل القطار المحطة فى موعده بمنتصف النهار، تقدم أمامنا ليلحق بزوجته التى كانت تهبط منه. احتضنها بين ذراعيه وقبّلها بحنان.

أخذت أفكِّر، وأنا أنظر إليه وهو يميل ليقبِّل زوجته التي تقصر عنه كثيراً: «ممثل بارع!». ثم أمسك بيد آدا، وأتى بها إلينا قائلاً:

- ها هي ذي وقد استعدناها لحبِّنا!

في تلك اللحظة كشف عن حقيقته التي كان عليها، أي كونه زائفًا وممثلاً؛ لأنه لو دقق جيداً في وجه المرأة المسكينة، لأدرك أنها عادت إلى عدم مبالاتنا وليس إلى حناننا. أُعيد بناء وجه آدا على نحو سيئ؛ حيث استعاد وجنتيه لكن بعيداً عن موضعيهما، كأنما اللحم، في عودته، لم يتذكر أي مكان كان ينتمي إليه، واستقر نحو المنطقة السفلية أكثر مما ينبغي؛ ولهذا اتخذتا شكل انتفاخات بدلاً من وجنات. وعادت العين إلى محجرها، لكن لم يستطع أحد أن يعالج الأضرار التي سببتها عندما برزت منه. تحركت بعض خطوط ملامحها المحددة من مواضعها أو ربما دُمِّرت. عندما انصرفنا خارج المحطة، لمحت تحت أشعة شمس الشتاء التي تخطف البصر أن لون وجهها كله لم يكن هو ذلك الذي أحببته كثيراً من قبل. كان شاحبًا يميل للاحمرار على شكل بقع على الأجزاء المكتنزة باللحم. كان واضحًا أن الصحة لم تعد تخصّ ذلك الوجه، وأننا نجحنا في التظاهر بعودتها إليه.

على الفور حكيت لأوجوستا أن آدا كانت رائعة الجمال تمامًا مثلما كانت عليه وهي فتاة يانعة وسعدت بذلك. ثم، بعدما رأتها، أكدت ذلك مرات عديدة في دهشة منِّي، وكأنما كانت أكاذيبي الرحيمة حقائق واضحة. أخذت تقول:

- جميلة كما كانت وهى صغيرة، وكما ستصبح ابنتى!

من الواضح أن عين الأخت ليست ثاقبة كثيراً.

لم أرَ آدا ثانيةً لوقت بعيد. فقد أصبح لديها عدد كبير من الأبناء وكذلك نحن أيضًا. على الرغم من هذا توصلت آدا وأوجوستا إلى طريقة لتكونا معًا مرات عديدة في كل أسبوع، لكن في الساعات التى أتغيب فيها دائمًا خارج المنزل.

كان وقت الميزانية قد قرب، وكان لدىَّ الكثير ينبغى القيام به. بل كانت تلك هى الفترة التى اشتغلت فيها كثيرًا فى حياتى. ظللت في بعض الأيام جالسًا إلى المكتب لعشر ساعات. عرض علىَّ جويدو أن يحضر محاسبًا لتقديم المساعدة لى، لكنِّى لم أُبالِ بالأمر. أخذت على عاتقى مهمة كان علىَّ أن أتحمل مسئوليتها. كانت لدىَّ نية فى تعويض جويدو عن غيابى المحزن ذاك طيلة شهر، وكان يروق لى أيضًا أن أبدى لكارمن همتى، التى لم يحثّنى عليها شىء آخر سوى حبى لجويدو.

غير أنّى فى أثناء قيامى بعمل الحسابات، أخذت أكتشف الخسارة الجسيمة التى تكبَّدناها فى تلك السنة المالية الأولى. أصابنى القلق ونوهت لجويدو عنها على انفراد، لكنَّه، وكان يتأهب للرحيل للصيد، لم يشأ الاستماع إلىَّ:

- سترى أن المسألة ليست بالغة الخطورة كما تبدو لك، فضلاً عن أن السنة لم تنتهِ بعد.

فى الحقيقة كانت لا تزال هناك ثمانية أيام كاملة على رأس السنة.

كشفت حينئذ عمًّا في نفسي لأوجوستا. في باديء الأمر رأت الخسارة التي قد تلحق بي في تلك المسألة وحسب. فالنساء خلقن دائمًا على هذه الصورة، في حين أن أوجوستا كانت تفوق العادة حتى بين النساء عندما كانت تتألم مما يخصها من خسارة. ألن ينتهي بي الأمر أنا أيضًا - حسبما سألتني - بأن أعتبر مسئولاً لحد ما عن الخسائر التي يتحملها جويدو؟ كانت ترغب في استشارة مُحامٍ على الفور. وعلى ذلك كان ينبغي أن أنفصل عن جويدو وأتوقف عن الذهاب للمكتب.

لم يكن هينًا على أن أقنعها أنَّه لا يمكن أن أعد مسئولا عن شيء؛ حيث إنِّي لست سوى موظف لدى جويدو. كانت تؤكد أن من لا يجني كسبًا ثابتًا لا يمكن أن يكون موظفًا، بل هو أشبه بصاحب عمل. وعندما أصبحت مقتنعة تمامًا، حقًّا كان أن ظلت على رأيها؛ لأنها اكتشفت حينئذ أنِّي لن أخسر شيئًا إذا امتنعت عن الذهاب إلى ذلك المكتب، حيث سيفضي بي الأمر دون شك إلى تشويه سمعتي تجاريًا. يا للكارثة: سمعتي التجارية! كنت مقتنعًا أنا أيضًا بأهمية إنقاذها، وعلى الرغم من أنها كانت مخطئة فيما ساقته من أدلة، فقد حُسم الأمر بأنِّي لا بد أن أفعل ما أرادت. وافقت على أن أنهي عمل الميزانية بما أنِّي قد بدأته، ثم فيما بعد عليَّ أن أجد الوسيلة للعودة إلى حجرة مكتبي حيث لا يتم بها كسب الأموال، ولا حتى فقدها.

لكنِّي قمت آنذاك بتجربة غريبة عليَّ. لم أكن قادرًا على ترك عملي ذاك، على الرغم مما قررته من قبل. واندهشت من ذلك! فلكي ندرك الأشياء

بصورة أفضل، ينبغي أن نستفيد من الصور. تذكرت حينئذ أنه قديمًا بإنجلترا كان يطبَّق حكم الأشغال الشاقة بتعليق المتهم أعلى دولاب التعذيب الذي يحركه اندفاع الماء، وعلى هذا النحو تُجبر الضحية على تحريك ساقيها بنظام معين، وإلاّ فسيتم سحقهما. والإنسان عندما يقوم بعمل ما يكون لديه إحساس بإرغام من هذا النوع. وصحيح أنه عندما لا يقوم بعمله فالوضع هو ذاته، وأظن أنه من العدل أن أؤكد أنِّي وأوليفي كنَّا دائمًا معلّقين بالأسلوب نفسه؛ غير أنِّي كنت على تلك الصورة بطريقة لا تُكرهني على تحريك ساقيَّ. في حين أسفر موقفنا عن نتيجة مختلفة، لكنِّي على يقين الآن من أن تلك النتيجة لم تستدع اللوم أو الثناء. ومن ثم فالأمر يعتمد على الظروف إذا تم التعليق على دولاب متحرك أو ثابت. فالانفصال عنه يكون دائمًا شاقًا.

لعدة أيام، بعد أن أقفلت الميزانية، استمررت في التردد على المكتب على الرغم من قراري بعدم الذهاب إليه على الإطلاق. كنت أغادر المنزل حائرًا؛ وفي تردد أتخذ الاتجاه الذي كان في أغلب الأحيان اتجاه المكتب، وما إن أواصل السير حتى كان هذا الاتجاه يتحدد، إلى أن أجد نفسي جالسًا على المقعد المعتاد أمام جويدو. ومن حسن الحظ أنَّه رجاني في لحظة معينة ألاّ أغادر مكاني، ووافقته على الفور، حيث أدركت حينئذ أنِّي تسمَّرت فيه.

أغلقت الميزانية التي قمت بها في الخامس عشر من يناير. كانت كارثة حقيقية! أقفلنا بخسارة نصف رأس المال. لم يكن في نية جويدو

أن يُطلع عليها الشاب أوليڤى ذا النظارة خشيةً من عدم تكتمه، لكنّى أصررت آملاً أنه، بخبرته الواسعة، قد يجد بها أخطاءً قد تغير الموقف برمّته. ربما كانت هناك بعض المبالغ المنقولة من جانب المدين، إن كانت تخصُّه، إلى جانب الدائن، وبعملية تصويب يمكن الوصول إلى اختلاف مهم. وعد أوليڤى الابن جويدو، وهو يبتسم، بالسرية التامة ثم عمل معى ليوم كامل. للأسف لم يعثر على أى خطأ. ينبغى القول إنّى تعلمت كثيراً، من تلك المراجعة التى قمنا بها نحن الاثنين، و الآن أتقن مواجهة الميزانيات وإقفالها، حتى ولو كانت أكثر أهمية من تلك.

– وماذا ستصنعون الآن؟ – سأل الشاب ذو النظارة قبل أن ينصرف. كنت أعلم آنفًا ما الذى سيوصى به. فوالدى، الذى طالما حدثنى عن التجارة فى أثناء طفولتى، قد علمنى إياه. طبقًا للقوانين السارية، وبما أن الخسارة تكبدها نصف رأس المال، فإنه يلزم تصفية الشركة، وربما إعادة بنائها مباشرة على أسس جديدة. تركته يكرر لى النصيحة. أضاف قائلاً:

– إنها مسألة إجراءات شكلية. ثم قال مبتسمًا: – قد يكلف غاليًا عدم الامتثال لها!

فى المساء أخذ جويدو أيضًا يراجع الميزانية التى لم يكن قد تمكَّن بعد من التسليم بها. كان يقوم بالمراجعة بلا منهج محدد، وهو يتحقق من هذا المبلغ أو ذاك بلا تبصُّر. أردت أن أوقف ذلك العمل عديم الجدوى، وأخبرته بنصيحة أوليڤى بالتصفية الفورية، لكن بصفة شكلية، للإدارة.

حتى تلك اللحظة كان جويدو قد تقطّب وجهه، وهو يبذل الجهد فى العثور على الخطأ المنقذ: تقطيب صعَد من حدته تجهُّم من يستشعر فى فمه بمذاق باعث على التقزز. رفع وجهه مسترخيًا لحديثى معه فى محاولة للانتباه. لم يفهم فى الحال، لكنّه فور أن أدرك أخذ يضحك بصوت عالٍ. فسرّت تعبير وجهه كالآتى: كان متجهمًا وفظًّا مادام ألفى نفسه أمام تلك الأرقام التى لا يمكن تغييرها؛ مسرورًا ومرتخيًا عندما دفع الاقتراح المشكلة المؤلمة جانبًا، وسيعود عليه بالفائدة واستعادة إحساسه بأنه مالك وحاكم.

لم يتفهم الأمر. كانت تبدو له أنها نصيحة عدو. شرحت له أن نصيحة أوليفى لها قيمتها، وخاصةً فيما يتعلق بالخطر الداهم على نحو واضح على الشركة، وأننا سنفقد أموالا أخرى وسنفلس. إن إمكانية إشهار الإفلاس المحتمل إجراؤه ربما تكون بسبب الخطأ، بعد تلك الميزانية المسجلة حينئذ فى دفاترنا، إن لم تتخذ الإجراءات التى نصحنا بها أوليفى. وأضفت قائلاً:

– إن العقوبة التى تقتضيها قوانيننا بالنسبة للإفلاس بسبب الخطأ هى السجن!

اكتسى وجه جويدو باحمرار شديد، حتى خشيت أن يتعرض لالتهاب فى المخ. صاح: – فى هذه الحالة أوليفى ليس فى حاجة ليعطينى نصائح! وفى حالة ما إذا تحقق هذا أستطيع أن أحله بنفسى!

أقنعنى قراره، وانتابنى شعور بأنّى أمام رجل مدرك تمامًا لمسئولياته. خفضت نبرة صوتى. ثم اندفعت كليًا مؤيدًا لرأيه، وإذ نسيت أنّى كنت قد عرضت عليه نصيحة أوليڤى بوصفها جديرة بأن تتخذ فى الحسبان، قلت لـه:

– هذا ما آخذه على أوليڤى، فالمسئولية تقع عليك، ولا شأن لنا بها عندما تقرر أمرًا بصدد مصير الشركة التى تخصك أنت ووالدك.

حقيقة هذا ما قلته لزوجتى وليس لأوليڤى، لكن على أية حال قلته بالفعل لفرد ما. فى تلك اللحظة، وبعد أن سمعت قرار جويدو الجرىء، كان بإمكانى أيضًا نقله لأوليڤى، حيث ذلك الحزم وتلك الشجاعة كانا لا يزالان يستحوذان علىَّ. وكم كنت أحب أيضًا الطلاقة فى التعبير التى يمكن أن تنشأ فقط من هاتين الصفتين، وكذلك من صفات أخرى أقل منهما كثيرًا.

بما أننى كنت أرغب فى نقل حديثه كله لأوجوستا لأهدئ من روعها، أصررت قائلاً:

– أنت تعلم أنه يقال عنّى، وربما بحق، إنّى لا أملك أية موهبة فى مجال التجارة. أستطيع أن أنفذ كل ما تأمرنى به، لكن لا يمكننى مطلقًا أن أتحمل مسئولية ما تفعله أنت.

وافق بشدة. كان يشعر براحة كبيرة فى الدور الذى نسبته إليه، حتى إنه نسى حزنه بسبب الميزانية السيئة. وصرَّح قائلاً:

– أنا المسئول الوحيد. كل شيء يحمل اسمي، ولا أقبل على الإطلاق أن يتحمل آخرون يعملون معي على عاتقهم المسئولية.

كانت المسألة تسير على ما يرام لأخبر أوجوستا، بل سارت أفضل بكثير مماّ كنت أنتظر. وكان ينبغي رؤية المظهر الذي اتخذه وهو يقوم بذلك التصريح: كان يبدو رائداً وليس نصف مُفْلِس! لقد استفاض على مهلٍ في الحديث عن ميزانيته الخاسرة؛ ومن هنا أُصبح رئيسي في العمل وصاحب الأمر. في تلك المرة، مثل العديد غيرها طوال فترة حياتنا معاً، اختنقت انطلاقة حبي له من تصريحاته التي كانت تكشف عن الاعتداد الخاطئ بنفسه. إنه كان يقلب الأوضاع. نعم: ينبغي قول هذا بالفعل؛ ذلك الموسيقي العظيم كان يشذ في ألحانه!

سألته على حين غفلة:

– أتريد أن أقوم في الغد بعمل نسخة من الميزانية لوالدك؟

في لحظة كنت على وشك أن أُدلي له بتصريح أكثر قسوة وإخباره بأنّي عقب إقفال الميزانية مباشرةً سأمتنع عن الذهاب إلى مكتبه، لكنّي لم أفعل؛ حيث كنت لا أدري كيف سأشغل الساعات العديدة الشاغرة التي ستبقى لديّ. لكن سؤالي قد حل على نحو كامل تقريبًا محل التصريح الذي ابتلعته من قبل. وعلى كلٍّ فلقد ذكرت له أنه ليس صاحب الكلمة الوحيد في ذلك المكتب.

أبدى دهشتـه من كلامي؛ لأنه لا يتسق – كما كان يرى -- مع ما قـيل حـتـى تلك اللـحظة، ومـع تجـاوبى الواضـح تحـدثنا، وبنبـرة صـوته السابقة قال لي:

– سأقول لك أنا كيف ينبغى أن نقوم بعمل تلك النسخة.

احتججت صائحًا. لم أصح بشدة طيلة حياتى مثلما صحت معه، حيث كـان يبـدو لي فـي تلك المرة أصـم. أخـبرته أن القـانون ينص على مسئولية المحـاسب، وأنّى لست على استـعـداد أن أخـادع بتقـديم نسخ سليمة من كتل أرقام معقدة.

شحب وجهه وأقرَّ بأنِّى على حق، لكنه أضـاف أنه صـاحب حق فى أن يعطى الأوامر بألاَّ تُسلم بيانات من دفاتره على الإطلاق. أقررت حقه فى هذا عن ارتياح، وعندئذ سكن روعه، وأعلن أنه سيكتب لوالده. بل بدا أنه يريد أن يشـرع فى الكتـابة توًا ، لكنَّه بعـد ذلك عـدل عن فكرته، واقترح علىّ أن نستنشق نفحة من الهواء. رغبت فى إرضائه. رأيته لم يستوعـب بعـد جيداً مسـألة الميزانيـة، ويريد أن يتمشى ليلقى بها فى الخارج.

ذكرتنى النزهة بليلة خطبتى، لم يبزغ القمر فيها، حيث كانت هناك غيوم كثيرة تملأ السمـاء، وأسفل منها كان يشملنا جو تلك الليلة، فقد كنَّا نسير مطمـئنين فى هـواءٍ صـافٍ. تذكّر جـويدو أيضًـا تلك الأمسـية المشـهـودة:

– إنها المرة الأولى التي نسير فيها معًا من جديد ليلاً. أتذكر؟ شرحت لى آنذاك أنهم كانوا يتبادلون القبلات فى القمر مثلما يجرى على سطح الأرض. ولكنهم ما زالوا يواصلون القبلة الخالدة، أنا على يقـين من ذلك على الرغـم من أن القمر لا يُرى هـذا المساء. أما، هنا بأسفل...

أكان يرغب فى البَدء بحديث سيئ عن آدا؟ عن السقيمة البائسة؟ قاطعته، ولكن فى هـدوء، كما لو كنت أشاركه (أما صاحبته لأساعده على النسيان؟):

– حقًا! هنا لا يمكن مواصلة تبادل القبلات! ثم لا يوجد هناك فى السماء سوى صورة القبلة. والقبلة حركة، قبل كل شىء.

حاولت أن أبتعد عن جميع تساؤلاته، وهذا يعنى الميزانية وآدا، وحقيقةً أننى تمكنت فى اللحظة المناسبة أن ألغى جملة كنت على وشك أن أنطق بها، وهى أن القبلة هناك لا تنجب توائم. لكنّه، لكى يتخلص من التفكير فى الميزانية، لم يجد أفضل من الشكوى من مصائبه الأخرى. وكما استشعرت، فقد تحدث بسوء عن آدا، استهل كلامه بالأسف على شدة ما أصابه فى عام زواجه الأول. لم يتحدث عن التوأمين الغاليين والجميلين، بل عن مرض آدا. كان يعتقد أن المرض جعلها سريعة الغضب، غيورا، وفى الوقت نفسه أقل حنانًا. أنهى حديثه وهو يصيح بحـزن شـديد:

– الحياة ظالمة قاسية!

رأيت بشىء قاطع أن هناك ما يمنعنى من أن أتفوه بكلمة واحدة تتضمن رأيى فيما بينه وبين آدا. لكنّى شعرت بأنه علىَّ أن أقول على الرغم من ذلك شيئًا. أفضى به الأمر إلى الحديث عن الحياة، وقد وصفها بصفتين لا تحملان صفة الغرابة المفرطة. واكتشفت الأمور بصورة أفضل تمامًا؛ حيث أخذت أمعن التفكير فيما ذكره من قبل. أحيانًا كثيرة تقال أشياء طبقًا لصوت الكلمات التى تتآلف بالمصادفة. وبعد ذلك مباشرةً، نذهب لنرى إذا كان ما قيل يستحق النفس الذى استهلك فيه، وفى بعض الأحيان نكتشف أن التآلف العشوائى أسفر عن فكرة ما. فقلت:

– الحياة ليست قبيحة ولا جميلة، بل غريبة الأطوار!

عندما فكرت فى الأمر بدا لى أنّى قلت شيئًا مهمًا.

ظهرت لى الحياة، وقد سُمِّيت على هذا النحو، جديدة حتى مكثت أتأملها كأنما رأيتها للمرة الأولى بأجسامها الغازية والسائلة والصلبة. لو كنت أخبرت بذلك أحدًا لم يعتد عليه، وليس لديه بالتالى إحساسنا المشترك، لتوقفت أنفاسه أمام ذلك البناء الضخم بلا هدف، ولسألنى: «لكن كيف تحتملونها؟». وما إن يستعلم عن كل التفاصيل الدقيقة بداية من تلك الأجسام السماوية المعلقة فى أعلى السماء لكى نراها ولكن لا نلمسها، إلى عالم الأسرار الذى يحيط بالموت، حتى يصيح دون شك قائلاً: «فى غاية الغرابة!».

– الحياة غريبة الأطوار! قال جويدو ضاحكًا. أين قرأت هذا؟

لم أبالِ بأن أؤكد له أنِّى لم أقرأه فى أى مكان، وإلاَّ لقلْت أهمية حديثى بالنسبة له. لكن، كلَّما أمعنت التفكير فى الحياة، وجدتها أكثر غرابة. ولا يلزم أبدا أن نأتى من عالم خارجى لنراها مركبة بأسلوب فى غاية الغرابة. يكفى أن نتذكر كل ما توقعناه نحن البشر من الحياة، حتى نراها غريبة بالدرجة التى نخلُص منها إلى أن الإنسان ربما وضع بداخلها عن طريق الخطأ، وأنه لا ينتمى إليها.

ودون أن نتفق على اتجاه نزهتنا، وصلنا مثل المرة السابقة إلى مطلع طريق بيلڤيديرى. عندما وجد جويدو الجدار الصغير الذى استرخى عليه تلك الليلة، صعد عليه واضطجع تمامًا مثلما فعل تلك المرة. أخذ يُدندن، ربما كان لا يزال يشعر باختناق من قلقه، ومن المؤكد أنه كان يفكر مليًا فى الأرقام الحتمية بدفاتر حساباته. أما أنا فتذكرت أنِّى كنت أريد قتله فى ذلك المكان، وعندما قارنت بين مشاعرى آنذاك وأحاسيسى فى تلك اللحظة، أخذت أتعجب للمرة الثانية من غرابة الحياة التى لا تقاربها غرابة. لكن تذكرت فجأة أنِّى منذ وقت وجيز، وفى نزوة غرور، تعاملت بقسوة مع جويدو المسكين، وهو يوم من أسوأ أيام حياته. شغلت نفسى بالبحث فى مسألة: دون الشعور بألم كبير، كنت أشاهد العذاب الذى كان يعانى منه جويدو بسبب الميزانية التى ضبطناها معًا بعناية شديدة، وخطر لى شك عجيب، وبعده مباشرةً ذكرى غريبة. أما الشك فكان تساؤلاً: هل كنت طيبًا أم شريرًا؟ وأما الذكرى، وقد أثارها على حين غفلة شك ليس بجديد؛ فهى أننى رأيتُنى طفلاً أرتدى (وأنا على يقين من هذا)

مع ذلك تنورة قصيرة، وعندما كنت أرفع وجهى لأسأل والدتى الباسمة: «أطيب أنا أم شرير؟»، وحينئذ كان لابد للشك من أن يراود الطفل بسبب كثيرين قالوا له إنه طيب وآخرين كثيرين وصفوه بالشرير، وهم يمزحون. لم يكن هناك داعٍ للدهشة على الإطلاق أن يصبح الصبى حائراً بين البديلين. يالها من حياة غريبة بوجه لا يقارن! عجيب أن ذلك الشك الذى حُكم به على الصبى بصورة طفولية للغاية، لم يبدده الشخص الناضج وقد تعدى منتصف عمره.

فى الليلة الداكنة، فى ذلك المكان بالضبط، حيث رغبت فى قتله من قبل، عذّبنى ذلك الشك عذاباً شديداً. من المؤكد أن الطفل عندما أحسّ ذلك الارتياب يراود رأسه الذى تحرر منذ قليل من غطائه، لم يتألم كثيراً حيث يُحكى للأطفال أنه يتم الشفاء من نزعة الشر. ولأتخلص من هذا العذاب الشديد رغبت فى الإيمان بذلك من جديد، ونجحت. لو لم أتمكن من ذلك، لبكيت من أجل نفسى، ومن أجل جويدو ومن أجل حياتنا البائسة. وها هو ذا قرارى الذى جدّد الشعور بالوهم! إنه عزمى على الوقوف بجانب جويدو والتعاون معه لإنجاح تجارته التى تكفُل معيشته هو وعائلته، وبدون مقابل. تراءت لى إمكانية أن أسارع، وأجتهد وأبحث من أجله، ولكى أقدم له يد المساعدة، سلّمت بإمكانية أن أصبح تاجراً عظيماً، مغامراً، وعبقرياً. وعلى هذا النحو أخذت أفكر بالفعل فى تلك الليلة المعتمة فى هذه الحياة متناهية الغرابة!

في غضون ذلك توقف جويدو عن التفكير في الميزانية. ترك مكانه وبدا عليه صفاء النفس، كأنما استخلص نتيجة ما من تفكير لم أعرف عنه شيئًا، قال لي إنه لن يخبر والده بشيء، وإلاّ فسيقطع العجوز المسكين تلك الرحلة الطويلة الشاقة من شمسه الصيفية حتى ضبابنا الشتوي. ثم أضاف لي أن الخسارة تبدو للوهلة الأولى جسيمة، في حين لن تصبح فيما بعد كبيرة إن لم يتحملها كاملةً بمفرده. سيرجو آدا أن تتحمل نصفها، وفي المقابل سيمنحها جزءًا من أرباح العام التالي. وسيتكفّل هو بالنصف الآخر من الخسارة.

لم أتفوه بشيء، وانتبهت أيضًا إلى أن هناك ما يمنعني من إبداء النصيحة، وإلاّ فسأنتهي إلى القيام بما كنت لا أرغب فيه على الإطلاق، وهو أن أقيم نفسي حكمًا بين زوجين. وفضلاً عن ذلك كانت تغمرني حينئذ نيات جيدة، حيث رأيت أن آدا ستقوم بصفقة رابحة بمشاركتها في مؤسسة تجارية نقوم بإدارتها.

اصطحبت جويدو إلى باب منزله وصافحته طويلاً؛ حتى أجدّد في هدوء نيتي في منحه محبتي. ثم اجتهدت أن أقول له شيئًا لطيفًا، وتوصلت إلى هذه الجملة:

- فلينعم طفلاك بليلة طيبة ويدعاك تنام؛ لأنك تحتاج بالتأكيد إلى الراحة.

في أثناء انصرافي عضضت شفتي أسفًا على أنّي لم أجد شيئًا أفضل من هذا أقوله له. وما دمت كنت أعرف أن التوأمين كانا يحظيان

حينئذ بمربية لكل منهما وينامان على بعد نصف كيلو متر منه، وما كان يتمكنان من إزعاجه فى أثناء نومه! على أية حال لقد أدرك مغزى الأمنية، حيث تقبلها وهو ممتنّ.

عندما وصلت إلى البيت، وجدت أوجوستا وقد آوت إلى حجرة النوم مع الطفلين. كان ألفيو متعلقًا بصدرها، فى حين كانت أنتونيا ترقد فى فراشها الصغير وهى تدير لنا عنقها ويغطيه خصلات شعرها المموج. رأيت أن أبرر لها سبب تأخيرى، وبالتالى قصصت عليها أيضًا الوسيلة التى فكر فيها جويدو للتخلص من خسائره. رأت أوجوستا أن اقتراح جويدو غير لائق:

– لو كنت فى موضع آدا لرفضت – قالت فى حدة على الرغم من صوتها الخافت لكى لا تفزع الصغير.

دفعتنى نياتى الحسنة، فجادلتها:

– إذًا، إن وقعت فى المحنة ذاتها التى يمر بها جويدو أفلا تساعديننى؟

ضحكت قائلة:

– الأمر يختلف تمامًا! سنرى فيما بيننا نحن الاثنين ما يمكن أن يحقق إفادة أكبر لهما! وأشارت إلى الرضيع الذى كانت تحمله على ذراعها وإلى أنتونيا. ثم، بعد لحظة من التفكير، استمرّت قائلة: – إذا نصحنا آدا الآن أن تهب أموالها لبقاء ذلك العمل الذى لن تشارك أنت فيه عمّا قريب، ألن نلتزم فيما بعد بتقديم تعويض لها إذا خسرته؟

كان تفكيراً ينم عن جهل، لكن بنزعتى الجديدة للإيثار صحت:

– ولِمَ لا؟

– أما ترين أن لدينا اثنين من الأطفال لا بد أن ننشغل بهما؟

وكم كنت أراهما! كان السؤال صيغة بلاغية خالية حقًا من المغزى.

– أليس لهما هما أيضًا طفلان؟ سألتها بنبرة ظافرة.

بدأت تضحك بصوت عالٍ، فأفزعت ألفيو الذى ترك الرضاعة وبكى فى الحال. انشغلت به، لكنها ظلت تضحك، وتقبّلت ضحكها، وكأننى كسبته بخفة روحى، فى حين أنه فى الحقيقة، فى اللحظة التى وجّهتُ فيها ذلك السؤال، كنت أشعر بحب عظيم ينبض فى صدرى نحو آباء جميع الأطفال وأطفال جميع الآباء والأمهات. ثم أتى الضحك، فلم يبق من هذا الحب شىء.

ولكن هدأ أيضًا شعورى المؤلم بعدم استطاعتى أن أكون طيبًا بشكل جوهرى. بدا لى أنّى حللت المشكلة المؤلمة. فلم يكن هناك أخيار ولا أشرار، كما أنه لا يوجد بعد أشياء أخرى كثيرة. فالطيبة هى الضوء الذى ينير النفس البشرية الغامضة لحظات وومضات. ويلزم وجود المشعل الملتهب لكى يضىء (كان هذا المشعل يوجد بداخل نفسى، وآجلاً أو عاجلاً سيعود أيضًا دون شك) والإنسان الذى يفكر فى هذا الضوء يتمكن من اختيار الاتجاه ليتحرك فيما بعد فى الظلمات؛ ومن ثم نستطيع أن نظهر طيبين، فى غاية الطيبة، ودائمًا أخياراً، وهذا هو المهم.

وإذا ما عاد الضوء، فلن يفاجئ أو يخطف الأبصار. ولنفخت فيه لأطفئه أولاً، حيث كنت لا أحتاج إليه، ولتمكنت أيضًا من الاحتفاظ بالنية، أى الاتجاه الذى عزمت عليه.

إن قرارى أن أكون طيب القلب قرار هين وعملى، وكنت فى تلك اللحظة هادئًا وباردًا. غريب! إن الإسراف فى التفكير فى الطيبة جعلنى أبالغ فى اعتدادى بنفسى وبقدراتى. ما الذى كان يمكن أن أصنعه لجويدو؟ حقًا أنّى فى مكتبه كنت أفوق آخرين بقدر ما كان أوليڤى الوالد يسيطر علىّ بمكتبى. لكن هذا لا يدل على كثير. ولكى أكون عمليًا بالفعل: بماذا كان علىّ أن أنصح جويدو فى اليوم التالى؟ هل أنصحه؟ وإن كانوا حتى على طاولة القمار لا يأخذون بالإيحاءات مطلقًا عندما يلعبون بأموال الآخرين! ينبغى لإنعاش مؤسسة تجارية أن نوفّر لها عملاً دائمًا، وهذا يمكن الوصول إليه بالعمل طوال الوقت فى إطار نظام من النظم. لم أكن أنا من يستطيع أن يقوم بشىء مماثل، ولم أرَ عدلاً أن أعرض نفسى للسأم مدى الحياة من فرط الطيبة.

كنت مع ذلك أشعر بداخلى بإحساس نابع من رغبتى فى أن أكون طيبًا، وكأنه التزام تعهدت به مع جويدو، ولم أستطع أن أغمض جَفنى. تنهدت عدة مرات إلى أن ارتجفت مرة، من المؤكد أن ذلك كان فى اللحظة التى هيئ لى فيها أنّى سأرغم على الارتباط بمكتب جويدو، مثلما تقيد أوليڤى بمكتبى.

بين اليقظة والمنام همست أوجوستا:

– ما بك؟ أثمة شيء آخر تقوله لأوليڤي؟

هاهي ذي الفكرة التي كنت أبحث عنها! كان عليّ أن أنصح جويدو باتخاذ أوليڤي الابن مديراً له! ذلك الشاب غاية في الجدية والاجتهاد، على الرغم من أنّي كنت أطيقه على مضض في أعمالي؛ لأنه كان يبدو لي على استعداد لأن يحل محل أبيه في إدارة شركتي حتى يبعداني عنها بصفة نهائية، كان شاباً يعمل على نحو واضح ولصالح الجميع في مكتب جويدو. وإذا ما كلِّف بوظيفة بشركته، فسينجو جويدو. وسيفيد الشاب أوليڤي بصورة أكبر في ذلك المكتب وليس في مكتبي.

حمّستني الفكرة، وأيقظت أوجوستا لأخبرها بها. تحمّست هي أيضًا لها، حتى إنها أفاقت كليًا. ظنّت أنِّي على هذا النحو أستطيع أن أنأى بسهولة عن التورط في صفقات جويدو. خلدت إلى النوم وضميري مطمئن: لقد عثرت على الوسيلة التي أنقذ بها جويدو دون أن أحكم على نفسي. كانت وسيلة مختلفة تمامًا.

ليس هناك شيء مثير للضيق أكثر من الشعور بنبذ نصيحة استغرقت دراستها بصدق وجهد قدراً من ساعات النوم. ثم كان هناك جهد آخر قمت به، وهو أن أخلع عنِّي التوهم بمقدرتي على المساعدة في أعمال جويدو. كان جهداً ضخمًا. توصلت معه في بادئ الأمر إلى طيبة نفس صادقة، ثم إلى موضوعية مطلقة، وتنبهت معها لعدم صلاحيتي!.

رفض جويدو مشورتى رفضًا مباشرًا فى ازدراء. لم يكن يرى الشاب أوليڤى كفئًا، فضلاً عن هيئته التى تجعل منه شابًا مسنًا، وكانت تسوءه أيضًا تلك النظارة اللامعة على وجهه الشاحب. كانت الذرائع حقًا دليلاً لتوهمنى بأنه لم يكن بينها سوى واحدة جوهرية: هى الرغبة فى مضايقتى. أنهى حديثه بأنه قد يقبل مديرًا لمكتبه ليس الابن، بل العجوز أوليڤى. لكنّى لم أكن أرى باستطاعتى أن أضمن له تعاون هذا الأخير، فضلاً عن عدم تأهبى لتحمل إدارة أعمالى بين الحين والآخر. أخطأت فى جدالى معه، وقلت له إن أوليڤى الأب ليس له قيمة كبيرة. أخبرته كم من الأموال كلّفنى عناده فى عدم رغبته فى شراء ذلك الزبيب فى اللحظة المواتية.

- حسنًا! - صاح جويدو - إذا كان العجوز رجلاً قليل القدر إلى هذا الحد، فما القيمة التى يمكن أن يبلغها الشاب وهو ليس إلاّ تلميذًا له؟

وهاهى ذى أخيرًا مناقشة جيدة، وكم كانت مناقشة باعثة على سخطى؛ لأنّى طرحته عليه بثرثرتى المتهورة.

توالت أيام قلائل، وأخبرتنى أوجوستا أن جويدو اقترح على آدا أن تتحمل من أموالها نصف خسارة الميزانية. رفضت آدا الاقتراح وقالت لأوجوستا:

- يخوننى ويريد أيضًا أموالى!

لم تتجرأ أوجوستا أن تنصحها بإعطائه المال، لكن أخذت تؤكد أنها بذلت كل وسعها لتغيير رأى آدا حول مسألة إخلاص زوجها. جعلتنا إجابتها نحكم بأنها تعلم من الأمور بهذا الصدد أكثر مما كنّا نعتقد. وتناقشت أوجوستا معى على هذا النحو:

ينبغى القيام بأى تضحية من أجل الزوج، لكن هل هذه الحقيقة المسلّمة يستحقها جويدو أيضًا؟

فى الأيام التالية جاء سلوك جويدو بالفعل غير مألوف. كان يأتى إلى المكتب من وقت لآخر، ولا يمكث به مطلقًا أكثر من نصف ساعة. كان يسرع بالانصراف كمن نسى منديله فى المنزل. علمت فيما بعد أنه كان يذهب ليحمل لآدا براهين جديدة بدت له حاسمة لحثها على تنفيذ رغبته. كان مظهره يدل حقيقة على إنسان بكى كثيرًا أو صاح كثيرًا، أو بالأحرى تعارك مع نفسه، ولم ينجح حتى فى حضورنا أن يسيطر على انفعاله الذى يخنق حلقه ويجلب الدمع إلى عينيه. سألته عمّا يشغله؛ أجابنى بابتسامة حزينة، لكنها ودود، ليظهر لى أنه لا يحقد علىّ. ثم تمالك نفسه ليتمكن من الحديث معى، دون أن ينفعل أكثر مما ينبغى. وفى النهاية ذكر بضع كلمات: أن آدا كانت تعذبه بغيرتها.

ومن ثم أخبرنى بمناقشاتهما عن شئونهما الحميمة، وكنت أعلم على الرغم من ذلك أن هناك مسألة «حساب الأرباح والخسائر» التى كانت تدور بينهما.

لم يبدُ ثمة أهمية لهذا الأمر. هذا ما قاله جويدو لى وقالته آدا لأوجوستا كذلك، ولم تكن تتحدث معها إلاّ عن غَيرتها. فضلاً عن أن تلك المناقشات العنيفة، التى خلفت آثاراً عميقة على وجه جويدو، كانت توهم بأنهما يقولان الحقيقة.

وقد اتضح فيما بعد أن الزوجين لم يتحدثا إلاّ فى مسألة الأموال. فآدا لكبريائها، وتحت وطأة آلامها العاطفية التى كانت توجِّهها، لم تنوه قط عن الصفقات، أما جويدو، فربما لوعيه بذنبه، وعلى الرغم من أنه كان يشعر بما يثير ذلك فى أدا من سورة غضب المرأة، أخذ يستمر فى مناقشتها فى الأعمال، كأن لم يكن هناك سوى ذلك. كان يلهث أكثر فأكثر سعياً وراء تلك الأموال. فى حين أخذت هى، التى كانت لا تعنيها مسألة الصفقات على الإطلاق ، تعارض اقتراح جويدو بحجة واحدة: الأموال لابد أن تقتصر على الأطفال. وكلما كان يعثر على ذرائع أخرى، مثل راحة باله، أو الفائدة التى ستعود على الأطفال أنفسهم من أعماله، أو الضمانات القانونية التى يمكن تقديمها، كانت ترفض بشدة: "لا" . كان هذا يثير يأس جويدو، ويثير – كما يحدث لدى الأطفال – رغبته أيضًا . فى حين أن كليهما – عندما كانا يتحدثان للآخرين – كانا يظنان أنهما على صواب، وهما يؤكدان أن معاناتهما ترجع إلى الحب والغَيرة.

كان نوعًا من سوء الفهم الذى منعنى من التدخل فى اللحظة المناسبة لإيقاف مسألة المال المؤسفة. كان بإمكانى أن أثبت لجويدو أنها فى حقيقة الأمر بلا أهمية. فأنا بطيء الفهم فى المحاسبة بعض الشيء،

ولا أستوعب الأمور إلاّ بعد أن أنظمها فى الدفاتر وأسجلها، لكن أعتقد أنِّى سرعان ما أدركت أن المبلغ الذى كان جويدو يلحُّ فى طلبه من آدا لن يغير الأوضاع كثيراً. بم كان يفيد حقًا السعى وراء دفع مبلغ من المال؟ فالخسارة على هذا النحو لن تبدو ضئيلة مطلقًا، ما لم توافق آدا على سكب أموالها في تلك الحسابات، الأمر الذى لم يطلبه جويدو. والقانون لن ينخدع عندما يجد أن هناك رغبة، بعد وقوع خسارة كبيرة، فى مخاطرة أكبر قليلاً بإجتذاب رءوس أموال جديدة فى الشركة.

ذات صباح لم يظهر جويدو بالمكتب مما أدهشنا؛ لأننا كنَّا نعلم أنه لم يذهب للصيد مساء الليلة السابقة. وعلى مائدة الطعام أخبرتنى أوجوستا، وقد كانت متأثرة ومنفعلة، أن جويدو حاول الانتحار فى الليلة السابقة. وهاهو ذا بعيد عن الخطر. لابد أن أعترف أن الخبر، الذى كان مفجعًا لأوجوستا فيما يبدو، قد أثار غضبى.

لقد لجأ إلي تلك الوسيلة العنيفة ليحدّ من مقاومة زوجته! سرعان ما علمت كذلك أنه فعلها مع توخى تمام الحذر، حيث أراها قبل أن يتناول المورفين الزجاجة منزوعة السدادة فى يده. وهكذا فور أن غفا، استدعت آدا الطبيب، وسرعان ما زال عنه الخطر. مرَّت بآدا ليلة مفزعة؛ لأن الطبيب رأى ضرورة التحفظ حول نتيجة التسمم، ثم أطال جويدو انفعال آدا؛ لأنه عندما استفاق، وربما لم يكن فى وعيه التام، غمرها باللوم وقال بأنها عدوته، وهى التى تعذبه، وتمنعه من عمله السليم الذى يريد البَدء فيه.

في الحال وافقت له على القرض الذى كان يطلبه، لكن بعد ذلك، فى نهاية الأمر، وبهدف أن تحمى نفسها، تحدثت بوضوح، ووجهت له كل اللوم الذى كانت تحتفظ به منذ وقت بعيد. وعلى هذا النحو توصلا إلى التفاهم بينهما، حيث وُفِّق جويدو - حسبما ظنَّت أوجوستا - فى إزالة الشكوك بداخل آدا حول مسألة إخلاصه. صار قويًا، وعندما تحدثت إليه عن كارمن، صاح:

- هل تغارين منها؟ حسنًا، سأطردها اليوم إذا رغبت فى ذلك.

لم تجب آدا، وظنَّت هكذا أنها قبلت الاقتراح، وأنه تعهد به.

أخذتنى الدهشة من أن جويدو استطاع أن يتصرف على هذا النحو ما بين النوم واليقظة، وبلغ بى الظن أنه لم يتناول حتى الجرعة القليلة من المورفين التى ذكرها. كنت أعتقد أن أحد تأثيرات تشويش العقل فى أثناء النعاس، يتمثل فى إذابة أشد ما بالنفس من صلابة، وحملها على أكثر الاعترافات بساطة. ألم أمر بهذه المغامرة منذ فترة ليست ببعيدة؟ هذا مما زاد من ازدرائى وسخطى على جويدو.

كانت أوجوستا تبكى، وهى تحكى الحالة التى وجدت عليها آدا. كلاَّ! آدا لم تعد جميلة وهى بعينيها الشاخصتين فزعًا.

تحدثنا أنا وزوجتى طويلاً حول ما إذا كان علىَّ أن أقوم بزيارة لجويدو وآدا على الفور، أم أنه من الأفضل التظاهر بأنِّى لا أعلم شيئًا، وأنتظر حتى أراه ثانيةً بالمكتب. كانت تلك الزيارة بالنسبة لى مصدر

إزعاج لا يطاق. عندما أقابله، كيف كان بإمكانى ألاّ أبوح له بما يدور بخلَدى؟ قلت:

- إنه أسلوب لا يليق برجل! ليست لدى أية نية فى الانتحار، لكن لا شك أننى إن قررت القيام بذلك فسأنجح فيه فوراً.

هذا ما كنت أشعر به تماماً، وكنت أرغب فى أن أخبر أوجوستا به. لكن كنت أرى أنِّى أكرم على جويدو أكثر مما ينبغى، إذا ما قارنته بنفسى:

- لا يلزم مطلقًا أن نكون علماء بالكيمياء لكى نستطيع القضاء على جسدنا هذا، فهو أيضًا فى غاية الضعف. ألم يمر أسبوع على وجه التقريب، فى مدينتنا، على تلك الخياطة التى تجرعت محلول الفوسفور الذى أعدته خلسةً فى حجرتها الصغيرة المتواضعة، ومن هذا السم البُدائى، وعلى الرغم من كل تلك العمليات لإنقاذها، واجهت الموت بوجهها الذى كان لا يزال متقلصًا من الألم البدنى والمعنوى الذى أصاب نفسها البسيطة البريئة؟

لم تقبل أوجوستا أن نفس الخياطة المنتحرة كانت على هذه الدرجة من البراءة، لكنها، وبعد اعتراض عابر على ما قلت، عاودت المحاولة فى حثِّى على القيام بتلك الزيارة. أخبرتنى ألاّ أخشى الحرج. فلقد تحدثت مع جويدو الذى تعامل معها بهدوء شديد، كما لو أنه قام بعمل مألوف للغاية.

غادرت المنزل دون أن أرضى أوجوستا بإظهار اقتناعى برأيها. وبعد تردد بسيط بدأت بالفعل الطريق لإسعاد زوجتى. وعلى الرغم من أن المسافة كانت قصيرة، فقد ساقنى إيقاع خطواتى إلى تخفيف حكمى على جويدو. تذكرت الاتجاه الذى أرشدنى إليه الضوء الذى أنار نفسى قبل بضعة أيام. كان جويدو بالنسبة لى صبيًا، فتى صغيراً وعدته بتسامحى. إن كان لم يوفق فى الانتحار من قبل، فسيصل هو أيضًا عاجلاً أو آجلاً إلى مرحلة النضج.

أدخلتنى الخادمة فى حجرة صغيرة غالبًا ما كانت غرفة مكتب آدا. كان النهار غيومًا ومساحة الحجرة ضيقة، وبها نافذة واحدة مغطاة بستار سميك، مما جعلها مظلمة. كانت صور أبوى آدا وجويدو معلقة على الحائط. مكثت بها قليلاً حيث عادت الخادمة لتدعونى وتقودنى إلى جويدو وآدا فى حجرة النوم. كانت رحبة ومضيئة حتى فى ذلك اليوم، بفضل نافذتيها المتسعتين ومفروشاتها وأثاثها فاتح اللون. كان جويدو يرقد فى فراشه ورأسه معصوب، وإلى جواره تجلس آدا.

استقبلنى جويدو دون أى حرج، بل بامتنان كبير. كان يبدو كما لو أن النُّعاس يغالبه، لكنه استطاع أن يفيق ويستيقظ تمامًا، ليلقى علىَّ التحية ثم يملى علىَّ أوامره. ثم استرخى على الوسادة وأغمض عينيه. هل تذكَّر أنه لابد أن يتظاهر بتأثير المورفين الشديد؟ على أية حال كان لا يثير السخط، بل الشفقة؛ فشعرت بالرأفة تغمرنى.

لم أنظر مباشرة إلى آدا: كنت أخشى من ملامح باسيدوى. وعندما نظرت إليها، سرّتنى المفاجأة؛ لأنّى كنت أتوقع الأسوأ. كانت عيناها متسعتين بحق أكثر مما ينبغى، لكن الانتفاخات التى كانت قد حلت محل وجنتيها على وجهها، اختفت فوجدتها أكثر جمالاً. كانت ترتدى ثوباً فضفاضاً أحمر اللون، مقفلاً حتى الذقن، يتيه بداخله جسدها المسكين النحيف. كان بداخلها ثمة شىء من الطُّهر العظيم، وفى عينيها، شىء من الجدية الشديدة. لم أتمكن من استيضاح مشاعرىَ تماماً، لكنِّى شعرت حقًّا أن بجوارى تجلس امرأة تشبه آدا التى أحببتها.

فى لحظة معينة اتسعت عينا جويدو، وأخرج من تحت الوسادة شيكًا، وفى الحال رأيت عليه توقيع آدا، سلَّمه لى، ورجانى أن أصرفه، وأودع المبلغ فى حساب أفتحه باسم آدا.

- باسم آدا مالفنتى أم آدا سبيير؟ سألتُ آدا على سبيل المزاح.

رفعت كتفيها وقالت:

- أنتما الاثنان على عِلم بما هو أفضل.

- سأخبرك لاحقًا بما ينبغى أن تقوم به لإجراءات التسجيل الأخرى. أضاف جويدو بإيجاز تسبب فى إهانتى.

أوشكت أن أقطع عليه النُّعاس الذى استسلم له على الفور؛ لأوضح له أنه إن كان يرغب فى القيام بإجراءات التسجيل فليقم بها بنفسه.

فى غضون ذلك أحضروا فنجانًا كبيرًا من القهوة قدمته آدا إليه.

أخرج ذراعيه من تحت الأغطية، وحمل بيديه الفنجان على فمه. فى تلك اللحظة بدا، وأنفه فى الفنجان، طفلاً تمامًا.

أكد لى، فى أثناء انصرافى، أنه سيأتى إلى المكتب فى اليوم التالى.

وبعد أن حييت آدا اندهشت كثيرًا عندما لحقت بى عند باب الخروج. كانت تلهث:

– تزينو، أرجوك! تعال للحظة. أحتاج أن أقول لك شيئًا.

تبعتها إلى حجرة الصالون الصغيرة حيث كنت قبل قليل، وكان يصل منه حينئذ بكاء أحد التوأمين.

مكثنا واقفين ينظر أحدنا إلى الآخر. كانت لا تزال مضطربة الأنفاس؛ ولهذا، بسبب هذا وحسب، فكرت للحظة أنها ستدخلنى فى تلك الحجرة الصغيرة المعتمة لتسألنى الحب الذى قدمته لها من قبل.

فى الظلمة كانت عيناها الواسعتان مخيفتين. كنت أتساءل فى قلق شديد ماذا كان علىّ أن أقوم به. ألم يكن من واجبى أن آخذها بين ذراعى، وبالتالى أوفر عليها أن تسألنى شيئًا؟ كم من نيّات تتبدل فى لحظة واحدة! من بين الصعوبات البالغة فى الحياة أن نحزّر ما ترغب فيه امرأة. لن يفيد الاستماع إلى كلماتها؛ لأن نظرة واحدة قادرة على أن تمحو حديثًا كاملاً، ولن يستطيع ذلك أيضًا أن يوجّهنا عندما نكون معها، بناء على رغبتها، فى حجرة صغيرة ومعتمة.

لا يمكن تخمين ما تفكر به؛ لذا أخذت أفطن إلى ما يدور بداخلى. ما رغبتى؟ هلى كنت أريد أن أقبِّل هاتين العينين وذلك الجسد الذى تحول إلى هيكل عظمى؟ لم أستطع إعطاء إجابة محددة، حيث رأيتها قبل قليل فى عِفتها الشديدة بذلك الثوب الناعم، مرغوبة مثل الفتاة التى أحببتها من قبل.

فى تلك الأثناء صاحب البكاء أيضًا قلقها، وهكذا طال الوقت الذى لم أدر فيه ماذا تريد وما أرغب فيه. وأخيراً، بصوت متقطع، وللمرة الثانية أخبرتنى بحبها لجويدو، حتى إنّه لم تعد علىَّ أية واجبات أو حقوق نحوها. تلعثمت قائلة:

– قالت لى أوجوستا إنك ترغب فى ترك جويدو، والكف عن الاهتمام بأعماله. رأيت أن أرجوك أن تستمر فى مساعدته. لا أعتقد أنه قادر على الاعتماد على نفسه.

سألتنى أن أستمر فيما كنت أقوم به بالفعل. لم يكن كافيًا، كان بالفعل قليلاً، فحاولت أن أمنحها المزيد:

– كما تشائين، سأستمر فى مساندة جويدو؛ بل سأبذل قصارى جهدى فى معاونته أكثر مما قمت به حتى الآن.

هاهى ذى مبالغة جديدة! أدركتها فى اللحظة ذاتها التى وقعت فيها، لكنِّى لم أتمكن من التراجع عنها. كنت أريد أن أقول لآدا (أو ربما أكذب عليها) إنها تضغط علىَّ. لم ترغب فى حبى، بل فى مؤازرتى، وقد تحدثت أنا إليها بأسلوب تفهم منه أنِّى متأهب لكى أمنحها كليهما.

فى الحال قبضت آدا على يدى. أحسست برعشة. فالمرأة تقدِّم الكثير وهى تصافح بيدها. شعرت بهذا دائمًا عندما تمد إلىَّ امرأة يدها، يهيأ لى أنِّى أمسك بها كاملةً. أحسست بقامتها وبالمقارنة الواضحة بينها وبينى، أحسست كما لو أنِّى قمت بما يشابه العِناق. كانت دون شك لمسة حميمة.

أضافت قائلة:

- لابد أن أعود على الفور إلى المصحة فى بولونيا، وسأشعر باطمئنان كبير عندما أعلم أنك معه.

- سأبقى معه! أجبت بوجه مستسلم. لابد أن آدا ظنَّت أن هيئة استسلامى تلك تعنى التضحية التى وافقت على القيام بها من أجلها، فى حين كنت أستسلم للعودة إلى حياة عادية، بل مألوفة للغاية، حيث إنها لا تفكر فى الانسياق ورائى فى حياة غير عادية طالما حلمت بها.

بذلت جهداً لكى أنزل إلى أرض الواقع، وعلى الفور اكتشفت فى ذهنى مشكلة فى الحسابات ليست يسيرة. كان علىَّ أن أودع فى حساب آدا مبلغ الشيك الذى كان بجيبى. كان ذلك واضحاً، فى حين لم يكن واضحاً مطلقًا كيف لهذا التسجيل أن يمس حساب الأرباح والخسائر. لم أذكر عنه شيئًا لظنى أن آدا ربما لا تدرى أنه يوجد بهذا العالم دفتر الأستاذ، الذى يشتمل على حسابات لها مثل هذا التباين فى النوع.

لكنِّى لم أشأ مغادرة تلك الحجرة دون أن أقول شيئًا أخر؛ ومن ثم ذكرت جملة، بدلاً من الحديث عن الحسابات، ألقيت بها بلا مبالاة فى تلك اللحظة وحسب، حتى أقول أى شىء، فى حين شعرت فيما بعد بأهميتها الكبيرة بالنسبة لى ولآدا ولجويدو، لكنها كانت فى المقام الأول مهمة لنفسى التى أقحمت بها أكثر من ذى قبل. كانت هذه الجملة بالغة الأهمية، حتى إنِّى تذكّرتها لسنوات طويلة كأنما حرٌكت شفتىَّ، فى عدم اكتراث، لأنطق بها فى تلك الحجرة الصغيرة المظلمة فى وجود الصور الأربع التى كانت لوالدَى آدا وجويدو، ولهما فى زفافهما أيضًا، وكانت معلقة على الحائط. قلت:

– آدا، انتهى بكِ الأمر إلى الزواج من رجل أغرب منِّى فى الأطوار!

كم أن الكلمة قادرة على تخطى الزمن! إنها نفسها حدث يرتبط بالأحداث الأخرى! أصبحت حدثًا، حدثًا مفجعًا؛ لأنها كانت موجَّهة لآدا. لن أستطيع أبداً أن أستعيد فى ذاكرتى، وبمثل ذلك الوضوح، تلك اللحظة التى اختارت آدا بينى وبين جويدو على ذلك الطريق المشمس؛ حيث تمكنت من لقائها، بعد أيام من الانتظار، لأسير إلى جوارها وأجتهد فى استمالة ضحكها الذى كنت ببلاهة منِّى أتلقاه على أنه وعد! وكذلك تذكرت أنِّى فى ذلك الوقت كنت أشعر بالنقص للخلل الذى كان يعترى عضلات ساقى، فى حين كان جويدو يتحرك برشاقة أكثر من آدا ذاتها، ولم يكن لديه ما يدل على أى عيب لو لم يؤخذ فى الحسبان تلك العصا الغريبة التى كان يعتاد حملها.

قالت بصوت خفيض:

– حقًا!

ثم ابتسمت بمودة قائلة:

– لكنِّى سعيدة لأوجوستا؛ لأنك أظهرت كثيراً مما كنت أتصور. واصلت وهى تتنهد: – أفضل كثيراً، مما يخفف بعض الشىء من ألمى من أن جويدو ليس على الصورة التى كنت أتوقعها.

ظللت صامتًا، ومازال الشك يساورنى. خيل إلىّ أنها قالت إنّى أصبحت الصورة التى كانت تتوقع أن يكون عليها جويدو. أهو حب إذًا؟ واسترسلت:

– أنت أفضل رجل فى عائلتنا، أنت ثقتنا، وأملنا. أمسكت بيدى مرة ثانية، وربما ضغطت أنا على كفها أكثر مما ينبغى. لكنها سحبته منِّى على الفور، مما أزال أى شك. وفى تلك الحجرة الصغيرة المعتمة أدركت من جديد كيف كان علىّ أن أتصرف. وربما لتخفف من وطأة حركتها وجَّهت لى دعابة أخرى: – ولأننى عرَفتك هكذا أتألم كثيراً لأنِّى عذبتك. أحقًا شعرت بألم كبير؟

على الفور غمست عينى فى ظلمة الماضى لأعثر على ذلك الألم وهمست:

– نعم!

تذكرت شيئًا فشيئًا آلة كمان جويدو، ثم كيف كانوا سيلقون بى خارج ذلك الصالون، لو لم أتشبث بأوجوستا، فضلاً عن صالون بيت مالفنتى، حيث كان يطرح الغرام حول المنضدة من طراز لويس الرابع عشر، فى حين يتم تبادل النظرات فى الجانب الآخر. وفجأة تذكرت كذلك كارلا، حيث كانت معها آدا أيضًا. سمعت عندئذ صوت كارلا واضحًا يقول لى إنِّى ملك زوجتى، أى آدا كما كانت تعتقد كارلا.

كررت، ودمعى يترقرق فى عينى:

- كثيرًا! نعم! كثيرًا!

تنهدت آدا بالفعل: - يؤسفنى جدًا، جدًا!

اجتهدت قائلة:

- لكنك الآن تحب أوجوستا!

قاطعتها شهقة للحظة، فارتجفت وأنا إذ لم أدرِ إن كانت توقفت لتسمع منِّى هل أؤكد هذا الحب أم أنكره. لم تعطنى لحسن الحظ الفرصة للكلام؛ لأنها استمرت قائلة:

- يوجد بيننا الآن حب أخوى حقيقى، ولابد أن يكون. أنا فى حاجة إليك. ينبغى أن أكون من الآن فصاعدًا أمًّا، علىَّ أن أحمى ذلك الفتى المستلقى هناك. أراغب أنت فى معاونتى فى هذا الواجب الشاق؟

كادت تستند علىَّ، وهى فى انفعالها الشديد، كما فى الحُلم. لكننى التزمت بكلامها. سألتنى عاطفة أخوية؛ ومن ثم تحول الالتزام بالحب

الذى خلته يربطنى بها إلى حق آخر من حقوقها، فوعدتها على الفور بمساعدتها هى وجويدو والقيام بكل ما تريده. لو كنت أكثر صفاء للذهن لكان لزاماً علىَّ أن أتحدث إليها عن عدم كفاءتى فى القيام بالمهمة التى كلفتنى بها، ولقضيت مع ذلك على مشاعر تلك اللحظة التى لا تنسى. على أية حال كنت متأثراً، حتى إنِّى لم أستطع الشعور بعدم كفاءتى. كان يبدو لى حينئذ أنه ليس هناك قصـــور لدى أحد على الإطلاق، وكذلك قصور جويدو ربما تبدد بعيداً ببعض الكلمات التى تعطيه *الحماس اللازم*.

رافقتنى آدا إلى راحة السُّلم، وظلَّت هناك، تستند على الدرابزين، لترانى وأنا أهبط السلم. هذا ما كانت تفعله كارلا دائمًا، لكنَّه شىء غريب أن تفعله آدا وهى تحب جويدو، شعرت بالامتنان لها على ذلك حتى إننى رفعت رأسى لأنظر إليها وأحييها، قبل أن أهبط الدرج الثانى. هذا ما يحدث فى الحب، لكنه يحدث أيضًا كما كان واضحًا، عندما يتعلق الأمر بحب أخوى.

وعلى هذا النحو انصرفت وأنا مسرور. اصطحبتنى حتى راحة السلم، وليس أبعد من ذلك. لم يعد هناك شكوك. وبقينا على هذا الحال: أحببتها ثم أحببت أوجوستا، لكن حبى القديم أعطاها الحق فى أن أخلِص لها. ومع ذلك فقد استمرت فى حب ذلك الفتى جويدو، ولكنها كانت تكنُّ لى حبا أخويا، ليس لأنِّى تزوجت من أختها وحسب، بل لتعوضنى عن الآلام التى جلبتها لى، وكانت بمثابة رباط خفى فيما بيننا.

كان هذا كله فى غاية العذوبة، وله مذاق نادر فى هذه الحياة. ألم يكن لهذه العذوبة الشديدة أن تهب لى الصحة الحقيقية؟ فى ذلك اليوم مشيت حقًا دون اضطراب أو ألم، شعرت بصدرى رحبًا وأحسست فى قلبى شعوراً جديداً بالأمان لم آلفه من قبل.

نسيت أنّى خنت زوجتى وبأكثر الأساليب وقاحة أيضًا، وأنِّى لم أعقد العزم على ألاّ أعود لذلك والأمران سيان، وأحسست حقًا أننى كما كانت ترانى آدا، الرجل الأمثل فى العائلة.

ولما ضعفت نزعة البطولة القوية بداخلى، أردت أن أحبيها، لكن آدا فى تلك الأثناء كانت قد رحلت لبولونيا، وعبثًا كانت كل مجهوداتى فى أن أخلص إلى دافع مما قالته لى من قبل. نعم! كنت سأقوم بذلك القدر القليل الذى أستطيع من أجل جويدو، لكن قراراً كهذا لم يكن ليزيد من كمية الهواء فى رئتى ولا الدم فى عروقى. ظل فى قلبى شعور جديد بمودة كبيرة تجاه آدا أخذت تتجدد كل مرة تذكرنى فيها بكلمات حانية فى خطاباتها لأوجوستا. كنت أبادلها مودتها من صميم قلبى، وأتابع علاجها بأفضل الأمنيات. ليتها تمكنت من استعادة صحتها وجمالها كاملاً!

فى اليوم التالى جاء جويدو إلى المكتب، وعلى الفور أخذ يراجع عمليات التسجيل التى كان يودُّ القيام بها. اقترح قائلاً:

– نحول الآن حساب الأرباح والخسائر إلى مناصفة مع حساب آدا.

كان هذا ما يريده بالتحديد، ولم يكن يفيد في شيء. لو أنِّي ظللت المنفِّذ لإرادته دون تدخل كما كنت عليه قبل أيام قلائل، لقمت بتنفيذ تلك التسجيلات ببساطة شديدة، ولما اهتممت بها مطلقًا. لكنِّي شعرت بواجبي في إخباره بكل شيء؛ رأيت أن أحثَّه على العمل، وأن أعرفه أن المسألة ليست هينة لهذه الدرجة لمحو الخسارة التي تكبدها.

شرحت له، أنه حسب ما علمت، أعطت آدا ذلك المبلغ لكي يتم وضعه كرصيد دائن في حسابها، وأن ذلك ما كان ليتم قط لو سويناه وأقحمنا بداخله نصف خسارة الميزانية. ثم إن نصف الخسارة الذي يريد أن ينقله هو في حسابه يخصه، بل كان يخصه كاملاً، ولكن هذا لا يعني محو هذه الخسارة، بل كشفها. فكرت بالأمر حتى يتيسّر لي أن أفسر له كل شيء، وختمت قائلاً:

– ومع إمكانية حدوث – لا قدّر الله! – الظروف التي توقعها أوليفي، فإن الخسارة ستتضح من دفاترنا، فور أن يراها خبير ممارس في حسابات الميزانية.

كان ينظر إليَّ في دهشة. كان يعلم فن الحسابات بحد كاف يجعله يدرك ما أقوله، ولكنّه لم يستطع؛ لأن رغبته كانت تمنعه من تقبل الدليل الواضح. ثم أضفت؛ لأطلعه على كل شيء بوضوح:

– أترى أن ما تقوم به آدا من إيداع ليس له أي هدف؟

عندما أدرك في النهاية شحب وجهه بشدة، وأخذ يقضم أظافره بشكل عصبي. ظل مذهولاً، لكنَّه أراد أن يتمالك نفسه في القيادة،

وبأسلوبه المضحك، قرَّر أن تتم عمليات التسجيل تلك على الرغم من ذلك، وأضـاف:

- أنا مستعد لكي أعفيك من أية مسئولية، أن أقوم بكتابة الدفاتر وأوقع عليها أيضًا!

فهمت! كان يرغب في الاستمرار في الحُلم في مكان ليس به موضع للأحلام: القيد المزدوِج!

تذكرت ما عاهدت نفسى به عند مطلع شارع بيلڤيدرى، ثم ما عاهدت أدا عليه، في حجرة الصالون الصغيرة المعتمة بمنزلها، فقلت له بدافع من المروءة:

- سأقوم في الحال بعمليات التسجيل التي ترغب فيها: لست بحاجة إلى توقيعك لحمايتي. أنا هنا لمعاونتك، وليس لعرقلتك!

صافحني بمودة قائلاً:

- الحياة صعبة، وإنه لسلوان كبير أن يكون إلى جوارى صديق مثلك. نظر أحدنا في عيني الآخر، كلٌ في حالة تأثر. كانت عيناه تلمعان. قلت ضاحكًا، حتى أفلت من الانفعال الذى كان يهددنى أيضًا:

- الحياة ليست صعبة، بل غريبة الأطوار لدرجة كبيرة.

فضحك أيضًا من قلبه.

ثم مكث إلى جوارى، ليرى كيف سأسوِّى حساب الأرباح والخسائر ذاك. تم عمله في بضع دقائق. مات ذلك الحساب، لكنه جرَّ إلى العدم

أيضًا حساب آدا التى قمنا على الرغم من ذلك بقيد رصيدها الدائن فى كتيب، ذلك إن اختفى أى إثبات آخر جرّاء كوارث وضرورة امتلاك الدليل الواضح عليه لتسديد الفوائد لها. أما الشق الآخر من حساب الأرباح والخسائر فقد زاد من حساب جويدو المدين.

إن المحاسبين بطبيعتهم ما هم إلاّ نوع من الكائنات الحية المنفتحة على السخرية. أخذت أفكر وأنا أقوم بعمليات التسجيل تلك: «إن الحساب - المسمى بالأرباح والخسائر - قد مات قتيلاً، والآخر - حساب آدا - مات ميتة طبيعية؛ لأننا لم نوفّق فى أن نبقيه على قيد الحياة، فى حين لم نتمكن من قتل حساب جويدو، الذى كان مقبرة حقيقية مفتوحة فى شركتنا، بوصفه حساب مدين مشكوكًا فيه».

أخذنا نتحدث فى ذلك المكتب عن الحسابات لوقت طويل. كان جويدو يفرغ جهده فى العثور على طريقه أخرى تستطيع أن تحميه بصورة أفضل مما قد يتعرض له من مكائد (هكذا كان يطلق عليها) من جانب الشئون القانونية. أعتقد أنه استشار أيضًا بعض المحاسبين، حيث أتى إلى المكتب ذات يوم ليعرض علىّ أن نمحو الدفاتر القديمة، بعد عمل أخرى جديدة نسجِّل فيها عملية بيع مزيفة بأحد الأسماء أيا كان، يظهر أنه تم سداد ثمنها من المبلغ الذى أقرضته آدا. كان من المؤلم إصابته بخيبة أمل بعد أن أسرع إلى المكتب مفعمًا بآمال عريضة! اقترح عملية تزييف نفرت منها بالفعل. وحتى ذلك الحين لم نفعل شيئًا آخر سوى تغيير بعض الأوضاع، وعرضنا بذلك للأذى من وافق عليها بشكل ضمنى.

وها هو ذا يرغب، على العكس، فى ابتكار عمليات حركة للبضائع. كنت أرى أنا أيضًا أنه على هذا النحو، وبهذه الصورة وحسب، يمكن محو أى أثر للخسارة التي تكبدناها ولكن بأى ثمن! كذلك كان من الضرورى اختلاق اسم المشترى، أو الحصول على موافقة من نريده أن يقوم بهذا الدور. لم يكن لدىّ ما أعارض به عملية إلغاء الدفاتر، وعلى الرغم من أنّى قمت بتسجيلها بعناية شديدة، ولكنه كان يزعجنى أن أقوم بعمل دفاتر أخرى جديدة. أبديت اعتراضاتى التي انتهت بإقناع جويدو. فليس من السهل تزييف الإيصالات. ينبغي أيضًا معرفة تزييف الوثائق التى تثبت وجود البضاعة وملكيتها.

تنازل عن خُطتــه، لكن فى اليـوم التـالى وصل إلى المكتب بخطة أخرى تتضمن أيضًا إلغاء الدفاتر القديمة. ضقت ذَرعًا من تلك المناقشات التى تعرقل أى عمل آخر، فاحتججت: - بما أنك تفكر مليًا فى هذا الأمر، فذلك يوحى بأنك ترغب فى التأهب بالفعل للإفلاس! وإلاّ فما الفائدة التى يمكن أن يجنيها إنقاص ضئيل فى رأسمالك؟ لا يملك أحد حتى الآن الحق فى الاطلاع على دفاترك. الآن علينا أن نعمل، ونعمل، وألا نبالى بالتفاهات.

اعترف لى بأن تلك الفكرة كانت تستحوذ عليه. وكيف كان يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ بشىء من سوء الحظ كان يمكن أن يقع حتمًا تحت طائلة تلك العقوبة الجنائية، وينتهى به الأمر فى السجن!

من دراستي للقانون، كنت أعرف أن أوليڤي قد عرض بدقة متناهية واجبات التاجر الذي قام بميزانية مماثلة، لكنِّي نصحت جويدو باستشارة مُحامٍ صديق، لأخلّصه وأخلص نفسي أيضًا من هذه الهواجس.

أجابني بأنه قد قام بذلك بالفعل، بل إنه لم يذهب خصيصًا إلى محامي لهذا الغرض؛ لأنه لم يرد أن يبوح بذلك السر إلى محامٍ على الإطلاق، بل جعل صديقًا له يعمل بالمحاماة يثرثر حينما كان معه في أثناء الصيد. وبالتالي علم أن أوليڤي لم يخطئ ولم يبالغ... مع الأسف!

توقف عن البحث عن اختلاقات لتزييف الحسابات، بعد أن وجد أنه لا جدوى من ذلك، لكن ذلك لم يُعد له هدوءه. كان في كل مرة يأتي إلى المكتب يتجهَّم وهو ينظر إلى دفاتره. ذات يوم اعترف لي أنه عندما كان يدخل حجرة مكتبنا، كان يرى نفسه وكأنه بمدخل السجن، وأراد لو يفر هاربًا.

في يوم من الأيام سألني:

– هل تعلم أوجوستا كل شيء عن ميزانيتنا؟

احمرَّ وجهي؛ لأنِّي أحسست بلوم في السؤال، في حين كان واضحًا أنه إن كانت آدا على علم بالميزانية فربما تعلم بها أوجوستا أيضًا. لم أفكِّر سريعًا على هذا النحو، لكنِّي كنت أرى أنِّي أستحق اللوم الذي يريد توجيهه لي؛ لهذا همهمت:

– لعلها علمت به من آدا أو ربما من ألبرتا التي أخبرتها آدا!

أخذت أمعن النظر فى القنوات التى يمكن أن تفضى إلى أوجوستا، ولم أرَ مع ذلك إنكار أنها علمت بكل شىء من المنبع الأول، أى منِّى أنا، بل وجدت أن صمتى لن تكون فائدة منه. خسارة! لو اعترفت على الفور بأنه لا توجد أسرار بينى وبين أوجوستا، لشعرت بأنِّى أكثر أمانة وصدقًا! إن حدثًا هينًا كهذا، أى إخفاء تصرف كان من الأفضل الاعتراف به وإعلان براءته، كاف لإحداث توتر فى أوفى صداقة.

أسجِّل هنا واقعة حدثت بعد مرور بضعة أيام، على الرغم من أنه لم تكن لها أهمية لا بالنسبة لجويدو ولا لقصتى. استوقفنى ذلك السمسار الثرثار الذى تعاملنا معه من قبل فى مسألة سلفات النحاس، فى الطريق، ونظر إلىَّ من أسفل إلى أعلى، كأنما أجبرته على فعل ذلك قامته القصيرة، التى كان يبالغ فى تقصيرها وهو ينخفض على ساقيه، وقال بنبرة ساخرة:

– يقولون إنكم قمتم بصفقات أخرى رابحة كتجارة السلفات!

ثم، صافحنى بيده ما إن رآنى وقد أذهلتنى الدهشة، وأضاف:

– من جهتى أتمنى لكم أحسن الصفقات. أرجو ألاّ تشكّوا فى ذلك!

وتركنى. أعتقد أن ابنته التى كانت تدرس بالصف الدراسى نفسه بالمدرسة الثانوية مع الصغيرة أنًا، قد أخبرته بتجارتنا. ام أطلع جويدو على مسألة إفشاء السر التافهة هذه، فواجبى الأساسى أن أحميه من مضايقات لا جدوى منها.

اندهشت أن جويدو لم يتخذ أى تصرف إزاء كارمن، فقد كنت أعرف أنه وعد زوجته صراحةً بأن يطردها. ظننت أن آدا قد تعود إلى منزلها بعد بضعة أشهر كالمرة الأولى. لكنَّها توجَّهت للإقامة بالأجوماتچورى فى ڤيلا صغيرة، دون المرور بتريستى، وبعد فترة وجيزة حمل جويدو الطفلين إليها.

عندما عاد من سفره ذاك، ولا أدرى إن كان قد تذكر هو نفسه الوعد أم أن آدا هى التى نبهته - سألنى إن كان من الممكن توظيف كارمن فى مكتبى، أى لدى أوليڤى. كنت أعلم من قبل أنه لا توجد أماكن شاغرة فى ذلك المكتب، لكن لأن جويدو كان يتوسل إلىَّ بحرارة، وافقت أن أذهب للتحدث مع مدير أعمالى فى هذا الشأن. ولحسن الحظ، كان أحد موظفى أوليڤى قد ترك المكتب فى تلك الأيام نفسها، لكنَّه كان يحصل على راتب أقل من ذلك الذى كان جويدو يمنحه لها فى الشهور الأخيرة بسخاء كبير، وحسب ما أرى، كان يُنفق على هذا النحو على نسائه من حساب النفقات العامة. استعلم أوليڤى العجوز منِّى عن قدرات كارمن، وعلى الرغم من أنِّى ذكرت له معلومات جيدة، عرض أن يأخذها فى ذلك الوقت بالراتب نفسه الذى كان يقبضه الموظف المفصول. أبلغت جويدو بهذا، فأخذ يحك رأسه فى حزن وحيرة.

- كيف يقدم لها راتبًا أقل مما كانت تحصل عليه؟ ألا نستطيع حثَّ أوليڤى على منحها المرتب الذى كان يُصرف لها من قبل؟

كنت أعلم أن ذلك لم يكن ممكنًا، فضلاً عن أن أوليڤي لم يتعامل بودٍّ مع موظَّفيه كما كنَّا نفعل. ولو وجد أن كارمن تستحق كورونًا أقل من المبلغ المسموح به لها، لخفَّضه منها بلا شفقة. وانتهى الأمر على هذا النحو: لم يحصل أوليڤي على رد حاسم، ولم يطلبه على الإطلاق، واستمرت كارمن تحدق بعينيها الجميلتين في أنحاء مكتبنا.

كان هناك سر بيني وبين آدا، وقد ظل له أهمية خاصةً لأنه بقي سرًا. كانت تكتب دومًا لأوجوستا، غير أنها لم تقص عليها قط أنها نالت بعض الإيضاحات منِّي وأوصتني بجويدو. ولم أتحدث أنا أيضًا عن ذلك. ذات يوم أرتني أوجوستا رسالة من آدا تخصُّني. في البداية سألت عن أخباري، ثم ناشدت طيبتي لأخبرها شيئًا عن سير أعمال جويدو. اضطربت عندما وجدتها تلجأ إليَّ، وهدأت لمَّا أيقنت أنها تلجأ إليَّ كالمعتاد لتستعلم عن جويدو. ومن جديد لم يكن لديَّ ما أجرؤ على قوله.

كتبت لآدا بالاتفاق مع أوجوستا، ودون التحدث عن جويدو. جلست إلى المنضدة بهدف أن أكتب لها بالفعل رسالة عن أعمال جويدو وأخبرها بسعادتي الكبيرة بالأسلوب الذي يدير به تجارته في تلك الأثناء، أي بمثابرة وفطنة.

كان هذا حقيقة، أو كنت على الأقل سعيدًا به في ذلك اليوم؛ لأنه وفِّق في ربح بعض المال من بيع بضاعة كان يودعها بالمدينة منذ عدة شهور. وحقيق أنه كان يبدو دائم المواظبة أيضًا ، لكنه كان يذهب بانتظام للصيد البري والبحري كل أسبوع. رغبت في أن أبالغ في مدحي، حيث خِلْتُ أنِّي على هذا النحو أساعد في شفاء آدا.

أعدت قراءة الرسالة ولم ترضنى. كان ينقصها شىء ما. لقد لجأت آدا إلىَّ وبلا شك كانت تريد معرفة أخبارى كذلك؛ لذا لم يكن من اللياقة ألاَّ أخبرها بها. وشيئًا فشيئًا - أتذكر كأنما يحدث لى الآن - شعرت بالحرج عند تلك المنضدة، كأننى ألفيت نفسى ثانية مع آدا وجهًا لوجه، فى تلك الحجرة الصغيرة المظلمة. أكان لزامًا علىَّ أن أصافح طويلاً تلك اليد الناعمة التى مدَّتها لى؟

أخذت أكتب، لكنِّى اضطررت لأن أعيد كتابة الرسالة، حيث تركت كلمات مورطة تفلت منِّى: كنت أتوق لرؤيتها من جديد، آملاً أن تسترد صحتها وجمالها كاملين. إن هذا يعنى أن آخذها من خصرها تلك المرأة التى قدمت لى يدها فقط. كان واجبى أن أصافح فقط تلك اليد الصغيرة، مصافحة لطيفة، وأن أطيل المصافحة تعبيرًا عن أننى كنت أقصد كل شىء، كل ما كان ينبغى ألاّ يقال على الإطلاق.

لن أذكر الكلام جميعه الذى استعرضته لأجد به شيئًا يمكن أن يحل محل تلك المصافحة الطويلة الرقيقة المعبّرة لتلك اليد، لكنِّى تذكرت تلك الجمل التى كتبتها وحسب. تحدثت طويلاً عن الشيخوخة التى تداهمنى. لم أكن أستطيع أن أقضى لحظة هادئة دون أن يتقدم بى السن. فى كل دورة من دورات دمى كان هناك شىء يضاف إلى عظمى وعروقى ويعنى الشيب. كل صباح، عندما كنت أستيقظ، كانت الدنيا تبدو وكأنما ازداد لونها الرمادى، ولم أكن أدرك ذلك؛ لأن كل شىء ظلَّ فى اتساق؛ فى ذلك اليوم لم تكن هناك مسحة من لون اليوم السابق على الإطلاق، وإلاّ لأدركتها، ولدفعنى الندم إلى اليأس.

أتذكر جيداً أنّي أرسلت الخطاب وأنا في ارتياح تام. لم أخاطر قط بتلك الكلمات، بل خُيِّل لي أيضًا أنه من المؤكد لو أن تفكير آدا يماثل تفكيري، لأدركت مصافحة تلك اليد العاطفية. كان يكفي القليل من الفطنة لاكتشاف أن ذلك التمحيص الطويل عن الشيخوخة لم يكن يعني سوى خشيتي، وقد وجدت نفسي في سباق عبر الزمن، ألا يلحق الحب بي أبداً. كان يبدو وكأني أنادي بصوتٍ عالٍ على الحب: «تعالَ، تعالَ!». وعلى العكس من ذلك فإنِّي غير واثــق من أنِّي رغــبت في ذلك الحب، وإن كان هنــاك شــك ما، فينشأ فقط من يقيني بأنني كتبت هذا على وجه التقريب.

قمت بعمل نسخة من تلك الرسالة لأوجوستا، وحذفت منها مسألة الحديث عن الشيخوخة. لم تكن لتدركها، لكن الحذر لا يضرُّ. وربما احمرَّ وجهي لو شعرت بنظرتها لي وأنا أضغط على يد أختها! نعم! كنت ما أزال إنسانًا يتأثر. واحمرَّ وجهي أيضًا عندما تلقيت رسالة شكر موجزة من آدا لم تذكر بها شيئًا عن حديثي حول شيخوختي. خلت أنها تجازف معي أكثر مما لم أفعله أنا قط معها. إنها لم تسحب يدها الحانية عندما ضغطت عليها، تركتها ساكنة في يدي، وعدم المقاومة عند المرأة، هو وسيلة من وسائل الرضا.

مرت أيام قلائل بعد كتابة تلك الرسالة، واكتشفت أن جويدو يضارب بالأسهم في البورصة. أفشى لي السمسار نيليني ذلك السر.

ذلك الأخير كنت أعرفه من سنوات طويلة، حيث كنَّا زملاء دراسة بالمدرسة الثانوية التى كان لزامًا عليه أن يتركها ليعمل على الفور بمكتب عم له. ثم تقابلنا بعد ذلك عدة مرات، وأذكر أن اختلاف توجهنا فى الحياة قد أنشأ تفوقى فى عَلاقتنا. أولاً كان هو من يبادرنى بالتحية، ويحاول أن يتقرب منّى أحيانًا. رأيت هذا طبيعيًا، لكن ما عجزت عن تفسيره هو أنه تكبَّر علىَّ، فى فترة لا يمكننى تحديدها. لم يعد يلقى علىّ التحية، وكان يرد بالكاد تحيتى. انشغلت بعض الشىء بذلك؛ لأن جلدى شديد الحساسية ويتأثر بسهولة. ولكن ما العمل فى ذلك؟ ربما اكتشف أنِّى أعمل بمكتب جويدو، واعتقد أنِّى أحد المرءوسين؛ ولهذا استخف بى، أو بالاحتمال نفسه، ربما ملأه الغرور، عندما مات عمه وتركه سمسارًا مستقلاً فى البورصة. ففى المجتمعات الصغيرة تكثر مثل هذه العلاقات. فى يوم من الأيام ينظر الناس بعضهم إلى بعض ببغض وازدراء، دون أن يكون هناك تصرف عدائى.

ولهذا أصابتنى الدهشة عندما رأيته يدخل المكتب، حيث كنت بمفردى، وسأل عن جويدو. رفع قبعته ومد يده ليصافحنى. ثم استرخى على الفور على أحد مقاعدنا الكبيرة فى حرية بالغة. نظرت إليه باهتمام كبير. لم أكن قد رأيته هكذا عن قرب منِّى منذ سنوات، ومع ذلك البُغض الذى كان يظهره لى استرعى اهتمامى الشديد فى تلك اللحظة.

كان يبلغ من العمر آنذاك أربعين عامًا على وجه التقريب، وكان دميمًا حقًا؛ وهذا يرجع إلى ما لديه من صلعة شبه كاملة تعترضها

واحة من الشعر الأسود الكثّ عند مؤخرة الرأس وأخرى عند الصدغين، ووجه أصفر وممتلئ أكثر مما ينبغى، رغمًا عن الأنف الضخم الكائن به. كان قصير القامة ونحيفًا يشرئب بقدر ما يستطيع، حتى إنّى كنت أشعر بألم خفيف فى عصب عنقى اللطيف عندما كنت أتحدث معه، وكان ذلك هو الشعور اللطيف الوحيد الذى أحسست به تجاهه. فى ذلك اليوم بدا كما لو أنه يتماسك من الضحك، ووجهه مشدود بتعبير بالسخرية أو بالازدراء لم يكن ليجرحنى، بما أنه ألقى التحية علىّ بأدب شديد. بل اكتشفت بعد ذلك أن تلك السخرية قد طبعتها على وجهه الطبيعة الأم غريبة الأطوار. فكاه الصغيران لا ينطبقان بدقة وقد بقيت بينهما، على إحدى جانبى الفم، فتحة صغيرة هى موطن سخريته تلك المقولبة. وربما لكى يتواءم مع قناع وجهه الذى لم يتمكن من التخلص منه إلاّ عندما يتثاءب، كان يحب الاستهزاء من كل شخص. لم يكن قط شخصًا أحمق يطلق سهامه السامة، ولكنه كان يؤثر بها الغائبين.

أخذ يثرثر كثيراً، وكان واسع الخيال، خاصةً فيما يتعلق بأمور البورصة. كان يتحدث عن البورصة كما لو أنها شخص واحد يصفه بأنه يرتجف فى تهديداته، أو أنه نائم فى خمول ووجهه قادر على الضحك والبكاء معا. كان يرى البورصة شخصًا يصعد درج الطرق الصاعدة وهو يرقص، أو يهبط مجازفًا بالسقوط إلى الهاوية، ثم يعود ليبدى إعجابه به عندما يكرم قيمة من القيم أو يخنق الأخرى بشدة، أو عندما يعلّم الناس أيضًا الاعتدال والنشاط فى العمل. والعلة الوحيدة فى ذلك

هى أن من تمتع بعقل سليم استطاع التعامل معها. فهناك أموال كثيرة متناثرة على الأرض فى البورصة، لكن ليس من السهل الانحناء لالتقاطها.

تركته ينتظر بعد أن قدمت له سيجارة، وأعطيت اهتمامى بعد ذلك لبعض المراسلات. بعد قليل ضاق ذَرعًا، وقال إنه لا يستطيع البقاء أكثر من ذلك. فضلاً عن أنه جاء فقط ليخبر جويدو عن أسهم، باسم غريب يدعى ريو تينتو، كان قد نصحه أن يشتريها فى اليوم السابق- نعم، قبل أربع وعشرين ساعة بالتحديد - قد قفز سعرها فى ذلك اليوم حوالى عشرة بالمائة. وأخذ يضحك من قلبه، قائلاً:

- بينما نتحدث الآن هنا، أى وأنا أنتظر هنا، ستقوم العمليات المالية بعد إغلاق البورصة بالباقى. إن أراد السيد سبيير شراء تلك الأسهم الآن فمن يدرى بأى سعر عليه أن يسدد قيمتها؟ كما توقعت أنا إلى أين تتوجه البورصة.

أخذ يتفاخر بنظرته الثاقبة التى ترجع إلى علاقته الوطيدة بالبورصة. توقف ليسألنى:

- من تعتقد يعلِّم بصورة أفضل: الجامعة أم البورصة؟

انخفض فكه السفلى أكثر قليلاً، فاتسع ثقب السخرية. البورصة بالتأكيد! أجبت عن اقتناع. كان ثمن هذا أنه صافحنى مصافحة ودية عند انصرافه.

إذاً كان جويدو يضارب في البورصة! لو كنت أكثر يقظة لاستطعت أن أستشف هذا من قبل، فعندما قدمت له حساباً دقيقاً لمبالغ مهمة ربحناها من صفقات أخيرة لنا، نظر إليه مبتسماً، لكن بشيء من الاستهانة. رأى أننا قد قمنا بجهد كبير لنربح تلك الأموال. علماً بأنه من خلال بضع عشرات من مثل تلك الصفقات كان يمكن تغطية الخسارة التي تكبدناها في العام السابق! ما الذي كان عليّ أن أفعله أنا حينئذ، وقد سجلت ثنائي عليه على الورق قبل أيام قليلة؟

بعد قليل جاء جويدو إلى المكتب، وفي دقة أبلغته كلام نيليني. أخذ يستمع بشغف حتى إنه لم ينتبه على الإطلاق إلى أنّي علمت من هذا أنه يضارب، وانصرف مسرعاً.

في المساء تحدثت مع أوجوستا في هذا الأمر، فرأت أننا يجب أن ندع آدا وشأنها، على أن نخطر السيدة مالفنتي بالمخاطر التي يتعرض لها جويدو. وطلبت مني أن أبذل أيضاً ما في وسعي لمنعه من ارتكاب مثل تلك الأخطاء.

استغرقت وقتاً في التفكير فيما أقوله له. خلصت في النهاية إلى العمل بحسب نيّاتي الإيجابية الطيبة، مع الاحتفاظ بالوعد الذي عاهدت آدا عليه. كنت أعرف كيف أمسك بزمام جويدو وأحمله على طاعتي. كلٌّ منّا له حماقاته في المضاربة بالبورصة، ولكن من يفوقنا في ذلك جميعاً هو تاجر يجر وراءه ميزانية كتلك، هذا ما كنت أود أن أقوله له. وفي اليوم التالي بدأت بداية جيدة جداً:

– أنت إذن تضارب الآن في البورصة؟ أتريد أن ينتهى مصيرك فى السجن؟ – هكذا سألته فى حزم. كنت مستعداً للغضب، وكان أيضاً فى نيتى أن أعلن له مغادرتى الأكيدة للمكتب، بما أنه يتصرف بأسلوب يعرض به الشركة للخطر.

استطاع جويدو أن يُبطل تهديدى فى الحال. كان يحتفظ بسره حتى تلك اللحظة، لكن بعدها أخبرنى فى دقة بتفاصيل صفقاته تلك، وفى براءة الفتى الطيب. كان يعمل فى سندات خاصة بمناجم لبلد لا أعرف اسمها، حققت له ربحًا كاد يكفى لتغطية خسارة ميزانية شركتنا. وكان قد زال أى تخوف منِّى، واستطاع أن يحكى لى كل شىء. فإن خانه الحظ وخسر كل ما ربحه من قبل، لتوقف ببساطة عن المضاربة. فى حين لو استمر الحظ حليفه، سيسرع فى تصحيح وضع التسجيلات التى قمت بها، وكان لا يزال يشعر بتهديد منها.

رأيت أن الأمر لا يستدعى الغضب منه، بل تهنئته. وفيما يتعلق بمسألة الحسابات، قلت له إنه يمكنه أن يكون مطمئنًا، فحيث تتوافر السيولة النقدية يسهل تصحيح وضع الحسابات الأكثر إزعاجًا. ومتى دخل حساب آدا فى دفاترنا كما يحق لها وانخفض على أقل تقدير ما أسميه أنا عمق هُوة شركتنا السحيقة، وأعنى بذلك حساب جويدو، فستستقيم حساباتنا.

ثم اقترحت عليه بأن يقوم بهذه الإصلاحات مباشرةً، وأن يضع عمليات المضاربة فى البورصة فى حساب الشركة. لم يوافق لحسن الحظ،

وإلاَّ لأصبحت محاسب المقامر، ولتحملت على عاتقى مسئولية ضخمة. فى حين جرت الأمور وكأن ليس لى وجود فيها. رفض اقتراحى لأسباب رأيتها جيدة. كان من سوء الطالع أن يسدد ديونه هكذا مباشرةً، وهناك معتقد معروف جداً على كل موائد القمار: أن مال الغير يجلب الحظ. أنا لا أؤمن فى ذلك، ولكنِّى لا أستخف أبدًا بأى حذر فى أثناء اللعب.

ولبعض الوقت لمت نفسى لأنّى؛ تلقيت آراء جويدو دون أن أبدى أى اعتراض. لكن عندما وجدت السيدة مالفنتى تسلك الأسلوب نفسه حيث أخبرتنى كيف استطاع زوجها أن يربح أموالاً كثيرة فى البورصة، فضلاً عن آدا أيضًا، التى فهمتُ منها أنها تعتبر المضاربة نوعًا من أنواع التجارة، أدركت أنه لا يمكن أن يثار بداخلى أى لوم بهذا الشأن على وجه الإطلاق. ولم تكن معارضتى لتكفى لإيقاف جويدو عن هذا الهوى، وما كان لها أن تحقق أى تأثير ما لم يدعمها أفراد العائلة جميعهم.

وعلى هذا النحو سارت الأمور، حيث استمرّ جويدو فى المضاربة، ومعه العائلة بأسرها. وانضممت أيضًا إلى الزمرة، حتى إنِّى دخلت فى علاقة صداقة غريبة مع نيلينى. من المؤكد أننى لم أكن لأحتمله؛ حيث كنت أراه جاهلاً ومغروراً، لكن يبدو أنِّى مراعاة لجويدو، الذى كان يتلقى منه نصائح جيدة، تمكنت من أن أحسن إخفاء مشاعرى، حتى اعتقد فى النهاية أنه وجد فى شخصى صديقًا مخلصًا. لا أنكر أن معاملتى الكريمة له ربما كانت ترجع أيضًا إلى رغبتى فى تجنب استيائى من عداوته لى، تلك العداوة الشديدة التى كانت وراء تعبيره الساخر المرسوم على وجهه الدميم.

لكنِّى لم أتعامل معه قط بمجاملات أخرى، سوى أن أمد له يدى للمصافحة والتحية عندما يجىء أو يروح، فى حين كان هو لطيفًا جداً، ولم أكن أستطيع إلاَّ أن أتقبل معاملاته المهذبة بامتنان، وهى فى الحقيقة من أعظم المجاملات التى يمكن التعامل بها فى هذا العالم. كان يوفر لى سجائر مهربة، ويتيح لى سداد ثمنها بسعر التكلفة، أى بسعر زهيد. لو كنت وجدته أكثر قبولاً لنفسى، لتمكن من حملى على المقامرة علَى طريقته؛ لم أفعل ذلك قط، حتى لا أراه كثيراً.

لكنِّى كنت أراه أكثر مما ينبغي! كان يقضى ساعات فى مكتبنا على الرغم من أنه لم يكن مغرمًا بكارمن، وكان من السهل إدراك ذلك. كان يأتى ليجلس معى على وجه الخصوص. يبدو أنه قرَّر من قبل أن يلقننى دروسًا فى السياسة التى كان متعمقًا فيها بسبب البورصة. أخذ يعرض علىَّ كيف أن الدول الكبرى تمد يدها للمصافحة يومًا وتتبادل الصفعات فى اليوم التالى. لا أدرى إن كان قد تنبأ بالمستقبل؛ حيث إنِّى لم أستمع إليه لعدم ارتياحى له. واحتفظت بابتسامة حمقاء رسمتها على وجهى. ولا بد أن سوء الفهم كان راجعًا إلى تفسير خاطئ لابتسامتى، التى كانت تبدو له ابتسامة إعجاب. وما لى ذنب فى ذلك.

لا أعرف إلاَّ الأشياء التى كان يكررها كل يوم. وتمكنت من ملاحظة أنه إيطالى له اتجاه غير واضح، حيث كان يرى أنه من الأفضل لتريستى أن تظل مدينة نمساوية. كان يعشق ألمانيا، وبوجه خاص قطاراتها التى كانت تصل بدقة متناهية. كان اشتراكيا بطريقته الخاصة، ويتمنى لو

يحرِّم على الفرد امتلاك الشخص الواحد أكثر من مائة ألف كورونا. لم أضحك في يوم اعترف فيه، أثناء حديثه مع جويدو، أنه يمتلك مائة ألف كورونًا بالضبط، لا أكثر. لم أضحك، ولم أسأله على الإطلاق هل لو ربح أموالاً أخرى سيعدل نظريته. كانت علاقتنا غريبة حقا. لم يكن باستطاعتي أن أضحك معه أو عليه.

عندما كان يطلق حكمًا من حكمه، كان يشرئب كثيراً وهو على مقعده الوثير وتتجه عيناه بالنظر تجاه السقف، في حين يظل الثقب في اتجاهي، ذلك الثقب الذى أطلقت عليه الثقب الفكّي. وكان يرى بذلك الثقب! أردت مرات أن أنتهز فرصة وضعه ذاك للتفكير في شيء آخر، لكنّه كان يجذب انتباهي ويسألني في الحال:

– هل تنصت لي؟

بعد تلك المرة التي أفضى فيها جويدو إليَّ بمكنون قلبه، لم يعد يحدثني عن صفقاته لوقت طويل. في البداية كان نيليني يخبرني بشيء عنها، ولكنّه أصبح هو أيضًا أكثر تحفظًا. ومن آدا نفسها علمت أن جويدو كان لا يزال يربح.

عندما عادت، وجدتها مرة أخرى وقد فارقها من جمالها الكثير. أصابها الورم لا السمنة. وفي تلك المرة أيضًا كانت وجنتاها خارج موضعيهما وقد عادتا للامتلاء وجعلتا وجهها شبه مربع. واستمرت عيناها في تشويه شكل تجويفيهما. كانت دهشتي كبيرة عندما سمعت

جويدو وآخرين ذهبوا لزيارتها، يقولون إن كل يوم كان يحمل لها قوة وصحة جديدتين. لكن صحة المرأة هى جمالها فى المقام الأول.

أدهشتنى آدا بمفاجآت أخرى أيضاً. ألقت علىَّ بتحية ودود، لكنَّها لا تختلف عن تحيتها لأوجوستا. لم يعد هناك أسرار بيننا، ومن المؤكد أنها نسيت بكاءها عندما تذكرت أنها كانت سبباً لعذابى الكبير فيما قبل. هذا أفضل كثيراً! فى النهاية إنها لم تعد تتذكر حقوقها علىَّ. كنت زوج أختها الصالح، وكانت تحبنى فقط لأنها وجدت علاقتى العاطفية مع زوجتى لم تتغير، والتى أثارت دائماً إعجاب أسرة مالفنتى.

ذات يوم قمت باكتشاف أدهشنى دهشة كبيرة. كانت آدا لا تزال تعتقد أنها جميلة! هناك على البحيرة كانوا يغازلونها، ومن الواضح أنها تستمتع بتأثيرها على الآخرين. ربما كانت هناك مبالغة فى ذلك، حيث رأيت أنها تبالغ فى ادّعائها باضطرارها إلى ترك ذلك المنتجع لتبتعد عن ملاحقة أحد المغرمين بها. أقرُّ أنه ربما كان هناك شىء من الحقيقة، فمن المحتمل أنها بدت أقل قبحاً لمن لم يعرفها من قبل. نعم لم تكن لتبدو شديدة القبح، بهاتين العينين ولونها وشكل الوجه ذاك! كنَّا نراها أكثر قبحاً؛ لأننا كنَّا نلمس التشوهات الواضحة التى تسبب فيها المرض، ونحن نتذكر هيئتها التى كانت عليها.

ذات مساء دعوناها وجويدو إلى منزلنا. كان لقاء لطيفاً، لقاءً عائلياً حقا. كان يبدو امتداداً لخطبتنا نحن الأربع. لكن لم يكن هناك أى ضوء ينعكس على شعر آدا.

وفى لحظة انصرافهما، لكى أساعدها فى ارتداء المعطف، مكثت بمفردى معها للحظة. وفى الحال شعرت بإحساس مختلف فى علاقتنا . كنَّا وحدنا، وربما كان فى إمكاننا أن نقول ما لا نستطيع قوله فى حضور الآخرين. وبينما كنت أساعدها أخذت أفكر، وفى النهاية وجدت ما كنت أريد أن أقوله لها:

– إنك تعلمين أنه يضارب حاليًا فى البورصة! – قلت لها بصوت جاد. فى بعض الأحيان يراودنى الشك أنِّى أردت بهذه الكلمات أن أستحضر لقاءنا الأخير، الذى لم أقرّ بأنه نُسى إلى هذه الدرجة.

– نعم – أجابت وهى تبتسم – وهذا أفضل كثيرًا، لقد أصبح ماهرًا كما يقولون لى.

ضحكت معها بصوت عالٍ. شعرت وقد رفعت عنِّى أية مسئولية. همهمت وهى تنصرف:

– ألا تزال كارمن تلك تعمل فى مكتبكم؟

لم أتمكن من الرد؛ لأنها انصرفت مسرعة. لم يعد بيننا مجال لماضينا، فى حين كان هناك وجود لغيرتها، غَيرة تنبض بالحياة مثلما كانت عليه فى لقائنا الأخير.

الآن وأنا أعيد التفكير، أرى أنه كان علىَّ أن أدرك أن جويدو قد بدأ يخسر فى البورصة، قبل أن يخبرونى بذلك صراحةً بوقت كبير. كانت قد تلاشت هيئة الفوز من وجهه التى كانت تنيره من قبل،

وأخذ يعرب مجدداً عن قلقه البالغ بالنسبة للميزانية التى أغلقت على هذا النحو.

– لمَ تنشغل – سألته بسلامة نيتى – ولديك فى جيبك ما يلزم لتوثيق عمليات التسجيل تلك؟ من يملك أموالاً كثيرة لا يذهب إلى السجن. كان لا يملك حينئذ، كما علمت فيما بعد، شيئًا فى جيبه.

صدقت تمامًا أن الحظ كان حليفه، حتى إنِّى لم أنتبه للمؤشرات العديدة التى كان بوسعها أن تقنعنى بخلاف ذلك.

ذات مساء، فى شهر أغسطس، جرَّنى من جديد معه إلى الصيد. كان الصيد بالصنارة فرصة ضعيفة تحت الضوء الساطع للقمر شبه المكتمل. لكنَّه أصرَّ وقال إننا سنشعر ببعض الراحة فى البحر بعيداً عن الجو الحار. حقا لم نجد غيرها. فبعد ما قمنا بمحاولة واحدة لم نضع شيئًا من الطعم بالصنَّارة، وتركنا الصنانير متدلية من المركب الصغير الذى كان يدفعه لوتشانو فى عرض البحر. من المؤكد أن أشعة القمر كانت تصل إلى أعماق البحر لتزيد من حدة نظر الحيوانات الكبيرة وتنبهها إلى المصيدة والحيوانات الصغيرة أيضًا القادرة على النيل من الطعم، لكن دون أن تصل إلى الشِّصِّ بفمها الصغير. لم يكن طعمنا سوى هدية نقدمها للأسماك الصغيرة.

استرخى جويدو عند مقدمة القارب، وأنا فى مؤخرته. و بعد قليل همس:

– يا له من شجن يبعث به كل هذا الضوء!

ربما قال ذلك لأن الضوء كان يمنعه من النوم، ووافقته لأرضيه ولكى لا أفسد بمناقشة حمقاء، ذلك السكون المهيب الذى كنّا نتحرك فيه. فى حين اعترض لوتشانو وقال إن ذلك الضوء يروق له كثيراً. أردت أن أسكته، حيث وجدت جويدو صامتًا، وقلت له إن الضوء بالتأكيد شىء محزن، إنه يرينا حقيقة الأشياء فى هذا العالم. ثم إنه يعوق الصيد. ضحك لوتشانو وسكت.

مكثنا صامتين لوقت طويل. أخذت أتثاءب لمرات عديدة فى وجه القمر. وشعرت بالندم على استسلامى للصعود إلى ذلك القارب.

سألنى جويدو على حين غِرة:

- بما أنك كيميائى، هل تدلنى إن كان الڤيرونال[1] النقى له فعالية أكثر أم الڤيرونال بالصوديوم؟

حقًا أنِّى لم أكن على علم، على الإطلاق، بأنه يوجد ڤيرونال بالصوديوم. ولا يمكن أن نزعم أبداً أن الكيميائى يحفظ كل شىء فى ذاكرته. فأنا أعلم من الكيمياء القدر الذى يمكننى أن أعثر به فوراً على أية معلومات فى كتبى، وأناقش أيضًا حتى فى أشياء أجهلها، كما يتضح من هذا الموقف.

بالصوديوم؟ ولو أنه معروف لدى الجميع أن تركيبات الصوديوم هى الأسهل فى امتصاصها. وبهذا الشأن الصوديوم تذكرت

---

(١) مخدر معروف.

– وأخذت أعيد على وجه التقريب – مقدار الإشادة التى كان يتحدث بها أحد أساتذتى عن ذلك العنصر، وذلك فى المحاضرة الوحيدة التى حضرتها له. فالصوديوم هو العربة التى تركبها العناصر الكيميائية لتتحرك بسرعة أكبر. وقد ذكر الأستاذ كيف أن كلورور الصوديوم يمر من مركب عضوى إلى آخر، ويتجمع بفعل الجاذبية وحدها فى أعمق فجوة بالأرض، أى البحر. لا أدرى إن كنت قد نقلت بدقة أفكار أستاذى، لكن فى تلك اللحظة وأمام تلك الكمية الهائلة من كلورور الصوديوم، تحدثت عن الصوديوم باحترام لا حدود له. وبعد تردد، سألنى مرة أخرى:

– بمعنى أنه من يرغب في الانتحار هل عليه أن يتناول الڤيرونال بالصوديوم؟

– نعم – أجبت.

ثم ذكرت حالات يتظاهر فيها المرء بالانتحار، غير منتبه إلى أنّى أذكّر جويدو بحادثة مؤسفة فى حياته، فأضفت قائلاً:

– ومن لا يرغب فى الانتحار يتناول الڤيرونال النقى.

إن بحث جويدو حول مسألة الڤيرونال كان من شأنه أن يدفعنى للتفكير فى الأمر. لكنّى لم أفهم شيئًا، حيث كنت مهتمًا بعنصر الصوديوم. وفى الأيام التالية استطعت أن أحمل لجويدو دلائل أخرى على الخواص التى نسبتها للصوديوم: ومنها سرعة الملغمة أيضًا، وهى ليست إلاّ احتضانًا قويًا بين مادتين، احتضان يحل محل المركب أو المتماثل،

كان الصوديوم يضاف إلى الزئبق. فالصوديوم هو الوسيط بين الذهب والزئبق. لكن جويدو لم يعد يبالى بالڤيرونال، وأعتقد الآن أن توقعاته بشأن البورصة فى ذلك الوقت كانت قد تحسنت.

جاءت آدا إلى المكتب ثلاث مرات خلال أسبوع واحد. وبعد الزيارة الثانية وحسب، لاحت لى فكرة أنها ترغب فى التحدث معى.

فى الزيارة الأولى التقت نيلينى الذى كان يلقننى دروساً لمرة أخرى.

انتظرت ساعة كاملة حتى ينصرف، لكنها أخطأت فى الثرثرة معه؛ ولهذا رأى من الواجب أن يبقى. بعد تبادل كلمات التعارف تنفستُ الصُّعداء، فالفتحة الفكية لم يكن يوجهها نيلينى إلىَّ. لم أشارك فى حديثيهما.

كان نيلينى مرحًا أيضًا، وقد أدهش آدا حين حكى لها أنهم يكثرون من النميمة فى الترچستيو، مثلما يحدث عادة فى صالونات السيدات. فهو يرى أنه يمكن الحصول على المعلومات فى البورصة فقط، أفضل من أى مكان آخر. ظنَّت آدا أنه يتجنّى على السيدات، فقالت إنها لا تعلم مطلقًا ماذا تعنى النميمة. وعندئذ تدخلت لأثبت أنِّى، طوال تلك السنوات التى عرفتها فيها، لم أسمعها قط تتفوه بكلمة تمتّ للنميمة بصلة. ابتسمتُ وأنا أقول ذلك، فلقد رأيت أنِّى أثير بداخلها اللوم. لم تكن مغتابة؛ لأنها لا تبالى بشئون الآخرين. فى بادئ الأمر كانت تنشغل بشئونها الخاصة، وهى بكامل صحتها، وعندما اجتاحها المرض، لم يبق

بداخلها سوى مكان صغير شاغر، تحتلُّه غَيرتها. كانت أنانية حقة، لكنها تقبلت شهادتى لها بامتنان.

تظاهر نيلينى بأنه لا يصدقها ولا يصدقنى. قال إنه يعرفنى منذ سنوات طويلة ويؤمن بسذاجتى الكبيرة. ضحكت لما قاله وضحكت آدا أيضًا، فى حين انزعجت كثيرًا عندما أعلن – للمرة الأولى أمام الآخرين – أنّى واحد من أفضل أصدقائه؛ ولذا فهو يعرفنى جيدًا. لم أجرؤ على معارضته، لكنِّى شعرت بإهانة مشاعر الحياء فى من ذلك التصريح الوقح، كما لو أننى فتاة وجّهوا إليها اللوم أمام الجميع لارتكابها فعلاً فاضحًا.

كنت ساذَجًا، هكذا قال نيلينى، بالدرجة التى تدفع آدا، بمكر النساء المألوف، لأن تغتابنى فى حضورى دون أن أدرك ذلك. ظننت أن آدا كانت تتسلى بتلك المجاملات ذات الطابع المريب، فى حين أيقنت فيما بعد أنها تركته يتحدث آملة أن ينتهى وينصرف. لكنَّها انتظرت طويلاً.

عندما عادت للمرة الثانية وجدتنى مع جويدو. قرأت حينئذ علامات نفاد الصبر على وجهها، وتوقعت أنها ترغب فى الحديث معى أنا بالذات. وإلى حين عودتها أخذت ألهو بأحلامى المعتادة. فى واقع الأمر لم تسألنى الحب، لكنها كثيرًا لم تكن ترغب فى الانفراد بى. من الصعب على الرجال فهم ما ترغب فيه النساء؛ لأنهن يجهلنه هن أنفسهن فى بعض الأحيان.

بل إنِّي، لم أستشعر إحساسًا جديداً من كلامها. وفور أن استطاعت الحديث معي اختنق صوتها من الانفعال، لكن ليس لأنها تحدثت معي. كانت تريد معرفة السبب في عدم فصل كارمن من المكتب. أخبرتها بكل ما أعرفه، بما في ذلك المحاولة التي قمنا بها حتى نوفر لها وظيفة لدى أوليڤي.

وفي الحال سكنت إلى الهدوء؛ لأن كل ما قلته لها كان متسقًا تمامًا مع ما أخبرها به جويدو. ثم علمت بعد ذلك أن نوبات الغَيرة كانت تتوالى على آدا على فترات. تأتي دون سبب واضح، وتختفي بفضل كلمة تقتنع بها.

وجّهت لي فضلاً عن ذلك سؤالين: إن كان حقًّا يصعب كثيراً إيجاد مكان شاغر لموظفة، وإن كانت ظروف عائلة كارمن بالدرجة التي تجعلها تعتمد على راتبها.

شرحت لها أنه كان من الصعب بحق العثور في المكاتب على عمل للسيدات في ذلك الوقت. ولم أتمكن من الرد عليها بالنسبة للسؤال الثاني؛ لأنّي لم أتعرف على أحد في عائلة كارمن.

- جويدو، على العكس منك، يعرف الجميع في ذلك المنزل، همهمت آدا في غضب، وبلّلت دموعها وجنتيها من جديد.

ثم صافحتني لتنصرف وشكرتني. قالت وهي تبتسم بين عبراتها، إنها كانت واثقة من الاعتماد عليّ. راقت لي ابتسامتها؛ لأنها لم توجهها

بالتأكيد إلى زوج الأخت، بل إلى من تربطه بها أواصر سرية. حاولت أن أثبت أنِّى جدير بتلك الابتسامة فهمست:

– ما أخشاه على جويدو ليست كارمن، بل المضاربة التى يقوم بها فى البورصة!

رفعت كتفيها قائلة:

– هذا لا يهم؛ تحدثت أيضًا فى ذلك مع أمى، وقد كان أبى يضارب هو الآخر فى البورصة، وربح فيها الكثير من تلك الأموال!

أخذتنى الحَيرة من إجابتها، وأصررت:

– نيلينى هذا لا يروق لى، ليس صحيحًا على الإطلاق أنِّى صديقه!

نظرت إلىّ فى دهشة:

– أراه رجلاً مهذَّبًا، وجويدو أيضًا يحبه كثيراً. ثم أنِّى أعتقد أن جويدو أصبح الآن مهتمًا جداً بأعماله.

كانت نيتى صادقة فى ألاَّ أتحدث معها بسوء عن جويدو فسكت. عندما ألفيت نفسى وحدى لم أفكر فى جويدو، بل فكَّرت فى نفسى. ربما كان خيراً أن أجد فى النهاية أختا فى آدا ولا شىء غير ذلك. كانت لا تعد بالحب ولا تهدد به. أخذت أتجول فى المدينة فى قلق واضطراب لأيام عديدة. لم أتمكن من فَهم ما بداخلى. لماذا كنت أشعر كأنما تركتنى كارلا فى تلك اللحظة؟ لم يحدث لى شىء جديد. أعتقد بصراحة أنِّى كنت

دائمًا بحاجة إلى المغامرة أو الأمور المعقدة التى تشابهها. إن علاقتى مع آدا لم تعد منذ زمن تتسم على الإطلاق بالتعقيد.

ذات يوم أخذ نيلينى يعظ أكثر من المعتاد من مَقعده الكبير: يتقدم السَّحاب الكثيف من الأفق، وما هو إلاَّ ارتفاع الأسعار فى سوق المال. تشبَّعت البورصة على حين غرة، ولا يمكنها ابتلاع المزيد!

- لنلقِ بأنفسنا فى الصوديوم! جاء اقتراحى.

لم تعجبه قط مقاطعتى، لكنَّه تجاهلها لكى لا يغضب. فالمال أصبح بغتة نادراً فى هذا العالم، ومن ثم غاليًا. اندهش عندما حدث هذا فى ذلك التوقيت، فى حين كان قد تنبأ بحدوثه بعد مرور شهر.

- سيكونون قد أرسلوا النقود جميعها إلى القمر! أضفت.

- إنها أمور جادة لا ينبغى الاستخفاف بها - أخذ نيلينى يؤكد وهو ينظر دائمًا إلى السقف. الآن سنرى من لديه روح المناضل الحق، ومن على العكس يستسلم أمام أول ضربة.

وبما أنّى لم أفهم السبب فى ندرة المال فى هذا العالم، لم أستشف كذلك أن نيلينى يضع جويدو بين المصارعين الذين يجب إثبات جدارتهم. اعتدت كثيراً حماية نفسى من نصائحه باللامبالاة، حتى إن تلك المرة أيضًا مضت بعيداً دون أن تنال منِّى، على الرغم من أنِّى استمعت إليه.

لكن توالت بضعة أيام، وبدأ نيلينى يعزف لحنًا مختلفًا تمامًا. لقد وقع حدث جديد، اكتشف أن جويدو قام ببعض التعاملات مع وكيل آخر. بدأ نيلينى يحتجُّ بنبرة حادة، بأنه لم يخلَّ قط بواجباته تجاه جويدو، حتى ولا فى واجب كتمانه للأسرار. كان يريد شهادتى فى هذا الأمر. ألم يخفِ عنِّى أنا أيضًا صفقات جويدو، وهو من عدَّنى دائمًا أفضل أصدقائه؟ لكنَّه تخلص حينئذ من أى تحفظ، واستطاع أن يصرخ فى أذنى بأن جويدو غارق فى الخسارة حتى ذؤابة رأسه. كان يؤكد أنه من الممكن بالنسبة للصفقات التى كانت تتم عن طريقه، الصمود أمام التحسُّن الطفيف وانتظار فرص أفضل. لكنه كان أمرًا جسيمًا أن يخطئ جويدو فى حقه أمام أول محنة.

وما من مقارنة مع آدا! فلقد كانت غَيرة نيلينى جامحة. كنت أريد معرفة بعض الأمور منه، فى حين كان يزداد غضبًا؛ ويواصل الحديث عن الضرر الذى لحق به؛ ولهذا ظل متحفظًا، على الرغم مما كان يضمره من نيّات. وجدت جويدو بالمكتب فى وقت الظهيرة. كان مستلقيًا على أريكتنا فى حالة غريبة ما بين اليأس والنعاس. فسألته:- هل خسارتك الآن جسيمة؟

لم يجبنى فى الحال. رفع ذراعه التى كان يخفى بها وجهه الشاحب وقال:

- ألم تر قط رجلاً أكثر تعاسةً منّى؟

وأرخى ذراعه وغيَّر موضعه واستلقى على ظهره. أغمض عينيه، وبدا كأنما قد نسى وجودى معه.

لم أستطع مواساته. كان يحزننى حقًّا أنه يرى نفسه أكثر الناس تعاسةً فى الدنيا. لم تكن مبالغة منه؛ كانت حقًّا أكذوبة بمعنى الكلمة. لو استطعت لكنت فى نجدته، لكن كان يستحيل علىّ أن أخفِّف من آلامه. فأنا أعتقد أيضًا أنه لا يستحق الشفقة من هو أكثر سذاجة وتعاسةً من جويدو، وإلاّ فلن يكون هناك موضع فى حياتنا إلاّ لذلك الشعور، بما سوف يكون فى ذلك من ملل عظيم. إن قانون الطبيعة لا يعطى الحق فى السعادة، بل بالأحرى يفرض الشقاء والألم. وعندما يكون هناك ما يتاح للأكل، تُهرع الطفيليات إليه من كل مكان، وإن نقصت، فإنها تسرع فى التكاثر. وسرعان ما تكفى الفريسة بالكاد، وعقب ذلك مباشرةً تصبح غير كافية؛ لأن الطبيعة لا تحسب حساباتها، بل تجرى تجاربِها. وعندما لا يكفى الطعام، يجب أن يقل عدد المستهلكين من جراء الموت الذى يسبقه الألم، وهكذا يستعيد التوازن استقراره، للحظة. لمَ الشكوى؟ ومع ذلك يتذمر الجميع. إن أولئك الذين لم يحصلوا على شىء من الفريسة يموتون ويصرخون من الظلم، ومن نال قسطًا منها يرى أنه كان له الحق فى الحصول على قسط أكبر. لمَ لا يموتون أو يعيشون صامتين؟ فى حين تكون الفرحة جميلة لمن استطاع أن يغتنم قسطًا ضخمًا من الطعام، وأن يظهر كذلك فى وضح النهار وسط التهليل. إن الصياح الوحيد المسموح به هو صياح الظافرين.

أما عن جويدو! فإنه يفتقر إلى الصفات جميعها لكى يفوز بالثروة أو حتى يحتفظ بها وحسب. كان يعود من مائدة القمار وهو يبكى لخسارته. إذاً لم يكن حتى يتصرف كما يليق بكرام الرجال، وكان يثير اشمئزازى. من أجل هذا، ولهذا وحسب، لم يجد جويدو تعاطفًا منّى فى اللحظة التى كان يشعر فيها بالحاجة إليه. حتى نياتى المتجددة لم تستطع قيادتى إلى هناك.

فى تلك الأثناء أخذت أنفاس جويدو تزداد انتظامًا وصخبًا. غلبه النوم! كم كان أقل رجولة فى محنته! منعوا عنه الطعام، وربما أغمض عينيه ليحلم بأنه على الرغم من ذلك يحصل عليه، بدلاً من أن يفتحهما كما يجب ليرى أنه ينتزع منه قدراً صغيراً.

راودنى الفضول لمعرفة إن كانت آدا على علم بالكارثة التى لحقت به أم لا. سألته بصوت عالٍ عن ذلك. انتفض، وكان بحاجة إلى وقفة ليعيش مصيبته التى عاد يراها كاملة، وعلى حين غرة.

- لا! همس، ثم عاد وأغمض عينيه.

من المؤكد أن كل أولئك الذين لحقت بهم محنة قاسية يميلون إلى النُّعاس، فالنوم يعيد القوة. مكثت أنظر إليه فى حيرة. لكن كيف كان يمكن مساعدته وهو نائم؟ لم تكن تلك اللحظة هى المناسبة للنوم. أمسكت بكتفه بشدة وهززته:

- جويدو!

كان مستغرقًا فى النوم. نظر إلىَّ وهو مضطرب وعيناه لا يزال النُّعاس يغشاهما، ثم سألنى:

– ماذا تريد؟ وفور ذلك مباشرةً كرر السؤال، وهو ثائر: – إذًا، ماذا تريد؟

كنت أرغب فى مساعدته، وإلاَّ لما كان لى حتى الحق فى إيقاظه. انتابنى الغضب أنا أيضًا، وصحت بأنه ليس وقت النوم، وينبغى الإسراع بإيجاد وسيلة للخروج من المأزق. كان يجب إجراء الحسابات والمناقشة مع أفراد عائلتنا جميعهم وأفراد عائلته ببوينوس آيرس.

بدأ جويدو يعتدل. كان لا يزال مضطربًا بعض الشىء؛ لأنه أوقظ بتلك الطريقة. قال لى بمرارة:

– ليتك كنت أحسنت صنُعًا وتركتنى أنام. من تراه يساعدنى الآن؟ ألا تذكر أى حد كان علىّ أن أصل فى المرة السابقة لأحصل على القليل الضرورى لإنقاذى؟ يتعلق الأمر حاليًا بمبالغ ضخمة! إلى من تريد أن أتوجه؟

دون أية عاطفة، بل وفى ثورة اندفاعى بالالتزام بمساعدته وحرمان عائلتى، صحت:

– ألستُ موجودًا هنا أنا أيضًا؟ ثم أوحى بُخلى إلىَّ بأن أخفِّف منذ البداية من تضحيتى:

– أما توجد آدا هنا؟ حماتنا؟ ألا يمكن أن نجتمع كلنا لإنقاذك؟

نهض واقترب منِّى، ونيته واضحة لمعانقتى.

لكنِّى لم أكن أرغب البتة فى ذلك. فبعد أن عرضت عليه مساعدتى، أصبح لى الحق فى أن أوبِّخه، وتماديت فى استخدام هذا الحق. وجهت اللوم إليه على ضعفه آنذاك، فضلاً عن اعتداده بنفسه الذى استمر حتى تلك اللحظة وجرَّه إلى الهلاك. أخذ يتصرف من تلقاء نفسه دون استشارة أحد. فى كثير من الأحيان حاولت أن أطلع على اتصالاته حتى أوقفه وأنقذه، وكان يرفض أن يطلعنى عليها، فى حين كان يضع ثقته فى نيلينى وحده.

وفى تلك اللحظة ابتسم جويدو، ابتسم حقًا، جويدو التعس! أعلمنى أنه لم يعد يعمل مع نيلينى منذ خمسة عشر يومًا، بعد ما رسخ فى ذهنه أن وجهه ذاك يجلب النحس.

كان ما يميزه هو ذلك النعاس وتلك الابتسامة: يتسبب فى خسارة من حوله جميعهم ويبتسم. انتهجت سلوك القاضى الصارم؛ لأن انقاذ جويدو كان يتطلب تأديبه. أردت معرفة المبلغ الذى خسره، وغضبت عندما أخبرنى أنه لا يعرفه بالضبط. وثرتُ مرة ثانيةً عندما ذكر لى رقمًا صغيرًا نسبيًا، اتضح فيما بعد أنه يمثل المبلغ اللازم تسديده فى الخامس عشر من الشهر، ولم يتبق لنا حينئذ سوى يومين وحسب حتى هذا الوعد. لكن كان جويدو يؤكد أنه هناك وقت حتى نهاية الشهر، وربما تتغير الأمور. وما كانت قلة المال فى السوق لتستمر إلى الأبد.

صرخت:

– لو قلَّ المال فى هذا العالم، أتريد أن تتلقاه من القمر؟ أضفت أنه لا ينبغى أن نقامر ولا حتى ليوم واحد. ليس من المعقول أن نجازف حتى

نرى الخسارة تزداد وهى جسيمة بالفعل. وكذلك قلت يمكن تقسيم الخسارة إلى أربعة أجزاء سنتحملها أنا، وهو (أعنى والده)، والسيدة مالفنتي، وآدا، وإنه من الضرورى العودة إلى تجارتنا البعيدة عن المخاطر، وإنّى لا أرغب على الإطلاق فى رؤية نيلينى أو أى سمسار آخر للأوراق المالية فى مكتبنا.

رجانى فى هدوء ودعة ألاّ أصيح كثيراً؛ لأنه ربما يسمعنا من حولنا.

بذلت جهداً كبيراً لكى أهدأ، ونجحت فى ذلك أيضًا فى مقابل أنّى استطعت أن أقول له كلامًا جارحًا بصوت خافت. جاءت خسارته نتيجة مباشرة لعمل إجرامى. لابد أن يكون حيوانًا غبيًا من يوقع نفسه فى مواقف حرجة كتلك. ورأيت من الضرورى حقًا أن يتجرع الدرس كاملاً.

وهنا احتج جويدو فى هدوء. من لم يضارب فى البورصة؟ إن حمانا، الذى كان من التجار الراسخين، لم يخلُ يوم واحد فى حياته من نشاطه فى هذا المجال. فضلاً عن أنّى كنت أقامر أنا أيضًا - كما كان يعلم جويدو.اعترضت؛ لأن هناك اختلافًا بين مضاربة وأخرى. لقد خاطر فى البورصة بميراثه، وبى، وبإيراد شهر من الشهور. كان لها تأثيرها المحزن علىّ محاولة جويدو الطفولية فى التخلص من مسئوليته. أخذ يؤكد أن نيلينى قد دفعه إلى المضاربة بأكثر مما كان يرغب فيه، خادعًا إياه بالتقدم نحو ثروة عظيمة.

ضحكت وسخرت منه، فلا ينبغى لوم نيلينى، حيث كان يقوم بشئونه الخاصة. وفضلاً عن ذلك، وبعد أن ترك نيلينى، ألم يندفع فى

زيادة مبلغ المضاربة عن طريق سمسار آخر؟ أعساه كان سيتفاخر بالعلاقة الجديدة لو أنه قام بواسطتها بالمضاربة على هبوط الأسعار دون علم نيليني. لم يكن ليكفي بلا شك لإصلاح الوضع تغيير الوكيل والاستمرار في السير في الطريق ذاته أمام مطاردة النحس ذاته. في النهاية، أراد جويدو أن يدفعني إلى أن أتركه وشأنه، وبغصة في حلقه اعترف بخطئه.

توقفت عن توبيخه. حقيق أنه كان يثير شفقتي حقًا، ووددت أن أعانقه كذلك في تلك اللحظة لو أنه رغب. قلت له إنّي سأهتم في الحال بتوفير المال الذي سأمده به، ويمكنني أن أتكفل أيضًا بالحديث مع والدة زوجتينا، في حين سيهتم هو بآدا.

زاد من شفقتي عندما أفضى إليّ أنه سيتحدث عن طيب خاطر مع والدة زوجتينا بدلاً منّي، لكن ما كان يؤلمه هو ضرورة الحديث مع آدا.

– إنك تعلم ما هي طبيعة النساء! إنهن لا يفهمن ما بالأعمال التجارية، وإنما عندما تتم على ما يرام وحسب! إنه لم يكن ليتحدث إليها على الإطلاق بل يرجو السيدة مالفنتي أن تخبرها بكل شيء.

خفف عنه هذا القرار على نحو كبير وخرجنا معًا. رأيته يسير إلى جواري مطأطأ الرأس، وكنت أشعر بالندم على أنني عاملته بقسوة شديدة. لكن كيف كان لي أن أفعل خلاف ذلك إن كنت أحبه؟ كذلك كان يجب عليه أن يحاسب نفسه، إن كان لا يريد أن يلقى الخراب! أن يرى

كيف يجب أن تكون طبيعة، علاقته مع زوجته ما دام يخشى الحديث معها على هذا النحو!

غير أنه اكتشف حينئذ وسيلة لإثارة غيظى مرة أخرى. فى أثناء سيرنا رأى أن يُتقن الخطة التى راقت له كثيراً. لم يكن يود ألاَّ يتحدث مع زوجته وحسب، بل أن يجد الوسيلة لعدم رؤيتها تلك الليلة، حيث قرر الذهاب إلى الصيد على الفور. وبعد اتخاذه ذلك القرار، زالت عنه كل غيوم الكآبة. كما لو أن فكرة الذهاب إلى الهواء الطلق أصبحت كافية، بعيداً عن أى تفكير، لإعطائه مظهر من هو بالفعل هناك يستمتع استمتاعاً تامًا. هذا ما أثار سخطى! من المؤكد أنه يمكنه أن يعود بالأسلوب ذاته إلى البورصة ليستأنف المضاربة التى سيجازف فيها بثروة العائلة وثروتى أيضاً.

قال لى:

– أريد أن أمنح نفسى هذه المتعة الأخيرة، وأدعوك لتأتى معى شرط أن تلتزم بألاَّ تذكر أحداث اليوم بكلمة واحدة.

حتى تلك اللحظة كان يتحدث وهو يبتسم. وأمام تعبير وجهى الجاد، أصبح هو أيضاً أكثر جِدية. وأضاف:

– وأنت أيضاً ترى أنِّى بحاجة إلى الراحة بعد ضربة كهذه. ثم إنه سيسهل لى فيما بعد أن أستعيد موقعى فى الصراع.

غشى صوته انفعال لم أستطع أن أرتاب فى مدى صدقه؛ ومن ثم تمكنت من كتم سخطى أو أن أعبِّر عنه بمجرد رفضى لدعوته، متعللاً له بأنه علىَّ أن أبقى بالمدينة لأوفر الأموال اللازمة. ما صدر منِّى كان لوماً بمعنى الكلمة! بقيت، أنا البرىء، فى مكانى، فى حين يستبيح لنفسه، هو المذنب، أن يذهب للتسلية.

كنا قد وصلنا أمام باب منزل السيدة مالفنتى. ما عاد يجد مكاناً لتعبير البهجة التى كان يتوقعها من خلال التسلية لبضع ساعات، واحتفظ على وجهه، وقد بقى معى، بتعبير ألم تذكُّره منِّى. لكنَّه قبل أن يتركنى، وجد متنفساً فى إظهار استقلاله وحقده - كما كان يبدو لى. قال لى إنه يندهش بالفعل لاكتشافه بشخصى صديقًا على هذا النحو. كان متردداً فى قبول التضحية التى أردت أن أقدِّمها له وكان يتعمد (كان يتعمد حقًّا) أن أعرف أنه لا يحسبنى ملتزمًا تجاهه بأى حال من الأحوال، وإننى لذلك حر فى تقديمها أو عدم تقديمها.

أنا على يقين من أن وجهى احمر فى تلك اللحظة. ولكى أتخلص من حرجى قلت له:

- لماذا تظن أننى قد أرغب فى الانسحاب، وقد اقترحت منذ بضع دقائق أن أساعدك دون أن تسألنى شيئًا؟

نظر إلىَّ وهو متردد بعض الشىء ثم أجاب:

- بما أنك ترغب فى ذلك، أقبل دون شك وأشكرك. لكننا سنبرم عقداً للشركة جديداً تماماً، حتى يحصل كلٌّ منَّا على ما يحق له. بل وإن

بدأ العمل وكنت لا تزال ترغب فى التمهل، فلك أن تتقاضى راتبك. سوف نؤسس الشركة الجديدة على قاعدة مختلفة تمامًا؛ ومن ثم لن نخشى خسائر أخرى من جراء إخفاء خسارة العام الأول من ممارستنا العمل. فأجبت:

- هذه الخسارة ليست لها أية أهمية، ولا عليك أن تنشغل بها مطلقًا. حاول الآن أن تأخذ والدة زوجتك فى صفك. هذا ما يهم حاليًا وليس شيئًا آخر.

وعلى هذا النحو افترقنا. أعتقد أنِّى ابتسمت من سذاجة جويدو وهو يُفصح عن مشاعره الدفينة. لقد تكلم معى بذلك الخطاب المطوَّل لمجرد أن يتمكن من قبول هديتى، دون أن يلتزم بإظهار العرفان بالجميل تجاهى. لم أكن أنتظر شيئًا. كانت تكفينى معرفتى أنه مدين لى بهذا الامتنان.

وعلى ذلك، أحسست أيضًا ببعض الراحة، بعد ما انصرفت عنه، كأنما ذهبت بعدها مباشرةً إلى الهواء الطلق. حقًّا شعرت بالحرية التى فارقتنِّى عندما نويت تعليمه وإعادته إلى الطريق الصحيح. أصبح المعلم فى واقع الأمر أكثر تقيدًا من التلميذ. كنت صادقًا فى قرارى بأن أوفِّر له تلك الأموال. بالطبع لا أستطيع القول إن كنت أفعل ذلك حبًا فيه أم فى آدا، أو لعلنى قررت ذلك لأتخلص من ذلك القدْر الصغير من المسئولية الذى ربما يخصنى لعملى فى مكتبه. أيا كان الدافع، عزمت على التضحية

بجزء من ثروتي، وإلى يومنا أتذكر ذلك اليوم في حياتي بشعور كبير بالرضا. إن ذلك المال كان سينقذ جويدو، ويضمن لي راحة كبيرة لضميري.

أخذت أسير حتى حلول المساء في هدوء وافر، وبالتالي ضاع الوقت المناسب للذهاب إلى البورصة حتى أتفقد أوليفي، حيث كان عليّ أن ألجأ إليه ليوفر لي مبلغًا ضخمًا كهذا. ثم رأيت أن المسألة ليست عاجلة جداً. فكانت لديّ أموال كثيرة تحت تصرفي آنذاك تكفي للإسهام في التسوية، التي كان من المفترض أن تُجرى في الخامس عشر من ذلك الشهر. وبإمكاني أن أتدبر بعد ذلك ما يفي حتى نهاية الشهر.

في تلك الليلة لم أشغل فكري بجويدو. فيما بعد، أي عندما نام الأطفال، تأهبت لمرات عديدة أن أخبر أوجوستا بكارثة جويدو المالية، وبالخسارة التي سوف تنعكس عليّ، لكنِّي بعد ذلك لم أرغب في إثارة أعصابي بمناقشات، ورأيت أنه من الأفضل أن أتريث لإقناع أوجوستا في الوقت الذي سيقرر فيه الجميع تسوية تلك الأعمال. فضلاً عن أنه من السخافة أن أزعج أنا نفسي، في حين يلهو جويدو.

نمت جيداً، وفي الصباح ذهبت إلى المكتب وجيبي ليس مثقلاً بأموال كثيرة (كنت أضع به الظرف القديم الذي تركته لي كارلا، وقد احتفظت به بعناية شديدة حتى ذلك الحين من أجلها، أو ربما من تحتل مكانها، وشيئًا من أموال أخرى استطعت أن أسحبها من البنك). قضيت النهار في قراءة الصحف، بين كارمن التي كانت تحيك ولوتشانو وهو يتمرس في عمليات الضرب والجمع.

عندما عدت إلى المنزل في ساعة الغداء، وجدت أوجوستا حائرة وحزينة. كان يكسو وجهها ذلك الشحوب الشديد، الذى كان لا ينجم إلاّ عن آلام أسببها لها. قالت لى فى هدوء:

– علمت أنك قررت أن تضحى بجزء من ثروتك لإنقاذ جويدو. أعرف أنه لم يكن لى الحق فى أن تخبرنى بذلك...

كانت متشككة جداً فى حقها ذاك، حتى إنها تحيرت. ثم عادت وأخذت تلومنى على صمتى:

– حقيق أنِّى لست مثل آدا، فأنا لم أعارض رغباتك على الإطلاق.

احتجت إلى بعض الوقت، حتى أعرف ما حدث. تصادفت زيارة أوجوستا لآدا عندما كانت تتناقش مع والدتها بشأن جويدو. وما إن رأتها آدا حتى استرسلت فى بكاء شديد، وأخبرتها بعرضى السخى الذى لا تريد قبوله على الإطلاق. بل وتوسلت إلى أوجوستا أن تدعونى للعدول عن اقتراحى.

لاحظت على الفور أن أوجوستا تعانى من علّتها القديمة، وهى غَيرتها من أختها، لكنِّى لم أبالِ بذلك. كان موقف آدا الذى اتخذته يدهشنى:

– هل بدت لكِ مستاءة؟

– سألتها وأمعنت النظر من المفاجأة.

– كلا! كلا! لم تشعر بإهانة!

– صاحت أوجوستا الصريحة – قبلتنى وعانقتنى... ربما لكى أعانقك أنت.

وجدت فى ذلك أسلوبًا للتعبير مضحكًا جداً. أخذت تنظر إلىّ، وتتفحصنى بارتياب.

احتججت قائلاً:

– أتظنين أن آدا تحبنى؟ ماذا يخطر ببالك؟

لكنِّى لم أتمكن من تهدئة أوجوستا، التى كانت غَيرتها تزعجنى بصورة مفزعة. حسنًا، كان جويدو لا يلهو فى تلك الأثناء؛ فقد كان بلا شك يقضى ربع الساعة مزعجًا ما بين حماته وزوجته، لكنِّى أنا أيضًا كنت مستاءً جداً، وأرى أن معاناتى أكثر مما ينبغى وأنا برىء تمامًا.

حاولت تهدئة أوجوستا وأنا أداعبها. فابتعدت بوجهها عن وجهى لترانى جيداً، وبرقة وجَّهت لى لومًا خفيفًا أثَّر فىّ تأثيراً كبيراً، فقالت لى:

– أعرف أنك تحبنى أيضًا.

من الواضح أنها لم تكن تبالى بحالة آدا النفسية، بل كانت تهمها حالتى أنا النفسية، فلاحت لى فكرة لأثبت لها براءتى:

– إذًا فآدا مغرمة بى؟ سألتها ضاحكًا. ثم ابتعدت عن أوجوستا لكى ترانى جيداً، ونفخت خدىّ قليلاً، وحملقت بعينى بصورة غير طبيعية

حتى أشبه آدا المريضة. نظرت أوجوستا إليّ في دهشة، لكنها سرعان ما فطنت إلى قصدى، فانفجرت في ضحك سرعان ما خجلت منه.

- لا! قالت لي، أرجوك ألاّ تسخر منها.

ثم أقرّت، وهي لا تزال تضحك، أنّي استطعت إجادة محاكاة تلك الانتفاخات التي باتت تضفي على وجه آدا مظهراً يدعو إلى الدهشة الشديدة. كنت أحس بذلك، حيث خلتُ أنّي أعانق آدا في أثناء محاكاتي لها. ولمرات عدة عندما كنت أنفرد بنفسي، كررت تلك المحاولة بدافع من الرغبة والاستياء معاً.

في وقت الظهيرة ذهبت إلى المكتب آملاً في أن أجد جويدو. انتظرت لبعض الوقت ثم قررت أن أتوجه إلى منزله. كان عليّ كذلك أن أعرف إن كان ضرورياً أن أطلب مالاً من أوليفي. كان يجب أن أقوم بواجبي على الرغم من استيائي لرؤية آدا مرة أخرى وهي مثقلة من العرفان بالجميل، من يدرى ماالمفاجآت التي قد تأتيني من تلك المرأة!

تقابلت مع السيدة مالفنتي مصادفةً على درج السلم في منزل جويدو، وكانت تصعد بصعوبة. حكت لي طولاً وعرضاً ما الذي تم إقراره بشأن جويدو حتى تلك اللحظة. ففي الليلة السابقة قد اختلفوا حول الاقتناع بضرورة إنقاذ ذلك الرجل الذي ابتلي بسوء حظ مفجع. وكانت آدا قد علمت في الصباح فقط أنّي التزمت بالتعاون في تغطية خسارة

جويدو، وقد رفضت بحسم قبول ذلك الأمر. والتمست لها السيدة مالفنتى العذر:

– ماذا تريد أن تفعل؟ إنها لا ترغب فى تحمل تأنيب ضميرها؛ لأنها أفقرت أختها التى تؤثرِها.

توقفت السيدة على راحة السلم لتلتقط أنفاسها ولتتحدث أيضًا، وأخبرتنى، وهى تضحك، أن المسألة ستنتهى دون إلحاق الضرر بأحد. ذهبت هى وآدا وجويدو، قبل الغداء، لاستشارة محام، وهو صديق قديم للعائلة، وأصبح حينئذ حارسًا أيضًا على مصالح الصغيرة أنًا. قال المحامى إنه ليست هناك ضرورة للتسديد؛ لأنهم غير مضطرين لذلك أمام القانون. اعترض جويدو بشدة وهو يتحدث عن الشرف والواجب، لكن دون شك، وفور أن يقرِّر الجميع وبينهم آدا عدم التسديد، فسوف يستسلم هو أيضًا للقرار.

– لكن سيتم إشهار إفلاس شركته فى البورصة؟ قلت وأنا حائر.

– من المحتمل! أجابت السيدة مالفنتى بتنهد قبل أن تبدأ فى صعود الدرج الأخير من السلم.

كان جويدو يستريح فى العادة بعد تناول الغداء؛ ولهذا استقبلتنا آدا بمفردها فى ذلك الصالون الصغير الذى كنت أعرفه جيداً. عندما رأتنى ارتبكت للحظة، للحظة واحدة، لكنِّى التقطت حركتها وتحققت منها واضحة وظاهرة، وكأنها كلام قيل لى. ثم جمعت قواها ومدت يدها إلىّ

بحركة واثقة كحركة الرجال، كان من شأنها أن تمحو تعثر النساء الذى اعتراها فى البداية.

قالت لى:

– أظن أن أوجوستا أخبرتك بامتنانى لك. لا أستطيع أن أقول لك الآن ما أشعر به لأنِّى مضطربة. وأنا كذلك مريضة. نعم، ما زلت مريضة! قد أحتاج إلى الذهاب من جديد للمصحة ببولونيا!

أوقفتها شهقة عن الكلام:

– أطلب منك الآن معروفًا. أرجوك أن تبلغ جويدو أنك أنت أيضًا لست فى ظروف تسمح بإعطائه ذلك المبلغ من المال. وهكذا سيصبح يسيرًا علينا أن ندفعه للقيام بما يتعين عليه.

فى بادئ الأمر فاجأتها شهقة وهى تتذكر مرضها، ثم تنهدت من جديد قبل أن تستأنف الحديث عن زوجها:

– إنه صبى صغير، وعلينا أن نعامله على هذا النحو. فإن علم أنك توافق على منحه هذا المال، فسيتشبث برأيه مرة أخرى فى التضحية أيضًا بالمتبقى وبلا جدوى. دون فائدة؛ لأننا علمنا الآن عن يقين تام أنه مسموح بإشهار الإفلاس فى البورصة، كما أبلغنا المحامى.

أبلغتنى برأى مرجع كبير دون أن تسأل عن وجهة نظرى. بوصفى أحد الرواد القدامى فى البورصة، ربما كان لرأيى أهميته إلى جانب

وجهة نظر المحامي أيضاً، لكنِّي لم أتذكر رأيي ذلك على الإطلاق، على الرغم من أنَّه كانت لي وجهة نظر. وأذكر أنِّي وضعت في موقف حرج. لم أكن أستطيع التخلِّي عن الالتزام الذي عاهدت جويدو عليه: كان في مقابل هذا الالتزام، أنِّي سمحت لنفسي أن أصرخ في أذنيه بكثير من الكلام الفظ، وحصلت بذلك على ما يشبه الفوائد على رأس المال، الذي لم يعد حينئذ يمكنني أن أرفض إعطائي له إياه في ذلك الوقت.

– آدا! – قلت لها في تردد – لا أعتقد أنِّي أستطيع أن أسحب التزامي هكذا بين ليلة وضُحاها. أليس من الأفضل أن تقنعي جويدو بأن يفعل ما ترغبين فيه أنت؟

قالت السيدة مالفنتي، بعاطفتها الكبيرة التي كانت تظهرها لي دائماً، إنها تدرك جيداً موقفي الخاص، وإنه على الرغم من ذلك عندما لا يجد جويدو تحت تصرفه سوى ربع المبلغ الذي كان بحاجة إليه فقط، لابد أنه سيستسلم لرغبتهم جميعاً.

لكن دموع آدا لم تجف. قالت، وهي تبكي وتخفي وجهها بالمنديل:

– لقد أخطأتَ، أخطأتَ كثيراً في القيام بذلك الاقتراح الرائع حقًّا! سيتضح الآن مدى الضرر الذي صنعتَه!

كانت تبدو لي مترددة بين شعور كبير بالامتنان والسخط شديد. أضافت بعد ذلك أنها لا ترغب في الحديث عن ذلك العرض مطلقاً، ورجتني ألاّ أمنحه ذلك المال؛ لأنها ستمنعني من تقديمه أو ستمنع جويدو من قبوله.

شعرت بحرج شديد انتهى بى إلى الكذب. أخبرتها بأنِّى قد حصلت على المبلغ بالفعل، وأشرت إلى جيب صدر سترتى الذى كان يرقد به ذلك الظرف قليل الثقل. نظرت إلىّ آدا تلك المرة نظرة إعجاب حقيقى ربما أسعدنى، لو لم أكن أعرف أنِّى لست جديراً بها. على أية حال تلك كانت كذبة قلتها حقًّا، ولا أستطيع أن أعطى لها تفسيراً آخر سوى محاولتى الغريبة فى الظهور أمام آدا بصورة أفضل مما كنت عليها، وأدت إلى عدم انتظارى لجويدو وانصرافى من ذلك المنزل. ألم يكن من المحتمل أن يحدث أيضاً، بخلاف ما كان يبدو فى الظاهر، أن يُطلب منِّى تسليم المبلغ الذى كنت أدَّعى أنه معى، وعندئذ ما هى الصورة التى كنت سأظهر عليها؟ قلت مسرعاً إن لدى أعمالا عاجلة بالمكتب، وانصرفت مسرعاً.

رافقتنى آدا إلى الباب، وأكدت لى أنها ستدفع جويدو لزيارتى لتوجيه الشكر لى على عرضى السخىّ ولعدم قبوله. قالت ذلك التصريح بنبرة حاسمة مما جعلنى أنتفض. رأيت فى ذلك القرار الحاسم ما يصيبنى أنا أيضاً. كلا! فى تلك اللحظة لم تكن تحبنى. كان تصرفى الكريم أكبر مما ينبغى. كان يسحق بثقله الأشخاص المعنيين، ولم يكن هناك داعٍ للدهشة من معارضة المستفيدين به. حاولت وأنا فى طريقى إلى المكتب أن أتخلص من الضيق الذى تسبب فيه تصرف آدا، وأذكِّر نفسى أنِّى أقدم تلك التضحية لجويدو، لا لأحد سواه. وما شأن آدا؟ عدت أعاهد نفسى أن أخبرها بهذا فى أول مناسبة.

ذهبت إلى المكتب لكي لا أشعر بالفعل بتأنيب الضمير؛ لأنّي كذبت مرة أخرى. لم يكن هناك شيء ينتظرني به. ومنذ الصباح كان مطر خفيف يتساقط باستمرار، مما أنعش الهواء كثيراً في ذلك الربيع الذي كان يتعثر. لو أردت لكنت بمنزلي بعد خطوتين، في حين كان عليَّ أن أسير في طريق طويل حقًّا لأصل إلى المكتب، مما كان يثقل عليّ. لكنِّي كنت أرى ضرورة وفائي بالوعد.

لحق بي جويدو بعد قليل، وصرف لوتشانو من المكتب ليبقى بمفرده معي. كانت على وجهه علامات الاضطراب تلك التي كانت تسانده في مشاجراته مع زوجته وكنت أعرفها جيد جداً. لا بد أنه بكى وصرخ.

سألني عن رأيي في خُطط زوجته وحماتنا، وكان يعلم أنهما أخبرتاني بها. بدا عليَّ التردد أمامه. لم أرغب في الإفصاح عن وجهة نظري، التي لم تكن تتفق ورأي السيدتين، وكنت أعلم أنني لو اتبعت رأيهما لتسببت في إثارة غضب وشجار جويدو. فضلاً عن أنه كان يسوءني كثيراً أن أظهر ترددي في تقديم المساعدة، ثم إننا قد اتفقنا في النهاية أنا وأدا على أن القرار لا بد أن يأتي من جويدو وليس منِّي. قلت له إنه من الضروري أن نجري الحسابات، ونرى، ونستمع أيضاً إلى أناس آخرين. فلم أكن أنا رجل الأعمال الذي يستطيع أن يدلي بنصيحة في أمر كذلك بالغ الأهمية. وحتى أكسب بعض الوقت، سألته إن كان يرغب في أن أستشير أوليفي.

كان هذا كافيًا لدفعه إلى الصراخ:

– ذلك الأحمق! صاح. أرجوك أن تنحِّيه جانبًا!

لم أكن مستعداً على الإطلاق للتحمُّس فى الدفاع عن أوليڤى، لكن هدوئى لم يكفِ لطمأنة جويدو. كنَّا فى موقف اليوم السابق ذاته، لكنّه هو الذى كان يصيح حينئذ وكان دورى أن أصمت. إنها مسألة استعداد. اجتاحنى حرج شديد سيطر علىّ وقيَّدنى.

لكنَّه أراد أن أدلى برأيى على نحو جازم. تحدثت بصورة جيدة للغاية من إلهام أعتقد أنه إلهى، أحسنت كثيراً، كثيراً جداً فى القول، حتى إنه لو كان لكلامى تأثير أيا كان، لتجنبنا الكارثة التى حدثت فيما بعد. أخبرته أنِّى لو خُيرت لفصلت بين المسألتين، أى ما بين المبلغ المطلوب فى الخامس عشر وذلك الآخر فى نهاية الشهر. مجمل القول أننا لم نكن بحاجة إلى تسديد مبلغ ضخم جداً، وفى الوقت نفسه كان ضروريًا دفع المرأتين إلى تحمل تلك الخسارة الخفيفة. ثم سيكون لدينا الوقت اللازم لنوفر المبلغ الآخر بحكمة.

قاطعنى جويدو ليسألنى:

– قالت آدا لى إنك أحضرت بالفعل المبلغ فى جيبك. أهو معك هنا؟

احمرَّ وجهى من الحرج. لكنّى عثرت على الفور على كذبة أخرى أنقذتنى:

– بما أنهن لم يقبلن ببيتك هذا المال، فقد أودعته فى المصرف منذ قليل. لكننا نستطيع أن نسترده من جديد وقتما نشاء، حتى فى صباح الغد مباشرةً.

عندئذ وجَّه لى اللوم؛ لأنِّى بدلت رأيى. مادمت صرَّحت له بالفعل فى اليوم السابق بعدم رغبتى فى انتظار سداد المبلغ الثانى لنعيد تنظيم الأمور كلها! ولذا انفجر فى ثورة عارمة انتهت به إلى انطراحه منهك القوى على الأريكة. توعد بأن يطرد من المكتب نيلينى والوكلاء الآخرين الذين حملوه على المضاربة. آه! حتى وإن كان احتمال الإفلاس يتراءى له وهو يضارب فى البورصة، إلاَّ أنه بات يرفض الإذعان لسيدتين لا يفقهن شيئًا فى أى شىء. تقدمت لمصافحته ولعانقته لو سمح بذلك. لم أرغب فى شىء سوى أن أراه يصل إلى هذا القرار. لا مضاربة بعد اليوم، بل القيام بالعمل اليومى! هكذا كان يجب أن يكون مستقبلنا واستقلاله. كان لا بد آنذاك من المرور بتلك الفترة العصيبة القصيرة، ثم يصبح كل شىء فيما بعد سهلاً وبسيطًا.

بعد قليل تركنى وهو خائر العزم، لكنه فى حالة أهدأ. وعلى الرغم من ضعفه كان يلح عليه هو الآخر قرار حاسم.

– سأعود إلى آدا! – همهم وهو يبتسم ابتسامة مريرة، ولكن فى ثقة. رافقته إلى الباب وكنت على استعداد لاصطحابه حتى منزله، لو لم تكن لديه العربة تنتظره عند الباب.

كانت النقمة تلاحق جويدو؛ بعدما تركني بنصف ساعة رأيت أنه من الحكمة أن أتوجه بدوري إلى منزله للوقوف إلى جواره. ليس لأنّي كنت أتوقع خطراً يداهمه، بل لأنّي كنت حينئذ أؤازره تماماً، وربما استطعت أن أشارك في إقناع آدا والسيدة مالفنتي لمساعدته. فالإفلاس في البورصة كان أمراً يسوغني، وعلى العموم كانت الخسارة، التي قسّمت علينا نحن الأربعة، جسيمة، لكنها لم تكن تمثل الهلاك لأحد منّا.

ثم تذكرت أن واجبي الأكبر لم يكن وقتئذ معاونة جويدو، بل إعداد المبلغ له في اليوم التالي، وقد وعدته به. في الحال ذهبت بحثاً عن أوليفي وتأهبت لصراع آخر. فكّرت في نظام لتسديد المبلغ الضخم بموجب توقيعي على مدى بضع سنوات، ولكن بإيداع كل ما تبقى لي في حسابي من ميراث والدتي منذ ذلك التاريخ وعلى مدى بضعة أشهر. كنت آمل ألاّ يصعّب أوليفي المسألة، حيث لم أطلب منه قط حتى ذلك الحين أكثر مما يخصني من فوائد وأرباح، وكان كذلك بإمكاني ألاّ أزعجه على الإطلاق بمثل تلك المطالب. من الواضح أنّي ربما كنت آمل كذلك في استرداد جزء على الأقل من ذلك المبلغ من جويدو.

في تلك الليلة لم أستطع العثور على أوليفي. غادر المكتب لتوه في اللحظة التي دخلت فيها. افترضوا أنه توجه إلى البورصة. لم أجده هناك أيضاً، وعندئذ ذهبت إلى منزله، حيث علمت أنه يحضر جلسة في شركة اقتصادية يشغل فيها منصباً فخرياً. كان بإمكاني أن ألحق به هناك، لكن الظلام كان قد حلّ حينئذ، وكانت السماء تمطر مطراً غزيراً لا ينقطع حول الطرق إلى جداول مياه عديدة.

كان طوفانًا استمر طيلة الليل لم تنسَ ذكراه لسنوات عديدة. أخذ المطر يهطل ويهطل فى إصرار، عموديًا على نحو ثابت، غزيرًا على نحو متواصل. ومن الأماكن المرتفعة التى كانت تحف المدينة كان الطين يهبط ومعه نفايات حياتنا المدنية، ليسدَّ القنوات الشحيحة التى كانت لدينا. وعندما قررت أن أعود إلى منزلى، بعد أن انتظرت دون جدوى فى مخبأ حتى يتوقف المطر، ورأيت فى وضوح أن الجو استقرَّ على هطول المطر، وأنه من العبث الأمل فى حدوث تغيير به، أخذت أسير فى المياه حتى وإن كنت أتحرك على الأجزاء الأعلى من حجارة الطريق. أسرعت إلى البيت وأنا أسبُّ وقد تبللت حتى عظامى. وكنت أسب أيضًا؛ لأنِّى أضعت وقتًا طويلاً حقًّا للعثور على أوليڤى. ربما كان وقتى ليس ثمينًا بهذه الدرجة، لكن من المؤكد أنِّى أتألم بصورة مفزعة عندما أكتشف أنِّى قمت بعمل لا جدوى منه. وفى أثناء ما كنت أجرى أخذت أفكر: «لنترك كل شىء للغد عندما يصبح الجو صافيًا جميلاً وجافًا. فى الغد سأذهب إلى أوليڤى، وغدًا سأرى جويدو. لعلنى أستيقظ فى ساعة مبكرة، لكن الجو سيكون صافيًا وجافًا». كنت مقتنعًا تمامًا بصحة قرارى، حتى إنِّى أخبرت أوجوستا بأن الجميع استقروا على تأجيل أى قرار لليوم التالى. غيرت ملابسى، وجففت ما كان من بلل، ووضعت قدمىَّ المعذبتين فى خُف مريح دافئ. تناولت فى البداية طعام العشاء، ثم استسلمت لنُعاس عميق حتى الصباح، بينما كان المطر الثقيل يعصف بزجاج نوافذ حجرتى كالحبال الغليظة.

وهكذا علمنا فقط فيما بعد بالأحداث التى جرت فى الليل. علمنا أولاً أن المطر توقف بعد أن تسبب فى غرق أماكن عديدة من المدينة، ثم وفاة جويدو.

بعد مرور وقت طويل عرَفت كيف حدث أمر كهذا. فى الحادية عشرة تقريبًا من مساء ذلك اليوم، وبعد انصراف السيدة مالفنتى، أخبر جويدو زوجته أنه تجرَّع كمية كبيرة من الڤيرونال. أراد أن يقنع زوجته أنه يائس. عانقها، وقبَّلها، وطلب منها أن تسامحه على ما سببه لها من معاناة. ثم، قبل أن يتحول كلامه إلى تلعثم، أكد لها أنها الحب الوحيد فى حياته. لم تصدق آنذاك تأكيده هذا ولا أنه قد تناول كمية كبيرة من السم تؤدى إلى وفاته. لم تصدق حتى أنه فقد وعيه، لكنها ظنت أنه يتظاهر بذلك لينتزع الأموال منها مرة أخرى.

بعد ذلك، بساعة تقريبًا، ارتاعت بعض الشىء؛ حيث كان لا يزال ينام فى سبات عميق، فكتبت رسالة موجزة إلى طبيب كان يقطن بالقرب من مسكنها. كتبت فى تلك الورقة أن زوجها يحتاج إلى إسعاف فورى؛ لأنه تجرَّع كمية كبيرة من الڤيرونال.

حتى ذلك الحين لم يكن هناك أى انفعال فى ذلك المنزل من شأنه أن يجذب انتباه الخادمة، وهى سيدة عجوز تعمل منذ وفترة وجيزة، وينبئها بخطورة مهمتها.

وأكمل المطر ما تبقى من أحداث. وجدت الخادمة أن المياه قد بلغت منتصف ساقيها وفقدت الرسالة. أدركت ذلك فقط عندما وجدت نفسها

أمام الطبيب، لكنها استطاعت أن تخبره أن هناك أمراً عاجلاً، وحملته على أن يلحق بها.

كان الدكتور مالي رجلاً يناهز الخمسين من عمره، كان مفتقداً تماماً للعبقرية، لكنه كان طبيباً متمرساً، يؤدى دائماً واجبه على أفضل ما يمكنه. لم يكن لديه زبائن خاصة به، فى حين كان يعمل كثيراً لحساب شركة كثيرة الأفراد، غير وافرة في العطاء. كان قد عاد إلى منزله قبل قليل وتمكن بالكاد من تدفئة نفسه وتجفيف ملابسه بالقرب من النار. ولنا أن نتخيل حالته وهو يترك ركنه الدافئ فى تلك اللحظة. عندما أخذت أتفحص جيداً أسباب وفاة صديقي المسكين، انشغلت كذلك بالتعرف على الدكتور مالى. لم أعلم عنه سوى هذا: عندما وطأ خارج المنزل وأحسَّ بالمطر يبلِّله عبر المظلة، ندم لأنه درس الطب بدلاً من الزراعة، حيث تذكر أن الفلاح يظل ببيته عندما تمطر السماء.

وما إن وصل إلى فراش جويدو، وجد آدا وقد هدأت تماماً. فى اللحظة التى كان الطبيب إلى جوارها استعادت فى وضوح بذاكرتها، كيف أن جويدو تلاعب بها قبل بضعة أشهر وهو يتظاهر بالانتحار. فلم تعد عليها أية مسئولية تتحملها، بل وجب على الدكتور أن يستعلم عن كل شيء، وكذلك عن الدوافع الأساسية التى تحمل على تصديق التظاهر بالانتحار. اطَّلع الطبيب على هذه الأسباب جميعها، كما كان فى الوقت ذاته يعير سمعه إلى عاصفة المطر الذى كان يكتسح الطريق. ولم يكن لديه الأجهزة اللازمة لعلاج حالة التسمم؛ لأنه لم يُخْطر بها من قبل عند

استدعائه. أسف لهذا أسفًا شديدًا، وتمتم بكلمات لم تفهمها آدا. وكان الأسوأ من ذلك أنه لم يكن يستطيع إرسال أحد لإحضار الأشياء الضرورية لعمل غسيل للمعدة، بل كان عليه أن يذهب هو لإحضارها بنفسه ويعبر الطريق مرتين. اختبر نبض جويدو ووجده رائعًا. سأل آدا عما إذا كان جويدو قد اعتاد على نوم شديد العمق. أجابته آدا بنعم، لكن ليس إلى هذا الحد. قام الدكتور بفحص عينى جويدو؛ كان لهما رد فعل مباشر للضوء! انصرف وهو يوصى بإعطائه من حين لآخر بضع ملاعق صغيرة من القهوة السادة المركزة.

علمت كذلك أنه عندما خرج إلى الطريق، همهم بغضب:

– التظاهر بالانتحار فى هذا الجو أمر غير مقبول!

عندما تعرَّفت عليه، لم أتجرأ على توجيه اللوم له لإهماله، لكنه استشعره ودافع عن نفسه: أخبرنى أنه ظل مندهشًا عندما علم بوفاة جويدو فى الصباح؛ حتى إنه خطر بباله أن جويدو أفاق وتناول النوع الآخر من الفيرونال. ثم أضاف أن غير العارفين بفن الطب لا يستطيعون أن يتخيلوا كيف يعتاد الطبيب الدفاع عن حياته فى أثناء مزاولته للمهنة أمام زبائن يحاولون اغتيالها ولا يهتمون إلاّ بحياتهم.

بعد مرور أكثر من ساعة تقريبًا، ضاقت آدا ذَرعا وهى تدخل بالملعقة الصغيرة بين أسنان جويدو، وترى أنه يرتشف منها بتناقص مستمر، ويسيل ما يتبقى على الوسادة. ففزعت مرة ثانية ورجت الخادمة أن تذهب إلى الدكتور باولى. فى تلك المرة اعتنت الخادمة بالرسالة.

لكنها استغرقت أكثر من ساعة للوصول إلى مسكن الطبيب. من الطبيعى فى حالة سقوط الأمطار أن يشعر المرء بالحاجة إلى الوقوف من وقت لآخر تحت البواكى، فأمطار مثل تلك لا تبلّل وحسب، بل تلسع البدن.

لم يكن الدكتور باولى بالمنزل. فقبل قليل استدعاه أحد المرضى، وانصرف قائلاً إنه يأمل فى العودة سريعًا، فى حين يبدو أنه فضّل بعد ذلك الانتظار عند المريض حتى يتوقف المطر. أرادت خادمته، وهى امرأة طيبة جداً متقدمة فى السن، أن تجلس خادمة آدا بالقرب من المدفأة واهتمت بالاحتفاء بها. لم يترك الطبيب عنوان مريضه، وهكذا قضت المرأتان معًا ساعات عديدة إلى جوار النار. عاد الطبيب فقط عندما توقف هطول المطر. وعندما وصل عند آدا بعد ذلك، ومعه الأجهزة جميعها التى جرّبها فيما سبق على جويدو، كان الفجر يلوح. كان عليه واجب واحد عند ذلك الفراش؛ وهو أن يخفى عن آدا أن جويدو قد مات بالفعل، وأن يستدعى السيدة مالفنتى قبل أن تدرك آدا الأمر، حتى تشد من أزرها فى بداية أحزانها.

لهذا وصل إلينا الخبر فى وقت متأخر جداً وغير دقيق.

وما إن نهضت من الفراش حتى انتابتنى سورة غضب للمرة الأخيرة ضد جويدو المسكين: كان يعقّد المواقف الحرجة كلها بتمثيلياته! غادرت المنزل دون أوجوستا؛ لأنها لم تكن تستطيع أن تترك الطفل هكذا فجأة. استوقفنى الشك، خارج البيت! ألم يكن بإمكانى انتظار المصارف حتى

تفتح وأوليڤى حتى يعود إلى مكتبه، لأظهر أمام جويدو وقد تزوَّدت بالمال الذى وعدته به؟ لم أصدق كثيراً خبر خطورة حالة جويدو على الرغم من أنهم أخطرونى بها!

علمت بالحقيقة من الدكتور باولى الذى صادفته على درج السلم. فأصابنى اضطراب كدت أسقط من جرائه. لقد أصبح جويدو شخصًا بالغ الأهمية بالنسبة لى منذ أن عشت معه. كنت أراه فى حياته بمثابة ضوء من الأضواء ينير أيامى. وما إن مات حتى تبدل ذلك الضوء كأنما مرَّ بغتة عبر منشور ثلاثى. هذا ما كان يصيب عينى حقًا بالعشى. لقد أخطأ، لكنِّى سرعان ما وجدت أنه لم يتبق من أخطائه شىء، بعد ما وافته المنيه. كنت أجده أحمق ذلك المهرج حيث، فى جبَّانة تغطيها كتابات التأبين المنقوشة سأل أين يُدفن المذنبون فى ذلك البلد. فالأموات ليسوا مذنبين على الإطلاق. أصبح جويدو الآن إنسانًا نقيًا! لقد نقاه الموت.

كان الطبيب متأثرًا لأنه شاهد آلام آدا. أخبرنى بعض الشىء عن الليلة المفزعة التى مرت بها. تمكنا من إيهامها بأن الكمية التى تجرعها جويدو من السم كانت بدرجة لا تُمكِّن أى علاج من إسعافه. يا لها من كارثة لو علمت خلاف ذلك!

– أضاف الطبيب بأسى: لو وصلت قبل بضع ساعات، لأنقذته. لقد وجدت زجاجات السم الفارغة.

قمت بفحصها. كانت الجرعة شديدة، لكنها أشد بالقدر القليل من المرة السابقة. أرانى بعض الزجاجات فقرأت عليها هذه الكلمة المطبوعة:

ڤيرونال، إذاً فهو ليس الڤيرونال بالصوديوم. ما من أحد سواى كان يمكنه آنذاك التأكد من عدم رغبة جويدو فى الموت. ولكنّى لم أذكر ذلك قط لأحد.

تركنى باولى بعد أن طلب منى ألاّ أحاول رؤية آدا فى ذلك الحين. كان قد أعطاها بعض المهدئات القوية، ولم يكن يرتاب فى أن تحدث تأثيرها سريعاً.

وبالممر كان بكاؤها الهادئ يأتى إلى سمعى من تلك الحجرة الصغيرة التى استقبلتنى آدا بها مرتين. كانت كلمات متفرقة لم أفهمها، لكن الألم كان يغمرها. كانت تكرر كلمة هو مرات عديدة، فتخيلت ما كانت تعنيه. أخذت تسترجع علاقتها مع المتوفى المسكين. لا بد أنها لم تكن لتشبه مطلقاً تلك التى عاشتها معه وهو حىّ.

كان واضحاً لى أنها قد أخطأت مع زوجها وهو لا يزال على قيد الحياة. إنه مات بسبب جريمة اقترفوها جميعاً؛ لأنه ضارب فى البورصة بموافقتهم جميعاً، وعندما حان وقت السداد تركوه حينئذ وحيداً. وسارع هو بدفع الثمن. وأنا الوحيد من بين أقاربه، على الرغم من أننى حقاً لم يكن لى شأن بهذا الأمر، قد شعرت بواجبى نحو إنقاذه.

كان جويدو يرقد مستلقياً، وتغطيه ملاءة فى حجرة فراش الزوجية. لم تكن حالة التيبس المتقدمة التى كان عليها، تعبر وقتئذ عن قوة بل عن ذهول كبير من موت لم يكن يرغب فيه. كان هناك لوم يرتسم على وجهه الأسمر الجميل. من المؤكد أنه لم يكن موجهاً إلىّ.

ذهبت إلى أوجوستا لأحثها على أن تأتى لمساعدة آدا. كنت منفعلاً إلى حد كبير، أما أوجوستا فقد بكت وعانقتنى:

– كنت أخًا له – همهمت – أوافقك الآن فقط على التضحية بجزء من ثروتنا لكى أنقى ذكراه.

اهتممت بأن أقدم الإكرام كله إلى صديقى المسكين. فى تلك الأثناء ألصقت نشرة على باب المكتب تعلن إغلاقه لوفاة المالك. قمت بنفسى بكتابة إعلان الوفاة. وفى اليوم التالى فقط، بالاتفاق مع آدا، اتخذنا الاستعدادات لتشييع الجنازة. علمت حينئذ أن آدا قررت أن تتبع الجثمان حتى المدفن. يا للمسكينة! كنت أعلم أى ألم يسببه الندم فوق القبر، فأنا أيضًا عانيت منه كثيرًا عند موت والدى.

قضيت فترة الظهيرة منغلقًا فى المكتب برفقة نيلينى. وبذلك توصلنا إلى عمل موازنة مبدئية لموقف جويدو. كان أمرًا مروِّعًا! لم يهلك رأس مال الشركة وحسب، بل أصبح جويدو مدينًا بمثله، إن أراد أن يتكفَّل بكل شىء.

كنت بحاجة إلى العمل، العمل بالفعل لصالح صديقى المتوفَّى المسكين، لكنِّى لم أكن أستطيع فعل شىء سوى الأحلام. كانت فكرتى الأولى تتمثل فى التضحية بحياتى كلها فى ذلك المكتب والعمل لصالح آدا وأولادها. لكن هل كنت واثقًا من قدرتى على القيام بعمل جيد؟

أخذ نيلينى، كعادته، يثرثر، فى حين كنت أنظر أنا بعيدًا جدًا. كان هو أيضًا يشعر بحاجته إلى تغيير علاقته بجويدو تغييرًا جذريًا.

كان يتفهم آنذاك الأمور كلها! عندما ألحق جويدو المسكين الضرر به، كان قد أصابه المرض الذى لا بد أنه دفعه إلى الانتحار؛ ولهذا فإن كل شيء بات آنذاك فى طى النسيان. وأخذ يعظ ويقول عن نفسه إنه هكذا. لم يكن يستطيع أن يحتفظ بضغينة لأحد. وإنه أحب جويدو دائمًا وكان لا يزال يحبه.

انتهى الأمر إلى أن توافقت أحلام نيلينى مع أحلامى وطغت عليها. لم يكن ممكنًا العثور على ملاذ من كارثة مثل تلك مع سير التجارة البطيء، بل عن طريق البورصة نفسها. وأخبرنى بصديق له توصل فى اللحظة الأخيرة إلى إنقاذ نفسه بمضاعفة مبلغ المضاربة.

تحدثنا معًا لعدة ساعات، لكن اقتراح نيلينى بمتابعة المضاربة التى بدأها جويدو، جاء فى النهاية ووافقت عليه على الفور قبل قليل من منتصف النهار. قبلته بفرحة كبيرة كأنما تمكنت من إعادة الحياة إلى صديقى بهذه الطريقة. وانتهيت إلى شراء كَمية من أسهم أخرى باسم جويدو المسكين، وكانت تحمل اسمًا غريبًا: ريوتينتو، ساويث فرينش وهلم جرًا.

وعلى هذا النحو، بدأت خمسون ساعة من ذروة العمل الذى طالما انتظرته طوال حياتى. فى بادئ الأمر وحتى المساء أخذت أقطع المكتب ذهابًا وإيابًا، وبخطوات واسعة، فى ترقب لمعرفة إن كانت أوامرى قد تم تنفيذها. كنت أخشى أن يكونوا قد علموا بالبورصة شيئًا عن انتحار جويدو،

وأن اسمه لم يعد صالحًا لمراهنات أخرى، ولأيام عديدة لم ينسب أحد موته ذاك إلى انتحار.

فيما بعد، عندما استطاع نيليني أن يخبرني في النهاية أنه قد تم تنفيذ أوامري جميعها، بدأ بداخلي اضطراب حقيقي زاد منه علمي، في اللحظة التي تسلمت فيها المظاريف المزدوجة، بأنِّي أفقد عن الجميع بعض كسور لا بأس بها في الأسعار. أتذكر حالة الاضطراب تلك، كأنها عمل بالمعنى الحقيقي. لديَّ في ذاكرتي ذلك الإحساس الغريب بأنّي جلست بلا انقطاع، ولمدة خمسين ساعة، حول مائدة المضاربة أفنّد الأوراق واستحثها. فأنا لا أعرف أحداً استطاع أن يتحمل مشقة كهذه لساعات طويلة. وكنت أسجِّل وأراقب كل تغيير يحدث للسعر؛ ومن ثم فإنه (ولمَ لا أقول؟) كان يزداد ارتفاعه تارة وتارة أخرى ينضبط، كما كان يناسبني أو بالأحرى كما كان يناسب صديقي المسكين.

حتى إن ليالي كنت أقضيها ساهراً.

لم أتحدث لأحد بشأن سداد منتصف الشهر في وقته، حيث كنت أخشى أن يتدخل أحد من أفراد العائلة ويعوق عملية الإنقاذ التي شرعت فيها. قمت بتسديد كل شيء، فلم يلتفت أحد إلى تلك الالتزامات؛ لأنهم جميعًا كانوا ملتفين حول الجثمان الذي كان ينتظر دفنه. فضلاً عن أن المبلغ المستحق دفعه كان أقل مما كان قد حُدِّد في وقتها، وذلك لأن الحظ حالفني سريعًا. كان حزني شديداً لموت جويدو، رأيت أن ما يخفف منه هو الكفالة التي قمت بها بكل الوسائل، تارة بتوقيعي وتارة أخرى بتقديم

أموالى. كان يلازمنى حتى تلك اللحظة حلم عمل الخير الذى حلمت به قبل وقت بعيد وأنا إلى جواره. عانيت كثيراً من ذلك الاضطراب، حتى إنِّى لم أضارب قط بعدئذ لحسابى فى البورصة.

ومن فرط ما كنت «أتلمس الأوراق» (وكان هذا هو اهتمامى الأساسى) أفضى بى الأمر إلى عدم حضورى جنازة جويدو. جرت الأمور على هذا النحو. فى ذلك اليوم قفز بالفعل سعر السندات التى التزمنا بها إلى أعلى. أمضينا أنا ونيلينى وقتنا فى حساب مقدار ما عوَّضناه من الخسارة. وعندئذ اتضح أن ثروة العجوز سبيير قد نقصت إلى النصف فقط! غمرتنى النتيجة الرائعة بشعور بالفخر. حدث حقًّا ما توقعه نيلينى من قبل بلهجة تثير الشك، لكنها اختفت حينئذ بالطبع، وأحس هو بنفسه كمتنبئ واثق من نفسه، وهو يكرر الكلام الذى سبق أن ذكره. أرى أنه قد تكهَّن بهذا وبنقيضه أيضاً. ما كان ليفشل أبداً، لكنِّى لم أقل له ذلك، حيث كان يناسبنى أن يبقى بطموحاته فى العمل. وكان كذلك ممكنًا أن تؤثر رغبته على الأسعار.

غادرنا المكتب فى الثالثة، وأسرعنا؛ لأننا تذكرنا فى تلك اللحظة أنه لا بد أن تشيع الجنازة فى الثالثة إلاّ ربعًا.

لمحت الموكب عن بعد، بالقرب من منحنيات كيوتسا، وهيئ لى كذلك أنِّى تعرفت على عربة صديق أرسلها بالجنازة لتستقلها أدا. قفزت ونيلينى فى عربة استأجرناها، وأمرت الحوذىَّ أن يتبع الجنازة. واستأنفنا أنا ونيلينى تفنيد الأوراق فى تلك العربة. كنا بعيدين بتفكيرنا

عن المتوفى المسكين، حتى إننا أخذنا نتأفف من سير العربة البطىء. من يدرى ما الذى كان يتم فى البورصة فى تلك الأثناء دون مراقبة منَّا؟ حدَّق فىَّ نيليني بعينيه، فى لحظة معينة، وسألنى لما لا أضارب بشىء لحسابى فى البورصة.

– فى الوقت الراهن – أجبته، ولا أدرى لماذا احمر وجهى – لا أعمل إلاَّ لحساب صديقى المسكين.

ثم أضفت، بعد تردُّد طفيف:

– فيما بعد سأنشغل بنفسى – كنت أرغب فى أن أتركه يأمل فى أن يقودنى إلى المضاربة، وأحاول فى الوقت ذاته أن أحتفظ به صديقًا مخلصًا لى. لكنِّى صغت بالفعل بين خلجات نفسى كلمات لم أجرؤ على ذكرها له: «لن ألقى بنفسى بين يديك!». فأخذ يدلى بنصائحه.

– من يدرى إن استطعنا اغتنام فرصة أخرى مماثلة! نسى أنه علمنى أن هناك فرصة فى البورصة فى كل ساعة.

عندما وصلنا إلى المكان الذى تتوقف فيه العربات كالمعتاد، أطلَّ نيليني برأسه من النافذة وأطلق صرخة المفاجأة. كانت العربة تتبع تشييع جنازة تسير نحو المدافن اليونانية.

– هل كان السيد جويدو يونانيًا؟ سأل فى دهشة.

واقع الأمر أن الجنازة تجاوزت المدافن الكاثوليكية واتجهت نحو مقابر أخرى، يهودية، يونانية، بروتستانتية أو صربية.

– ربما كان بروتستانتياً! –قلت هذا فى البداية، ثم تذكرت فى الحال أنّى حضرت مراسم زواجه بالكنيسة الكاثوليكية.

– لا بد أن هناك خطأ! صحت وقد اعتقدت فى بادئ الأمر أنهم أرادوا دفنه فى غير مكانه.

وفجأة انفجر نيلينى فى الضحك؛ وكان ضحكه غير قابل للتحكم حتى ألقاه خائر العزم فى قلب العربة وفمه فاغر فى وجهه الصغير.

– لقد أخطأنا! صاح. وعندما توصل إلى إيقاف تدفق ضحكه الصاخب، غمرنى باللوم. كان علىّ أن أرى أين نذهب؛ لأنه كان لا بد أن أعرف الساعة المحددة والأشخاص... إلخ. كانت تلك مراسم جنازة شخص آخر!

أصابنى الضجر فلم أضحك معه، وكان صعباً علىّ حينئذ أن أتحمل لومه لى. لماذا لم ينظر جيداً هو الآخر؟ كبحت سخطى فقط لأن البورصة كانت تقلقنى أكثر من تشييع الجنازة. نزلنا من العربة لنأخذ الوجهة الصحيحة، وباتجاه مدخل الكنيسة الكاثوليكية، وتبعتنا العربة. وانتبهت إلى أن الذين كانوا فى مؤخرة جنازة المتوفى الآخر أخذوا ينظرون إلينا، وقد أخذتهم الدهشة، ولم يتوصلوا إلى تفسير أننا تركنا ذلك المسكين فى اللحظة الحاسمة بعد أن منحناه كل ذلك الإكرام.

كان يتقدمنى نيلينى، وقد نفد صبره. سأل حارس المدفن بعد لحظة من التعثر:

– هل وصلت جنازة السيد سبيير؟

لم تبدُ المفاجأة على الحارس من السؤال الذى رأيته هزلياً.

أجاب بأنه لا يعرف. عرف فقط أنه دخلت جنازتان ذلك المكان فى نصف الساعة الأخيرة.

تشاورنا حائرين. كان واضحًا أنه لا يمكن معرفة إن كانت الجنازة بالداخل أم بالخارج. اتخذت عندئذ قرارًا فرديًا. لم يكن من اللائق أن أتدخل فى أثناء المراسم التى ربما تكون قد بدأت، وأسبب إزعاجًا. قررت إذًا ألاَّ أدخل المقابر. لكنِّى من جهة أخرى، لم أستطع المجازفة بالتصادف بالجنازة فى أثناء عودتى؛ ولهذا صرفت النظر عن حضور الدفن وقررت العودة إلى المدينة متخذًا طريقًا ملتفًا طويلاً فيما وراء سيرقولا. تركت العربة لنيلينى الذى لم يرغب فى التخلى عن الحضور مراعاةً لآدا التى كان يعرفها.

صعدت الطريق الريفى الذى يؤدى إلى القرية بخطى سريعة، لكى أتفادى أى لقاء. ما عاد يسوءنى حينئذ على الإطلاق أنِّى أخطأت الجنازة، ولم أقم بالإكرام الأخير لجويدو المسكين. لم يكن فى وسعى أن أتأخر فى تلك الممارسات الدينية. كان هناك واجب آخر يداهمنى: كان علىَّ أن أنقذ شرف صديقى وأحمى ثروته لصالح أرملته وأبنائه. تخيلت آدا عندما أخبرها بأنِّى تمكنت من تعويض ثلاثة أرباع الخسارة (وأخذت أستعيد بذاكرتى الحساب كله الذى أجريناه مرات عديدة: لقد خسر جويدو ضعف ثروة والده. وبعد تدخُّلى، انخفضت الخسارة إلى نصف تلك الثروة؛ ولهذا كانت الحسبة صحيحة. لقد عوضت ثلاثة أرباع الخسارة)، ورأيت أنه من المؤكد أنها ستلتمس لى العذر عن عدم حضورى مراسم الدفن.

تحسنت أحوال الجو فى ذلك اليوم. كانت شمس ربيعية رائعة تسطع بالسماء وكان الهواء صافيًا وشافيًا، فوق الريف الذى بقى مبلَّلاً. اتسعت رئتاى، فى حركتهما اتساعًا لم أعهده منذ أيام كثيرة. كنت بصحة وقوة كاملتين. فالصحة لا تتجلَّى إلاَّ عن طريق المقارنة. أخذت أقارن نفسى بالمسكين جويدو وأصعد، أصعد إلى أعلى وأنا أشعر بالانتصار فى الصراع ذاته الذى قهره هو. كل شىء من حولى كان صحة وقوة. وكذلك الريف أيضًا ذو العشب النضر. إن البلل الممتد والغزير، أى كارثة اليوم السابق، أخذت تعطى حينئذ آثارها الطيبة فقط، فالشمس الساطعة كانت الدفء التى تبحث عنه الأرض التى كانت لا تزال باردة كالثلج. ومن المؤكد أنه كلما حدث أن بعدنا عن الكوارث قل تقديرنا لتلك السماء الزرقاء، لو لم تعرف كيف تعتم فى حينها المناسب. تلك كانت مقدمات خبرتى وأنا لم أتذكرها؛ وقد استوقفتنى فقط الآن وأنا أكتب. فى تلك اللحظة كان يصدح وحسب فى نفسى شدو نشيد لصحتى وللطبيعة جميعها؛ صحة دائمة.

أخذت خُطواتى تزداد سرعة. كنت سعيدًا بإحساسى بأنها أصبحت أكثر خفة. أخذت تسرع وهى تهبط تل سيرقولا حتى قاربت العدْو. وعندما بلغت ممر سانتاندريا، على السهل، أبطأت من جديد، لكن ظل لدَّى إحساس بسهولة كبيرة. كان الهواء يحملنى.

نسيت تمامًا أنِّى عائد من مراسم دفن صديقى الحميم. كنت أتمتع بخطوة الظافر وأنفاسه. غير أن فرحتى بالفوز كانت تكريمًا لصديقى المسكين الذى خضت المعركة لصالحه.

ذهبت إلى المكتب لمعرفة أسعار الإغلاق. كانت قليلة بعض الشيء، لكن هذا لم يفقدني الثقة. كان بودي «تفنيد الأوراق»، وما كنت لأفقد الأمل في وصولي للهدف.

وأخيراً كان لا بد من ذهابي لمنزل آدا. أتت أوجوستا لتفتح لي الباب. سألتني على الفور:

- كيف استطعت أن تتخلف عن الجنازة، وأنت الرجل الوحيد في عائلتنا؟

وضعتُ المظلة والقُبعة، وقلت لها، وأنا متردد بعض الشيء، إنِّي أرغب في الحديث مباشرةً مع آدا أيضًا، حتى لا أضطر إلى تكرار ما أقوله. وفي الوقت نفسه كان بإمكاني تهدئتها بالأسباب الوجيهة التي منعتني من حضور مراسم الدفن. لم أكن واثقًا منها تماماً، وفجأة شعرت بألم في جانبي ربما من الإرهاق. لا بد أنها ملاحظة أوجوستا التي جعلتني أرتاب في احتمال التماس العُذر لي عن غيابي، الذي سبب حتماً الاستنكار؛ ورأيت أمامي المشاركين في الجنازة الحزينة جميعهم، وقد تشاغلوا عن آلامهم وتساءلوا عن أين يمكن أن أكون.

لم تأت آدا. وعلمت فيما بعد أنهم حتى لم يخبروها بأنِّي في انتظارها. قابلتني السيدة مالفنتي التي استهلت الحديث معي بوجه حانق قاس لم أره من قبل. أخذت أقدِّم اعتذاري، لكنِّي كنت بعيداً تماماً عن الثقة التي كنت أنطلق بها من المدافن إلى المدينة. كنت أتلعثم، وحكيت لها كذلك

بعض الأكاذيب بالإضافة إلى الحقيقة، التى تتمثل فى مبادرتى الشجاعة فى البورصة لصالح جويدو، أى أنه كان علىَّ إرسال برقية لباريس، قبيل موعد الجنازة، لأعطى الأوامر. ولم أستطع الابتعاد عن المكتب قبل تسلم الردِّ. حقيق أنه كان ضروريا أن نبعث أنا ونيلينى برقية لباريس، لكن ذلك كان قبل يومين، وقبل يومين تسلم الردَّ أيضًا. على كل أدركت أن الحقيقة لم تكن كافية لألتمس العذر، وربما لأنِّى كذلك ما كنت أقوى على ذكرها كاملةً وأحكى عن العملية بالغة الأهمية التى كنت أنتظرها منذ أيام، وهى رغبتى فى مواكبة الأسعار العالمية. وقد تقبلت السيدة مالفنتى اعتذارى عندما سمعت المبلغ الذى وصلت إليه خسارة جويدو آنذاك. وجهت إلىَّ الشكر والدموع فى عينيها. وأصبحت أنا من جديد ليس الرجل الوحيد فى العائلة، بل والأفضل.

طلبت منِّى الحضور مع أوجوستا فى المساء للاطمئنان على آدا، التى ستخبرها فى تلك الأثناء بكل شىء. لم تكن آدا وقتئذ فى حالة تسمح باستقبال أحد. فانصرفت عن طيب خاطر مع زوجتى التى لم تشعر هى الأخرى بضرورة تحية آدا قبل أن تغادر ذلك المنزل. كانت آدا تنتقل من البكاء المفرِط إلى الاكتئاب الشديد، مما منعها من أن تلتفت حتى لوجود من كان يتحدث إليها.

لاح لى الأمل فقلت:

– إذًا ليست آدا التى أدركت غيابى؟

أقرَّت أوجوستا أنها كانت رغبتها هى فى الصمت عن ذلك، حيث رأت تعبير آدا بالاستياء المفرط من غيابى هذا. لقد وجهت إليها بعض الاستفسارات، وعندما أخبرتها أوجوستا أنها لا تعرف شيئًا ولم تكن قد رأتنى بعد، استسلمت من جديد إلى اليأس، وهى تصرخ أنه كان لا بد أن ينتهى جويدو على هذا النحو؛ لأن العائلة جميعها تبغضه.

بدا لى أنه كان على أوجوستا أن تدافع عنِّى، وتذكر آدا بأنِّى كنت الشخص الوحيد المستعدّ لإنقاذ جويدو بالوسيلة التى كان ينبغى اتخاذها. لو أنصتوا إلىَّ، لما كان لجويدو أى دافع لمحاولة الانتحار أو التظاهر به.

وعلى الرغم من ذلك صمتت أوجوستا؛ أثَّر فيها شعور آدا بالإحباط، حتى إنها خشيت أن تزيد من ألمها إن بدأت فى مناقشتها. فضلاً عن أنها كانت واثقة من المبررات التى ستبلغها السيدة مالفنتى لآدا حتى تقنعها بتقديرها الخاطئ بشأنى. ويجب أن أقول إنه كانت لدىَّ أنا أيضًا هذه الثقة، بل وأعترف بأنِّى منذ تلك اللحظة كنت على يقين أن أرى مفاجأة آدا وتعبيرها الصارخ بالعرفان بالجميل. لقد كان هناك باسيدوى أيضًا، ليضخم لها كل شىء.

عدت إلى المكتب، حيث علمت أن هناك مؤشرًا طفيفًا للصعود فى البورصة مرة أخرى، طفيفًا للدرجة التى جعلتنا نأمل وقتئذ فى العثور على تغييرات فى أسعار صباح اليوم التالى عند عملية البدء.

بعد العشاء قمت بواجب الذهاب إلى آدا بمفردى؛ لأن توعكًا أصاب الطفلة منع أوجوستا من مرافقتى. استقبلتنى السيدة مالفنتى وقالت إنها تتابع أعمالاً بالمطبخ، ولهذا كانت مضطرة لتتركنى بمفردى مع آدا. ثم أوضحت لى بأن آدا رحبتها أن تدعها معى بمفردها؛ لأنها ترغب فى إخبارى بأمور لا ينبغى أن يعرفها أحد. وقبل أن تتركنى فى ذلك الصالون الصغير، حيث التقيت فيه مع آدا مرتين من قبل، قالت لى السيدة مالفنتى وهى تبتسم:

- أتعلم؟ إنها ليست مهيأة بعد لتسامحك على عدم حضورك جنازة جويدو، لكنها... على وشك ذلك!

فى تلك الحجرة الصغيرة كان قلبى لا يزال يخفق. لم يكن فى تلك المرة من الخوف أن أجد نفسى محبوبًا ممن لا أحب. أدركت، منذ ثوان معدودة وبسبب كلمات السيدة مالفنتى وحسب، أنِّى اقترفت خطأ جسيمًا بشأن ذكرى جويدو المسكين. حتى آدا نفسها لم تستطع أن تغفر لى فورًا، على الرغم من أنها باتت تعلم أنِّى أقدم لها ثروة لأعتذر عن ذلك التقصير. جلست وأخذت أتأمل صور والدى جويدو. كان تعبير وجه كادا العجوز ينم عن الرضا، حيث بدا لى أن ذلك يرجع إلى صنيعى، فى حين كان وجه أمه قاسيًا جدًا، وكانت سيدة نحيفة ترتدى فستانًا أكمامه فضفاضه وقبعة تعتدل فوق جبل من الشعر. نعم، حقًا! فكل منًّا يتخذ مظهرًا آخر أمام آلة التصوير. حولت نظرى إلى مكان آخر وأنا مستاء من نفسى وأنا أتفحص تلك الوجوه. وكان لا يمكن لوالدته بالتأكيد أن تتنبأ بعدم حضورى مراسم دفن ابنها!

لكن دهشتي كانت مؤلمة من الأسلوب الذي تحدثت به آدا إليّ. لا شك أنها درست طويلاً ما كانت تريد إبلاغي به، ولم تأخذ حتى بعين الاعتبار مبرراتي واحتجاجاتي وتصحيحاتي، التي ما كانت لتحسب لها حساباً، وبالتالي لم تستعد لها. ومثل فرس مرتاعة أخذت تسرع في طريقها، حتى النهاية.

عندما دخلت الحجرة كانت ترتدي مجرد ثوب منزل أسود اللون، وتسيطر الفوضى الشديدة على شعرها، الذي ربما فرقته أيضًا يد سعت جاهدة لأن تصنع به شيئًا، عندما لم تستطع أن تهندمه بصورة أخرى. أقبلت إلى المنضدة التي كنت أجلس إليها وارتكزت عليها بيديها لتنظر إلى جيداً. عاد وجهها الصغير إلى نحافته، وتخلص من تلك الصحة الغريبة التي أطلّت عليه في غير موضعها. لم تعد جميلة مثلما كانت حينما استمالها جويدو، لكن ما من أحد كان بإمكانه أن يتذكر مرضها وهو ينظر إليها. لقد اختفى! في حين حل محله ألم عظيم شملها كلها. تفهمته جيداً ذلك الألم العميق، حتى إنّي لم أستطع الكلام. وأخذت أفكر وأنا أنظر إليها: «أي كلمات أحدثها بها يمكن أن تكافئ ضمها بين ذراعي ضمة الأخ لأخته لأواسيها وأدفعها إلى البكاء والتفريج عن نفسها؟» وفضلاً عن ذلك، فعندما رأيتها تهاجمني أردت أن أرد عليها، ولكن بنبرة خافتة أكثر مما ينبغي فلم تسمعني.

أخذت تتحدث، وتتحدث، وتتحدث، ولن أستطيع تكرار كلماتها جميعها. إن لم أخطئ فقد استهلت بتوجيه الشكر لي بلهجة جادة، بل بلا حرارة

لما قمت به من أمور كثيرة من أجلها هى وأولادها. ثم لامتنى على الفور:

– هكذا فعلت بحيث يموت حقًا بسبب أمر لم يكن له وزن ولا قيمة!

ثم خفضت صوتها، كأنها أرادت أن تحتفظ بما قالته لى سراً، وكان صوتها أكثر حرارة، وكانت حرارة بدافع حبها لجويدو (أو هيئ لى؟) لى أيضاً:

– وأنا ألتمس لك العذر لعدم حضورك مراسم الدفن. لم يكن بإمكانك أن تفعل ذلك وأنا أعذرك. ولسامحك هو أيضًا لو كان لا يزال حيًا. ماذا كان بوسعك أن تفعله فى جنازته؟ أنت يا من لم تحبه! بطيبة قلبك، كان يمكنك أن تبكى من أجلى، من أجل دموعى، لا من أجله هو الذى... كنت تبغضه! يا تزينو، المسكين! يا أخى!

كان مروعًا أن تسمح لنفسها بأن تقول لى شيئًا كهذا، وتبدّل الحقيقة على هذا النحو. اعترضت، لكنها لم تسمعنى. أعتقد أنِّى صرخت أو شعرت على الأقل بمجهود فى حلقى:

– لكن هذا خطأ، كذب، افتراء. كيف تظنين شيئًا كهذا؟

استمرت فى الحديث بصوت خافت:

– ولا حتى أنا استطعت أن أحبه. لم أخنه حتى ولا بفكرى، لكنِّى كنت أشعر بأنِّى لا أملك القوة لحمايته. كنت أنظر إلى علَاقتك مع زوجتك وأحسدها. رأيتها أفضل من تلك التى كان يقيمها هو معى. إنِّى ممتنة

لك لعدم حضورك تشييع الجنازة وإلاَّ، لما فهمت شيئًا ولا حتى اليوم، فى حين أننى الآن أرى وأفهم كل شىء. وكذلك أدرك أنِّى لم أحبه: وإلاَّ فكيف كان لى أن أبغض حتى كمانه، وهو التعبير الكامل عن روحه العالية؟

حدث حينئذ أنِّى سندت رأسى على ساعدى وخبأت بذلك وجهى. كانت الاتهامات التى وجهتها إلىَّ جائرة، بحيث كان يستحيل مناقشتها، وكذلك كانت عدم منطقيتها تخفف منها نبرتها الودود، حتى إن رد فعلى لم يكن يستطيع أن يكون حاداً كما كان ينبغى ليخرج ظافراً. ومن جهة أخرى، فلقد كانت أوجوستا لى من قبل نموذجًا للصمت الموقر لكى لا أسبب إساءة أو أزيد من حدة ذلك الألم. لكن عندما فتحت عينى وجدت أنِّى رأيت كلماتها فى الظلمة وقد خلقت عالمًا جديداً، مثلها مثل الكلمات غير الحقيقية جميعها. بدا لى أنِّى أدركت أنا أيضًا بغضى الدائم لجويدو وأنِّى كنت إلى جواره، ملازمًا له، فى انتظار تسديد الضربة له. ثم إنها وضعت جويدو مع كمانه. لو لم أكن أعلم أنها تتخبط فى آلامها وندمها، لاعتقدت أنها أخرجت ذلك الكمان من مكانه على أنه جزء من جويدو لإقناع ذات نفسى بالاتهام بالكره.

ثم رأيت مرة أخرى جثة جويدو فى الظلام، ولا تزال الدهشة ترتسم على وجهه من أنه يرقد هناك، وقد فارق الحياة. رفعت رأسى من الفزع. كان أفضل لى أن أواجه اتهام أدا الذى كنت أعلم أنه ظالم من أن أنظر فى العتمة.

لكنها كانت لا تزال تتحدث عنِّي وعن جويدو:

– وأنت، أيها المسكين تزينو، واصلت العيش إلى جواره وكنت تبغضه، دون دراية منك. كنت تحسن إليه، حبًا لي. لم يكن ذلك ممكنًا! كان لا بد أن ينتهي على هذا النحو! ذات مرة اعتقدت أنا أيضًا أنِّي أستطيع استثمار الحب الذي كنت أعرف أنك تكنُّه لي في مضاعفة إحاطته بالحماية النافعة له. لم يكن يمكن أن يحتمي إلاَّ بمن يحبه. وما من أحد كان يحبه من بيننا، أعني نحن الاثنين.

– ماذا كنت أستطيع القيام به أكثر من ذلك من أجله؟ سألتها وأنا أبكي مدرارًا حتى أشهدها وأشهد نفسي على براءتي. تحل العبرات أحيانًا محل الصراخ. لم أكن أرغب في الصياح وأتخوف كذلك من أن أتكلم. لكن كان لا بد أن أتغلب على زعمها فبكيت.

– إنقاذه، يا أخي العزيز! أنا أو أنت، كان علينا أن ننقذه. بينما كنت أعيش بجانبه لم أستطع نجدته لغياب الحب الحقيقي وظللت أنت بعيدًا، غائبًا، دائم الغياب إلى أن تم دفنه. ثم ظهرت بعدئذ واثقًا ومتسلحًا بالحب كله. لكنك لم تهتم به قبل ذلك. وعلى الرغم من هذا فقد كان معك حتى المساء. وكان بإمكانك، إن كنت قد انشغلت به، أن تتخيل أن شيئًا خطيرًا وشيك الحدوث.

حبست الدموع كلامي، لكني تمتمت ببعض عبارات، من شأنها أن تثبت أن جويدو قضى الليلة التي سبقت وفاته باللهو في الصيد في البركة؛ ولهذا لم يكن لأحد في هذا العالم أن يتوقع كيف كان ليقضي ليلته التالية.

- كان يحتاج إلى الصيد، كان في حاجة للخروج إليه! لامتني بحدة وبصوت عالٍ، ثم انهارت فجأة، وسقطت فاقدة الوعي على الأرض، كأنما كان الجهد الذي بذلته في ذلك الصراخ يفوق الحد.

أتذكر أنِّي ترددت للحظة في استدعاء السيدة مالفنتي. اعتقدت أن إغماءها ذاك يكشف عن شيء مما ذكرته من أمور.

هرعت إليها السيدة مالفنتي ومعها ألبرتا. سألتني الأم وهي تسند آدا:

- هل تحدثت معك عن تلك العمليات المشهودة في البورصة؟ ثم أضافت: إنها المرة الثانية التي يغشى عليها هذا اليوم!

طلبت منِّي أن أبتعد للحظة، فذهبت إلى الممر أنتظر حتى أعرف إن كان عليَّ أن أدخل أم أنصرف. كنت أستعد لتقديم إيضاحات أخرى لآدا. إنها نسيت أن الأمور لو سارت مثلما اقترحت من قبل، لما وقعت بالطبع تلك الكارثة. كان هذا كافيًا لإقناعها بمدى خطئها في حقي.

بعد قليل لحقت بي السيدة مالفنتي، وأخبرتني أن آدا استعادت وعيها وتريد أن تلقي عليَّ التحية. كانت تستريح على الأريكة التي كنت جالسًا عليها قبل قليل. عندما رأتني أخذت تبكي، وكانت تلك هي العبرات الأولى التي لمحتها تجري في عينيها. مدت لي يدها الصغيرة المنداة بالعرق:

- تزينو العزيز، وداعًا! أرجوك، تذكر! تذكر دائمًا! لا تنسَهُ!

تدخلت السيدة مالفنتي لتسأل عمَّا كان عليَّ أن أذكره، فقلت لها إن آدا كانت ترغب في أن أبادر بتصفية موقف جويدو في البورصة. احمررت من كذبتي، وكذلك خشيت إنكاراً من جانب آدا. وبدلاً من تكذيبي أخذت تصيح:

– نعم! نعم! يجب أن تتم تصفية كل شيء! لا أريد أن أسمع شيئًا أبدًا عن تلك البورصة المروِّعة!

صارت من جديد أكثر شحوبًا، ولكي تطمئنها أكدت لها السيدة مالفنتي أنه سيتم على الفور تنفيذ كل ما ترغب فيه.

اصطحبتني السيدة مالفنتي بعد ذلك إلى الباب ورجبتني ألاَّ أتعجل الأمور: أن أعمل أفضل ما أراه لصالح جويدو. لكن أجبتها بأنِّي فقدت الثقة. فالمخاطرة جسيمة ولم أعد أجرؤ على إدارة مصالح الآخرين بهذا الأسلوب. لم أعد أثق في المضاربة في البورصة، أو كانت على الأقل تنقصني الثقة في أن «تفنيدي للأوراق» يمكن أن ينظم سير العمليات؛ لهذا كان لا بد أن أقوم بالتصفية في الحال، وأن أكتفي بأن أكون سعيدًا بأن الأمور جرت على هذا النحو.

لم أكرِّر كلام آدا لأوجوستا. لمَ إيلامها؟ لكن لأنِّي لم أخبر بها أحدًا، ظلَّت تلك الكلمات تدق كالمطرقة في أذني، وصاحبتني لسنوات طويلة. وما زلت أسمع رجع صداها بداخل نفسي. وإلى اليوم ما زلت لمرات عديدة أقوم بالتحقق منها. لا يمكنني القول إنِّي أحببت جويدو،

لكن هذا يرجع فقط إلى أنه كان إنسانًا غريبًا. إلاَّ أننى ظللت إلى جواره مثل أخيه، وعاونته قدْر ما استطعت. فأنا لا أستحق لوم آدا.

ما عدت ألتقى بها على انفراد. وما عادت تشعر بالحاجة لتخبرنى بأشياء أخرى، ولا أنا تجرأت على طلب استفسار منها، ربما لكى لا أجدد أحزانها.

انتهت الأمور فى البورصة كما توقعت. وعن والد جويدو، فبعد ما تم إخطاره فى الرسالة الأولى بخسارة ثروته جميعها، فإنه بات يسعده بالتأكيد العثور على نصفها كاملاً. إنه عملى الجليل الذى لم أستطع التمتع به كما كنت أنتظر.

عاملتنى آدا بودٍّ طوال الوقت حتى رحيلها إلى بوينوس أيرس، حيث ذهبت مع طفليها لتلحق بعائلة زوجها. كانت تحب أن تلتقى بى وبأوجوستا معًا. أردت أحيانًا أن آخذ حديثها هذا كله على أنه كان يرجع بلا ريب إلى ثورة ألم مجنونة، وأنها ما عادت حتى تتذكرها. لكن فيما بعد، عندما تحدثت ثانيةً عن جويدو فى حضورنا، كررت وأكدت بكلمتين كل ما قالته لى ذلك فى اليوم:

– لم يحب أحد جويدو، ذلك المسكين!

قبلتنى وهى تهم بركوب السفينة وتحمل على ذراعها أحد الطفلين وبه وعكة خفيفة. ثم قالت لى فى لحظة لم يكن أحد يقف بجوارنا:

– تزينو، أخى، وداعًا. سأتذكر دائمًا أنِّى لم أستطع أن أحبه بما يكفى. لا بد أن تعرف ذلك! أترك بلادى عن طيب خاطر. يهيأ لى أنِّى أبتعد عن أسباب ندمى!

آخذتها على تعذيب نفسها بهذه الصورة. وأكدت لها أنها كانت زوجة طيبة، وكنت أعلم ذلك، وأستطيع أن أشهد به. ولا أدرى إن كنت نجحت فى إقناعها. كفّت هى عن الحديث، وقد تغلَّب عليها نحيبها. ثم شعرت، بعد مرور وقت طويل، أنها وهى تبتعد عنّى، أرادت بتلك الكلمات أن تجدِّد أيضًا لومها الذى وجهته لى. لكنِّى أعلم أنها تجنَّت علىَّ. ليس علىَّ بالطبع أن ألوم نفسى؛ لأنِّى لم أحب جويدو.

كان النهار غائمًا وغير صافٍ. يبدو أن سحابة واحدة كانت تمتد، فتمنع عن السماء صفوها، وإن لم تهدد بشىء. كان المركب الضخم يحاول الخروج بدفع المجاديف من الميناء، وكانت أشرعته تتدلى ساكنة على صواريها. كان هناك رجلان فقط يجدفان، وبضربات عديدة توصلا بعناء إلى تحريك المركب الكبير؛ إذ ربما وجدا فى عرض البحر ريحًا مواتية. كانت آدا تلقى بالتحية من على سطح المركب، وهى تلوح بمنديلها، ثم استدارت بكتفيها. من المؤكد أنها كانت تنظر ناحية سانتانّا، حيث كان يرقد جويدو. كان عودها الصغير الأنيق يزداد كمالاً، كلما كانت تبتعد أكثر فأكثر. اغرورقت عيناى بالدمع. هاهى ذى تهجرنا، ولن أستطيع مطلقًا أن أثبت لها براءتى.

التحليل النفسى

٣ مايو ١٩١٥

لقد انتهيت من التحليل النفسى. أشعر أنّى أسوأ مما قبل، بعد أن مارسته بمثابرة على مدى ستة أشهر كاملة. لم أصرف الطبيب بعد، لكن قرارى لا رجوع فيه. وفى الوقت ذاته أرسلت بالأمس أبلغه أنّى مشغول، وأن عليه أن ينتظرنى لبضعة أيام. لو كنت واثقًا تمامًا من قدرتى على السخرية منه دون أن يثور غضبى، لأمكننى كذلك مقابلته من جديد. لكنّى أخشى أن يُفضى بى الأمر إلى ضربه.

بعد اندلاع الحرب، نشعر بالملل عن ذى قبل فى هذه المدينة، وكبديل للتحليل النفسى سأعود إلى أوراقى الهامة. لم أكتب كلمة واحدة منذ عام مضى، وأنا خاضع فيه، مثل غيره من الأعوام، لإرشادات الطبيب الذى أخذ يؤكد أنّى لابد أن أستغرق فى التأمل بجواره فقط فى أثناء العلاج؛ لأن لحظات التأمل إن لم يراقبها هو ستزيد من الحواجز التى تعوق صراحتى، واسترسالى فى الكلام. فى حين أننى أجد نفسى الآن مختل التوازن ومريضًا أكثر من أى وقت مضى. وأرى فى أثناء كتابتى، أنّى سأبرأ بسهولة كبيرة من الضرر الذى سببه لى هذا العلاج.

فأنا واثق على الأقل أن هذا هو الأسلوب الحقيقى لإسباغ أهمية جديدة لماضٍ لم يعد يؤلم ولإبعاد الحاضر الممل بأسرع ما يمكن.

استسلمت للطبيب بثقة شديدة، حتى إنّى صدقته عن يقين تام، عندما أخبرنى بشفائى، فى حين لم أصدق آلامى التى كانت على الرغم من ذلك تهاجمنى. كنت أقول لها: «لستِ أنتِ بأية حال!» لكن ليس هناك شك الآن! إنها هى بالفعل! تحولت عظام ساقى إلى أشواك تهتز فتؤذى اللحم فى والعضلات.

لكن قد لا يكون لذلك أهمية كبيرة عندى، وليس هذا هو السبب الذى من أجله تركت العلاج. فإن كانت ساعات الاستغراق لدى الطبيب قد استمرت فى إثارة اهتمامى بما تبعثه من مفاجآت وانفعالات، لما تركتها أو لانتظرت وأنا أتركها حتى نهاية الحرب التى تعوقنى عن مزاولة أى نشاط آخر. ولما كنت أعلم حينئذ كل شىء، أى أن الأمر لا يتعلق سوى بوهم أحمق، حيلة جيدة للتأثير على سيدات عجائز أصبن بالهستيريا. فكيف كان لى أن أتحمل رفقة ذلك الرجل المضحك، بعينه تلك التى ترغب فى التفحص، وبافتراضه ذاك الذى يسمح له بتجميع الظواهر كلها لهذا العالم حول نظريته العظيمة، تلك؟ قررت أن أنتفع بالوقت الذى يتبقى لى متاحًا للكتابة. وفى الوقت ذاته أكتب بصدق قصة علاجى. لقد تلاشت كل صراحة بينى وبين الطبيب والآن أتنفس الصُّعداء. لم يعد يفرض علىّ بذل أى جهد. ليس علىّ أن أجبر نفسى على إيمان بعينه أو أن أتظاهر به. لكى أخفى أفكارى الحقيقية بصورة أفضل،

كنت أعتقد ضرورة أن أظهر له تبعيتي العمياء، وكان يستغل ذلك لاختلاق ما هو جديد كل يوم. كان لابد أن ينتهى علاجي؛ لأن مرضى قد تم اكتشافه. لم يكن سوى المرض الذى قام بتشخيصه الراحل سوفوكل فى عصره في أوديب المسكين: أحببت أمي، ولو أمكن لرغبت فى قتل أبى.

ولم أغضب! أخذت أستمع فى ذهول. إنه مرض ارتقى بى إلى طبقة النبلاء. جدير بالاعتبار ذلك المرض الذى يصل به أسلافنا إلى العصر المثولوچى! ولن أثور حتى فى هذه اللحظة وأنا هنا وحيد والقلم فى يدى. فأنا أضحك من قلبى. وأفضل دليل على أنّى لم أُصَبْ بهذا المرض هو عدم شفائى منه. وهذا الدليل ربما يقنع الطبيب كذلك. فليطمئن لذلك: لم تستطع كلماته أن تشوش على ذكرى فترة شبابى. فأنا أغمض عينى وفى سرعة أرى حبى لوالدتى فى نقائه، وطفولته وبراءته، وأرى احترامى ومودتى الكبيرة لوالدى.

ويولى الطبيب عظيم تصديقه لاعترافاتى المشهودة التى لا يرغب فى إعادتها لى حتى أراجعها. ياإلهى! إنه لم يدرس سوى الطب؛ ولهذا فهو يجهل أى شيء تعنى الكتابة باللغة الإيطالية بالنسبة لنا ونحن نتحدث بالعامية ولا نعرف الكتابة بها. نحن نكذب مع كل كلمة نقولها بإيطالية توسكانا[1]! ليته يعلم كيف أننا نفضِّل أن نحكى من الأمور كل

---

(١) اللغة الإيطالية المتعارف عليها منذ عصر النهضة وحتى الآن، وكانت فى الأصل لغة أهل إقليم توسكانا.

ماهو جاهز لدينا للتعبير عنه، وكيف نتجنب منها ما يلزمنا للجوء إلى المعجم! ومن ثم فنحن نتخير بالفعل الأحداث التى يجدر تدوينها من حياتنا. ومن المفهوم أنه لو حكينا حياتنا بلغتنا الدارجة، لاكتسبت مظهراً مختلفاً تماماً.

اعترف الطبيب لى بأنه لم يحدث له على الإطلاق، طوال خبرته كلها، أن شاهد تأثراً شديداً مثل تأثرى وأنا أصطدم بالصور والأحاسيس المتداعية التى كان يعتقد أنه تمكن من العثور عليها بداخلى؛ ولهذا كان على استعداد كبير لأن يُقرّ بشفائى.

وأنا لم أتظاهر بذاك التأثر، بل إنه كان أكثر أحاسيسى شدة فى حياتى كلها. مندّى بالعرق عندما اختلقته، وبالدمع حينما استحوذ علىّ. لقد أولعت بالأمل فى العودة لحياة يوم من البراءة والسذاجة. استولى علىّ هذا الأمل لشهور وشهور وشجعنى. أليس الأمر يتعلق بالحصول ربما على ورود مايو فى قلب الشتاء عن طريق الذاكرة النابضة؟ أخذ الطبيب ذاته يؤكد أن الذاكرة ستصبح كاشفة وكاملة، حتى إنها قد تضيف يوماً آخر فى حياتى. وتستعيد الورود شذاها كاملاً وربما أشواكها أيضاً.

وهكذا أدركت تلك الصور من فرط ما جريت وراءها. أدرك الآن أنّى اختلقتها. لكن الاختلاق إبداع، وليس كذباً. كانت اختراعاتى مثل رؤى الحمى، تسير فى الحجرة لكى تروها من الجهات جميعها ثم تمسّكم كذلك. كان لها ملمس، ولون، وتبجح الأشياء الحقيقية. ومن شدة رغبتى،

عكست هذه الصور التى لا توجد إلاّ بذهنى، فى الفضاء الذى كنت أنظر إليه، وكان فضاءً أحس هواءه، ضوءه وكذلك زواياه الجارحة التى لم يفتقر إليها أى مكان مررت به.

عندما وصلت إلى الإغفاءة التى من شأنها تحرير الخيال، ولم أكن أرى فيها سوى مشاركة بين جهد كبير وخمول شديد، اعتقدت أن تلك الصور والأحاسيس استعادة حقيقية لأيام بعيدة. كان بإمكانى أن أرتاب فى الحال إنها لم تكن كذلك حيث كنت أتذكرها، فور أن تتلاشى، لكن دون أية إثارة أو انفعال. كنت أستعيدها مثلما يتذكر الحدث ويرويه من لم يشاهده. لو كان استرجاعًا حقيقيًا لواصلت السخرية منها والبكاء عليها مثلما خبرتها من قبل. والطبيب كان يسجل. أخذ يقول: «توصلنا إلى هذا، وتوصلنا إلى ذاك». فى الحقيقة، لم نحصل على أكثر من علامات مكتوبة، هياكل عظمية لصور.

دفعنى على الاقتناع بأن الأمر يتعلق بتذكر طفولتى، حيث حملتنى أول الصور إلى فترة حديثة نسبيًا، كنت احتفظ منها أيضًا من قبل بذكرى باهتة، ويبدو أنها كانت تؤكدها. مضى عام فى حياتى كنت أذهب فيه إلى المدرسة ولم يكن أخى قد التحق بها بعد. ويبدو لى أن الوقت الذى استحضرته يرتبط بذاك العام. رأيت نفسى أغادر ڤيللتى ذات صباح مشمس من أيام الربيع، وأمر بحديقتنا للتوجه إلى المدينة، وكانت تمسك بيدى كاتينا، خادمتنا العجوز. لم يظهر أخى فى المشهد الذى تخيلته، لكنه كان بطله. كنت أشعر به حرًا وسعيدًا بالمنزل، فى حين

أذهب أنا إلى المدرسة. كنت أسير إليها والنشيج في حلقي، وخطواتي كارهة والسخط الشديد بداخلي. لم أرَ سوى إحدى مرات ذهابي إلى المدرسة، لكن سخط نفسي كان يحدثني أنّي كنت أذهب إليها كل يوم ويظل أخي بالبيت كل يوم. في حين أنني أعتقد في الحقيقة أن أخي وهو يصغرني بعام واحد، ذهب هو أيضًا إلى المدرسة بعد فترة ليست ببعيدة. لكنّي اعتقدت حينئذ أن الحقيقة لا جدال فيها في الحلم: فأنا محكوم عليّ بالذهاب إلى المدرسة على الدوام، في حين يسمح لأخي بأن يمكث بالبيت. كنت أحسب مدة العذاب وأنا أسير إلى جوار كاتينا: حتى الظهيرة. وهو بالمنزل! وكذلك تذكرت في تلك الأيام البعيدة أنه لابد أن أزعجتني التهديدات والتوبيخات العنيفة بالمدرسة وفكرت حينئذ أيضًا: لن يكون له نصيب منها. كانت رؤية ذات وضوح شديد. بدت لي كاتينا كبيرة، وقد عرفتها صغيرة الحجم. بالطبع فلقد كنت صغيرًا جدا. وبدت لي عجوزًا جدا حينئذ كذلك، لكن كلنا يعلم أن صغار السن يرون الكبار عجائز. وفي الطريق الذي كان عليّ أن أسير فيه للوصول إلى المدرسة، لمحت أيضًا الأعمدة غريبة الشكل التي كانت تحدد مسار المشاة في مدينتنا في ذلك الوقت. حقيق أنّي ولدت منذ زمن بعيد بما يجاوز أن أرى، وأنا رجل ناضج، تلك الأعمدة وهي لا تزال في شوارع وسط مدينتنا. لكنها لم تعد موجودة في الطريق الذي سرت فيه مع كاتينا، فور أن خرجت من مرحلة طفولتي.

واستمرت الثقة بأصالة تلك الصور بداخلي، إلى أن اكتشفت ذاكرتي المتبلدة تفاصيل أخرى عن تلك الفترة، عندما أسعفها ذاك الحلم وحفزها.

والعنصر الهام: أن أخى كان يحقد علىّ هو أيضًا لذهابى إلى المدرسة. لقد تنبهت لهذا وكنت واثقًا منه، لكن ذلك لم يكف لإلغاء حقيقة الحلم فى الحال. وفيما بعد نزع عن هذا الأخير كل وجه للحقيقة: لقد كانت هناك غَيرة فى الواقع، لكنها اتخذت فى الحلم موضعًا آخر.

حملتنى الرؤية الثانية هى أيضًا إلى عهد حديث، على الرغم من أنه يسبق كثيرًا ما قبله: حجرة فى ڤيللتى، لا أدرى أيهن؛ لأنها أوسع من أى واحدة أخرى كانت على أرض الواقع. من الغريب أنّى كنت أرى نفسى قابعًا فى تلك الحجرة، وأنه سرعان ما أدركت أحد التفاصيل التى لم تكن تتأتى عن مجرد الرؤية: كانت الغرفة بعيدة عن المكان الذى كانت والدتى وكاتينا تقضيان به النهار حينئذ. وثانى التفاصيل: أنّى لم أذهب بعد إلى المدرسة.

كانت الحجرة بيضاء اللون بأكملها، بل إنى لم أرَ قط فى حياتى غرفة مثلها ناصعة البياض والشمس تضيئها بكاملها. هل كانت الشمس حينئذ تنفذ عبر الحوائط؟ من المؤكد أنها كانت قد ارتفعت بالسماء، فى حين كنت ما أزال فى فراشى وبيدى فنجان ارتشفت منه القهوة باللبن كلها، واستمررت فى تحريك الملعقة الصغيرة لأخرج السكر منه. وفى لحظة معينة لم تعد الملعقة تصل إلى التقاط المزيد، وحاولت عندئذ أن أصل بلسانى إلى قاع الفنجان. لكنّى لم أفلح؛ ولهذا انتهيت إلى أن أمسكت الفنجان فى يد والملعقة فى الأخرى، وجلست أشاهد أخى وهو مُسْتلْقٍ فى فراشه إلى جوارى وكيف كان، فى بطئه، لا يزال يرتشف

القهوة وأنفه فى الفنجان. وعندما رفع فى النهاية وجهه، رأيته كاملاً كأنما يتقلص تحت أشعة الشمس المتسلطة عليه تمامًا، أما وجهى (ويعلم الرب لماذا) فقد كان فى الظل. كان وجهه شاحبًا يشوبه انبعاج طفيف فى فكيه. سألنى:

– أتعيرنى ملعقتك؟

لاحظت فقط حينئذ أن كاتينا نسيت أن تحضر له الملعقة. فى الحال ودون أى تردد أجبته:

– نعم! لو أعطيتنى فى مقابل ذلك قليلاً من سكر فنجانك.

أمسكت الملعقة إلى أعلى حتى أبرز قيمتها. لكن صوت كاتينا دوّى على الفور فى الحجرة:

– يا للعار! أيها المرابى!

قذف بى الفزع والخجل إلى الحاضر. كنت أرغب فى مناقشة كاتينا، لكنها هى وأخى، وأنا مثلما كنت حينئذٍ صغيراً، بريئًا ومرابيًا، اختفينا ونحن نسقط فى الهُوة السحيقة.

ندمت على شعورى الشديد بذلك الخجل، حتى إنه أفسد الحلم الذى توصلت إليه بعناء كبير. كنت سأقوم بعمل طيب جداً لو قدمت على العكس الملعقة فى هدوء ومجانًا، ولم أناقش تصرفى السيئ، الذى ربما كان أول ما اقترفته من أخطاء. وكان من المحتمل أن تستدعى كاتينا والدتى لتنزل بى العقاب وأراها أخيراً.

ولكن رأيتها بعد أيام قليلة أو اعتقدت أنّي رأيتها. لعلني أدركت على الفور أنه كان خيالاً؛ لأن صورة أمي كما استحضرتها، تشبه كثيرًا صورتها فوق فراشي. لكن عليّ أن أقرّ أنها كانت تتحرك عندما ظهرت لى كما يتحرك الإنسان الحى.

كانت شمسًا ساطعة جدًا، حتى تخطف بالأبصار! كان يصلنى من تلك التى كنت أراها أيام شبابى القدر الكبير من تلك الشمس التى كان يصعب الارتياب في أنها هى ذاتها. هناك حجرة الجلوس بمنزلنا بعد الظهيرة! عاد أبى إلى المنزل وجلس على أريكة إلى جوار أمي، وكانت تطبع حروفًا أولى بنوع من الحبر الثابت على فرش كثيرة، قامت بتوزيعها على المنضدة التى كانت تجلس إليها. أجد نفسى تحت المنضدة ألعب ببعض الكرات الصغيرة. وأقترب أكثر فأكثر من أمي. ربما أرغب فى أن تشاركنى فى ألعابى. فى لحظة معينة، ولكى أقف بينهما أتشبث بالمفرش الذى يتدلى من على المنضدة وعندئذ تحدث كارثة. تقع زجاجة الحبر فوق رأسى، تبلل وجهى وملابسى وتنورة أمي، وتحدث كذلك بقعة خفيفة على سروال أبى. يرفع والدى إحدى ساقيه ليركلنى بها...

لكنى عدت من رحلتى البعيدة فى الوقت المناسب، وأجد الآن نفسى فى مأمن هنا، رجلاً ناضجًا وعجوزًا. يجب الاعتراف بذلك! تألمت للحظة من العقاب الذى كان يحيق بى، وفور ذلك آلمنى عدم تمكنى من حضور عملية الحماية التى لابد أنها كانت تصدر عن أمي تجاهى. لكن من يمكنه الإمساك بتلك الصور عندما تأخذ فى الهروب عبر ذلك الزمان

الذى لم يشبه المكان على الإطلاق؟ كانت هذه فكرتى، إلى أن آمنت بأصالة تلك الصور! الآن، مع الأسف (أوه! كم أتألم من ذلك!) لم أعد أصدقها، وأعلم أن الصور لم تكن هى التى تنطلق سريعة، بل عيناى هما اللتان تجلّى نظرهما، وعادتا تتأملان من جديد ذلك المكان الحقيقى الذى لا يوجد به موضع للخيالات.

سأحكى كذلك عن صور ليوم آخر، عزا الطبيب إليها من الأهمية ماجعله يصدر حكمه علىّ بالشفاء.

فى أثناء النعاس الذى استسلمت له جاءنى حلم له ثبات الكابوس. حلمت بنفسى أعود طفلاً من جديد لأرى وحسب كيف كان يحلم ذلك الطفل هو أيضًا. كان يرقد صامتًا تحت سيطرة سعادة تجتاح جسمه الصغير. كان يشعر بأنه بلغ أخيراً رغبته القديمة. وعلى الرغم من هذا كان يرقد وحيداً وبمفرده! لكنّه كان يرى ويسمع بالوضوح ذاك الذى يمكن أن نرى به ونسمع حتى الأشياء البعيدة فى الحلم. كان الطفل يرى (يعلم الرب بأية طريقة) وهو يرقد فى حجرة بڤيللتى، قفصًا فوق سرير الغرفة تقوم حوائطه على أسس متينة، وليس به أبواب ولا نوافذ، لكنه ممتلئ بما يسعد من نور، وهواؤه نقى وعطر. وكان الطفل يعرف أن بإمكانه هو وحده أن يصل إليه ودون الذهاب إليه أيضًا؛ لأن القفص ربما يأتى إليه. لم يكن فى ذلك القفص سوى قطعة أثاث واحدة، وهى مقعد وثير تجلس امرأة ملفوفة القوام، مليحة الأعطاف، ترتدى ثوبًا أسود، شقراء ذات عينين واسعتين زرقاوين، يداها ناصعتا البياض وقدماها صغيرتان

بداخل زوج من حذاء جميل لامع يشعّ منه مجرد بريق خفيف، تحت تنورتها. جدير بالذكر أن تلك السيدة كانت تبدو لي وكأنها شيء واحد بزيها الأسود وحذائها اللامع. كانت هي كل شيء! وكان الطفل يحلم بالاستحواذ عليها، لكن بالأسلوب الأكثر غرابة: أي أنه كان واثقًا من استطاعته أكل أجزاء صغيرة منها عند قمتها وأساسها.

والآن وأنا أفكر في ذلك، أندهش من أن الطبيب الذي قرأ بانتباه شديد، حسبما يقول، رأيه فيما كتبته بيدي، لم يتذكر الحلم الذي جاءني قبل ذهابي لألحق بكارلا. وعندما أعدت التأمل فيه بعد مرور بعض الوقت، رأيت أن هذا الحلم ليس إلاّ ذاك الحلم وقد تغير بعض الشيء، وأصبح أكثر طفولية.

إلا أن الطبيب سجل كل شيء بدقة، ثم سألني بوجه شارد بعض الشيء:

– هل كانت والدتك شقراء وملفوفة القوام؟

أدهشني السؤال، وأجبته أن جدتي كانت لها الهيئة نفسها أيضًا. لكنّي شُفيت كما كان يرى، شفيت بالفعل. فتحت فمي حتى أسعد معه بذلك، وتواءمت مع ما كان عليه أن يتبعه، أي أنه لم تعد هناك دراسات، ولا أبحاث ولا تأملات، بل إعادة تأهيل حقيقية ومثابرة.

منذ ذلك الحين أصبحت تلك الجلسات تعذيبًا فعليًا، واستمررت فيها فقط لأنه كان دائمًا يصعب عليّ كثيرًا أن أتوقف عندما أتحرك،

أو أن أبدأ في الحركة بعد أن أكون متوقفًا عنها. في بعض الأحيان، كنت أجازف ببعض الاعتراضات عندما كان يقول لي كلامًا أضخم مما ينبغي. لم يكن حقيقيا على الإطلاق - مثلما كان يعتقد - أن كل كلمة من كلامي، وكل فكرة لدي كانت تصدر عن مجرم. كان يمعن حينئذ النظر. لقد برئت ولم أرغب في الانتباه لذلك! كان ذلك هو العمى الحقيقي: قد علمت برغبتي في أن أنتزع من أبي زوجته - والدتي! - أما وجب أن أشعر بالشفاء؟ كان عنادي غير مسبوق: ولكن الطبيب أقرّ بأني سأبرأ بصورة أفضل كثيرًا، إن إنتهت التربية الجديدة التي سأعتاد في أعقابها على النظر إلى تلك الأمور (الرغبة في قتل الأب وتقبيل الأم) على أنها أحاسيس بريئة للغاية، وليس هناك داع للمعاناة من تبكيت الضمير بسببها؛ لأنها كثيرًا ماتحدث في أفضل العائلات. في واقع الأمر أي شيء كنت سأفقده؟ ذات يوم أخبرني أنّي أصبحت وقتذاك مثل مريض في دور النقاهة، ولم يعتد بعد على العيش دون ارتفاع في الحرارة. حسنًا: سأنتظر حتى أعتاد الأمر.

كان يشعر أنّي مازلت لا أستسلم له تمامًا، وبين الحين والآخر كان يعود كذلك إلى العلاج، فضلاً عن التربية الجديدة. أخذ يبحث عن الأحلام مرة أخرى، لكننا لم نعد نجد حلمًا واحدًا حقيقيًا. انتهيت إلى تأليف أحدها، بعد أن أزعجني الانتظار الطويل. لو استطعت التنبؤ بصعوبة مثل هذا التظاهر، لما فعلته. فليس من السهل أبدًا التلعثم كأنما غمرنا حلم في منتصفه، ويغطينا العرق أو يشحب لوننا، ألا نكشف أنفسنا،

وربما تتورد وجوهنا من الجهد ولا تحمرّ: تحدثت كأنما عدت إلى سيدة القفص وحملتها على أن تمد لى قدمها من خلال فتحة ظهرت فجأة فى حائط الغرفة الصغيرة، وكانت جديرة بأن ألعقها وآكلها.

كانت القدم «اليسرى، اليسرى!»، أخذت أهمس وقد أضفت فى الرؤية خاصية فريدة، تمكنها من مشابهة الأحلام السابقة على نحو أفضل. وهكذا أظهرت أيضًا أنّى استوعبت تمامًا المرض الذى كان الطبيب يلزمنى به. كان أوديب الطفل بهذه الصورة: كان يمص قدم والدته اليسرى ويترك اليمنى لوالده. وفى أثناء الجهد الذى بذلته فى التخيل الواقعى (وليس فى هذا من التناقض شىء) أوهمت نفسى كذلك باستشعار مذاق ذاك القدم. فكدت أتقيأ.

كنت أرغب أنا أيضًا، وليس الطبيب وحده، فى أن تأتينى مرة أخرى، سواء صادقة أو كاذبة، تلك الخيالات الغالية التى كانت لفترة شبابى، غير أنّى لم أحتج إلى ابتكارها. حاولت أن أستحضرها بعيدًا عن الطبيب، بما أنها لم تعد تعاودنى وأنا إلى جواره. كنت عرضة لأن أنساها وأنا وحدى، لكنّى لم أكن أطمح مطلقًا إلى العلاج! كنت ما أزال أرغب فى ورود مايو فى شهر ديسمبر. وقد تحصلت عليها من قبل؛ فلماذا لا أستطيع نيلها من جديد؟

فى وحدتى أيضًا كنت أشعر بالملل إلى حد كبير، لكن فيما بعد، أتت أشياء أخرى بدلاً من الأحلام حلّت محلها لبعض الوقت. اعتقدت ببساطة أنّى قمت باكتشاف علمى هام. هيئ لى أنى مدعو لاستكمال

نظرية الألوان الفسيولوجية كلها . فالسابقون لى، مثل جوته وشوبنهاور، لم يتخيلوا قط إلى أين يمكن الوصول بالتعامل بمهارة مع الألوان المتتامّة.

ينبغى العلم بأنّى كنت أقضى وقتى مستلقيًا على الأريكة أمام نافذة مكتبى، حيث كنت أشاهد من خلالها جزءًا من البحر ومن الأفق. ذات مساء لوّنه غروب فى سماء تخللتها السحب، استغرقت وقتًا طويلاً وأنا أتأمل لونًا رائعًا على طرف سحابة ناصعة، كان اللون الأخضر النقى الهادئ. وكانت السماء كذلك ملونة جداً، كان هناك الأحمر الساقط على حواف السحاب ناحية الغرب، لكنه كان لايزال باهتًا وقد طغت عليه أشعة الشمس البيضاء المباشرة. أغمضت عينى وقد غشينى الضوء، بعد مدة من الوقت، وكان واضحًا أن انتباهى ومشاعرى قد اتجها نحو اللون الأخضر، حيث سقط لونه المتمم على شبكية عينى، لون أحمر متلألئ لا علاقة له بالأحمر المضىء، وإن كان باهتًا فى السماء. أخذت أتأمل، وأداعب ذلك اللون الذى صنعته بنفسى. أخذتنى دهشة كبيرة فور أن فتحت عينى، ورأيت اللون الأحمر المتوهج ذاك وهو يكتسح السماء كلها، ويحجب أيضًا الأخضر الزمردى، الذى لم أعد أجده ولفترة طويلة. إذًا لقد اكتشفت، مع ذلك، طريقة صبغ الطبيعة! بالطبع كررت التجربة لمرات عديدة. الطريف: أنه كان هناك أيضًا نوع من الحركة فى عملية التلوين. فعندما كنت أعيد فتح عينى، كانت السماء لا تقبل على الفور اللون الآتى من الشبكية، فى حين كانت هناك أيضًا لحظة من التردد أرى فيها مرة

أخرى اللون الأخضر الزمردى الذى كان يخلّف وراءه ذلك الأحمر الذى كان لابد أن يبدده. ينبثق هذا الأخير من الأعماق، على نحو مفاجئ، وتتسع بقعته كحريق هائل.

عندما تأكدت من سلامة ملاحظتى، أبلغت الطبيب بها آملاً فى أن ينعش بها جلساتنا الباعثة على الملل، فأسكتنى عندما أخبرنى أن شبكية عينى شديدة الحساسية بسبب النيكوتين. كاد يفلت من لسانى أن الخيالات التى عزوناها حينئذ إلى استعادة الذاكرة لأحداث فى مرحلة شبابى، ربما نشأت، على العكس هى الأخرى، من تأثير تلك المادة السامة نفسها. وعلى هذا النحو كدت أكشف له أنّى لم أبرأ وإلا حاول هو أن يدفعنى إلى إعادة العلاج من البداية.

ومع ذلك فلم يكن ذلك الأحمق دائم الاعتقاد بأنّى مسمم لهذه الدرجة. ويدل على هذا أيضاً تلك التربية الجديدة التى حاول بها أن يعالجنى مما كان يطلق عليه مرض التدخين. ها هى ذى كلماته: إن التدخين لا يضرنى وإن أقنعت نفسى أنه لا يؤذينى سيصير الأمر كذلك. ثم كان يسترسل ويقول: الآن وقد عادت علاقتى مع والدى تخرج إلى النور، لأحكم عليها وأنا رجل ناضج، يمكننى أن أدرك أنّى اتخذت تلك العادة السيئة لأنافس أبى، وأن أنسب التأثير السام إلى التبغ؛ وهذا يرجع إلى ما بداخلى من حِس أخلاقى أراد معاقبتى على منافسته.

فى ذلك اليوم غادرت منزل الطبيب، وأخذت أدخن بشراهة. كانت هناك حاجة للقيام بتجرِبة، والتزمت بها عن طيب خاطر. واصلت التدخين

بلا انقطاع طوال اليوم. ثم تلته ليلة قضيتها ساهراً. لقد انتعش الالتهاب الشعبى المزمن من جديد، ولم يكن هناك شك فيه؛ لأنه كان سهلاً اكتشاف آثاره فى إناء البصق.

وفى اليوم التالى أخبرت الطبيب أنّى دخنت كثيراً، ولم أعد أبالى بذلك. نظر إلىّ وهو يبتسم، وهيئ لى أن صدره انتفخ من اعتداده بنفسه. وفى هدوء استأنف التربية الجديدة! كان يسير قدمًا فى ثقة من أنه سيرى الزهور فى كل أرض تطؤها قدمه.

أذكر القليل جداً من تلك التربية. تحملتها وعندما كنت أخرج من تلك الحجرة كنت أنتفض مثل الكلب الذى يخرج من الماء، ومثله أيضًا كان يبقى بى شىء من الرطوبة، ولكنى لم أكن أبتل.

بيد أنّى فى سخط أذكر زعم طبيبى المربى عن أن الدكتور كوبروسيش كان على حق فى توجيه تلك الكلمات التى تسببت فى شعورى الشديد بالاستياء إلىّ. ولكن هل كنت حينئذٍ أستحق كذلك الصفعة التى أراد والدى توجيهها لى وهو يموت؟ لا أدرى إذا كان قال هذا أيضًا، فى حين أننى أعلم عن يقين أنه كان يزعم أنى أبغضت أيضًا العجوز مالفنتى ذلك الذى أعطيته مكانة والدى. ففى هذا العالم يشعر الكثيرون أنهم لا يستطيعون العيش دون شىء من المودة؛ فى حين أفقد أنا توازنى، كما كان يرى، عندما ينقصنى شىء من الكراهية. وزواجى هذه أو تلك من فتياته كان سواء؛ لأن الأمر كان يتعلق بوضع والدهما فى مكان يمكن لبغضى أن يدركه فيه. ثم أسأت إلى البيت الذى صنعته لنفسى بأفضل

مـا فـي وسـعي. خنت زوجتي، ومن الواضـح أنه لو كنت قد وفقت لأغويت آدا وألبرتا أيضـًا. لا أعتقد بالطبع أنّى أنكر هذا، بل كان الطبيب يضـحكنى وهو يخبـرنى به، وقد اتخذ هيئـة كريستوفر كولومبو حينمـا اكتشف أمريكا. وعلى ذلك أظن أنه الوحيد فى هذا العالم الذى يتسـاءل وهو يسمع أنى راغب فى الذهاب إلى الفراش بصحبة امرأتين رائعتى الجمال: فلنر لمـاذا يرغب هذا فى الذهاب معهما إلى الفراش.

كان كذلك يصعب علىّ كثيرًا أن أتحمل ما سمح لنفسه بقوله بشأن علاقتى بجويدو. فلقد اطلع من حكايتى نفسها على الشعور بالنفور الذى صـاحب بداية علاقتى به. ورأى أن هذا النفور لم يتوقف، وأن آدا لديها الحق فى رؤية آخر مظهر من مظاهره عندما لم أحضر تشييع جنازته. لم يتذكر الطبيب أنّى كنت مستغرقًا حينئذ فى عمل الخير لإنقاذ ثروة آدا، ولم أكترث أنا كذلك بأن أذكّره بهذا.

يبدو أنه قـام أيضـًا بتـحـريات بشـأن جويدو، فهو يؤكد أنه، وقد اختـارته آدا، لا يمكن أن يكون بالصـورة التى وصـفتـهـا به. اكتشف أن مخزنًا كبيرًا للأخشاب تمتلكه شركة جويدوسبيير و"ك."، يقرب كثيرًا من المنزل الذى نجرى به عمليـة التحليـل النفسى. فلمـاذا لم أتحدث أنـا عنـه؟

لو تحدثت فى هذا الأمر لظهرت صـعوبة جديدة فى عملية العرض التى أجريهـا وهـى فى حد ذاتهـا بـالغة الصـعوبة. وهـذا الحذف ليس إلا دليلا على أن أى اعتراف من جـانبى باللغـة الإيطالية لا يمكن أن يكون

كاملاً أو صادقًا . فهناك تنوع ضخم فى أى مخزن للأخشاب من الأصناف التى نطلق عليها فى تريستى أسماءً أجنبية أخذناها من اللغة العامية، والكرواتية والألمانية وحتى الفرنسية فى بعض الأحيان (زابان على سبيل المثال لا تعادل على الإطلاق سابان[1] الفرنسية). من كان سيمدنى بالمفردات اللُّغوية الصحيحة؟ هل كان على عجوز مثلى أن يقوم بدور تاجر أخشاب من توسكانا؟ فضلاً عن أن مخزن أخشاب شركة جويدو سبيير و"ك." لم يسفر إلا عن خسائر. ثم إنه لم يكن هناك داعٍ لأتحدث عنه، حيث ظل دائمًا بلا نشاط فيما عدا تدخل اللصوص لسرقة تلك الأخشاب ذات الأسماء الأجنبية، كأنما خصص ذلك المخزن لصنع مناضد تحضير الأرواح.

اقترحت على الطبيب أن يحصل على ما يبحث من معلومات عن جويدو من زوجتى ومن كارمن أو بالأحرى من لوتشانو، وهو تاجر كبير يعرفه الجميع. وعلى ما أعلم فهو لم يتوجه إلى أحد منهم، ولابد أن أصدق أنه أعرض عن ذلك خشية أن يرى البناية التى أسسها كلها على الاتهامات والشكوك تنهار من تلك المعلومات. من يدرى لمَ شعر بهذا البغض كله تجاهى؟ لا بد أن يكون هو أيضًا مصابا بالهستيريا؛ حيث اشتهى والدته بلا جدوى، ولم ينتقم ممن ليس له شأن بذلك على الإطلاق.

وفى النهاية شعرت بإرهاق شديد من ذاك الصراع الذى كان علىّ أن أقوم به مع الطبيب الذى أدفع له المال. أعتقد أيضًا أن تلك الأحلام

---

(١) التنوب وهو شجر من الصنوبريات.

لم تفدنى، فضلاً عن أن حرية التدخين قدر ما أشاء أدت إلى القضاء علىّ كليًا. ولاحت لى فكرة جيدة: ذهبت إلى الطبيب باولى.

لم أره منذ سنوات عديدة. وبدا عليه الشيب بعض الشىء، لكن قامته العسكرية فارهة الطول لم ينل العمر منها الكثير ولم تنحن. كان لا يزال ينظر إلى الأشياء بنظرة كانت تبدو كالمداعبة. اكتشفت فى تلك المرة لماذا كانت تبدو على هذا النحو. من الواضح أنه يروق له التأمل والنظر إلى الأشياء الجميلة والقبيحة بنظرة الإعجاب التى يلقيها أى شخص آخر للمداعبة.

صعدت عنده، وعزمت أن أسأله عن رأيه فى ضرورة استمرارى فى التحليل النفسى، لكنى لم أجد الشجاعة عندما ألفيت نفسى أمام عينه تلك، الفاحصة الباردة. ربما أصبحت مثيراً للسخرية، إن حكيت عن استسلامى فى سنّى هذه لمثل ذلك الدجل. ساءنى أنّى صمت؛ لأنه لو منعنى باولى من ممارسة التحليل النفسى، لأصبح موقفى أسهل جداً، ولكن لشدة ماكان يؤسفنى أن أراه يداعبنى طويلاً بعينه الواسعة تلك.

حكيت له عما عندى من أرق، والالتهاب الشعبى المزمن، وعن تورم فى خدّى كان يعذبنى فى تلك الفترة، وعن بعض الآلام التى كانت تلاحقنى فى ساقى، وأخيراً عن حالات نسيانى الغريبة.

قام باولى بتحليل البول أمامى. تلون الخليط باللون الأسود فظهر على الطبيب القلق. ها هو ذا أخيراً تحليل فعلى، ولم يعد هناك ذلك التحليل النفسى. تذكرت فى إعجاب وتأثر ماكان بالماضى البعيد من اهتمام

بالكيمياء وبالتحليل الحقيقي: هناك كنت أنا، وأنبوبة ومادة كاشفة! والآخر، أى الشيء الذى يتم تحليله، ينام إلى أن توقظه المادة الكاشفة فى الحاح. ليست هناك مقاومة فى الأنبوب، أو إنها تستسلم لأقل ارتفاع فى درجة الحرارة ولا مكان للتظاهر على الإطلاق. لم يحدث شيء فى ذاك الأنبوب يذكّر بتصرفي عندما اخترعت بعض التفاصيل الجديدة فى مرحلة طفولتى إرضاءً للطبيب "س" من شأنها أن تؤكد له تشخيص سوفوكل. في حين، يوجد كل شيء حقيقي هنا. فالشيء الذى يتم تحليله يظل قيد التجربة فى انتظار المادة الكاشفة، وهو كما هو لم يتغير. وستنطق المادة الكاشفة دائمًا بالكلمة ذاتها عندما تصل. أما فى التحليل النفسى فلا تتكرر الخيالات نفسها أبداً ولا الكلمات كذلك؛ لذا ربما ينبغى أن نطلق عليه اسماً آخر فلنسمه بالمغامرة النفسية. فالأمور تسير تمامًا على هذا النحو: فعندما تبدأ عملية تحليل مماثلة كأنما نذهب إلى غابة، ولا ندرى ما إذا صادفنا قاطع طريق أو صديق. ولن ندرى بذلك حتى عندما تمضى المغامرة. وفى هذا يشابه التحليل النفسى عملية استحضار الأرواح.

لكن باولى لم ير أن المسألة تتعلق بالسُّكر. كان يريد رؤيتى فى اليوم التالى بعد أن يقوم بتحليل ذلك السائل من خلال عملية التركيز.

ومع ذلك، خرجت من عنده منتصراً، ومحملاً بمرض السكر. كنت على وشك الذهاب إلى الطبيب "س" لأسأله كيف سيقوم حينئذ بتحليل أسباب هذا المرض فى أعماق نفسى حتى يقضى عليها. لكنّى كنت قد مللت من ذلك الشخص، ولم أرغب فى رؤيته ثانية حتى ولو للسخرية منه.

يجب أن أعترف بأنّى رأيت فى مرض السكر عذوبة كبيرة. أخبرت أوجوستا به، وسرعان ما جرت الدموع فى عينيها:

– تحدثتَ كثيراً عن الأمراض طيلة حياتك، حتى انتهيت على الرغم من هذا إلى الإصابة بإحداها! هذا ما قالته، ثم حاولت أن تخفف عنّى.

كنت أحب مرضى. تذكرت كوبلر المسكين، وتعاطفت معه عندما قال إنه يفضل المرض الحقيقى على المرض الوهمى. أصبحت بالفعل متفقًا معه. فالمرض الحقيقى بسيط جداً: كان يكفى أن ندعه يعمل. واقع الأمر، عندما قرأت فى كتاب من كتب الطب تعريف مرضى الحلو، اكتشفت فيه شيئًا مثل برنامج للحياة (وليس للموت!) فى مراحله المختلفة. وداعًا للقرارات: أخيراً تحررت منها. كل شىء سوف يمضى فى طريقه دون أى تدخل منّى.

اكتشفت كذلك أن مرضى كان دائمًا أو غالبًا ذا حلاوة كبيرة. يأكل المريض ويشرب كثيراً، ولن تكون هناك معاناة شديدة إن انتبه إلى تجنب القروح. ثم يموت فى غيبوبة هادئة جداً.

بعد قليل طلبنى باولى على الهاتف. أخبرنى أنه ليس هناك أى أثر للسكر عندى. فذهبت عنده فى اليوم التالى. وصف لى نظامًا غذائيًا لم أتبعه سوى بضعة أيام، إلى جانب خلطة كتبها لى فى بطاقة لا تُقرأ، وأفادتنى لشهر كامل.

سألني وهو يبتسم: - هل أخافك مرض السكر كثيراً؟

اعترضت، لكني لم أخبره بشعوري الشديد بالوحدة، بعد أن هجرني مرض السكر. وما كان ليصدقني.

في غضون ذلك وقع في يدي الكتاب الذي كتبه الدكتور الشهير بيرد بشأن النوراستينيا. اتبعت نصيحته، وأخذت أبدّل الأدوية كل ثمانية أيام طبقا لوصفاته التي نسختها بخط واضح. ولبضعة أشهر بدا لي العلاج جيداً. ولا حتى كوبلر قد حصل في حياته على مثل هذا النجاح الوافر بالأدوية الذي حصلت عليه أنا في تلك الفترة. ثم مضت أيضًا عني تلك الثقة، لكنّي أخذت آنذاك أؤجل من يوم إلى آخر عودتي إلى التحليل النفسي.

تصادفت بعد ذلك مع الدكتور "س". سألني إن كنت قد قررت ترك العلاج. ولكنه كان مهذباً جداً، أكثر بكثير مما كان عليه عندما كنت في رعايته. من الواضح أنه كان يرغب في استعادتي. قلت له إنه لدي بعض الأعمال العاجلة، وبعض المسائل العائلية التي تشغلني وتؤرقني، وإنّي سأعود إليه فور أن أطمئن على ما يجري. كنت أريد أن أرجوه أن يعيد إليّ ما كتبته بيدي، لكنّي لم أجرؤ؛ خشيت أن يبدو ذلك اعترافًا له بأنّي لم أعد أبالي بالعلاج. احتفظت بهذه المحاولة إلى وقت آخر، عندما يدرك أنّي لم أعد أهتم بالعلاج ويرضخ لذلك.

قبل أن يتركني قال لي كلاماً يهدف إلى استمالتي:

– إن تعمقت فى نفسك، ستجدها قد تغيرت. سترى أنك ستعود إلىّ على الفور لو انتبهت إلى كيف أنّى تمكنت من أن أقربك من الشفاء فى وقت وجيز نسبيًا.

لكنّى، فى الحقيقة، أعتقد أنّى بمساعدته، ومن فرط ما تفحصت نفسى، ألقيت بداخلها بعض الأمراض الجديدة.

إنّى عازم أن أبرأ من علاجه. أتجنب الأحلام والذكريات. لقد تغير حال رأسى المسكين بسببها، حتى كاد يفقد إحساسه بالثبات على العنق، ولدى من الشرود ما يفزع. أتحدث مع الناس، وبينما أقول شيئًا أحاول دون وعى أن أتذكر شيئًا آخر قلته قبل قليل أو فعلته ولم أعد أذكره، أو أتذكر كذلك فكرة أراها ذات أهمية بالغة، مثل تلك الأهمية التى عزاها والدى إلى الأفكار التى لاحت له قبل وفاته بقليل، ولم يتمكن هو أيضًا من تذكرها.

إن أردت ألاّ أنتهى فى مستشفى المجانين فلأبتعد عن هذا العبث.

١٥ مايو ١٩١٥

قضينا يومين عطلة فى ڤيللتنا ببلدة لوتشينكو. كان ابنى ألفيو بحاجة إلى الشفاء من الأنفلونزا، ووجب أن يمكث مع أخته فى الڤيلا لبضعة أسابيع. وكان علينا أن نعود نحن إلى هنا فى أثناء عيد الخمسين.

أخيراً توصلت إلى العودة إلى عاداتى المحببة، وإلى الامتناع عن التدخين. أشعر الآن بتحسن أفضل منذ أن استطعت إلغاء الحرية التى أراد أن يمنحنى إياها ذاك الطبيب الأحمق. اليوم وقد وصلنا إلى منتصف الشهر أجد نفسى مندهشاً من الصعوبة التى يفرضها تقويمنا فى اتخاذ قرار منظم ودقيق. لا يوجد شهر مماثل للآخر. ولإعطاء قرارى أهميته ينبغى الإقلاع عن التدخين مع ربطه بانتهاء شىء آخر، وليكن الشهر على سبيل المثال. ولكن لا توجد شهور أخرى، فيما عدا يوليو وأغسطس وديسمبر ويناير، تتوالى وتتشابه فى عدد الأيام. إنها فوضى حقيقية فى الوقت!

وحتى أفرغ إلى نفسى أمضيت وقت الظهيرة فى اليوم الثانى وحيداً على شاطئ إيزونزو. وليس هناك استغراق فى التأمل أفضل من الجلوس لمشاهدة المياة الجارية. نظل هناك بلا حركة، وتمنحنا المياة الجارية الراحة اللازمة؛ لأنها لا تظل على ما هى عليه فى اللون أو فى الشكل ولا حتى للحظة واحدة.

كان نهاراً عجيباً. من المؤكد أن ريحاً شديدة كانت تهب فى السماء، حتى إن السحب تغيرت أشكالها بصورة مستمرة، لكن الهواء لم يتحرك على الأرض. وبين الحين والحين، ومن بين السحب المتحركة، كانت الشمس الساخنة تعثر على ثغرة تغمر بأشعتها من خلالها هذا الجزء أو ذاك من التل أو قمة الجبل، وتكشف بذلك عن لون شهر مايو الأخضر الهادئ وسط الظلال الممتدة على المنظر كله. كانت حرارة الجو معتدلة

وسرعة حركة السحب فى السماء، كانت تعبر كذلك عن شىء ربيعى. لم يكن هناك شك: كان الجو يتحسن!

كانت خلوة حقة مع نفسى، فى إحدى اللحظات النادرة التى منحتها لى الحياة الشحيحة، وكانت إيجابيتها عظيمة حقًا فى التوقف أخيرًا عن ظنونى وشعورى بأنّى ضحية. ووسط تلك الخضرة التى كشفت عنها أشعة الشمس الخاطفة على نحو ساحر استطعت أن أبتسم لحياتى ومرضى. وقد ظفرت المرأة فى تلك الخلوة بأهمية كبيرة. وربما بعض أجزاء من جسدها، كقدميها الصغيرتين، وخصرها، وفمها شغلوا فراغ أيامى. وفيها أحببت حياتى ومرضى، وتفهمتهما عندما كنت أستعيدهما بذاكرتى. كم كانت حياتى أجمل من حياة من اعتقدوا بأنهم أصحاء، أولئك الذين كان يضربون أزواجهم، أو يضربونهن كل يوم فيما عدا بعض الأحيان. أما أنا، فعلى العكس منهم، كان الحب يلازمنى دائمًا. وبينما كنت لا أفكر بزوجتى، كنت ما أزال أنشغل بها لكى ألتمس لنفسى العذر؛ لأنّى أفكر أيضًا بغيرها. يهجر الآخرون نساءهم وهم فى خيبة أمل ويأس من الحياة. أما الحياة بالنسبة لى، فلم أفقد فيها رغبتى قط، وكان الوهم يتجدد مباشرة بصورة كاملة بعد كل خيبة أمل، وذلك فى أحلامى ليعيد لى وفى وضوح ملامح المرأة بأعطافها ونبرات صوتها.

تذكرت حينئذ ما بين الأكاذيب العديدة التى أوهمت بها ذلك المراقب العظيم ألا وهو الطبيب "س"، أن هناك أكذوبة أخرى وهى أنّى لم أخن زوجتى قط بعد رحيل آدا. وأخذ هو يبنى أيضًا نظرياته على هذه الكذبة.

لكن هناك، عند شاطئ ذلك النهر، تذكرت بغتةً، وفى فزع، أنه حقيقى أنّى لم أسعَ لمصاحبة نساء أخريات منذ ذاك اليوم، ربما منذ أن تركت العلاج. هل شفيت مثلما يزعم الطبيب "س"؟ إن عجوزاً مثلى، لم تعد النساء ينظرن إليه منذ وقت مضى. ومتى امتنعت عن النظر إليهن، فها هى تنقطع كل صلة بيننا.

لو راودنى شك مماثل وأنا بتريستى، لاستطعت حلّه فى الحال. فهنا الأمر أكثر تعقيداً.

منذ أيام قلائل كان بين بيدى كتاب ذكريات دابونتى، ذلك المغامر المعاصر لكازانوڤا. من المؤكد أنه مرّ هو أيضاً بلوتشينكو، وحلمت أنا بأنّى تقابلت مع سيدات روايته فى زينتهن ومساحيق أعطافهن التى تخفيها تنورتهن الكثيفة المقواة. يا إلهى! كيف كن يستسلمن سريعاً على هذا النحو على الرغم من أنهن يحتمين بهذا الكم من القماش؟

ظننت أن تذكر التنورة مثير بحد كاف، على الرغم من العلاج. لكن رغبتى كانت مفتعلة بعض الشىء ولم تكن تكفى لتطمئننى على نفسى.

وبعد قليل مررت بالتجربة التى كنت أسعى وراءها وكانت كافية لتهدئتى، غير أنها كلفتنى كثيراً. ولكى أخوضها، عكّرت وأفسدت أنقى علاقة كانت لى فى حياتى.

قابلت تيريزينا، الابنة الكبرى لأحد المزارعين بمزرعة تقع بالقرب من ڤيللتى. أصبح الأب أرمل منذ عامين، ووجدت ذريته الكثيرة صورة

الأم فى تيريزينا، وهى فتاة قوية البنية تستيقظ فى الصباح لكى تعمل، وتتوقف عن عملها لكى ترقد، وتستجمع قواها حتى تتمكن من استئناف عملها. فى ذلك اليوم كانت تقود الحمار الصغير الذى كان يعتاد أخوها الأصغر التكفل به، وكانت تسير إلى جوار العربة المحملة بالعشب الغضّ، حيث إن الحيوان الصغير لم يكن ليحمل أيضًا وزن الفتاة فى الطريق المنحدر.

فى العام الماضى كانت لا تزال تبدو لى طفلة، ولم أشعر نحوها سوى بعاطفة باسمة، أبوية. وفى اليوم السابق كذلك، عندما عدت أراها للمرة الأولى كنت ما أزال أراها فتاة غير ناضجة، لا أستطيع أن أحب فيها سوى النشاط المذهل والأمومة التى تضفيها على إخوتها الصغار. هذا على الرغم من أنّى وجدتها وقد كبرت، والوجه الصغير الأسمر وقد صار أكثر جدية، وكتفيها نحيفين وعريضين فوق الصدر الآخذ فى الاستدارة فى اعتدال، وهو ينمو فى ذلك الجسد الصغير المنهك. لو لم يكن هناك ذلك العلاج اللعين وضرورة التحقق الفورى من الحالة التى يكمن فيها مرضى، لتمكنت من مغادرة لوتشينكو فى تلك المرة أيضًا، دون أن أتسبب فى إيذاء تلك البراءة إيذاءً كبيرًا.

لم تكن ترتدى التنورة الداخلية. ولم يعرف وجهها المستدير الباسم المساحيق. كانت حافية القدمين عارية الساقين حتى نصفها أيضًا. لم يتمكن وجهها وقدماها الصغيرتان وساقاها من إثارتى. كان وجهها وأطرافها المكشوفة من لون واحد؛ كانت جميعها معرضة للهواء، ولم يكن

هناك من مانع من أن يلفحها جميعها . وربما لم تفلح فى إثارتى بسبب هذا . لكنّى ارتجفت عندما شعرت بتلك البرودة. أكانت تلك التنورة ضرورية حقًا بعد شفائى؟

بدأت بمداعبة الحمار الصغير الذى منحته الفتاة شيئًا من الراحة. ثم حاولت العودة إلى تيريزينا، ووضعت فى يدها ما لا يزيد على عشر كورونات. كان هذا هو الاعتداء الأول! ففى العام الماضى، ألقيت فى يدها ويد أخوتها الصغار مجرد نقود قليلة تعبيرًا لهم عن حبى الأبوى، فى حين أنه من المفهوم أن الحب الأبوى شىء آخر. انبهرت تيريزينا من العطية الكبيرة، ورفعت تنورتها الصغيرة بعناية لتضع الورقة الثمينة لا أدرى فى أى جيب خفى من الجيوب. وعلى هذا النحو لمحت جزءًا آخر من ساقها، لكنه أسمر اللون أيضًا وعفيف.

عدت إلى الحمار الصغير وقبلته على رأسه. فأثارت مودتى تعاطفه. مدّ خطمه وأطلق صيحة كبيرة تعبيرًا عن حبه، كنت أنصت إليها فى احترام. كان كأنما يتعدى المسافات، ويعبِّر بالصيحة الأولى تلك التى أصدرها وكررها، ثم أخذ يهدأ إلى أن انتهى ببكاء يائس. لكنّه من شدة قربى منه أصاب الألم طبلة أذنى.

أخذت تريزينا تضحك، وشجعنى ضحكها، فعدت إليها وأمسكتها فى الحال من ساعدها، وأخذت أتلمس بيدى، شيئًا فشيئًا، تجاه الكتف، وأنا أختبر أحاسيسى. حمدًا للسماء أنّى لم أبرأ بعد! لقد توقفت عن العلاج فى الوقت الملائم. لكن تريزينا دفعت الحمار بضربة عصا لتتبعه وتتركنى.

قلت وأنا أضحك من قلبي حتى وإن لم تهتم بي تلك الفلاحة الصغيرة:

– هل لك زوج؟ يجب أن تتزوجي. خسارة أنك لم تتزوجي بعد!

أجابتني، وهي لا تزال تبتعد عنّي:

– لو اتخذت لي زوجًا، سيكون بالتأكيد أكثر شبابًا من سيادتكم!

لم تخمد سعادتي من هذا الرد. وددت لو ألقِّن تيريزينا درسًا صغيرًا، وحاولت أن أستعيد بذاكرتي كما حدث عند بوكّاتشو[1] أن «المعلم ألبرتو البولوني الذي بأسلوب مهذب أشعر المرأة التي كان مغرمًا بها بالخجل في حين كانت هي ترغب في أن تسبب له حرجًا». غير أن منطق المعلم ألبرتو لم يكن له الأثر المطلوب؛ لأن السيدة مالجريدا دي جيزوليري أجابته: «إنّي أقدر حبكم لي بصفتكم رجلا حكيما وقديرًا حقًّا كما يجب؛ ولهذا، وبصرف النظر عن صدقي وصراحتي، فإنكم تعتبرونه حقًّا لكم أية رغبة تخطر ببالكم».

حاولت بذل ما في وسعي قائلاً:

– تريزينا، متى ستهتمين بالعجائز؟ صحت حتي تدرك ما أقول وقد ابتعدت عنّي.

---

(١) الإشارة هنا إلى أحداث القصة العاشرة لليوم الأول في الديكاميرون، وهو عمل أدبي شهير للأديب الإيطالي جوفاني بوكّاتشو.

– عندما أصبح عجوزًا أيضًا، – صاحت وهى تقهقه دون أن تتوقف.

– لكن العجائز لن يهتموا بك حينئذ. استمعى إلى! أنا أعرفهم!

أخذت أصيح، وأنا أشعر برضا نفسى يأتى مباشرةً من غريزتى.

فى تلك الأثناء، انفرجت السُّحب فى بضع مواضع فى السماء، وسمحت لأشعة الشمس بالمرور لتصل إلى تريزينا التى كانت فى تلك اللحظة تبعد عنّى مسافة أربعين مترًا وترتفع عنّى بعشرات الأمتار أو أكثر. كانت سمراء اللون، صغيرة، ولكن مضيئة!

لم تصبغنى الشمس بضيائها. فعندما تتقدم بنا السن نبقى فى الظل، حتى ولو ظلت بنا روح نابضة.

٢٦ يناير ١٩١٥

أدركتنى الحرب! وكنت ممن يستمع إلى قصصها، كأنما يتعلق الأمر بحرب أزمان أخرى، ويدور الحديث عنها للتسلية، لكن الاهتمام بها حماقة. ها أنا ذا أوجد فى وسطها مذهولاً ومندهشًا فى الوقت ذاته بأنّى لم أدرك منذ البداية أنه كان لابد أن تحيق بى عاجلاً أو آجلاً. لقد عشت فى هدوء تام فى بناية كان طابقها الأرضى آخذًا فى الاحتراق، ولم أتوقع أن البناء بكامله سيهوى فى النيران عاجلاً أو آجلاً.

أخذتنى الحرب، عصفت بى كخرقة بالية، حرمتنى من عائلتى جميعها دفعة واحدة ومن مدير أعمالى أيضا. وبين ليلة وضحاها أصبحت رجلاً

جديداً، بل ولأكون أكثر دقة، فإن الأربع والعشرين ساعة فى يومى صارت جديدة بكاملها. ومنذ البارحة وأنا أشعر بالطمأنينة بعض الشىء، حيث حصلت، أخيراً، وبعد انتظار مدة شهر كامل، على أول أخبار عن عائلتى. كانت فى صحة وأمان بمدينة تورينو، فى الوقت الذى فقدت فيه أنا أى أمل فى رؤيتها ثانيةً.

ينبغى أن أقضى النهار كاملاً بمكتبى. ليس لدى شىء أقوم به هناك، لكن كان على آل أوليڤى، بصفتهم مواطنين إيطاليين، أن يرحلوا، فى حين أخذ الموظفون القلائل الأكفاء لدىّ يتخبطون جميعهم هنا وهناك؛ ولهذا يجب علىّ البقاء فى موضعى مراقباً. فى المساء أعود إلى منزلى محملاً بثقل مفاتيح الشركة الضخمة. اليوم وأنا أشعر بهدوء أكبر، حملت معى إلى المكتب هذا المخطوط لعله يساعدنى على أن أمضى الوقت الطويل على نحو أفضل. حقيق أنه يمنحنى ربع ساعة من الساعات الرائعة، علمت خلالها أنه كانت هناك فى هذا العالم فترات هدوء تام وسكون تسمح بالاهتمام بألعاب مثل هذه.

وآه لو دعانى أحدهم حقًا إلى أن أغوص فى حالة من نصف وعى تعيد لى إحياء ولو ساعة فقط من حياتى الماضية. سأضحك حينئذ فى وجهه. فكيف يمكن الابتعاد عن حاضر كهذا للبحث عن أشياء لا قيمة لها؟ يهيأ لى الآن فقط أنّى انفصلت نهائيًا عن صحتى ومرضى. أسير فى شوارع مدينتنا البائسة، وأشعر أنّى مميز؛ لأنى لا أذهب للحرب وأجد قوتى كل يوم. ومقارنةً بالجميع أشعر بسعادة بالغة – وخاصةً منذ

أن وصلتنى أخبار عن أسرتى - حتى إننى أخشى أن تثير حالتى الجيدة هذه غضب الآلهة أنفسهم.

تقابلت أنا والحرب فى صورة عنيفة، أما الآن فها أنا ذا أراها مضحكة بعض الشىء.

كنت قد عدت مع أوجوستا إلى لوتشينيكو لقضاء عيد الخمسين بصحبة الأولاد. وفى الثالث والعشرين من شهر مايو استيقظت فى ساعة مبكرة. كان علىّ أن أتناول ملح كارلسباد وأقوم أيضًا بنزهة قبل ميعاد القهوة. وفى أثناء هذا العلاج بلوتشينيكو أدركت أن القلب، فى حالة الصيام، يقوى على القيام بإصلاحات أخرى بصورة أكثر نشاطًا وهو يشع على الجسم كله صحة عظيمة. كانت نظريتى بحاجة إلى التطوير فى اليوم ذاته، الذى أجبرت فيه على تحمل الجوع الذى أفادنى كثيراً.

رفعت أوجوستا رأسها الأبيض من على الوسادة لتلقى علىّ بالتحية، وتذكرنى بوعدى لابنتى بأن أحضر لها الورود. كانت شجرة الورد الوحيدة لدينا قد ذبلت؛ ولهذا كان علينا أن نشتريه. أصبحت ابنتى فتاة جميلة وتشبه آدا. ومعها بين الحين والحين، كنت أنسى القيام بدور المربى الفظ، لأتحول إلى ذلك الفارس الذى يحترم الأنوثة، حتى ولو كانت فى ابنته. وسرعان ما أدركت هى قوتها، وغالت فى استخدامها لتبعث المتعة فى نفسى وفى نفس أوجوستا كذلك. كانت ترغب فى بعض الورود، وينبغى توفيرها لها.

قررت السير لساعة أو ساعتين. كانت الشمس رائعة، ولم أرتد السترة ولا القبعة، حيث عزمت على الاستمرار فى السير بلا توقف لحين عودتى إلى المنزل. ولحسن الحظ تذكرت أنه علىّ أن أدفع قيمة الورود؛ لذا لم أترك حافظة النقود أيضاً بالمنزل مع السترة.

فى بادئ الأمر توجهت إلى الحقل المجاور، عند والد تريزينا، لأرجوه أن يجمع الورود لآخذها عند عودتى. دخلت فى الفناء الرحب الذى يحيط به سور مهدّم بعض الشىء، ولم أجد هناك أحداً. صحت باسم تيريزينا. فخرج من المنزل أصغر الأطفال، وكان يبلغ من العمر آنذاك ما يقرب من ستة أعوام. وضعت بعض النقود فى يده الصغيرة، وأخبرنى أن أفراد العائلة ذهبوا جميعهم إلى الجانب الآخر من إيزونزو فى ساعة مبكرة، لقضاء يوم عمل، فى أحد حقولهم المزروعة بالبطاطس الذى تحتاج تربته إلى تقوية.

لم يعوقنى ذلك. كنت أعرف ذاك الحقل وأعرف أنّى أحتاج إلى ساعة زمن تقريباً للوصول إليه. سرّنى أن أحدِّد هدفًا لنزهتى تلك، حيث إنّنى قررت السير لمدة ساعتين. وهكذا لم يكن هناك خوف من قطع السير بسبب حالة كسل تهاجمنى فجأة. توجهت ناحية السهل المرتفع قليلا عن الطريق؛ ولهذا لم أرَ منه سوى حافته وبعض قمم الأشجار المزدهرة. كنت مسروراً حقًا: شعرت بخفة وزنى كثيراً وأنا دون السترة والقبعة. أخذت أستنشق ذلك الهواء خالص النقاء وأسير وأنا أقوم

بتدريبات نيمير[1] المفيدة للرئة، مثلما مارستها كثيراً منذ فترة، وقد علمنى إياها صديق ألمانى، وهى شىء مفيد جداً لمن يعيش حياة يغلب عليها الجلوس.

وعندما صلت إلى الحقل ذاك، رأيت تيريزينا تعمل فى الجانب الذى يطل على الطريق تحديداً. دنوت منها، وعندئذ لمحت أخويها الصغيرين يعملان مع أبيهما بعيداً، وما كنت أستطيع تحديد عمرهما، الذى ربما يتراوح ما بين العاشرة والرابعة عشرة. قد يشعر الشيوخ بالإنهاك عندما يبذلون جهداً، ولكن الحماس الذى يصاحب ذلك المجهود، يشعرهم أنهم شباب أكثر من حالة الخمول. اقتربت من تيريزينا وأنا أضحك:

- تريزينا، لم يفت الوقت، لا تتأخرى.

لم تعِ ما قلته وأنا لم أفسر لها شيئًا. لم يكن ضروريًا. وبما أنها لم تكن لتتذكر شيئًا، كان من الممكن العودة معها إلى ما كان سابقًا. وكررت التجرِبة وحظيت منها بنتيجة جيدة تلك المرة أيضًا. فعندما وجهت إليها تلك الكلمات البسيطة داعبتها أيضًا بعين واحدة.

اتفقت سريعًا مع والد تيريزينا بشأن الورود. سمح لى بأن أنتقى منها ما أشاء، وما كنا لنختلف بعدها على الثمن. كان يرغب فى استئناف العمل بسرعة، فى حين كنت أستعد فى طريقى للعودة، لكنه ندم بعد ذلك وأسرع خلفى. سألنى بصوت خافت وقد لحق بى:

---

(١) نيمير طبيب ألمانى توفى عام ١٨٧١، وله مؤلف عن علاجات ذات طابع خاص.

– هل سمعتم بشيء؟ يقولون إن الحرب اندلعت.

فقلت له: – بالتأكيد! جميعنا نعرف هذا! منذ عام على وجه التقريب.

– لا أتحدث عن هذه الحرب، قال متلهفًا. – أتحدث عن تلك مع...– وأشار ناحية الحدود الإيطالية القريبة. – ألم تسمعوا بشيء عن هذا الأمر؟ – حملق فيّ وهو يترقب الإجابة.

– هوِّن على نفسك، أجبته في ثقة تامة، ما دمت لا أعلم شيئًا فهذا يعني بالتأكيد أن شيئًا لن يحدث. أنا آتٍ من تريستي وآخر كلام سمعته هناك يعني أنه تم إخماد الحرب بصفة نهائية. وأطاحوا في روما بالحكومة التي تريد الحرب، ويرأس الحكومة حاليًا چوليتّي.

انفرجت أساريره في الحال، وقال:

– وهكذا فإن هذه البطاطس التي نقوم بتغطيتها والتي ستوفر لنا خيرًا كثيرًا ستكون لنا!. هناك كثيرون من أولئك الثرثارين في هذا العالم! وجفف بكم قميصه العرَق الذي كان يتصبب من جبينه.

وعندما رأيته في غاية الفرحة، حاولت أن أسعده أكثر فأكثر. فأنا أحب الأشخاص السعداء كثيرًا؛ ولهذا تحدثت عن أشياء لا أريد في واقع الأمر ذكرها. أكدت له أنه على الرغم من اندلاع الحرب، فلن تحدث معارك هناك. وقبل كل شيء فهم هناك في البحر يتقاتلون، فضلاً عن أنه لم تخلُ أوروبا حينئذ من ساحات معارك لمن يرغب في الاشتراك فيها.

وهناك مناطق الفياندر ومقاطعات عديدة بفرنسا. ثم سمعتهم يقولون - لم أعد أدرى ممن - إنه أصبحت هناك حاجة إلى البطاطس التى يجمعونها بعناية حتى فى ساحات المعركة. تحدثت كثيراً، وأنا أواصل النظر إلى تيريزينا بجسمها الصغير الخفيف، وقد انحنت نحو الأرض لتتحسسها قبل أن تستخدم المعزقة.

عاد الفلاح إلى عمله بعد أن اطمأن تمامًا. وبينما منحته شيئًا من طمأنينتي، لم يتبق لى إلاّ القليل منها. كنت واثقًا من أننا قريبون جداً من حدود لوتشينيكو. كنت سأتحدث فى ذلك مع أوجوستا. وربما أحسنّا صنيعًا لو عدنا إلى تريستى أو ذهبنا إلى هنا أو هناك. من المؤكد أن چوليتّى قد عاد إلى السلطة، لكن لم يكن أحد ليعرف ما إن استمر، بعد وصوله إليها، فى رؤية الأمور حسبما كان يراها عندما كان هناك شخص آخر غيره يحكم.

ومما زاد من إثارة أعصابى أيضًا أن صادفتنى كتيبة جنود يسيرون فى الطريق تجاه لوتشينيكو. لم يكونوا جنوداً فى مرحلة الشباب؛ زيهم العسكرى وأسلحتهم فى حالة سيئة للغاية. ويتدلى من جوانبهم ما كنا نطلق عليه فى تريستى "الدورليندانا"، تلك الحربة الطويلة التى استخرجوها بكل تأكيد من المخازن القديمة فى النمسا، فى صيف عام ١٩١٥.

سرت وراءهم لبعض الوقت فى حالة من القلق من ألاّ أصل سريعًا إلى منزلى. ثم أزعجتنى ما كانت من رائحة عفنة ثقيلة تنبعث منهم،

فأبطأت خطواتى. كانت حماقة منّى أن أشعر بالقلق وأن أسرع فى العودة. وكان من الحماقة أيضًا أن أشارك الفلاح قلقه. فها أنا ذا أرى من بعيد ڤيللتى، ولم يعد للكتيبة وجود على الطريق. أسرعت خطواتى للوصول أخيرًا إلى احتساء القهوة بالحليب.

وهنا بدأت مغامرتى. عند منعطف الطريق أوقفنى حارس، وصاح:

– عدْ إلى الخلف! قالها بالألمانية، واتخذ على الفور وضع التصويب. أردت أن أتحدث إليه بالألمانية بما أنه صاح بها، لكنه لم يكن يعرف سوى تلك العبارة الوحيدة، وأخذ يرددها بنبرة أكثر تهديداً.

كان علىّ أن أعود إلى الوراء، وأخذت أتلفت خلفى خشيةَ أن يطلق علىّ النار، لكى يفهمنى ما يقوله بصورة أفضل، فانسحبت بسرعة سيطرت علىّ، حتى عندما لم أعد أرى الجندى.

لكنّى لم أكن تنازلت بعد عن عودتى سريعًا إلى ڤيللتى. فكرت فى أنه إن عبرت التل على يمينى، فسأهرب بعيداً خلف الجندى المتوعد.

لم يكن الصعود صعبًا علىّ، خاصةً أن الحشائش الطويلة كانت قد أحناها أناس كثيرون، لابد وأنهم مرّوا بها من قبلى. من المؤكد أنهم أجبروهم هم أيضًا على ذلك ومنعوهم من المرور من الطريق. أخذت أستعيد ثقتى وأنا أسير، ورأيت أن أتوجه إلى رئيس القرية تو وصولى إليها لأحتج على المعاملة التى خضعت لها. ولو كان يسمح بتعرض رواد القرية لتلك المعاملة، فسرعان ما ستخلو لوتشينيكو من الزائرين!

ولكنى عندما وصلت عند قمة التل، أخذتنى المفاجأة غير السارة عندما وجدت كتيبة الجنود تلك وروائحتهم العطنة تحتل المكان. كان كثير منهم يستريحون فى ظل منزل فلاحين أعرفهم منذ وقت بعيد، وكان خاليًا تمامًا فى تلك الساعة؛ وكان ثلاثة منهم يقومون فيما يبدو بدور الحراسة، لكن ليس من ناحية الطريق المنحدر الذى أتيت منه. والتف آخرون على شكل نصف دائرة أمام ضابط كان يعطى لهم تعليمات يوضحها لهم على خريطة يمسكها بيده.

لم يكن معى حتى القبعة لأستخدمها فى تقديم التحية. انحنيت عدة مرات ودنوت من الضابط، بأجمل ابتسامة لدى، فعندما رآنى توقف عن الحديث مع جنوده وأخذ يحملق فى. وكذلك الأجلاف الخمسة الذين كانوا يحيطون به تكرسوا علىّ بانتباههم. وتحت تلك النظرات جميعها وعلى الأرض غير الممهدة تلك كانت حركتى فى غاية الصعوبة.

صاح الضابط:

– ماذا يريد ذلك الأبله؟ (قالها بالألمانية)

اندهشت من إهانتى على هذا النحو، دون أية بادرة منّى تستدعى ذلك، وأردت أن أظهر فى شجاعة منّى تلك الإهانة ولكن مع ما يناسب الموقف، فعدلت اتجاه السير فى محاولة للوصول إلى الطريق المنحدر، الذى ربما كان سيقودنى إلى لوتشينيكو. أخذ الضابط يصيح حتى إنه، إن قمت بخطوة واحدة أخرى فسوف يرمينى بسلاحه. فعدت للتو إلى

سلوكى المهذّب، ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا وأنا أكتب هذه المذكرات، ظللت دائمًا مهذبًا للغاية. كانت هناك قسوة فى إجبارى على التعامل مع شخص كهذا، وعلى الرغم من ذلك كان يتميز بالحديث بالألمانية بطلاقة. تلك الميزة التى، حسبما أتذكر مكنتنى بسهولة كبيرة من الحديث معه بلطف. الويل لو لم يكن ذلك الأحمق يفهم حتى ولا الألمانية. كانت حينئذ نهايتى.

إنه من المؤسف أنّى لم أكن أتحدث تلك اللغة بدقة كافية، وإلاّ لسهل علىّ أن أضحك ذاك السيد العابس. أخبرته بأن القهوة بالحليب تنتظرنى بلوتشينيكو، ولم يبعدنى عنها سوى كتيبته.

ضحك، أشهد حقا أنه ضحك. أخذ يضحك وهو يسبّ، ولم يصبر حتى أنهى حديثى. قال إن القهوة بالحليب هناك فى لوتشينيكو آخرون ممن يشربونها، وعندما سمع أن زوجتى أيضًا تنتظرنى هناك فضلاً عن القهوة، صاح:

– وكذلك زوجتك ربما التهمها آخرون.

كانت حالته المزاجية حينئذ أفضل منّى. ويبدو أنه استاء مما وجهه لى من كلام يمكن أن يكون جارحًا، ذلك الكلام الذى رافقه الأجلاف الخمسة بضحكهم الصاخب؛ وارتسمت الجِدية على وجهه، وطلب منّى ألاّ أفكر فى العودة إلى لوتشينيكو لبعض الوقت، بل نصحنى باسم الصداقة ألاّ أعود لذاك الطلب ثانيةً؛ حيث كان ذاك كافيًا لتعرضى للخطر!

- هل فهمت؟

فهمت، ولكنه لم يكن من السهل قط أن أتقبل التنازل عن القهوة بالحليب وأنا أبعد عنها مسافة نصف كيلو متر تقريبًا؛ ولهذا فقط ترددت في أن أنصرف؛ لأنه كان من الواضح أنه إن هبطت من ذلك التل، لما وصلت مطلقًا في ذلك اليوم إلى ڤيللتي. فسألت الضابط بهدوء، لكي أكسب الوقت:

- ولكن لمن يجب أن أتوجه حتى أعود إلى لوتشينيكو لآخذ سترتي وقبعتي على الأقل؟

كان عليّ أن أدرك أنني أخّرت الضابط عن عمله مع خريطته ورجاله، لكنّي لم أتوقع إثارة غضبه بهذه الشدة.

صاح بنبرة أصمّت أذني، أنه ذكر لي من قبل ألاّ ينبغي أن أطلب ذلك مرة أخرى، ثم صرخ في بأن أذهب إلى حيث يحملني الشيطان. لم أهتم كثيراً بفكرة أن يحملني الشيطان لإرهاقي الشديد، لكنّي كنت أزال متردداً. إلاّ أنه في تلك الأثناء زادت ثورة الضابط من شدة صراخه، واستدعى بنبرة تهديد شديد أحد رجاله الخمسة الذين كانوا يلتفون حوله، وهو ينادي عليه بالسيد الأونباشي. وأعطى له الأمر بأن يقودني أسفل التل، وأن يراقبني حتى أختفي في الطريق المؤدي إلى جوريتسيا، وأنه إن ترددت في المثول للأمر يجهز عليّ.

ومن ثم هبطت من قمة التل تلك عن طيب خاطر:

- شكراً جزيلاً، قلتها أيضًا دون أي قصد منّي للسخرية.

كان الجندى سلافيًا يتحدث بإيطالية لا بأس بها. أراد أن يظهر صرامته أمام الضابط، ويدفعنى للتقدم أمامه على المنحدر، صاح فى:

– إلى الأمام سر! لكن عندما ابتعدنا قليلاً أصبح لطيفًا ودودًا. سألنى إن كانت لدى أخبار عن الحرب، وعما إذا كان تدخل إيطاليا الوشيك حقيقة. كان ينظر إلىّ فى قلق ويترقب الإجابة.

ومن ثم فحتى الذين يخوضون الحرب لا يعرفون هم أيضًا إن كانت تدور أم لا! أردت إسعاده بقدر المستطاع، وذكرت له الأخبار التى أوهمت بها كذلك والد تريزينا. ثم أثقل ذلك ضميرى. ربما هلك الأشخاص جميعهم الذين طمأنتهم، فى وسط الإعصار البشع الذى اندلع. من يدرى أى تعبير دهشة يمكن أن يعلو وجوههم الجامدة بعد الموت. كان شعورى بالتفاؤل جامحًا. ألم أحس بالحرب فى حديث الضابط أو بالأحرى فى نبرته؟

سرّ الأونباشى كثيرًا، ولكى يكافئنى، نصحنى هو أيضًا ألا أحاول الوصول إلى لوتشينيكو أبدًا. وبعد ما عرفه من أخبارى، أنبأنى بأن التعليمات التى تعوقنى عن العودة إلى منزلى سوف يتم إلغاؤها فى اليوم التالى. لكنه نصحنى فى الوقت ذاته أن أذهب إلى قيادة المنطقة بتريستى، حيث ربما أتمكن من الحصول على تصريح خاص منهم.

– أذهب حتى تريستى؟ سألته فى فزع: إلى تريستى، دون سترة، دون قبعة ودون قهوة بالحليب؟

وحسب ما كان الجندى على علم به، حتى وقت أن كنا نتحدث، فقد كان هناك صف من سلاح المشاة يغلق المعبر إلى إيطاليا، ليخلق على هذا النحو حدوداً جديدة لا يمكن تجاوزها. وأخبرنى بابتسامة صاحب المنزلة الرفيعة أنه يرى أن أقصر طريق يؤدى إلى لوتشينيكو إنما هو الذى يؤدى إلى ما وراء تريستى.

ومن فرط ما سمعت ذلك، استسلمت للفكرة وتوجهت إلى جوريتسيا وأنا أفكر فى أن أستقل قطار الظهيرة للذهاب إلى تريستى. كنت منفعلاً، لكن ينبغى القول بأنّى كنت أشعر بأحسن حال. لم أدخن كثيراً، ولم أتناول الطعام على الإطلاق. أحسست بخفة فى بدنى افتقدتها منذ زمن بعيد. لم يضايقنى قط أن أستأنف السير. كانت ساقاى تؤلماننى بعض الشىء، لكنّى أحسست بأنّى قادر على الاحتمال حتى جوريتسيا، حيث انطلقت أنفاسى منتظمة عميقة. وفى الواقع لم يتعبنى السير، بعد أن أدفأت خطواتى النشيطة ساقى. وعدت إلى تفاؤلى، وأنا أشعر بتحسن صحتى وإيقاع حركة سيرى المرح، السريع. كانوا يصيحون بالتهديدات من هنا ومن هناك، لكنهم ما كانوا ليصلوا إلى حد الحرب. وعلى هذا النحو، عندما وصلت إلى جوريتسيا، ترددت فى جدوى حجز حجرة بالفندق لقضاء الليلة والعودة إلى لوتشينيكو فى اليوم التالى لتقديم شكواى لرئيس القرية.

أسرعت فى الوقت ذاته إلى مكتب البريد للاتصال بأوجوستا. لكن لم يجب أحد علىّ من ڤيللتى.

اقترب منّى الموظف بلحيته الخفيفة وجسمه الصغير وجمود مظهره الذى جعل منه شيئًا مضحكًا عنيداً - هذا ما أذكره عنه وحسب - وقال لى عندما سمعنى أسب فى ثورتى من التليفون الصامت:

- إنها المرة الرابعة التى لا تجيب فيها لوتشينيكو اليوم.

عندما التفت إليه، رأيت عينيه تلمع بشماتة شديدة (أخطأت فى ذلك! وهذا ما زلت أذكره) كانت تلك العين اللامعة تبحث فى عينى إن كنت حقًّا مندهشًا وغاضبًا. كان لا بد أن تمر عشر دقائق كاملة حتى أفهم. حينئذ لم تكن هناك شكوك. دخلت لوتشينيكو أو أوشكت أن تدخل خلال ثوان معدودة فى خط النار. وعندما استوعبت تلك النظرة المعبرة تمامًا كنت فى طريقى إلى المقهى لأتناول فنجان القهوة الذى كنت بحاجة إليه منذ الصباح، فى انتظار الإفطار. غيرت اتجاهى على الفور وذهبت إلى المحطة. كنت أرغب فى أن أكون قريبًا جداً من أسرتى، فاتجهت إلى تريستى، وأنا أتبع تعليمات صديقى الأونباشى.

وفى أثناء رحلتى القصيرة تلك اندلعت الحرب.

وعلى الرغم من أنه كان لدّى بعض الوقت فى محطة جوريتسيا، فإننى لم أتناول فنجان القهوة الذى كنت ألهث وراءه منذ ساعات طويلة، حيث كنت أفكر فى الوصول إلى تريستى بأسرع وقت. صعدت إلى العربة ووجهت تفكيرى إلى أسرتى، بعد أن بقيت وحيداً، وقد انفصلت عنها بطريقة فى غاية الغرابة. انطلق القطار على ما يرام إلى ما بعد مونفالكونى.

كان يبدو أن الحرب لم تمتد بعد إلى هناك. استعدتُ طمأنينة نفسي؛ ظنًا أن الأمور ربما تسير في لوتشينيكو مثلما تسير هنا قبل حدودها. وفي تلك الساعة ستكون أوجوستا قد ارتحلت هي وأولادي داخل إيطاليا. جلبت لي تلك السكينة نومًا عميقًا، فضلاً عن الهدوء الكبير المذهل الذي حمله لي شعوري بالجوع.

من المحتمل أن ما أيقظني هو شعوري بالجوع ذاته. توقف القطار في وسط المنطقة التي نطلق عليها ساسّونية تريستي. لم يظهر البحر على الرغم من أنه كان قريبًا جدًا، لأن ضبابًا خفيفًا كان يعوق رؤيته من بعيد. يتمتع الكارسو بروعة الجمال في شهر مايو، لكن لا يستطيع أن يشعر بها إلا من كان غير معتاد على فصول الربيع الزاخرة بالحياة وبالألوان في أماكن أخرى. فالصخور البارزة هنا في كل مكان محاطة بدرجة من الأخضر الهادئ الذي لا يستهان به؛ لأنه سرعان ما يفرض نفسه على المكان كله ويصبغه.

وقد ثارت ثورتي في ظروف أخرى غضبًا لعدم استطاعتي تناول الطعام وأنا جائع. إلا أنه في ذلك اليوم فإن خطورة الحدث التاريخي الذي عشته، كانت تضغط عليّ وتحملني على الاستسلام. ولم يستطع السائق الذي قدمت له السجائر أن يحضر لي ولو قطعة من الخبز. لم أخبر أحدًا عن تجاربي التي خضتها في الصباح. كنت سوف أتحدث عنها مع أصدقاء حميمين في تريستي. لم تأتِ إليّ أية أصوات معارك من الحدود التي كنت أسترق السمع إليها. توقفنا في ذاك المكان لنسمح

بمرور ثمانية أو تسعة قطارات تندفع نحو إيطاليا. انفتح الجرح المتقيح (حسبما أسرع النمساويون فى إطلاق هذا الاسم على الجبهة الإيطالية) وأخذ يبحث عن مزيد من مادة تغذى تقيحه. وكان أولئك الرجال المساكين يذهبون إليه وهم يتضاحكون ويغنون. وكانت تخرج من تلك القطارات جميعها أصوات البهجة والنشوة ذاتها.

وكان الليل قد انسدل عندما وصلت إلى تريستى.

أخذت حرائق كثيرة تضىء الظلام بوميضها، وعندما رآنى أحد أصدقائى أتوجه إلى بيتى دون سترة صاح فى وجهى:

– أعساك اشتركت فى إحدى عمليات النهب؟

وأخيراً استطعت أن أتناول بعض الطعام واستلقيت فى الحال.

دفع بى إرهاق شديد إلى الفراش. أعتقد أنه نتج عن الآمال والشكوك التى كانت تعصف بذهنى. وظلت فى حالة جيدة جداً وفى أثناء الدقائق القليلة التى تسبق الحلم التى تمرست عليها بجلسات التحليل النفسى فى استبقاء الصور، أتذكر أنّى أنهيت يومى بآخر فكرة طفولية متفائلة: لم يمت أحد بعد على الحدود، وعلى هذا النحو يمكن أن يعود السلام.

الآن وقد علمت أن أسرتى سليمة آمنة، لا أشعر باستياء من الحياة التى أعيشها. ليس لدى الكثير لأقوم به، ولكن هذا لا يعنى أنّى فى حالة خمول. ليس هناك ما يباع أو يشترى. ستنشط التجارة من جديد عندما

يحل السلام. بعث لى أوليڤى ببعض نصائحه من سويسرا . آه لو يعلم كيف أن نصائحه تتعارض مع هذا المناخ الذى تغير تمامًا! وعلى أية حال، فأنا لا أقوم بعمل شىء فى الوقت الراهن.

٢٤ مارس ١٩١٦

منذ شهر يونيو من العام الماضى وأنا لا أمس هذا الكتاب عديم القيمة. وها هو ذا الطبيب "س." يرسل إلىّ من سويسرا ليرجونى أن أبعث إليه كل ما دوّنته فى تلك الفترة. إنه طلب غريب، لكنّى لا أعارض أيضًا فى إرسال كتابى هذا إليه، وسيرى فيه وفى وضوح حكمى عليه وعلى علاجه. وبما أنه يستحوذ على اعترافاتى جميعها، فليأخذ أيضًا هذه الصفحات القليلة، ولا مانع عندى من إضافة أخريات لها، ربما أفادته. فليس لدى من الوقت الكثير؛ لأن تجارتى تشغل يومى بكامله، ولكنّى أرغب أيضًا فى مصارحة السيد الدكتور "س." برأيى فيه. فكرت فى الأمر مليًا وقد تراءت لى الآن الأفكار واضحة تمامًا.

وفى الوقت ذاته سيعتقد أنه يتلقى اعترافات أخرى عن مرضى وضعفى، لكنه سيجد وصفًا لصحة قوية سليمة بالقدر الذى تسمح به سنّى وقد تقدمت بما يكفى. لقد تعافيت! لا أرغب فى ممارسة التحليل النفسى وحسب، بل لست بحاجة إليه على الإطلاق. وصحتى لم أستعدها فقط من شعورى بالتميز وسط العديد من الشهداء. ليس شعورى بالشفاء نتيجة مقارنة بهم. إنّى شفيت تمامًا. كنت أعلم منذ زمن بعيد

أن صحتي ما هي إلاّ إيماني بها، وكانت حماقة جديرة بإنسان حالم متوهم أن أبحث في علاجها بدلاً من الاقتناع بها. لكنّي أعاني من بعض الآلام، وإن كانت تفتقر إلى الأهمية وسط حالتي الصحية العظيمة. أستطيع وضع (لزقة) هنا أو هناك، لكن بقية ما بجسمي يجب أن يتحرك ويقاوم ولا يركن أبداً إلى الخمول، وكأنما أصابته غزغرينة. ومن ثم، إن كان ألم أو حب، فالحياة في مجملها لا يجب أن نعتبرها مرضاً عندما تؤلم.

أقر بأني لكي أقتنع بشفائي تحتم على مصيري أن يتغير ويبعث بالحرارة في جسدي، ويدفعه للصراع لينتهي بالانتصار. إن تجارتي هي التي أبرأتني، وأريد أن يعلم بهذا الطبيب "س.".

وفي حالة من الدهشة والتراخي، جلست أتأمل العالم المضطرب، حتى بداية شهر أغسطس من العام الماضي. بدأت حينئذ في أن أشتري. وأضع خطًا تحت هذا الفعل لما يحمله من معنى أعمق عما كان عليه قبل الحرب. فعلى لسان تاجر في ذلك الحين، كان يعني أنه مستعد لشراء سلعة من السلع. لكنّي عندما استخدمته، أردت القول بأنّي كنت أشتري أية بضاعة تُعرض عليّ. ومثل الأشخاص الأقوياء جميعهم، كانت لدي فكرة واحدة عشت بها، وكانت هي مصدر حظي. كان أوليڤي خارج تريستي، ولكن من المؤكد أنه لم يكن ليسمح بمخاطرة مثل تلك، وربما تركها للآخرين. لكنها على العكس من ذلك لم تكن مخاطرة بالنسبة لي. كنت أعلم عن يقين تام بنتيجتها الحسنة. في بادئ الأمر، وحسب العادة القديمة في زمن الحرب، أخذت أحوِّل كل ثروتي إلى ذهب، على الرغم من

أنه كانت هناك بعض الصعوبات فى عملية شراء أو بيع الذهب. كانت السيولة المتاحة فى ذلك الوقت، - إن صح القول - هى تجارة الذهب؛ لأنه كان أكثر حركة واحتكرت لنفسى البعض منه وأقوم بين الحين والحين بعمليات البيع أيضاً، لكن بنسبة أقل دائماً من عمليات الشراء. ولأنّى بدأت عمليات الشراء فى اللحظة المواتية أثمرت عمليات البيع، حتى أمدتنى بالأموال الكثيرة التى كنت بحاجة إليها فى عمليات الشراء.

أتذكر بفخر كبير أن أول عملية شراء قمت بها كانت بالفعل حماقة منّى فى ظاهرها، وتهدف فقط إلى سرعة تحقيق فكرتى الجديدة: وهى شراء كمية قليلة من اللبان. كان البائع يدّعى بإمكانية استخدام اللبان كمادة بديلة للراتينج، الذى بدأ حينئذ ينقص، ولكنّى بما لى من خبرة كيميائية كنت أعلم عن يقين تام بأن اللبان لا يمكن مطلقًا أن يحل محل الراتينج؛ لأنه مختلف عنه تماماً. وحسبما كنت أرى فالعالم كان يتجه إلى درجة من البؤس تؤدى إلى قبوله اللبان بديلاً للراتينج. واشتريته بالفعل! وبعد أيام قلائل قمت ببيع كمية صغيرة منه وحصلت الثمن اللازم؛ لكى أستحوذ على المخزون كله. وفى اللحظة التى قبضت فيها الأموال تلك انشرح صدرى عند شعورى بقوتى وصحتى.

وعندما يتسلم الطبيب هذا الجزء الأخير من كتابى، لابد أن يعيده إلىّ بكامله. ولسوف أكتبه بوضوح حقيقى، وإلا كيف كان لى أن أفهم حياتى، إن لم أكن أعرف هذا الجزء الأخير منها؟ لعلنى عشت سنوات عديدة لمجرد الإعداد لهذه الفكرة!

من المؤكد أنّى لست ساذَجًا، وألتمس العذر للطبيب أن يرى فى الحياة ذاتها أعراضًا للمرض. فالحياة تشبه المرض إلى حد ما فى سيرها، من خلال أزمات وانفراجات وما يجرى عليها من تحسن وتدهور يومى. وبخلاف الأمراض الأخرى فالحياة دائمًا إلى زوال. لا تحتمل علاجات. كما لو أننا أردنا سد الفتحات فى أجسامنا، حين نحسبها جروحًا. ولسوف نموت من الاختناق ما إن ننتهى من العلاج.

إن الحياة التى نعيشها حاليًا ملوثة من جذورها. فالإنسان قد وضع نفسه محل الأشجار والحيوانات، وتسبب فى تلوث الهواء وإعاقة الفراغ المطلق. وقد يحدث ما هو أسوأ من ذلك. ربما يكتشف الكائن الحزين النشط قوى أخرى ويسخِّرها لخدمته. وهناك فى الجو تهديد من هذا النوع. وسيخلف ذلك تزايداً كبيراً... فى عدد البشر. سيشغل كل إنسان متراً مربعًا. من سيحمينا من نقص الهواء والفراغ؟ إنّى أختنق لمجرد التفكير فى هذا!

ولكن ليس هذا، ليس هذا وحسب.

إن أى جهد لجلب الصحة عبث. وهذه الصحة لا تخص سوى الحيوان الذى لا يعرف إلا تطوراً واحداً، وهو نمو جسده. فمنذ أن أدرك طائر السنونو أنه ليست هناك إمكانية حياة أخرى له تخرج عن نطاق الهجرة، قوّى عضلاته لتحرّك جناحيه حتى أصبحت أهم عضو فى تكوين جسمه. ويلين حيوان الخلْد ويتطوع جسمه كله وَفق حاجته. وكبر حجم الحصان وتطورت حوافره. وهناك حيوانات لا نعلم شيئًا عن تطورها، لكنه حدث بالتأكيد.

أما الإنسان من وراء نظارته يخترع العبوات الناسفة خارج جسده، وإن كانت هناك صحة وأمانة فيمن يخترعها، فهما غالبًا ما تنقصان فيمن يستخدمها. نشترى الأدوات، نبيعها ونسرقها، ويزداد دهاء الإنسان وضعفه أكثر وأكثر، بل إن من المعروف أن دهاءه ينمو بمقدار ضعفه. بدت الأدوات التى ابتدعها فى البداية امتداداً لذراعه وما كان لها من تأثير فعال إلا من خلال قوته. لكن الأداة لم تعد لها الآن أية صلة بهذا الطرف من جسمه. إن الأداة هى التى تخلق المرض عندما تدار الأكتاف للقانون الذى يحكم الأرض جميعها. واختفى قانون الأقوى وفقدنا الاصطفاء الصحى. ربما هناك الحاجة إلى حل آخر غير التحليل النفسى: وحسب القانون القائل بامتلاك أكبر عدد من الأدوات المدمِّرة، سوف تزدهر الأمراض، ويكثر عدد المرضى.

وربما عدنا إلى عالم الصحة عبر كارثة لم نسمع عنها قبلاً، ونتجت عن الأدوات المدمرة. وعندما تصبح الغازات السامة كافية، فسراً وفى حجرة من حجرات هذا العالم، سوف يخترع إنسان مثل الآخرين جميعهم، أدوات تفجيرية لا مثيل لها، وستعد المتفجرات الموجودة حالياً ألعاباً مسالمة مقارنة بها. وسيأتى إنسان آخر، وهو أيضًا مثل بقية الآخرين، لكنه يفوقهم مرضاً، ويسرق هذه العبوة المتفجرة ويتسلق مركز الأرض ليضعها فى مكان يمكن لتأثيرها أن يبلغ منه قمته. ويحدث انفجار ضخم لن يسمعه أحد، وبعدما تعود الأرض إلى هيئة السديم، ستهيم فى السموات خالية من الطفيليات والأمراض.

المؤلف فى سطور :

آرون هيكتور اشميتس (إيتالو زڤيڤو)

- ولد بمدينة تريستى عام ١٨٦١، وتوفِّى فى مستشفى بموتا دى ليفنزا عام ١٩٢٨.
- درس العلوم التجارية، وله معرفة متعمقة بالأدب الألمانى والإيطالى.
- كاتب إيطالى، ومؤلف للعديد من القصص القصيرة والروايات.
- نشر أول رواية له عام ١٨٩٢ تحت اسم إيتالو زڤيڤو.

من أهم أعماله:

- حياة عام ١٨٩٢.
- الشيخوخة عام ١٨٩٨.
- ضمير تزينو عام ١٩٢٣.

- تم تكريمه فى باريس عام ١٩٢٨ من بين العديد من مشاهير الكتاب الأوروبيين.

المترجمة فى سطور :

مروة عبد المنعم عبد الرءوف محمد طنطاوى

- مدرس بقسم اللغة الإيطالية بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- حصلت على ليسانس اللغة الإيطالية وآدابها من كلية الألسن بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف.
- حصلت على ماچيستير فى الأدب الإيطالى عام ١٩٩٥ بتقدير امتياز.
- حصلت على دكتوراه فى الأدب الإيطالى عام ٢٠٠١ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.
- حصلت على دبلومة التدريس من معهد دانتى أليجيرى فى رجو كالابريا عام ١٩٩١.
- هذا بخلاف المنح الدراسية والمهمات العلمية فى بيروچا وروما.

لها أبحاث منها:

- "مشروع بديل ما بين الجنون والمثالية" فى رواية "الماكينة العالمية" للكاتب باولو ڤوليبونى.
- "فكر فلسفى لراعٍ بسيط "فى" أنشودة ليلية لراعٍ هائم من آسيا"للشاعر چاكومو ليوپاردى.
- "بين الواقع والخيال" دراسة نقدية لمجموعة قصص "ماركوڤالدو" للكاتب إيتالو كالڤينو.

المراجعة فى سطور :

سوزان بديع إسكندر

- أستاذ الأدب الإيطالى بقسم اللغة الإيطالية - كلية الألسن - جامعة عين شمس.
- قامت بنشر أبحاث فى الأدب الايطالى، اتخذت شكل مقالات متتالية فى مجلة "الهلال" الأدبية الشهرية.
- ترجمت وراجعت العديد من الأعمال الأدبية الايطالية، منها :

● ترجمة أشعار لفرانشيسكو بتراركا وجوفانى باسكولى وشيزارى بافيزى وأنطونيو بورتا.

● قصص لألبرتو مورافيا واينيو فلا يانو وميكيلى بريسكو.

● نصوص مسرحية للويجى بيرانديللو.

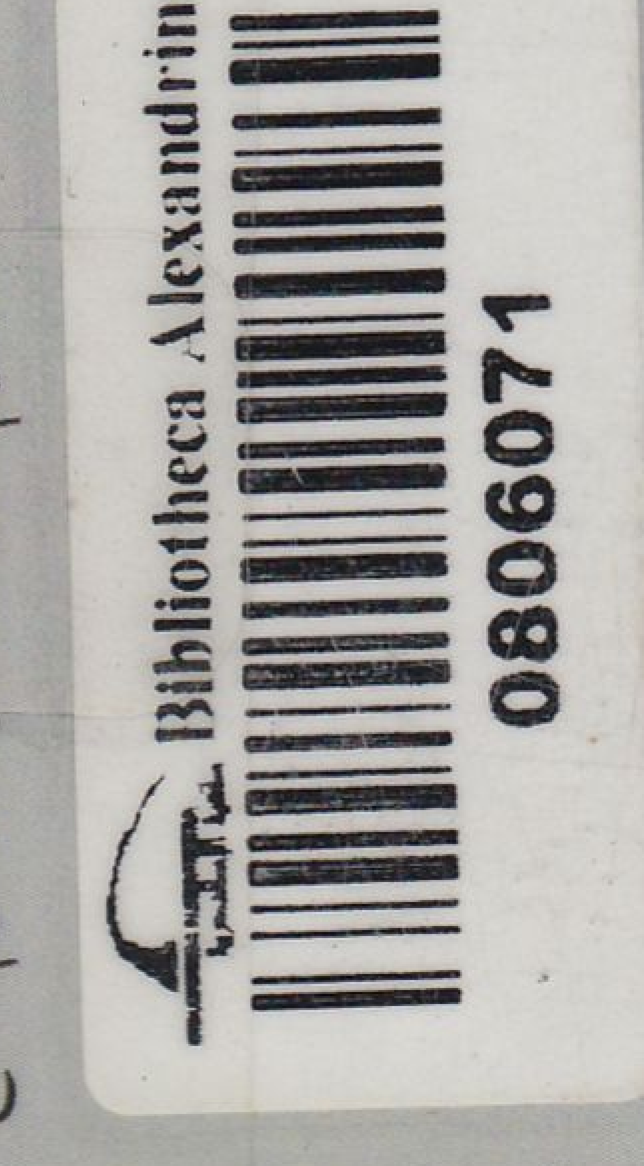
التصحيح اللغوى: نبيل سيد عبد الفتاح
الإشـراف الفنـى: حســـن كـــامــل



أيلزم أن أرى طفولتى؟ إن أكثر من خمسة عقود تفصلنى عنها، وربما تصل إليها عيناى اللتان تعانيان طول النظر إن كان الضوء الذى لا يزال ينيرهما لا تمنعه عقباتٍ من كل نوع، بل جبال حقيقية شاهقة: سنوات عمرى وبضع ساعات.

ما العمل؟ من المحال حماية مهدك، وفى داخلك- أيها الطفل الصغير- تأخذ تركيبة خفية فى التكون. وكل لحظة تمر تلقى فيه بمادة رادة للفعل. هناك احتمالات عديدة للمرض بالنسبة لك لأنه يمكن أن تكون كل لحظاتك نقية. ثم إنك - أيها الصغير- من الدم نفسه لأشخاص أعرفهم. واللحظات التى تمر بها الآن يمكنها أن تكون لحظات نقاء أيضاً.

رواية للكاتب الإيطالى إيتالو زڤيڤو.



تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح